

البوذية

تاريخها وعقائدها وعلاقة الصوفية بها

BUDDHISM

"ITS HISTORY, BELIEFS, AND RELATIONSHIP WITH SUFISM"

تأليف

الدكتور عبد الله مصطفى نومسوك

عضو هيئة التدريس بكلية الدراسات الإسلامية
جامعة الأمير سونكلا فطاني - تايلاند

أضواء السلف

الطبعة الأولى
١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

مكتبة أضواء السلف - لصاحبها علي الحزي
الرياض - شارع سعد بن أبي وقاص - بجوار بنده - ص ب: ١٢١٨٩٢ - الرمز ١١٧١١
ت ٢٣٢١٠٤٥ - محمول ٠٥٥٤٩٤٣٨٥

الموزعون المعتمدون لمنشوراتنا

* المملكة العربية السعودية: مؤسسة الجريسي.
* مصر مكتبة الإمام البخاري بالإسماعيلية.
* مصر: دار السلام - القاهرة - ت ٢٧٤١٥٧٨.
* باقي الدول: دار ابن حزم - بيروت - ت ٧٠١٩٧٤.

أصل هذا الكتاب رسالة « ماجستير » نوقشت في قسم الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة وتكونت لجنة المناقشة من :

الأستاذ الدكتور / محمد ضياء الرحمن الأعظمي مشرفًا .

والدكتور / علي عبد اللطيف منصور مناقشًا .

والدكتور / فتح الرحمن محمد عمر مناقشًا .

وقد نال صاحبها درجة الماجستير في العقيدة بتقدير ممتاز وكان ذلك في ٧/ ٥/ ١٤٠٧هـ .

٦ ـ فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الفصل الثالث
العقائد في البوذية

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الفصل الخامس

المذاهب في البوذية وانتشارها في الأقطار

الموضوع	الصفحة

الفصل الثالث

علاقة الصوفية بالبوذية في العادات والتقاليد

٧ ـ فهرس الخرائط



شكــر وتقــديـــر

الحمد لله على توفيقه وإحسانه ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

وبعد : فاعترافًا بالفضل لأهله ، وعملاً بالأدب الإسلامي ، أتقدم بخالص شكري وعظيم تقديري لأستاذي الفاضل ، فضيلة الدكتور محمد ضياء الرحمن الأعظمي الذي تولى الإشراف على هذه الرسالة والذي لم يكن مطلعًا على الديانة الهندية فحسب ، بل عاش فيها فترة من حياته ، ثم هداه اللّه إلى الإسلام ؛ فكان لخبرته الطويلة ، ومراسه المتواصل في هذا المضمار أكبر الأثر في إنجاز هذه الرسالة وكان ـ حفظه الله ـ لم يدّخر جهداً في إبداء توجيهاته القيمة ، وملاحظاته السديدة ، ورعايته المخلصة ، وقد فتح لي صدره الرحب ، ومنحني من وقته الكثير ، مما جعلني أستسهل المصاعب التي صادفتني أثناء السير فجزاه الله عني خير الجزاء ، وبارك في أيامه ، وأطال له العمر في العمل الصالح ونفع به أبناء المسلمين .

كما أتقدم بجزيل شكري وتقديري لجميع القائمين على قسم الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية ، لما لاقيته منهم من صدق وإخلاص، ورحابة صدر ، وأخص منهم فضيلة رئيس القسم الشيخ عبد الله بن محمد الغنيمان الذي شجّعني على اختيار هذا الموضوع ويسّر لي الطريق في الإتيان بالمراجع من الخارج .

وأشكر القائمين على الجامعة الإسلامية عمومًا ، وعلى رأسهم معالي رئيس الجامعة الأستاذ الدكتور عبد الله صالح العبيد لما يبذلونه في سبيل الدعوة

الإسلامية ، ورفع راية كلمة التوحيد بإعداد العلماء ، وما يقدّمونه لطلبة العلم خاصة ؛ فجزاهم الله عني خير الجزاء .

كما لا يفوتني أن أسجل شكري لجميع زملائي الذين ساعدوني وأسهموا في إنجاز هذه الرسالة ، ضارعًا إلى الله عز وجل أن يثيبهم أحسن الجزاء ، إنه سميع مجيب .

وما توفيقي إلا بالله ، هو ربي لا إله إلا هو ، عليه توكلت وإليه متاب .

* * *

مقدمة

وتشمـــــل :

١- أهميـــة الموضـــوع .

٢- أســباب اختيـار الموضــــوع .

٣- خـطـــة البحـــث .

٤- منهـــجي في البحــــث .

٥- المشكلات التى واجهتني خلال البحث .

٦- التعريـف بالكتـب البوذيـــة التي اعتمدت عليـهـا في هـذا البحث .

٧- دليل المصطلحات البوذية في هذا البحث .



مقدمة

إن الحمد لله نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونستهديه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ ، أما بعد .

فإن التدين فطرة إنسانية لا يخلو منها إنسان بدائيًا كان أم حضاريًا وسواء كانت ديانته صحيحة أو باطلة ، وإن أصل التدين هو الحق ، أي عبادة الإله الواحد ، ثم الانحراف والردة إلى عبادة مظاهر الطبيعة وقواها ، وإلى عبادة الرجال والأبطال وأرواحهم ، وما شابه ذلك .

وقد أشار القرآن الكريم إلى أن الناس جميعًا كانوا على التوحيد ، ثم انحرفوا على طول العهد ، واختلفوا ، فعبدوا آلهة مختلفة ، وصاروا مشركين . فبعث الله إليهم النبيين .

وقال تعالى : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾[1] .

قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ﴾[2] .

---

(١) البقرة : (٢١٣) .

(٢) يونس (١٩) . روى ابن جرير بسنده عن ابن عباس - رضي اللّه عنهما - قال : كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث اللّه النبيين مبشرين ومنذرين ، وروى أيضًا عن قتادة في قوله تعالى : كان الناس أمة واحدة . قال : كانوا على هدى جميعًا (فاختلفوا فعث اللّه النبيين مبشرين ومنذرين) فكان أول نبي نوحًا ، وهكذا قال مجاهد .
(انظر : « تفسير الطبري » (٢/ ٣٣٤ ، ٣٣٥) و« تفسير ابن كثير » (١/ ٣٦٤ ، ٣٦٥) ط دار الشعب القاهرة) .

وقد سجّلت في تاريخ البشرية انحرافات كثيرة تتمثل في الفرق ، والمذاهب ، والديانات ، ومنها البوذية التي نحن بصددها في هذا البحث .

وفي هذه المقدمة سأتحدّث عن الأمور الآتية :

أولاً : أهمية الموضوع .

ثانيـــــاً : أسباب اختيار الموضوع .

ثالثـــــاً : منهجي في هذا البحث .

رابعـــاً : خطة البحث

خامســاً : المشكلات التي واجهتني خلال البحث .

سادســاً : التعريف بالكتب البوذية التي اعتمدت عليها في هذا البحث .

سابعـــاً : دليل المصطحات البوذية في هذا البحث .

أولاً : أهميـــة الموضـــوع :

وتتبين أهميه هذا الموضوع من خلال الأمور الآتية :

١ـ إن دراسة الأديان من المهام الأساسية التي تناط بعلماء الإسلام ودعاته، فالإسلام دين دعوة ، ودعوة الإسلام دعوة عالمية لا تنحصر ببلد دون بلد ، ولا تقتصر على قطر دون قطر ، ورسوله قد بعث للناس كافة .

قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾[1] .

وقد أمرنا الله سبحانه وتعالى أن ندعو الناس إلى دينه بالحكمة فقال

(١) سبأ (٢٨) .

تعالىٰ : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾[١] .

ولا يخفىٰ أن دعوة الناس إلىٰ الله بالحكمة تحتاج احتياجًا واسعًا إلىٰ المعرفة بالأديان التي يعتنقونها ، والاطلاع الواسع عليها ، والوقوف علىٰ عيوبها ، ومتناقضاتها ، ومواضع ضعفها ، ليتمكن دعاة الإسلام من مجادلتهم بالحجة ، وإرشادهم إلىٰ الحق ، وصدهم عن الباطل .

٢ـ إن الديانة البوذية ليس أقل أهمية بدراستها من غيرها من الديانات ، إنها وإن كانت أرضية غير منزلة ، إلا أنها تعدّ من أكثر الديانات أتباعًا في العالم بعد النصرانية والإسلام .

تقول أحدث الإحصائيات : إن عدد البوذيين في العالم بلغ (٥٥٠ ، ٨٦٧ ، ٥٥٤) مليون نسمة[٢] وأكثرهم ينتشرون في بلاد شرقي آسيا ، لأن البوذية تسود هذه البلاد كلها ، ما عدا إندونيسيا ، وماليزيا ، وفلبين[٣] .

والبوذية الآن بدأت تنتشر في بلاد أوربا ، وأمريكا الجنوبية والشمالية ، وأستراليا ، واعتنقها كثير من هؤلاء الناس كردود فعل من حياتهم المادية .

وهذا أمر يجب أن يتنبه له المسلمون عامة ، والدعاة إلىٰ دين الله خاصة .

ومن ناحية أخرىٰ قام المبشرون الغربيون بدراسة هذه الديانة دراسة مستفيضة[٤] واهتمّوا بها اهتمامًا شديدًا ، لتكون وسيلة لهم للتبشير بالنصرانية في

---

(١) النحل : (١٢٥) .

(٢) إحصائية من رابطة العالم البوذي بسيلان سنة (١٩٨٣م) .
المرجع : Buddhism in siam : D . r srijandhara P . 133 .

(٣) يسود الإسلام في اندونسيا وماليزيا . أما فلبين فالنصرانية هي الديانة الرسمية لها .

(٤) وقد كثرت مؤلفاتهم وأبحاثهم في البوذية ، ويستند عليها معظم الكتاب والباحثين في الأديان من المسلمين وغيرهم . وأذكر علىٰ سبيل المثال :

1) The Buddhist Philosophy : G . f Allen .

= 2) The Life of Buddha as Legend and history : Edward thomas .

تلك البلاد ، وقد نجحوا نجاحًا كبيرًا في تبشيرهم .

أما نحن المسلمين فما زلنا في حاجة إلى التعرف على هذه الديانة ، وما زلنا في حاجة إلى أبحاث تبين حقيقتها ، لأن المكتبة الإسلامية بصفة عامة ، والعربية بصفة خاصة ، لم تعرف بعد الكافي من الكتب والأبحاث في هذا المجال ، إنها تستند غالبًا على ما يقدّمه المستشرقون ، وعلى ما تقدّمه بعض اللغات الأجنبية .

٣ـ كما أن دعوة غير المسلمين إلى الإسلام واجب ، كذلك فإن تنقية الإسلام مما ليس منه من أهم الواجبات ، وعلى هذا فإني في هذا البحث لم أعرض البوذية كدين من الأديان فقط ، بل عرضتها أيضًا كمصدر هام من مصادر الصوفية المنحرفة في الإسلام .

فقد أثبت التاريخ أن الأديان الهندية بصفة عامة ، والبوذية بصفة خاصة ، قد تلاقت مع الثقافة الإسلامية منذ عهد مبكر ، وقد انتشرت الثقافة البوذية الهندية قبل الفتح الإسلامي في بلاد الفرس وبلاد آسيا الوسطى مما يلي الحدود الهندية ، وكانت مدينة بلخ وخراسان ، وسمرقند ، وقندهار (أفغنستان) قبل الفتح الإسلامي من أهم مراكز التصوف البوذي ، ومركزًا لكثير من الأديرة البوذية القديمة ، وكان لهذا التصوف البوذي الهندي أثره في بعض جوانب الصوفية من المسلمين ، وبخاصة فيما يتعلق بالطقوس الدينية والرياضات النفسية ، وأساليب مجاهدة النفس ، أو بتعبير مختصر فيما يتعلق بالرهبانيات .

=

3) The history of Buddhist thought : Edward thomas .
4) Buddhism (E . D) : Richard cord .
5) Buddhism as a Religion : hagmann .
6) Buddihsm : C . Humphrey .

ومن الكتب التي ترجمت إلى العربية . « حضارات الهند » لغوستاف لوبون ، و« قصة الحضارة» لولديورانت .

وقد اكتشفت من خلال البحث هذه الجوانب ، وعرضتها مفصلاً في هذا البحث ، ليتبين أن هذه الجوانب الصوفية ليست من الإسلام في شيء ، وإنما هي من أصول البوذية القديمة ، استوردها الصوفيون وتناقلوها فيما بينهم .

وخلاصة الكلام : أن هذا البحث يخدم الدعوة الإسلامية ـ بإذن الله ـ في ناحيتين :

١ـ في التعريف بالبوذية ـ إحدىٰ الديانات العالمية ـ التي يعتنقها أكثر من خمسمائة مليون نسمة ، والتي لا يستغني عن معرفتها كل من يتصدىٰ للدعوة إلىٰ الإسلام والتبشير به .

٢ـ في إزالة ما نسب إلىٰ الدين الإسلامي الصحيح من أوشاب الصوفية المنحرفة ، وردّه إلىٰ أصله .

ثانياً : أسباب اختيار هذا الموضوع :

وكان من أهم الأسباب التي دفعتني إلىٰ اختيار هذا الموضوع ما يلي :

١ـ قلة وجود الكتب التي تتحدث عن الديانة البوذية في مكتبتنا العربية . نعم إن هناك كتبًا باللغة العربية عن الديانات الهندية[1] ومنها البوذية . مثل كتاب : «أديان الهند الكبرىٰ» للدكتور أحمد شلبي ، و« الفلسفة الشرقية » للدكتور محمد غلاب ، و« الفلسفات الهندية » للدكتور علي زيعور . غير أن هذه الكتب وأمثالها عندما تعرضت للبوذية لم تعتمد علىٰ مصادرها الأصلية ، بل تعتمد غالبًا علىٰ كتب المستشرقين الغربيين ، ومن المعروف أن الرجوع إلىٰ كتب

---

(١) ولعل من أحسن ما كتب عن أديان الهند وفلسفاتها عمومًا كتاب البيروني في « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة » . للمؤرّخ المسلم الكبير أبي الريحان محمد بن أحمد البيروني المتوفىٰ (٤٤٠ هـ ـ ١٠٤٨ م) . غير أنه لم يتعرض في كتابه هذا للديانة البوذية إلا في مواضع قليلة جدًا باسم « الشمنية » أو أصحاب البدّ ، والسبب في ذلك أن البوذية قد زالت تمامًا من الهند في الفترة التي عاش فيها البيروني بل قبلها بقرون وشقت طريقها إلىٰ الخارج . كما سنعلم ذلك من خلال هذا البحث .

أصحاب النحلة أولىٰ علميًا وأوثق من الرجوع إلىٰ كتب المستشرقين ، وشتان ما بين باحث يفهم ويستنتج ، وعالم متخصص في نحلته ، يقدمها بعقله ، ومشاعره، وتصوراته .

كما أنها لم تتعرض لبعض النواحي الهامة في البوذية وهي الرهبانية ، وسلكت معظمها مسلك العرض والمقارنة دون النقد والتفنيد .

وهناك كتب أخرىٰ ألفت في الأديان عامة ، ومع قلتها في مكتبتنا العربية فإنها لم تتعرض للبوذية إلا في صفحات تعدّ بالأصابع ، لا تكفي في إعطاء صورة واضحة عن هذه الديانة الكبيرة .

٢ـ حاجة الدعاة إلىٰ التعرف علىٰ البوذية ، وبخاصة الذين يتصدون لنشر الإسلام والتبشير به في بلاد شرقي آسيا التي انتشرت فيها هذه الديانة . ليتمكنوا من مجادلة القوم بالحجة في بطلان دينهم ، ودعوتهم إلىٰ الحق بسهولة .

٣ـ رغبتي في دراسة الأديان ، بغية الاطلاع والوقوف علىٰ تاريخها وعقائدها ، ومعرفة نقائصها ، وعيوبها ، ومفاسدها وأباطيلها ، من باب معرفة الشرّ لتوقيه ، ولمجادلة القوم بالحجة في بطلان دينهم امتثالاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[1] حيث إن منازلة العقائد والأديان الأخرىٰ تعود بالفائدة علينا ، فمن الظلام نعرف قيمة النور ، ومن الباطل نعرف قيمة الحق . ولذلك قال الأقدمون : وبضدّها تتميز الأشياء .

وقد كان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ حريصًا علىٰ تعريف الجاهلية للناس ـ لا لأن تعريف الجاهلية دين ـ بل لأن تعاليم الإسلام وبراهينه إنما تتألق وتزدهر إذا عرفت الظلمات والمظالم التي جاء هذا الدين لتبديدها ومحو شاراتها .

قال عمر ـ رضي الله عنه ـ : « إنما تنحل عرىٰ الإسلام عروة عروة إذا عاش

(١) النحل (١٢٥) .

في الإسلام من لا يعرف الجاهلية »[١] .

٤ـ رغبتي في إزالة شبهة كبيرة في هذا الموضوع ، ألا وهي شبهة نبّوة بوذا . فهناك كثير من الباحثين المعاصرين من المسلمين وغيرهم كانوا يعجبون ببوذا ونحلته البوذية ، بعضهم يكتب في حصول بوذا على الإشراق ، بحيث يقر به من مفهوم الوحي في الأديان السماوية[٢] وآخرون يرون فيه نبيًا لم يرد ذكره في القرآن الكريم[٣] مستندين على آية :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ [٤] .

فاخترت هذا الموضوع لإزالة هذه الشبهة ، ولبيان أن مذهب البوذية خرافة قائمة على الأهواء والظنون ، وأن مبادئها وتعاليمها معادية للطبع البشري ، وأنه لا شيء فيها يسمن ولا يغني من جوع .

٥ـ من خلال دراستي للبوذية تبين لي أن هناك لقاءً بينها وبين مذهب الصوفية في الإسلام في جوانب عديدة ، فاخترت هذا الموضوع لأبرز هذه الجوانب ، ولأثبت أن البوذية مصدر هام لم يقلّ أهمية من مصادر أخرى في بناء هذا المذهب .

ومما يجدر بي أن أذكره في هذا الصدد أن صلتي بدراسة البوذية صلة قديمة ، منذ أن كنت في المدارس الابتدائية والمتوسطة في تايلاند ، فإن مادة «الديانة البوذية» وكذلك اللغة البالية تعتبر من المواد الإجبارية في جميع

---

(١) انظر « الاتجاهات الفكرية المعاصرة وموقف الإسلام منها » للدكتور جمعة الخولي (ص٧) .

(٢) انظر على سبيل المثال

Buddhism as a religion . by Hagmann . P , P30 , 31 .

and The histitory of the world : Renesedillt . P 62 .

(٣) انظر على سبيل المثال « الفلسفات الهندية » للدكتور علي زيعور (٢٣٣) و« الصلب والفداء» للدكتور محمد توفيق صدقي (١٥٨ـ ١٦٠) .

(٤) غافر (٧٨) .

المدارس الحكومية هناك ، وكانت صلتي بأصحاب هذه الديانة أوثق عندما أجبرتني الدولة على الدخول في الجيش لمدة سنتين (من عام ١٩٧٤ - ١٩٧٦ م) فهناك عشت معهم ودرست ديانتهم .

ثالثًا : خطة البحث

يشتمل هذا البحث على : مقدمة ، وتمهيد ، وبابين ، وخاتمة .

* **أما المقدمة** فقـــد اشـــتملت على أهميـــة الموضـــوع ، والأسباب التي حملتني على اختيـاره ، وخطة البحث ، والمنهج الذي سلكت فيه ، والمشكلات التي واجهتني خلاله ، والتعريف بالكتب البوذية المعتمد عليها في هذا البحث . كما اشتملت أيضًا على دليل المصطلحات البوذية التي وضعتها تيسيرًا للقارئ في الرجوع إليها .

* **وأما باب التمهيد** فقد اشتمل على فصلين :

الفصل الأول : البيئة التي ظهر فيها بوذا ، وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : نبذة عن شبه القارة الهندية .

المبحث الثاني : حالة الحكم والسياسة في عصر بوذا .

المبحث الثالث : الحالة الاجتماعية في عصر بوذا .

الفصل الثاني : عناصر الديانة الهندية في عصر بوذا ، وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : عبادة الآلهة من مظاهر الطبيعة .

المبحث الثاني : عبادة الآلهة من الحيوانات وأرواح الأجداد .

المبحث الثالث : الاعتماد على التأمل الذاتي ، والرياضة النفسية .

* **وأما الباب الأول** .فقد خصصته للحديث عن بوذا ومذهب البوذية وقسمته إلى خمسة فصول :

الفصل الأول : بيت بوذا وحياته ، وفيه خمسة مباحث .

المبحـــــث الأول : نسبه وولادته .

المبحث الثـــاني : نشأته واتجاهه .

المبحث الثـــالث : حياته التقشفية .

المبحث الرابـــع : استنارته المزعومة .

المبحث الخامس : وفاته .

الفصل الثاني : الفلسفة البوذية وأخلاقها ، وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : الحقائق السامية الأربع .

المبحث الثاني : إنكار الذات .

المبحث الثالث : الأخلاق في البوذية .

الفصل الثالث : العقائد في البوذية ، وفيه أربعة مباحث :

المبحث الأول : قضية الألوهية عند بوذا وأتباعه .

المبحث الثاني : « كارما » (Karma) أو قانون الجزاء .

المبحث الثالث : « سمسارا » (Samsara) أو تناسخ الأرواح .

المبحث الرابع : « نرفانا » (Nirvana) أو الفناء والخمود البارد.

الفصل الرابع :الرهبنة في البوذية ، وفيه ستة مباحث :

المبحث الأول : تعريف الرهبنة البوذية ونشأتها .

المبحث الثاني : الموازنة بين الرهبنة البوذية والرهبنة النصرانية .

المبحث الثالث : نماذج من التقاليد والخصائص والنظم والآداب في الرهبنة البوذية .

المبحث الرابـــع : القديسون وعبادتهم .

المبحث الخامس : بيان ما في الرهبنة البوذية من فساد .

المبحث الســادس : موقف الإسلام من الرهبنة .

الفصل الخامــس : الفرق والمذاهب في البــوذيـــة وانتشــارها في الأقطار، وفيه مبحثان :

المبحث الأول : الفرق والمذاهب في البوذية .

المبحث الثاني : انتشار البوذية في الأقطار .

* **وأمـــا الباب الثاني** :فقـد خصصتـه للحديث عن الصوفيـــة وعلاقتـها بالبوذية ، وقسمته إلى ثلاثة فصول :

الفصل الأول : التعريف بالصوفية ، وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : تعريف الصوفية وسبب تسميتها .

المبحث الثاني : موجز عن نشأتها وتطورها .

المبحث الثالث : البوذيـــة مصــدر من مصـادر الصوفيـة والأدلة على ذلك .

الفصل الثاني : علاقة الصوفيــــة بالبوذيـة في العقائــد والأخـلاق ، وفيـه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : في الفناء .

المبحث الثاني : في الطريق إلى الفناء .

المبحــث الثالث : في الحلول .

الفصل الثالث : علاقــة الصوفيـــة بالبوذيـة في العبادات والتقاليــد ، وفيه خمسة مباحث :

المبــحــث الأول : في لبس الخرقة والمرقعة .

المبحث الثـــاني : في اتخاذ الشيخ .

المبحث الثـالث : في ملازمة الرباط .

المبحث الرابـع : في السياحة .

المبحث الخامس : في التسوّل وترك العمل .

* **وأما الخاتـــمـــــة** : فقد تنـاولت فيها أهـم التنائج التي توصـلت إليهـا في هــذا البحث .

رابعًا : منهجي في هذا البحث :

أما المنهج الذي سلكته في إعداد هذا البحث فهو كالآتي :

١ـ فيما يتعلق بمصادر البوذية رجعت إلىٰ الكتب الأساسية التي كتبها علماء البوذيين أنفسهم ، وبخاصة كتاب « تري بيتاكا » (Tri Pitaka) الذي هو بمكانة الأناجيل عند النصارىٰ ، ومن المعروف أن النقل من أصحاب النحلة أولىٰ علميًا ، وأوثق من النقل عن غيرهم .

وما ذكرته من نصوص هذا الكتاب يمثل أمثلة يسيرة لما هو موجود فيه ، والقادر علىٰ قراءة هذا الكتاب يرىٰ فيه غرائب وعجائب .

ومثل هذا عملت فيما يتعلق بمصادر الصوفية ، حيث حاولت قدر المستطاع النقول من الكتب المعتمدة عند القوم ؛ بل إن غالب ما رجعت إليه هي كتبهم الأمهات التي تعتبر مراجع أساسية لهذه الفرقة .

٢ـ ترجمت النصوص البوذية ترجمة تفصيليّة ، إلاّ في حالات النزر ، فاختصرتها وترجمتها ترجمة إجماليّة ، مراعيًا المعنىٰ المراد منها ولا سيّما إذا كانت النصوص طويلة ومستطردة .

٣ـ أكثرت أحيانًا إيراد النصوص البوذية ، ولا أعتقد أن أحدًا يؤاخذ عليّ في هذا ، لأني أرىٰ أن القراء ـ وبخاصة العرب ـ قد لا يصلون إلىٰ هذه المعاني بسهولة .

٤ـ عرضت البوذية في هذا البحث حسب مذهبها القديم الذي له صلة وثيقة ببوذية بوذا ، وأشرت إلىٰ مذهبها الجديد في بعض القضايا الهامة .

٥ـ تعرضت للبوذية بالتفصيل من حيث تاريخها ، ومذاهبها وفلسفاتها ، وأخلاقها ، وعقائدها ، ورهبانياتها ، ثم تعرضت للصوفية في بعض جوانبها التي لها علاقة بالبوذية .

٦ـ استشهدت أحيانًا بالمشاهدات التي شاهدتها في تايلاند وفي بعض

الدول البوذية المجاورة .

٧ـ سلكت في هذا البحث مسلك النقد والتفنيد ، فلم أكتف بعرض الموضوع ، بل أعقب عليه بنقده ، وإبراز ميزة الإسلام فيه وإن كان الإسلام لا يحتاج إلىٰ هذا .

٨ ـ أستأنست في الحديث عن الصوفية أحيانًا ببعض آراء المستشرقين ـ لا احتجاجًا به ـ وإنما لبيان أن الحق قد أدركه هؤلاء أيضًا علىٰ عداوتهم .

ولا أعتقد أن أحدًا يلومني في الأخذ بجوانب الحقيقة أنىٰ وجدتها من فم مسلم ، أو عالم ، أو باحث ، أو مستشرق ، لأن في ترك النتائج الصحيحة جمودًا فكريًا وعقليًا وروحيًا في جميع الميادين .

٩ـ علقت في الهامش أحيانًا علىٰ ما رأيت أنه يحتاج إلىٰ تعليق من الألفاظ أو المعاني .

١٠ـ أشرت في الهامش إلىٰ سورة الآيات القرآنية وأرقامها .

١١ـ خرّجت الأحاديث من كتب السنة ، وحاولت ـ علىٰ قدر المستطاع ـ ذكر ما حكم به العلماء المتخصصون عليها ما لم يكن الحديث في أحد الصحيحين .

١٢ـ ترجمت لمن رأيت أنه يحتاج إلىٰ ترجمة من الأعلام والأشخاص غير أن هناك بعض الأشخاص ورد ذكرهم في قصة حياة بوذا ، ولم أقف علىٰ ترجمتهم في أي كتاب من كتب البوذية التي بين أيدينا ، أمثال الملوك ، وبعض أصحاب بوذا .

١٣ـ عرّفت المدن والبلدان التي وردت في تاريخ البوذية بالخرائط . وتشمل : خريطة الهند القديمة ، وخريطة المدن التي تجوّل فيها بوذا ، وخريطة بلاد السند ، وآسيا الوسطىٰ والفرس التي انتشرت فيها البوذية قبل الإسلام ، وخريطة البلدان التي تنتشر فيها البوذية في وقتنا الحاضر .

١٤ـ عرّفت في المقدّمة الكتاب المقدّس لدىٰ البوذيين ، من حيث مكانته عندهم ، وتاريخ تدوينه ، ولغته ، ومحتوياته ، والتعديلات التي لحقت به ، وما إلىٰ ذلك .

وعرّفت الكتب البوذية الأخرىٰ التي اعتمدت عليها في هذا البحث . كما وضعت قوائم للمصطلحات البوذية الغريبة ومعانيها ، مرتبة علىٰ حروف الهجاء ، ليرجع إليها القارئ ويستفيد منها بسهولة .

١٥ـ قمت بوضع فهارس متنوعة لهذا البحث . ليسهل الانتفاع به والاستفادة منه .

وهي تشمل : فهارس الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، والأعلام والأشخاص ، والبلدان والأماكن ، والمراجع ، والموضوعات ، والخرائط .

خامساً : المشكلات التي واجهتني أثناء كتابة البحث

وقد واجهتني خلال كتابة هذه الرسالة مشكلات كثيرة ، أهمّها قلة المراجع العربية في هذا الموضوع ، مما اضطرّني إلىٰ ترجمة المواد العلمية من الكتب البوذيـة التي تنتمي إلىٰ ثلاث لغات ، وهي : التايلاندية ، والبالية ، والإنجليزية .

وقد واجهتني صعوبات كثيرة في الترجمة ، وبخاصة ترجمة النصوص من كتاب « تري بيتاكا » المقدس عند القوم ، لأن هذا الكتاب مع ضخمه واستطراده مليء بالكلمات الغريبة والمصطلحات المعقدة .

وقد تغلّبت علىٰ هذه الصعوبات ـ بحمد الله ـ باللجوء إلىٰ بعض الكتب التي اعتنت بجمع هذه الكلمات والمصطلحات وبيان معانيها .

سادساً : التعريف بالكتب البوذية التي اعتمدت عليها فى هذا البحث.

١ـ « ترى بيتاكا » (Tri Pitaka) الكتاب المقدس لدي البوذيين :

إن الحديث عن هذا الكتاب حديث طويل جداً ، وقد اختصرته هنا في العناصر الآتية :

أ ـ مكانته عند البوذيين :

يعتبر كتاب « تري بيتاكا » (Tri Pitaka) أهمّ الكتب البوذية كلّها ، لأنه يتضمن النصوص الدينية التي جمعتها المجامع البوذية المختلفة طيلة قرون طويلة .

وهذه النصوص إما تكون عبارات منسوبة إلىٰ بوذا ، أو حكاية لأفعاله ، أو نقل ما

أقرّه من أعمال أتباعه، أو غير ذلك من الحكايات والأساطير البوذية القديمة .

والبوذيوّن يقدّسونه كما يقدّس الهندوس كتابهم « الفيدا »[١] وكما يقدّس النصارىٰ الأناجيل ، غير أن البوذيين لا يدّعون أن كتابهم منزّل ، ولا ينسبون ما فيه إلىٰ جانب إلهي ، بل ينسبونه إلىٰ بوذا نفسه وإلىٰ أتباعه الأولين .

وهذا الكتاب هو المعتمد والمعوّل عليه عند البوذيين قديمًا وحديثًا .

ب ـ تاريخ تدوينه :

اتفقت الروايات البوذية علىٰ أن الكتاب « تري بيتاكا » لم يدوّن في عصر بوذا ، وأن تدوينه كان بعد وفاته بقرون طويلة .

واختلف العلماء البوذيون في تحديد وقت تدوينه .

فقال بعضهم : إنه بعد وفاة بوذا بخمسمائة سنة[٢] وقال البعض الآخر : إنه بعد وفاته بأربعمائة سنة ، وقال الثالث : إنه تم في سنة (٨٠ ق م) ، وقال الرابع : وهو المشهور : إنه تمّ في عهد الملك « أشوكا » (Ashoka) فيما بين

---

(١) « الفيدا » (Veda) كلمة سنسكريتية ، معناها : الحكمة والمعرفة . وهي عبارة عن الأسفار المقدسة القديمة عند الهندوس ، وقد ذهب بعض الباحثين إلىٰ أن هذه الأسفار ترجع إلىٰ ما قبل الميلاد بثلاثة آلاف سنة ، والمحقق أنها أقدم من التوراة ، وعلىٰ أي حال فإن هذه الأسفار لم يعرف بالضبط واضعها وعصر تدوينها ، وأقصىٰ ما تأكد لديهم أن الكتاب كان موجوداً في القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، وأنه كان مع الفاتحين الآريين ، ويقول جماهيرهم إنه كتاب معجز لا يستطيع البشر الإتيان بمثله لأنه نزل من السماء .

والفيدا عبارة عن أربعة كتب دينية هي :

١ـ الريج فيدا (Rig Veda) أي معرفة ترانيم الثناء .

٢ـ ياجورفيدا (Yajur Veda) أي معرفة الصيغ الخاصة بالقرابين .

٣ـ سامافيدا (Sama Veda) أي معرفة الأنغام .

٤ـ آتارفيدا (Athar Veda) أي معرفة الرقىٰ السحرية .

المراجع : « تاريخ الأديان » (٣٠٧) (بالتايلاندية) ، و« قصة الحضارة » لول ديورانت (٣/ ٣٨) وما بعدها ، و«أديان الهند الكبرىٰ» للدكتور أحمد شلبي (٤١ ـ ٤٥) و« الفلسفة الشرقية » للدكتور محمد غلاب (٩٢ ـ ٩٣) .

(٢) انظر « أصول البوذية » (٧٤) .

(٢٧٣ - ٢٣٢ ق م)[1] .

وفي مقدمة الكتاب « تري بيتاكا » الذي بين أيدينا تفصيل دقيق عن تدوين الكتاب يمكن أن أعتمد عليه في هذا البيان والتعريف .

فقد جاء في هذه المقدمة أن بوذا لم يدوّن شيئًا إبّان حياته المديدة ، وأن أتباعه هم الذين حفظوا عنه أحاديثه ، وخطبه ، وأمثاله ، ولكن بعد وفاة بوذا وقع الخلاف الشديد بين أتباعه ، فذهب كل منهم في تأويل عبارات بوذا مذهبًا خاصًا يلائم ظروفه وأحواله الشخصية ، فارتاع المخلصون من أنصار هذه الديانة ارتياعًا شديداً من هذا الخلاف ، وطلبوا عقد مجمع ديني من خاصّة البوذية ليتولّوا الفصل في أسباب الخلاف[2] ، وانعقد هذا المجمع ولم يكن المجمع الوحيد ، بل توالت المجامع الكثيرة التي اهتمّت بتقميش روايات بوذا وتدوينها ، ومن خلال هذه المجامع المختلفة دوّنت رواياته ، وأطلقوا عليها «تري بيتاكا» (Tri Pitaka) وهي مركبة من كلمتين : « تري » (Tri) ومعناها ثلاثة ، و«بيتاكا» (Pitaka) ومعناها سلّة ، فكلمة « تري بيتاكا » أي ثلاث سلات .

والسبب في هذه التسمية أنهم قسّموا الكتاب إلى ثلاث مجموعات : فينايا (Vinaya) ، وسوتا (Sutta) ، وأبيدارما (Abhidharma) كما سيأتي . وشبّهوها بالسلّة التي يجمعون فيها بضائعهم ، ويعنون بها تعاليم بوذا[3] .

جـ - المجامــع البوذيــة التى عقــدت لتــدوين « تــري بيــتاكـا » .

المجمع الأول : عقده خمسمائة قدّيس (Arhat) في مدينة «راجا غريها»

---

(١) انظر « تاريخ الأديان » (٢٥٩) و« تاريخ الفلسفة البوذية وتطورها » (٤٣٥ - ٤٣٦) وانظر بالعربية « أديان الهند الكبرىٰ » (١٩٣) .

(٢) انظر مقدمة « تري بيتاكا » (١ ، ٢) .

(٣) المصدر السابق .

(Rajkareha)[١] عند غار « ساتابانا خوها » (Satapanakuha) بعد وفاة بوذا بثلاثة أشهر ، وهذا المجمع قصد به تنظيم ما يسمونه بـ«فينايا» (Vinaya) أي النظام الرهباني ، وما سموه بـ« سوتا » (Sutta) أي الحكايات والمواعظ .

وطريقة التنظيم كما في الروايات أنهم يسألون الحفّاظ من أصحاب بوذا أن يتلو عليهم ما سمعوه من بوذا من تعاليم ، وشرائع ، وحكايات ، فقرؤوها عليهم ، فتلقوها ، ورووها عنهم .

ومن الحفاظ البارزين الذين سجّلت أسماؤهم في هذا التنظيم : أوبالي (Upali) ، وآناندا (Anandha) ، و« سون كوتي كانا » (Sonkutti Kanna) ، وكاسابا (Kasabpa) .

المجمع الثاني : أقامه في « والي كارام » (Vali Katam) في مدينة « فيسالي » (Vesali) سبعمائة راهب بعد وفاة بوذا بمائة سنة .

وهذا المجمع عقد لتبديع بعض الخارجين عن النظام (فينايا) .

وهو مجرد استفتاء عمّا أثر عن بوذا في بعض شريعته (النظام) .

المجمع الثالث : أقـــامـه آلــف راهب في « أسوكارام » (Asoka Ram) بمدينة « بتالي بوترا » (Pattali Buttra) بعد وفاة بوذا بـ(٢٣٤ أو ٢٣٥ سنة) . وقيل بعد حكم الملك البوذي الشهير « أشوكا » على الهند بستة عشر أو سبعة عشر سنة .

وهذا المجمع قصد به إزالة الخلافات في الرواية ، وقد استغرق هذا المجمع تسعة أشهر ، تمّ من خلالها تنظيم النصوص في مجموعات معينة ، وتسميتها «تري بيتاكا » ، ذلك الاسم الذي لم يكن معروفًا في المجمعين الأولين[٢] .

---

(١) المصدر السابق (٦ ، ٧ ، ٨) .

(٢) مقدمة « تري بيتاكا » (٦ ، ٧ ، ٨) .

ويبدو لي أن النصوص لم تدوّن بعد في هذا المجمع تدوينًا رسميًا ، فإن تنظيمها لم يزل يعتمد على الرواية الشفوية .

وقد نقشت في هذا العهد بعض تعاليم بوذا الشهيرة في الصخور ، وحفرت تعاليمه على أعمدة تقديسًا له وتخليداً لذكراه ، ولا يزال بعضها محفوظًا في مدينة « الله آباد » (Allah Abad) .

المجمع الرابع : عقد في سريلانكا (سيلان) في مكان يقال له «توبارام» (Tuparam) بمدينة « أنورا تافورا » (Anuratta Pura) وذلك بعد وفاة بوذا بـ (٢٣٨سنة) ، وهو أول مجمع عقد خارج الهند للاستفتاء ومراجعة ما يسمى بالنظام (فينايا) .

وقد ظلت النصوص محفوظة في صدور الحفاظ ـ كما يقولون ـ يتناقلها بالرواية الشفوية جيل بعد جيل ، إلى أن عقدوا المجمع الخامس في سري لانكا بعد وفاة بوذا بـ (٤٣٣ سنة) وقيل (٤٥٠ سنة) ، حيث تمّ تدوين هذه النصوص في اللحاء أول مرة في هذا المجمع خوفًا من ضياعها[1] .

د ـ لغة الكتاب :

كتبت نصوص « تري بيتاكا » في أول مرة باللغة البالية (Pali) وهي إحدى اللهجات العامية التي تفرعت عن السنسكريتية (Sanskrit) [2] وكان يتكلم بها

(١) المصدر السابق (١٠ ، ١١) .

(٢) هي اللغة التي كان يتكلم بها الآريون (Aryan) في موطنهم الأصلي ، ثم أتوا بها إلى الهند، وتكلموا بها كأي غزاة ، ثم أصبحت لها سيطرة تامة على لغات نهر الهند بسبب كونها لغة الغزاة الفاتحين ، ولكنها سرعان ما اندمجت في اللغات الأصلية في الهند ، وقد اختفت السنسكريتية أيام ازدهار البوذية في الهند ، وحلت البالية محلّها ، ثم عادت إلى مجدها ، ورونقها ، ونشاطها، وألفت بها الكتب الدينية والأدبية ،والقصصية كلها ، وأصبحت لغة التخاطب ، والتفاهم ، والبلاط، والجهات الرسمية ، كما سكت بها النقود والعملات . راجع « الهند القديمة حضاراتها ودياناتها » للدكتور محمد إسماعيل الندوي (١٨٨ ، ١٨٩ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧) و«دائرة المعارف البريطانية » (٨/ ٨٧٣ ، ٨٧٤) .

سكان الهند الشمالية ، وبخاصة الطبقات الفقيرة ، وقد انتشرت هذه اللهجة في أنحاء ربوع شمال الهند أيام ازدهار البوذية ، ونالت إعجاب الناس في الأقطار الجنوبية إلى سيلان ، وصارت مناوئة للغة السنسكريتية ومنافسة لها .

وأصبحت في عصر أشوكا (٢٧٣ ـ ٢٣٢ ق م) لغة الدولة ولغة التبشير للديانة البوذية[١] ، ثم ماتت هذه اللغة بدورها في الهند ، ولكنها احتفظت بكيانها ومجدها بعد انتقالها بكامل هيكلها إلى بقاع أخرى هي : سيلان ، وبورما ، وسيام (تايلاند) ، وكمبوديا ، وكتبت باللغات المحلية في هذه البلاد[٢] .

وقد ترجم هذا الكتاب إلى عدة لغات ، وطبع بحروف مختلفة منها اللاتينية ، والسيلانية ، واللاوسية ، والكمبودية ، والتايلاندية ، وغير ذلك ، والطبعة التي اعتمدت عليها في هذا البحث هي الطبعة التايلاندية (سنة ٢٥٢٦) بالتاريخ البوذي الموافق (١٩٨٣ الميلادي) .

وهناك مجموعات « تري بيتاكا » غير البالية عند المذهب الجديد المعروف بـ « مهايان »[٣] وكتبت هذه المجموعات باللغة السنسكريتية ثم ترجمت إلى عدة لغات كالصين ، والتبت ، واليابان ، وتتكون من مجموعات مختلفة ، كمجموعة نصوص نيبال ، ومجموعة نصوص التبت ، ومجموعة النصوص الصينية[٤] .

هـ ـ محتويات الكتاب :

ينقسم الكتاب إلى ثلاثة أسفار أو مجموعات :

المجموعة الأولى : « فينايا بيتاكا » (Vinaya Pitaka) وتعني النظام ، لأنها تحتوي على النظم الرهبانية ، وقوانينها ، ومسالكها .

---

(١) قارن « الهند القديمة » (١٨٩) .

(٢) مقدمة « تري بيتاكا » (١٢) .

(٣) سيأتي تعريفه في مبحث خاص .

(٤) المصدر السابق (١٤) .

وهي تنقسم إلى خمسة أقسام :

١ ـ مهـاويبـانـج (Maha Vipaug) ويحـوي المحظورات العامـة للرهبـان .

٢ ـ بيهكشوني ويبانج (Bhikshuni Vipang) ويحوي المحظورات العامة للراهبات .

٣ ـ مهاوانج (Maha Wang) ويحوي البداية من سيرة بوذا ورهبانيته .

٤ ـ جـولاوانج (Chula Wang) ويحوي الطقوس الدينية لقبول طالب البوذية ، واجتماعات البوذية ، وتفاصيل حياة البوذي .

٥ ـ باريوان (Barivan) ويحوي بعض النظم والآداب في الرهبنة كما يحوي العقوبة المفروضة على ما يقع من الراهب البوذي من ذنوب ومخالفات .

المجمـــوعة الثانية : سوترا ، أو ســوتـان بيتـاكـا (Suttan Pitaka) وهي مجموعة الخطب التي ألقاها بوذا على تلاميذه، وفي هذه الخطب وصايا بوذا ودعواته التي وجّهها إلى الناس ، وكثير من الأحكام التي تتصل بالبوذية مما يجب على السالك البوذي سلوكه .

وهي تنقسم إلى خمسة أقسام :

١ ـ تيخا نيكايا (Teeka Nikaya) ويحوي الخطب الطويلة .

٢ ـ ماجشيم نيكايا (Majjim Nikaya) ويحوي الخطب المتوسطة .

٣ ـ سانغيوتا نيكايا (Sangkayutta Nikaya) ويحوي الخطب التي جمعت في موضوع مستقل .

٤ ـ انكـوتـارا نيكـايا (Angkuttara Nikaya) ويحـوي المحـاورات ، والمحاضرات ، والأسئلة والأجوبة التي صدرت عن بوذا مع تلاميذه أو عامة الشعب .

٥ ـ خوتاكا نيكايا (Kuttaka Nikaya) ويتضمن التراتيل والحكم المنسوبة

إلىٰ أصحاب بوذا ، والقصص ، والأساطير .

المجموعة الثالثة :

أبيدارما بيتاكا (Abhidharma Pitaka) وتحوي القضايا الفلسفية المعقّدة التي قامت عليها الديانة البوذية ، والأصل الذي استنبطت منه تعاليمها . كما تحوي تفصيل الأخلاق الهامة دهارما (Dharma) التي يتبعها البوذيون عامة . وتتميّز هذه المجموعة بالطول والتعقيد ، الأمر الذي يؤكد أنها ليست قديمة ، وأغلب الظن أنها ثمرة المجتمع البوذي .

و ـ التعديلات التي لحقت بالكتاب :

وقد لحقت بالكتاب تعديلات كثيرة ، وعقدت لأجلها عدة مجامع أذكر منها :

المجمع الأول : عقد في سريلانكا بعد وفاة بوذا بـ (٩٥٦ سنة) ويعتبر السادس من المجامع البوذية التي عقدت لهذا الكتاب ، وقد بدأوا شرح نصوص بوذا في هذا المجمع بالبالية ، وأضافوه إلىٰ الأصل .

المجمع الثاني : عقد أيضًا في سريلانكا بعد وفاة بوذا بـ (١٥٨٧سنة) . وقد أضيف في هذا المجمع بعض الشروح والتعديلات في النظام الرهباني (فينايا) وغيره . ومثل هذا ما جرىٰ في .

المجمع الثالث : الذي انعقد في سيام (تايلاند) في مدينة شينج ماي (Chiangmai) بعد وفاة بوذا بـ (٢٠٢٠سنة) .

المجمع الرابع : الذي انعقد أيضًا في سيام في معبد « مهاتات » (Mahathad) بعد وفاة بوذا بـ (٢٣٣١ سنة)[١] .

---

(١) المصدر السابق (١٢ ، ١٣) .

وهكذا أخذت نصوص الكتاب تتزايد على مر القرون ، واختلط الأصل بالشروح والزيادات الكثيرة ، وأصبحت لا تحتوي بالضرورة على تعاليم بوذا وحده ، بل تحتوي على تعاليم المدارس البوذية القديمة «هينايان» (Hinayan) كلها .

ز ـ ملحوظات على الكتاب :

وقد تبيّن لي من خلال العرض الموجز لهذا الكتاب ما يلي :

١ ـ إن تعاليم بوذا التي ألقاها على أتباعه لم تكتب في أي وثيقة أثناء حياته .

٢ ـ إن تعاليمه كانت تتناقلها الألسن اعتماداً على الذاكرة قرابة خمسة قرون من غير سند يتصل به أو شبه سند ، أي أنها لبثت كذلك منذ وفاة بوذا حتى انتهى بها الأمر إلى التدوين الرسمي في المجمع الخامس الذي انعقد بعد وفاة بوذا بـ (٤٣٣ سنة) أو (٤٥٠ سنة) على الاختلاف الذي ذكرناه .

٣ ـ إن أحداً من كتّاب « تري بيتاكا » لم يعايش بوذا أو يصاحبه أو يسمع أقواله .

٤ ـ إن مجموعات « تري بيتاكا » كتبت جميعاً باللغة البالية عند المذهب القديم (هينايان) ، والسنسكريتية عند المذهب الجديد (مهايان) ، فيما كان بوذا يتحدث باللغة أو اللهجة التي عرفت بالمجدية نسبة إلى إمارة مجدا (Magada) التي نشأ فيها[1] .

٥ ـ لحقت بهذا الكتاب طوال القرون إضافات وتعديلات كثيرة ، ومازجه كثير من الخلط ، والعبث ، والتحريف ، والانتحال ، وهذا أمر يعترف به كثير من علماء البوذيين .

وعلى هذا فإن نصوص الكتاب ليست بعيدة من الريبة فيها. شأنها كشأن الأناجيل عند النصارى ، ولكننا نقف عند هذا الحد من النصوص لا نتجاوز

---

(١) انظر « تاريخ الأديان » (٢٦٠) .

عنهـا ، وإن كـانت هذه النصـوص غير موثوقة علميًا عندنا ، إلا أنها موثوقة ومعتمدة عند أصحابها البوذيين ، وأنها هي النصوص الوحيدة التي تعتبر أقرب صلة من بوذية بوذا .

٦ ـ تبيّن من خلال هذا العرض أنه لا يوجد كتاب من كتب الأديان في هذا العالم بقي نصّه بالنقاء والصحّة عبر القرون الطويلة إلا القرآن الكريم ، كتاب الله الوحيد الذي سلم من أيدي التغيير والتبديل ، ومن أيدي العبث والتحريف ، وبقيت نصوصه كما أنزلها الله ، وقد وعد الله بحفظه في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[1] ، وكما حفظ الله القرآن حفظ السنة النبوية التي هي المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي .

فمن الأمور التي امتازت بها الأمة الإسلامية عن غيرها استعمال الإسناد في رواية الحديث النبوي[2] ، لبيان صدقها من كذبها ، وصحيحها من سقيمها .

ولم تتنبّه الأمم السابقة إلىٰ أهمية الإسناد ، فاختلطت الوثائق الدينية لديها بالزيف ، والدجل ، والتحريف ، وإن البوذية ومثلها النصرانية مثال واضح لما ذكرناه .

وعلىٰ هذا فإن الإسلام هو الدين الوحيد الذي ظلت أصوله ومصادره ثابتة موثقة لم يتطرّق إليها تحريف ، أو زيف ، أو تغيير . وما تزال تهدي البشرية وستظل تهديها أبد الآبدين .

٢ ـ من الكتب البوذية الأخرىٰ التي اعتمدت عليها في هذا البحث :

---

(١) الحجر (٩) .

(٢) إن الإسناد له أهمية ومكانة لدىٰ علماء الحديث من المسلمين لأنه يمثل شطر الحديث ، لأن الحديث سند ومتن والسند بمثابة الدعامة التي يعتمد عليها ويتوقف عليه غالبًا قبول الحديث أو ردَّه وقد بدأ المسلمون الاهتمام بالإسناد والسؤال عنه في فترة مبكرة وذلك في أعقاب الفتنة التي بدأت منذ خلافة عثمان ـ رضي الله عنه ـ روىٰ الإمام مسلم بإسناده عن عاصم الأحول عن ابن سيرين قال : لم يكونوا يسألون عن الإسناد ، فلمّا وقعت الفتنة ، قالوا : سمّوا لنا رجالكم ، فينظر إلىٰ أهل السنّة ، فيؤخذ حديثهم ، وينظر إلىٰ أهل البدعة ، فلا يؤخذ حديثهم . (انظر : «مقدمة صحيح مسلم » (١/ ٨٤) مع « شرح النووي ») وعن عبد الله بن المبارك قال : الإسناد من الدين ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء . وكان من ثمار هذا الاهتمام حفظ حديث رسول اللَّه ﷺ علىٰ مر الدهور ، والأزمنة كما جاء عنه دون أن يشوبه دخن .

١ ـ قصة بوذا .

ألف هذا الكتاب جماعة من كبار الرهبان البوذيين (عام ٢٤٠٠) البوذي الموافق (١٨٥٧ الميلادي) . واشتمل الكتاب على ثلاثة أجزاء من الحجم المتوسط .

وتحدث في الجزء الأول عن البيئة الهندية التي نشأ فيها بوذا ، وفي الجزء الثاني عن بداية حياته ، وفي الجزء الثالث عن آخر حياته ، وهذا الكتاب مقرر لطلاب الشهادة العالية بجامعات البوذية في تايلاند ، وطبع الطبعة الأربعين (عام ٢٥٢٢) البوذي الموافق (١٩٧٩ الميلادي) ، وقام بطبعه ونشره الجامعة البوذية « مهامونج كوت راجا فيديالي » (مهاتات) بانكوك .

(Mahamongkot Rajawidyaly Buddhist University. Bangkok .)

٢ ـ تاريخ الديانة البوذية :

مؤلفه هو الراهب البوذي الكبير « واشيرايان وارورت » (Washirayan Warorot) من أحد علماء البوذية في تايلاند عاش في النصف الأول من القرن الثالث والعشرين البوذي الموافق للقرن السابع عشر الميلادي ، ويقع الكتاب في ٦٦٥ صفحة ، وتحدث فيها عن تاريخ البوذية منذ نشأتها في الهند إلى انتشارها في العالم في الوقت الحاضر ، كما تحدث عن أهم المبادئ التي قامت عليها البوذية ، والخلافات التي نشأت بين مذاهبها وفرقها ، وطبع الكتاب عدة مرات ، والطبعة التي اعتمدت عليها هي الطبعة الثالثة والثلاثون (عام ٢٥٢٠ البوذي الموافق ١٩٧٧ الميلادي) .

٣ ـ المبادئ الهامة في البوذية :

مؤلفه هو القديس البوذي المعاصر « واسن انتاسارا » (Vasin Intasara) من علماء البوذية المشهورين في تايلاند له عدة مؤلفات في

البوذية ، واشتمل هذا الكتاب على المبادئ الهامة التي تأسّست عليها البوذية ، من العقائد ، والأخلاق ، والفلسفات . وقد طبع في ٦٨٨ صفحة (سنة٢٥٢٤) البوذي الموافق (١٩٨١الميلادي) وللمؤلف كتاب آخر اعتمدت عليه في هذا البحث هو « تاريخ انتشار البوذية في الأقطار » ، تحدث فيه عن تاريخ انتشار البوذية في أقطار العالم قديمًا وحديثًا ، وطبع الطبعة الأولى (عام ٢٥٢٥) البوذي الموافق (١٩٨٢الميلادي) ونشر هذين الكتابين مكتبة باناخار (Bannakar) بانكوك .

٤ ـ الفسلفة البوذية :

ألفه القديس البوذي الكبير « بودهي ناندا » (Bodhi Nandha) عاش في النصف الثاني من القرن الثالث والعشرين البوذي الموافق للقرن الثامن عشر الميلادي . له مؤلفات كثيرة جدًا في البوذية ، منها كتاب « لبّ البوذية » الذي اعتمدت عليه في هذا البحث . وقد تحدث القديس في كتابه الأول عن أهم القضايا الفلسفية التي ابتكرها بوذا في تفسير الحياة ، وهي ما يسمى بالحقائق السامية الأربع ، كما تحدث في الكتاب الثاني عن تعاليم بوذا الأصلية التي أراد أن يسلكها أتباعه ، وقد قام بطبعهما ونشرهما الجامعة البوذية « مها مونج كوت راجا فيديالي » (مهاتات) بانكوك .

٥ ـ تاريخ الفلسفة البوذية وتطورها :

ألفه الباحث الدكتور « ساماخ بوراوات » (Samak Burawat) أستاذ الفلسفة البوذية السابق بجامعات البوذية في تايلاند . وقد تحدث في هذا الكتاب عن تاريخ الفلسفة البوذية وتطورها عند الفرق والمذاهب المختلفة عبر العصور ، ويقع الكتاب في ٧٨٩ صفحة وطبع عدة مرات ، والطبعة التي بين أيدينا هي الطبعة الأخيرة (عام٢٥١٣) البوذي الموافق (١٩٧٠الميلادي) ، وقام بنشره مكتبة « بري بيتيا » (Pre Phittaya) بانكوك .

٦ ـ الفلسفة الهندية :

هذا الكتاب أصله بالسنسكريتيّة ، كتبه عالم من علماء البوذية في « سري لانكا » اسمه « بودها بين يو » (Buddha Pinyo) وترجمه إلى التايلاندية «سانان شايا نوكول» (Sanan Shiyanukol) الأستاذ بجامعة البوذية «مهاجولا» بتايلاند، وهو مقرر لطلاب الشهادة العالية في هذه الجامعة ، وقد تحدث الكتاب عن جميع الديانات الهندية القديمة قبل البوذية وبعدها ، وتحدث بتوسّع عن البوذية وفلسفاتها التي تميزت عن غيرها ، ويقع الكتاب في ٥١٥ صفحة ، وطبع الطبعة الأخيرة عام ٢٥١٣ البوذي الموافق ١٩٧٠ الميلادي وقام بنشره الجامعة البوذية (مهاجولا لونج كون راجا فيديالي) .

(Mahachula buddhist university) بانكوك تايلاند ولهذا المترجم كتاب آخر اعتمدت عليه في هذا البحث وهو : المذاهب الهندية الستة ، حيث تحدث فيه عن مدارس الهندوسية الست التي انتشرت في الهند في عصر بوذا وبعده ، وقد طبع الكتاب الطبعة الرابعة (عام ٢٥٢٣ البوذي الموافق ١٩٨٠ الميلادي) بمطبعة الجامعة البوذية (مها جولا لونج كون راجا فيديالي) بانكوك .

٧ ـ مجموعة المصطلحات البوذية :

ألّفها الأستاذ « بين موتوكان » (Pin Motokan) الباحث البوذي المعروف في تايلاند ، له عدة مؤلفات في مجال البوذية وقد جمع فيها المصطلحات البوذية وغرائب الكلمات البالية والسنسكريتية التي وردت في الكتب البوذية ، مرتّبة حسب الحروف التايلاندية ، وبيّن معاني كل واحدة منها باختصار .

والكتاب يقع في (٧٣٧) صفحة . وطبع الطبعة الأولى (عام٢٥٠٤ البوذي الموافق ١٩٦١ الميلادي) ، ونشرته مكتبة « كلانج فيديا » (Klang Widya) بانكوك .

٨ ـ قوانين الرهبنة :

اشترك في تأليفه جماعة من كبار الرهبان البوذيين في تايلاند ، وسيلان ، وبورما ، ليكون مقرراً لطلاب الشهادة العالية في الجامعات والمعاهد البوذية في هذه البلدان . واشتمل الكتاب على جزئين ، تناول فيهما الحديث عن قوانين عامة للرهبان والراهبات . والكتاب ـ كما بيّنه المؤلفون في المقدمة ـ عبارة عن شرح وتحليل ما في « تري بيتاكا » من الغموض والتعقيد فيما يتعلق بالنظام الرهباني (فينايا) ، وقد طبع الكتاب عدة مرات ، والطبعة التي بين أيدينا هي الطبعة الخامسة والعشرون (عام ٢٥٢٤ البوذي الموافق ١٩٨١ الميلادي) ، وقام بنشره الجامعة البوذية (مهامونج كوت راجا فيد يالي « مهاتات ») بانكوك .

٩ ـ أصول البوذية :

للمؤلف البوذي « سانج جاندراغام » (Sang Jandharakam) الأستاذ بكلية الإنسانية جامعة « شيانج ماي » (Chiangmai) في شمال تايلاند ، وقد تحدث في هذا الكتاب عن الفلسفات البوذية وعقائدها ، وعن واجبات البوذيين من الرهبان والمدنيين نحو دينهم ، كما تحدث عن الثالوث المقدس في البوذية[1] ، وعن مراحل ممارسة « سمادهي » (Smadhi) أو التأمل الذاتي للوصول إلى الفناء ، وقد طبع الكتاب الطبعة الثالثة في (٥٢٠) صفحة (عام ٢٥٢١ البوذي الموافق ١٩٧٨ الميلادي) ونشرته مكتبة « باناخار » بانكوك .

١٠ ـ بودها دهارما (Buddha Dharma)

مؤلفه هو القديس البوذي « بانياناندا » (Panya Nandha) من كبار علماء البوذية في تايلاند ، له عدة مؤلفات في البوذية ، وقد ألف هذا الكتاب باللغة البالية المكتوبة بالحروف التايلاندية ، وهو من أهم الكتب التي تناولت الطقوس

---

(١) سيأتي تعريفه .

الدينية عند البوذيين قديمًا وحديثًا ، وهناك كتابه الآخر اعتمدت عليه في هذا البحث هو « النظر إلى الداخل » ، وقد نشرهما المجلس الأعلى لطبع الكتب البوذية ونشرها في تايلاند (دهارما بوشا) .

١١ ـ قانون « كارما » (Karam)

للمؤلف السابق . وتحدث فيه عن عقيدة « كارما » ، نشأتها وتطورها في الديانات الهندية بصفة عامة ، وفي البوذية بصفة خاصة ، ويقع الكتاب في (٣٠٤) صفحات وطبع الطبعة الأخيرة (عام ٢٥٢٥ البوذي الموافق ١٩٨٢ الميلادي) ، ونشرته مكتبة « أم نوي سات » (Amnoy Sat) بانكوك .

١٢ ـ الأخلاق البوذية الخمسة أو « سيلا الخمسة » :

للمؤلف البوذي تانيت يوبودهي (Tanit Yobodhi) ألفه بالبالية وتناول فيه الحديث عن الأخلاق البوذية الخمسة ، وهي : الكف عن القتل ، والسرقة ، والزنى ، والكذب ، والمسكرات ، وقد طبع الكتاب في ٣٩ صفحة من الحجم الصغير ، ونشرته الجامعة البوذية (مها مونج كوت راجا فيديالي « مهاتات ») (عام ٢٥٢٦ البوذي الموافق ١٩٨٣ الميلادي) .

١٣ ـ الحياة بعد الموت :

مؤلفه هو « يوجي راماجاراكا » (Yogi Ramacharaka) من علماء البوذية في الهند ، عاش في القرن الثامن عشر الميلادي ، وكان هندوسيًا ثم اعتنق البوذية ، وتعمق فيها ، له عدة مؤلفات في الفلسفة ، والعلوم الروحية ، وهذا الكتاب ألفه باللغة الهندية وقد ترجمه إلى التايلاندية « سيري بودها سوك » (Siri Buddhasuk) كما ترجمه إلى اللغة الإنجليزية بعنوان " The Life beyond death " والكتاب يقع في ٢٨٩ صفحة . تحدث المؤلف فيها عما يتعلق بالروح حسب عقيدة البوذية ، وقد طبع الكتاب الطبعة الثالثة (عام ٢٥٢٦ البوذي الموافق ١٩٨٣ الميلادي) ، ونشره المعهد

للبحوث الروحية في تايلاند .

١٤ ـ المذاهب البوذية :

للمؤلفين البوذيين « ساتين كوسيت » (Satian Kosat) وناخابراتيب (Naka Prateeb) ، وقد تناول الكتاب الحديث عن المذاهب البوذية المختلفة ، نشأتها ، وتطورها ، وانتشارها قديماً وحديثًا ، كما تناول القضايا التي اختلفت فيما بينها ، وما إلى ذلك ، والكتاب مقرر للطلاب البوذيين في الجامعات البوذية بتايلاند ويقع الكتاب في ٣٤٠ صفحة ، وطبع عدة مرات والطبعة التي بين أيدينا هي طبعة (عام ٢٥١٦ البوذي الموافق ١٩٧٣ الميلادي)، وقد نشرته مكتبة « باناخار » بانكوك .

١٥ ـ تاريخ الأديان :

للمؤلف البوذي « سوشيب بونيانوباب » (Sucheeb Bonyanobab) أستاذ الأديان السابق في عدة جامعات في تايلاند ، وقد تحدث في هذا الكتاب عن معنى الدين ، والمناهج في دراسة الأديان ، وأسباب التدين ، ثم تحدث عن الأديان الميتة ، والأديان الحية ، والأديان الجديدة في العالم ، وقد تحدث عن البوذية بتوسع من حيث تاريخ مؤسّسها ، وتاريخ انتشارها ، وتاريخ تدوين كتبها ، مع مقارنتها بالأديان الأخرى ، وقسّم الأديان حسب مَنْشَأهَا ، فمثلاً الأديان التي نشأت في شرق آسيا ثلاثة وهي : شنتو (Shintoism) في اليابان وكونفوشيوسية (Confucianism) وتوسية (Taoism) كلتاهما في الصين ، والأديان التي نشأت في جنوب آسيا أو الهند أربعة وهي : الهندوسية ، والجينية، والبوذية ، والسيخية ، والأديان التي نشأت في غرب آسيا أربعة وهي : اليهودية في فلسطين ، وزراد شتية في فارس ، والمسيحية في فلسطين ، والإسلام في الجزيرة العربية وهكذا ، والكتاب يقع في (٤٤٠) صفحة وطبع الطبعة الرابعة (عام ٢٥٢٦ البوذي الموافق ١٩٨٣ الميلادي) ، ونشرته مكتبة

روم سات (ROm Sat) بانكوك .

وللمؤلف كتاب آخر اعتمدت عليه في هذا البحث ، وهو « تاريخ انتشار البوذية في العالم » . ويقع في (٣٤٢) صفحة وطبع الطبعة الخامسة (عام ٢٥٢٤ البوذي الموافق ١٩٨١ الميلادي) ، وقام بنشره مؤسسة لإحياء البوذية في تايلاند .

١٦ ـ بوذية مهايان :

ألفه الراهب : « أريان بيهكشو » (Aryan Bhikshu) أحد العلماء المشهورين في البوذية في القرن الرابع والعشرين البوذي (الثامن عشر الميلادي تقريبًا) له عدة مؤلفات في البوذية . وقد تحدث في هذا الكتاب عن البوذية عند المذهب الجديد المسمىٰ بمهايان (Mahayan) من حيث نشأتها ، وأهم عقائدها ، ومدىٰ انتشارها في أقطار العالم ، وأسباب الانتشار ، والكتاب يقع في (٣٠٠) صفحة ، وطبع الطبعة الرابعة (عام ٢٥٢٢ البوذي الموافق ١٩٧٩ الميلادي) . ونشره المجلس الأعلىٰ لطبع الكتب البوذية ونشرها في تايلاند (دهارما بوشا) .

١٧ ـ « نرفانا » (Nirvana)

مؤلفه هو القديس « بوذتات بيهكشو » (Buddhat Bhikshu) من كبار علماء البوذية وفلاسفتها المعروفين في تايلاند وغيرها من الدول المجاورة ، كان رئيسًا عامًا للمجلس الأعلىٰ لشئون الرهبان في تايلاند ، عاش فترة في الهند، وتجول في كثير من الأقطار البوذية.وله أكبر محل للرياضة النفسية في جنوب تايلاند المعروف بحديقة « موخلارام » (Moklaram) ، له مؤلفات كثيرة جدًا في البوذية بعضها ترجمت إلىٰ عدة لغات .

وقد تحدث المؤلف في هذا الكتاب عن معاني « نرفانا » وحقائقها ، والطريق الأفضل للوصول إليها . ويقع الكتاب في ١٧٨ صفحة ، وطبع الطبعة

الأخيرة (عام ٢٥٢٤ البوذي الموافق ١٩٨١ الميلادي) ، ونشره المجلس الأعلى لطبع الكتب البوذية ونشرها في تايلاند (دهارما بوشا) .

١٨ ـ تعاليم للرهبان :

للمؤلف السابق . وقد تحدث في هذا الكتاب عن معنى الرهبنة في البوذية ، وثمراتها ، وأغراضها ، وحقوق الرهبان منها ، كما تحدث عن أهم الأعمال اليومية التي يجب على الرهبان القيام بها .

والكتاب يقع في ٢٠٢ صفحة ، وطبع الطبعة العاشرة (عام ٢٥١٨ البوذي الموافق ١٩٧٥الميلادي) ، ونشره الناشر السابق .

١٩ ـ سمادهي عند بوذا :

للمؤلف السابق أيضًا ، وقد تحدث فيه عن معنى سمادهي (Smadhi) في البوذية ، وعن فوائدها ، وطريقة رياضتها وتمرينها ، وطبع الكتاب الطبعة السادسة في (١٩٥) صفحة (عام ٢٥١٩ البوذي الموافق ١٩٧٦ الميلادي) .

وللمؤلف كتاب آخر في هذا المجال اعتمدت عليه في هذا البحث وهو مبادئ عامة في الرياضة النفسية . ويقع الكتاب في (٢٢٥) صفحة ، وطبع الطبعة الرابعة عشر (عام ١٥٢٣البوذي الموافق ١٩٨٠الميلادي) . وهذان الكتابان نشرتهما الجامعة البوذية مهامونج كوت راجا فيديالي (مهاتات) بانكوك .

٢٠ ـ بين البوذية والنصرانية في رأينا :

ألفه الراهب البوذي الكبير راجاوارا موني (Rachvara Muni) من أحد العلماء المعاصرين في البوذية ، له مؤلفات كثيرة ،وقد حاول في هذا الكتاب التقريب بين البوذية والنصرانية في كثير من العقائد ، وبخاصة في قضية الألوهية، وطبع الكتاب الطبعة الثانية (عام ٢٥٢٢ البوذي الموافق ١٩٨٠

الميلادي) ، ونشرته مكتبة باناخار بانكوك .

وهناك كتاب آخر في هذا المجال وهو :

٢١ ـ مشكلة الألوهية بين البوذية والمسيحية :

للراهب نانداببهكشو (Nandha Bhikshu) وقد حاول في هذا الكتاب ما حاول المؤلف السابق ، واكتسب به شهرة كبيرة بين أوســاط البوذييــن وعلمائــهم . والكتاب يقع في (٣٥١) صفــحة وطبــع الطبعــة الأولى (عام ٢٥٢٧ البوذي الموافق ١٩٨٤ الميلادي) ، ونشرته مكتبة تين وان (Tian Wan) بانكوك .

٢٢ ـ مقارنة الأديان :

للمؤلف البوذي الكبير ساتين بانتارانج سي (Satiat Pantarangsi) وهذا الكتاب مقرر لطلاب الشهادة العالية في كثير من الجامعات في تايلاند ، ويقع الكتاب في حزءين ، تحدث في الجزء الأول عن أهمية دراسة الأديان ، وعن معنى الدين ، وأسباب نشأته ، وأنواع الأديان في العالم ، ثم تحدث عن البرهمية ، والجينية ، والبوذية ، والسيخية ، والتوسية ، والكونفوشيوسية ، وشنتو . أما الجزء الثاني فتحدث فيه عن اليهودية ، والنصرانية ، والإسلام ، وقد طبع الكتاب الطبعة الخامسة (عام ٢٥٢٤ البوذي الموافق ١٩٨١ الميلادي). ونشرته الجامعة البوذية (مها جولا لونج كون راجا فيديالي) بانكوك.

وللمؤلف كتاب آخر اعتمدت عليه في هذا البحث وهو « تاريخ بوذا الجديد» نشرته مكتبة « أودين ساتور » (Odian Store) بانكوك ـ بدون تاريخ .

٢٣ ـ " Introduction to indian philosophy " أي « تعريف بالفلسفة الهندية »

ألفه الدكتور ساتس جاندرا شاتيرجي (D . r Stischadra chatterjee) عميد كلية الفلسفة بجامعة « كلكتا » في الهند سابقًا ، والدكتور تيريندرا موهان (D . r Dherendra Mohan) أستاذ الفلسفة السابق بجامعة « باتنا » (Patna) في الهند . وهذا الكتاب مطبوع باللغة الإنجليزية في (٥٤٢) صفحة ، واشتمل على مقدمة وتسعة فصول وخاتمة ، وتناول في كل فصل فلسفة من الفلسفات الهندية بالدراسة والتحليل ، وهذه الفلسفات هي : الجينية ، والبوذية ، واليوجية ، والنيانا والميمانسا ، والفيدانتا ، وسامكهيا ، والفايشيشيكا ، وجاروواك . وهذا الكتاب مقرر لطلاب الشهادة العالية في الجامعات والمعاهد البوذية في تايلاند . وقد طبع الطبعة الثانية (عام ٢٥١٩ البوذي الموافق ١٩٧٦الميلادي) ، ونشرته الجامعة البوذية (مهاجولا لونج كون راجا فيد يالي) بانكوك .

٢٤ ـ " Buddhism in Middle Asia " أي « البوذية في آسيا الوسطى » :

للمؤلف البوذي ساتين بودهي ناندا (Prof . Stian Bodhinandha) وقد تحدث في هذا الكتاب عن انتشار البوذية في بلاد آسيا الوسطى التي تشمل تركستان الغربية والشرقية ، وأفغانستان ، وبعض الأجزاء من فارس ، وأثبت بالأدلة التاريخية أن البوذية قد ازدهرت في هذه البلدان الواسعة منذ القرن الأول الميلادي ، وبلغت ذروة في الازدهار في القرن الخامس والسادس الميلادي إلى أن فتحها المسلمون في القرن السابع والثامن الميلادي على التوالي . والكتاب ألفه بالإنجليزية في (٢١٥) صفحة وقد طبع الطبعة الرابعة (عام ٢٥٢٢ البوذي الموافق ١٩٧٩ الميلادي ونشرته الجامعة البوذية مهامونج كوت راجا فيديالي

(مهاتات) بانكوك .

٢٥ ـ " Buddhism in Siam " أي « البوذيـــــة في ســـــيام (تـــايلانـــد) » :

ألفه الدكتور البوذي شاشوال سري جاندرا (D : r Shashawal Srijandra) وقد تحدث في هذا الكتاب عن انتشار البوذية ، ودعوتها في سيام في مختلف العصور ، وجمع فيه الإحصائيات عن عدد البوذيين في بلدان العالم . والكتاب ألفه بالإنجليزية ، وطبع في (١٢٥) صفحة (عام٢٥٢٥ البوذي الموافق ١٩٨٢ الميلادي) . ونشرته الجامعة البوذية مهامونج كوت راجا فيديالي (مهاتات) بانكوك .

هذه هي أهم الكتب البوذية التي اعتمدت عليها في هذه الرسالة وهناك كتب أخرىٰ أقل أهمية منها وستجد جملة منها في قائمة المراجع آخر الرسالة ، وبالله التوفيق .

* * *

سابعًا : دليل المصطلحات البوذية في هذا البحث :

الكلمـــــــة	المعنـــــــى
آبات (Abat)	مخالفة الرهبان لقانون من قوانين الرهبنة " Breach of discipline "
أبيدارما (Abhidrama)	المجموعة الثالثة من مجموعات « تري بيتاكا » الكتاب المقدس في البوذية وتشمل القضايا الفلسفية المعقدة والأخلاق البوذية الهامة .
آرام (Aram)	معبد بوذا " Temple "
أرهات (Arhat)	القداسة أو القديس " Saint "
أفيديا (Awidya)	الجهل " Ignorance "
أناتا (Anatta)	لاذات ، لاجوهر " Non Existence of the soul "
أنيجانج (Anijang)	التغير ، والتبدل ، والزوال " Uncertainly "
أوباسانا (Upasana)	التأمل ، والمراقبة " Maditation "
أوتار (Avatar)	التجسد الإلهي " Incarnation "
أهنسا (Ahinsa)	لا إيذاء ولا إساءة لأي كائن حي "Non oppression "
بارباشا (Barbasha)	الانخراط في سلك الرهبنة " Ordination "
بانيا (Panya)	المعرفة ، الحكمة ، العقل " Wisdom "
بارينرفانا (Pari Nirvana)	الفناء التام " Extinction "
بودها (Buddha)	العارف ، المتنور ، المستيقظ " Enlightenmend one "

الكلمة	المعنى
بودهي ساتفا (Buddhi Satwa)	بوذا المستقبل "On destined to become a Buddha"
بيهكشو (Bhikshu)	الراهب المتسول " Buddhist monk "
تاغتا (Tathakata)	لقب من ألقاب بوذا ومعناه المخلص
تري بيتاكا (Tri pitaka)	الكتاب المقدس في البوذية
توخ خانج (Tuk kang)	الألم " Suffering "
دهارما (Dharma)	تعاليم بوذا " The teaching of the Buddha "
راتانا تري (Ratana tri)	الثالوث المقدس في البوذية وهوبوذا ، وتعاليمه (دهارما) ، والرهبان(سانغا) " The triple gems "
راخها (Rakha)	رغبة أو شهوة " Pleasure "
سانغا (Sangkha)	جماعة الرهبان في البوذية " Buddhist momk "
سمادهي (Smadhi)	التركيز في التأمل " Perfect concentration "
سمسارا (Samsara)	تناسخ الأرواح " Metempsychosis "
سمنا (Samana) أو «شارامانا»(Sharmana)	أي الهادئ والمبتعد عن الشهوات ويطلق على كل راهب بوذي
سوتان (Suttan)	المجموعة الثانية من مجموعات « تري بيتاكا »

الكلمة	المعنى
	الكتاب المقدس في البوذية وهي عبارة عن الخطب والوصايا والحكايات
سونياتا (Sonyata)	الفراغ " Void "
سيلا (Sila)	المبادئ ، الأخلاق ، الوصايا " Precepts "
فينايا (Vinaya)	المجموعة الأولى من مجموعات « تري بيتاكا» الكتاب المقدس في البوذية وهي عبارة عن القوانين والنظم في الرهبنة
كاراوات (Karawat)	المدنّيون الساكنو البيوت (غير الرهبان) " Layman "
كارما (Karma)	العمل ، الجزاء ، السبب " Causality "
كوتي (Kutti)	الدير أو مسكن الرهبان " Hermitage "
مارا (Mara)	الشيطان " Devil "
مايا (Maya)	الغرور ، المكر ، الخداع " Pretend "
موها (Moha)	الغواية ، الوهم " Delosion "
مهايان (Mahayan)	المذهب الجديد في البوذية
نرفانا (Nirvana)	الفناء الخمود " Extinction " أو التخلص من الألم . " Salvation "
هينايان (Hinayan)	المذهب القديم في البوذية
يانا (Yana)	الكشف " Perception "

باب تمهيدي

ويشمـــــل فصليـن :

الفصل الأول : البيئة التي ظهر فيها بـــوذا وفيـــه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : نبذة عن شبـــه القـــارة الهنديـــة .

المبحث الثاني : حالة الحكم والسياسة في عصر بوذا.

المبحث الثالث : الحالة الإجتماعيـــة في عصر بوذا .

الفصل الأول

البيئة التي ظهر فيها بوذا

المبحث الأول : نبذة عن شبه القارة الهندية

١ ـ الملامح الجغرافية[١] .

الموقع والحدود :

تحتل شبه القارة الهندية موقعًا جغرافيًا ممتازًا ، فهي تتوسّط نصف العالم الشرقي ، حيث تمتد في جنوب آسيا من هضبة إيران (Iran) وأفغانستان (Afghanistan) في الغرب إلى شبه جزيرة الهند الصينية في الشرق ، ومن جبال همالايا (Himaliya) في الشمال إلى المحيط الهندي في الجنوب ، ويتكون القسم الجنوبي من هذه البلاد العظيمة من شبه جزيرة مثلثة الشكل لها سواحل في الغرب على بحر العرب ، وسواحل في الشرق على خليج بنغال (Bengal) ، وتطل على المحيط الهندي في الجنوب برأس بارز هو رأس كوماري (Cape Comari) الذي هو أبعد أجزاء الهند نحو الجنوب[٢] .

المساحة :

تبلغ مساحتها مليونين من الأميال المربعة[٣] أو حوالي ٣,٨ مليون كم٢

---

(١) لتكون هذه الملامح واضحة انظر خريطة الهند في هذه الرسالة .

(٢) قارن « الهند تاريخها وتقاليدها وجغرافيتها » أبو الليل محمد موسى (ص٩) .

(٣) « تاريخ الهند الحديث » ، الدكتور عادل حسن غنيم ، والدكتور عبد الرحيم بن عبد الرحمن (ص١٣) .

بالإضافة إلى جزيرة سيلان (Ceylon) [١] ، وهو ما يعادل مساحة أوربا مجتمعة باستثناء روسيا (Russia) ، فسميت شبه القارة الهندية لضخامة مساحتها ، وفيها من كثرة السكان واختلاف اللغات ما في القارة الأوربية ، وتكاد تشبه القارة الأوربية كذلك في اختلاف أجوائها ، وآدابها ، وفلسفاتها ، وفنونها . كما تسمى أيضًا بشبه الجزيرة ، لأنها جزيرة من بعض النواحي ، فالبحر يفصلها عن غيرها في الجنوب الغربي (وهو بحر العرب) والجنوب الشرقي ، (وهو خليج بنغال ومحيط الهند) ، والجبال التي يتعذّر اختراقها تفصلها عن العالم في الشمال ، والشمال الشرقي ، والشمال الغربي ، وبهذا تكاد تكون جزيرة[٢] .

أما كلمة « الهند » فاختلف المؤرّخون في أصلها ، فمنهم من نسبها إلى الاله « اندرا » (Indhira) إله الهند القديم[٣] . ومنهم من ردّها إلى « سندو » (Sindus) وهو النهر المعروف ، ثم غير الفرس السين إلى الهاء فصارت « هندو » (Hindu) وأطلقوا على الهند الشمالية كلها كلمة « هندوستان » (Hindustan) أي مقر أهل الهند ، ومن هذه الكلمة الفارسية « هندو » نحت الأغريق الغزاة كلمة الهند ، وهي التي بقيت لنا إلى اليوم[٤] .

الجبال والأنهار :

في الهند جبال كثيرة ، وخاصة في المنطقة الشمالية ، وأشهرها سلسلة جبال همالايا (Himaliya) أعظم وأعلى سلسلة جبلية في العالم ، إن هذه

---

(١) « جغرافية العالم » ، دولت أحمد صادق ، ومحمد سيد غلاب ، وجمال الدين الدناصوري (١/ ٩٧) .

(٢) قارن « الهند القديمة حضاراتها ودياناتها » عبد الرحمن (ص١١) .

(٣) « حضارات الهند » ، الدكتور غوستاف لوبون ترجمة عادل زعيتر (ص٢٥) .

(٤) قارن « قصة الحضارة » للدكتور ول ديورانت ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود (٣/ ١٢) .

السلسلة الجبلية تشبه حائطًا طبيعيًا تفصل الهند عن غيرها في الشمال[١] .

ولهذه الجبال أهمية كبرىٰ في تاريخ الهند القديم ، فقد تصوّر الأقدمون أن هذه الجبال الشاهقة هي موطن الآلهة . فهي أقرب الأماكن إلىٰ السماء ، وقد أصبحت منابع الأنهار في هذه الجبال أماكن مقدّسة يحج إليها الهندوس ، وفي سكونها يجدون مجالاً للتعبد والعبادة[٢] .

أما الأنهار فهي كثيرة أيضًا أهمّها نهر السند (Sindus) ، ويعتبر من أكبر الأنهار الهندية التي تتفجر ينابيعها من « همالايا » ، وعلىٰ ضفاف هذا النهر قامت أقدم حضارة هندية . ومن أهمّها أيضًا نهر برهمابوترا (Brahma Putra) ونهر جنجا (Ganges) الذي يقدسه الهندوس ، حيث يحبّون أن يغتسلوا فيه معتقدين بأن مياهه تغسل عنهم خطاياهم ، كما يحبّون أن تحرق جثتهم علىٰ شاطئه ، وأن يلقىٰ بالرماد في مياهه .

ومن الأنهار المقدسة لدىٰ الهندوس أيضًا نهر جمنا (Jamuna) حيث يعدّون الاغتسال فيه طقوسًا دينية مقدّسة ينبغي أداؤها علىٰ كل فرد منهم[٣] .

٢ ـ سكان الهند :

نقسم سكان الهند إلىٰ أربع مجموعات رئيسية :

١ ـ السكان الأصليّون :

إنه من الصعوبة بمكان أن نتعرّف علىٰ أصول سكان الهند الأصليين لغموض تاريخهم في تلك الفترة ، وعلىٰ العموم إنهم قوم بدويّون عاشوا في الغابات والأدغال والجبال ، ومارسوا الحياة البدائية الأولىٰ . تحددت ألوانهم

(١) « جغرافية العالم » (١/ ١٠٠) .

(٢) « الهند تاريخها وتقاليدها وجغرافيتها » (ص١٢) .

(٣) قارن « الهند القديمة » للدكتور محمد إسماعيل الندوي (ص١٥) وأيضًا « حضارات الهند » (ص٣٨) .

وفق جغرافية المناطق ، وليس لهم دين معيّن ؛ ولا تقاليد معروفة ؛ بل هم على كل حال وثنيون يعبدون مظاهر الطبيعة كلها . ويطلق عليهم اسم « قبائل الأحراش » وما زال نسلهم يعيشون في الهند[١] .

ثم ظهرت حضارة بارزة الرقيّ عند سكّان بنجاب (Panjab) خلال الألف الرابعة والألف الثالثة من السنين قبل الميلاد ، تلك الحضارة التي أفسدت آراء معظم المؤرخين وعلماء البوذيين[٢] الذين ذهبوا إلى أن الهند قد كانت همجية ووحشية لا تعرف شيئًا من الحضارة حتى هاجر إليها الآريون (Aryan) ، فهذه الحضارة العريقة المكتشفة فتحت آفاقًا جديدة في تاريخ الهند، كما أنها دلت على مدى التقدم والمدنية في حياة سكان وادي نهر السند في تلك الأزمنة .

٢ ـ الدراويديون (Dravidians)

يطلق هذا الاسم على الجنس الأسود والأسمر ذي الأنف الكبير والشعر المتموج ، وهم من سكّان الهند الأصليّين على الأرجح كما تشير إلى ذلك ملامحهم وتقاليدهم كلها . وقد واصلوا جهود أصحاب حضارة وادي نهر السند، فاستولوا على مقاليد بلاد السند وبنجاب ، وأنشأوا فيهما حضاراتهم العريقة مدة من الزمن[٣] ، وظلّوا على ذلك حتى دخول الآريين واستيلائهم على تلك الأرض في (عام ١٨٠٠ ق م) تقريبًا ، ففرّوا أمام الزحف إلى ناحية الجنوب . والآن لا تزال حفدتهم يرون في المناطق الجبلية في جنوب الهند التي التجأ إليها أجدادهم بالتدرج فراراً من تأثير المغازي الأجنبية في الشمال .

(١) وهم الجماعات التي يقال اليوم لأفرادها : موندرا ، وموشار ، وشامر ، وغونـد ، وسندال ، وكاسي ، وبسيس ، وكثري ، وشاندال وغيرهم .
(Mondras , Mushar , Shamars , Chons , Santhals , Khasi , Pases , Kathari , Chandalas).

(٢) هذه الآراء تحفل بها كتب البوذية التي كتبها علماء البوذيين وذلك لقصد استعلاء الآريين الذين انتسب إليهم بوذا .

(٣) من (عام ٢٠٠٠ ق م إلى ١٨٠٠ ق م) تقريبًا .

والدراويديون يكونون عنصراً أساسيًا في معظم سكان الهند الحالية ، وعنصراً هامًا في حضارات الهند وثقافتها .

٣ ـ التورانيون (Turanians)

يطلق هذا الاسم على العرق الأصفر في بعض الأحيان ، وهم مجموعة من القبائل الجبلية البربرية التي تدفّقت من جبال بلوشستان (Balushistan) وأفغانستان(Afghanistan) وقد توغّلت في الهند عن طريق ثغوز جبال هندوكوش (Hindukush) وذلك قبل نزوح الآريين بقرون طويلة ، وقد تمّ بينهم وبين أهل البلاد ألوان من العلاقات أنتجت ما أصبح بعد حين يعرف بالسكان الأصليين ، ويعتبر التورانيون أشدّ الغزاة تحويلاً لعروق الهند من الناحية الجثمانية ، فمنهم أخذ الهند نسب أجسامهم وتقاطيع وجوههم .

٤ ـ الأريون (Aryan)

إن هذه القبيلة عرفت فيما بعد في التاريخ بالمجموعة الهندية الأوربية (Indu European) فهم أكثر وأقرب شبهًا بسكان أوربا الشمالية ، وسميت بالآرية لأنها تطلق على الأشراف في اللغة السنسكريتية ، والآريون اعتبروا أنفسهم منذ قدومهم إلى هذه المناطق بالشرف ، والسكّان الأصليين بالأرازل . ولعل هذا هو المنشأ لنظام الطبقات في الهند .

وقد اختلف المؤرخون في أصل الآريين ومقامهم الأول ، والأرجح أنهم آسيويو الأصل ، كانوا يعيشون في وسط آسيا في بقعة من بلاد تركستان (Turkistan) في جنوب روسيا (Russia) وشرق بحر قزوين (Caspian) وقد تدفّقت هذه القبيلة كأمواج هائلة على أوربا (Erope) وآسيا الصغرى ، ثم موجة أخرى إلى الشرق الأوسط ، واستوطنت العراق ، ثم هجرات عديدة إلى إيران (Iran) حيث أقاموا ببلاد فارس (Persia) ثم داوم حفدتهم سيرهم إلى الجنوب

فجاوزوا جبال هندوكوش (Hindu Kush) ودخلوا الهند وذلك في (عام ١٨٠٠ ق م) تقريبًا .

وقد استقرّوا في سهول السند وبنجاب ، وطردوا منها الدراويديين إلىٰ ناحية الجنوب ، وأخذوا من بقي منهم أسرىٰ وسموهم « داسا » (Dasa) أي العبيد[1] .

وكان الآريون يحافظون غالبًا علىٰ سلالتهم البيضاء ، ولم يتّصلوا بالسكان الأصليين بالتزواج في بداية الأمر ، ولكن بعد مرور الزمن تمّ امتزاجهم بالسكان الأصليين شيئًا فشيئًا ، فقد تكوّن سكان الهند أخيرًا قبل عصر بوذا من ثلاث طوائف رئيسة :

الأولىٰ : الآريون الجدد (أي الذين هاجروا إلىٰ الهند حديثًا) .

الثانية : الآريون القدامىٰ الذين تمّ التزاوج مع السكان الأصليين حتىٰ أصبحوا جنسًا مستقلاً مغايرًا عن الأصل .

الثالثة : الأسرىٰ من السكان الأصليين ويسمون « داسا » (Dasa) وهذا بناء علىٰ أن الآريين لم يقوموا كلهم بغزو الهند في وقت واحد ؛ بل جاءوا في مجموعات متتالية ، خلال فترة طويلة ، وأقاموا هنا وهناك ، والجدير بالذكر أن لغتهم التي سميت بالسنسكريتية هي اللغة التي تشعّبت منها معظم لغات أوربا علىٰ أرجح الأقوال[2] .

---

(١) ومازال نسلهم يعيشون في الهند في منطقة مدراس وهم يتكلمون بلغة تاميل (Tamil) وتيلوكو (Telugu) ومالابار (Malabar) وكاناري (Kanari) ومن نسلهم أيضًا طائفة تاميل في جزيرة سيلان (Ceylon) .

(٢) من المراجع التي أسهمت في إيضاح هذا الموضوع .

١ ـ « حضارات الهند » للدكتور غوستاف لوبون . ٢ ـ «قصة الحضارة » لول ديورانت الجزء الثالث .

٣ ـ «الهند القديمة » للدكتور محمد إسماعيل الندوي

٤ ـ Introduction to Indian philosophy . by
D . r Satischandra chatterjee and
D.r Dhirendramohan Datta .

خريطة الهند القديمة

المبحث الثاني

حالة الحكم والسياسة في عهد بوذا .

١ ـ تقسيم الهند من حيث الحدود والإمارات :

في العهد البوذي الذي يرجع إلى (٥٦٣ ـ ٤٨٣ ق م) كانت الهند مسماة بشبه القارة الهندية ، لسعة مساحتها ، وكثرة عدد سكانها . وهي وإن جمعتها الوحدة الاسمية ، هي بلاد كثيرة مختلفة باختلاف أقطارها ومختلفة باختلاف أصول سكانها وعقائد أهلها ، وقد قسّمت الهند وقتئذ من حيث حدودها إلى الجزءين[١] :

الجزء المتوسط أو الداخلي ، ويشمل المناطق الشمالية والمتوسّطة التي استوطنها الآريون ، وهذا الجزء هو المقصود في هذا البحث لأن فيه نشأة بوذا ومذهبه .

والجزء الخارجي أو المتاخم للحدود ، ويشمل المناطق الجنوبية التي هي مواطن الدراويديين[٢] .

ويبدو أن هذا التقسيم قد بدأ منذ غزو الآريين للهند (١٨٠٠ ق م) واستيلائهم عليها ، فكانوا يسمّون المناطق التي استولوا عليها واستوطنوها في الشمال والوسط بالبلد المتوسط ، أو البلد الداخلي ، ويسمون المناطق الريفية في الجنوب التي لم يستولوا عليها ، واستوطنوها الدراويديّون بالبلد المتاخم للحدود أو البلد الخارجي[٣] .

---

(١) وهذا التقسيم هو ما جرى عليه معظم الكتّاب البوذيين الذين كتبوا في تاريخ البوذية .
(٢) « قصة بوذا » (١/ ٢٨) .
(٣) المصدر السابق (١/ ٢٢) .

ولم يكن بين البلدين حدود معيّنة وإنما تتغيّر وتتوسّع تبعًا لعدد سكّان الآريين ومدىٰ تقدّمهم[١] .

والظاهر أن هذا التقسيم مبني علىٰ تعصّب الآريين لجنسهم ، وتفضيلهم علىٰ الآخرين ، كما هو معروف عند الفكر الغربي في نظرية الاستعلاء العنصري للآريين .

أما الإمارات في عهد بوذا فقد نصّ عليها كتاب « تري بيتاكا »[٢] بأن عددها ست عشرة إمارة وهي كالتالي :

١ ـ أنكا (Angka)	٢ ـ مجدا (Magada)
٣ ـ كاسي (Kasi)	٤ ـ كوسالا (Kosala)
٥ ـ واتشي (Watshe)	٦ ـ مالا (Malla)
٧ ـ جيتي (Jeti)	٨ ـ وانج سا (Wangsa)
٩ ـ كورو (Kuru)	١٠ ـ بانجالا (Panjala)
١١ ـ مادشا (Madsha)	١٢ ـ سوراسينا (Surasena)
١٣ ـ أساسكا (Assasaka)	١٤ ـ آوانتي (Awanti)
١٥ ـ كانتارا (Kantara)	١٦ ـ كام بوشا (Cambosha)

وهذه الأسماء منها أربعة ذكرت في عدة مواضع في الكتاب لكثرة علاقتها بقصة بوذا وديانته ، وهي : أنكا ، مجدا ، كاسي ، كوسالا .

وهناك إمارات صغيرة أخرىٰ وردت أسماؤها في قصة حياة بوذا في الكتاب مثل ساكا (Sagka) وكوليا (Koliya) وويتيها (Vitheha) .

إن هذه الإمارات كلّها كانت في الجزء الداخلي لشبه القارة الهندية وهو موطن الآريين الذين انتسب إليهم بوذا[٣] .

(١) المصدر السابق .
(٢) « سوتان » (٤٢٩ ، ٤٣٠) .
(٣) « قصة بوذا » (١/٢٩) .

ومن المعروف أنه قد تغيّر الوصف لهذه الإمارات ، ولا يكاد أن تعرف هذه الأسماء في هذا الزمن .

ب ـ نظام الحكم في الإمارات :

كان نظام الحكم في معظم الإمارات نظامًا ملكيًا ، غير أنه قد اختلف هذا النظام تبعًا لاختلاف الإمارات ، فبعضها محكومة بنظام الملكية المطلقة كإمارة « مجدا » (Magada) في عهد الملك « بمبيسارا » (Phimbisara) وإمارة «كوسالا» (Kosala) في عهد الملك « باسين تي » (Basinti) وبعضها الآخر محكومة بنظام « الملكية الديمقراطية » كإمارة « ساكا » (Sagka) و«لوكيا» (Lokiya) و«واتشي » (Watshe) و« مالا »)(Malla وغير ذلك[1] .

فكل إمارة لها ملك يتزعم إمارته بالوراثة ، وله ألقاب مختلفة ، تختلف هذه الألقاب باختلاف نظام الحكم في إمارته .

وقد ذكر كتاب « تري بيتاكا »[2] عدة ألقاب للملوك في ذلك الوقت بعضهم تلقّب بـ« مهاراجا » (Maha Rasha) أي الملك العظيم كالملك « آجاتسترو » (Ashatsatru) وبعضهم تلقّب بـ« راجا » (Rasha) فقط أي الملك ، كراجا «بمبيسار» ملك إمارة مجدا وراجا « باسين تي » ملك إمارة كوسالا .

ويوجد بعد الملوك لم يلقّبوا بشيء ، وذكرت أسماؤهم مجرّدة كالملوك في إمارة « واتشي » (Watshe) و« مالا » (Malla) إن هذا الاختلاف في الألقاب يدلّ على تفاوتهم في مدى القوة والسلطان ، كما يدلّ على اختلاف نظامهم في الحكم . فكلمة « مهاراجا » و« راجا » تستعمل لقبًا للملك الذي له قوة مستبدّة في شئون الحكم كلّها ، ولا شأن لأحد غيره معه ، وهذا النظام هو ما يطلق عليه بالملكية المطلقة " Absolute Monarchy " غير أن هناك فرقًا بين كلمة «مهاراجا » و« راجا» ، فكلمة « مهارجا » مخصوصة بالملك الحاكم على الإمارة

---

(١) « تاريخ الديانة البوذية » (٣ ، ٤) .
(٢) « سوتان » (٦٢٧) .

العظيمة التي ضمّت المدن والدويلات إليها ، وهي ذات قوة واسعة ، واشتهر هذا الملك صيته بين الناس في جميع شبه القارة الهندية[١] وذلك مثل مهاراجا « أشوكا » (Ashoka) مبشّر الديانة البوذية في العالم الذي أنشأ أمبراطورية عظيمة في العالم فيما بين (٢٧٣ ـ ٢٣٢ ق م)[٢] .

هذا بخلاف كلمة « راجا » فإنها أقل درجة من « مهاراجا » كراجا «بمبيسارا» ملك إمارة مجدا . أما بعض الإمارات التي ليس لملوكها هذه الألقاب كإمارة «واتشي» و« مالا » و« ساكا » فنظام الحكم فيها شبيه بالنظام الديمقراطي في مصطلحنا الحديث[٣] حيث منح الشعب فيها ـ على الرغم من وجود نظام الوراثة لتولي الزعامة ـ حرية تامة للتعبير عن حاجاتهم . وكان عندهم مجلس الشعب أو مجلس الشورى[٤] ، يتشاورون فيما بينهم ، في الأمور السياسية والاجتماعية[٥] .

ويبدو أن الهنود عمومًا في هذه الإمارات قد تمتّعوا بقدر كبير من الحرية في ظل الأُسَر الحاكمة الملكية ، فالملكية عندهم ينبغي أن تكون قوية الشكيمة في حياد ، وأن ترعى مصالح الناس رعاية الوالد لولده .

ج ـ التعريف ببعض الإمارات والمدن المتعلّقة بقصة بوذا:

١ ـ « مجدا » (Magada)

تقع هذه الإمارة في ولاية « بيهار » (Bhihar) الجنوبية[٦] وكانت عاصمتها مدينة « راجا غريها » (Rajakareha) وهي المدينة الأولى التي تأسّست فيها الديانة البوذية[٧] .

(١) « قصة بوذا » (١/ ٢٧) .
(٢) قارن « الهند القديمة » (١٧١) .
(٣) « تاريخ البوذية الجديد » (٢) .
(٤) وأطلقوا على هذا المجلس بلغتهم « سانتاخار » (Santakar) .
(٥) « تاريخ الديانة البوذية » (٧) .
(٦) انظر خريطة الهند القديمة .
(٧) « مجموعة المصطلحات البوذية » (٥٢٥) .

وإمارة « مجدا » من أعظم الإمارات شأنًا ، وأكبرها أهمية في تاريخ البوذية، ولكنّا مع الأسف لا نعرف شيئًا عن بدء ظهور هذه الإمارة بل كل ما نعرفه عنها يعود إلىٰ أميرها الخامس « بمبيسارا » في عهد بوذا في القرن السادس قبل الميلاد .

وقد ذكرت المراجع البوذية أن هذا الأمير هو الذي بنىٰ عاصمة جديدة «راجا غريها» واشتهرت في تقدّمها وازدهارها حتىٰ تعدّ مدينة من المدن التي فضّلها « آناندا » (Ananda) أحد أصحاب بوذا ، وطلب منه أن يمكث فيها في آخر حياته ، وأن يموت فيها[١] . وتقول الروايات إن الأمير «بمبيسارا » قتل بيد ابنه ويدْعىٰ « أجاتسترو » (Ashat satru) وبمقتله أثار حربًا بين إمارتي «مجدا» و« كوسالا » حتىٰ أن هذه الحرب قد قضت علىٰ إمارة « كوسالا » وأصبحت «مجدا» بضمّ إمارة « كوسالا » إليها أقوىٰ إمارة عرفت في تاريخ الهند القديم[٢] .

٢ ـ كاسي (Kasi)

وقعت هذه الإمارة في الجنوب من ولاية « أوتاربرادي » (Uttar Pradesh) المتاخمة لولاية « بيهار » (Bhihar) ، وفي الغرب من إمارة « مجدا » وكانت عاصمتها مدينة « بنارس » (Banares) ويطلق عليها أيضًا « واراناسي » (Varanasi) . وفي عهد بوذا كانت مستعمرة لإمارة « كوسالا »[٣] .

وقد ألقىٰ أوّل وعظه في هذه المدينة ، ومن هنا نالت هذه المدينة مكانة التبجيل والتقديس لدىٰ البوذيين ، وكذلك لدىٰ الهندوس ، ومما زاد من قدسيتها لدىٰ الهندوس أن نهر « جنجا » (Ganga) يجري وسط هذه المدينة[٤] ، وأصبحت هذه المدينة حتىٰ الآن أكبر المراكز الدينية للهندوس والبوذيين ،

---

(١) « تري بيتاكا » (سوتان) (٣٢٨) .

(٢) « قصة بوذا » (١/ ٣٠) وانظر أيضًا « تاريخ شبه الجزيرة الهندية الباكستانية » ، إحسان حقي (ص١٩) .

(٣) المصدر السابق (١/ ٣٢) .

(٤) المصدر السابق (١/ ٣١) .

حيث يتوجّهون إليها لأداء شعائر الحج وفق تقاليدهم .

٣ ـ « كوسالا » (Kosala)

وقعت « كوسالا » في ولاية « أوتاربراديش » فوق إمارة « كاسي » إلىٰ جبال «همالايا» أو بين جزء الوسط من نهر « جنجا » وبين جبال « همالايا » وهي الآن جزء من نيبال (Nepal) وجزء من « أوتاربراديش » في الهند[١] .

وتعد « كوسالا » من أكبر الإمارات في ذلك العصر ، لضمّ إمارتي « كاسي » و« ساكا » إليها .

ومن أهم المدن في هذه الإمارة مدينة « ساوتدي » (Sawatdhi) وهي العاصمة للإمارة ، وقد تجوّل فيها بوذا لنشر تعاليمه مدة طويلة ، ويروي الكتاب «تري بيتاكا»[٢] أن « ساوتدي » من إحدىٰ المدن التي اقترح عليه تلميذه «آناندا» (Ananda) أن يقضي آخر حياته فيها ، لأنها أشهر المدن تقدمًا في ذلك الوقت . ورفضه بوذا ، واستمر في تجوّله حتىٰ توفّي في مدينة قريبة منها ، يقال لها « كوسينارا » (Kusinara) [٣] وهي المعروفة الآن بمدينة « كاسي » (Kasia) [٤] .

٤ ـ « ساكا » (Sagka) مسقط رأس بوذا :

وتقع الآن في الشمال من ولاية « جوراك فورا » (Gurakhapure) علىٰ الضفّة الشمالية من نهر « رابتي » (Rapti) في حدود نيبال (Nepal) وكانت في القديم إمارة صغيرة وقعت في ولاية بيهار (Bhihar) وسميت « ساكا » لأنها بنيت أصلاً في دوحة « ساكا » وهي نوع من الشجرة المعروفة في الهند[٥] .

---

(١) المصدر السابق .
(٢) « سوتان » (٣٢٨) .
(٣) انظر الخريطة .
(٤) « مجموعة المصطلحات البوذية » (٤٣) .
(٥) المصدر السابق (٦١٩) .

وكانت « ساكا » إمارة مستقلة ، ثم استعمرتها إمارة « كوسالا » وبقيت على هذه الحالة إلى عهد بوذا[١] .

وتحدثنا الروايات البوذية أن « ساكا » انقسمت إلى عدة مدن أشهرها مدينة «كابيل فاستور» (Kapila Vastu) موطن قبيلة « ساكيا » (Sakya) التي انتسب إليها بوذا ، وكان أبوه « شددودانا » (Suddho) ملكًا لهذه المدينة وقد سمّيت « بكابيل فاستو » لأنها بنيت في مكان لناسك معروف اسمه «كابيل» (Kapil) فسميت « كابيل فاستو » أي أرض كابيل[٢] وفي هذه المدينة نشأ بوذا كما ستأتي قصته .

وهناك مدينة أخرى قريبة منها يقال لها « غيا » (Gaya) أو « بودهغيا » (Buddhgaya) ، وهي مدينة هامّة أيضًا في تاريخ البوذية ، حيث زعم بوذا أنه حصل على الإشراق والعرفان في هذه المدينة ، ومنها نشر تعاليمه الدينية والاجتماعية .

وهناك مدينة ثالثة يقال لها « ديفاداها » (Dhewa Dhaha) ، وهي موطن لقبيلة « كوليا » ، وكان بين هذه القبيلة وقبيلة « ساكيا » (Sakya) علاقة قوية منذ زمن بعيد ، وقد تزوّج بوذا بنت رئيس هذه القبيلة[٣] .

* * *

---

(١) « تاريخ بوذا الجديد » (٣) .

(٢) « تاريخ بوذا الجديد » (٤)

وهذه المدينة أصبحت الآن جزءًا من نيبال حيث تبعد عن حدود الهند بحوالي خمسين كيلو مترا «مجموعة المصطلحات البوذية » (٧) .

(٣) « تاريخ الديانة البوذية » (١٤) .

المبحث الثالث

الحالة الاجتماعية في عصر بوذا

كانت الحالة الاجتماعية في عصر بوذا تقوم على أساس الطبقات تبعًا للفكرة الهندوسية التي سادت الناس في ذلك الوقت ، فالناس في نظر الديانة الهندوسية ليسوا سواء ، لا من حيث العبادة والدين ولا من حيث الطبقات والأعمال ، وما يمتهنون به من مهن . ولذلك قسم الناس إلى أربع طبقات :

(١) طبقة البراهمة (Brahmans)

(٢) طبقة الكشتريا (Kshatriyas)

(٣) طبقة الويشيا (Vaisyas)

(٤) طبقة الشودرا (Sudra)

أما طبقة البراهمة فهم طبقة رجال الدين أو الكهنة ، ويعتقدون بسموّ طبقتهم على سائر الطبقات ، فيقتصر نشاطهم على أعمال من شأنها أن ترفع من شأن طبقتهم ، فنشاطهم محصور في تقديم الضحايا ، ودراسة الكتب المقدسة ، وتلقي الهدايا ، والزهد ، والتقشف .

وأما طبقة الكشتريا ، فهم طبقة المحاربين ، والحكام ، ورجال الإدارة ؛ ويدّعون أيضًا بأن طبقتهم أعلى من الطبقات الباقية .

أما طبقة الويشيا وهم الزرّاع ، والتجّار . وطبقة الشودرا وهم الخدم ، والعبيد ، فهم يعترفون بأحوالهم من الدنوّ والذلّة . فلا يختلطون بطبقة أعلى منهم وهناك دون هذه الطبقات الأربع طبقات المحرومين ، وأبناء الزنى ، والذين يتناولون الأعمال القذرة في المدن وتسمّى طبقة المنبوذين .

وكان كل طبقة من هذه الطبقات لها مجتمع خاص بها ، تعيش في إطار جماعتها ، بحيث يتمّ الزواج ، والتناسل ، والحفلات في نفس الإطار الطبقي ، وإن طبقة الفرد ميراث من الأجيال السابقة ، وعليه أن يقبل وضعه الحالي طائعًا مختاراً ، فالزرّاع لا يصح أن يكونوا من التجّار والجند لا يرتقون إلىٰ درجة الكهنة وهكذا ، ولا يتزاوج أفراد الطبقة منها من أفراد الطبقة الأخرىٰ ، ولا تضمّهم كذلك مائدة طعام واحدة وكل طبقة تحتقر الطبقة التي تحتها ، وخاصة طبقة الشودرا والمنبوذين ، وهم من السكّان الأصليين ، فإنهم محرومون من جميع السعادة والنعيم والحرية في الحياة[١] .

وقد أثبتت الشريعة الهندوسية المتمثلة في قوانين « مانو »[٢] قوانين ثابتة لهذه الطبقات ، ووظائفها ، وأعمالها ، بحيث من المستحيل الخروج عن هذه القوانين ، فأثبتت أن هذه الطبقات خلقت كل من جزء معيّن من الإلة « براهما » (Brahma) . فالبراهمة خلقوا من وجهه ، والكشتريا من ذراعيه ، والويشيا من فخذيه ، والشودرا من قدميه[٣] .

وفرضت علىٰ كل منهم واجبات واعمالاً معيّنة ، فعلىٰ البراهمة أن يشتغل بالتعلّم والتعليم ، وعلىٰ الكشتريا أن يقدّم القرابين ، ويحمل السلاح للدفاع عن الوطن ، وعلىٰ الويشيا أن يزرع ، ويتّجر ، وينفق علىٰ المعاهد العلمية والدينية ، أما الشودرا فعليه أن يخدم هذه الفرق الثلاث[٤] .

---

(١) انظر « قصة بوذا » (١/ ٣ـ ٥) وانظر من المراجع العربية كتاب البيروني في « تحقيق ما للهند (٧٥ـ٧٩) و« قصة الحضارة » (٣/ ١٦٥ ـ ١٧٠) ، و« الهند القديمة » (١٠٠ ـ ١٠٤) و« الهند عقائدها وأساطيرها (٣٧ـ٤٦) و« أديان الهند الكبرىٰ » للدكتور أحمد شلبي (٥٤ ـ ٦١) .

(٢) وهو الكتاب المقدس عند الهندوس ، ويحتوي علىٰ الشرائع التي تتبعها الطوائف الهندوسية ، وهو مؤلّف من (٢٦٨٥) بيتًا من الشعر ، كانوا يرجعونه إلىٰ (سنة ١٢٠٠ ق م) وهذا التشريع يحدّد قواعد السلوك للمجتمع الهندوسي كله ؛ وقد ترجمه إلىٰ العربية إحسان حقي ونشرته دار اليقظة العربية .

(٣) انظر « منوسمرتي » فقرة (١١) من الباب الأول .

(٤) انظر المصدر السابق فقرة (٨٨ ـ ٩١) من الباب الأول .

وفي اعتقادهم أن هذه الطبقات كلّها ، ظهرت من جزاء أعمالهم في الحياة الأولىٰ ، ونتيجة لها ؛ وان من أدّىٰ الواجبات التي تفرضها عليه طبقته بإخلاص وأمانة ، فقد ضمن أن يرتقي إلىٰ طبقة أعلىٰ عندما يبعث من جديد حسب عقيدتهم في « التناسخ »[1] .

وهكذا الحالة الاجتماعية التي سادت المجتمع الهندي في ذلك الوقت . وفي هذا الجوّ نشأ بوذا ، وكان من طبقة « الكشتريا »[2] ، وقام بدعوته إلىٰ المساواة ، وإلغاء الطبقات ؛ فاستجاب له كثير من الناس ، وخاصة الذين يعانون شدة هذا النظام الطبقي العنصري ، من طبقة الـ ـودرا ، والمنبوذين . وتعتبر هذه الدعوة ثورة علىٰ المجتمع الآري وعلىٰ الخصوص طبقة البراهمة . لفقدهم النفوذ التي كانوا يتمتّعون بها .

* * *

---

(١) « الفلسفة الهندية » (٦٢) .

(٢) تروي بعض الروايات أن البراهمة في عصر بوذا ـ علىٰ الرغم من اعتقادهم بأنهم فوق جميع البشرية لما كانوا يتمتّعون به من السلطان والحقوق والاحترام ـ قد أصابهم بعض الضعف فإن طبقة « الكشتريا » التي كان بوذا منها هي التي لها السلطان علىٰ الميدان الفكري والسياسي في البلاد . « قصة بوذا » (٦/١) .

الفصل الثاني

عناصر الديانات الهندية في عصر بوذا

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : عبادة الآلهة من مظاهر الطبيعة .

المبحث الثاني : عبادة الآلهة من الحيوانات وأرواح الأجداد .

المبحث الثالث : الاعتماد على التأمل الذاتي والرياضة النفسية .

الفصل الثاني

عناصر الديانة الهندية في عصر بوذا

اشتهرت الهند بكثرة المذاهب والمعتقدات الدينية منذ العهد القديم ، وكانت الهندوسية هي الديانة التي تمثّلت فيها هذه المذاهب والمعتقدات ، وفي عصر بوذا كانت هذه الديانة هي التي يعتنقها أغلبية سكان الهند[١] .

والهندوسية نسبة إلىٰ الهند لأنها ديانة محلّية قومية تشمل تقاليد الهند ، وعاداتهم ، وأخلاقهم ، وصور حياتهم . وأطلق عليها أيضًا البرهمية ابتداء من القرن الثامن قبل الميلاد ، نسبة إلىٰ إلهها براهما (Brahmá) ، ومن براهما اشتقّت الكلمة « البراهمة » وهي تعني طبقة رجال الدين أو الكهنة الذين يستمتعون بجميع الحقوق الدينية[٣] .

والهندوسية ديانة قديمة جدًا لا يعرف بالتحديد تاريخ نشأتها ، وعلىٰ ما يقول مؤرخو الأديان إنها نشأت نتيجة امتزاج بين عدد من المعتقدات المختلفة ، وبالتحديد بين معتقدات الآريين الغزاة وبين معتقدات الهنود الأصليين التي كانت سائدة في وادي أندوس (Iudus) [٣] ، وهي تحتوي علىٰ كثير من المعتقدات ؛ أهمّها عقيدة « كارما » (Karma) أو قانون الجزاء ، وتناسخ الأرواح ، ووحدة الوجود ، و« موكشا » (Moksha) ، أي التحرر والانطلاق[٤] ، كما تحتوي علىٰ عناصر من الآلهة والعبادات ؛ وقد لخّصت هذه

---

(١) ومازالت هذه الديانة تسود الهند إلىٰ الآن حيث يعتنقها أكثر من ٨٥ ٪ من الهنود .

(٢) Introduction to indian philosophy P . P 14 , 15 .

وقارن « أديان الهند الكبرىٰ » لأحمد شلبي (٣٩) .

(٣) Ibid P . 16

(٤) سيأتي تعريف هذه المصطلحات فيما بعد إن شاء الله .

العناصر الموجودة في عصر بوذا في ثلاثة كما يلي :

(١) عبادة الآلهة من مظاهر الطبيعة .

(٢) عبادة الآلهة من الحيوانات وأرواح الأجداد .

(٣) الاعتماد على التأمل الذاتي والرياضة النفسية .

وسأتكلم عن كل واحدة منها بشيء من التفصيل .

* * *

المبحث الأول

عبادة الآلهة من مظاهر الطبيعة

اشتملت الديانة الهندوسية على أنواع كثيرة من الآلهة ؛ ففيها آلهة تمثّل مظاهر الطبيعة كإله السماء ، وإله البرق ، وإله النار وإله الريح ، وإله السحاب ، وما شابه ذلك ؛ فلكل قوة طبيعية تنفعهم أو تضرّهم إله يعبدونه ويستغيثون به في الشدائد[١] .

وكانت المظاهر الكونية الجميلة ، والمناظر العظيمة في الهند ، من الجبال والأنهار وغيرها ، باعثة لإيقاظ الديني فيهم وجهًا لوجه ، فولدت في أنفسهم الشعور بالصغر والضعف تجاهها ، وهي محيطة بهم ومسيطرة على مشاعرهم فخضعوا لها إعجابًا بدورها الخالد في حياتهم ، وتقديراً لخدماتهم العظيمة من أجل سعادتهم ومكاسبهم .

وكان الكثيرون من الهنود في ذلك الوقت يعتقدون أن لهذه المظاهر أرواحًا كما أن لهم أرواحًا ، ويعتقدون أن هذه الأرواح قوى مختفية وراء المظاهر ، وأنها تستطيع أن تضرّهم أو تنفعهم .

وعلى هذا كانوا يتقربون إليها بأنواع من العبادة والقرابين[٢] ولا تزال هذه المعتقدات الخرافية موجودة في كثير من الهندوس والبوذيين وأمثالهم .

---

(١) « قصة بوذا » (١/ ٥٨) وانظر تفصيل هذا الموضوع في المراجع العربية مثل « الفلسفة الشرقية » للدكتور محمد غلاب (٩٣ ، ٩٤) و« أديان الهند الكبرى » لأحمد شلبي (٣٣) و« الفلسفات الهندية » للدكتور علي زيعور (١٠٧ ـ ١٠٩) وأيضًا « قصة الحضارة » لول ديورانت (٣/ ٣١ ، ٣٢) .

(٢) المصدر السابق (١/ ٥٩ ، ٦٠) .

المبحث الثاني

عبادة الآلهة من الحيوانات وأرواح الأجداد

وبالإضافة إلىٰ عبادتهم لقوىٰ الطبيعة فقد عبد الهندوس كثيراً من الحيوانات ، وأضفوا عليها صفات الآلهة . ولم يروا فارقًا بين روح الإنسان وروح الحيوان ، لأن جميع الأرواح في اعتقادهم تمضي دوامًا ، متنقّلة من بني الإنسان إلىٰ بني الحيوان ، ثم تعود إلىٰ بني الإنسان مرة أخرىٰ تبعًا لقانون كارما والتناسخ[١] ، وهكذا حتىٰ تصل الروح وتتحد بالإله « براماتما » (Barmatma) الذي هو مصدر الأرواح في زعمهم[٢] .

وقد جعل الهندوس الثعابين والأفاعي من أهمّ آلهتهم ؛ لأن هؤلاء ينحدورون من سلالة الأبطال[٣] ، وأكثر الحيوان قدسية لدىٰ الهندوس هي البقرة ، ولاتزال حتىٰ الآن تحتفظ بهذه القدسية[٤] .

وبجانب هذه الآلهة من الحيوانات ، كان بعض الهندوس يقدّسون أرواح أجدادهم ، لاعتقادهم بخلود الروح ، وأنها تحتاج كما يحتاج الإنسان الحي .

فيقدّمون إليهم القرابين من الطعام والشراب ، ويتضرّعون إلىٰ

---

(١) الكارما ، في اللغة السنسكريتية تعني العمل ، والهندوس يرون أن جميع أعمال البشر خيراً كانت أو شراً لابد من أن يجازىٰ عليها بالثواب أو بالعقاب ، ويكون الجزاء في هذه الحياة .
أما التناسخ فهو القول بأن الروح بعد مفارقتها الجسد ترجع إلىٰ العالم الأرضي ، حيث تتقمّص جسداً آخر لتثاب في الأرض أو تعاقب حسب ما قدّمت من عمل في دورتها السابقة ، وسيأتي تفصيل هذا الموضوع في مكانه إن شاء الله .

(٢) « الفلسفة الهندية » (٥٨) .

(٣) « الهندالقديمة » (٩٨) .

(٤) « أديان الهند الكبرىٰ » (٢٩ ـ ٣٣) .

أرواحهم عند الشدائد[١] .

وهكذا كثرت الآلهة عندهم كثرة زائدة ، وكانوا ينحتون التماثيل في أشكال مختلفة رمزًا لتلك الآلهة ، ويقدّمون صلواتهم ومناجاتهم بين يدي هذه التماثيل .

وممّا يجب أن أشير إليه في هذا الصدد ، أن الهندوس في وسط هذا التعدد من الآلهة يتّجهون إلىٰ فكرة الاتحاد[٢] ، أي الاتحاد بين الآلهة الكثيرة وجمعها في إله واحد ، وقد أطلقوا علىٰ هذا الإله ثلاثة أسماء علىٰ حسب فعله في الوجود فهو « براهما » (Brahma) من حيث هو موجد ، وهو « فشنو » (Vishun) من حيث هو محافظ وهو « سيفا » (Siva) من حيث هو مهلك[٣] .

وتعتبر هذه الثلاثة أقانيمًا لإله واحد ويسمونه « براماتما » (Barmatma) أو « مها براهما » (Maha Brahma) أو « برميشور » (Permeshwar) ، وفي اعتقادهم أنه مصدر جميع الكائنات ، وروح جميع المخلوقات الحية من آدميين وحيوانات ، وأنه موصوف بكل صفة كمالية لا يدركه العقل ، وأنه موجود في كل كائن وليست هذه الكائنات إلا مظاهر منه[٤] فالواجب علىٰ الإنسان هو أن يتمكّنوا من الاتصال بالإله « براماتما » (Barmatma) ، واندماج حياتهم الداخلية فيه تخلّصًا من تكرار المولد[٥] .

---

(١) « قصة بوذا » (١/ ٦٠) .

(٢) وليس التوحيد كما يزعم بعض الباحثين ؛ لأن التوحيد الكامل هو التوحيد في العبادة والخلق والاعتقاد . فلا يصحّ إطلاقًا أن نفهم أن الهندوس يعتقدون بهذا التوحيد ، وعلىٰ أي حال يمكننا القول بأن أصل هذه الفكرة هو التوحيد نقله الآريون المهاجرون من منطقة الشرق الأوسط التي كانوا يمرّون بها ، وقد ظهرت دعوة إبراهيم عليه السلام في هذه المناطق فيما بين (١٨٦١ - ١٦٨٦ ق م) تقريبًا فلعلّهم تأثروا من هذه الدعوة ثم لما دخلوا الهند مزجوا هذه الفكرة علىٰ مر الأيام بعقائد الهنود الأصليين .

(٣) « الفلسفة الهندية » (٥٩) .

(٤) وهذا هو ما يعبّر عنه بنظرية وحدة الوجود التي تسربت في بعض المتصوفين في الإسلام .

(٥) « مقارنة الأديان » (١/ ٥٨ ، ٥٩) .

المبحث الثالث

الاعتماد على التأمل الذاتى والرياضة النفسية

أشرت فيما سبق إلىٰ أن الهندوس يعتقدون بأن « براماتما » مصدر الكائنات وجوهر الوجود وأن الهدف الأسمىٰ للحياة الهندوسية هو الاتحاد به ، والطريق المعروف عندهم لتحقيق هذا الهدف هو التزهّد والتنسّك في الغابات ، والكهوف ، والجبال ، والتأمل في أسرار الكون وخفايا الوجود[١] .

ويبدو أن الطريق متّفق مع طبيعة الهنود في ذلك الوقت ، وما فطروا عليه من روحانية وميل شديد إلىٰ العزلة والتأمل .

فقد روت لنا روايات كثيرة تفيد انتشار المذاهب والمدارس الأخلاقية انتشاراً واسعًا قبيل عصر بوذا ، لكل منها طريق خاص في التنسك والتأمل .

والطريقة المشهورة التي ازدهرت في عصر بوذا وتأثر منها طريقتان : اليوجية (Yogism) و« الجينية » (Jainism)

أ ـ اليوجيــــة (Yogism)

« اليوجية » نسبة إلىٰ « يوجا » (Yoga) ومعناها فعل الربط ، والسيطرة ، والتحكم . وهي فلسفة دينية هندية ظهرت خلال (عام ٨٠٠ ق م) تقريبًا ولم يعرف بالتحديد أول من أسّسها[٢] ويقال : إنها نتاج فكري جماعي بين كثير من

---

(١) Introduction to indian philosophy P . 40

(٢) تنسب التعاليم والتآليف الباحثة في يوجا إلىٰ الحكيم باتنجالي (Patanjali) فيما بين (١٠٠ - ٣٠٠ ق م) ولكن أصلها أقدم من هذا بكثير فقد ظهرت اليوجية لأول مرة كعلم قائم بذاته في بعض «الأوبانيشاد» (Upanishads) الأقدم ، إحدىٰ الكتب المقدسة لدىٰ الهندوس حوالي القرن الثامن قبل الميلاد ، وقد أرجع بعض الباحثين إلىٰ أقدم من ذلك . انظر « الفلسفة الهندية » (٧٩ ، ٨٠) .

النساك المتقدمين في البرهمية ، والهدف من اليوجية تحرير النفس عن شهوات الجسد ، عن طريق الممارسات والسلوكيات الروحية والجسدية ؛ ويوصل هذا الهدف إلىٰ الاتصال والوحدة مع الإله كما يزعمون .

واليوجية لا تؤمن أساسًا بالعلم والمعرفة ولا تعني بالحصول علىٰ نصيب منهما وإنما تعني فقط بالعمل والممارسة ؛ فتعاليمها كلها عملية تتعلق برياضة النفس علىٰ الزهادة ، والتحرر من قيود الشهوات ، ومحاولة إنقاذ الروح من سلطان البدن ، أو بتعبير آخر إزاحة كل العوائق المادية عن الروح[1] .

ولليوجية ثماني وسائل أو مراحل يجب علىٰ الممارس اجتيازها ، مرحلة مرحلة ، حتىٰ يصل إلىٰ مرحلة التنوير الأعلىٰ ، أو الحقيقة العليا علىٰ حد تعبيرهم .

وهذه المراحل هي :

١ ـ « ياما » (Yama) وهي الاتّباع للوصايا اليوجية الخمس وهي : لا تؤذ ، لا تكذب ، لا تسرق ، لا تشته ، لا تدّخر .

٢ ـ « نياما » (Niyama) وهي المحافظة علىٰ الفضائل الخمس : النظافة ، والقناعة ، والتقشف ، وحفظ النصوص المقدّسة وتلاوتها ، والتقوىٰ والتضحية .

٣ ـ « آسنا » (Asana) وتعني التحكّم في الأوضاع الجسدية المعيّنة ، والغرض منه إيقاف كل إحساس .

٤ ـ « برانایاما » (Paranayama) وتعني تنظيم التنفّس والتحكّم في الشهيق ، ثم إبقاء النفَس ، ثم الزفير ، وهذه الرياضة تعين صاحبها علىٰ نسيان كل شيء ما عدا حركة التنفّس .

٥ ـ « براتياهارا » (Paratyahara) وتعني التحكّم في النشاطات الحواسية والحركية ، وهي مرحلة سيطرة النفس علىٰ جميع الحواس .

---

(١) « الفلسفة الهندية » (٤٦٧) و« المذاهب الهندية الستة » (٣٦ ، ٣٧) .

٦ ـ « تارانا » (Tharana) وهي مرحلة تركيز الانتباه والتأمّل أي تركيز النفس على شيء معين كجزء خاص من الجسد ، أو الضوء ، أو الألوان ، أو ما شابه ذلك إلى أن تصبح جميع الاشياء حوله قد اختفت وأنه لا يعي سوى ذلك الشيء الذي اختاره .

٧ ـ « داهيانا » (Dhayana) وتعني ممارسة التأمل بشكله أمثل وهي حالة تنتج عن المرحلة السابقة ؛ ولكنّها أدقّ وأعمق .

٨ ـ مرحلة التنوير الأعلى لتجارب اليوجا ؛ وهي فصل النفس عن الجسم فصلاً تامًا[1] وقسمت اليوجية حياة الإنسان إلى أربع مراحل : الطفولة ، والشباب ، والكهولة ، والشيخوخة ، وحينما ينتهي الإنسان إلى مرحلة الكهولة تبدأ حياته بالتنسّك ، فيغادر بيته وأهله ، ويتخلّى عن ممتلكاته متوجهًا إلى غابة ، ويمتنع عن جميع الشهوات واللذات كليّة ، ولا يكون همّه إلا التحرير من القيود الجسمانية والوصول إلى التنوير الأعلى في زعمهم[2] .

ب ـ الجينية (Jainism)

أسّس هذا المذهب رجل يدْعي « فاردامانا » (Pardhamana) عاش في فترة (٦٣٥ ـ ٥٦٣ ق م) من طبقة الكشتريا (Kshatriya) ومن أسرة نبيلة من مدينة

(١) « المذاهب الهندية الستة » (٣٩ ـ ٤٢) وأيضًا

Introduction to indian philosophy P . 471 - 474

ولمزيد من التفاصيل راجع الكتب العربية التالية : « قصة الحضارة » (٣/ ٢٦٠ ـ ٢٦٧) و«الفلسفات الهندية » (٣٤٢ ، ٣٤٣) ، و« الهند القديمة » (١٠٨ ـ ١١٠) « الهند تاريخها وتقاليدها » (٥٣) و« الهند عقائدها وأساطيرها » (٦٦) .

(٢) المصدر السابق وقارن « الهند القديمة » (١٠٩) .

والجدير بالذكر أن التعاليم اليوجية لم تكن الآن مقصورة على العقيدة الهندوسية ، وإنما يدرسها ويمارسها كثير من البشر من مختلف الأديان والأماكن وقد انتشرت الآن في كثير من البلاد الإسلامية وغيرها كتجربة جسمانية ونفسانية معًا . وقد أعجب بها الأوربيون ، ويميلون إليها ميلاً شديدًا ، فينشرون الكتب والمجلات ويفتحون النوادي في البلدان الكثيرة لترويج هذه التجربة .

«فيسالي» (Vesali) بالشمال الشرقي من الهند ، وكان معاصراً لبوذا ، غير أنه أسنّ منه بقليل ، ولقّب بـ« مهافيرا » (Maha Vira) أي البطل الكبير كما لقّب أيضًا « جينا » (Jaina) أي الغالب والمنتصر على الشهوات ، وإلى هذا اللقب انتسبت مدرسته فأصبحت تدّعى بالمدرسة الجينية ، وادّعى أنه ليس جينا الأول بل سبقه ثلاث وعشرون جينا وأنه آخرهم[1] .

وقد مارس ، « مهافيرا » العديد من الرياضات الروحية المعروفة في الهند وبقي في عزلة مدة (١٢ سنة) ، يبحث عن النجاة ، والتحرر من التناسخ وفي الثانية والأربعين من عمره دعا قومه للدين الجديد « الجينية » ومن أهمّ ما يدعو إليه :

١ ـ الإلحاد فلم يعترف بالآلهة في البرهمية ، وقرّر أنه لا يوجد خالق أعظم للكون[2] .

٢ ـ إلغاء نظام الطبقات ، والتحرّر من سلطان الكتب الفيدية المقدّسة لدى البرهميّين . ومن هنا تعتبر الجينية حركة مضادّة للبرهمية ومقاومة لطغيان البراهمة وجبروتهم .

٣ ـ تحريم اللحوم مهما كان نوعها ، والامتناع عن قتل أو إيذاء كل كائن حي مهما كان نوعه ، ويسمّون هذا المبدأ « أهنسا » (Ahinsa) أي عدم الأذية ، وقد بلغت شدّتهم في المحافظة على هذا المبدأ إلى حد أنهم لا يشربون الحليب ، ولا يغلون الماء حتى لا يقتلوا ما فيه من كائنات ، ولا يهتمّون

---

(١) المصدر السابق (١٣٦ ، ١٣٧) ومن المؤلفات العربية التي تحدثت عن هذه الفرقة . « أديان الهند الكبرى » (١٠٩ ـ ١٢٩) و« الديانات والعقائد في مختلف العصور » لأحمد عبد الغفور عطار (١/١٠٦ ـ ١١٦) ، و«الإنسان في ظل الأديان» للدكتور عمارة نجيب (٢٠٦ ـ ٢٠٨) ، و«الفلسفة الشرقية» للدكتور محمد غلاب (١١٥ ـ ١٢٠) ، و« الهند القديمة » (١٤٢ ـ ١٤٥) ، و«قصة الحضارة » (٣/٥٨ ـ ٦٢) و« الهند عقائدها وأساطيرها » (١٣٩ ـ ١٤٨) .

(٢) ومالبث الجينيون أن جعلوه إلهًا بعد وفاته ، كما جعلوا من سبقه من جينا وعددهم أربعة وعشرون آلهة لهم والمعبد الجيني يضمّ تمثالاً لإله من أربعة وعشرين إلهًا .

بالزراعة لنفس السبب ، ويضعون على وجوههم نقابًا حتى لا يبتلعوا كائنا حيًا ، وهكذا[١] .

٤ ـ الاعتقاد بكارما (Karma) والتناسخ وإن الخلاص النهائي هو التحرر من عجلة التناسخ .

وهنا فرضت الجينية رياضات ، وتدريبات جسمانية ، وروحية قاسية صارمة على أتباعها ؛ وقد أدّت هذه الرياضات القاسية إلى إباحة العري وإباحة الانتحار ، ويعتبرون ذلك غاية مثلى تظفر بها الروح[٢] .

والجينية تشترك مع اليوجية في فلسفتها عن الحياة ، فكل منهما يرى أن حياة الدنيا ألم وتعاسة ، وأن النجاة منها هي غاية الحياة ، وتشتركان أيضًا في الوسائل إلى النجاة ، غير أن اليوجية تميل أكثر إلى التأمل الذاتي ، أما الجينية فإنها تميل إلى تعذيب الأبدان ، وتروي النصوص البوذية في « تري بيتاكا »[٣] أن بوذا في خلال تجاربه قد لجأ إلى وسائل الجينية للوصول إلى الخلاص ، كما لجأ قبل ذلك إلى وسائل اليوجية حتى بلغ أعلى مرحلة من مراحلها ، غير أنه لم يقتنع بهاتين الطريقتين ، ولم ير أنهما طريق للخلاص الحقيقي ؛ فلجأ إلى طريقته الخاصة التي سماها طريق الوسط ـ كما سنرى ـ وقام بنشرها بين الناس ، حتى أصبحت فيما بعد ديانة كبيرة يعتنقها ملايين من سكان العالم .

وقد رأى بعض الباحثين[٤] أن الديانة الهندية حتى إلى ظهور بوذا قد مرت بها أدوار ثلاثة .

الأول :دور التوحيد الخالص وهو دين قدماء الهنود الذين انحدروا عن الأصل

---

(١) والجينيون يشكّلون الآن حوالي مليون نسمة من سكان الهند ، ومعظمهم من كبار أصحاب الأموال ، ويمتنعون عن ممارسة جميع المهن التي تؤدي إلى تربية الحيوانات وبيعها وذبحها .

(٢) صفحات متفرّقة من كتاب « الفلسفة الهندية » ، و« المذاهب الهندية الستة » ، وأيضًا « قصة الحضارة » .

(٣) سوتان (٤٥١ ، ٤٥٢) .

(٤) انظر « الدين المقارن » لمحمود أبو الفيض المنوفي الحسيني (٥١) .

السامي (نسبة إلىٰ سام بن نوح معلّمهم ومرشدهم وراثة عن أبيه) .

الثاني : دور الكهنة البرهميين والرموز الطقسية ، وفيه نشأ الثالوث الهندي براهما ، وفشنو ، وسيفا . وذلك بعد انقضاء أزمنة طويلة علىٰ الدور الأول ، ويعتبر هذا الدور دور التعدّد والوثنية ؛ لما فيه من كثرة الآلهة وكثرة الخرافات والأساطير .

الثالث : دور الالحاد الخالص ، وفي هذا الدور ظهرت الجينية ثم البوذية التي نحن بصددها في هذا البحث .

* * *

الباب الأول

بوذا ومذهب البوذية

ويشمل خمسة فصول :

الفصل الأول

بيت بوذا وحياته

وفيه خمسة مباحث :

المبحث الأول : نسبه وولادته .

المبحث الثاني : نشأته واتجاهه .

المبحث الثالث : حياته التقشفية .

المبحث الرابع : استنارته المزعومة .

المبحث الخامس : وفاته .

الفصل الأول

بيت بوذا وحياته[1]

المبحث الأول

نسبه وولادته

منذ ألفين وخمسمائة سنة تقريبًا في الأرض التي تقع في الشمال الشرقي من الهند على حدود تبت (Tibet) كانت هناك عدة إمارات صغيرة لكل منها ملك يحكمها ويطلق عليه راجا (Raja) أو مهاراجا (Maharaja) ومن بين هذه الإمارات إمارة يقال لها « ساكا » (Saka) [2] وعاصمتها مدينة « كابيلافا ستو »[2] (Kapilavastu)وهي موطن قبيلة « ساكيا » (Sakya) من عائلة آرية (Aryan) ومن طبقة الكشتريا (Kshatriyas) وهي جماعة القواد والعساكر ، وكان يحكم على هذه المدينة رجل من نبلاء هذه القبيلة ويدّعي سودودانا (Suddhodhana) من أبناء عشيرة جوتاما (Gautama) ولذا يطلق عليه أحيانًا سودودانا جوتاما . كان له فيها ضياع فسيحة وقصور شاهقة وجاه عريض ، وكان متزوجًا من نبيلة اسمها

---

(١) إننا في حقيقة الأمر لا نعرف شيئًا عن بوذا معرفة اليقين لأن قصته لا تتجاوز عن كونها مجموعة من الأساطير القديمة يتوارث البوذيون بينهم خلفًا عن سلف بدون سند أو شبه سند ، وكان معظمها أقاصيص خرافية لا تمت إلى التاريخ الصحيح بصلة ، ولكن لم نعرف حياة هذا الرجل الشهير إلا من هذه الأساطير ، فمن الضروري أن نرويها ونحكيها كما هي في كتبهم ، وكما يعتقد أهلها ، وليس ذلك لأنها تاريخ نريد إثباته ، ولكنها جزء ضروري من تاريخ هذه الديانة وتصويرها .

(٢) مر تعريفها .

« مايا » (Maya) وهي بنت ملك مدينة « ديفاداها »[١] (Devadaha) وأنجب هذان الأبوان طفلاً أطلق عليه « سدهارتا » (Siddhartha) واشتهر فيما بعد بلقب « بوذا » .

واختلف الباحثون حول تاريخ ميلاده ، ولكن آخر نتيجة وصلوا إليها في هذا الصدد هو أنه ولد في (عام ٦٢٣) قبل ميلاد المسيح عليه السلام[٢] .

وتروي القصة البوذية أنه عندما حملت الملكة « مايا » (Maya) بوذا ، وقربت ولادته رغبت في الذهاب إلى بيت أهلها بمدينة ديفاداها (Devadaha) جريا على عادة البرهميين ، حيث تضع المرأة حملها عند بيت أهلها لا عند بيت زوجها ، فوجهت رغبتها إلى زوجها الملك سودوهانا (Suddhodana) فوافق عليها وأرسلها إلى بيت أهلها في حاشية كبيرة[٣] .

وكانت في الحدود بين البلدين حديقة كبيرة ذات أشجار جميلة يملكها أهل المدينتين جميعًا يقال لها حديقة لومبيني (Lumbini) وكانت الحديقة إذ ذاك كتلة واحدة من الزهور التي تغطي جميع الأشجار ؛ فلما رأتها الملكة رغبت في أن تمرح في الحديقة فذهبت إلى مرحها بالأشجار والزهور ؛ وفي خيمة من الأشجار داهمتها آلام المخاض فمدت يدها لغصن شجرة تستند عليه ، ووضعت وليدها وهي واقفة مستندة على غصن شجرة[٤] .

---

(١) سبق تعريفها .

(٢) هذا التحديد ذكره معظم الباحثين من علماء الأديان ، والبوذيون يقولون إن بوذا ولد في (سنة ٨٠ قبل التاريخ البوذي) . وذلك لأنهم يعدون بداية التاريخ البوذي من يوم وفاته ، وكانت وفاته في سن الثمانين الموافق (سنة ٥٤٣ ق م) . والتاريخ البوذي الموافق لعام (١٩٨٧ م) هو (٢٥٣٠) على المشهور .

(٣) « قصة بوذا » (١/ ١٤) .

(٤) « تاريخ الديانة البوذية » (٤) وأيضًا « قصة بوذا » (١/ ١٦) . وقد بنى « أشوكا » (Ashoka) (٢٧٣ ـ ٢٣٢ ق م) أحد ملوك الهند أسطوانة حجرية منقوشة في المكان الذي ولد فيه بوذا لتكون علامة على مولده ولا تزال موجودة حتى الآن في قرية (Padavia) في نيبال والبوذيون يتوافدون إليها ويقدسونها .

وهناك أساطير كثيرة في الكتب البوذية تروىٰ حول الغرائب والعجائب التي حدثت عند ولادة بوذا منها :

١ ـ أن الملائكة في السماء احتفلت بولادته ، وسبحت بحمده قائلة : ولد اليوم بوذا علىٰ الأرض ليمنح السلام للناس وينقذ العالم[١] .

٢ ـ حصلت تغيرات في الطبيعة حينذاك : فرحت الحيّات ، وانشدت العصافير ، وتلألأ النور في العالم ، وظهر نجم في السماء يبشر به ، ويقود من رآه إلىٰ مدينة « كابيلافستو » مكان مولده ليهنئه ويسجد له[٢] .

٣ ـ أن تجسّد بوذا كان بواسطة حلول روح القدس في رحم الملكة « مايا » التي لم يمسها أحد ، لأنها رأت في منامها أن الإله قد حلّ في أحشائها في شكل فيل أبيض كالفضة ، وفسره المنجّمون بأنه سيولد لها ابن يحكم الدنيا ؛ إلا أنه سيتخلّىٰ عن العرش ؛ ويتزهد وسيكون مخلصًا البشرية[٣] .

وغير هذا من الأشياء العجيبة التي رواها البوذيون في كتبهم وقد كثرت مثل هذه الروايات في كتب « مهايان » (Mahayan)[٤] ومن الغريب أن بعض هذه الروايات الأسطورية تشبه ما رواه المسيحيون في أناجيلهم من معجزات المسيح عليه السلام عند ولادته مما يدل علىٰ تأثير البوذية في المسيحية الحالية .

ففيما يروي إنجيل متىٰ[٥] أن مريم حبلىٰ من الروح القدس وأن ملاك الرب ظهر ليوسف بن داود في حلم قائلاً بأن ابنا سيلد واسمه يسوع ليخلّص شعبه من خطاياهم ولما ولد يسوع ظهر نجمه في المشرق يقود الناس ويتقدمهم إلىٰ حيث كان الصبي ، فلما رأوا النجم فرحوا فرحًا عظيمًا جدًا وأتوا إلىٰ البيت ورأوا الصبي مع مريم أمه فخرّوا وسجدوا له .

---

(١) « بوذية مهايان » (١٥) ، و« قصة بوذا » (١/ ١٩) .

(٢) المصدر السابق .

(٣) « تري بيتاكا » (سوتان) (٣١٨) .

(٤) يطلق « مهايان » علىٰ المذهب الجديد في البوذية وسيأتي الكلام عنه مفصلاً .

(٥) انظر « الاصحاح الأول » من فقرة (١٨ ـ ٢٠) و« الإصحاح الثاني » من فقرة (١ ـ ١١) .

وهناك تشابه آخر بين الديانتين سأورده في مكانه .

ومما روىٰ الكتاب « تري بيتاكا »[١] أن بوذا عند ولادته وطئ الأرض بقدميه وسار سبع خطوات ثم قال : « أنا أعظم الناس وولادتي هذه هي الأخيرة علىٰ الأرض » وكان الملك « سودودانا » مسروراً بخبر وليده ، فطلب من زوجته الرجوع مع وليدها إلىٰ « كابيل فاستو » ، ثم أقام حفلة التسمية في اليوم الخامس من الولادة جريا علىٰ عادة الهنود في ذلك الوقت[٢] ودعا جماعة من البراهمة لتسمية هذا المولود فسموه « سدهاتا » (Siddhartha) أي الذي سيبلغ هدفه[٣] .

وكان يطلق عليه عدة ألقاب مثل « جوتاما » (Gautama) أي الراهب و« ساكيا موني » (Sakya Muni) أي المتبتل والمنعزل من قبيلة ساكيا و« تتاغاتا » (Tatakata) أي البالغ أو المخلص[٤] ثم ماتت أمه « مايا » في اليوم السابع فحضنته خالته وتُدعىٰ « مها باشا وادي » (Mahapashavadi)[٥] .

وتحدثت القصة أن هناك في الغابة مواطن لكثير من النساك ، وكان من بينهم ناسك كبير يدعىٰ « كال تيول » (Kaldhevil) وكان برهميًا يعيش حياة نسك ورهبنة سمع صوتًا في السماء يعلن مولد الطفل الذي سينقذ العالم ، فدخل المدينة لزيارته ، وأمام « سودودانا » قال الناسك : جئت لأبارك المولود الجديد ، ثم قبّله وجعل يبكي ، فسأله الملك عن سبب بكائه فقال : لقد أنجبت طفلاً رائعًا سأعبده منذ اليوم عوضًا عن براهما ؛ إنه إذا سكن بيته فسيكون ملكًا يحكم الدنيا بأسرها ، أما إذا تخلّىٰ عنه وخرج من أحضان العالم للتنسك فسيصبح بوذا العالِم المستنير وسيخلّص البشر ، وما بكائي إلا لأنني سأموت قبل أن يصبح ابنك بوذا فلا أستطيع الاستماع لكلامه .

---

(١) سوتان (٣١٨) .

(٢) « قصة بوذا » (١/ ٢٢) .

(٣) المصدر السابق (١/ ٢٥) .

(٤) « تاريخ الديانة البوذية » (٤٨) .

(٥) المصدر السابق (١٢) و« قصة بوذا » (١/ ٢٣) .

ثم سجد وجهه للطفل وانصرف .

واستغرب الملك من سجود الناسك للطفل ، ثم أدرك أنه ينبغي له أيضًا أن يفعل كما فعل الناسك فسجد وجهه لوليده احترامًا وتقديسًا له[١] .

* * *

(١) « قصة بوذا » (١/ ٢٣ ـ ٢٦) .

ولا يزال سجود الآباء لأبنائهم عادة معروفة في البوذيين إلى الآن والبوذيون كما رأيتهم يسجدون لأبنائهم المترهّبين ويسجدون للأموات ، سواء كانوا من البوذيين أو غيرهم ، كما يسجدون لكل شيء يقدسونه من الإنسان والحيوان والجماد .

المبحث الثاني
نشـــأته واتجـــاهه

نشأ سدهاتا (Siddhartha) نشأة الأمراء ، وأبناء الملوك ، وأحيط به من أسباب العزّ والترف واليسر والثراء ، ووجد الدنيا كلها تحت أمره ، وتهيأت له مفاتن الحياة ، وشب سدهاتا في هذا النعيم العظيم ، باعتباره ابنًا للملك من ناحية ، ومن ناحية أخرىٰ تأثر والده الملك « سودودانا » (Suddhodhana) من تنبؤات الناسك « كال تيول » الذي قال : إن سدهاتا سيصبح بوذا العالم المتنور إذا ترك بيته وخرج من أحضان العالم ، والملك لا يريد من ابنه إلا أن يكون ملكًا بعده ، وهذا هو أمله الوحيد من ابنه « سدهاتا » وعلىٰ هذا قرّر الملك في نفسه أنه سيفعل كل شيء في تحقيق هذا الأمل ليكون « سدهاتا » ملكًا عظيمًا في المستقبل ، فلما بلغ عمره ست سنوات أرسله الملك إلىٰ أحد العلماء المشهورين في ذلك الوقت يقال له «جورو وسوامترا » (Guru Viswamitra)[١] فتعلم منه الفنون العسكرية من الرمي والفروسية وغيرها ، وأحسن تدريبه فيها ، فسرّ به والده وعشيرته[٢] .

وذكرت بعض المراجع أن سدهاتا تعلّم أيضًا من أستاذه النظريات الفلسفية التي كانت شائعة في عصره ، وأتقن فيها[٣] .

---

(١) ذكرت بعض المراجع أنه من أحد فلاسفة المغوليين وليس من البراهمة وأنه هو الأستاذ الوحيد الذي درس منه بوذا وتأثر منه كثيراً قبل خروجه إلىٰ الترهب . انظر « دراسات في الديانة البوذية » (٣٢) .

(٢) « قصة بوذا » (٢/ ٢١) .

(٣) « دراسات في الديانة البوذية » (٣١) .

ويؤيد ذلك ما روي في كتاب « تري بيتاكا »[١] أنه عندما أقام المزارعون في مدينة « كابيلافاستو » حفلة سنوية لبداية الموسم الزراعي حضر الملك سودودانا كعادته ليحرث الأرض مع الناس ، ومعه ابنه سدهاتا ، ولما جاء وقت الطعام ، ذهب جميع الناس إلىٰ مأدبتهم وتركوه وحيدًا ، فذهب سدهاتا إلىٰ إحدىٰ شجرة كبيرة مظلة ، وجلس تحتها ، وأحسّ بالراحة والسكينة ، فجعل يبدأ بالتأمل الذاتي (Meditation) علىٰ طريقة « يوجا » (Yoga) تطبيقًا للنظريات الفلسفية اليوجية التي تلقاها من أستاذه وسوامترا ؛ فركز تفكيره وأفرغه عن كل الحواس الدنيوية ، ثم أخذ يتأمل في حالة هؤلاء الناس الذين يفرحون بحفلتهم ويتلذذون بطعامهم ، إن بجانبهم أبقارًا تتعب وتألم بسبب جلب المحراث الثقيل ومعاملة غليظة من صاحبها وأخذ يتأمل في حالة الحيوانات حوله من الطيور والحشرات والزحّافات فرأىٰ حرباء خرجت من مكانها ، فأكلت النملة الصغيرة ثم تقدمت حية فأكلت الحرباء ، وفي ذلك الحين جاءت حدأة فخطفت تلك الحية وأكلتها ، فقال سدهاتا في نفسه : إذا كانت الحياة هي كما نرىٰ فلابدّ أن يكون لكل نعيم هموم وأحزان بعده ، وأحسّ بأنه بينما كان في ترف ونعيم هناك آلام عظيمة يعانيها كثير من البشر والحيوانات ، وتسائل نفسه باستمرار « ألا يمكن أن يكون العالم شيئًا غير هذا ؟ »

وتروي القصة أن تأمله هذا أدىٰ إلىٰ فقدان شعوره ، ومازال علىٰ هذه الحالة إلىٰ أن جاءه مربّيه فأخذه إلىٰ والده ، وأثناء طريقه إلىٰ القصر كان قلقًا مضطربًا بالأفكار المختلفة ، وأحس بالأسىٰ والحزن علىٰ الآلام والهموم التي تسيطر علىٰ الحياة البشرية والحيوانية كلها[٢] .

إن هذه الأحاسيس لها أثر كبير في اتجاهات سدهاتا وميوله ، وقد أدرك الأمر الملك « سودودانا » فحاول مقاومته وبذل جهوده في إبعاد المناظر المؤلمة عن عينيه ، وأسبغ عليه مزيدًا من الملذات والمسرّات لتجذبه وتصرفه عن

---

(١) سوتان (٣٢٠) .

(٢) « تاريخ الديانة البوذية » (٢٦) .

التفكير في الآلام والهموم[1] .

وروىٰ في كتاب « تري بيتاكا »[2] أن الملك أمر ببناء ثلاثة قصور لابنه ؛ قصر للصيف ، وآخر للشتاء ، وثالث لفصل الأمطار ؛ يقضي فيه أربعة أشهر بين تسلية الراقصات الجميلة ، ولكن سذهاتا لم يستسلم ولم يرض للحياة التي رسمت له من هذه الملذات والثراء ولم ير أن لها قيمة في حياته ، فلا يزال يتفكر في الآلام .

وقد تمكّن هذا التفكير من حياته ، فلم يكن من السهل أن يبعد عنه ، فاستشار الملك عشيرته ووزراءه فلم يجدوا خيراً من أن يزوّجه فتاة جميلة لعلها تشغله عن التفكير ؛ فزوّجه من ابنة حاكم القطر المتاخم « ديفاداها » (Devadhaha) وتدعىٰ «ياسودهـرا» (Yasodhara) وكان عمره حينئذ (١٦) سنة[3] .

وتروي القصة أن زواج « سذهاتا » لم يصرفه عن التفكير ، فلم يزل يتفكر بمشكلات الناس ومتاعبهم وآلامهم ، ولاسيما طبقة البؤساء والفقراء ، وما أحدثه كهنة البراهمة من التغيير في الدين رغبة في التسلّط عليهم .

وقد زاد به هذا التفكير يومًا بعد يوم حتىٰ صار لا يتركه في منامه ، فسئمت نفسه من مجد السلطان ومن ملاذ هذه الحياة[4] .

ثم تروي القصة أن في ذلك الحين اتفقت له أربع مصادفات[5] :

---

(١) المصدر السابق .

(٢) سوتان (٣٢٦ ، ٢٢٧) .

(٣) « قصة بوذا » (٢/ ٤٧) و« تاريخ الديانة البوذية » (٣٠) .

(٤) المصدر السابق (٢/ ٥٤) .

(٥) ذكر بعض المراجع البوذية أن هذه المصادفات الأربع صور تمثلها الملائكة التي نزلت من السماء والملائكة (Devadha) في اعتقاد البوذيين نوع من الكائن الحي يشترك مع الإنسان في جميع الصفات في الولادة والشيخوخة والمرض والموت وفي وجود الشهوات والرغبات وأنه يبعث ملائكة نتيجة من عمله السابق ؛ وعلىٰ هذا يقول البوذيون إن بوذا أفضل من الملائكة (Devadha) لأنه تخلص من الصفات البشرية وتخلص من تكرار المولد .

الأولى :أنه صادف في الطريق رجلاً عجوزًا يتوكأ علىٰ عصاه ، وقد تقوّس ظهره ، فاضطرب له سِذهاتا ، وتألم له ، فسأل رفيقه شانا (Ahanna) قائلاً « ما شأن هذا الرجل ؟ أراه ضيئل الجسم ، عديم القوة ، قد جفّ لحمه وعظمه ، والتصقت عضلاته بجلده ، وأبيضّ شعره وسقطت أسنانه ، وهو يئنّ بصوت مزعج سائلاً الطعام من الناس ، هل هذا الحال صفة من صفات عائلته ، أو مصير كل كائن حي في هذا العالم ؟ فأجاب شانا (Ahanna) قائلاً : « أيها الأمير إن هذا الرجل كان شابًا قويًا مثلنا ، وقد أدركته الآن الشيخوخة ، وضعفت سائر حواسه ، واستخفّ به أهله ، وتركوه بلا عائل ، وقد أصبح كما ترىٰ لا يغني في العمل شيئًا ، فيئس منه أهله ، وأهملوه ليموت كما تموت الخشبة في الغابة ، وليس حاله هذا خاصًا بعائلته دون العائلات ، فإن كل كائن حيّ مصيره هذا الحال ، يحلّ لديه الهرم محل الشيخوخة ، وسينتهي أمر والدك وزوجتك ورفيقك وغيرهم من الناس إلىٰ الشيخوخة والعجز ، فلا مفرّ لهم من هذا السبيل وهكذا نهج الحياة ، فلا تعتن به أيها الأمير » .

فقال سذهاتا : « أرىٰ الإنسان في جهله وضعفه يفخر بالشيبوبة ولا ينظر إلىٰ الشيخوخة التي تستدركه ، أما أنا فسأكون محلاً للشيخوخة وآلامها ، لا يليق بي أن أفرح ، وكيف أفرح بشبابي وصحتي وزوجتي وولدي وأنا عارف بما ينتظرني » ورجع من فوره إلىٰ قصره .

الثانية :ثم بعد مضي أيام ؛ خرج ثاني مرة مع حاشية كثيرة قاصدًا حديقته يتنزه فيها ، وإذا بمريض صادفه في الطريق كان يتلوىٰ من المرض ، ويئنّ من الألم ، ويشكو من العناء ، وأرهقه الخوف من الموت ، فصاح سدهاتا برفيقه شانا سائلاً عن أمر هذا الرجل ، فقال شانا : « أيها الأمير لا تهتمّ بهذا الرجل ، إنه مريض ، أصابه مرض الطاعون الفظيع ، ولا معافاة ، وكلّنا عرضة للإصابة بمثله ، ولا يستطيع أحد إيقافه » قال سدهاتا : « إذن الصحة حلم سريع الزوال» .

الثالثة : ثم بعد أيام خرج ثالث مرة فشاهد أربعة أشخاص يجتازون الطريق، حاملين على أكتافهم جثمانًا يتبعه جمع من الناس ويبكون ، فاضطرب له سدهاتا، وسأل رفيقه شانا عن هذا الأمر فقال : « إن هذا هو الميت ، قد انتهت حياته ، وفقدت أحاسيسه ، وهكذا نهج الحياة فلا تهتم به » .

قال سدهاتا : « يالتعاسة الحياة ! تهدّها الأمراض ، وتتربّص بها الشيخوخة، وتنتهي بالموت ، ليت الشيخوخة والمرض والموت كلّها لم تكن، أو كانت مقيّدة فلا تعدو على أحد أبدًا » وتسائل : « هل من أحد يستطيع أن يجد الطريق التي يتخلص بها الإنسان من هذه الآلام » ؟ وأخذ سدهاتا يبحث عن الطريقة ، أو الوسيلة التي يستطيع الإنسان أن يتغلب بها على الولادة والشيخوخة، والمرض ، والموت[١] .

أقول إن هذه القصة ـ على فرض صحتها ـ لا تدل على عبقرية سدهاتا أو ذكائه كما يدّعيه البوذيون ، وإنما تدل على ما يخالف ذلك إذ لا يعرف شيئًا من طبيعة البشر التي سن الله في كل إنسان من أحوال الشيخوخة والمرض والموت وما شابه ذلك وهو ابن تسع وعشرين سنة كما ذكره معظم المراجع[٢] .

أما كونه نشأ بعيداً عن المناظر المؤلمة فلا يعتبر مانعًا من المعرفة بهذه الأمور لأنها من البديهيات البشرية التي يعرفها كل إنسان من دون اكتساب .

وعلى كل فإن هذا الاتجاه الذي اتجه إليه سدهاتا اتجاه قاصر جدًا إذ تدور أفكاره حول شيء واحد وهو آلام بني الإنسان والحيوان التي تتمثل في الولادة والشيخوخة ، والمرض ، والموت .

---

(١) مراجع كثيرة ساهمت في هذه المعلومات منها « تري بيتاكا » (سوتان) (٣٣٢ ، ٣٣٣) و« قصة بوذا » (٣/ ٦٠ ، ٦١) و« تاريخ الديانة البوذية » (٣٦ـ٣٨) و« مقارنة الأديان » (١/ ١١٥) ، وانظر بالعربية : « أديان الهند الكبرى » (١٣٨ ، ١٣٩) ، و« الفلسفة الشرقية » (١٢٦) ، و«قصة الحضارة » (٣/ ٦٧) وبالإنجليزية « دائرة المعارف البريطانية » (٣/ ٣٧٠) .

(٢) انظر المصادر السابقة وانظر بالعربية : « الهند عقائدها وأساطيرها » (١٣١) و« ذيل الملل والنحل » لمحمد سيد كيلاني (٢/ ١٤) .

ويروىٰ أنه سأل نفسه دائمًا هذه الأسئلة التافهة .

لم الولادة ؟ ولم الهرم ؟ ولم المرض ؟ ولم الموت ؟ وما أسباب ذلك ؟ ومن أين هذا الألم ؟ وكيف يكافح ؟[١] .

ولم يرو أنه سأل نفسه مرة مثل هذه الأسئلة القيمة والخالدة . ما الكون ؟ وما الإنسان ؟ ومن أين جاء ؟ وإلىٰ أين مصيره ؟ أو ما الحياة ؟ وما الموت ؟ وماذا بعدهما ؟

هذه الأسئلة التي ألحّت علىٰ الإنسان العاقل من يوم وجد وستظل تلحّ عليه إلىٰ أن تطوىٰ صفحة الحياة .

وقد أدّىٰ اتجاهه القاصر إلىٰ أن أصبحت الحياة كلها في نظره عذابًا وجحيمًا لأنها سبب لصيرورة الإنسان إلىٰ هذا المصير المشئوم إلىٰ الهرم والمرض والموت ؛ فلو أن الحياة أصيبت بعقم لما وقع هذا المصير الذي يلاقيه الناس .

ومن هنا رأىٰ سدهاتا أن خيراً للإنسان أن لا يولد ؛ لأنه عندئذ لا تجد الحياة من تصبّ بلاءها عليه .

وفي هذا يقول : « أيها الرهبان ، الحق أقول لكم ، إن الولادة أمّ الآلام جميعًا ، ومع ذلك فالولادة ماضية في طريقها ، إنها ماضية إلىٰ الأبد في طريقها إلىٰ الآلام والأحزان البشرية ؛ فلو استطعنا وقف هذه الولادة والشيخوخة ، والمرض والموت . . . . لماذا لا نوقفها » ؟ . . .[٢] .

ولا شك أن هذه الفكرة الغريبة أو قل النظرة المتشائمة إلىٰ الحياة قد تأثر سدهاتا من الفلسفات الهندوسية المنتشرة في عصره ، فلما رأىٰ المناظر المؤلمة ضعف دافع المقاومة في نفسه ، ورجح عنده الميل إلىٰ سلوك نفس الطريق الذي سلكه الهندوس من قبل[٣] .

---

(١) انظر « تري بيتاكا » (سوتان) (٦١١) و(أبيدارما) (٦٣٦) .

(٢) « تري بيتاكا » (أبيدارما) (٦٥١) .

(٣) انظر « أديان الهند الكبرىٰ » (١٤١) .

وتروي القصة أنه خرج رابع مرة للارتياض قاصداً حديقته ، فالتقى براهب على ملامحه السكينة والهدوء ، وارتاح لرؤيته ، فسأل رفيقه « شانا » عن حال هذا الرجل فقال : « هذا واحد ممن يدعي « بهيكشو » (Bhikshu) أي الراهب المتسول الذي جافى جميع أنواع الملاذ ، وبعد عن كل أسباب السرور واقتنع بأن يعيش معيشة الزهد والقناعة ، ويطوف على الناس يسألهم قوت يومه » فاستحسن سذهاتا هذا الكلام وقرّر في نفسه أن يكون راهبًا وأن يترك رتبته الملكية وأن يبحث عن الوسيلة التي يتخلص بها الإنسان من آلام الحياة(١) .

وتحدثنا القصة أنه لما وصل سدهاتا إلى البيت بشّروه بولادة ابن له ، فتمتم قائلا : « هذا قيد جديد لي » فأطلقوا على ابنه اسم « راهولا » (Rahula) ، ومعناه القيد أو الربقة(٢) .

* * *

(١) « تاريخ الديانة البوذية » (٦٣) .
(٢) « قصة بوذا » (٢/ ٦٧) .

المبحث الثالث

حياتــه التقـشـفيـة

صمّم سدهاتا أن يترك أباه وزوجته وولده الرضيع ليضرب في الصحراء زاهدًا راهبًا لعله يصل إلىٰ معرفة سر الكون ، وذلك بعدما اتفقت له المصادفات المذكورة واستولت عليه رغبة شديدة في الجري وراء الحقيقة . وكان عمره حينذاك تسعًا وعشرين سنة وتروي الأسفار البوذية في خروجه[١] أنه لما أسدل الليل ستاره تسلل سدهاتا إلىٰ غرفة زوجته ، فرآها نائمة علىٰ السرير وقد وضعت يدها علىٰ رأس ابنها ؛ عند ذلك شعر بحنين عظيم أن يحمل الطفل ويعانقه ، ولكن خوفه من إيقاظ زوجته منعه من ذلك ، وقال لنفسه : « لو أزحت يدها لآخذ ابني فستستيقظ وسيكون ذلك حائلاً دون فراري ، إنني إذا ما أصبحت بوذا سأعود لأراه » .

وأخيرًا ولىّ ظهره ، وركب جواده « كانتاكا » (Kantaka) ، وخرج في عتمة الليل مصحوبًا برفيقه « شانا » (Shanna)[٢] .

وفي ظلمة الصباح الباكر توقف خارج أراضي عشيرته علىٰ ضفّة النهر أنوما (Anoma) وهناك ترجّل بقدميه ، وقصّ شعر رأسه المتموّج ، واستبدل ثوبه الملوكي بثوب آخر من لون أصفر ، وهو من رداء الزاهدين اليوجيين (Yogi) وخلع عنه كل حلية ، ثم قدّمها إلىٰ رفيقه شانا (Shanna) قائلاً : « خذ هذه الحلية وهذا الجواد إلىٰ البلاط فمن الآن أنا زاهد »[٣] .

---

(١) انظر « تري بيتاكا » (فينايا) (١٩٧) وأيضًا (سوتان) (٣١١) .

(٢) « قصة بوذا » (٢/ ٦٩) .

(٣) « تاريخ الديانة البوذية » (٧٦) .

ثم واصل سيره حتى بلغ مدينة « فيسالي » (Vesali) [١] حيث التقى ببعض المعلمين من البراهمة فتعلّم منهم طريق الخلاص ثم قرّر الرحيل بعد ما عرف نقائصها ، واتجه جنوبًا إلى إمارة « مجدا »[١] (Magada) حيث تكون مدينة « راجاغريها » (Rajakareha)[١] وكان عندما دخل المدينة يتنقل من بيت إلى آخر صامتًا يستجدي الطعام من الناس ويجمع بكشكولته صدقات المحسنين[٢] وتروي الروايات أن «بمبيسارا» (Pimpisara) ملك المدينة استقبله وعرض عليه ملكها العرش ، فرفض سذهاتا مصرًا على عزيمته الأولى ثم خرج من المدينة ، واتجه إلى مثوى النساك والمعلمين ، والتقى براهبين يقال لهما « آلاراكالاما » (Alarakalama) و«أوتاكا رامابوترا» (Utaka Ramabuttra) ، فبقي معهما ، ودأب على دراسة فلسفات الهندوسية واليوجية ، وتخرّج على أيديهما ؛ إلا أنه لم يجد الأجوبة الشافية لتساؤلاته[٣] فهجرهما سذهاتا ، وقرّر أن يسعى بنفسه لنيل المعرفة ، وكشف أسرار الكون ؛ وسار بمفرده حتى استقر على مكان يقال له « أوروفيلا » (Uruvela) وهو مكان رائع وغابة خضراء على قرب من النهر والقرية ، فاستحسن هذا المكان ، واتخذه ليخضع نفسه لأشقّ أنواع التقشف[٤] .

وكان الفكر الهندي القديم ميّالاً منذ القدم إلى الاعتقاد بأن القوة والمعرفة يمكن الحصول عليها بالزهد المفرط ، أي بالصوم وتعذيب النفس ، وعن طريقهما يصل الإنسان إلى غايتهم الأسمى ، وهي الانطلاق من دورات الوجود المتوالية ، والاندماج في الإله « براماتما » وعلى هذا الأساس ، فلا يهتمّ الفكر الهندي بالجسد لاعتباره محلاً للعاهات ، ووعاء لسائر الآلام ، وهو سائر إلى الانحلال والفناء ، فمثله كمثل جثّة لا قيمة لها .

---

(١) انظر خريطة المدن التي تجول فيها بوذا .

(٢) الكشكولة عبارة عن قصعة سوداء مصنوعة غالبًا من الحديد أو الطوب وقد استعملها الرهبان البوذيون للتسول الذي صار عادة من عاداتهم إلى اليوم فكل صباح نستطيع أن نشاهدهم يتجولون في البيوت ويحملون في أيديهم كشكولة سوداء يجمعون فيها قوت يومهم .

(٣) « تاريخ الديانة البوذية » (٢٤) .

(٤) المصدر السابق (٢٧) .

وأما الروح فهي موضع الاهتمام والتقديس ، ومن أجل ذلك حفلت حياة كثير من الهنود قديمًا وحديثًا بالبؤس ، ومحاربة الملاذ ، وتعذيب النفس .

قال الدكتور أحمد شلبي :

« لقد امتهنت أديان الهند الجسم بل عذّبته وحرمته الطعام والشراب والملاذ المباحة غالبًا ، وعرضته الجينية للعري وعوامل الجو القاسية ، وفكرت فيه أديان الهند على أنه جثة عفنة سريعة العطب والفناء ، وكان من الممكن أن تعتبره الهيكل الذي تعيش به الروح المقدس »[1] .

وقد حكيت حكايات كثيرة حول النسّاك اليوجيين والجينيين الذين مارسوا أساليب عنيفة متعددة لتعذيب أبدانهم .

فلجأ سذهاتا إلى اختيار هذه الأساليب ، وقام بألوان من الرياضات النفسية التي اشتهرت في عصره في ربوع الهند رغبة في أن يطهّر نفسه حتى تصل إلى الخلاص، وصار يسمى من هذا الحين جوتاما (Gautama) أي الراهب .

وتروي القصة أنه في هذا الطور عاش على الحبوب والكلأ ، وخلع ثيابه واكتفى برقاع أو أوراق الشجر يستر بها عورته ، وألقى بجسمه بين الأشواك والحصا ، وكان يلطّخ جسده بالتراب والقذر ، ويقضي طول نهاره واقفًا تحت حرارة الشمس ، وكثيراً ما كان يرتاد مكانًا تلقى فيه جثث الموتى ، فينام بين هذه الجثث العفنة، وبدأ يحدّ من كمية غذائه حتى انتهى به التدرج إلى أن جعل طعامه أحيانًا حبة من الرز في اليوم[2] .

وذكرت الروايات أن الرياضات العنيفة والأعمال القاسية التي مارسها «جوتاما» في هذه الفترة قد كلّفته اضمحلالاً في جسمه ، وانحلالاً في قوته ، وأصبح هيكلاً من العظام بسبب معاناته الجوع والعطش والمتاعب والمشاق[3] .

---

(١) « أديان الهند الكبرى » (٢٠١) .

(٢) « تري بيتاكا » (فينايا) (١١٠ـ١١١) و« قصة بوذا » (٢/٣١٨ ، ٣١٩) .

(٣) « قصة بوذا » (٢/٣١٩) .

وصحبه في هذه الفترة خمسة من النساك[١] رأوا فيه مثالاً أعلىٰ للزهادة والتقشف فاحترموه وجعلوه معلمًا[٢] .

وتروي القصة أن جوتاما استمر علىٰ هذه الحالة ستّ سنين لم يدرك له وطرًا ولم يصل إلىٰ غايته ، وبعد أن أنهكه الجوع وهدّده الموت أدرك أن ما هو عليه من تعذيب الجسم ليس بقادر علىٰ إيصاله للمعرفة الحقيقية ، فعدل حينئذ عن قراره بقساوته علىٰ جسمه وقرّر أن يعود إلىٰ طعامه وشرابه[٣] .

وفي هذا قصّ علىٰ تلاميذه قائلاً :

« إن ما قمت به من تعذيب الجسم لم يكن صوابًا فعليّ إذن أن أعود إلىٰ تقوية جسدي بالشراب والطعام . . . وإذا كان المهم التغلب علىٰ النفس فما يهمها عندما تكون مغلوبة أن يكون الجسم هذيلاً و سمينًا »[٤] .

ويبدو من خلال هذا النص أن جوتاما قد رجع إلىٰ رشده ، وتخلّىٰ عن وسائله القديمة المتوارثة ؛ غير أن تعاليمه فيما بعد تشير إلىٰ أنه لم يستطع التخلي عنها تخليًا تامًا كما سنبينه مفصلاً إن شاء الله .

وقد أعلن في هذه الفترة أن الزهد وحده لا يكفي لتحقق الخلاص والمعرفة، بل لابد لتحققهما من الثقافة الروحية العميقة، وأعلن أن العقل السليم يتغذىٰ في الجسم السليم[٥] .

وكانت هذه الفكرة غريبة غير معهودة في نساك عصره ؛ إذ كانوا يعتقدون أن الطريق الوحيد للمعرفة وكشف أسرار الكون هو التقشف وتجويع النفس وتعذيبها ، ولذلك لمّا رأىٰ تلاميذه الخمسة أن سيّدهم قد عاد إلىٰ حياته الأولىٰ

---

(١) وهذه أسماؤهم (١) كونتانيا (Kontanya) (٢) وابا (Vappa) (٣) باتيا (Patiya) (٤) مهامانا (Mahamana) (٥) أساساشي (Asa sashi) وكان هؤلاء الخمسة أول حوارييه .

(٢) انظر « تري بيتاكا » (سوتان) (٤٤١) .

(٣) « تاريخ الديانة البوذية » (١٠٣) .

(٤) المصدر السابق وانظر أيضًا « تري بيتاكا » (سوتان) (٤٣٤) .

(٥) « قصة بوذا » (٢/ ٣٢٥) وقارن بما في « أديان الهند الكبرىٰ » (١٤٢) .

وتناسى القصد الذي رمى إليه ، أخذتهم الشكوك وظنّوا به الظنون ، وانصرفوا عنه قائلين : « إن « جوتاما » سيّدنا قد تركنا منفردين في نسكنا نطلب مسراتنا الروحية » وتوجّهوا إلى مدينة « فاراناسي » (Varanasi) في حالة حزن وقنوط .
وانعزل جوتاما في غابة « أوروفيلا » (Uruvela) متابعًا تفكيراته ، ورأى أن ما وصل إليه لم يبلغ بعد طريق الحكمة القادر على الإفناء النهائي للولادة والمرض، والشيخوخة ، والموت[١] .

* * *

---

(١) « مقارنة الأديان » (٢/ ١٠٨ ، ١٠٩) و« قصة بوذا » (٢/ ٣٢٢) .

المبحث الرابع

استنارته المزعومة (Inlightenmend)

ونعني بكلمة « الاستنارة » أي المرحلة التي ادّعى فيها جوتاما (Gautama) أنه حصل على النور والنجاح والمعرفة بعد أن كابد أقصى ما يتصوره العقل من تجارب عديدة في الزهد والتقشف .

وتعتبر هذه الاستنارة من أهمّ مراحله ، إذ بها تأسست ديانته الجديدة وهي البوذية ، وبها تشكّلت مبادؤه وفلسفته .

وتروي القصة البوذية ما حدث لجوتاما حين حصوله على الاستنارة أنه بعدما انصرف عنه رفاقه الخمسة ، تجوّل جوتاما منفردًا في غابة « اوروفيلا» (Uruvela) وهي التي اتخذت الآن اسمًا جديدًا يتناسب مع هذا الحدث وهو «بودهاغيا» (Budihagya) ، وفي تجواله من مكان إلى آخر جلس تحت شجرة ممتدة الظل من أشجار الغابة ، ويقال إنه جلس ليتناول في ظلها طعامه[1] ، غير أنه أحسّ ببعض الراحة النفسية تحت ظلال الشجرة ، وبينما هو كذلك إذ هتف به هاتف من نفسه أن يجاهد نفسه هذا اليوم حتى يعرف سرّ الكون والحياة ، فجلس هناك جلسة مستقيمة ، لا حركة فيها ، متوجهًا إلى المشرق ، مغمّضًا عينيه ، ضامًا بين رجليه ، ساكتًا ، صامتًا ، مصمّمًا ألا يبرح ذلك المكان ولا يتحرك حتى يجد ما ينشده .

وقصّ على تلاميذه هذا الحدث قائلاً :

« فجلست تحت تلك الشجرة في تلك الليلة في شهر الأزهار ، وقلت

---

(١) ذكر بعض المراجع أن امرأة في القرية يقال لها سوشادا (Sushada) جاءته وقدمت له الطعام في ذلك اليوم . انظر « تاريخ بوذا والبوذية » (٢٦) .

لعقلي وجسدي : « اسمعا لا تبرحا هذا المكان لينشف الجلد ، ولتنقطع العروق ، ولتنفصل العظام ، وليقف الدم عن الجريان ، لن أقوم من مكاني هذا حتى أجد الطريق الذي أتخلّص به أنا وغيري من بني الإنسان من سائر الآلام والأحزان التي تولدت من تكرار الولادة والموت . . . . »[١] .

وفي هذا المكان الجديد بدأت آراؤه عن الحياة تتشكّل ، وعندما انتهى من هذا التشكيل تيقّن من أنه قد وجد السبيل لعلاج آلام الحياة ، فحدث ما تمنّاه ، وتمّ له في هذه الجلسة الاستنارة المزعومة التي كان يترقّبها .

وتروي الأسطورة البوذية أنه عندما أجهد جوتاما نفسه في الوصول إلى غرضه إذ ابتلي بروح الشرور « مارا » (Mara) أي الشيطان قصد هذا الشيطان إلى المكان الذي جلس فيه جوتاما ، وأراد أن يبطل عمله ، ويصرفه عن عزمه ، وحاول إغواءه بصور مختلفة ؛ قال « مارا » : « ابتعد عن طلب الحكمة وعن الدعوة الدينية لتصبح امبراطور العالم » ، ولكن جوتاما صبر على هذا الامتحان الساحر ولم يلتفت إليه ، ولم يهتمّ به ، وصاح به « ابتعد عني » .

وانتصر جوتاما على « مارا » الشيطان ، وفرّ « مارا » مع جنوده الأشرار من أمام شجرة المعرفة ، فتساقطت أزهار كالمطر من السماء ونزلت الملائكة «ديفادها» (Devadha) تخدمه وتبارك عليه[٢] .

ومن الملاحظ أن هذه الأساطير البوذية تشبه ما نص في الأناجيل المحرّفة في قصة المسيح عليه السلام .

فقد نصّ في إنجيل متى الإصحاح الرابع هذه النصوص الآتية :

« إن المسيح بعدما صام أربعين نهاراً وأربعين ليلة جاع أخيراً »[٣] .

---

(١) « تري بيتاكا » (سوتان) (٢٥١) و« تاريخ الديانة البوذية » (١١٤) .

(٢) المصدر السابق (٢٥٩ ، ٥٦٠) و« قصة بوذا » (١/ ٣٢٩) .

(٣) فقرة (٢) .

« ثم أصعد يسوع إلى البرية من الروح ليجرّب من إبليس الشيطان »[١] .

« وأراه الشيطان جميع ممالك العالم ومجدها وقال له أعطيك هذه جميعها إن خررت وسجدت لي »[٢] .

« حينئذ قال له يسوع اذهب عني يا شيطان »

« ثم تركه إبليس وإذا ملائكة قد جاءت فصارت تخدمه »[٣] .

ولا شك أن مثل هذا التشابه بين المسيحية والبوذية دليل على أن المسيحية الحالية قد تأثرت كثيراً بالبوذية التي سبقتها بعدة قرون . وبخاصة أن هذه الأساطير البوذية دوّنت قبل ظهور عيسى عليه السلام كما تقدم بيانه .

وتروي لنا القصة : « إن جوتاما لبث في مكانه لا يبرحه عدة أيام ، وانقطع في التأمل والتفكر العميق (Meditation) حتى غاب عن نفسه وعن كل ما حوله ، وطفق يطرأ عليه حال بعد حال ، ويلحقه طور بعد طور ، ثم عاد شعوره يتجلى رويدًا رويدًا ، فأشرق الكون لديه ، وأصبح العقل يتجرّد عن شوائب المادية ، وأبصر ينابع الحياة ، ومنابع الآلام ، ورأى سبيلاً إلى إعدامها وإطفائها ، فأدرك متمنّاه ، وتخلّص من تقلّبات الحياة ، ونجا من الآلام ، وتنوّرت بصيرته ومعرفته بجميع مشكلات الناس وطريق حلّها »[٤] .

هذه الاستنارة هي التي زعم « جوتاما » لنفسه ، واعتبرها هو وأتباعه لحظة إشراق وفوز .

ويرى بعض الباحثين الغربيين أنها وحي من الله[٥] وهو رأي مردود لا يصح

---

(١) فقرة (١) .
(٢) فقرة (٨-٩) .
(٣) فقرة (١٠-١١) .
(٤) « تري بيتاكا » (سوتان) (٢٥٣-٢٥٤) .
(٥) انظر « أديان الهند الكبرى » (١٤٢) نقلاً عن

القول به في هذا المجال البوذي ، لأن جوتاما (Gautama) لم يدع الوحي إطلاقًا ، ولم يدع أية صلة بالآلهة ، وإنما ادّعىٰ أنه تنور بنفسه وجهوده ، فما زعم قط للناس أن إلهًا كان يتكلّم بلسانه ، بل لم يتكلّم جوتاما أصلاً عن وجود الإله الخالق والإيمان به كما سنبيّنه بالتفصيل إن شاء الله .

والظاهر لدينا أن هذه الاستنارة المزعومة لا تتجاوز عن أنها خيالات تراءت له كردود فعل من تجاربه العنيفة وتأملاته العميقة ، وكذلك تشاؤمه في النظر إلىٰ الكون والحياة .

وتذكر المراجع البوذية مراحل الاستنارة التي أشرقت عليه في تلك الليلة ، وهي ثلاثة :

المرحلة الأولي :أشرقت عليه صورة للموت والحياة يتعاقبان في مجرىٰ الحياة تعاقبًا لا ينتهي ، ورأىٰ أن كل موت يزول أثره بولادة جديدة ، وكل سكينة وغبطة تقابلها شهوة جديدة وألم جديد ، وكل كائن في الكون شيء وهمي لا حقيقة له ، ثم تراءت له سلسلة طويلة من ولادته وموته في دورات حياته السابقة قبل هذه الحياة ، وذكر أنه كان يولد حيوانًا في تلك الدورات ، ثم أخذ يتطهر دورة بعد دورة حتىٰ انتهىٰ إلىٰ هذه الدورة الأخيرة ،وهذا ما يسمىٰ بعقيدة تناسخ الأرواح ودورانها ، وسنبينها بالتفصيل إن شاء الله .

والمرحلة الثانية :أشرقت عليه حالة الكائنات الحية ، حيث إنها تولد وتتجول، وتفنىٰ ثم تعود ، فتولد دنيّة أو سنيّة ، خيّرة أو شريرة ، سعيدة أو شقيّة ، حسب ما يكون لها من « كارما » وفق ذلك القانون الشامل الذي بمقتضاه سيتلقىٰ كل فعل جزاءه ، في هذه الحياة أو في حياة تالية تتقمص فيها الروح جسدًا آخر ، وهذا ما يسمىٰ بعقيدة « كارما » (Karma) وستأتي تفاصيل هذا

= Rene Sedillot : The History of the world P . 62

وانظر أيضًا : Hagmann : Buddhism as a Religion P . 30 , 31 .

الموضوع إن شاء الله .

المرحلة الثالثة :انكشف له ما سمّي عندهم بالحقائق السامية الأربع وهي :

الأولى : تتعلق بالألم أي أن هذا العالم كلّه ألم .

الثانية : تتعلق بسبب الألم أي الألم نشأ من سبب وهو الرغبة في الحياة .

الثالثة : تتعلق بإعدام الألم أي التمكن من إلغاء ذلك الألم بإلغاء سببه .

الرابعة : تتعلق بالوسيلة لإعدام الألم[١] وسيأتي تفصيلها إن شاء الله .

ومن هنا ادّعى جوتاما لنفسه أنه اكتشف الطريق التي يوقف بها الإنسان ألم الحياة ، ويتخلّص بها من تكرار الموالد ومن حلقة التناسخ المستمر ، وينال بها « نرفانا » (Nirvana) وهو عنده السعادة الأبدية .

وادّعى أن اكتشافه اكتشاف جديد يخالف ما عرف في جميع المذاهب الفلسفية في ربوع الهند ، وعلى هذا أطلقوا عليه لقب « بودها » (Buddha) أو «بوذا» في التعريب المشهور ، ومعناه باللغة السنسكريتية والبالية العارف المستيقظ ، والعالم المتنور[٢] .

على أن هذا اللقب « بوذا » ليس خاصًا بواحد بل شرع دين البوذية ليستحقه أناس كثيرون من أهل النفوس العالية على زعمهم ، وعلى هذا قسّموا من يستحق هذا اللقب إلى ثلاثة أصناف :

الأول : « بادجيكا بوذا » (Padjaka Buddha)

ويطلق على الشخص الذي بلغ درجة التنوّر ولكنّه اعتزل عن الناس ولم يؤسّس أي مذهب .

---

(١) انظر « تري بيتاكا » (فينايا) (٢١٢) وأيضًا (سوتان) (٢٥٦ ، ٢٥٧) ، و« قصة بوذا » (٣/ ٣٢ ، ٣٣) .

(٢) « قصة بوذا » (٣/ ٣٣) و« مجموعة المصطلحات البوذية » (٤٣٩) وأشار « تري بيتاكا » إلى هذا المعنى في عدة مواضع انظر على سبيل المثال (أبيدارما) (٦٥٥ ، ٦٦١ ، ٦٨٤) و(فينايا) (١٥٩) و(سوتان) (٢٦٧) .

الثاني : « سماسام بوذا » (Sammasam Buddha)

ويطلق على الشخص الذي حصل على التنوّر وأسّس المذهب وعلّمه الناس ، ويظهر هذا الشخص في فترات زمنية متفرقة ، وهذا الأمير « سذهاتا » واحد من هؤلاء الأشخاص .

الثالث : « أنوبوذا » (Anu Buddha)

ويطلق هذا الاسم على أصحاب بوذا الذين حصلوا على التنوّر بعد أن اعتنق مذهب بوذا ويطلق عليهم أيضًا اسم « أرهات » أي القديس[١] .

فكلمة « بوذا » (Buddha) ليست علمًا وإنما هي صفة لقّب بها بوذا عند نيله هذه الدرجة ولكن لما غلب إطلاقها عليه أصبحت علمًا له .

ومن الآن سنستعمل هذا العلم في الحديث عن سذهاتا الأمير أو جوتاما الراهب جريًا على المشهور .

أما الشجرة التي جلس تحتها بوذا عندما تمّت له الاستنارة فقد سمّيت فيما بعد شجرة العلم أو شجرة المعرفة (Bodhi tree) ، ولاتزال موجودة حتى الآن في المكان الذي يعرف اليوم ببودهاغيا (Budhagya) ، وهي مقدّسة لدى البوذيين يحجّون إليها في مناسبات مختلفة[٢] .

وتروي القصة أن بوذا بعد ما تمّ له ما ينشده ، لبث في وحدته هناك سبعة أيام مترددًا بين أن يذيع في الناس ما أشرق له من المعرفة ليحظوا من العلم بما حظي به أم يهملهم ويختزن لنفسه ما عرفه ، فلم يطل تردده بهذا بل مال لنشرها ، واستقرّ رأيه أن ينشر مذهبه الجديد ، مهما استدعى ذلك النشر من مقاومة رغائب العامة والتعرض لسخطهم .

---

(١) « أصول البوذية » (٧٥ ، ٧٦) .

(٢) في تايلاند : غرس البوذيون في كل معبد من معابدهم شجرة واحدة من نوع هذه الشجرة يأتون إليها يتبركون بها .

وهنا قسّم بوذا الناس الذين يتلقون تعاليمه إلىٰ ثلاث فئات ، فئة تخلّصت من الشهوات ، وأخري لم تزل فيها وتخلصت منها أحيانًا ، والثالثة استغرقت فيها ولكنها تمضي في طريقها إلىٰ الخلاص ؛ ومثّل هذه الفئات الثلاث بزهرة اللوتس[١] التي ظهرت بعضها فوق الماء ، وطفت الأخرىٰ علىٰ السطح ، ونبتت الثالثة تحته ، أما الفئة الرابعة فهي التي استحوذت عليه الشهوات ، وستبقىٰ فيها ، ومثّلها بوذا بزهرة اللوتس التي نبتت في الوحل وتبقىٰ فيه إلىٰ الأبد ؛ وهذه الفئة لا يرجىٰ منها التخلص[٢] .

وتحدّثنا القصة أن بوذا ترك غابة « بودهاغيا » (Budhagya) وذهب إلىٰ مدينة : فاراناسي (Varanasi) حيث كان يعيش رفاقه النسّاك الخمسة الذين زاملوه في فترة جهاده وتقشفه ليدعوهم إلىٰ مذهبه .

وهناك جدّ بوذا في البحث عن رفاقه الخمسة حتىٰ وجدهم ، وأقنعهم ثانية بتعاليمه الجديدة فأطاعوه[٣] وشادوا لأنفسهم في حديقة الغزلان الملكية بفاراناس أكواخًا ، وأقاموا مدرسة وفد إليها كثيرون ممن كانوا يشعرون أنهم يستمعون إلىٰ أمور جديدة لا عهد لهم بها .

فأخذ بوذا يعلّمهم وينشر مبادئه وأفكاره بينهم حتىٰ تبعه عدد كبير من الرجال والنساء والشيب والشباب .

ولازمه رفيقه يدعىٰ « آناندا » (Anandha) لم يفارقه في جميع جولاته ، كما كان له أحبار يبلغون الستين جمعوا حوله ، فطلب منهم القيام بنشر دعوته في مختلف نواحي البلاد[٤] .

---

(١) وهي ضرب من النبات التي تنبت في المياه الراكدة له أصل كالجزر وساق أملس يطول بحسب عمق الماء ، والبوذيون يستعملون زهورها في جميع طقوس دينهم ، ويستعملونها كقرابين لعبادة بوذا .

(٢) « تري بيتاكا » (فينايا) (٢١٣) .

(٣) المصدر السابق و« قصة بوذا » (٣/ ٣٥) .

(٤) « قصة بوذا » (٣٠/ ٣٨ـ ٤٠) .

المبحث الخامس

وفاتــــه

قام بوذا بدعوته إلى مذهبــه الجديـد ، وكـان يلقي عظـــاته في كل مكـــان في مـدينـة « فـاراســناسـي » (Varanasi) ، وفي « كـوسيــنارا » (Kosinara) ، وفي « قوزمبي » (Kosampi) ، [١] وفي « ساوتدي » (Sawatdhi) وعلى ضفاف نهر « جنجا » (Ganges) ، وقد ظلّ على حياة المبشر والمتسوّل حتى وصلت سنّه الثمانين ، ثم توفّي في مدينة كوسينارا (سنة ٥٤٣ ق م)[٢] .

ولوفاته قصة طويلة يرويها كتاب « تري بيتاكا » ، [٣] وخلاصتها أنه لما بلغ بوذا قرية صغيرة يقال لها « بافا » (Pawa) تبعد مائة ميل إلى الشمال الشرقي من مدينة : « فاراناسي » (Varanasi) ، وهناك استقبله صائغ يدعى « جونتا » (Jonta) وقدّم له طعامًا من لحم الخنزير ، وكان الطعام فاسدًا ، ولكن بوذا لا يريد أن يجرح شعور الرجل ، فأكل منه ، ثم رقد في ظل شجرة وهو يحسّ بالألم الشديد ، ثم مات به وانتقل إلى « نرفانا » .

ومما يروى عنه في آخر حياته قوله لأحد حوارييه « آناندا » : « يا آناندا لا تيأس ، ألم أقل لك إن على الإنسان أن ينفصل عن كل ما يحبّ ، إن الموت هو الطريق إلى الخلاص ، ولا تتكرّر ولادة الإنسان إلا إذا كان شريرًا »[٤] .

---

(١) وقعت على الضفة الجنوبية من النهر « جمنا » (Jamuna) وهي المعروفة الآن بولاية « اللّه آباد » (Allah Abad) « مجموعة المصطلحات البوذية » (٤٦) .

(٢) « تاريخ الديانة البوذية » (٣٢٦) وأيضًا « تاريخ الفلسفة البوذية وتطورها » (٢٩) .

(٣) انظر (سوتان) (٣٢٦ ، ٣٢٧) .

(٤) المصدر السابق (٣٢٩) .

وقد أحرقت جثّته حسب التقاليد الهندوسية ، ثم جمع ما تبقّى من رماده ، واقتسمه أتباعه إلى ثمانية أجزاء ، ودفنوه في أضرحة في أجزاء مختلفة من الهند ومازال البوذيون إلى الآن يحجّون إليها ويقدسونها .

هذه نبذة من حياة بوذا كما ذكرت في كتبهم وسأعرض فيما يلي أهم مبادئه الفلسفية التي بنى عليها مذهبه .

* * *



خريطة تبين المدن التى تجول فيها بوذا لنشر تعاليمه

الفصل الثاني

الفلسفة البوذية وأخلاقها

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : الحقائق السامية الأربع .

المبحث الثاني : أناتا (ANATTA) أو إنكار الذات .

المبحث الثالث : الأخلاق في البوذية .

الفصل الثاني

الفلسفة البوذية وأخلاقها

المبحث الأول

الحقائق السامية الأربع

يختلف مذهب البوذية عن غيرها من المذاهب الهندية المختلفة ، فقد أسّس بوذا مذهبه بناء على تجربته الروحية ، وكانت دعوته حكاية عن هذه التجربة لا تعدو عنها ، إنه قطع كل علاقة له مع الحياة الدينية في الهند التي كانت تدين بآلهة كثيرة ، وكان ذهنه محصوراً في دائرة أفكار عصره وقومه ، لم يكن له أي علم بالتاريخ ولم يكن له شعور واضح عن مغامرة الحياة الفسيحة ، إنه بدأ تجربته وفرغ منها دون أن يلجأ إلى الاعتقاد بالله ، وأن الأساس الذي بنى عليه بحثه وتجربته أساس فلسفي خالص[1] حتى وضعه كثير من الباحثين المعاصرين في صفوف الفلاسفة . يقول بوذا فيما يروى عنه « أيّها الرهبان ، إن شقاء الحياة وضجرها وعناءها متولّد من رغبات النفس ، وإن الإنسان قادر على أن يكون سيد رغباته لا عبداً لها ، وفي استطاعته الإفلات من هذه الرغبات بقوة المعرفة

(١) وقد سار على هذا المنوال كثير من متقدمي الحكماء والفلاسفة ومن الملاحظ أنهم ظهروا في وقت متقارب ولم يعترف أحد منهم بالدين السماوي ، ونذكر منهم :

١ ـ مهافيرا (Mahavira) مؤسس الديانة الجينية في الهند (٥٩٩ ـ ٥٢٧ ق م) .

٢ ـ لاوتس (Lou - Tzu) مؤسس الديانة التاوسية (Taoism) في الصين (٦٠٤ ـ ٥٧٠ ق م) .

٣ ـ كونفوشيوس (Confucias) مؤسس الديانة الكونفوشية في الصين (٥٥١ ـ ٤٧٩ ق م) .

٤ ـ ومن الفلاسفة اليونانية سقراط (Socretes) (٤٧٠ ـ ٣٩٩ ق م) وأفلاطون (Plato) (٤٢٨ ـ ٣٤٧ ق م) وارسطو (Aristotle) (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق م) وغيرهم .

الروحية . . . إن هدف جهد الإنساني يجب أن يكون الوصول إلىٰ حل مشكلة الحياة دون الاستعانة واللجوء إلىٰ شيء فوق العقل »[١] وسأعود إلىٰ هذا الاتجاه بالنقد إن شاء الله في مكانه .

وتقوم دعائم الفلسفة البوذية علىٰ أربع قواعد ، ذكرها بوذا في أول خطبة له بمدينة « فاراناسي » (Varanasi) ، وفيما يلي أذكر نصّها مختصراً :

« هذه هي الحقيقة يا إخوتي « بيهكشو » (Bhikshu) ما هو الألم ؟ الولادة ، والشيخوخة ، والمرض ، والموت ألم ، والانفصال عما نحبّ والاجتماع بما نكره ، واليأس والفشل كل هذا ألم .

هذه هي الحقيقة يا إخوتي « بيهكشو » : ما هو مصدر الألم ؟ الشهوة ، والتعطّش إلىٰ الوجود الذي يسلمنا إلىٰ اللذّة ، وتجديد الولادة ، والإحساس بالرغبة والأنانية كلّ هذه مصدر الآلام .

هذه هي الحقيقة يا إخوتي « بيهكشو » ؛ كيف إفناء الألم ؟ إن الآلام لا تفنىٰ إلا بالتحرر من الذات ، والانفلات من كلّ رغبة وشهوة .

هذه هي الحقيقة يا إخوتي « بيهكشو » : ما هي الطريقة المصولة إلىٰ إفناء الألم ؟ إنها الممرات الثمانية :

الرؤية السليمة ، القرار السليم ، الكلام السليم ، العمل السليم ، السلوك السليم ، الجهد السليم ، التفكير السليم ، والتأمّل السليم[٢] ثم يقول :

وها أنا ذا قد أريتكم يا إخوتي « بيهكشو » ما هو الألم ، وما سببه ، وكيف يكون فناؤه ، وما هي الوسائل التي يفني بها[٣] .

هذه النصوص تبيّن ما قام به مذهب بوذا الذي أراد أن ينشره بين الناس ، وهو منصبّ علىٰ تجريد النفس ، وقمع الشهوات ، وإبطال الرغبات والتحرر

(١) « تري بيتاكا » (سوتان) (٢٩٠) .
(٢) المصدر السابق (فينايا) (٢١٨ ، ٢١٩) .
(٣) المصدر السابق (٢١٩) .

من أمور الدنيا .

وتحوي هذه النصوص أهمّ عناصر البوذية الأربعة ، أو ما يسميه البوذيون الحقائق السامية الأربع (The four noble truths) .

كما سنبيّنها فيما يلي :

١ ـ الحقيقة الأولى :

الألم موجود ، فالولادة ، والمرض ، والعجز ، والشيخوخة ، والموت ومتاعب الحياة ، من فراق محبوب ، أو إصابة مكروه ، أو خيبة أمل ، كلّها تأتي بالألم ، وحتى نعم الحياة ، من الأولاد ، والزوجات ، والأموال ، والمناصب، والثناء ، كلّها عند بوذا ألم وعذاب .

فالحياة عنده ليست إلا سلسلة من موكب الآلام الحافلة بالعذاب والتعب والكد والكفاح في سبيل البقاء والوجود على هذه الأرض[1] ، ولا يخفى على كل عاقل بطلان هذا الاتجاه الذي يحطّ قيمة الإنسان في هذا الوجود ، وكما أوضحت فيما سبق أن نظرة بوذا للحياة نظرة متشائمة فاسدة لا تصدقها الحقيقة والواقع ، فضلاً عن أنها تخالف المفهوم القرآني والرباني والإنساني بصفة عامة .

وعلى أساس هذه النظرة المتشائمة بنى مذهب بوذا فلسفته قائلاً :

٢ ـ الحقيقة الثانية :

« إن كل شيء له سبب أو عامل ، ولابدّ لهذا الألم سبب أو عامل ، فالنار مثلاً لها سبب في اشتعالها وهو وجود الوقود ، وإذا أفنى سببها وهو الوقود فنى المسبب وهو الاشتعال . كذلك الإنسان له سبب في وجوده ، فإذا أفنى سبب

(١) انظر « أصول البوذية » (٢٥٥ ـ ٢٥٦) و« الفلسفة البوذية » (١٢٩) .

وجوده فني المسبب وهو الوجود وهكذا[١] .

فما هو سبب وجود الإنسان إذن ؟

إن السبب في وجود الإنسان عند بوذا هو الرغبات والشهوات ؛ لأنها هي التي تبعث في الإنسان الرغبة في اللذة ، والتملك ، والشوق إلى عالم مستقبل ، فإذا وجدت هذه الرغبات والشهوات وجد الإنسان ، وإذا انتهت الرغبات والشهوات انتهى وجود الإنسان[٢] .

فالشهوات والرغبات على زعم بوذا هي التي تحمل الإنسان على التناسخ والظهور من جديد بعد فناء هذا الجسد ، فيتجدّد المولد الفردي مرة أخرى نتيجة من رغباته وشهواته المتقدمة ، وهكذا إلى ما لا نهاية .

ولا تنتهي هذه السلسلة المشئومة حتى تعدم بذورها من الشهوات والرغبات والعواطف والميول ، فينتهي الميلاد ، فالهرم ، فالمرض ، فالموت وسائر أوجاع الحياة وحسراتها .

وقسّم بوذا الشهوات البشرية إلى ثلاثة أقسام :

١ ـ شهوة تحقيق الرغبات الجنسية .

٢ ـ شهوة تحقيق الرغبات في الخلود النفسي .

٣ ـ شهوة تحقيق الرغبات في النجاح والثراء والاهتمام بأمور الدنيا[٣] وزعم بوذا أن الشهوات البشرية ورغباتها كلها شر ، لا خير فيها إطلاقًا ، فالحب ، والرضى ، والحرص ، والطمع ، والطموح ، والغضب ، والغرور ، والحقد ، والحسد ، والكراهية ، كل هذه شر ، لأنها تأتي دائمًا بالألم والحزن .

يقول بوذا مخاطبًا أحد تلاميذه يدعى « ساري بوترا » (Saributra)

---

(١) « تاريخ الفلسفة البوذية وتطورها » (٢٧) .

(٢) المصدر السابق وأنظر أيضًا

Introduction to indian philosophy P . 221

(٣) « أصول البوذية » (٢٦٧) وأيضًا « الفلسفة البوذية » (١١٦) .

بوذا - «يا ساري بوترا ، ماهو السبب في حزنك وألمك عندما مات أحد من جيرانك » ؟

ساري بوترا - « لأني وجدت في نفسي حبًا فيه فأحسّ بالحزن عند موته »

بوذا - « أجل ، إذا لم يكن عندك حبّ فيه فهل تحس بالحزن والألم ؟

ساري بوترا - « لا يا سيدي » .

بوذا - « إذن كل ما مضىٰ من الآلام وما يستقبل منها له سبب وهو الحب ، إن الحب والرضىٰ هما سببان للآلام والأحزان »[1] .

وهنا يحق لنا أن نقول : إن كثيراً من هذه الرغبات والشهوات صالحة لا غبار عليها ولها ما يبررها ، ولكنّ بوذا لم يسلّم مطلقًا بأن هذه الرغبات والشهوات قد تكون صالحة ، بل يذهب إلىٰ أبعد بعيد حينما جعل الرغبات والشهوات التي أشبعها الإنسان والتي تولّدت عنها الأعمال هي التي تنتج وتوجد كائنًا جديداً . فإن كان للإنسان شهوات حيوانية وحشية ، تتجمّع هذه العناصر كلّها ، وقد تخلق بعد موته حيوانًا شرسًا وحشيًا كالنمر ونحوه[2] .

وهذه هي أكبر المزاعم الفاسدة التي أثارها بوذا في دعوته ، وهي في الحقيقة قائمة علىٰ أساس الكفر بالله وباليوم الآخر . كما هي قائمة علىٰ منطقه الغريب الذي يقول :

« إن سبب الولادة والموت هو الجهل » « أفيديا » (Awidya) الذي يسبّب الرغبة في العيش ، وسبب هذه الرغبة وجود الآت الإدراك الستة التي هي الحواس الخمس والعقل ، وسبب الإدراك الستة هو الجمع والتركيب بين الجسم والروح ، وسبب هذا التركيب وجود الجسم مع رغبته في العيش في حياته السابقة[3] .

---

(١) انظر « تري بيتاكا » (سوتان) (٣٥٨) .

(٢) « تاريخ الفلسفة البوذية وتطورها » (٢٨) .

(٣) انظر « تري بيتاكا » (فينايا) (١١٣ ، ٢١٤) .

وهذه السلسلة هي ما يطلق عليه البوذيون في كتبهم بناموس العلة والمعلول، به يتم الخلق والتكوين ، وبواسطته تظهر في الوجود حركة الحياة(١) .

ومن هنا ينكر بوذا وأتباعه الإله الخالق سبحانه وتعالىٰ ويؤمنون بهذا الناموس وسيأتي تفصيل هذا الموضوع عند حديثنا عن قضية الألوهية إن شاء الله .

٣ ـ الحقيقة الثالثة عند بوذا : إعدام الألم :

وهي مبنيّة علىٰ الحقيقة السابقة التي تقول إن الآلام والأحزان والمشكلات التي يعانيها الإنسان كلها منبعث من السبب ، وهو زحمة الآمال والأماني والرغبات والشهوات التي تراود الإنسان وتحتضنه دائمًا ، وإن هذا السبب قابل للزوال ، أي في استطاعة الإنسان التخلص من هذه الآلام والمشكلات ، وذلك بمنع جميع الرغبات والشهوات والآمال والأماني ، والإفلات منها نهائيًا ، وإنكار الذات مطلقًا والتحرر من كلمة « أنا » بكل الوسائل ، وقطع جميع الصلات بها(٢) .

ومما ورد عن بوذا في ذلك قوله في إحدىٰ خطبه في مدينة « فاراناسي » (Varanasi) « إن قمع الجسد عذاب باطل وبدون فائدة ، والإنسان لا يقدر أن يتحرر من كلمة « أنا » ومن الذات الأمارة بالسوء إن لم يفلح في إطفاء نار الشهوة» .

وقوله أيضًا :

« إن كل قمع للجسد باطل مادامت الذات تسعىٰ وراء الشهوات والمسرّات ، إن الذات المتميزة هي التي تتحرّر من كل شهوة ، فلا ترغب

---

(١) « الفلسفة البوذية » (١١٠) وانظر أيضًا .
Introduction to indian philosophy P . 222 - 224 .
(٢) Ibid . P . 227 .

في العالـم ولا في المسرات »[١] .

ورأىٰ بوذا أن جميع الكائن الحيّ واقع في ربقة دوران الأرواح المستمر لأن الشخص إذا مات فإن روحه ـ بسبب ما يشوبها من الشهوات ـ ستعود فتولد من جديد في أدوار أخرىٰ من التقمص ، وهكذا إلىٰ مالا نهاية ؛ فعلىٰ الإنسان أن يفلت نفسه عن هذه الربقة بتطهر النفس ، وإبطال سائر الرغبات ، وإماتة سائر الشهوات ، والتجرد من أمور الدنيا ، والدخول في ملكوت « نرفانا »[١] . وهي الراحة العليا كما يزعمون .

وكانت عقيدة بوذا التي يؤمن بصدقها هي أن الألـم أرجح كفة من اللذة في الحياة الإنسانية ، فعنده أن كل لذة تحمل سمها في طيّها لمجرد أنها لذة عابرة قصيرة ، وعنده أن كل الرغبات البشرية وشهواتها وآمالها وأمانيها تعتبر من الرذائل التي لابد من إعدامها ، وكان منشأها عنده هو اللذّات والانهماك فيها وما تدعو إليه[٣] .

وترجع الرذائل عنده إلىٰ أصول ثلاثة :

١ ـ الاستسلام للملاذ ، فإنه يجعل الحياة كلها في ألم مستمر .

٢ ـ سوء النية في طلب الأشياء ، وذلك من تمكّن اللذات في النفس وهو أيضًا أصل لكثير من الرذائل كالغش والكذب .

٣ ـ عدم إدراك الأمور علىٰ الوجه الصحيح « أفيديا » (Awidya) ، وغالبًا ما يكون مَنْشأه سيطرة الشهوات علىٰ النفس ، فيمتنع عنها التنوّر أو الإشراق الذي نشأ من التجرد من الملاذ وهجر الشهوات[٤] .

وقد قلنا إن الشهوات والرغبات عند بوذا تنقسم إلىٰ ثلاثة أقسام وكلّها شرّ

---

(١) « تري بيتاكا » (سوتان) (٣٦١) .
(٢) انظر « تاريخ الديانة البوذية » (١٢٧) .
(٣) المصدر السابق (١٢٨ ـ ١٢٩) .
(٤) « أصول البوذية » (٢٧٨) .

بل هي أم الشرور ، وفوق الشهوات كلها الشهوة الجنسية ، لأنها تؤدي إلىٰ التناسل الذي يطيل من سلسلة الحياة إلىٰ ألم جديد بغير غاية مقصودة[١] .

وقد رأىٰ بوذا أن الأوهام من أعظم الشرور ، وأنها مسيطرة علىٰ الإنسان نتيجة رغباته وشهواته ، فينبغي للإنسان أن يبيدها بإماتة الرغبات في نفسه وفي ذلك يقول :

« يا إخوتي بيهكشو ، إن كل شيء في الكون يتحوّل بلا انقطاع ، وإن كل شيء في الكون يهلك ويتجدد ، وإن كل شيء في الكون في يومنا غيره بالأمس ، فهل تجدون غير الأوهام التي هي وليدة الرغبة وهدفها ؟ ألا نحسن صنعًا إذا ما قتلنا الرغبة في أنفسنا ، وأبدنا بذلك الأوهام فالآلام ؟ »[٢] .

ومن هنا نعرف أن بوذا وإن كان قد عدل عن إماتة نفسه وتعذيبها في طور حياته الأولىٰ ، فإنه لم يعدل عن تفكيره ، ولم يخرج عن إطاره في هذا الطور الثاني وهو الأخير .

وقد صدق الدكتور أحمد شلبي إذ يقول :

« ومن الواضح أن الإنسان يستطيع فجأة أن يغيّر أحواله المادية من صوم إلىٰ طعام ومن تقشف إلىٰ بذخ ، ولكنه لا يستطيع بسهولة أن يتخلّىٰ عن تفكيره وفلسفته »[٣] .

وها هو بوذا فإنه غيّر أحواله وترك طريقه الأولىٰ من تعذيب النفس بالحرمان والرياضات العنيفة ، ولكنّه لم يستطع التخلي عن تفكيره وفلسفته ،

---

(١) وعلىٰ هذه العقيدة الفاسدة فقد وجدت حركة تحديد النسل الدول البوذية مكانًا خصبًا لتحقيق مآربها ، لأن موانع الحمل بجميع أنواعها تعني إيقاف الولادة وبالتالي إيقاف الألم علىٰ زعمهم ، فبدلاً من إيقافهم الولادة بإيقاف الرغبات والشهوات علىٰ حسب تعاليم بوذا ، وجدنا البوذيين اليوم يوقفون الولادة بطريق موانع الحمل وعلىٰ هذا الاعتقاد أيضًا حرمت الديانة البوذية الزواج علىٰ جميع الراهبين والراهبات .

(٢) « تري بيتاكا » (سوتان) (٣٦١) .

(٣) « أديان الهند الكبرىٰ » (١٤٢) .

فما زال تفكيره يدور في إطار ضيق لا يخرج عنه إطلاقًا ، وهذا الإطار هو الآلام البشرية المزعومة ، وكيف الخلاص منها ، ولهذا فقد رأينا بوذا - في طريقه الجديد - دعا إلىٰ تعذيب النفس لا بالحرمان ولا بالرياضات العنيفة ، ولكن بحبس الشهوات والرغبات ، وإنكار النوازع الفطرية الأصلية في النفس ، والقضاء عليها نهائيًا كما تبيّن من خلال أقواله التي أوردناها .

أقول : إن هذه الطريقة التي ادّعىٰ بوذا لنفسه ، وزعم أنها هي الوسيلة الوحيدة للتغلب علىٰ الآلام والهموم البشرية ، ماهي إلا تجربة شخصية فاشلة ، لا يمكن إطلاقًا بأي وجه من الوجوه أن تحقق السعادة ، والطمأنينة ، والأمان في حياة الإنسان ، بل العكس إنها سبب في تعطيل قوىٰ النفس الإنسانية ، وتؤديها إلىٰ الكبت والهلاك .

إنها طريق يستحيل للإنسان تطبيقه ؛ لأنه ما من إنسان إلا وهو مفطور علىٰ الرغبات والشهوات ، والميول ، والعواطف ، والآمال ، والأماني ، وما شابه ذلك من الغرائز الفطرية التي لا تنفكّ عنها البشرية ، ولا يخلو أحد منها إلا وهو ناقص في بشريته ، ولهذا فليس في وسع الإنسان ومكنته أن يتجرد أو يتخلّص من هذه الغرائز ، مهما كان رتبته ومكانته ، ومن ادّعىٰ ذلك فهو كاذب ، لأنه كيف يتصوّر الإنسان فيمن تجرد عن الرغبات والشهوات ؛ بحيث لا يكون عنده حبّ ، ولا رضىٰ ، ولا طمع ، ولا غضب ، ولا كراهية ؟ إنه لا يخلو من حالتين :

إما أن يكون مجنونًا أو فاقد الحس .

ألا نرىٰ الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام فإنهم - مع كونهم من أفضل الخلق ، ومكانتهم العليا عند الله - يتّصفون بجميع الصفات التي لا تنفك عنها البشرية ، من الحب ، والرضا ، والغضب ، والرغبة ، والحرص ، والأمل ، وما شابه ذلك . قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾[1] .

---

(١) الكهف (١١٠) .

وقال الرسول ﷺ : « **إنما أنا بشر أرضى كما يرضى البشر ، وأغضب كما يغضب البشر ....** »(١) .

وهكذا واقع الإنسان الذي خلقه الله ، يحب ويرضى ويغضب ويكره ويطمع ويأمل ، ولا يستثنى أحد من هذا الواقع حتى الرسل والأنبياء ، فكيف من دونهم من سائر البشر ؟

وهذا سرّ ضلال الفلسفة البوذية التي تدعو إلى تجريد الرغبات والشهوات ، وقد فشلت هذه الفلسفة عن معالجة مشكلات الحياة ، لأنها إنكار لواقع الإنسان الذي خلقه الله ، إنكار لفطرته التي فطر الناس عليها . قال تعالى : ﴿ **فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾(٢) .

إن الإسلام دين الفطرة ، فلا ينكر رغبات الإنسان وشهواته وميوله وعواطفه ، وإنما ينكر الإسلام استعمالها وممارستها خارج الحدود والضوابط التي رسم الله له ، مما يؤدي إلى الفساد والإباحة والانهيار في المجتمع الإنساني .

وقد أشار القرآن الكريم في آيات كثيرة إلى أن الفطرة البشرية فيها استعداد للخير وللشر معًا ، خلافًا لما زعم بوذا وأتباعه .

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ** ﴾(٣) أي طريق الخير والشر .

ويقول أيضًا : ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا** ﴾(٤) .

---

(١) من حديث طويل رواه مسلم في « صحيحه » عن أنس بن مالك « صحيح مسلم بشرح النووي» (١٦/ ١٥٤-١٥٥) .

(٢) الروم (٣٠) .

(٣) البلد (٨-١٠) .

(٤) الشمس (٧-١٠) .

هذه الآيات القرآنية وأمثالها تكشف لنا عن حقيقة الطبيعة الإنسانية وتبرز لنا نظرة الإسلام إلىٰ الإنسان بكل معالمها .

فالإسلام يرىٰ أن الإنسان مخلوق مزدوج الطبيعة مزدوج الاستعداد ومزدوج الاتجاه ، وفي الإنسان طبيعة الخير وطبيعة الشر ، وأن إيمانه بالله هو الذي يردّه عن الشر .

والإسلام يحرّض علىٰ إبلاغ الإنسان أعلىٰ مستوىٰ ممكن من الكمال ، ولكنه في نفس الوقت لا يغفل عن طبيعة الإنسان وواقعه ، ولهذا يفسح الإسلام للرغبات والشهوات والميول والعواطف طريقها إلىٰ التحقيق ، ويحيط الإنسان بالضوابط والقيود التي تحميه من الفساد ، وهذا هو المنهج الصحيح والوحيد الذي يكفل تحقيق السعادة والطمأنينة ، والأمان للحياة البشرية كلها .

٤ ـ الحقيقة الرابعة : الوسيلة لإعدام الألم :

ولإعدام الألم طريق واحد عند بوذا وهو اتّباع ما يسميه « الشعب الثماني أو الممر الأوسط بين التلذذ والزهد »[١] وهذه الشعب الثماني هي قواعد الحياة الحقة في البوذية .

وقد نصّ الكتاب « تري بيتاكا » علىٰ هذه الشعب الثماني في عدة مواضع أذكر منها :

يقول بوذا « انظروا أيها الرهبان ، إن لهذا الممرّ الأوسط ثماني شعب هي :

١ ـ سلامة الرأي (Samma titi)

أي المعرفة بالحقائق الأربع (الألم ، وسبب الألم ، وإعدام الألم ، والسبيل لإعدام الألم) .

وتكون بالهدوء الدائم وعدم الاستسلام للفرح أو الحزن .

---

(١) انظر « تري بيتاكا » (سوتان) (٤٠٥) .

٢ ـ سلامة النية (Samma sangkapa)

وتكون بهدوء المرء دائمًا ، وبعزمه على التخلص من الشهوات وعدم إيذاء أي مخلوق .

٣ ـ سلامة القول (Samma waja)

وتكون بالابتعاد عن الكذب ، والنميمة ، وعدم التلفظ بالكلمة الفاحشة .

٤ ـ سلامة الفعل (Samma kammanta)

وتكون بالابتعاد عن السرقة وقتل الحيوانات ، والاعتداء على حق الغير ، وفعل ما يأسف له أو يخجل منه .

٥ ـ سلامة العيش (Samma A-sheva)

وتكون بالكسب الحلال ، والبعد عن العمل السيئ مثل التزييف ، وعن أخذ السلع المسروقة ، وعن اغتصاب المرء ما ليس له .

٦ ـ سلامة الجهد (Samma vayam)

بأن يسعى المرء دائمًا إلى كل ما هو خير ، والابتعاد عمّا هو شرّ .

٧ ـ سلامة التفكير (Samma sati)

وتكون بقطع الجهل « أفيديا » الذي جعل المرء يتعلّق بالأوهام وينسى لباب الأمور .

٨ ـ سلامة التأمل (Samma smadhi)

وتكون بصفاء النفس والبصيرة ، وإيجاد التأمل الدائم ، وعدم الخوف والقلق ، ولا تتأتى إلا باتباع القواعد السابقة ، فلا يشعر بالألم والحزن ولا يشعر بالسعادة والسرور ، لأنه ترك الجميع وتخلّص منه ، وبلغ مرحلة السلام الكامل « نرفانا » (Nirvana)[1] .

---

(١) (سوتان) (٤٠٥ ، ٤٠٦) .

ولهذه الطريقة أربعة أطوار تتكسّر في خلالها القيود العشرة التي تقيّد الإنسان وتمنعه من الوصول إلىٰ درجة الكمال الإنساني « أراهات » (Arhat) .

والقيود العشرة هي : ـ

١ ـ الوهم الخادع في وجود الذات .

٢ ـ الشك في ثالوث البوذي (بوذا ، تعاليمه ، الرهبان) .

٣ ـ الاعتقاد في تأثير الطقوس السحرية .

٤ ـ الشهرة .

٥ ـ الكراهة .

٦ ـ الرغبة في البقاء المادي ، كالنقود .

٧ ـ الرغبة في البقاء غير المادي ، كالثناء والجاه .

٨ ـ الاعتداد بالبر الذاتي .

٩ ـ القلق .

١٠ ـ الجهل .

فالطور الأول يقدر الإنسان علىٰ كسر القيود الثلاثة الأولىٰ .

والطور الثاني يقوىٰ فيقدر علىٰ تخفيف الثلاثة الأخرىٰ بعدها .

والطور الثالث يحطّمها تحطيمًا نهائيًا .

أما الطور الرابع فهو طور القديسين (Arhat) ، وفي هذا الطور يتحرر القديس ن القيود الباقية ، ويكون قد أدرك الهدف الذي يسعىٰ إليه وهو « نرفانا »[١] .

بهذه الآداب ينجو الإنسان عند بوذا من عجلة التناسخ الدائرة بالولادة والموت والتجديد في حياة بعد حياة وجثمان وراء جثمان ، وبهذه الآداب يتخلص الإنسان من العالم المملوء بالآلام والآثام ، فيدخل في « نرفانا » ، ولا

(١) المصدر السابق (سوتان) (٤١١ ، ٤١٢) و« مجموعة المصطلحات البوذية » (٦٨٧ ـ ٦٨٨) .

يولد بعد ذلك ولا يموت .

يقول بوذا :

« لقد أحرزت - يا إخوتي بيهكشو - علم الحقائق الأربع ، وأحرزت فهمها فصرت على يقين بأني قد بلغت أسمى درجات المعرفة ، وأنني ألاقي هذه المرة ولادتي الأخيرة على الأرض ، إذ بتجردي من الألم قد أزلت التناسخ ولن أولد مرة أخرى بعد هذا »(١) .

وقد أصبحت هذه الحقائق الأربع المزعومة جوهر مذهب البوذية على مدى العصور ، واعتقد البوذيون أن المعرفة بها أفضل المعارف ؛ إذ بها توصّلهم إلى الهدف الأسمى المنشود وهو « نرفانا » ، فمن آمن بها وحافظ عليها كتبت له النجاة والسعادة ، ومن لم يعرفها ولم يؤمن بها ظلّ في شقائه وآلامه يموت ويحيا ، ثم يهرم ويهلك ، فيولد من جديد »(٢) .

أقول : إن هذه الحقائق الأربع البوذية ما هي في الحقيقة إلا خيالات وأوهام ابتدعها بوذا لنفسه كردود فعل من تعاسة الحياة وشقائها في مجتمع الهند في عصره .

وكما تبين من خلال النصوص أنه بنى أوهامه على أساس الإلحاد والكفر بالله وباليوم الآخر ، فألقى الجانب الرباني والتأله من فلسفاته وواجباته ، واقتصرت فروضه على الجانب الأخلاقي وحده .

* * *

---

(١) المصدر السابق (سوتان) (٤٧٨) .

(٢) « الفلسفة البوذية » (٢٠٤) وأيضًا « أصول البوذية » (٢٥٣) و« المبادئ الهامة البوذية » (٢٨ ، ٢٩) .

المبحث الثاني

إنكار الذات « آناتا » (Anatta)

تختلف النظرية البوذية حول الكائن عن النظرية الهندوسية القائلة بأن في كل كائن ذاتًا تسمى « أتمان » (Atman) ، وهو قبس من الإله « براماتما » (Barmatma) فالبوذية ترى أن الذات غير واقعة أو مجرد لفظة مفترضة ، وليس لها وجود ، ويطلقون على هذه النظرية بأناتا (Anatta) أي لا ذات .

وتعتبر هذه النظرية من أهم المبادئ الفلسفية التي تدور حولها سائر التعاليم والأخلاق في البوذية .

وقد فسرها العلماء في البوذية بتفسيرين :

التفسير الأول :

أي ليس للإنسان ذات حقيقية ، بل ذات وهمية خيالية تتكوّن من خمسة عناصر وهي : -

١ - الجسم Body

٢ - الحواس Sensation feeling

٣ - التذكر Remembering

٤ - التفكير Thought

٥ - الوعي Sen sorial consciousness[1]

---

(١) « تري بيتاكا » (أبيدارما) (٧١٣) .

إن هذه العناصر الخمسة التي يتكوّن منها الإنسان ليست ذاتًا للإنسان ، وإنما هي مجرّد حالات أو سلسلة التي تخضع لقانون شامل هو قانون الحدوث والتغير والزوال والفناء فالإنسان ليس له ذات حقيقية ، إنما هو مجرد تجميع لهذه العناصر التي تحدث وتتغير وتفنىٰ حسب الأسباب والعوامل .

والمراد بالأسباب والعوامل هنا هو الوجود الحسي في الإنسان ، لأنه عند بوذا سبب لوجود الشهوات والرغبات ، كما أن الشهوات والرغبات كلتيهما سبب لحدوث الألم ، وهو الولادة والهرم والمرض والموت(١) .

وهكذا كل كائن ، إنه كلمة بدون مضمون ، إنه مجرد اصطلاح وتسمية ودلالة علىٰ شيء مناسب ، وليس له جوهر موجود يعتدّ به(٢) .

وعلىٰ هذا التفسير فلا حقيقة للذات في البوذية ، لاعتبارها شيئًا قابلاً للتغير والفناء لا قيمة لها في الاعتداد بها .

وهنا ننقل بعض أقوال بوذا التي تبيّن هذه النظرية .

« يا إخوتي بيهكشو ؛ كل شيء إلىٰ زوال ، لا شيء باق ، لا شيء ثابت الأحوال . . كل شيء هو مفترض ، يظهر هنا ، ثم يفنىٰ هناك وهكذا دواليك »(٣) .

« كل شيء فارغ والكل لا جوهر له ، لا شيء موجود ، والكل يسير ويفنىٰ والكل في صيرورة مستمرة بغير جوهر . . . »(٤) .

« يا إخوتي بيهكشو ، إن الجسم ، والحواس ، والتذكر ، والتفكير ، والوعي كل هذا شيء وهمي لا وجود له ، إنه يحدث ويتغير ثم يزال ويفنىٰ ، ولا يقدر الإنسان أن يحكم عليه أو يقضي فيه كما يشاء . . »(٥) .

(١) انظر « تاريخ الفلسفة البوذية وتطورها » (٢٢٣ ، ٢٢٤) .
(٢) المصدر السابق (٢١٩) وانظر أيضًا « الفلسفة البوذية » (٢٠٦) .
(٣) « تري بيتاكا » (سوتان) (٣٠٥) وأيضًا (أبيدارما) (٦٥٣) .
(٤) المصدر السابق (٣١٢) .
(٥) المصدر السابق (٤٩٧) .

« الذات هي « مارا » (Mara) الغرور وصانع الشر ، فمسراتها عابرة تقود إلى الألم ، وجمالها المتغير يوقد ناراً في اللذات التي لا تنفد »[١] .

« تعلّموا يا إخوتي بيهكشو ، أن تميّزوا بين الذات والحقيقة ، فإن الذات سبب الأنانية ومصدر الخطيئة . . . . إن الذات تصوّر باطل يرغب فيها الأنانيون ، فكل اهتمام بالذات باطل مهما كانت الحال ، ومثل الذات كمثل سراب يتبدد كلّما اقترب منه الرائي . . .

إن الذات خداعة تتراءى حلمًا جميلاً ثم يضمحل ، أما الحقيقة فتبقى وتأتي بالطمأنينة . . . . »[٢] .

هذه النصوص تبيّن وجهة نظر بوذا في الذات ، وأنها محض خيال ووهم ، والاعتداد بها مصدر للآلام .

التفسير الثاني :

فسّره بعض فلاسفة البوذيين المعاصرين بأنه لا وجود للذات ولا وجود للروح أي لا حقيقة ولا خلود لهما .

ويشرح القدّيس البوذي « بودهي ناندا »[٣] هذا المعنى فيقول :

« إن الذات شبهة إنسانية نشأت من تخيّل الإنسان كل موجود على مثاله ، فالأجسام والأعراض التي سمّيناها بأسماء مختلفة ما هي إلا أشياء افتراضية خيالية . أما الروح فهي أسطورة من الأساطير فرضناها بغير مبرّر يؤيدها لنريح هذا الفرض أذهاننا الضعيفة فرضناها قائمة وراء سلسلة الحالات الشعورية المتواصلة والمتعاقبة ، وكل ما هو موجود حقًا هو الإحساسات نفسها والإدراكات نفسها تتكون بصورة آلية في هيئة تذكرات وأفكار . . . فالإنسان

---

(١) المصدر السابق (٤٩٢) .
(٢) المصدر السابق (٤٩٣) .
(٣) مر تعريفه في المقدمة .

ليس له وجود مستقل ، لا ذاته ، ولا روحه ، إنه حلقة في سلسلة متتابعة ، وإن حياته لا تتجاوز أن تكون تلاحقًا مستمرًا لتلك الإحساسات والإدراكات »[١] .

والواقع أن هذا التفسير شبيه بالتفسير الأول ؛ غير أن المفسرين أرادوا بهذا التفسير الردّ على البرهميين في اعتقادهم بحقيقة الروح وخلودها .

والبرهميون يعتقدون أن الروح حقيقة أزلية خالدة لا تتغير ولا تفنى ، وهي واحدة في الأصل موجودة بذاتها ، لا تحتاج في وجودها إلى أي سبب أو عوامل ، وإذا مات الإنسان مات جسمه وتبقى روحه لا تموت فتخرج الروح من الجسم الميّت ، وتتقمّص في جسم جديد ، ثم تولد في حياة جديدة ، وهو في هذا كالذي خلع قميصه ولبس قميصًا جديدًا ، أو كالذي خرج من داره القديم ودخل في داره الجديد . هذا بخلاف البوذيين القائلين بفناء الروح ، أي أنها خاضعة لقانون الزوال والفناء ، إنها تحدث وتفنى على استمرار تبعًا للأسباب والعوامل كما سبق أن بيّنّاه .

وخلاصة ما أسلفته في هذا الموضوع أنه لم يكن في رأي بوذا ما يعرف بالذات أو الروح ، أي أنه لم يسلم بوجود الذات كشخصية موحدة ، ولم يسلم بخلوذ الروح وحقيقتها ، ولم ير إلا تلك المجموعة من الصفات أو الخواص الخاضعة للقانون ، أو الناموس الذي أشرنا إليه وهو ناموس العلة والمعلول ، بهذا الناموس تفسر الموجودات كلها عند بوذا .

وقد قصد بوذا من فلسفته هذه عدم الاعتداد بالذات والغرور بها ، لأن ذلك يؤدي إلى الآلام والأحزان عندما تغيرت عناصر الذات إلى ما لا رغبة فيه ، كتغير الجسم إلى المرض ، أو الهرم ، أو الموت ، وكتغير الأشياء المحبوبة إلى الفناء والاضمحلال والعدم[٢] .

فعلى الإنسان في ظل هذه الفلسفة التحرر من الذات والتغلب على

---

(١) انظر « الفلسفة البوذية » (١١٣) .

(٢) « أصول البوذية » (٢١٩) .

عناصرها الخمسة ومحو كلمة « أنا » من نفسه ؛ وهذا هو الطريق الذي يدفع المرء إلىٰ الحكمة العليا ، أو الصفاء الروحي في زعم بوذا .

ومن التناقضات في هذه الفلسفة :

١ ـ أنها تتناقض مع تعاليم بوذا المعروفة باللجوء إلىٰ النفس دون الغير ؛ يقول بوذا في إحدىٰ خطبه :

« يا إخوتي . . . فليكن كل أحد منكم اللجوء إلىٰ نفسه إن نفسه فقط هو الملجأ الصحيح . . . ولا يلتمس لنفسه من غير نفسه مأوىٰ »[١] .

فإذا كانت النفس في نظرته شيئًا وهميًا خياليًا ، فكيف يكون اللجوء إليها؟ أليس اللجوء إليها هو اللجوء إلىٰ الوهم والخيال ؟!

٢ ـ أنها تتناقض مع الأخلاق التي تعتني بها البوذية . إذ كيف يعقل أن تكون للأخلاق مكانة في ذات وهمية ليس لها وجود ، ولا تتمتع بأدنىٰ ما يمكن من الثبات والاستمرارية ؟

٣ ـ إنها تتناقض أيضًا مع عقيدتي « كارما » « والتناسخ » إذ لايعقل أن تتحمل الذات « أنا » مسئولية أعمالها في حياتها السابقة وتولد في حياة بعد حياة ما دامت الذات « أنا » عالمًا من الوهم والخيال والخرافة .

هذا بالإضافة إلىٰ بطلان هذه الفلسفة ، لأنها تحط من قيمة الإنسان الذي خلقه الله في هذه الأرض .

والحق إن وجود الإنسان وكل ظواهر الكون وجود حقيقي لا وجود وهمي كما زعمه بوذا وأتباعه ، وقد جعل الله سبحانه وتعالىٰ هذا الوجود آية من آياته حيث قال :

﴿ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[٢] .

---

(١) « تري بيتاكا » (أبيدارما) (٧١١) .

(٢) الجاثية (٣ ـ ٤) .

فلا تكون آية الله إلا حقيقة لا خيالاً ، أما كون هذا الوجود متصفًا بالتغيّر والفناء فلا يدلّ ذلك على خياليّته وعدم حقيقته ، وإنما يدلّ على حدوثه ، ووجود محدثه ؛ ففي المنطق المعروف لدى العقلاء « الكون متغير ، وكل متغير حادث ، وكل حادث لا بد له من محدث » .

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المبدأ الحق في قوله تعالى :

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾(١) .

وقد أدرك بوذا وأتباعه التغير والزوال في هذا الكون ، وأدركوا أيضًا أنه ليس للإنسان تدخّل في ذلك ، ولكن لم يوصّلهم هذا الإدراك إلى الاعتراف بوجود قدرة عليا من الخالق سبحانه وتعالى المدبّر للكون والإنسان والحيوان . إنهم أرادوا الفرار من أوهامهم المزعومة ، ولكنّهم وقعوا في أوهام أخرى حقيقية أكبر وأعظم مما قبله ألا وهي الكفر بالله وعدم التدبر في خلق الله للوصول إلى وجوده والإيمان به :

﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾(٢) .

* * *

(١) الطور (٣٥) .
(٢) الذاريات (٢٠ ـ ٢١) .

المبحث الثالث

الأخلاق في البوذية (Sila Dharmma)

إن قضيّة الأخلاق في البوذية من القضايا التي اهتمّت بها اهتمامًا كبيرًا . ويمكن القول بأن جزء الخصب في البوذية هو مذهبها في الأخلاق .

وقد أشرنا فيما سبق إلىٰ أنّ البوذية ألغت الجانب الربّاني من فلسفاتها وواجباتها ، واقتصرت فروضها علىٰ الجانب الأخلاقي الإنساني وحده ، فكانت فكرة بوذا عن الدين فكرة خلقية خالصة ، وكلّ ما يعنيه سلوك الناس ، أما الطقوس وشعائر العبادة وما وراء الطبيعة فكلّها عنده لا تستحق الكلام والنظر فيها ؛ الأمر الذي جعل نحلته البوذية مليئة بالخلال والفراغات ملأها أتباعه بعد وفاته حتىٰ أصبحت كما هو معروف اليوم .

وفي الكتاب « تري بيتاكا » المقدس والمعتمد لدىٰ البوذية ما يوضح لنا مدىٰ اعتناء بوذا بالأخلاق حيث تناول أكثر من ثلثي الكتاب الحديث عن القواعد السلوكية ، والتعاليم الأخلاقية ، أو ما يعرف باسم « سيلادهارما » (Sila dharmma) أي الأخلاق .

ولكن ليس من المفيد أن نفصل هذه الأخلاق البوذية في هذا البحث فإن تفصيلها يحتاج إلىٰ صفحات طويلة ، ونرىٰ أنه يكفينا في هذا البحث أن نتناول موجزًا من أهمّ تعاليم الأخلاق في البوذيـــة مع بيان عيوبها إن وجدت إن شاء الله .

الأخلاق العامة والأخلاق الخاصة :

ذكر في كتاب « تري بيتاكا »[1] أن بوذا قسم تعاليمه إلىٰ ثلاث درجات :

---

(١) انظر (سوتان) (٢٨٩ـ٢٩٠) .

وهي الابتدائية ، والمتوسّطة ، والعالية ؛ ولكلّ درجة منها تعاليم خاصة بها .

ففي الدرجة الابتدائية ذكر بوذا خمس رذائل أو ما يعرف عند البوذيين باسم (Sila) جاء النهي عنها على صورة وصايا ، وهي لو أخذ الشخص نفسه بها ، ورعاها حقّ رعايتها كان في الأخذ بها استيلاء تام على الإرادة ، وتلك الوصايا الخمس هي :

١ ـ لا تقتل أحداً ، ولا تقض على حياة حيّ من الحيوان .

٢ ـ لا تأخذ ما لا يعطى إليك .

٣ ـ لا تكذب ولا تقل قولاً غير صحيح .

٤ ـ لا تشرب خمراً ولا تتناول مسكراً ما .

٥ ـ لا تباشر علاقة جنسية محرّمة .

وذكر الكتاب أن هذه الوصايا الخمس قد تضمنت في مقابلها خمس فضائل ؛ وهي التحلي بالرحمة ، والكسب الحلال ، والصدق ، والوعي الكامل ، والعفة . إن هذه الدرجة من الأخلاق وضعت لعامة البوذيين المدنيّين أي الذين يسكنون المنازل ، أما الذين يتطلّعون منهم إلى سلك الرهبنة ، فعليهم فوق ذلك اتّباع الوصايا العشر الباقية وهي كالآتي :

١ ـ الامتناع عن الطعام في الليل وعن تناوله أكثر من مرة في اليوم .

٢ ـ الامتناع عن تزيين الجسم بالعطور أو الزهور ، أو بالدهن .

٣ ـ الامتناع عن الرقص والغناء ، وعن حضور حفلتهما ، وعن جميع الملاهي والألعاب .

٤ ـ الكفّ عن اقتناء المقاعد والمساند الفخمة ، والفراش الوثير المحشي بالقطن .

٥ ـ الامتناع عن إبادة النباتات وإماتتها .

٦ ـ الكفّ عن الهراء وفظاظة الكلام والنميمة .

٧ ـ الكفّ عن التزييف في الكلام للحصول على المطالب الدنيوية .

٨ ـ الكفّ عن القمار والرشوة .

٩ ـ الكفّ عن الوساطة بين الناس .

١٠ ـ الكفّ عن قبول الهدايا النقدية وعن اقتناء الذهب والفضة .

هذه الرذائل البوذية العشر وضعها بوذا لأتباعه من الرهبان دون غيرهم بالإضافة إلى النظم والآداب الكثيرة سأذكرها إن شاء الله في فصل الرهبنة .

أما الدرجة العالية من الأخلاق فهي درجة القديسين (Arhat) الذين حطّموا جميع القيود العشرة التي سبق ذكرها تحطيمًا كاملاً .

فرقتان في البوذية :

بهذه الدرجات الثلاث تبين لنا أن بوذا قد قسّم أتباعه إلى فرقتين كبيرتين :

الفرقة الأولى : عامة وهم المدنيون الذين يسكنون المنازل .

الفرقة الثانية : خاصة وهم الرهبان الذين ينقطعون للتبتّل ، وقد أطلق عليهم اسم « بيهكشو » (Bhikshu) أي المتسوّل ، ومن هذه الفرقة القدّيسون الذين وصلوا إلى نهاية الطريق ، ويمكن أن نسميهم خاصة الخاصة ، كما سمّاه المتصوفة من المسلمين مشايخهم ، وقد وجد هذا التقسيم بين الفرقتين منذ أيام دعوة بوذا ، حيث أوجد بوذا الفرق والتمييز بين جماعة الرهبان وغيرهم من المدنيّين في المحافظة على التعاليم والأخلاق ، فاكتفى المدنيّون بأن يطيعوا من النواهي المتقدمة خمسة الأولى فقط ؛ أو ما يعرف بالوصايا الخمس ؛ أما بقيّة النواهي الأخرى فهي خاصّة للرهبان المتديّنين ، كما أن العمل بالوصايا الخمس ليس على سبيل الوجوب والإلزام ؛ فللمدنيين العمل بها أو تركها حسب رغبتهم وإيمانهم ، وليس عليهم عقوبة معيّنة من قبل الشرع ، ولذلك نجد البوذيين المعاصرين بعضهم لم يحافظ إلا على وصيّة واحدة من هذه الوصايا ، وبعضهم على وصيّتين ، والآخر على ثلاثة ، ولهم أن يختاروا ما شاءوا

من هـذه الوصايا للعمل بها .

وقد رُوي أن بوذا نفسه لم يعاتب علىٰ أحد من أتباعه الذين حافظوا علىٰ وصية واحدة ؛ وعندما سئل بوذا عن ذلك قال : « إن المحافظة علىٰ جميعها أمر صعب »(١) .

وعلىٰ هذا اعتبر البوذيون المدنيّون أن المحافظة علىٰ جميع الوصايا الخمس أمر عظيم لديهم لأن الغالبية منهم تقع إزاءها في عجز وعمي ، فقتل الحيوان مثلاً لا يستطيع أن يمتنع عنه إلا أفراد قليلون منهم .

وللمدنيّين في العمل بهذه الوصايا شرط غريب وهو التلقي ـ أي تلقي هذه الوصايا من الرهبان مشافهة ـ ولهذا التلقي طقوس تقليدية معروفة عندهم ، وهي :

أن يقول المريد ثلاث مرات أمام راهبه وهو جالس علىٰ ركبتيه ضام أصابعه العشرة فوق صدره مغمّض عينيه :

« أيها القديس المحترم نحن نريد منكم الوصايا البوذية الخمس لنعمل بها . . . » فيدعو له الراهب ، ويعطيه وصية بعد وصية ، ثم يتقبل المريد ، ويتعهد بالمحافظة عليها وعدم تركها مدىٰ الحياة ، مهما حدث له من المشقات(٢) .

وتعدّ هذه الوصايا منقطعة إذا تعدّىٰ المريد علىٰ واحدة منها فعليه حينئذ أن يطلبها من الرهبان من جديد (٣) .

---

(١) « الأخلاق البوذية الخمسة » (٢٨) .

(٢) من الملاحظ أن هذه الطقوس البوذية شبيهة بالطريقة الصوفية التي يلتزم بها المريد ؛ حيث يشترط أن يكون الشيخ مأذوناً له في إعطاء الورد ، وسلوك الطريقة لـلمـ ـد ، ويتعهّد المريد بأن يلتزم بالورد ، وآدابه ؛ فلا يتركه مدىٰ الحياة ، كما يلتزم بلزوم الطريقة وعدم استبدالها بغيرها من سائر الطرق .

(٣) المصدر السابق (٩ ـ ١٠) .

بهذه العملية التقليدية البسيطة أصبح البوذيون اليوم في تايلاند وغيرها من الدول البوذية يتحررون من قيود الأخلاق البوذية التي رسمها بوذا لهم[١] .

ويعتقدون أن الالتزام بالأخلاق البوذية خاصّ للراهبين فقط دون غيرهم .

المساواة في البوذية :

إن هذا التمييز بين الرهبان والمدنيين في الالتزام بالأخلاق لا ينطبق إطلاقًا مع مبدأ المساواة التي دعا إليها بوذا ؛ فقد دعا بوذا إلى المساواة ردًا على نظام الطبقات السائد في مجتمع الهندوس ؛ وأعلن أن مفاضلة الناس على حسب عملهم .

وممّا روي عنه في ذلك قوله في حوار طويل مع أحد حوارييه «ساريبوترا» (Saributtra) : « ليس البرهمي برهميًا بالولادة وليس المنبوذ منبوذًا بالولادة بل بالأعمال . . . لا تقيم فروقًا بين الغني والفقير ، وبين المتكبر والمتواضع ، وبين الصغير والكبير ، فجميعهم سواسية »[٢] .

وفي موضع آخر :

« يا إخوتي بيهكشو ، الإنسان يعلو أو يدنو بعمله « كارما » (Karma) لا بأصله ونسبه »[٣] .

---

(١) ومن تجربتي خلال فترة التجنيد الإجباري في تايلاند وذلك في (عام ١٩٧٤ إلى ١٩٧٦م) ، وجدت أن رجلاً واحدًا فقط من بين مائة رجل بوذي يحافظ على الأخلاق البوذية الخمسة ، والباقي منهم لم يحافظ أو لم يعرف شيئًا منها . ومن الحوادث العادية اليومية في تايلاند : القتل، والنهب ، والسرقة والغصب ، وما شابه ذلك ، وإن صناعة الخمر تعتبر من أكبر محصولات الدولة سنويًا ، أما التصرفات والعلاقات الجنسية فهي بالغة الحد والفوضى إلى درجة أن جيلاً كثيفًا من الأبناء غير الشرعيين سوف يخرج إلى الحياة دون همّ أو إحساس من أحد بما سيلاقيه هذا الجيل ، لأنه يمكن للشاب البوذي أن يعيش مع فتاة بوذية دون عقد زواج ، ولو أنجبوا عشرات الأولاد ، فليس هناك رقيب من الحكومة ، أو رقابة من الشعب ، ومن الغريب أن المجتمع البوذي في تايلاند تقبل هذه الحقيقة كعرف اجتماعي مألوف .

(٢) « تري بيتاكا » (سوتان) (٢٩٥) .

(٣) المصدر السابق (٣٥٤) .

ولكنه في نفس الوقت كان يحثّ الناس على الدخول في نظامه « سانغا » (Sangka) أي نظام الرهبنة ، وكان يرسم بعض التعاليم الأخلاقية لهذه الجماعة دون البقية من الناس ، فكأن بوذا في دعوته هذه أراد إبقاء الناس في ملته على طبقتين بدلاً من أربع طبقات كما في الهندوسية .

يقول بوذا « اعلموا يا إخوتي بيهكشو ، كما تفقد الأنهار الكبيرة أسماءها عندما تصب في المحيط كذلك تبطل الطبقات الأربع عندما يدخل الشخص في نظام « سانغا » أي الرهبان »(١) .

وعلى هذا فقد كوّن بوذا طبقة جديدة في ديانته لا تقل خطراً عن كهنة الهندوس .

يقول الدكتور أحمد شلبي :

« إن ما يدعو إليه بوذا هو الرهبنة ، وفي الرهبنة يتساوى سائر البشر ، ولكن يؤخذ على هذا الاتجاه أنه جعل الغاء نظام الطبقات متوقفًا على دخول البوذية ؛ فلم يدع للمساواة في حدّ ذاتها ، أمّا الإسلام فهتف بالمساواة مبدأ عامًا بين البشر.

قال تعالى : **﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾**(٢) .

فالآية تنادي الناس ولا تنادي « المؤمنين » فقط ، وهي تتكلم عن مبدأ الخلق وأن الناس ينحدرون من أب واحد وأم واحدة فلا معنى للتفاوت والطبقية »(٣) .

وقد نادى الإسلام بالمساواة نظريًا ، وطبّقها عمليًا ، وأقام عليها مجتمعًا حطّم كلّ الفوارق التي تقيم الحواجز بين الناس ، لأن الإسلام ليس فيه فرقة خاصة تدعى الرهبان أو رجال الدين ، يستمتعون بالحقوق والامتيازات ، وفرقة

---

(١) المصدر السابق (أبيدارما) (٧٦٤) .
(٢) الحجرات (١٣) .
(٣) « أديان الهند الكبرى » (١٧٥) .

أخرىٰ عامة يقومون بخدمتهم . فكل مسلم رجل لدينه ؛ يشترك علىٰ السواء في امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه دون تفريق فيما بينهم ، أما المساواة في البوذية فلم تحقق المساواة الكاملة المفروضة ، لأنها لم تتخلّص من النظام الطبقي في الحياة العملية ؛ إذ الفروق بين الطائفتين الرهبان والمدنّيين قائمة بارزة في كل مجتمع بوذي .

الأخلاق السلبية في البوذية :

هناك مجموعة من التعاليم الأخلاقية في البوذية أوصىٰ بها بوذا وردّدها كثيراً في كلامه ؛ كلّها تدور في فلك واحد وهو المحبة والشفقة إزاء جميع المخلوقات الحية ، ومبادلة الشر بالخير .

وفيما يلي أورد بعض أقواله في هذه الأخلاق :

١ ـ « الضغينة تزيلها عدم الضغينة »[١] .

٢ ـ « فلينتصر الإنسان علىٰ الغضب بالحب وعلىٰ الشر بالخير ، وعلىٰ الشحّ بالكرم ، وعلىٰ الكذب بالصدق ، إن النصر يولد المقت لأن المهزوم في شقاء . . . وإن الكراهية يستحيل عليها أن تزول بكراهية مثلها ، إنّما تزول الكراهية بالحبّ »[٢] .

٣ ـ « إن جميع الحيوانات تولد ، وتكبر ، وتمرض ، وتموت وهكذا تتجوّل سائر الحيوانات في « سمسارا » (Samsara) أي دورة التناسخ . . . فعلينا

---

(١) « تري بيتاكا » (سوتان) (٢٩٥) .

(٢) المصدر السابق (٣١٤)

ويلاحظ أن البوذية في هذه الأخلاق قد سبقت النصرانية في دعوتها التي دعا إليها المسيح عليه السلام في قوله : أحسنوا إلىٰ مبغضيكم ، باركوا لاعنيكم ، وصلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ، من ضربك علىٰ خدك فاعرض له الآخر أيضاً ومن سرق قميصك فأعطه ازارك : (لوقا الإصحاح السادس فقرة ٢٧ ـ ٢٩) وستأتي الموازنة بين هذه التعاليم في مبحث خاص في فصل الرهبنة إن شاء الله .

جميعًا التجنّب من الإساءة والأذى بالحيوانات »[١] .

٤ ـ « جميع الكائنات الحية مهما كانت ضعيفة أو قوية ، صغيرة أو كبيرة ، مرئية أو غير منظورة ، كلّ منها تمشي في نشدان الخلاص ، والكلّ أصدقاؤنا وإخوتنا في ألم الحياة »[٢] .

٥ ـ التقى بوذا ذات يوم مع جماعة من الشباب وهم يقتلون سمكة فقال : «ألا يخشى الواحد منكم الألم ! لماذا تقتلون هذه السمكة فهي مثلكم تتألم ؟ » . . .

٦ ـ « جميع الكائنات الحيّة تبغي السعادة فليشمل عطفكم عليها ولا تسيئوها أيّة إساءة »[٣] .

إن هذه التعاليم الأخلاقية وأمثالها هي التي يفتخر بها البوذيون ، ويقولون إنّ دينهم دين الاحترام للحياة ، ودين المحبّة الشاملة .

يقول الراهب البوذي « تانيت يوبودهي » (Tanit youbodhi) في كتابه «الأخلاق البوذية الخمسة»[٤] :

« إن الاحترام والمحبة للحياة ـ إنسانية كانت أو حيوانية ـ من أهم الأخلاق في البوذية فإزالة الحياة في جميع صورها محرّمة عند البوذيين ، وليس لبوذي أن يقتل حيوانًا أيّاً كان ، ولو لأكله أو دفع ضرره ؛ بل عليه أن يرفق بالحيوان ويعدّه أخاه في الوجود وفي المشاركة في آلام الحياة وهمومها » .

وساق هذا الراهب قصّة لرجل ذهب إلى الغابة ، فصادفه ثعبان ، فأراد أن يقتله بالسيف ليسلم منه ، ثم تذكّر أن عنده الوصايا الخمسة ، كان يتعهّد بالمحافظة عليها فقال لنفسه : « هلاك الحياة خير من هلاك الوصايا » فترك سيفه ، وحينئذ فرّ الثعبان ، ولم يمسّه بالضرر .

---

(١) المصدر السابق (٣٢٨) .
(٢) المصدر السابق (٣٢٦) .
(٣) المصدر السابق (٣٨١) .
(٤) صفحة (٨ ـ ١٠) .

وعلّق الراهب على هذه القصة الخرافية فقال : « إن ذلك من أجل محافظته على الوصايا » .

وهنا يمكن القول بأن البوذية فيما ذهبت إليه من هذه الأخلاق ، قد تأثّرت بمذهبين هنديّين وهما البرهمية والجينية .

أما تأثرها بالبرهمية فلأن البرهمية اعتقدت بأن الحيوانات صور لآدميين تقمّصوا فيها بسبب آثامهم « كارما » في الحياة السابقة ، غير أن البرهمية لا ترى كبير حرج في قتلها ، فكان الصيد من وسائل تسلية الملوك[1] ، وكان تقديم الذبائح لآلهتهم من أهمّ الطقوس والشعائر ، ولذلك لمّا ظهر بوذا قام بمعارضة هذه التقاليد والطقوس ، وبدعوته إلى المحبة الشاملة لسائر الحيوانات .

وأما تأثرها بالجينية فلأن الجينية تمسّكت بمبدأ « أهنسا » (Ahinsa) أي الامتناع عن إساءة الكائنات الحية أشدّ التمسك ؛ وقد ذهب الجينيون في تنفيذ هذا المبدأ بكل دقة وحماس .

يقول عبد الرحمن حمدي في كتابه « الهند عقائدها وأساطيرها »[2] :

« والجانيون يحترمون ويمتنعون عن قتل كل ما دبّت فيه الحياة ، فهم لا يمتنعون فقط عن أكل اللحوم بأنواعها ، بل إنهم لا يشربون إلا الماء المرشح ، ويضعون نقابًا يشبه الكمامة على أنوفهم وأفواههم ، وذلك خوفًا من استنشاق الميكروبات ، لا حرصًا منهم على حياتهم بل حرصًا على حياة الميكروبات ! ويكنسون الأرض أمامهم خوفًا من أن تطأ أقدامهم حشرة ، ويشترط أن تكون المكنسة ناعمة الملمس لئلا تؤذي الحشرة » .

وقد ذهب بوذا إلى هذا المبدأ الجيني ، ودعا أتباعه إلى التمسك به ولكن بطريق أخفّ مما تمسكت به الجينية .

---

(١) قارن « حضارات الهند » (٣٨٨) وأيضًا « تاريخ الأديان » (١٦٨) بالتايلاندية .
(٢) صفحة (١٤٣) .

فقد منع بوذا أتباعه عن قتل الحيوان بجميع أنواعه ، ولكنه في نفس الوقت لم يمنعهم عن أكل لحومه ، كما لم يمنع نفسه عنه ، وتروي لنا القصة البوذية أن بوذا لم يردّ الطعام من اللحوم الذي قدمه الناس إليه ، وأنه توفّي من سوء هضم بعد أكله لحم الخنزير الذي قدّمه إليه أحد أهل القرىٰ[١] .

وقد سار علىٰ منواله أتباعه اليوم من الرهبان ؛ فقد رأيناهم في كثير من المعابد البوذية في تايلاند أنهم يدعون الناس بجدّ وحماسة إلىٰ احترام الحيوان ، ومحبته وإلىٰ الامتناع عن قتله وإساءته ، ولكن في وقت طعامهم رأيت صنوفًا من لحوم الحيوان علىٰ موائدهم ، وعندما سألت واحداً منهم عن ذلك ؛ قال : «نحن نأكل ولا نقتل » ! فالأكل عندنا حكم ، والقتل حكم آخر[٢] .

قلت له : إذا كانت اللحوم جائزة لكم فما فائدة تعاليمكم إذن في احترام الحيوان ومحبته ، وفي الامتناع عن قتله ، لأن الأكل لا يكون إلا بعد الموت وهو لا يكون غالبًا إلا بالقتل ؟

إنه لا يستطيع الإجابة المقنعة إلا تكرار القول بأن القتل غير الأكل إن شأنهم في هذا كشأن الذين نهوا عن صناعة الخمر وهم يشربونه ثم قالوا : « نحن نشرب ولانصنع » .

ومما يدعو إلىٰ التساؤل أيضًا ، إذا كانت العلة في الامتناع عن قتل الحيوان هي الانتهاك لحرمته لأنه أخو الإنسان في الوجود ، والمخالفة للمحبة التي نادىٰ بها بوذا ، فلماذا لم يمنع هو وأتباعه عن استخدامه للركوب أو الحمل أو الجلب أو ما شابه ذلك مع أن هذا إيذاء أيضًا للحيوان وانتهاك لحرمته علىٰ زعمهم .

هذا هو التناقض في هذه الأخلاق البوذية ، التناقض بين النظري والتطبيقي .

---

(١) « قصة بوذا » (٣/ ٤٢ ، ٩١) و« تاريخ الفلسفة البوذية وتطورها » (٥٨ـ٥٩) وهذه القصة مروية في كتاب « تري بيتاكا » (٣٢٦ ، ٣٢٧) وقد سبق ذكرها .

(٢) من الغرائب التي رأيناها في تايلاند أن بعض البوذيين المتديّنين إذا أراد أن يأكل السمك أو أي حيوان مائي أخذه ثم وضعه في الشمس مدة حتىٰ يموت بها وذلك ليتخلّص من ذنب القتل في زعمه .

إنهم لا يستطيعون تطبيقها عمليًا في حياتهم اليومية لتعارضها مع واقعهم الفطري الإنساني ، وقد أصبحت هذه الأخلاق فاشلة منذ نشأتها إلى اليوم ، لايمكنها توجيه الجماهير الغفيرة من الناس[1] .

والسبب في ذلك أن البوذية لم تعرف الإنسان والكون معرفة محيطة بهما ، وإنما نظرت إليهما نظرة قاصرة ، ثم ركضت وراء الأوهام والتخيلات التي لا يقوم عليها الواقع والمشاهد .

هذا بخلاف الإسلام فإنه تميّز عن البوذية بنظرته الشاملة المحيطة لواقعية الكون ، والحياة ، والإنسان ، فلم ينس في تعليماته الأخلاقية وفي كلّ ما وضع من أنظمة وقوانين هذه الواقعية ، لأن الذي يشرع الإسلام للإنسان هو الذي خلق الكون والحياة ، وهو الذي خلق الإنسان فهو أعلم بما يصلحه وما يفسده .

فمن مظاهر هذه الواقعية أن شريعة الإسلام لا تحرّم شيئًا يحتاج إليه الإنسان في واقع حياته ، كما لم تبح شيئًا يضره في الواقع ، فعندما أباح الإسلام لحوم المأكولات من الحيوان ، لم يبح ذلك إلا لما فيها من فوائد كثيرة للإنسان في طعامه ، ولذلك لم يحرم الإسلام قتل الحيوان إذا كان فيه غرض صحيح لفاعله كأكله أو دفع ضرره أو ما شابه ذلك .

لأن الله سبحانه وتعالى خلق هذه الحيوانات بل هذه الموجودات كلّها مسخرّة لخدمة الإنسان ومنفعته .

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا في كثير من الآيات كقوله تعالى :

﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾[2] .

---

(1) مما شاهدته في تايلاند أن البوذيين اليوم من أكثر الناس قتلاً للحيوان ، ومما يساعدهم على ذلك عدم وجود النواهي البوذية في نوع معيّن من الحيوان فجميع الحيوان على اختلاف أنواعه حل لهم سواء مات بالقتل أو مات حتف أنفه .

(2) يس (71 - 73) .

وقوله تعالىٰ : ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾(١) .

وقوله تعالىٰ : ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾(٢) .

هذه الآيات وأمثالها تدلّ دلالة واضحة علىٰ تكريم الله للإنسان .

حيث جعل الكون كله في خدمته ، وسخّر لمنفعته العوالم كلها ، السماء والأرض ، وما بينهما ، والنبات ، والحيوان ، والجماد ، كلّها مسخرة لمصلحة الإنسان وسعادته ، وكرامة من الله ونعمة منه عليه ، فللإنسان أن ينتفع من هذه النعمة التي أنعم الله عليه ، ولاذنب له في ذلك إذا كان الانتفاع داخل الحدود التي حدّدها الله له ولا يتجاوز عنها .

ومن التناقض أيضًا في هذه الأخلاق البوذية ، أنها تدعو الناس إلىٰ المحبة والشفقة تجاه المخلوقات ، والمعروف في تعاليم بوذا كما ذكرناه أن المحبة والشفقة وما أشبههما رغبة من الرغبات البشرية الرذيلة التي تؤدي الإنسان إلىٰ الألم ، وعلىٰ الإنسان التخلص من هذه الرغبات للتخلص من الألم ، فكيف دعا بوذا إلىٰ هذه الرغبات وتفضيلها ؛ مع أنه أنكر عليها وعدّها سببًا لآلام الحياة؟

إن هذا التناقض وغيره من التناقضات في تعاليم بوذا يدلّ ـ بلا شك ـ علىٰ قصر نظرته ، وهو أمر لازم لتفكير البشر الذي يستحيل عليه أن ينظر في قضية ما نظرًا يستوعب كلّ الجوانب والأحوال ، وعلىٰ هذا فإن تعاليمه الأخلاقية مازالت تتساقط واحدة بعد أخرىٰ عاجزة عن أن تهدي النفس البشرية إلىٰ أي حق .

---

(١) النحل (١٤) .
(٢) لقمان (٢٠) .

وقد أثنىٰ علىٰ هذه التعاليم البوذية كثير من المستشرقين[1] ، وغالوا في تمجيدها كل المغالاة ؛ فزعموا أنها أرقىٰ المعارف الدينية التي عرفها العالم ، وقد فاتهم التفكير بأنه لا جدوىٰ في التعاليم مهما بلغت قمّة في الجودة والجمال إذا لم تطبّق في واقع الحياة لتعارضها مع طبائع البشرية .

وقد فنّدهم العقّاد في كتابة « الله »[2] فقال :

« وعلينا أن نحترس من مغالاة الشراح الأوربيين لهذه الفلسفة البوذية ، لأنهم يتعصّبون لكل منسوب إلىٰ الآرية علىٰ اعتبارها عنصر الأوربيين الأقدمين والمعاصرين ، فقد رفعوها فوق قدرها بلا مراء ، وزعموا أنها جرءة العقل الكبرىٰ في مواجهة المشكلة الكونية ، وأنها الخطوة المتقحمة التي لم يذهب وراءها ذو عقيدة في مطاوح التأمل والإقدام ، لكنّها لا تحسب من الجرءة العقلية بوصف من الأوصاف ، فما هي جرءة حسيّة في أقصىٰ ما تطوحت إليه من الفروض والأظانين ، وما البوذية كلها إلا تململاً من وطأة الحسّ والجسد ولا سعادتها القصوىٰ إلا ضيق بالحسّ وهرب منه إلىٰ الفناء أو « اللّاوعي » علىٰ أحسن تقدير » .

* * *

---

(1) منهم المستشرق مكس موللر (Max muller) والمستشرق غوستاف لوبون (Gostaf Lobon) انظر « حضارات الهند » (362 ، 363) .

(2) صفحة (77) .

الفصل الثالث

العقائد فى البوذية

وفيه أربعة مباحث :

المبحث الأول : قضية الألوهية عند بوذا وأتباعه .

المبحث الثاني : « كارما » أو قانون الجزاء .

المبحث الثالث : تناسخ الأرواح « سمسارا » .

المبحث الرابع : « نرفانا » أو الفناء والخمود البارد .

الفصل الثالث

العقائد في البوذية

اشتملت الديانة البوذية كغيرها من الديانات على مجموعة من العقائد ، غير أن معظم هذه العقائد ليست أصلاً لها ، وإنما اقتبستها من البرهمية ، لأنها الديانة الأم التي تفرّعت عنها سائر الديانات الهندية .

وقد اتفقت البوذية مع البرهمية في الاعتقاد بكارما (Karma) أي قانون الجزاء ، وبالتناسخ ؛ كما اتفقت معها أيضًا في محاولة التخلص من التناسخ ، وإن اختلفتا في تفسير هذه العقائد .

وفي هذا الفصل سنتناول أربع نقاط مهمة في العقائد البوذية وهي قضية الألوهية وقانون « كارما » (Karma) وتناسخ الأرواح و« نرفانا » (Nirvana) .

ونبدأ أولاً بقضية الألوهية ، لأنها غاية في الأهمية - بل في الخطورة - في الديانة البوذية .

* * *

المبحث الأول
قضية الألوهية عند بوذا وأتباعه

أ ـ قضية الألوهية عند بوذا :

اتفقت معظم الروايات البوذية على أن بوذا لا يقرِّر العقائد ولا يهتمّ بها ، لأنه كان يؤسّس مذهبه على الأسس الأخلاقية ، وعلى التجربة الروحية والطريق المؤدية إليها ؛ وكان لا يعتمد على معونة أخرى ينتظر إلهامها أو نورها ، وإنما يعتمد على المجهودين العلمي والعملي لا أكثر ولا أقل[١] .

ولذا يرى كثير من الباحثين في الأديان أن البوذية فلسفة أخلاقية وآداب للسلوك أكثر منها دين ، وأن أتباع بوذا هم الذين رفعوا هذه الفلسفة إلى مستوى الدين[٢] .

وقد ثبت أن بوذا كان عاكفًا وحده على دراسة تخفيف ويلات الإنسانية ، والقضاء على الشقاء والآلام في هذه الحياة ، لكي تنال النجاة والخلاص من الدنيا وما فيها .

إن هذا الخلاص ـ عند بوذا ـ عمل شخصي بحت يخصّ الفرد بلا حاجة إلى الالتجاء أو الاستنجاد بالإله المنقذ ، لأن قدر الإنسان النهائي عنده يتوقّف على سلوكه الشخصي الحر لا على الإله ، وأن الإنسان حاكم حياته ، وصانع مصيره على حدّ زعمه[٣] .

يقول بوذا في بعض مواعظه :

---

(١) « قصة بوذا » (٣/ ٤٨ ، ٤٩) .

(٢) انظر « أديان الهند الكبرى » (١٦٦ ـ ١٦٧) وأيضًا « الديانات والعقائد » للأستاذ عبد الغفور عطار (١/ ١٢٤) ، و« حضارات الهند » (٣٥٥) .

(٣) انظر « الفلسفة البوذية » (١٢٨ ، ١٢٩) .

« من الحمق أن تعتقد أن سواك يستطيع أن يكون سبب سعادتك أو شقائك ، إن السعادة أو الشقاء نتيجة سلوكنا نحن وشهواتنا نحن . . . كونوا لأنفسكم موئلاً ومعتصماً ، ولا تعتصموا بملاذ خارجي ، ولا تستمدوا إلا بأنفسكم »[١] .

ويقول في موضع آخر :

« . . . . ألا إن في يد الإنسان وحده خلاص نفسه ، فلا يطلب من غير نفسه ملاذاً . . . وليكن كل أحد منكم ملجأ لنفسه ، إن نفسه فقط هي الملجأ الصحيح[٢] .

وعلى هذا الأساس ؛ فلم يعن بوذا بالحديث عن الإله ، وعن قضايا الفلسفة الدقيقة في الكون وما وراءه .

وهذا هو ما ذهب إليه أكثر المؤرخين والباحثين في الأديان[٣] .

يقول أبو الكلام آزار الذي كان وزيراً للمعارف بالهند :

« يبدو لي أن وضع بوذا في صفوف الفلاسفة أسهل من وضعه في صفّ الأنبياء وذلك لأنه لم يتعرض في مباحثه لوجود الله ، بل حاول حلّ مسألة الحياة ، وانتهى منها دون التحرّش بالله وبوجوده ، إنه قد قطع كل علاقة له مع الحياة الدينية في الهند التي كان تدين بآلهة وإلهات لا تعدّ ولا تحصى ، إنه بدأ بحثه وفرغ منه دون أن يلجأ إلى الاعتقاد بالله »[٤] .

ويقول : « ول ديورانت » في كتابه « قصة الحضارة »[٥] :

---

(١) كتاب « تري بيتاكا » (سوتان) (٢٩٥) .

(٢) المصدر السابق (سوتان) (٥٢١) وانظر أيضاً (أبيدارما) (٧١١) .

(٣) انظر « الديانات القديمة » لأبي زهرة (٧٨) و« الديانات العقائد » لأحمد عبد الغفور عطار (١٢٤/١) .

(٤) « أديان الهند الكبرى » (١٧١) نقلاً عن « التاريخ الجديد العام للفلسفة » (ثقافة الهند يونيو سنة ١٥٩١ ، ص٥٢) .

(٥) (٧٨/٣) .

« إنك لن تجد في تاريخ الديانات من هو أغرب من بوذا يؤسّس ديانة عالمية، ومع ذلك يأبى أن يدخل في نقاش عن الأبدية والخلود والله . . . إنه ليبتسم ساخراً من المحاورة في موضوع نهائية الكون أو لانهائيته » .

وتروي الروايات البوذية أنه قد رفض أن يجيب وأن يبدي رأيًا عمّا إذا كان للعالم بداية أو نهاية ، وأنه حقّ أو غير حقّ ، أو إذا كانت النفس والبدن شيئًا واحداً أو هما مختلفان أو غير ذلك من قضايا الوجود الكوني (الميتافيزيقيا (Metaphysics) ؛ لأن أمثال هذه المسائل في رأي بوذا لا تؤدّي بالباحثين فيها إلى التخلّص من آلام الحياة وإلى النرفانا ، ولا تؤديهم إلا إلى الخصومة الحادة والكراهية الشخصية والحزن[١] .

وكان بوذا ينهى أصحابه وزوّاره أن يخوضوا في مثل هذه الأبحاث ويوبّخهم على سؤالهم عن قضية الألوهية وغيرها من قضايا دقيقة مجرّدة ، ولهذا لا نجد في تعاليمه ومبادئه أثراً يدلّ على إيمانه بإله واحد أو عدة آلهة أي بالتوحيد ولا الوثنية .

ومن هنا اعتقد معظم الباحثين أنه كان ملحداً[٢] ، وهذا هو الظاهر في جميع تعاليمه ؛ لأنّنا نجد أن بوذا في بعض أقواله اتجه إلى جانب الإنكار في قضية الألوهية ، وأصبح يحارب معتقديها ، فيروي لنا الكتاب « تري بيتاكا »[٣] الحوار الطويل بين بوذا وبين البراهمة بمدينة كوسالا (Kosala) ، وكان ممّا قاله في ذلك : « إن مشايخ البراهمة الذين يتكلّمون في « براهما » الخالق وهو لم يره وجهًا لوجه كالعاشق الذي يذوب كمداً ، وهو لا يعرف من هي حبيبته ،أو كالذي يبني السلّم وهو لا يدري أين يوجد القصر ، أو كالذي يريد أن يعبر نهراً فينادي

---

(١) انظر « تري بيتاكا » (سوتان) (٤٨٦) .

وانظر أيضًا : Introduction to indian philosophy .P .216

(٢) انظر : « أديان الهند الكبرى » (١٦٨) و« الديانات والعقائد » (١/ ١٣٥ـ١٣٦) .

(٣) انظر (سوتان) (٣١٤) .

الشاطئ الآخر ليقدم له »[١] .

ومما روي عن بوذا أيضًا أنه سئل عن رأيه في الإله والكون ، وفيما يشتغل به الفلاسفة من الجدل والحوار في قدم العالم وحدوثه ، وفي الروح وخلودها ، وما أشبه ذلك فقال : « إن الآلهة أنفسهم لو كان لهم وجود لما كان في وسعهم أن يجيبوا عن هذه المسائل »[٢] .

وقال في موضع آخر :

« يا إخوتي بيهكشو ! الحق أقول لكم إني في حياتي هذه قد دخلت «النرفانا» ، واضمحلت حياتي وتخلصت من ربقة « كارما » ومن سلسلة التناسخ ، . . . لا إله ولا إنسان ولكن الحقيقة هي التي تبقىٰ أبدًا »[٣] .

وهناك نصوص أخرىٰ كثيرة تشير إلىٰ مثل هذا المعنىٰ .

إن هذه النصوص تكفي لنا للدلالة علىٰ إنكار بوذا الإله وعدم إيمانه بأي إله من الآلهة وهذا هو الرأي المعروف والمشهور لدىٰ أتباعه من البوذيين قديمًا وحديثًا .

غير أن بعضهم قد شذّوا فذهبوا إلىٰ أن بوذا كان يؤمن بالإله[٤] وكان إنكاره علىٰ الآلهة ليس إنكارًا مطلقًا وإنما هو مقصور علىٰ آلهة الآريين دون غيرها ؛ لأن آلهتهم شعبيّة مثل إله اليهود .

ويستدلون ببعض النصوص في الأسفار البوذية التي توهم إيمان بوذا بالإله منها : قول بوذا :

« يا إخوتي بيهكشو ! أطيعوا « دهارما » (Dharma) الذي ظهر بينكم ،

---

(١) هذا النص ذكره الدكتور أحمد شلبي في كتابه « أديان الهند الكبرىٰ » (١٦٨) .

(٢) المصدر السابق (٣١٥) .

(٣) المصدر السابق (أبيدارما) (٧٠٦) .

(٤) منهم علىٰ سبيل المثال القديس البوذي « ناندا بيهكشو » (Nandha Bhikshu) في كتابه «مشكلة الألوهية بين البوذية والمسيحية» (ص١٠٥ ، ١١٣) وذكر عددًا من فلاسفة البوذيين الذين وافقوه في هذا الرأي ، وقد مال إلىٰ هذا الرأي بعض الباحثين المسلمين كالأستاذ أبي زهرة في كتابه «الديانات القديمة» (٧٠) .

اتّبعوه بيقظة وانتباه ، واسلكوا الطريق التي عبدها لكم »[١] .

وقوله أيضًا عن ناموس العلة والمعلول :

« من استبصر هذا الناموس فقد استبصر « دهارما » (Dharma) ، ومن استبصر « دهارما » (Dharma) فقد استبصر الناموس »[٢] .

فقد فسّر بعض فلاسفة البوذيين كلمة « دهارما » (Dharma) بأنها تساوي الإله في سائر الأديان ، وأن هذا الإله ليس له ذات ولا صفة ، لأنه مجرد الناموس الذي يدير الكون ويتحكّم في الحياة كلها[٣] .

والذي يظهر لي أن هذا النص لا يفيد ذلك ؛ لأن كلمة « دهارما » عند البوذية لا تطلق إلا على تعاليم بوذا التي هي من أحد ثالوث المقدس في البوذية[٤] ، كما تطلق أيضًا على القانون ، أو الدين ، أو الفضيلة ، أو الشرف ، أو المعتقد ، أو قاعدة السلوك التي وضعها بوذا لأتباعه ، وهذا هو المصطلح المعروف في البوذية[٥] .

أما هذا التفسير الشاذّ فلم يقصد من ورائه إلا التوفيق بين البوذية وغيرها من الأديان ، وعلى أية حال فإن النصوص التي أوردناها تؤيد القول بأن بوذا ملحد وأن القول بإيمانه بالإله يحتاج إلى دليل أكثر .

أما كونه لم ينكر إلا على آلهة الآريين فليس دليلاً كافيًا على إيمانه بإله الحق، لأن إنكار الشيء لا يقتضي إثبات ضدّه إلا بدليل يدل عليه .

ولعل بوذا أنكر هذه الآلهة لأنه كان يعيش في البيئة التي تعبد فيها هذه الآلهة، فأكر عليها بهذا الاعتبار ؛ لأنه لم يعرف غيرها وإلا لأنكره .

ومما يؤيّدنا أيضًا فيما ذهبنا إليه ما روي عن بوذا أنه أنكر الخلود والأبدية

---

(١) « تري بيتاكا » (سوتان) (٦٤٠) .

(٢) المصدر السابق (أبيداما) (٧٣١) .

(٣) انظر « مشكلة الألوهية بين البوذية والمسيحية » (١٠٦) وأيضًا « الفلسفة البوذية » (٢٠٧) .

(٤) سيأتي بحثه مفصلاً إن شاء الله .

(٥) انظر « مجموعة المصطلحات البوذية » (٢٠٣) .

لجميع الكائنات ، فكل شيء عنده قابل للتغير والفناء حتى « براهما » نفسه يعتوره التغير والفناء مثل أي كائن[١] وقرّر في بعض مواعظه أنه لا يوجد روح أكبر أو خالق أعظم لهذا الكون ؛ لأنه في زعمه أسطورة وخرافة من خرافات الفلاسفة[٢] .

ومن هنا سمّي دينه دين الإلحاد ؛ وأدخله علماء الأديان في مجموعة الأديان الإلحادية (Atheism) مثل الكونفوشية (Confucianism)[٣] والجينية (Jainism)[٤] ومما دفع بوذا إلى هذا الموقف الخطير :

١ ـ ما روي في « تري بيتاكا »[٥] أنه تصوّر الإله على أنه ذات تجرّدت من

---

(١) انظر « تري بيتاكا » (سوتان) (٦٤٤) .

(٢) انظر المصدر السابق (٦٤٥) .

(٣) الكونفوشية (Confucianism) نسبة إلى كونفوشيوس (Confucius) وهو المصلح الصيني المشهور الذي عاش في فترة ما بين (٥٥١ ـ ٤٧٩ ق م) وكان معاصراً لبوذا ، وكان حاكماً فيلسوفًا يبشر بمذهب في الأخلاق ، ويستمسك أشدّ الاستمساك به . إنه مثل بوذا لم يدّع أنه إله ، بل لم يدّع أنه نبي أو رسول ، وإنما حث على مكارم الأخلاق ، وحسن المعاملة ، والترّفع عن المطامع ، وقد أصبح كونفوشيوس آية عند الصينيين في النزاهة والنبل ، والكونفوشية نظام أخلاقي أكثر منه دين لأنه لا يدعو إلى عبادة الإله ؛ وأساس عقيدة الكونفوشية أنهم يعبدون ثلاثة أشياء السماء والأرواح المسيطرة على ظواهر الأشياء (Angel) وأرواح الآباء والأجداد ، ومن عقائدهم أن أرواح الأموات تنفصل عنهم بعد موتهم ، وتبقى في الدنيا مع أسرتهم ، ولذلك يعبدون أرواح الآباء تقديسًا لهم ووفاء لعهودهم ، ويقدّمون لهم القرابين ، وعقيدة الكونفوشيوس هي عقيدة قدماء الصين ؛ لا يؤمنون بالجنة والنار ، ولا عقاب ولا ثواب ، ولقد أخذ الكونفوشيوس ولم يزد عليها فلم يؤمن باليوم الآخر ، ولم يفكّر في الحياة بعد الموت ؛ بل كان كلّ همّه في إصلاح الحياة الدنيا ، وقد ارتفع الكونفوشيوس بعد موته إلى أعلى درجة عند الصينيين ، فقد جعلوه إلهًا مثل السماء لأنه في زعمهم ندها وكفؤها ، والصينيون المعاصرون من أهل الثقافة والعلوم لا يؤلهونه بل يرونه إنسانًا حكيمًا مصلحًا آية في النبل والنزاهة والكرامة والخلق ، والجدير بالذكر أن هذا المذهب لا تزال الصين تجلّه وتعظّمه على اختلاف مللها ونحلها ، انظر « دائرة المعارف البريطانية » (٤/ ١٩٠١) وما بعدها و« الديانات القديمة » (١٥٤) وما بعدها ، و« تاريخ الأديان » بالتايلاندية (٨٠) وما بعدها .

(٤) تقدم تعريفها .

(٥) انظر (أبيدارما) (٦٥٢) و« أصول البوذية » (٢٧ ـ ٢٨) .

الصفات البشرية ، كالحب والرضا والغضب والكراهية والسخط وما أشبه ذلك ، فما دامت الآلهة متّصفة بهذه الصفات فلا يجوز أن تكون آلهة ، لأنها لم تتخلص من الشهوات والرغبات ، والذي لم يتخلص من الشهوات والرغبات كيف يكون إلها ؟ .

وعلى هذا فقد فسّر بعض العلماء البوذيين المعاصرين بأن بوذا أنكر الإله المشخّص ولم ينكر الإله غير المشخّص الذي هو ناموس دهارما (Dharma) في زعمهم وسيأتي بحثه مفصّلاً .

ومما يلاحظ في هذا التصور السخيف أنه شبيه إلى حد بعيد بما تصوّره بعض الفرق الإسلامية الضالّة كالجهمية[١] والمعتزلة وغيرهما في قضيّة الصفات الإلهية ؛ حيث نفوا جميع الصفات من ذات الله سبحانه وتعالى بحجة أنها تشبه صفات المخلوقين ، ولم يدركوا أن الله سبحانه وتعالى لا يماثل شيئًا ولا يماثله شيء ، لا في ذاته وأفعاله ، ولا في أسمائه وصفاته ، وكل ما ثبت له من صفات فهو على ما يليق بجلاله ، لا يدلّ ذلك على نقصه ، بل يدلّ على كماله ؛ لأنّ صفاته تعالى صفات كمال مختصّة به ، لا يشركه فيها غيره ، قال تعالى :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[٢] .

٢ ـ إن هذا الموقف السلبي كان رد فعل لسوء تصرف طبقة من البراهمة ، وثورة على سلطانهم واستبدادهم ، فخاف بوذا أن تتكوّن عند أتباعه طبقة لاهوتية جديدة كالبراهمة إن اعترف بالإله فأنكره لهذا الغرض[٣] إنه ـ في الحقيقة ـ أراد الفرار من ضلالة البرهمية ولكنه وقع في ضلالة أكبر وأعظم منها وهي الإلحاد .

ب ـ شبهة نبوة بوذا والردّ عليها :

ومن هنا أخطأ بعض الباحثين القائلين بأن بوذا نبي من أنبياء الله أرسله إلى

---

(١) ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن السمنية (وهم طائفة من البوذية كما سيأتي) مصدر من مصادر الجهم بن صفوان في انكار الصفات الإلهية (انظر : « العقيدة الحموية الكبرى » المطبوعة ضمن «الرسائل الكبرى » (١/ ٤٣٦) مكتبة محمد على صبيح وأولاده) .

(٢) الشورى (١١) .

(٣) قد بيّنت فيما سبق أن البوذية لا تستطيع أن تتخلص من النظام الطبقي في الحياة العملية ، فقد دخل نظام الطبقات في البوذية بشكل عملي وإن أنكرته نظريًا .

أمة الهند في عصره .

وقد ذهب إلىٰ هذا القول كثير من الباحثين منهم الدكتور علي زيعور في كتابه « الفلسفات الهندية »[١] حيث قال :

« لقد آمنت ذات يوم بفكرة تتلخص بالقول إن بوذا قد يكون رسولاً أو مصلحًا يقرّ الإسلام وإن لم يرد اسمه في القرآن » .

وذكر رأي بعض الباحثين الذين يرون بوذا مجدداً لما طمسه الدهْر مِنْ وحي إبراهيم عليه السلام ، أو داخلاً في دائرة الرسل الذين لم يقصهم القرآن . ومنهم أيضًا الدكتور محمد توفيق صدقي في كتابه « الصلب والفداء »[٢] إذ يقول فيه قال تعالىٰ : ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾[٣] .

أما التين فهو شجرة بوذا مؤسس الديانة البوذية التي حرّفت كثيراً عن أصلها الحقيقي ، لأن تعاليم بوذا لم تكتب في زمنه ، وإنما رُويت كالأحاديث بالروايات الشفهية[٤] ثم كتبت بعد ذلك حينما ارتقىٰ أتباعها ، والراجح عندنا بل المحقّق إذا صحّ تفسيرنا لهذه الآية ، إنه كان نبيّا صادقًا ، ويسمىٰ « سكيا موني » أو «جوتاما» ، وكان في أوّل أمره يأوي إلىٰ شجرة تين عظيمة وتحتها نزل الوحي وأرسله الله رسولاً . . .

ويستمر المؤلف فيقول :

---

(١) صفحة (٢٣٣) .

(٢) صفحات (١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠) .

(٣) التين (١ - ٣) .

(٤) هنا أيضًا أخطأ المؤلف فظنّ أن الأحاديث النبوية رويت شفاهة زمنًا طويلاً بدون الاستعانة من الكتابة ؛ والصحيح أن الأحاديث النبوية قد كتبت منذ عصر الرسول ﷺ ولكنها لا علىٰ سبيل التدوين الرسمي كما كان يدوّن القرآن ، وهناك آثار صحيحة تدل علىٰ ذلك ، كما ثبت أن بعض الصحابة كانت لهم صحف يدوّنون فيها ما سمعوه من الرسول ﷺ انظر : « السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي » للدكتور مصطفىٰ السباعي ط (٣/ ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢م) المكتب الإسلامي صفحة (٥٩ ، ٦٠) .

. . . ولا يزال أهل الأديان الأربعة[1] هم أعظم أمر الأرض ، وأكثرهم عددًا وأرقاهم ، والترتيب في ذكرها في الآية هو باعتبار درجة صحتها بالنسبة لأصولها الأولى ، فبدأ تعالى بالقَسم بالبوذية لأنها أقل درجة في الصحة ، وأشد الأديان تحريفًا عن أصلها ، كما يبدأ الإنسان بالشيء الصغير ثم يرتقي للتأكيد إلى ما هو أعلى ، ثم النصرانية وهي أقلّ من البوذية تحريفًا ، ثم اليهودية وهي أصح من النصرانية ، ثم الإسلامية وهي أصحّها جميعًا ، وأبعدها عن التحريف والتبديل » .

وللرد على هذا الرأي أقول :

١ ـ لم يرد في الأقوال المأثورة ـ مع كثرتها ـ في معنى الآية الكريمة أن التين رمز أو إشارة إلى شجرة بوذا التي زعم أنه حصل الحكمة العليا تحتها .

وأصح الأقوال في معنى الآية عند المفسّرين هو أن المراد بالتين هو التين المعروف الذي يؤكل ، وبالزيتون هو الزيتون المعروف الذي يعصر منه الزيت ، وبطور سينين هو الجبل المعروف الذي نودي موسى عليه السلام من جانبه ، وبالبلد الأمين هي مكة بيت الله الحرام لأن هذه المعاني هي المعروفة عند العرب ، كما أنها هي الحقيقة ولا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا بدليل[2] .

وزيادة على ذلك أن هناك فرقًا كبيراً بين شجرة التين وشجرة بوذا ؛ لأن شجرة بوذا التي تعرف باسم « بو » (Bo) أو « بودهي » من الشجرات ذات ساق كبير وأغصان كبيرة ، ولها فروع واسعة كما لها ثمر ولكنه لا يؤكل ؛ وهذا لا ينطبق مع شجرة التين المعروفة .

٢ ـ من الأمور المسلّم بها عند أهل السنة والجماعة أنه لا يجوز إثبات النبوة

---

(١) يعني : البوذية ، والنصرانية ، واليهودية والإسلام .

(٢) انظر « تفسير القرطبي » (٢٠/ ١١) و« تفسير الطبري (٣٠/ ٢٤٠) و« تفسير ابن كثير » دار الشعب (٨/ ٤٥٧ ، ٤٥٨) و« التفسير الكبير » للفخر الرازي (٣٢/ ٨ ـ ١٠) و« الدر المنثور في التفسير بالمأثور » للسيوطي (٦/ ٣٦٥ ، ٣٦٦) .

لأحد إلا بدليل صريح من الكتاب والسنة ، وليس لدينا أي دليل يثبت نبوة بوذا ورسالته ودعوىٰ ذلك لا تخلو من الحدس والتخمين ، بل الذي ثبت عندنا أن بوذا زعم لنفسه الاستنارة (Enlightenment) ، وأنه نالها بجهده وتجربته ، لا بوحي من الله أو إلهامه ، فلم يدّع يومًا ما أنه نبي أو رسول ، ولم يزعم قط للناس أن إلهًا كان يتكلّم بلسانه(١) .

٣ ـ لم يثبت أي دليل صريح يدلّ علىٰ اعتراف بوذا بالإله الخالق أو دعوته الناس إلىٰ عبادته ، بل الثابت هو العكس فقد نصّت في الكتاب المقدس عند البوذية عبارات بوذا ـ كما ذكرناها ـ يفهم منها جحوده واستصغاره للآلهة كلّها حقّها وباطلها .

فلو كان بوذا نبيًا من أنبياء الله لاعترف علىٰ الأقل بالإله الخالق ودعا الناس إلىٰ عبادته . لأن لبّ دعوات الأنبياء والرسل وجوهر الرسالات السماوية هو الدعوة إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له ، وأن الله سبحانه تعالىٰ لم يرسل الرسل جميعًا إلا لهذه المهمة الواحدة .

كما قال تعالىٰ :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾(٢) .

وقال تعالىٰ :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (٣) .

علىٰ أن الرسل والأنبياء الذين أرسلهم الله إلىٰ الأمم قبل هذه الأمّة هم جمّ غفير ، لأن من رحمته سبحانه وتعالىٰ أنه لا يترك الجماعات الكبيرة من البشر من غير هاد يهديهم ، ولا رسول مبين يدعوهم بدعاية الله سبحانه وتعالىٰ ؛ يشير

---

(١) انظر Introduction to indian philosophy P . 116
(٢) النحل (٣٦) .
(٣) الأنبياء (٢٥) .

إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾[(١)] . وقوله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾[(٢)] .

من هنا كثر الأنبياء والرسل في تاريخ البشرية كثرة هائلة غير أننا لا نعرف رسولاً من هؤلاء الرسل ولا عصراً لرسول إلا مَنْ قصّ الله علينا قصصهم وسمّاهم في قرآنه وهم قليلون ؛ وأن هناك أعداداً كثيرة لانعرفها .

وقد صرح القرآن الكريم بذلك في أكثر من موضع كقوله تعالى :

﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ [(٣)] .

وقوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾[(٤)] .

وعلى هذا فلا نستطيع أن نقف موقف السلب من دعوى بعض الباحثين أن رسلاً بعثوا في الهند أو في الصين أو في أفريقيا غير أننا لا نثبت النبوة أو الرسالة لأحد معين إلا بدليل يقيني من الكتاب والسنة ، وليس لدينا خبر يقيني برسول معين بعث فيهم ، ودعوى ذلك لا تخلو من الحدس والتخمين « وإن الظن لا يغني من الحق شيئًا »[(٥)] .

جـ ـ قضية الألوهية عند البوذيين بعد بوذا :

إن إهمال بوذا الكلام عن الإله قد ترتّبت عليه آثار ونتائج سيئة في تاريخ ديانته ، وذلك لأن الإيمان بالإله أمر فطري فطر الله الناس عليه ، واتجه إليه

---

(١) فاطر (٢٤) .
(٢) الرعد (٧) .
(٣) النساء (١٦٤) .
(٤) غافر : (٧٨) .
(٥) مقتبس من آية (٢٨) سورة النجم .

عقل الإنسان بطبيعته من غير تلقين أو تعليم ، ومن أجل هذا نجد أن أتباع بوذا من بعده يفكّرون في الإله ، ويعملون على الوصول إليه أو التعرف عليه . ولمّا كان بوذا قد ترك هذا المجال فارغًا ، أسرع أتباعه ، وعمدوا إلى بوذا نفسه فجعلوه إلهًا معبودًا كآلهة الهندوس ، وقد اختلفوا فيما بينهم حول شخصية بوذا وانقسموا إلى مذهبين كبيرين :

المذهب الأول :

اتجه هذا المذهب إلى الاعتقاد بأن بوذا ليس إنسانًا محضًا بل إن روح الإله قد تجسّد فيه ، فأصبح كائنًا إلهيًا[١] ، وهذا المذهب هو المعروف في البوذية بمهايان (Mahayan) [٢] أو المذهب الجديد ، لأنه بعيد عن تعاليم بوذا الأصلية وقريب الصلة بالهندوسية ، فمن عقيدة الهندوس ما يسمونه « أوتار » (Avatar) ومعناه النزول أي نزول الإله إلى الأرض وتجسّده في الإنسان أو الحيوان[٣] ، وهذه العقيدة تشبه عقيدة الحلول عند المسيحية ، ويعتقد الهندوس أن الإله «فشنو» (Vishnu) إحدى الأقانيم الثلاثة كان يتّخذ مختلف الأشكال والصور ، فكان يظهر على الإرض كلما دعت الحاجة إلى إنقاذ البشرية من الهلاك ، ففي إحدى المرات تجسّد فشنو في « كرشنا » (Grishna) وفي راما (Rama) كلاهما من الأبطال الأسطورية في الملاحم الهندية ، كما تجسّد أيضًا في صورة بوذا لانقاذ البشرية من الآلام[٤] .

وقد تأثر المذهب الجديد بالهندوسية في هذه العقيدة نتيجة من اختلاطه بها

(١) انظر « بوذية مهايان » (٣٨ ، ٣٩) وقارن بما في « أديان الهند الكبرى » (١٦٨) .
(٢) وهذا المذهب هو الذي انتشر قبل الإسلام في فارس وبلاد آسيا الوسطى مما أدى إلى انتقال هذه العقيدة أي الحلول إلى الفرق المختلفة في الإسلام ومنهم الصوفية وسيأتي بحثه مفصلاً إن شاء الله .
(٣) « مجموعة المصطلحات البوذية » (٦٩٠) .
(٤) انظر « الهند القديمة حضاراتها ودياناتها » للدكتور محمد إسماعيل الندوي (١١٣ ، ١٣٤ ، ١٥٣) .

فجعل بوذا إلهًا في صورة إنسان ، وأطلق على هذا الإله اسم « براهمات ساتجا»(Brahmat Satja) ، ووصفه بأنه الإله الخالق والمدبّر للكون ، وأنه أراد أن يخلّص الإنسان والحيوان من آلام الدنيا فنزل إلى الأرض وتجسّد في شخص بوذا وغيره حسب ما اقتضته الحاجة[١] .

وقد انتشرت هذه العقيدة باسم بوذية « مهايان » (Mahayan) في نطاق واسع منذ بداية القرن الأول الميلادي الأمر الذي جعل أهل الرومان متأثرين بها فصوّروا المسيح عليه السلام إلها مجسّدًا كما صوّر البوذيون بوذا[٢] .

المذهب الثاني :

وهذا المذهب هو المعروف في البوذية بمذهب « هينايان » (Hinayan) ، وأطلق عليه أيضًا بالمذهب القديم ؛ لأنه قريب الصلة بتعاليم بوذا ، وقد اتجه البوذيون في هذا المذهب إلى الاعتقاد ببشرية بوذا ، وأنه إنسان مقدس ارتقى إلى مرتبة أسمى من مرتبة الإنسان والملائكة والآلهة ، فألّهوه بهذا الاعتبار[٣] .

أما الإله الخالق كما في سائر الأديان فإنهم لا يعترفون به ؛ بل يعتقدون أنه خرافة ، كما هو ظاهر في أقوال مؤسّس دينهم بوذا التي أسلفناها ، وسنناقشهم في هذا الموقف فيما بعد إن شاء الله .

والبوذيون عامة يعتقدون أن المرتبة التي توصّل الإنسان إلى درجة الآلهة أو ما فوقها على حدّ زعمهم هي مرتبة « بودها » أي التنور ، وذكرت الكتب البوذية أن هذه المرتبة اشتملت على صفات منها :

١ ـ أنه تحرّر من شوائب أدران المادة المدنّسة ، وتغلب على جميع رغباته وشهواته البشرية ، كالحب والرضا والغضب والطمع والغرور وما أشبه ذلك .

---

(١) انظر « بوذية مهايان » (٢١٥) و« الفلسفة الهندية » (٢٩٢ ، ٢٩٣) .
(٢) سيأتي بعض تفاصيله في المذاهب البوذية .
(٣) انظر « أصول البوذية » (٨٣ ، ٨٤) .

٢ ـ أنه تخلّص من ربقة « كارما » التي سيأتي تفصيلها إن شاء الله .

٣ ـ أنه تمكّن من التذكّر لأدوار حياته السابقة قبل هذه الحياة .

٤ ـ أنه عرف أسرار الحياة من بدايتها إلىٰ نهايتها .

٥ ـ أنه عرف طريق الخلاص من آلام الحياة[١] .

فمن حصل علىٰ هذه المرتبة فإنه يستحق التقديس والعبادة[٢] .

وبهذه المرتبة المزعومة ألّه البوذيون بوذا ونحتوا تمثاله للعبادة ، كما ألّهوا جميع القدّيسين الحاصلين علىٰ هذه المرتبة في زعمهم .

ويحدّثنا التاريخ في تطور البوذية أن تمثال بوذا نشأ في البوذية في القرن الأول قبل الميلاد أي بعد وفاة بوذا بأربعة قرون ، وقد أقاموا التماثيل والصور لبوذا بهيئة رزينة متحفّظة وجامدة[٣] .

ويذكر التاريخ أن تمثال بوذا كان بَدَاً وحيداً في أول الأمر ، ثم اختلط بالتدرج بالآلهة البرهمية ، وبمرور الزمن ذاب تمثال بوذا بين هذه الآلهة الكثيرة ، وذاب اتباع البوذية في الهند بين الهندوس[٤] .

ومن هنا خرجت البوذية من الهند ، وانتشرت خارجها من بلاد شرق آسيا ، وخضعت لأهواء الشعوب التي اعتنقتها ، وانهزمت أمام عاداتها وتقاليدها ، فبعض الشعوب أدخلوا فيها عبادة الملوك ، والبعض الآخرون أدخلوا فيها عبادة الفيلة ، معتقدين بأن بوذا قد تقمّصت روحه في أجسادها مرّات عديدة ، والكثير

---

(١) انظر « تري بيتاكا » (سوتان) (٤٨٧) .

(٢) انظر « بودها دهارما » (٥٩ ، ٦٠) .

(٣) يقول المؤرخون البوذيون إن ظهور تمثال بوذا متأثر إلىٰ حد كبير بالفنّ اليوناني المشهور في ذلك الوقت لأن اليونانيين كانوا يولعون بنحت التماثيل وكانوا موجودين بكثرة في الهند في ذلك الوقت . وأوّل تمثال بوذا نحته اليونانيون للبوذيين في مدينة « قندرهار » (Kandhar) وهي المعروفة اليوم بأفغانستان ، انظر « تاريخ الفلسفة البوذية وتطورها » (٤٣٤) .

(٤) « المذاهب البوذية » (١٦٢) وقارن « أديان الهند الكبرىٰ » (١٦٩) .

منهم أدخلوا فيها عبادة أرواح الموتى .

وهكذا انحدرت البوذية إلى عبادة الأوثان نتيجة لإنكارها الإله .

إنها ككلّ عقيدة خلت من الاعتقاد بالإله ، حيث بادر أتباعها بمرور الزمن فابتكروا الإله على النحو الذي يتّفق مع ثقافتهم ومستواهم العقلي والعلمي ، فبدلاً من أن يعبد البوذيون خالق البشر ، عبدوا ميّتًا من البشر ؛ بل عبدوا كلّ شيء زعموا فيه القداسة ، سواء كان من الجنّ ، أو الإنس ، أو الحيوان ، أو الجماد ، أو الشجر ، أو ما شابه ذلك .

والبوذيون الأوّلون عندما نحتوا تمثال بوذا وجعلوه إلهًا يعتقدون أنه مجرّد علامة ، أو رمز للخير ، والنبالة ، والزهد ، والحكمة ، والفناء ، والكمال الأسمى « نرفانا » ، إنهم لا يسألونه أن يحوّل الجبال ذهبًا ، أو يجعل البحار لبنًا وعسلاً ، أو يغيّر سير الأفلاك ، أو يرزقهم الخلود في الدنيا ، فضلاً عن أن يظنّوا أنه خلق نفسه ، أو خلق السموات والأرض ، أو أنه يمسك بنظامهما ، ولكنّ البوذيين المتأخرين بالغوا في التقديس ، فزعموا أن في تمثال بوذا قوة عجيبة على فعل الخوارق ، وقدرة روحية في إصلاح معاشهم وقضاء حاجاتهم فيسألونه أن يدفع عنه البلاء والمرض وأن يشير عليهم بالوقت المناسب للعمل ، ويلتمسون منه أن يأتيهم بالمطر لزرعهم ، وما إلى ذلك ، من أجل ذلك يقدّمون له القرابين والهدايا ، ويطوفون حوله ، ويستقسمون في حضرته بالأزلام ، ويطلبون منه حاجاتهم ، كما هو المشاهد والمعروف في كثير من الدول البوذية وخاصة في تايلاند .

د ـ مناقشة البوذيين في قضية الألوهية :

ذكرت سابقًا أن البوذيين عامة ـ باستثناء أصحاب المذهب الجديد ـ لا يؤلّهون بوذا كإله خالق ، وإنما يؤلّهونه كإنسان مقدس لا يتّصف بالخلق والتدبير . لذلك لم يتمكّنوا من سد الثغرة الواسعة في نحلتهم ؛ فلا يستطيعون أن

يفسروا وجود الكون والحياة والإنسان تفسيراً مرشداً كما فسّر به المسلمون وغيرهم من أصحاب الأديان السماوية ؛ إنهم عجزوا عن أن يقيموا دليلاً واحداً على عدم وجود الإله الخالق المتصرّف في هذا الكون ، وعلى هذا فلم يجدوا بدّا إلا أن يلجئوا إلى منطقهم الفاسد ، وهو القول بأن وجود الله ليس أمراً ضروريًا في الحياة البشرية ، وأن البحث فيه لا يفيد الإنسان في حلّ مشكلاتهم إذ لا تزول به آلام الحياة[1] ، وهذا المنطق هو معنى قول بوذا حينما سئل عن أبدية العالم ونهايته حيث قال : « إن البحث في هذه الأمور لا يعنينا ، إني لم أجيء إلى هذه الحياة لأبين لكم هذه الأمور ، وإنما جئت لأعرّفكم وسيلة الخلاص من ألم هذه الحياة واذن فأنا اعتبر هذا السؤال غير مفيد »[2] .

يقول الراهب البوذي الكبير « بانيا ناندا بيهكشو » (Panya nandha Bhiko-hu)[3] في إحدى المحاضرات التي ألقاها في « رابطة العالم البوذي » فرع كوالا لمبور ماليزيا في (١٥/ إبريل/ ١٩٧٨ م)[4] :

« لا يهمّنا وجود الله أو عدمه إذ لا علاقة له بقضية « الخلاص » (Liberation) التي ننشدها . . . .

« إن وجود الإله الخالق الذي يؤمن به المتديّنون ليس ضرورة عقلية لتفسير ما في الكون ، إذ يمكن أن يردّ كل ما في الكون إلى الطبيعة ، ويقصد بالطبيعة النواميس والقوانين التي تحكم الكون أو ما يسمى في البوذية « ناموس العلة والمعلول »[5] (Low of cause and effect) أو ناموس الطبيعة (Low of Na-tuer) ويفسّر الراهب هذا الناموس فيقول : « إن هذا الناموس هو الذي يوجد

(١) « المبادئ الهامة في البوذية » (٢٤) .
(٢) انظر « تري بيتاكا » (سوتان) (٣٠٨) وأيضًا (٤٨٦) .
(٣) تقدم تعريفه في المقدمة .
(٤) هذه المحاضرة مطبوعة في كتابه المسمى « النظر من الداخل » انظر صفحة (١٢ ، ١٣ ، ٢٠- ٢٣) .
(٥) انظر « تري بيتاكا » (سوتان) (٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٤٨٦ ، ٧٣١) .

الأشياء ويحدثها ، وهو الذي يسيطر على كل شيء ، وأنه ليس بخاضع لذات قدسيّ يتصرّف فيه كيف يشاء ، بل ذلك الناموس مستقلّ بذاته ، نافذ بنفسه لا يتأثّر بمؤثّر بشري أو إلهي أبدًا » ثم يفسّر الكون بما فسّر به أستاذه بوذا من أنه وحدة متّصلة متماسكة ، ومجموعة مركبة لا انفصام بين أجزائها ، وهو مركّب من مجموعة هائلة ، من العناصر المختلفة لا تزيد ولا تنقص ، بل يعاد توزيعها باستمرار ، ويعاد ترتيبها ووضعها بحكم الناموس أي ناموس العلة والمعلول ، وكل مجموعة جديدة إن هي إلا نتيجة عن المجموعة التي تقدّمتها ، فالحياة الحاضرة ما هي إلا سبب لحدوث الحياة القادمة ونتيجة من الحياة السابقة وفقًا لقانون « كارما » ، ومثّل الراهب ذلك بالشجرة التي هي سبب لحدوث الشجرة الثانية بواسطة بذورها ، وهكذا الشجرة الثالثة والرابعة ، ولم يذكر الراهب شيئًا عن « العلة الأولى » أو « السبب الأول » الذي يحدث أوّل حياة وأول شجرة ، والذي يدير دقّة هذا الكون كلّه ، لأنه محال أن يستقر له قول صحيح في ذلك حتى يؤمن هو ومن معه من البوذيين بخالق الوجود ، وموجد العلل والمعلولات ، وقد زعم البوذيون أنهم بهذه العقيدة متحرّرون ومتميّزون عن سائر الأديان وهم - في الحقيقة - كما وصفهم الله في كتابه العزيز :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾[1] .

أمّا ردّنا على هذه المزاعم والأضاليل فنقول وبالله التوفيق :

١ - إن زعمهم بأن وجود الله ليس أمرًا ضروريًا للحياة زعم باطل لأنه مخالف للعقل والفطرة ، فإن العقل السليم بأدنى تأمّل وتفكّر مجرّد عن الهوى والتقليد والعصبية ينتهي حتمًا إلى نتيجة قاطعة هي وجود الله عز وجل ، وكذلك الفطرة السليمة إذا تركت نفسها بدون مؤثر اهتدت إلى وجود الله .

فالعقيدة بوجوده تعالى لازمة من لوازم المعنى الإنساني ، وضرورة عقلية للإنسان في تفسير وجود هذا العالم ، إذ بدون هذه العقيدة يظلّ هذا السؤال الذي

(١) الحج (٨) .

أثاره القرآن حائرًا قلقًا بغير جواب :

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ﴾[١] .

والبوذيون ـ بداهة ـ لم يخلقوا من غير شيء ، وهم أيضًا لم يخلقوا أنفسهم ، فمن الخالق إذن ؟

إنهم لا يجدون جوابًا ولا يعرفون تفسيرًا ما داموا يفرّون من الجواب الحتمي الذي لا جواب غيره ، والتفسير الذي لا تفسير سواه ، وهو وجود الله سبحانه وتعالىٰ .

يقول الدكتور عبد الله دراز في كتابه « الدين »[٢] :

« إن وجود هذه الحقيقة الأولىٰ والأخيرة (أي وجود الله) ضرورة عقلية لا مناص من التسليم بها ، ولا مجال لأحد أن يكابر فيها متىٰ فكّر قليلاً في الوضع الذي يؤول إليه إنكارها ؛ اللهمّ إلا إذا فرضناه كائنًا أخرق ، لا يذعن لقواعد المنطق والحساب ولا يبالي أن يبطل كل شيء في الأذهان » .

هذا وقد أثبت مؤرخو الأديان وجود عقيدة الإله الأعلىٰ عند القبائل الهمجيّة في أستراليا ، وأفريقيا ، وأمريكا ، واتفقوا علىٰ أن أشد الشعوب همجيّة ووثنيّة لم ينفكّ عن الاعتقاد بإله خالق هو ربّ الأرباب[٣] .

٢ ـ إن قضية الإيمان بالله ليست قضيّة علىٰ هامش الوجود يجوز للإنسان أن يغفلها أو يستخفّ منها ، لأنها قضية تتعلق بوجود الإنسان ومصيره ؛ بها تحلّ لغز الوجود ، وبها تفسّر للإنسان سرّ الحياة والموت ، وتجيب عن أسئلته الخالدة :

من أين ؟ وإلىٰ أين ؟ ولِمَ ؟

---

(١) الطور (٣٥ ، ٣٦) .
(٢) صفحة (١٠٥ ـ ١٠٦) .
(٣) قارن « مقارنة الأديان » للدكتور عوض الله حجازي (٢٠ ، ٢٢) .

ثم بها تحقق سعادته الحقيقيّة في هذه الحياة وما بعدها .

من هنا بطل قول البوذيين بأن الإيمان بالله لا تزول به مشكلة الحياة ، ولا يفيد الإنسان في إعدام الآلام والتخلّص منها ، وهو قول في غاية الضعف والانهيار .

كيف يتحدّث الإنسان في آلام الحياة والتخلّص منها ، وهو ينكر النعم التي تتمتّع بها حياته اليومية منذ نشأته ؟

فالأرض ، والماء ، والهواء ، والشمس ، والقمر ، وغير ذلك من النعم التي يتمتع بها الإنسان بدون مقابل كيف لا يفكر فيها وفيما وراءها ، فيعترف بجميل صاحبها ؟

وكيف يتفكّر الإنسان فقط في التخلّص من الآلام والشقاوة وهو لا يعرف حقيقة نفسه ، ولا يعرف أسرار وجوده في هذا الكون ، ولا يعرف ما وراء هذه الآلام المزعومة ومن قدّرها ؟

٣ـ أما قول البوذيين بأن « ناموس الطبيعة » : هو الخالق والمحدث للأشياء فهو قول فاسد ، لا يستند على أساس علمي ولا يقوم على برهان عقلي ؛ وقد قامت الدلائل والبراهين القواطع التي لا تعد ولا تحصى على خلاف هذا القول كما صنّف لرده كثير من العلماء والباحثين فلا نحتاج هنا إلى إيراد الحجج والبراهين الكثيرة لإبطاله ، إن تصوّره تصوراً صحيحًا يكفي لبطلانه .

إذ كيف يعطون للناموس صفة الخلق والإيجاد ، وهو آلة محضة لا شعور له بما يصدر منه من أفعال ؟!

كيف يعطونه صفة الخلق والإيجاد وهو لا يتّصف بعقل ولا تدبير ولا قدرة ولا إرادة ولا غيرها من الأوصاف ؟!

وكيف يصدر عن هذا الناموس الأفعال العظيمة التي في غاية الإبداع والإتقان ، وفي غاية الارتباط الوثيق ، من دون مدبر لها ولا خالق ولا فاعل ؟!

إن من تصوّر هذا القول حقّ تصوّره عرف أنه قول باطل مخالف للقواطع العقلية وما فطر الله عليه الخلق من الاعتراف بوحدانيته وتفرّده بكل كمال ، فأي عمل للناموس يوجب هذه الآثار الكونية العظيمة ؟

وأي أثر جعله يعمل هذه الأعمال ؟ وأي عقل وفكر هداه إلىٰ هذه الأمور ؟

إن هذا لاشك فيه تقدير العزيز العليم ، وهذا صنع الله الذي أتقن كل شيء بديع السموات والأرض وهو العزيز الحكيم .

يقول الدكتور « ادوين فاست » عالم الطبيعة في حقيقة هذا الناموس :

« إن جميع هذه القوانين الطبيعية التي نصفها ونستخدمها ليست إلا مجرّد وصف لما يحدث أو ما يشاهد ، فهي بذلك ليست تدبيراً أو إلزامًا ، فليس الوصف في ذاته سببًا لحدوث ظاهرة من الظواهر أو توضيحًا لأسباب حدوثها »[1] .

أي هناك سبب حقيقي لحدوث الظواهر وهو قدرة الله سبحانه وتعالىٰ وإرادته ، فقد أثبت العلماء أن هذا الناموس بالنسبة للمخلوقات ليس سوىٰ صفاتها وخصائصها التي تجري عليها ، ومن المسلّم به عقليًا أن صفات الشيء لا توجده ، وأن خصائص الموجودات لا تخلقها ، ونوضح ذلك بمثال :

نحن نعلم أن السيارة لا يمكن أن تمشي بدون محركها الآلي والوقود ، فإنّ تحرّك أجزاء المحرك ، واحتراق الوقود ، والقوة الدافعة في مستودع الانفجار كل هذه الأمور خصائص وقابليات وطبائع لتحرّك السيارة وانطلاقها .

فهل يصدق عاقل أن قابلية الاحتراق ، وخاصية الانفجار ، وقوانين الميكانيكة هي التي خلقت المحرك وأبدعت السيارة ؟[2] .

---

(١) « الله يتجلىٰ في عصر العلم » : لجماعة من العلماء الطبيعة والفلك والعلوم (٩٣) .

(٢) من كتاب « الوجود الحق » للدكتور حسن هويدي (٦٠ ـ ٦١) .

فلولا العقل الذي صمّم المحرّك ، والأيدي العاملة التي صنعتْه لما وجدت السيارة ولما ظهرت حقيقتها للناس . . . ؟

وكما أن صفات الشيء لا توجده كذلك يرفض العقل الإنساني التسليم بأن الشيء يوجده أو يخلق شيئًا أرقىٰ منه .

فكيف يخلق « الناموس » إنسانًا سميعًا عليمًا بصيرًا وهو لا يملك عقلاً ولا سمعًا ولا بصرًا ؟ وكيف يعطي الشيءَ فاقدُه ؟

من هنا يتبيّن لكل ذي عقل أن ناموس الطبيعة الذي اعتمد عليه البوذيون وأمثالهم في خلق الشيء وإيجاده ما هو في الحقيقة إلا وهم ظاهر وسراب خادع .

إنهم لم يفهموا هذا الناموس علىٰ كماله ، لأن هذا الناموس متىٰ فهم علىٰ كماله انتهىٰ إلىٰ أسمىٰ العقائد الدينية وهي عقيدة التوحيد وبيان ذلك نقول :

من المعروف أن العقل الفطري في الإنسان يؤمن بالسببية في حدوث الأشياء إيمانًا أوليًا لا يحتاج إلىٰ تعليم أو تلقين ، ولا يؤمن بالمعتبط لها ، إنه يوقن أن لكل شيء في الوجود سببًا ، وأن لكل معلول علة ، وأن شيئًا لا يصدر عن غير سبب .

وهذا ما يعترف به بوذا وأتباعه كما أسلفناه ، وهوالمعروف عندهم بناموس العلة والمعلول ، وأطلق عليه بعض العلماء المسلمين اسم قانون السببية .

ومفهوم هذا القانون كما يقول الدكتور عبد الله دراز هو :

« إن شيئًا من الممكنات لا يحدث بنفسه من غير شيء ، لأنه لا يحمل في طبيعته السبب الكافي لوجوده ، ولا يستقلّ بإحداث شيء ، لأنه لا يستطيع أن يمنح غيره شيئًا لا يملكه هو ، كما أن الصفر لا يمكن أن يتولد عنه عدد إيجابي ، فلابد له من وجوده وفي تأثيره من سبب خارجي ، وهذا السبب الخارجي إن لم يكن موجودًا بنفسه احتاج إلىٰ غيره ، فلا مفرّ من الانتهاء إلىٰ سبب ضروري للوجود يكون هو سبب الأسباب »[1] .

---

(١) « الدين » (١٠٤ ، ١٠٥) .

إنه لا مفرّ من إثبات السبب الحقيقي الأول الذي ليس قبله شيء والذي يتصف بأنه الخالق والمدبّر للأشياء ، وأنه العليم الحكيم المريد المختار القادر على كل شيء ، وهو الله سبحانه وتعالىٰ ، إن كلّ خصائص الكائنات وجميع سنن الكون ونواميسه وقوانينه ليست إلا مخلوقة مقدّرة ، والله مسيطر عليها وليس جزءاً منها ، وليس هو سبب من جملة الأسباب أو علة من العلل ، فالأسباب والعلل والقوانين والنواميس كلها مخلوقة خاضعة فهي من خلقه وتقديره .

﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾[١] .

هـ ـ تأليه الناموس التفسير الجديد في البوذية :

تراجع كثير من البوذيين المثقّفين في هذا العصر عن موقفهم من قضية الألوهية ، لأنهم وجدوا أن التدليل بعدم وجود الإله الخالق أصعب من التدليل بإيمانه ، إذ إنه لم يثبت من ناحية العقل ولا من ناحية العلم أي دليل يمكن الاستناد إليه في نفي وجود الإله الخالق ، فبعضهم يميلون صراحة إلىٰ الاعتراف بوجود الإله ، وبعضهم يعترفون به ولكنهم أوّلوه إلىٰ معنىً آخر يتوافق مع تعاليم دينهم .

وقد حاول بعض العلماء البوذيين المعاصرين في تايلاند وغيرها أن يقرروا عقيدة الألوهية ليوفّقوا بين ديانتهم البوذية وبين الديانات الأخرىٰ ، وخاصّة النصرانية في هذه العقيدة .

ومن هؤلاء علىٰ سبيل المثال الراهب الكبير « راجاوارا موني » (Rajavara muni)[٢] حيث قال :

---

(١) الفرقان (٢) .

(٢) من الشخصيات البوذية المعروفة في تايلاند له عدة مؤلفات في البوذية والأديان منها « بين البوذية والنصرانية في رأينا » وهو الكتاب الذي اعتمدت عليه في هذا البحث ، وقد حاول المؤلف في هذا الكتاب التقريب والتوفيق بين البوذية والنصرانية في كثير من المبادئ والتعاليم ، واكتسب به شهرة كبيرة بين أوساط البوذيين وعلمائهم في تايلاند وغيرها من الدول المجاورة .

« من المعروف أن كلّ شيء في الكون له سبب لحدوثه ؛ فلا يعقل أن يحدث شيء من غير سبب ولا علّة ، إن البوذية ـ في الحقيقة ـ تؤمن بمسبّب الأسباب وهو الخالق والحافظ والمسيطر على الكون .

ولكن البوذية لا تسمّيه إلهًا كما تسمّيه النصرانية والأديان الأخرى ؛ بل تسمّيه « دهارما » (Dharma) هو بمنزلة الإله في النصرانية[١] .

ويقصد الراهب بالإله في النصرانية « الكلمة » (The word) أو « كلمة الله » التي نصّ عليها إنجيل يوحنا[٢] في قوله :

« في البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله ، هذا كان في البدء عند الله ، كل شيء به كان ، وبغيره لم يكن شيء مما كان » .

من هذا النص استنتج الراهب أن الإله في النصرانية له نوعان ، الإله كبشر يتّصف بصفاته ، والإله كناموس لا يتّصف بأي صفة ، وهو الكلمة التي نصّ عليها الإنجيل المحرّف ، وعلى هذا يقول الراهب في مكان آخر :

« لا يبعد أن نقول بأن « دهارما » (Dharma) في البوذية هي « الكلمة » التي نص عليها إنجيل يوحنا في أوله ، وهي إحدى الأقانيم الثلاثة في النصرانية بها وجد كل شيء »[٣] .

ولا أريد البحث والتحقيق في هذا الموضوع فليس هنا مجاله ؛ إلا أنني أقول إن هذه المحاولة وأمثالها في التوفيق بين هاتين النحلتين قد نجحت إلى حدّ بعيد لوجود التشابه بينهما في كثير من المبادئ والعقائد .

ثم يقول الراهب في موضع آخر مقرّرًا قضية الألوهية في البوذية « إن قضيّة

---

(١) « بين البوذية والنصرانية في رأينا » (٤٢) . وقد وافقه كثير من العلماء البارزين في البوذية أمثال القديس « ناندا بيهكشو » في كتابه « مشكلة الألوهية بين البوذية والنصرانية » و« رادها كرشنن » من علماء الهند في بعض بحوثه و« مهاموني » من علماء البوذية في بروما وغيرهم .

(٢) انظر : « الإصحاح الأول » فقرة (١ ـ ٣) .

(٣) « بين البوذية والنصرانية في رأينا » (٤٥) .

الألوهية قضيّة أسمىٰ للإنسان ، فكلّ إنسان من حيث يشعر أو لا يشعر يعترف بوجود الإله ، غير أن الإله الذي نؤمن به هو الإله غير المشخّص-Imperson " al God " لا يتّصف بصفات البشر ، وهو « دهارما »(Dharma) التي تدير هذا الكون ، وهذا الإله هو الذي اعترف به بوذا ، وكان يقدّسه ويعدّه شيئًا أسمىٰ في الكون ، وكان مما روي عنه في آخر حياته :

« يا إخوتي بيهكشو » أطيعوا دهارما (Dharma) الذي ظهر بينكم ، اتّبعوه بيقظة وانتباه ، اسلكوا الطريق الذي عبدها لكم »[1] .

ثم فسّر المؤلف كلمة « دهارما » (Dharma) الإله المزعوم فيقول : « إن كلمة « دهارما » (Dharma) لها معنىٰ أوسع مما يعرف في البوذية ، وهي تشمل المعاني الآتية :

١ ـ نفس الطبيعة كلّها .

٢ ـ نواميس الطبيعة كلّها .

٣ ـ واجبات الإنسان نحو النواميس .

٤ ـ النتائج والثمرات من هذه الواجبات .

ويمكننا القول بأن « دهارما » (Dharma) الذي نؤمن به كإله يتصف بالخلق والإيجاد هو « دهارما » (Dharma) بمعناه الثاني ، إنه قوة عظمىٰ التي تسيطرنا وتسيطر العالم »[2] .

وهذا الرأي في الواقع هو نفس الرأي العام للبوذيين الذي سبق ذكره ، غير أنه صرّح هنا بألوهية الناموس « دهارما » (Dharma) ، وإنه هو الإله الذي آمن به بوذا ، وقد تقدّم رأينا في ذلك فلا نعيده ؛ غير أنني أقول :

إن هذا التفسير علىٰ فرض صحّته عند البوذية فإن إله بوذا غير بعيد عن إله

---

(١) « تري بيتاكا » (سوتان) (٦٤٠) .

(٢) « بين البوذية والنصرانية في رأينا » (٧٩ ، ٨١) .

بعض فلاسفة اليونانيين أمثال أرسطو (Aristotle) (٣٨٤ـ٣٢٢ ق م) وغيره ، حيث كان الإله في نظرهم هو المحرّك الذي لا يتحرك ، وهو أقرب إلىٰ «العقل» منه إلىٰ « الشخص »[(١)] .

وعلىٰ أي حال فإن هذا التفسير يدلّ علىٰ الحقيقة العظمىٰ التي أودعها الله في الإنسان وهي « الاعتراف بالربوبية » ، هذه الحقيقة التي اعترف بها المشركون ، وجبلت علىٰ الإقرار بها جميع الفطر كما سجّل ذلك القرآن الكريم في قوله تعالىٰ :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾[(٢)] .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾[(٣)] .

إن هذه الحقيقة مهما حاول الإنسان أن يطردها من عقوله فإنها لابد أن تعود إليه بصورة من الصور ، لأنها هي الفطرة السّليمة التي فطر الإنسان عليها .

ومن المعروف لدىٰ الباحثين في الأديان أن مذهب البوذية من المذاهب الإلحادية التي حاولت كل المحاولة في إبعاد قضية الألوهية عن تعاليمها ، واعتمدت فقط علىٰ الإنسان دون اللجوء إلىٰ ما وراءه من القوة الإلهية ، ولكن ما لبث أن تبيّن من علماء البوذيّين ـ وإن كانوا قليلين ـ أن مذهب البوذية لم يتمكّن من الاستمرار علىٰ موقفه القديم من الألوهية ، وأن البوذيين بدأوا يراجعون موقفهم منها ، ويلفتون نظرهم إلىٰ التفسير الجديد لمذهبهم ليوافقوا جمهور الناس في العالم .

وقد بدأ كثير من البوذيين يتحيرون من دينهم غير مقتنعين به ، وأخذوا يتردّدون في وجود الله واليوم الآخر .

---

(١) انظر « الملل والنحل » للشهرستاني (٢/ ٣٦٥) وما بعدها ، وأيضًا « الله ذاتًا وموضوعًا » لعبد الكريم الخطيب (٣٣٧ ، ٣٣٨) .

(٢) لقمان (٢٥) .

(٣) الزخرف (٧٨) .

وكان كثير منهم يصرخون وينادون الله في أحاديثهم وكتاباتهم عندما تراكبت عليهم الهموم والأحزان والمصائب .

كقول بعض المضطرّين : يا إلهي ! لو أن وجودك حقّ فأعنّي . . . أو كقول بعضهم : يأيتها القوة المهيمنة على الكون اسعفيني !

إنها صرخة الاستغاثة والنجدة تنطلق من قلوب الملحدين إلى الله تعالى . وهذا يؤكّد قولنا بأن الإنسان مفطور على الإيمان بالإله الخالق المتصرّف في هذا الكون ، غير أن الإنسان قد تحيط به مؤثرات كثيرة تجعله ينحرف عندما يتجه إلى المعبود الحق .

يقول تعالى في الحديث القدسي :

« **إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم** »[(١)] .

ويقول الرسول ﷺ :

« **ما من مولود إلا يولد على الفطرة**[(٢)] **فأبواه يهوّدانه أو ينصرّانه أو يمجّسانه.** »[(٣)] .

كما أن الإنسان اختلفت مداركه في تصوّرات ذات الإله ، وتحديد صفاته ، أو صلته بالبشر ؛ ولذلك اقتضت الحكمة الإلهية أن ترسل الرّسل والأنبياء تترى ، لتصحيح عقيدة الناس في الإله وتصحيح الإيمان به .

ونعود إلى تصور البوذيين في ذات الإله فنقول :

إن تصوّرهم في الإله المجرّد من الذات والصفات تصوّر باطل لقياسهم الربّ العظيم بالمخلوق الناقص ، إنهم لا يدركون أن وجود الله الخالق سبحانه وتعالى ليس الوجود المطلق كما يزعمون ؛ لأن الله له ذات تليق بجلاله وعظمته

---

(١) رواه مسلم (٤/ ٢١٩٧) كتاب الجنة باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (رقم ٢٨٦٥) ورواه أحمد في « مسنده » (٤/ ١٦٢) عن عياض بن حماد .

(٢) والمراد بالفطرة هو التوحيد ، هو الإسلام ، والانقياد ، والطاعة للخالق الأعظم وقد أجمع السلف في قوله تعالى : ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ أنها دين الإسلام . انظر « عمدة القاري شرح صحيح البخاري » (٨/ ١٧٩) .

(٣) رواه البخاري (٣/ ١٧٣) كتاب « تفسير القرآن » سورة الروم (رقم ٤٧٧٥) ومسلم (٤/ ٢٠٤٧) كتاب القدر باب معنى كل مولود يولد على الفطرة (رقم ٢٦٥٨) .

لا تشبه ذوات المخلوقين ، كما أن له صفات تليق بكماله وجلاله لا تشبه صفات المخلوقين .

وقد علم بالاضطرار أن الوجود لابد له من موجد ، واجب بذاته ، غني عما سواه ، قديم أزلي متصف بصفات الكمال ، لا يجوزعليه الحدوث ولا العدم ، فلو وصف هذا الإله الموجد بأنه معنىً مجرد عن الذات والصفة فلا يكون هذا الإله إلا في الذهن لا في الخارج من الموجودات ، ولاشك أن هذا باطل لا يقبله العقل ، لأن العقل لا يفهم إلها بغير ذات ولا يفهم ذاتًا بغير صفة ، وكلّ منهما لائق بكماله وجلاله .

و ـ عقيدة الثالوث في البوذية :

هناك عقيدة الثالوث في البوذية ويسمونها بالبالية « راتنا تري » (Ratna Tri) ومعناه الجواهر الثلاثة[١] .

ويتكوّن هذا الثالوث من العناصر الآتية :

١ ـ بوذا (The Buddha) مؤسس البوذية .

٢ ـ دهارما (The Dharma) أي تعاليم بوذا وشرائعه .

٣ ـ سانغها (The Sangkha) أي أصحاب بوذا والقديسين[٢] .

ويقولون إن هذه الثلاثة تختلف في الأسماء وهي في الحقيقة شيء واحد ، كل شخصية من هذه الشخصيات الثلاثة متساوية لأختيها بكلّ شيء بالعظمة والقداسة والكرامة[٣] .

إن هذا الثالوث هو المعبود المقدس عند البوذيين عامة أي لا فرق بين المذهب القديم والمذهب الجديد في هذا الثالوث[٤] .

(١) « مجموعة المصطلحات البوذية » (٥٢٣) .

(٢) انظر « تري بيتاكا » (سوتان) (٢١٤) .

(٣) انظر « المبادئ الهامة في البوذية » (٣٦٨) و« أصول البوذية » (١٢٤) و« بودهادهارما » (٥٣) .

(٤) انظر « المذاهب البوذية » (١٦٠) .

ويعتقد البوذيون أن في هذا الثالوث قوة خارقة تعينهم على الخير وتدفع عنهم البلاء ، فيدعونه عند حاجاتهم ، ويذكرونه في تراتيلهم وصلواتهم ، ويحسن بي أن أشير هنا إلى أن عقيدة الثالوث ليست من خصائص البوذية ، وإنما ترجع هذه العقيدة إلى قرون بعيدة قبل مولد بوذا .

فقد ذكر مؤرخو الأديان أن البابليين هم أوّل من قال بالثالوث ، وذلك في الألف الرابع قبل الميلاد ، حيث قسّموا الآلهة إلى ثلاث مجموعات ، فكانت المجموعة الأولى تتكوّن من إله السماء ، وإله الأرض ، وإله البحر ، والمجموعة الثانية إله القمر ، وإله الشمس ، وإله الرياح ، أما المجموعة الثالثة فإله العاصفة ، وإله الرعد ، وإله البرق(١) .

ثم يقول به الهندوس كما تقدم ، ثم البوذيون ، ثم أخيراً يقول به النصارى وإن اختلفت هذه الأمم في تفسير ثالوثهم .

وهكذا توالت سلسلة عقيدة الثالوث الوثنية كنتيجة من جهود الانحراف في الأديان في تصوّر الألوهية .

ز ـ تصوّر الألوهية في الإسلام :

لقد جاء الإسلام بما يعدّ تصحيحًا لجميع أنواع الاختلاف والاضطراب التي وقعت في الديانات المنحرفة ، والفلسفات المضطربة ، وما يعدّ ردًا على كل النظريات التي تحاول أن تصوّر « اللّه » في صور مضطربة بعيدة عن الحق ، جاء الإسلام ـ وسط هذا الاضطراب ـ بعقيدة التوحيد الخالص التي أنكرت جميع أنواع الشرك والتعدد في اللّه ، وحرّرت العقل البشري من الوثنية ، ومن عبادة عدد من الآلهة ، ومن عبادة الفرد ، ومن تقديس الأبطال ، ومن كل سلطان إلا سلطان الله سبحانه وتعالى ، وعلى هذا فإن عقيدة الألوهية في الإسلام تختلف كلّ

---

(١) انظر « تاريخ الأديان » (٧٢) (بالتايلاندية) وانظر بالعربية « تاريخ الفلسفة » للدكتور إبراهيم مدكور (٦) .

الاختلاف عن عقائد الهندوسية واليهودية والبوذية والنصرانية وما أشبهها .

فالإله في الإسلام ليس كإله البوذية الذي هو الثالوث أو الناموس « دهارما » (Dharma) ، وليس كإله فلاسفة اليونان الذي هو عقل محض ، وليس كإله اليهودية الذي هو إله قومي محلي مقصور على اليهود الشعب المختار على حدّ تعبيرهم وقد وصفوه بنقائص البشر(١) .

وكذلك ليس إله الإسلام كإله الهندوسية الذي يتكوّن من الأقانيم الثلاثة ، وليس كإله النصرانية الذي هو الثالوث (الأب ، والابن ، والروح القدس) .

ليس الإله في الإسلام كتلك الآلهة المذكورة ؛ بل الإله في الإسلام هو اللّه ربّ العالمين ، واحد أحد ، لا شريك له ، ولا ند ، ولا شبيه ، ولا مثيل ، ولا صاحبة ، إنه صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، فهو لا يلابس البشرية ، ولا شيئًا من الخلائق ، لا في ذاته وأفعاله ، ولا في أسمائه وصفاته . وكذلك إن البشرية لا تلابسه ، لا في وحدة ، ولا حلول ، ولا اتحاد ، ولا فيض ، ولا انبثاق ، ولا بأي صور من الصور ، لا في الواقع ، ولا في التصور ، إن الإله في الإسلام هو خالق كل شيء ، ورازق كل حي ، ومدبّر كل أمر ، أحاط بكل شيء علمًا ، وأحصى كلّ شيء عدداً ، ووسع كلّ شيء رحمة ، خلق فسوّى ، وقدّر فهدى ، يسمع ، ويرى ، ويعلم السرّ والنجوى قال تعالى :

﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾(٢) .

هذه هي عقيدة الإسلام في الألوهية ، وهي العقيدة الصحيحة التي سلمت من الخرافة ، والوهم ، والأسطورة ، ولا تتفق مع الأباطيل والضلالات التي

---

(١) انظر « اليهودية » للدكتور أحمد شلبي (٢٧٥) .
(٢) الأنعام (١٠٢ ـ ١٠٣) .

وجدت في سائر الأديان والفلسفات ، وقد جاء بها الإسلام واضحة تامّة كاملة في أسمىٰ ما يمكن أن يكون عليه السمو ، وعرضها عرضًا يليق بالرسالة التي اقتضت حكمة الله أن تكون خاتمة الرسالة الإلهية ، وأن تكون غاية البشر إلىٰ قيام الساعة .

* * *

المبحث الثاني

قانون « كارما » أو قانون الجزاء

عرفنا مما مضى أن البوذية استبعدت قضية الألوهية من تعاليمها ، واعتبرتها غير ضرورية لحياة الإنسان ، وكانت أهمّ مبادئها : أن الخير يجب أن يأتي بالخير ، وأن الشرّ يجب أن يأتي بالشر ، والإنسان ملجأ لنفسه ، وهو صانع مصيره .

من هنا تأتي المشكلة وهي : كيف يأتي الخير بالخير ؟ وكيف يأتي الشرّ بالشرّ ؟ أي كيف يكون جزاء الإنسان ؟ ومن يتولّى هذا الأمر ، ومتى يكون ذلك ؟

حاولت البوذية حلّ هذه المشكلة ، والإجابة عن هذه التساؤلات ، وذلك باعتمادها على ما سبقتها إليه الديانات الهندية ، وهو ما يسمى بقانون « كارما » .

١ ـ تعريف قانون « كارما » :

إن « كارما » كلمة سنسكريتية ومعناها « العمل » ، ويشترط في « كارما » ثلاثة شروط وهي :

١ ـ وجود الدافع ، وهو الرغبة والشهوة .

٢ ـ وجود القصد والنية .

٣ ـ وجود الفعل أو الحركة .

فحقيقة « كارما » هي كل عمل يعمله الإنسان ، سواء كان فعلاً أو قولاً أو فكرًا .

ويمكن القول بأن « كارما » هي حياة الإنسان كلّها[١] .

---

(١) « المبادئ الهامة في البوذية » (٣٧٥ـ٣٧٦) وأيضًا « أصول البوذية » (١٩٠) .

إن « كارما » هذه لها سبب ولها نتيجة ؛ فكارما الطيبة تأتي بنتيجة طيبة ، وكارما السيئة تأتي بثمرة سيئة ، وهناك عدالة تجازي الإحسان والإساءة ، وتتحكّم في مصير جميع الكائنات المسئولة ، ويطلق على هذه العدالة اسم «قانون كارما» ، فمن عمل عملاً يجز به ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشرّ ، وما من أحد يستطيع أن يفلت من يدي هذه العدالة ، ما من مكان جبلاً كان ، أو سماء ، أو بحراً ، أو براً ، أو جنة يستطيع فيه أحد أن يتخلص من حسنات أعماله أو سيئاتها[1] .

يقول صاحب الكتاب « قانون كارما »[2] :

« من أصول عقيدتنا البوذية أن يعتقد الإنسان أنه لابد من الجزاء على أعمال الخير والشر ، وأن جميع البشر يجازون بأعمالهم خيراً أو شراً طبقًا لقانون العدل الذي لا يترك صغيرة ولا كبيرة من أعمال الناس إلا أحصاها . . . إن كل حركة أو عمل أو كلام أو خاطرة لا يذهب سدى ؛ بل يسجّل ، ويحفظ ، وتترتب النتائج عليه في المستقبل . . نحن لا نشك في أن الأفعال التي يقوم بها الإنسان بإرادته ، فتحسن إلى الآخرين أو تسيء ، لابد أن يكافأ عليها ذات يوم أو يعاقب وفقًا لقانون عادل دقيق ، وهوقانون « كارما » .

وقد وصف هذا المؤلف البوذي هذا القانونُ بأنه هو المسيطر على كل حياة في الكون ، والعادل الذي لا يرحم الإنسان بعمله ، إن شرًا فشرّ وإن خيراً فخير ، هو نفسه يكتب بيده شقاءه أو سعادته ، وهو القدر بدون مقدّر ، لأنه يعمل عفويًا من تلقاء نفسه ثم يقول : « وقد يصعب علينا فهمه فهمًا دقيقًا لأنه فوق حدود عقول الناس » .

وسنعود إلى هذا التفكير بالرد عليه فيما بعد إن شاء الله .

---

(١) « أصول البوذية » (١٩١) .

(٢) (ص٤ ـ ٥) .

٢ ـ الاعتقاد بكارما من أصول الاعتقاد في البوذية :

في « سوتان بيتاكا »[١] إحدىٰ الأسفار البوذية تنصّ علىٰ أن الإيمان بكارما من المبادئ الأساسية التي يجب علىٰ كل بوذي أن يؤمن بها .

وهي أربعة : ـ

١ ـ الإيمان باستنارة بوذا .

٢ـ الإيمان بقانون « كارما » .

٣ ـ الإيمان بثمرة « كارما » خيرها وشرها .

٤ ـ الإيمان بأن ثمرة « كارما » في حياة الإنسان الراهنة ، بعضها من عمله في هذه الحياة ، وبعضها الآخر من عمله في الحياة السابقة ، فالعمل الذي يعمله الإنسان هو عمله ، وليس لغيره تدخلّ فيه ، وأنه مسئول عن عمله مهما كان .

٣ ـ عقيدة « كارما » في الديانات قبل البوذية :

إن « كارما » التي قال بها بوذا وأتباعه قد سبقته إليها ديانات الهند وفلسفاتها كالبرهمية ، والجينية ، وغيرهما من فرق الهند الدينية .

فكل هذه الفرق تتّفق علىٰ الاعتقاد بكارما ، وهي أن الخير يأتي بالخير ، وأن بالشرّ يأتي بالشّر ، وأن الناس مجزيّون بأعمالهم في البعوث القادمة ؛ تتناسخ فيها أرواحهم ، سواء في أجساد إنسانية أو حيوانية ، حسب صلاح أعمالهم وفسادها ، أي علىٰ حسب « كارما » .

ففي الديانة البرهمية نجد في شريعة « منو »[٢] تفصيلاً واضحًا لمذهب «كارما» الذي يرىٰ أن عمل الإنسان في هذه الحياة الدنيا ما هو إلا ثمرة من عمله في الحياة الماضية ، وأن عمله سيعيّن الحال الذي يولد بها مرة أخرىٰ ، وفيما

---

(١) انظر « تري بيتاكا » (٤٥٩) .

(٢) تقدم تعريفها .

يلي بعض نصوص الكتاب .

« إن الأعمال التي تنبعث من القلب ، ومن اللسان ، ومن الجسم ، إما أن تكون نتائجها صالحة ، أو تكون سيئة ، وإن طبقات الناس من رفيع ، ومتوّسط ، ووضيع ، إن هي إلا نتائج الأعمال »[1] .

« يغدو المرء جزاء أعماله السيئة التي ارتكبها بجسم في خلقته الثانية جماداً ، والتي ارتكبها بلسانه طيراً ، أو حيواناً ، وينحط إلىٰ الفرق السافلة نتيجة ارتكابه سيئة بعقله »[2] .

ومن الجدير بالملاحظة في هذين النصّين أن المؤلف وضعهما بدقة وتفكير عميق ؛ لتكون عقيدة « كارما » أساساً لنظام الطبقات ، فبيّن أن كل طبقة من طبقات الهندوس ظهرت من جزاء أعمال أهلها في الحياة الأولىٰ ، ونتيجة لها ، وعلىٰ هذا الأساس فلا سبيل لأهل الطبقات السافلة من الشودر والمنبوذين أن يحسدوا أهل الطبقات العليا من الآريين ، أو يحقدوا عليهم ؛ بل عليهم أن يقتنعوا بالوضع الراهن ، وإنه حدث من جزاء أعمالهم الفاسدة كما نصّ علىٰ ذلك الكتاب « منو » ، وعليهم أن يحاولوا تدارك الأخطاء السابقة ، والتسابق في خدمة الطبقات المفضّلة عليهم ، ومناصرتها وطاعتها لكي يصبحوا أمثالهم في البعوث القادمة .

وهكذا أصبحت عقيدة « كارما » عند البرهمية مصدراً لخضوع الهندوس علىٰ اختلافهم في الطبقات لنظامها المرهوب ، وأصبحت وسيلة لإقناعهم بالحالة التي كانوا عليها .

أما نقطة الخلاف بين البوذية والبرهمية في هذه العقيدة ، فهي أن البرهمية بجانب اعتقادها بكارما تعتقد أيضاً بالإله « براهما » وتعتقد بقضائه وقدره ، أي أن كل شيء في الكون يسير تبعاً لقضاء « براهما » وقدره ، أما البوذية فلا تعتقد

---

(1) كتاب « منو سمرتي » فقرة (3) من الباب الثاني عشر (ص679) .

(2) (ص680) (فقرة 9) من الباب الثاني عشر .

بالإله ، وتعتقد بكارما وحدها ، وإنها هي التي تقضي وتقدر ، وتكتب بيدها شقاء الإنسان أو سعادته ، خيره أو شره .

ومن أقوال بوذا في ذلك « كل كائن حي في العالم يسير وفقًا لعمله «كارما»[(١)] .

ويقول القدّيس البوذي بودهي ناندا (Bodhi Nandha) :

« إن هناك قوىً كونية ترتّب أفعالنا ، وتضعنا في ظروف نلقىٰ فيها ما نستحقه من ثواب أو عقاب ، فها هو قانون « كارما » إنه ليس إلها ولكنّه يتحكّم في الآلهة ، وفي الناس ، وفي غيرهم ، فكل شيء في الوجود تحت حكم هذا القانون » [(٢)] .

ويبدو أن بوذا في هذا الاتجاه كان رد فعل أيضًا لسوء نظام الطبقات الهندوسية الذي صنعته طبقة الكهنوت من البراهمة ، لأن الإنسان في اعتقادهم علىٰ حسب نسبه وولادته ، وأن الانتساب إلىٰ طبقة من الطبقات يكون عن طريق الولادة وحده لا غير ، وطالما أن المرء يمتثل قواعد السلوك الأساسية التي تفرضها عليه طبقته فهو يستمرّ في الانتساب إليها إلىٰ الموت[(٣)] .

فهاجم بوذا هذا النظام المظلم ، وأعلن أن الناس سواسية ، لا يفضل إنسان إنسانًا بشرف مولده ، أو طبقته ، أو بجاهه في قومه ، وإنما الفضل يكون في عمل الإنسان وقوّته المعنوية التي تعتمد علىٰ النية والمجهود الشخصي ، ثم أدت مهاجمته هذه إلىٰ إنكار القضاء والقدر من إله الهندوس ، ودعا الناس إلىٰ اللجوء إلىٰ أنفسهم دون غيرهم ، ولا شك أن في دعوة بوذا إلىٰ المساواة بين الناس نصيبًا من الخير ، غير أنه لم ينجح في هذه الدعوة عند تطبيقه العملي بوجود التقسيم والتفرقة في نحلته بين طبقة الرهبان والقدّيسين وبين طبقة

(١) « تري بيتاكا » (سوتان) (٤٥٦) .
(٢) « لبّ البوذية » (٢١) .
(٣) قارن « الهند عقائدها وأساطيرها » (٢٦) .

المدنيّين أما دعوته إلى اللجوء إلى النفس دون الغير فهوباطل من أساسه لأنه مخالف لفطرة الإنسان الذي لا يستغنى إطلاقًا عن خالقه ومعبوده الحق سبحانه وتعالى ، وقد بينت فيما سبق أن هذا الاتجاه يتناقض مع كثير من تعاليمه ، كما يتناقض مع واقع هذه النحلة فالبوذية التي زعم العلماء والباحثون أنها نحلة خالية من المعبودات وأنها مجرد نظام الأخلاق والسلوك هي في الحقيقة من أكثر الديانات معبوداً في العالم .

أما عقيدة كارما عند الجينية[1] فهي كالبوذية ؛ لأنهما تشتركان في عدم الاعتراف بالإله ؛ غير أن هناك بعض الفروق بينهما وهو أن الجينية تقول بأن الحياة الحالية كلّها ثمرة من كارما في الحياة السابقة ولا سبيل للإنسان أن يغيرها ؛ أما البوذية فتقول بأن للإنسان سبيلاً في تغييرها ، يوضح ذلك ما روي في الكتاب « تري بيتاكا »[2] من حوار طويل جرى بين بوذا وبين الرهبان الجينيين ، وخلاصة هذا الحوار أن الجينيين يعتقدون أنه لا سبيل لتغيير سير حياتهم الراهنة ، لأن كل ما حدث في حياتهم هو نتائج أعمالهم في الحياة الماضية ، ولا سبيل لتحرير الروح من هذه الربقة « كارما » إلا بطريق الرياضة الشاقة والحرمان من الملذّات ، وقد يجوز للفرد منهم أن يتخلّص من حياته بالانتحار عند بلوغه درجة القداسة .

فردّ عليهم بوذا وبيّن أن وسيلتهم وسيلة غير مجدية للتخلص من الآلام ، ومن الكارما ، والتناسخ ، بل هي زيادة فيها ، ثم بيّن طريقه وهو أن للإنسان أن يبذل الجهد في الجد والعمل ، لكي يغيّر حياته الراهنة والمقبلة ، فالجد والعمل هما يؤثران في تغيير ناموس الكارما » .

ولست أدري كيف يؤثر العمل والجدّ في تغيير القانون الذي زعم أنه العادل والصارم ، والذي لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ؟

ولست أدري ما مدى الحريّة التي تمنح الإنسان للعمل والجدّ ، مع أنه

---

(١) تقدم تعريفها .

(٢) (سوتان) (٤٦٠) .

مجبور بجزاء أعماله (كارما) الكثيرة ، والمتراكمة في الحياة السابقة التي لا يعرف حدها ولا عددها ؟ ولا يمكن إن يعرف لانه مجرد أوهام وخيالات .

وقد يفهم البعض من قول بوذا السابق أن طريقه هو أقرب طريق إلى العقل ، وهو فهم غير بعيد ، لو لم يقل بوذا بالكارما والتناسخ ، ويؤمن بالله وبقضائه وقدره ؛ لأن هذه الأمور هي الأساس وكذلك هي الهدف ، فإذا فسد الأساس والهدف فسد كل ما ينبني عليهما .

٤ ـ عقيدة « كارما » سبب لعقيدة التناسخ :

وقد ترتب على الاعتقاد بكارما الاعتقاد بالتناسخ أو العودة إلى الحياة[١] .

وكما يقول البوذيون : «يستحيل فهم « كارما » من غير الاعتقاد بالتناسخ»[٢] .

والسبب في ذلك أنهم لاحظوا من واقع حياة الإنسان أن الجزاء قد لا يقع في حياته الراهنة ، فالظالم قد يموت قبل أن يؤخذ على ظلمه ، والمحسن قد يموت دون أن يجزىٰ له ، ولذلك لجأوا إلى الاعتقاد بتناسخ الأرواح بعد الموت ، أي لابد أن يكون هناك حياة كثيرة بعد هذه الحياة ، ليقع الجزاء فيها إذا لم يتمّ في الحياة الحاضرة[٣] .

فالكارما تتطلب حالات جديدة من التقمّص للروح ، لكي تتاح لها أن تكفّر عما ارتكبت من شرور في حياتها الماضية .

وقد شرح بوذا هذه العقيدة الخرافية لأتباعه عندما يحكي حكاية طويلة عمّا حدث له حين حصوله على الاستنارة المزعومة قال :

« . . . وركزت عقلي في حالة من نقاء وصفاء ، ركزته في فناء الكائنات وعودتها إلى الحياة ، في ولادة جديدة ، وبنظرة قدسية مطهّرة ، رأيت الكائنات الحية تمضي ثم تعود ، فتولد دنيّة أو سنيّة ، خيّرة أو شريرة ، سعيدة أو شقية ،

---

(١) سيأتي تفصيله في بحث مستقل إن شاء الله .

(٢) « المبادئ الهامة في البوذية » (٣٧٧) .

(٣) المصدر السابق (٣٧٦) وقارن « أديان الهند الكبرى » (٦٢) .

حسب ما يكون لها من « كارما » وفق ذلك القانون الشامل الذي بمقتضاه سيلتقي كل فعل خيّر ثوابه ، وكل فعل شرير عقابه ، في هذه الحياة ، أو في حياة تالية ، تتقمّص فيها الروح جسداً آخر . . .[١] .

إن رؤية بوذا لهذا التعاقب السخيف بين الموت والولادة هي التي جعلته يحتقر ويزدري الحياة البشرية ، ويرىٰ أن الولادة أم الشرور .

٥ ـ قبسات من أقوال بوذا في « كارما » (Karma) :

ومما يروىٰ عن بوذا أيضًا في هذه العقيدة ما سجلته الأسفار البوذية في مواضع متفرقة نذكر منها ما يلي :

« بسبب كارما (Karma) تختلف الحيوانات في أشكالها وطبائعها ، و«كارما» الطيبة يجب أن تأتي بثمرة طيبة ، كالزارع يحصد ما زرعه »[٢] .

« أيها الزهاد . . . ألا إن ما يزرعه الإنسان إياه يحصد ، وهذا هو قانون «كارما» وهو يسير في دقة لاحد له في ارتباطه بقانون التناسخ . . . فالإنسان دومًا يعمل أعمالاً ويخلق ديونًا جديدة تزيد في ذمّته ، وهي ديون « كارما » ، وليس هناك مفرّ من سدادها »[٣] .

« إن الإنسان لا يجني الثمار في الحياة القادمة إلا وفق البذور التي بذرها في الحياة الراهنة ، ولا يمكن أبدًا أن يزرع الإنسان القمح ويحصد الرز ، وحينما يبعث من جديد ، لا مانع من أن يتحوّل إلىٰ ملائكة ، أو إنسان عظيم ، أو خادم ، أو غني ، أو فقير ، أو كلب ، أو منبوذ ، علىٰ حسب عمله (كارما)[٤] .

---

(١) « تري بيتاكا » (سوتان) (٣٢٢) وأيضًا (٣٩٦) .
(٢) المصدر السابق (٤٦٠) .
(٣) المصدر السابق (٥١٤) .
(٤) المصدر السابق (٥١٦) وأيضًا (٧١٠ ، ٧١٤) .

٦ ـ قانون العلة والمعلول :

من المزاعم التي يثيرها مذهب بوذا في إثبات عقيدة « كارما » استدلاله بدليل عقلي وهو قانون العلة والمعلول .

" Low of spiritual cause and effect "

ومن الملاحظ أن هذا القانون أصبح محوراً أساسيًا يدور عليه جميع الفلسفات البوذية وتعاليمها وعقائدها .

وقد استنبط هذا القانون من أقوال بوذا في عدة مواضع كقوله :

« . . . أيها الرهبان ألا تعلمون أن كلّ شيء في الكون يحدث ويتغير ، ثم يفنى وينتهي ، تبعًا لعوامله ، وأسبابه ، ومقوماته ، فلا يحدث شيء عن طريق صدفة . . . »[١] .

وقوله في موضع آخر :

« . . . كلّ شيء في الكون يحدث وينتهي ، يحدث بحدوث السبب وينتهي بانتهاء السبب ، كالنار تحدث بوجود السبب والعامل ، فإذا انتهى السبب والعامل طفئت النار ، فكارما (Karma) للإنسان توجد بوجود السبب ، فإذا انتهى السبب انتهت كارما . . . »[٢] .

ولتوضيح هذه الفكرة نستمع إلى قول أحد العلماء في البوذية هو صاحب كتاب « الحياة بعد الموت »[٣] إذ يقول فيه[٤] :

« إن قانون «كارما» في الواقع هو قانون العلة والمعلول أو السبب والنتيجة ، أي حصاد ما زرعناه أو بذرناه ، لأنه من الواضح أن الأفعال بدون استثناء لها

(١) المصدر السابق (٣٢٠) .
(٢) المصدر السابق (٤٨٦) .
(٣) تقدم تعريفه في القدمة .
(٤) انظر صفحة (٢٥٢ ـ ٢٥٤) .

نتائج ، وأن تلك الأفعال بدون استثناء كذلك لها أسباب سابقة ، وليس هناك أي شيء يحدث عن طريق الصدفة ، فكل ما يواجهنا أو يصادفنا إنما هو نتيجة أفكارنا أو أفعالنا في الماضي ، وإذا كان الأمر كذلك فإن حياة الإنسان الحالية لابد أن يكون لها سبب ، وهذا السبب هو « كارما » لا غير . . إن عمل (كارما) المرء في حياته السابقة هي سبب أو عامل لوجود هذه الحياة الراهنة ، وإن ما يصيبه من خير أو شر ما هو إلا نتيجة من الخير أو الشر الذي عمله من قبل ، فليس هناك أحد وراء هذا السبب وهذه النتيجة » .

هذا نموذج من أقوالهم ، وهناك أقوال كثيرة من علماء البوذية كلّها متقاربة ، ومتفقة على الإيمان بكارما ، وبتكرار المواليد ، وعلى إنكار القضاء والقدر ، وإنكار الإله الخالق الذي لا تحصى أدلة وجوده سبحانه وتعالى ، ولو تصدّينا لكل الأقوال لاحتجنا إلى مطولات فنكتفي بهذا .

٧ ـ أساطير بوذية في عقيدة « كارما » :

هناك أساطير بوذية في عقيدة « كارما » ؛ تفصّل تفصيلاً دقيقًا عن الأجزية والعقوبات لكل عمل يعمله الإنسان ، أذكر منها ما يلي :

١ ـ المحب والمستمر في إيذاء الحيوانات وقتلها إذا مات يبعث حيوانًا ، وإذا انتهت كارما يبعث إنسانًا قصير العمر .

٢ ـ والسارق يبعث عفريتًا ، أو حيوانًا ، وإذا انتهت كارما يبعث إنسانًا مفلسًا .

٣ ـ والزاني يبعث عفريتًا أو حيوانًا ، وإذا انتهت كارما يبعث إنسانًا مظلومًا .

٤ ـ والكاذب إذا مات يبعث عفريتًا أو حيوانًا ، وإذا انتهت كارما يبعث إنسانًا مكذّبًا ومشهودًا عليه بالزور .

٥ ـ وكذلك شارب الخمر يبعث عفريتًا أو حيوانًا ، وبعد انتهاء كارما يبعث إنسانًا مجنونًا .

أما الأجزية التي تجزي لمن ترك الشرور الخمسة فهي كما يلي :

١ ـ الذي يمتنع عن إساءة الحيوانات وقتلها سوف يبعث إنسانًا سويًا طويل العمر ، ومحبوبًا عند الناس .

٢ ـ والذي يمتنع عن السرقة يبعث إنسانًا غنيًا ، وناجيًا من البلايا .

٣ ـ والذي يمتنع عن الزنى يبعث إنسانًا سعيدًا محبوبًا عند الناس .

٤ ـ والذي يمتنع عن الكذب يبعث إنسانًا طيّب الكلام ، ومصدوقًا عند الناس .

٥ ـ والذي يمتنع عن شرب الخمر يبعث إنسانًا زكيًا سليم العقل محترمًا عند الناس[1] .

وهكذا أسطورة الجزاء والعقاب في البوذية ، ويلاحظ أن الجزاء يكون من جنس العمل ، وإذا سألناهم ، كيف تتمّ هذه البعوث وهذه الأجزية والعقوبات؟ فليس لهم جواب معقول إلا أن لجأوا إلى القول بأنه تتمّ بقدرة « كارما » ، ليس لهم جواب مرشد يقتنع به الإنسان العاقل ؛ لذلك نجد أن هذه العقيدة قد انحطت كثيرًا بين المثقّفين البوذيين المعاصرين كما سنبيّن ذلك إن شاء الله .

والآن نستمع إلى بوذا وقد سئل عن السبب الذي جعل الناس يختلفون في الفقر ، والغنى ، والخير ، والشر ، وحسن المنظر ، وقبحه ، وطول العمر ، وقصره . .

فأجاب بوذا بأن السبب هو « كارما » . . . بها تختلف الحيوانات في أشكالها وطبائعها . . . ثم يقول :

« إن كلّ صيرورة يمرّ بها المرء هي نتيجة محتومة ، وثمرة ضرورية لأحد

(١) قانون « كارما » (٤٢ ـ ٤٩) وفي « تري بيتاكا » (سوتان) بعض الإشارات إلى هذه الأجزية والعقوبات انظر صفحة (٤٢٠) .

أعماله في حياة سابقة . وفي هذا يسوق بوذا أسطورتين تروي إحداهما : -

أن راهبًا (بيهكشو) جلس تحت شجرة ، وأطال التأمل والنظر في عالم الملكوت ، ولما انتهىٰ عن تأمّله همّ بالقيام فصدمه غصن الشجرة في رأسه فتألم ، ثم حمله الألم علىٰ قطع الغصن ، ولكنه لم يكد ينتهي من قطعه حتىٰ فارق حياته ، وتقمّصت روحه في الحال جسم ثعبان ، وكانت صيرورته هذه ثمرة لعمله السيئ الذي هو الخضوع للغضب .

أما الأسطورة الثانية فتروي أن زاهدًا طلب إلىٰ أحد زملائه أن يعيره مصفاة يصفي بها المياه ، فلما رفض زميله ، فضّل أن يموت عطشًا علىٰ أن يشرب الماء بما فيه من حشرات فيقتلها في بطنه ، وظل ظمآن حتىٰ فارق الحياة مدفوعًا بإشفاقه علىٰ تلك الحشرات ، فانتقل في الحال إلىٰ جوار الملائكة « ديفادها » (Dhewadha) وقد علق بوذا نفسه علىٰ هاتين الحادثتين بقوله :

وقد علق بوذا علىٰ هاتين الحادثتين بقوله :

« إذا كان خضوع أحد الزهاد لغضبه ، وحمله إياه علىٰ قطع غصون شجرة قد قاده إلىٰ التناسخ في ثعبان ، وإشفاق الآخر علىٰ الحشرات قد أنتج انتقاله إلىٰ جوار الملائكة ، فإن أثر الأعمال علىٰ مصيرنا يكون شيئًا غير قابل للنقاش ، لأن كل إنسان يولد من جديد علىٰ حسب ما فعل ، وإن « كارما » هي ثمرة الحياة السابقة[1] . ونقول لبوذا : نعم ، إنه غير قابل للنقاش ، وغير صالح له ؛ لأنه أسطورة خرافية لا أصل لها ولا وجود لها في عالم الحق .

إن أمثال هاتين الأسطورتين مليئة في أسفار البوذية وكتبهم ، وهي ليست سوىٰ حكاية خرافية ، تناقلوها عن آبائهم ، وتوارثوها خلفًا عن سلف .

---

(١) « تري بيتاكا » (سوتان) (٤٤٩) .

(٢) المصدر السابق (٥١٤ ـ ٥١٦) .

٨ ـ أسباب كارما وإخمادها :

في سفر سوتان بيتاكا[٢] تفاصيل عن أسباب كارما ، وإخمادها وفيما يلي أورد شيئًا منها :

« سئل بوذا عن كارما ، وأسبابها ، وثمارها ، وكيفية إخمادها ، فقال :

« يا إخوتي بيهكشو ، إن « كارما » هي عمل الإنسان بقصده قولاً أو فعلاً أو فكرًا ، وأسبابها هي التماس بين أعضاء الإنسان والأشياء الخارجية ، التماس بين العين والمنظر ، وبين الأذن والصوت ، وبين الأنف والرائحة . . .

وقال : إن أسباب « كارما » تنحصر في ثلاثة وهي :

١ ـ الطمع والرغبة .

٢ ـ البغض والضغينة .

٣ ـ الغرور .

إن هذه الأسباب الثلاثة هي الرغبات البشرية التي تحدث « كارما » ثم تحدث « كارما » النتيجة التي تجعل الروح تتجوّل وتتكرّر في المواليد مرة بعد بعد مرة إلى أن تنتهي قوة « كارما » .

ومثّل بوذا ذلك بالشجرة التي غرست مرة واحدة ، ولكنّها تثمر مرات عديدة حتى النهاية .

وعن ثمرة « كارما » يقول بوذا :

« إن ثمرة « كارما » لا تكون إلا في إحدى الحالات الثلاث ، إمّا أن تؤثّر في الحياة الحالية ، أو في الحياة اللاحقة ، أو فيما بعد اللاحقة من الحياة .

وقد تؤثّر كارما في عالم الإنسان ، أو في عالم الحيوان ، أو في عالم الملائكة » ثم أخذ بوذا يبيّن أن « كارما » التي تتولّد من الأسباب الثلاثة السالفة الذكر هي التي تؤثر في الحال أو المستقبل ، ومثّل ذلك بالبذور السليمة التي تنبت وتنمو إذا زرعت في الأرض الخصبة المعدة لها ، أما كارما التي تجرّدت

من الأسباب الثلاثة فليس لها تأثير لأنه من كارما القدّيس ، ومثّل بوذا ذلك بالبذور المكسّرة أو المحرقة التي لا سبيل لزرعها وإنباتها .

وعن كيفية إخماد « كارما » يقول بوذا :

« إن إخماد كارما يتوقف على إخماد الألم ، إخماد الرغبات والشهوات ، والطريق إلى ذلك هو اتّباع الشعب الثماني » التي سبق ذكرها[١] .

٩ ـ تفنيد عقيدة « كارما » وبيان رأي الإسلام فيها :

ولتفنيد عقيدة « كارما » نقول :

إن هذه العقيدة فاسدة ومنقوضة من أساسها للأمور الآتية :

أولاً : ـ إنها قائمة على أساس الإلحاد ، وإنكار وجود الخالق الأعلى سبحانه وتعالى ، وقد بيّنّا فيما سبق أن وجود الله أو العقيدة في الله تبارك وتعالى من الأمور البديهية التي لا تحتاج إلى إقامة دليل ، لأن أوّل الحقائق وأكبرها وأظهرها دلّت على ذلك الفطر والعقول والبصائر ، وهدى إليه العلم والوحي والتاريخ ، ولأن الأدلة على صدق وجود الله وعظمته واضحة بيّنة في كل صفحة من صفحات هذا الكون ، ومظهر من مظاهر هذا الوجود ، غير أن البوذيين وأمثالهم انحرفت فطرتهم ، ومرضت قلوبهم ، فضلّوا عن السبيل .

لقد بطل التفكير البوذي حينما اعتمد على قانون العلة والمعلول في تفسير حياة الإنسان ، وجعل الأسباب قوى عاقلة تعمل في وعي وبصيرة ، وذلك حين رآها تعطي نتائجها دون أن تنحرف أو تضل ، وكان من هذا أن آمن البوذيون بالطبيعة ، وعدّوها كائنًا عاقلاً يحمل في كيانه مقوّمات وجوده مستغنيًا عن مدبّر يدبّر أمره ويقوم عليه .

وقد أبطلنا هذا التفكير بالتفصيل عند كلامنا عن قضية الألوهية ونريد هنا أن نزيد الأمر إيضاحًا فنقول :

---

(١) انظر : صفحة (١٢٥ ، ١٢٦) .

إن الأسباب التي أودعها الله في الأشياء ليست مكتفية بنفسها بل بفاعل من خارج وهو الله ، والله هو الذي خلق الأسباب والمسبّبات ، وقدّرهما ، ويقوم عليهما ؛ كما يقوم علىٰ كل مخلوق من مخلوقاته .

إن الله قد أقام الوجود علىٰ نظام ، وأجراه علىٰ سنن أودعها فيه كما يقول تعالىٰ : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[1] .

وقال تعالىٰ :

﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[2] .

ففي كل شيء أسباب مودعة فيه ، والأسباب تنتج مسبباتها عادة عند تحريكها بأسباب أخرىٰ مناسبة لها .

فالنار مثلاً سبب الضوء والدفء والإحراق ، فإذا أوقدت النار أخرجت ضوءًا ، وأعطت دفئًا ، وأحرقت ما يتّصل بها من الأشياء القابلة للاحتراق ؛ غير أن هذه الأسباب القائمة في الأشياء ليست مستقلة بإحداث شيء من الحوادث ؛ بل هي تبع لإرادة الله ، تعمل في هذه الإرادة ، وتتحرك في المجال الذي يريده الله لها في كل حال .

لهذا نجد في المثال السابق أن النار لم تؤثر شيئًا في سيّدنا إبراهيم عليه السلام حينما ألقي فيها ، لأن قوة الإحراق قد سلبت منها بإرادة من ربّه ، قال تعالىٰ :

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾[3] .

فلا يلزم أن يكون هناك التلازم بين الأسباب والمسبّبات ، فقد يوجد السبب بدون المسبّب كالمثال السابق ، وقد يكون بالعكس كولادة عيسىٰ عليه السلام من غير أب .

---

(١) يس (٤٠) .
(٢) طه (٥٠) .
(٣) الأنبياء (٦٩) .

قال تعالىٰ عن العذراء مريم أمّ عيسىٰ عليه السلام :

﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾[١] .

يقول الأستاذ أبو زهرة في كتابه « محاضرات في النصرانية »[٢] :

« إن ولادة عيسىٰ عليه السلام من غير أب تعلن قدرة الله سبحانه وتعالىٰ ، وأنه الفاعل المختار المريد ، وأنه سبحانه لا يتقيّد في تكوينه للأشياء بقانون الأسباب والمسبّبات التي نرىٰ العالم يسير عليها في نظامه الذي أبدعه الله والذي خلقه ، فالأسباب الجارية لا تقيّد إرادة الله ، لأنه خالقها ، وهو مبدعها ومريدها ، فإن الأشياء لم تصدر عن الله جلت قدرته كما يصدر الشيء عن علته والمسبب عن سببه من غير أن يكون للعلة إرادة في معلولها ، بل كانت بفعله سبحانه وبإرادته التي لا يقيّدها شيء مهما يكن شأنه . . . فكان عيسىٰ آية علىٰ أنه سبحانه لا يتقيد بالأسباب الكونية وإن العالم كله بإرادته » .

وعلىٰ هذا نقول إن التلازم أو غير التلازم بين الأسباب والمسبّبات هو ـ في الواقع ـ علىٰ حسب ما اقتضته حكمته تعالىٰ ، وشاءته مشيئته وعلمه ، ولا يلزم علىٰ الله أن يفعل شيئًا لوجود سبب سابق ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾[١] .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ :

« ومجرد الأسباب لا يوجب حصول المسبّب ، فأن المطر إذا نزل وبذر الحب لم يكن ذلك كافيًا في حصول النبات ؛ بل لابد من ريح مربية بإذن الله ، ولابد من صرف الانتفاء عنه ، فلابد من تمام الشروط وزوال الموانع ، وكل ذلك بقضاء الله وقدره ، وكذلك الولد لا يولد بمجرد إنزال الماء في الفرج ؛ بل كم من إنزال ولم يولد له ؛ بل لابد من أن الله شاء خلقه ، فتحبل المرأة ،

(١) الأنبياء (٩١) .

(٢) (١٧) .

(٣) من آية (٨٢) سورة يس .

وتربيه في الرحم ، وسائر ما يتم خلقه من الشروط وزوال الموانع »[1] .

« ومعلوم أنه ليس في المخلوقات شيء وحده علة تامة ، وسبب تام للحوادث ، بمعنى أن وجوده مستلزم لوجود الحوادث ؛ بل ليس هذا إلا مشيئة الله تعالى خاصة ، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن »[2] .

ومن هنا بطلت البوذية في عقيدتها بأن الحياة الحالية نتيجة من الحياة السابقة، ومسبِّبة للحياة المستقبلة .

إذ لو فرضنا أن الحياة الحالية لا توجد إلا بوجود الحياة السابقة ، والحياة السابقة لا توجد إلا بوجود الحياة السابقة لها ، وهكذا . . . لينتهي بنا الأمر حتمًا إلى القول بالتسلسل غير النهائي، وهو باطل لما يترتّب عليه من التناقض والتهافت .

والعقل البشري السليم يرفض التسليم بهذا التسلسل ؛ لأنه يقتضي ألا يكون هناك الحياة الأولى في هذه الدنيا ، أو كارما الأولى على حدّ تعبير البوذية، وذلك لتوقف وجود حياة المرء على التي قبلها ، والتي قبلها على التي قبلها . . . إلى ما لا نهاية ؛ فيلزم من هذا التسلسل غير النهائي أن لا حياة في هذا الكون ، وهذا مستحيل ، للظواهر الكونية التي تدلّ على وجود الحياة ، ولاشك أن وجود الحياة تدلّ على وجود الخالق الذي خلقها ، والذي هو موجود بذاته ، غير محتاج إلى من يوجده وهو الله سبحانه وتعالى ، إنه هو المسبّب للأسباب والمسببات ، أي خالقهما جميعًا .

إن وجود الحياة في التفكير البوذي يدلّ بلا ريب على وجود « كارما » ولكن ما هي « كارما » الأولى التي حدثت في هذا الكون ؟ ومن أين حدثت ؟ ومن أحدثها وأعطاها القدرة على إخراج ما فيها من مسبّبات على حد زعمهم ؟

ليس للتفكير البوذي جواب معقول لهذه التساؤلات ، أما قانون كارما

---

(١) « مجموع الفتاوي » لابن تيمية (٨/ ٧٠) .

(٢) المصدر السابق (٨/ ١٣٣) .

المزعوم ، فما هو إلا قانون وهمي خيالي لا وجود له ولا حقيقة .

إذ كيف يفهم العقل أن هذا القانون المزعوم الذي لا عقل له ولا إرادة هو الذي يقوم بتسجيل عمل الإنسان العاقل وحركته وكلامه وخاطرته ، ثم يحفظه ويجازيه في الحال أو في المستقبل كما يزعمون ؟

ثانياً :

إن عقيدة « كارما » تنكر اليوم الآخر ، وما يستتبعه من البعث ، والحساب ، ودخول الجنة والنار .

ليس في البوذية ما يسمىٰ باليوم الآخر ؛ لأنها تؤمن بالبعوث المستمرة للحياة ، فالعالم في تصوّر البوذية ما هو إلا عجلة تدور معها الولادة والوفاة حتىٰ أبد الآبدين ، وما الولادة والوفاة في عالم الدنيا إلا جزاء للناس الذين لا يزالون يسبحون في بحر « كارما » ، بحر الشهوات والرغبات ، ولم يصلوا بعد إلىٰ ساحل الفناء النهائي « نرفانا » والبوذية تبيّن لنا أن الحياة تتوالد وتتعاقب باستمرار في عالم الدنيا المادي إلىٰ ما لا نهاية ، ولكن لم تبيّن لنا ما مصير هذا الكون أو هذه الدنيا ؟

ويبدو لي أن موقف البوذية من هذا العالم يتناقض مع إنكارها الخلود والأبدية للأشياء ؛ وأنها تسير دائمًا إلىٰ الفناء.

وقد أدّىٰ هذا التناقض إلىٰ رجوع بعض البوذيين المثقّفين من عقيدة التناسخ ، وإيمانهم بنهاية العالم ، وفسّروا الولادة الجديدة في عقيدتهم بولادة الرغبات ، والشهوات ، والأنانية ، لا الولادة الحقيقية من بطن الأم .

وسيأتي التفاصيل عند الكلام عن عقيدة التناسخ .

ونعود إلىٰ عقيدة « كارما » فنقول إنها أسطورة وفكرة وهمية لا يكاد العقل يقبلها .

إن العقل يقرّ بأنه لابد من جزاء لما يرتكبه الإنسان من أخطاء ولكن العقل لا

يقرّ بأن الجزاء يتم بواسطة التناسخ من حياة إلىٰ حياة ، ومن إنسان إلىٰ حيوان ، بلا راحة ولا انقطاع .

لقد اتخذ الإسلام طريقًا رائعًا تجاه هذا الموضوع فجعل الجزاء يتمّ أحيانًا في الدنيا وأحيانًا في الآخرة ، وأن الإنسان يحيا حياة أرضية واحدة فقط ، ثم يكون بعدها حياة البرزخ التي تمارسها الروح عقب الموت ، ثم البعث والحساب الذي يترتب عليه دخول الإنسان الجنة أو النار بحسب عمله في الدنيا ، فلا تكرر حياته الدنيوية بعد موته علىٰ أية صورة من صور التجسّد ، خلافًا لما زعمه البوذيون وغيرهم ، وقد جعل الله للإنسان ثلاثة دور أو عوالم :

الأولىٰ : عالم الدنيا الفاني الذي هو دار الابتلاء والامتحان كما أشار إلىٰ ذلك قوله تعالىٰ :

﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾(١) .

وقوله تعالىٰ :

﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾(٢) .

الثانية : عالم البرزخ ، أي الفترة التي بين الموت الذي تنتهي به الحياة الأولىٰ ، وبين البعث الذي تبتدأ فيه الحياة الثانية .

كما أشار إلىٰ ذلك قوله تعالىٰ :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾(٣) .

الثالثة : عالم الآخرة الخالد ، الذي هو دار الجزاء ، كما أشار إلىٰ ذلك قوله تعالىٰ :

﴿ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾(٤) .

---

(١) آل عمران (١٨٥) .
(٢) الملك (٢) .
(٣) المؤمنون (٩٩ - ١٠٠) .
(٤) فصلت (٢٨) .

وقوله تعالى :

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾[١] .

فليس هناك حياة قبل هذه الحياة ، كما ليس هناك عالم غير هذه العوالم الثلاثة .

إن جميع الأعمال التي يعملها الإنسان ، سواء كانت فعلية ، أو قولية أو إرادية ، كلها تكون في هذه الحياة الراهنة ، وكلها مخلوقة لله سبحانه وتعالى :

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[٢] .

غير أن هذه الأعمال البشرية ، قد يكون بعضها سببًا لبعض ، جزاء له في هذه الدنيا ، فما يصيب الإنسان في حياته من خير أو شر قد يكون ثمرة أو نتيجة من بعض عمله السابق جزاء له ، لأن الله سبحانه وتعالى جعل من الجزاء ما هو معجلّ في الدار الدنيا ، وجعل منه ما هو مؤجّل للدار الآخرة .

فالمعجّل من الجزاء بالثواب في الدنيا أنواع كثيرة لا تحصى ، من الرغبات المادية والمعنوية ، كالنصر ، والتأييد ، وكالشعور بالسعادة وطمأنينة القلب ، وكالبركة في المال والأهل ، والتوفيق في الأمور . قال تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾[٣] .

والمعجّل من الجزاء بالعقاب في الدنيا أنواع كثيرة أيضًا ، مادّية ومعنوية ، كأصناف العذاب التي يجزي بها اللّه المسيئين ، وكالفشل ، والقلق ، والألم ، وضيق الصدر ، وكالمصائب والبلايا في النفس والمال والأهل ، وكتنفيذ العقوبات المقرّرة في الشريعة على بعض الكبائر . وقد أشار القرآن الكريم إلى

(١) البقرة (٢٨١) .
(٢) الصافات (٩٦) .
(٣) النحل : (٣٠) .

هذا الجزاء في مثل قوله تعالىٰ :

﴿ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾(١) .

وقوله تعالىٰ :

﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾(٢) .

والنعم في التفكير الإسلامي ليست كلها من قبيل الجزاء بالمثوبة وكذلك المصائب ليست كلها من قبيل الجزاء بالعقوبة خلافًا للتفكير البوذي الفاسد .

فلكل من النعم والمصائب في الدنيا أبواب أخرىٰ غير باب الجزاء فالنعم التي تمتّع بها الإنسان ، إما أن تكون نعم جزاء ـ كما أشرت إليه من قبل ـ أو نعم ابتلاء ، وهي التي يفيضها الله علىٰ عباده ليبتليهم بها ، ويمتحن شكرهم وطاعتهم ، كما قال تعالىٰ :

﴿ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾(٣) .

أو نعم الاستدراج ، وهي التي يولّيها الله للكافرين والعصاة استدراجًا لهم ، كما قال تعالىٰ :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾(٤) .

وكذلك المصائب التي تمسّ الإنسان ، إمّا أن تكون مصائب جزاء ـ كما أشرت إليه من قبل ـ أو تكون مصائب ابتلاء ، وهي التي يتعرّض لها أهل الطاعة ، ليبتلي الله صبرهم ، فيرفع درجاتهم ، كما قال تعالىٰ :

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ

---

(١) الرعد (٣٤) .

(٢) الشورىٰ (٣٠) .

(٣) الأعراف (١٦٨) .

(٤) الأعراف (١٨٢ ـ ١٨٣) .

وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾[١] .

أما المؤجلّ من الجزاء بالثواب أو العقاب ، فيكون على ثلاث مراحل :

إما أن يكون في فترة البرزخ ، أو يكون في يوم الحساب ، أو يكون في المرحلة الأخيرة التي يتمّ فيها الجزاء الأكبر ، بدخول أهل الجنة الجنة ، ودخول أهل النار النار .

وهكذا الجزاء في الإسلام ، فقد جاء به في صورة دقيقة واضحة جلية غير مبهمة ، خلاف ما اتجه إليه الفكر البوذي وأمثاله ، في عقيدة جزاء « كارما » التي لا يمكن التدليل عليها ولا فهمها ، وبخاصة بعد أن اضطرّ الفكر البوذي وأمثاله إلى تقرير أن الروح في الحياة الجديدة مقطوعة تمامًا عنها في حياتها السابقة ، فلا تعرف عنها شيئًا ، ومعنى هذا أن الروح تنعم أو تشقى دون أن تعرف أسباب النعيم أو الشقاء[٢] ، وإذا كان الإنسان لم يعرف أسباب النعيم والشقاء ، ولم يتذكّر ما فعله في حياته السابقة ، فما أثر مثوبة أو عقوبة لا يتذكّر المرء سببها ؟!

لقد أنكر الإسلام الحياة السابقة ، والبعوث غير المتناهية ، وقرّر أن الحياة الدنيوية حياة واحدة ، وأن الدار داران ؛ دار الدنيا للابتلاء ودار الآخرة للجزاء ، والفترة بينهما هي البرزخ ، وأن الإنسان بعد موته سيبعث مرة أخرى ، ثمّ يحاسب بين يدي الله على كل عمل من خير أو شرّ .

والأصل في الجزاء أن يكون في الدار الآخرة ، لا في الدنيا ، ولكن مقتضيات الحياة ، وضرورة استقرار المجتمع ، كل ذلك دعا إلى أن يكون مع الجزاء الأخروي جزاء دنيوي كما أسلفنا .

وقد ترتبت على الجزاء الأخروي في الإسلام ، خضوع المسلم لأحكام

---

(١) البقرة (١٥٥) .

(٢) قارن « أديان الهند الكبرى » (١٩٦) .

الشريعة خضوعًا تامًا في السرّ والعلن ، خوفًا من عقاب الله ، وحتّىٰ لو استطاع الفرار من عقاب الدنيا ، لأن العقاب الأخروي ينتظره ، ولا يستطيع الفرار منه .

أما « كارما » في تصوّر البوذيين ـ وإن كان لها سلطان في زعمهم إلا أنه سلطان وهمي لا وجود له ـ فلا تنزجر النفوس عن مخالفته ولا يعطيهم إلا زيادة في الغرور والضلال .

ثالثًا :

إن عقيدة « كارما » البوذية تنفي الإيمان بالقضاء والقدر الذي هو عنصر هام في العقيدة الإسلامية ، و تبطل حريّة الإنسان ومسئوليته في هذه الأرض .

فقد اتّجهت البوذية اتّجاهًا غريبًا بعيدًا عن العقل والمنطق ، حينما جعلت «كارما» هي التي تقضي وتقدر حياة الإنسان من تلقاء نفسها ، دون حاجة إلىٰ مدبّر يدبّر أمرها ، ويقوم عليها ، مع أن « كارما» في تعريفهم هي مجرّد عمل الإنسان ، وهو مخلوق كسائر المخلوقات ، فكيف يكون له قدرة ذاتية قائمة بنفسها ويتحكّم في الأشياء ؟

هل من المعقول أن يكون للخير أو الشر قوىٰ عاقلة مستقلّة فيجزي صاحبه بنفسه ؟

نعم ، إن الخير يجب أن يأتي بالخير ، وإن الشرّ يجب أن يأتي بالشرّ ، هذا مبدأ عام يشترك فيه جميع الأديان ، ولا جدال فيه ، وقد أشار القرآن الكريم إلىٰ هذا المبدأ في مثل قوله تعالىٰ :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [(١)] .

غير أن الإسلام يبيّن للإنسان ما هو الخير المقبول عند الله الذي يستحقّ الجزاء ، وما هو الشرّ المنهي عنه عند الله الذي يستحق العقاب ، كما يفرّق الإسلام بين الجزاء وهو المخلوق ، وبين المُجزي وهو الخالق ، فليس من

(١) فصلت (٤٦) .

المعقول أن يكون الجزاء المخلوق (أي الخير والشر) يتصرّف بنفسه ، ويؤثّر بنفسه ، إذ لو كان الأمر كذلك لأمكن للإنسان أن يقدّر سير حياته بنفسه حيث يشاء ، ولكن الواقع المشاهد خلاف ذلك ، لأنّ الإنسان لا يستطيع أن يقدّر حياته بنفسه ، وهذا دليل صريح على أنه ليس شيء من المخلوقات مؤثّرًا بنفسه ، بل الله وحده خالق كل شيء لا شريك له هو المؤثر ، وهو المجزي ، والمتصرف في الكون كما يشاء ، ولا يلزم عليه شيء من المخلوقات ، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن قال تعالى :

﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾[1] .

ومن المآخذ على عقيدة « كارما » ، أنها تبطل حرية الإنسان واستقلاله الشخصي في هذه الأرض ، وإن لم يعترف بذلك البوذيون .

لأن حياة الإنسان الحالية - في نظرهم - ليست سوى نتيجة من حياته السابقة ، وكلّ ما يصيبه من خير أو شر إنما هو عمله (كارما) القديم لا غير ، ومعنى ذلك أن الإنسان مجبور على عمله ليس له اختيار ولا حرية في العمل والاجتهاد ، لأن كارما تدفعه إلى الخير أو الشر ، وإلى السعادة أو الشقاوة ، دفعًا جبريًا ، إنها تسيّر حياته كالريشة في مهبة الريح ، تسوقها إلى حيث تشاء ، ومن هنا يمكن القول بأن البوذية - في عقيدتها « كارما » - شبيهة بالقدرية من حيث نفي القدر ، وشبيهة بالجبرية من حيث إبطال حرّية الإنسان في هذه الأرض .

وقد ترتّب على الاعتقاد بكارما ، التواكل والتكاسل في العمل والاجتهاد لأن الإنسان حينما يعتقد أن ما يصيبه من المصائب ، كالفقر أو المرض مثلاً ثمرة من عمله (كارما) القديم ، يلقى في قلبه الحزن واليأس والقنوط من كل شيء ، فلم يفكّر في العمل والاجتهاد لترتقي حياته ومعيشته ، ولم يفكّر في التداوي والعلاج ليشفى مرضه ، لأن الفقر أو المرض في زعمه عقاب له من «كارما»

(١) فاطر (٢) .

السيئة التي ارتكبها في الحياة السابقة ، فما عليه إلا أن يستسلم ، ويترك كارما تسيطر عليه ، وتسوقه إلىٰ حيث تشاء[1] ، وقل مثل هذا في كل مصيبة تصيب الإنسان .

ومن ناحية أخرىٰ أن عقيدة « كارما » قد تؤدّي الإنسان إلىٰ البطر والتكبّر فيما يناله من النعم ، كالمال ، والجاه ، والمنصب ، وغير ذلك لاعتقاده أن تلك النعم ثمرة من عمله السابق ، ومكافأة لعمله (كارما) القديم ، فيفتخر به افتخاراً يوقعه في البطر والتكبّر .

أما الإنسان المؤمن بقضاء الله وقدره ، فإنه بريء من هذه المساوئ ، لأن عقيدة القضاء والقدر في الإسلام حصن حصين للإنسان من حزن ميئس ، وفرح مبطر ، وإعجاب يوقع في الاحتقار . يقول الله سبحانه وتعالىٰ في كتابه العزيز :

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾[2] .

أي أن ما يصيب الإنسان من خير أو شرّ، في أنفسكم ، أو فيما يتّصل بكم ، أو غير ذلك ، ثابت في علم الله من قبل وجوده ووجود مصابه ، فالإنسان عندما اعتقد أن جميع الأحداث ، خيرها ، وشرّها ، حسيّة كانت أو معنوية ، وماديّة ، أو روحية ، تقدير العزيز العليم ، عندما اعتقد الإنسان ذلك ، لا يحزن علىٰ ما لم

---

(١) تروي الحكاية البوذية في صدد إثبات عقيدة « كارما » أن شيخًا كبيرًا مرض بمرض في الحنجرة ، لا يستطيع الأكل أو الشرب إلا بصعوبة شديدة ، وقد رفض الذهاب إلىٰ الطبيب للعلاج مهما أغراه أبناؤه بذلك ، ولمّا سألوه عن السبب قال : لا فائدة للعلاج ، لأن هذا المرض مرض « كارما » ، ففي الحياة السابقة تذكرت أنني مولع بإيذاء الحيوان في حنجره حتىٰ يموت ، والآن قد أتىٰ دور الجزاء : « فظلّ الشيخ ينام علىٰ سريره شهوراً ، وهو يعاني من المرض ، حتىٰ فارق الحياة ، وقد اكتشف الطبيب بعد موته أنه مريض بمرض السرطان في الحنجرة » من كتاب : « المبادئ الهامة في البوذية » (٤٩٢ - ٤٩٣) .

(٢) الحديد (٢٢ ، ٢٣) .

يدركه من الخير ؛ حزنًا يوقعه في اليأس ، والقنوط من رحمة الله ، كما لا يفرح بما أدركه ، فرحًا يوقعه في البطر ، والتكبّر ، والإعجاب بالنفس ، والفخر بالمال على غيره ، لا يحدث منه ذلك ، لاعتقاده أن كل ما جرت به المقادير ، من منع أو منح إنما هو لحكمة سامية ، ورحمة الله عظيمة ، فالمنع لمصلحته ، والمنح كذلك لمصلحته ، فهو في حالتي المنع والمنح في رضا بما حدث .

إن المؤمن بالقضاء والقدر يعلم علمًا يقينيًا أن ما يصيبه لم يكن ليخطئه ، وما يخطئه لم يكن ليصيبه ، ويعلم أن ما أصابه من مصيبة فبإذن الله ، وأن الإنس والجن لو اجتمعوا على أن ينفعوه بشيء لم ينفعوه ؛ إلا بشيء قد كتبه الله له ، ولو اجتمعوا على أن يضرّوه بشيء لم يضروه ، إلا بشيء قد كتبه الله عليه . قال تعالى :

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [١] .

والمؤمن بالقضاء والقدر يؤثر دائمًا الفضيلة على الرذيلة ، فيتّخذ في معركة الحياة السبيل الأمثل والخلق الأفضل .

فما دام الغنى والفقر بقدر الله ، والبخل والجود لا يؤثران فيهما بذاتهما وجودًا وعدمًا ، لا يكون المؤمن القوي الإيمان إلا كريمًا .

وما دامت الأعمار محدودة ، لا يطيلها جبن ، ولا تقصرها شجاعة ، لا يكون المؤمن القوي الإيمان إلا شجاعًا ، وقل مثل ذلك في سائر الصفات والأفعال .

ولا يقتضي الإيمان بالقضاء والقدر في الإسلام الاتكال وترك الأعمال بل يقتضي الاجتهاد والحرص [٢] .

قال تعالى : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ [٣] .

---

(١) التوبة (٥١) .

(٢) انظر بالتفصيل كتاب « شفاء العليل » لابن القيم (٢٤ـ٢٦) .

(٣) التوبة (١٠٥) .

وقد أخبرنا الرسول ﷺ أن المرء قبل أن يولد يقدّر عمله ، ورزقه ، وأجله ، وسعادته ، أو شقاوته ، وأن تلك السعادة أو الشقاوة منوطة بذلك العمل الذي قدّر له ، فمن كتبت له السعادة هيئت لـه أسبابها ، ويسّرت له الأعمال التي تؤهله لها ، ومن قدرت له الشقاوة ، هيئت له وسائلها ، فقبحت أعماله ، وساء حاله وماله ، ففي الحديث المتفق عليه[1] عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال : قال الرسول ﷺ : « **ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ، ومقعده من الجنة قالوا : يا رسول الله ، أفلا نتّكل علي كتابنا ، فقال : اعملوا فكل ميسّر لما خلق له ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾** »[2] .

يقول الإمام ابن القيم - رحمه الله - بعد سرده عدداً من أحاديث القدر :

« اتفقت هذ الأحاديث ونظائرها على أن القدر السابق لا يمنع العمل ولا يوجب الاتكال عليه ، بل يوجب الجد والاجتهاد ، ولهذا لما سمع بعض الصحابة ذلك قال : « ما كنت أشدّ اجتهاداً مني الآن » ، وهذا مما يدلّ على جلالة فقه الصحابة ، ودقة أفهامهم ، وصحة علومهم ، فإن النبي ﷺ أخبرهم بالقدر السابق ، وجريانه على الخليقة بالأسباب ، فإن العبد ينال ما قدر له بالسبب الذي أقدر عليه ، ومكن منه ، وهُيّئ له ، فإذا أتى بالسبب ، أوصله إلى القدر الذي سبق له في أم الكتاب ، وكلما زاد اجتهاداً في تحصيل السبب ، كان حصول المقدور أدنى إليه . . .

فالنبي ﷺ أرشد الأمة في القدر إلى أمرين ، هما سببا السعادة ، الإيمان بالأقدار ؛ فإنه نظام التوحيد ، والإتيان بالأسباب التي توصّل إلى خيره وتحجز عن شرّه » أهـ[3] .

---

(١) « صحيح البخاري » (٤/ ١٤٤) كتاب القدر ، باب وكان أمر الله قدراً مقدورا (رقم ٦٦٠٥) و« صحيح مسلم » (٤/ ٢٠٣٩ - ٢٠٤٠) كتاب القدر باب كيفية خلق الآدمي (رقم ٢٦٤٧) .

(٢) الليل (٥ - ١٠) .

(٣) « شفاء العليل » (٢٥ ، ٢٦) .

وليس في معنىٰ القدر إجبار وقهر للعبد علىٰ العمل كما يتوهم بعض الناس، والآيات التي استشهد بها الرسول ﷺ تدل دلالة واضحة علىٰ ذلك .

فإن القدر هو علم الله بما سيكون من أفعال العباد في أوقات معلومة عنده وعلىٰ صفات مخصوصة أرادها(١) .

فالذي خلق الإنسان من أمشاج ، وكوّنه من مزاج وطبائع ذات أثر في العقائد ، والميول ، والأخلاق ، والأعمال ، لا غرابة في أن يعلم كل ما سيأتي به الإنسان من حركة ، أو سكون ، أو فعل ، أو ترك .

﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (٢) .

وقد ورد في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قال :

« كتب الله مقادير الخلائق ، قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال : وعرشه على الماء »(٣) .

وعلم الله سبحانه وتعالىٰ بما سيقع ، ووقوعه علىٰ حسب العلم لا تأثير له في إرادة العبد ، فإن العلم صفة تكشف ، وليس صفة تؤثر وترغم ، والإنسان من تلقاء نفسه يتوجّه إلىٰ ما يريد من أهداف ، وهو يشعر من نفسه بأنه يمارس أعماله الإرادية بمحض إرادته واختياره فهو يفعل منها ما يشاء ، ويدع منها ما يشاء ، ولكنه لا يشاء شيئًا ؛ إلا إذا كان في حدود مشيئة الله وإرادته ، فمشيئة الإنسان ليست مستقلة عن مشيئة الله ، قال تعالىٰ :

﴿ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٤) .

والله قد شاء للإنسان أن يختار أحد الطريقين ، طريق الهداية أو طريق الضلالة ، فإذا اختار الطريق الأول ، ففي نطاق المشيئة الإلهية ، وإذا اختار

---

(١) انظر « العقائد الإسلامية » للسيد سابق (٩٥ ، ٩٦) .

(٢) الملك (١٤) .

(٣) رواه الإمام مسلم (٤/ ٢٠٤٤)كتاب القدر ، باب حجاج آدم وموسىٰ عليهما السلام (رقم ٢٦٥٣) .

(٤) التكوير (٢٨ ، ٢٩) .

الطريق الثاني ، ففي نطاقها أيضًا ، وليست الهداية والضلال إلا نتائج لمقدمات ومسببّات الأسباب ، كما دلت على ذلك الآيات التي استشهد بها الرسول ﷺ ، فإن من تعلّق بأسباب الخير - من عطاء وتقوى وتصديق - أكمل الله غايته ويسّره للحسنى ، ومن تعلق بأسباب الشر - من بخل ، وفجور ، وتكذيب - أتمّ له قصده ، وأملى له في غيه ، ويسّره للعسرى[1] .

وعلى هذا فإن القدر في الإسلام ليس فيه إجبار أو إكراه ، لأنه هو الخطة التي قدّرها الله للمخلوقات قبل خلقها ، ثمّ قضى بتنفيذها على المخلوقات ، وفق صفة علم الله ، وإرادته ، وقدرته .

رابعًا : من ضلال عقيدة « كارما » البوذية أنها تنفي التوبة وتكفير الذنوب ، لأن قانون « كارما » في مذهب بوذا يسجّل كل ما يرتكبه الإنسان ، من صغيرة وكبيرة ، ثم يجازيه حتمًا في المستقبل ، فليس هناك المغفرة والصفح الديني ، وليس هناك التوبة أو تكفير الذنوب .

وقد روي عن بوذا أنه لا يقول : إن التوبة تكفّر الذنوب ؛ لأنه يرى أن التوبة مقصودة أو غير مقصودة لا تستطيع أن تمنع صدور المعلول عن العلة ، ولا العمل من النتائج[2] .

ولاشك أن هذا التفكير الغريب نتيجة من إنكار الإله ، لأن التوبة لا تكون إلا من وجود المتوب إليه ، فإنكار المتوب إليه معناه إنكار التوبة ، وما أشبهها من العبادات ، كالدعاء ، والرجاء ، والخوف ، والتوكل ، والاستغاثة ، وغير ذلك .

وقد أشرنا قبل هذا إلى أن هذه الأمور مما لا تتخلّى عنه فطرة الإنسان ، لأنه مفطور عليها ، ولهذا فقد أصبح إنكار هذه الأمور مبدأ نظريًا ، يدرس في مدارسهم ، ويقرأ في كتبهم ، دون أن يكون له أثر في تطبيقهم العملي ، ولا

---

(١) انظر بالتفصيل « شرح العقيدة الطحاوية » (٣٠٢-٣٠٥) ، (٤٩٣-٥٠٧) .
(٢) قانون « كارما » (١٠٢-١٠٣) .

سيما بعد أن صار بوذا إلهًا معبودًا كإله الهندوس .

وقد وجدنا كثيراً من علماء البوذية المعاصرين[١] يفتخرون في كتبهم بهذه العقيدة ـ أي إنكار التوبة ـ ويهاجمون الهندوسية ، والإسلام ، والديانات السماوية كلها ، وخاصّة النصرانية التي تقول بصلب المسيح للتكفير عن خطيئة البشر[٢] ، وبصكوك الغفران[٣] وكرسيّ الاعتراف[٤] والتعميد[٥] .

لذلك يجدر بنا أن ننبّه هنا إلىٰ حقيقتين هامتين :

---

(١) منهم صاحب كتاب « مقارنة الأديان » (١/ ٨٤) وصاحب كتاب « الأديان الحية في العالم » (١٣٤ ـ ١٣٥) .

(٢) من أصول عقيدة النصرانية الفاسدة أن الإنسان يولد مذنبًا خاطئًا حاملاً لما يسمّىٰ بخطيئة آدم ، وأن صلب المسيح إنما وقع للتكفير عن خطيئة البشر ، وأن الله كان عليه أن يعاقب ذرية آدم بسبب هذه الخطيئة لولا توسّط ابن الله ووحيده وقبوله أن يظهر في شكل إنسان ، ثم يصلب ليكفّر عن خطيئة البشر . راجع « المسيحية » للدكتور أحمد شلبي من صفحة (١٥٤ ـ ١٦٤) .

(٣) من البدع العجيبة في النصرانية ، امتلاك الكنيسة ورجالها حقّ الغفران للمسيء في الدنيا ، وقد أنشأوا لذلك صكوكًا ، تباع وتشترىٰ كأسهم الشركات ، وبالصك فراغ ترك ليكتب به اسم الذي سيغفر ذنبه ، والعجيب أن هذه الصكوك تمحو الآثام ، وتغفر ذنوب العاصي ما تقدّم منها وما تأخر ، دون حاجة إلىٰ توبة أو ردّ ظلامة ، وقد بذل العصاة في سبيلها المال ، وما كان عليهم من حرج في أن يرتكبوا ما شاءوا من الموبقات ، ما دام ذلك يفتدي بثمن من المال (راجع «محاضرات في النصرانية » لأبي زهرة (١٧١ ـ ١٧٣) و« المسيحية » للدكتور أحمد شلبي (٢٥٤ ـ ٢٥٥) .

(٤) أن يعترف المذنب بذنبه في خلوة مع قسّيسه ، ليستطيع هذا القسّيس أن يغفر له ذنبه ، وفي خلوات الاعتراف حدثت أشياء يقشعرّ لها الوجدان ، من اعتداء القسّيس علىٰ المعترفات . راجع « المسيحية » للدكتور أحمد شلبي (٢٥٥) .

(٥) التعميد هو السرّ الذي قصد به إلىٰ إزالة الخطيئة الأولىٰ ، ونهج الولادة الروحية الثانية ، وتذهب التفسيرات المسيحية إلىٰ أن الطفل شرير بطبعه ، وأنه يولد محملاً بكثير من الشرور والآثام وطريقة التعميد هي رش الماء علىٰ الجبهة ، أو غمس أي جزء من الجسم في الماء ، ولابد أن يقوم بهذه العملية كاهن يعمّد الإنسان باسم الأب والابن وروح القدس ، والغالب أن يتمّ التعميد في الطفولة حتىٰ ينشأ الإنسان ـ كما يقولون ـ طاهراً مبرءًا من الذنوب .
انظر « محاضرات في النصرانية » لأبي زهرة (١١٤ ـ ١١٥) وأيضًا « المسيحية » للدكتور أحمد شلبي (١٦٨ ـ ١٦٩) .

الحقيقة الأولى :

إن من حقائق التربية النفسية أن الإنسان خطّاء ، وأن الغلط مركوز في عروقه مع الدماء ، إن الله خلق الإنسان وغرز في نفسه حبّ متاع الدنيا ، والرغبة في جمع المال ، والغضب ، والبطش ، والانتقام ، وقد سلط عليه الشيطان يزيّن له الفواحش ، ويحبّب إليه المعاصي ، ووضع فيه نفسًا أمّارة بالسوء مشتهية للحرام ، فكان من نتائج ذلك أنه يأتي بالمعاصي ، ويرتكب الذنوب ، إلا من عصمه الله من ذلك من الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم .

فماذا يصنع الإنسان لينجو من عقاب المعصية وتبعات الذنوب ؟

من هذا الأساس فقد فتح الله سبحانه وتعالىٰ من رحمته باب التوبة أمام المذنبين العاصين الغافلين ، مهما تعاظمت الذنوب ، وتكاثرت المعاصي ؛ فلا قنوط من رحمة الله ، ولا بعد عن الله ، قال تعالىٰ في كتابه العزيز : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (١) .

وقال تعالىٰ بعد ذكره جملة من المعاصي :

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾(٢) .

وقال في آية أخرىٰ يبيّن أن المغفرة ماهي إلا رحمة منه سبحانه وتعالىٰ :

﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٣) .

فالتوبة نعمة عظمىٰ ، ومنّة كبرىٰ من الله تعالىٰ علىٰ عبادة ، ولولا أن الله

---

(١) الزمر (٥٣) .
(٢) الفرقان (٦٨ ، ٧٠) .
(٣) الأنعام (٥٤) .

وفّق إليها عباده ، وأنعم بقبولها ، لوقع العباد في حرج شديد ، والواقع أن نفس الإنسان كجسمه كلاهما يحتاج إلىٰ تطهير دائم ، فالجسم يتعرّض للأدناس والأقذار ، فكان لابدّ لعافية الجسد من إزالة هذه الأدناس والأقذار كلها . والنفس الإنسانية كذلك ، تتعرّض للأخطاء ، والذنوب ، والسيئات ، وتنزع إلىٰ الشرور ، وهي بحاجة إلىٰ توبة متجددة متكررة ، تمسح عنها هذه الذنوب والسيئات ، مثلما يحتاج الجسد إلىٰ أنواع الغسل وضروب المطهرات[1] .

فمن الغريب أن نجد هنا نحلة قاسية كالبوذية التي أنكرت التوبة وجعلت ذنوب الإنسان المتراكمة يكفرّها التناسخ ، وتكرار المواليد .

ونحن نتساءل كيف يحقّق هذا التكفير ، مع أن الإنسان في كل حياته - كما يقولون - لا يخلو عن ارتكاب الذنوب ؟

الحقيقة الثانية :

إن الإسلام ليس كغيره من الديانات ، فلا يصحّ إطلاقًا التسوية بين الإسلام وغيره في الحكم .

إن الإسلام هوالدين الوحيد الذي شرعه الله لكل البشر ، وفي كل الأزمان، وقد تكفّل بحفظ كتابه ، ودستوره الأساسي وهو القرآن ، فقال :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[2] .

فسلم مصدره عن تدخّل البشر ، وتحريف البشر ، هذا بخلاف غيره من الديانات السماوية التي شرعها الله لمرحلة محدودة ، ولقوم معيّنين ، ولم يردها رسالة عامة خالدة لكل البشر وفي كل الأزمان ، كما أن الله لم يتكفّل بحفظها وبقائها .

---

(١) انظر « عقيدة المسلم » لمحمد الغزالي (١٥٤ ، ١٥٥) .
(٢) الحجر (٩) .

وعلى هذا امتدت إليها يد التحريف والتغيير ، والديانة النصرانية مثال بارز لما نقول ؛ فقد أصابها الغلو ، أو التحريف والتزييف ، بما بدّل جوهرها ، وأخرجها من رسالتها ـ ولَسْتُ بصدد الكلام عن هذا الموضوع ، فليس هذا موضعه ـ غير أنني أحب أن أشير أن الإسلام مختلف تمامًا عن سائر الديانات .

فقد أنكر الإسلام الوساطة الكهنوتية بين الله والإنسان ، كوساطة الكهنوت في الهندوسية والنصرانية ، وجعل الإسلام العلاقة بين الإنسان وبين ربه علاقة مباشرة بدون وساطة ، وكان من دلائل تكريم الله للإنسان في نظر الإسلام ، أن فتح الله باب التقرب إليه سبحانه وتعالى أنّى شاء ، ومتى شاء ، لا يحتاج إلى وسطاء يصل من طريقهم إلى الله .

قال الله تعالى مخاطبًا رسوله الكريم :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾[1] .

وعلى هذا فقد أبطل الإسلام ما يسمى بصكوك الغفران ، وكرسي الاعتراف ، والتعميد ، وغير ذلك من الخرافات التي ابتدعتها الكنيسة النصرانية وقرّر الإسلام أن المغفرة لا يملكها إلا الله ، لا ملك مقرّب ، ولا نبي مرسل ، فضلاً عن رجال الكهنوت ، لأن باب الله في الإسلام مفتوح على مصراعيه لكل من دعاه ، ورجاه ، وتاب إليه ، وإن اقترفت قبل ذلك كبائر الإثم ، وفواحش الذنوب ، قال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[2] .

والتوبة في الإسلام لها شروط معروفة ، وإن التوبة النصوح هي الندم بالقلب ، والاستغفار باللسان ، والإقلاع عن الذنب ، والاطمئنان على أنه لا

---

(١) البقرة (١٨٦) .
(٢) آل عمران (١٣٥) .

يعود إليه .

قال تعالىٰ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾(١) .

هذا وقد أنكر الإسلام عقيدة النصرانية التي اعتبرت الإنسان ملوّثًا بالخطيئة من يوم يولد ، وهي ما يسمىٰ بالخطيئة الأصلية التي ارتكبها آدم عليه السلام ، وورثها عنه البشر ، وأعلن أن الأصل في الإنسان الخير ، وأن كل مولود يولد علىٰ الفطرة السليمة ، غير ملوّث بأية خطيئة ، وقرّر مسئولية الإنسان بنفسه ، فليس الإنسان مسئولاً عن خطيئة أحد ، وليس هناك خطيئة ، موروثة في الإنسان يحتاج إلىٰ التوبة منها إلىٰ كفارة من غيره ، لأن أعمال الآباء لا يؤخذ بجريرتها الأبناء ، وأن كل امرئ بما كسب رهين قال تعالىٰ :

﴿ وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾(٢) .

علىٰ أن القرآن الكريم قد أشار إلىٰ أن الله قد قبل توبة آدم ثم اجتباه ، فتاب عليه وهدىٰ ، وهو قوله تعالىٰ :

﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾(٣) .

فكانت توبة آدم ماحية لمعصيته في الدنيا والآخرة ، ولا تستتبع عقوبة باقية .

إن عقيدة « الخطيئة الموروثة » من المفاهيم المزيفة التي ليست من أصول الدين الحق ، وإنما هي من أوهام البشرية التي حملها بعض الدعاة ، وإنها تتعارض مع الفطرة والعقل .

خامساً : إن لهذه العقيدة « كارما » أثرها في فساد المجتمعات البوذية في كثير

---

(١) التحريم (٨) .
(٢) الأنعام (١٦٤) .
(٣) طه (١٢١ ، ١٢٢) .

من البلاد ، فإنها تعلّم الناس الكسل ، والتواكل ، والرضا بالظلم ، والصبر على الضيم ، وتخدعهم عن حقهم في الحياة بما تطبعهم عليه من الضعف والاستسلام .

ولا شك أن فساد العقيدة والتفكير له أثر كبير في فساد السلوك والتصرفات ، ثم فساد المجتمع الذي سادت فيه تلك السلوك والتصرفات .

إن البوذيين أكثرهم ليسوا سعداء ، إنهم قلقون ، وإن الملل يأكل حياتهم ، وهم مستغرقون ، إما في الحياة الروحية المتطرّفة في المعابد ، وإما في الحياة المادّية المنحرفة غاية الانحراف خارج المعابد .

إن الذين يشعرون بأنهم معاقبون بالكارما في هذه الحياة ، يشعرون بحاجتهم إلى الهرب ، الهرب من أنفسهم ، ومن الشقاء الذي ليس له سبب ظاهر من مرافق الحياة ، فيهرب كثير منهم ، إما بالانتحار أو بالجنون ، أو بالشذوذ .

إن اعتقادهم بالكارما ، عاجز عن زجرهم عن الشرّ ، وعن ردّهم عن الجريمة والفساد ، فضلاً عن دفعهم إلى الخير ، أو بعثهم على الحق ، لذلك انتشرت المفاسد في مجتمعهم انتشاراً واسعًا .

لقد عشت في هذه الأوضاع الاجتماعية المؤذية في « تايلاند » أكبر دولة بوذية في جنوب شرق آسيا ، وشاهدت الحقائق المؤسفة في واقع الحياة البشرية هناك .

إن كثرة الجرائم ، والأمراض النفسية ، والعصبية ، والشذوذ ، ثم الانتحار ، هذه الظواهر الفاسدة المنتشرة في المجتمع البوذي ليس وراءها إلا سبب واحد هو فساد العقيدة وفساد التصوّر في الحياة ، فمن الأخبار العادية التي نشرتها الجرائد ، والتي استمعتها يوميًا من الإذاعة خبر الانتحار ، وكان أكثر المنتحرين من المصابين بمصائب الحياة ؛ كالفقر ، والمرض ، والفشل في الحبّ ، أو في الزواج ، أو في العمل ، أو ما أشبه ذلك ؛ فليس لهم مخرج من

هذه المصائب إلا الانتحار للتخلص من قسوة « كارما » كما يقولون ، ومن أخبار الانتحار المكرّرة ، انتحار الشاب أو الشابة الذي لم يوفّق كل منهما في الزواج لسبب ما ، فلم يجد مخرجًا إلا أن قتل نفسه ، بعد أن كتب رسالة بيّن فيها : أنه لم يكن له نصيب من كارما الطيبة في الحياة السابقة حتى يتمّ بها الزواج مع حبيبته ، فلا فائدة له في بقاء الحياة .

وقد يقتلها معه ، أو يتّفقان معًا على الفرار من الحياة ، زاعمين أن حياتهما مليئة بكارما ، وأن الانتحار هوالطريق الوحيد للتخلص منها .

هذا مثال من مئات الأمثلة التي تنشرها الصحف يوميًا .

فنسبة المنتحرين من البوذيين نسبة هائلة ، لأن حياتهم فاقدة للأمن والطمأنينة .

إن حياتهم فارغة عن تصوّر كريم ؛ فامتلأت بالخوف ، والاضطراب ، والرعب وقد صدق الله إذ قال :

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾[1] .

* * *

(١) آل عمران (١٥١) .

المبحث الثالث

تناسخ الأرواح سمسارا (Samsara)

ذكرت في المبحث الماضي أن عقيدة « كارما » سبب القول بالتناسخ لأن جزاء « كارما » قد لا يتمّ في حياة الإنسان الواحدة ؛ بل لابد له من حياة متكرّرة، متعاقبة على الأرض ، ليتمّ الجزاء فيها ، ومن هنا لجأ الفكر البوذي إلى القول بالتناسخ .

١ ـ كلمة « تناسخ الأرواح »[١] :

إن كلمة « تناسخ الأرواح » مترجمة من كلمة السنسكريتية وهي «أواكامان» (Awakaman) ويقال في البالية « سمسارا » (Samsara) أي تناسخ الأرواح ، وتجوالها من جسم إلى جسم ، كما يقال أيضاً « سمسارا واتا » (Samsara Wat-ta) أي تناسخ الروح وتجوالها في دورات الولادة والموت إلى ما لا نهاية ، لأن كلمة « واتا » في البالية تعني حلقة الولادة والموت "Circle of birth and death"[٢] .

٢ ـ المعنى العام لتناسخ الأرواح :

يطلق بعض الباحثين على هذه العقيدة تعبيرات اصطلاحية أخرى كالعودة

(١) إن كلمة « التناسخ » عند العرب تعني التتابع والتداول ، وكانوا يقولون بتناسخ الأزمنة ، والقرون، لتتابعها ، وتداولها ، قال في « اللسان » (٣/ ٦١) والأشياء تناسخ أي تداول فيكون بعضها مكان بعض كالدول والملك وفي « المصباح المنير » (٦٠٣) « وتناسخ الأزمنة والقرون تتابعها وتداولها » ؛ ولما كانت الروح في نظرية التناسخ هي محور التتابع والتداول فقد جاءت تسميتهم لهذه الظاهرة « تناسخ الأرواح » .

(٢) « مجموعة المصطلحات البوذية » (٦٠٢ ـ ٦٠٥) .

للتجسّد ، وتجوال الروح ، وتكرار الموالد ، وقد يطلق عليها التناسخ فقط ، ومعناه العام هو رجوع الروح بعد خروجها من جسم إلىٰ العالم الأرضي في جسم آخر(١) .

إن المعتقدين بالتناسخ عمومًا يقولون : إن الذي يولد من الأبوين هو البدن المادي الأرضي ، أما ما يدبّر شئونه ويوجّهه فكائن آخر مركّب من جسم لطيف، يشمل الحواس والعقل والقوىٰ الآلية ، وإن هذا الكائن هو ما يسمّىٰ بالروح .

ويقولون أيضًا : إنه إذا حدثت ظاهرة الموت للإنسان ، انفصل هذا الكائن (الروح) عن البدن الأرضي الكثيف ، وانطلق إلىٰ عالم آخر ، يبقىٰ فيه ، ثم يعود هذا الكائن مسوقًا بالميول الذاتية والأعمال السابقة (كارما) إلىٰ الحياة الدنيا ، فيتقمّص جسدًا جديدًا لمولود جديد ، ويبدأ دورة جديدة من دورات الحياة ، في إنسان ، أو حيوان ، فيسعد أو يشقىٰ بحسب ما قدّم من عمل في حياته السابقة(٢) .

فالتناسخ ـ في زعمهم ـ هو الوسيلة الوحيدة للجزاء علىٰ ما قدّم الإنسان من خير أو شرّ ، وليس هناك من وسيلة أخرىٰ لديهم لمحاسبة الفرد عما يعمل في حياته سوىٰ تكرار عودته لهذه الحياة في دورات تناسخية متتالية ، ومعنىٰ ذلك أنهم لا يؤمنون بحياة أرضية واحدة يعيشها الإنسان ، ثم يكون بعدها البعث ، والحساب ، ودخول الجنة والنار بحسب عمله في الدنيا ، وبالصورة التي تنادي بها الأديان السماوية .

٣ ـ عقيدة التناسخ في الأديان الهندية قبل البوذية :

إن الذي يطالع فلسفة الهند ، ويطّلع علىٰ دياناتها ومذاهبها فيما بعد الحياة ،

---

(١) قارن « أديان الهند الكبرىٰ » (٦٣) .
(٢) « الحياة بعد الموت » (١٢٣ ـ ٤٢١) .

يستطيع أن يجد أن الجانب الأكبر من تفكير الهند ، ومن عباداتها ، ورياضاتها الروحية والجسدية ، هذا الجانب الأكبر منصرف إلى معالجة هذه القضية ، قضية ما بعد الحياة ، ويجد أن عقيدة « تناسخ الأرواح » من أهمّ وأقدم العقائد في الهندوسية على مدى التاريخ[١] .

يحكي صاحب كتاب « الفلسفة الهندية »[٢] عن تاريخ هذه العقيدة فيقول : «إن التناسخ عقيدة علّقت في أذهان الهندوسيين منذ أقدم العصور ، والهند هي الأرض الأصلية لها . . .

وقد نشأت هذه النظرية في الهند ، عندما استقر الغزو الآري لهذه البلاد ، فيما بين القرن الخامس عشر والعاشر قبل الميلاد ، حيث أراد الآريون حينذاك المحافظة على أصالة أنسابهم ، ووقاية دمائهم من الذوبان في الأغلبية الغالبة ، وكذلك إنهم أرادوا بقاء سيادتهم وسلطانهم على أهل البلاد ، فبدهائتهم الفائقة وتفكيرهم العميق قسّموا المجتمع في الهند إلى طبقات ، كما وضّحته من قبل ، وجعلوا أهل البلاد داخلين في ضمن طبقات سافلة ، غير أنهم لم يجعلوا هذا التقسيم جامداً أمام الشعب ، وإنما فتحوا لهم المجال أمام كلّ فرد من أي طبقة

---

(١) وبالبحث والتحقيق في هذا الموضوع نجد أن عقيدة تناسخ الأرواح قد وجدت أيضاً عند الأمم الأخرى منذ أقدم العصور ، كالمصريين القدماء ، وفلاسفة اليونانيين ، والفارسيين من معتنقي المانوية ولكن في ضوء الأدلة ليس من البعيد أبداً أن نقول إنها هندية قدماً وأصالة ، فقد انتقلت هذه العقيدة من الهند إلى الأمم المجاورة ، عن طريق قوافل التجارة ، والبعثات التبشيرية التي اهتمّ بها الملك « أشوكا » (Ashoka) أحد ملوك الهند في القرن الثالث قبل الميلاد ، وكذلك بالهجرة ـ عندما تغلّب الهندوس في صراعهم مع البوذيين ـ إلى شرق آسيا ، وجنوب شرقيها ، حيث انطلق البوذيون ومعهم عقيدة التناسخ التي هي من مقوّمات فلسفتهم ، والتي وجدت مجالاً واسعاً في هذه البلاد ، حيث يدين بها الآن مئات الملايين من أهل الشرق الأقصى ، وكذلك قد انتحلتها بعض الفرق الإسلامية الضالة من العصر العباسي ، حين التقت الثقافتان الهندية والعربية كما سنشير إلى ذلك في ختام هذا المبحث إن شاء الله .

راجع : « تحقيق ما للهند » لأبي الريحان البيروني (٣١ ، ٣٣ ، ٤١ ، ٤٣) ، و« الملل والنحل» للشهرستاني (٢/ ١٢) ، وأيضاً « قصة الحضارة » (٣/ ١٥٦) .

(٢) من (ص٩٥ ـ ١٠٠) .

للانتقال إلى الطبقة الأعلى ، عندما تعود الروح إلى التجسد الجديد ، في دورة حياة تالية .

فإذا أراد الخدم أو العبيد أن يرتقوا إلى الطبقة الأعلى ، فعليهم بالأعمال الصالحة ، وعلى رأسها خدمة الطبقة الأعلى « البراهمة » أما إذا انحرفوا من الأعمال الصالحة ، فإن أرواحهم مازالت تنتقل إلى أحدى الطبقات السافلة المنحطة ، أو إلى بعض الحيوان ، والحشرة .

وقد جعلوا لهذه النظرية ضابطًا يحكمها ، ويسيطر عليها ، هو قانون «كارما» أي الجزاء ، وبذلك ضمن الآريون لعنصرهم ولسيادتهم البقاء فما زال الهندوس في الطبقة الدنيئة اليوم يخدمون البراهمة ، رجاء الارتقاء في حياتهم القادمة .

وهكذا نشأت عقيدة التناسخ في الهندوسية ، كوسيلة سياسيّة لمصلحة طبقة معينة من الآريين دون غيرهم .

ثم تطور مفهوم هذه النظرية في القرن السابع قبل الميلاد ، حينما اعتقد الهندوس أن الروح لابد لها أن تتطهّر من أدارن العالم المادي وتصفى قبل أن تنضمّ إلى الروح الأعلى « برا ماتما » الذي انبثقت منه كافة الأرواح ، وعلى هذا فإن الروح تنتقل من كائن إلى آخر وفي كلّ مرة ترقى أو تهبط حسب أعمال صاحبها .

نقول إن التناسخ ، أو تكرار الموالد على هذا المفهوم عند الهندوس ليس سوى عقاب لمن لم يستطع الاندماج في الإله « براماتما » ، وهو أقصى درجات السعادة عند الهندوس ، ويطلقون على هذه الدرجة « موكشا » أي الخلاص النهائي ، والانطلاق من دورات التناسخ المتوالية ، والاندماج في الإله «براماتما»[1] .

فما يزال الإنسان تتكرّر وفاته فولادته إلى أبدًا الآبدين ، إذا لم يستطع أن

---

(١) عن موضوع « موكشا » عند الهندوس اقرأ بالعربية كتاب البيروني في « تحقيق ما للهند » (٥١ - ٥٢) .

تتجرّد روحه من الشهوات والرغبات تجرّدًا تامًا .

فإذا استطاعت الروح التخلص من الشهوات والرغبات ، فإنها ستندمج في « برماتما » لتنعم بالاتحاد به ، وبهذا الاتحاد تنجو الروح من العذاب الذي يتجلىٰ في الولادة الجديدة المتكررة .

أما الجينية ، فإنها تؤمن كما تؤمن الهندوسية في « تناسخ الأرواح » غير أنها لم تؤمن بوجود الإله ، كما تؤمن به الهندوسية ، ولهذا فلم تؤمن بنظرية الحلول ، أي حلول روح الإله في الأجساد ، كما لم تؤمن بنظرية الاتحاد ، أي اتحاد الروح بالإله ؛ ولكنها تؤمن بوجود الروح وجودًا ذاتيًا مستقلاً ، وأنها شائعة في كل الكائنات ، سواء كانت إنسانًا ، أو حيوانًا ، أو نباتًا ، أو جمادًا ، كما تعتقد أن دورات الروح التناسخية تنتهي بها من عالم المادة الزائل ، إلىٰ عالم الخلود الباقي ، حيث تقيم في نعيم الحياة الأبدية المستقرة ، وذلك باتباع نظام صارم ، من الزهد ، والتقشف ، والحرمان من طيبات العيش والإمساك عن إيذاء أي كائن حي ، فإذا وصل الإنسان إلىٰ درجة التطهر ، وزالت من نفسه رغباته وشهواته ، وانعدمت مطامعه وأهدافه ، وتجرّد عن كل ما يدفعه إلىٰ عمل الخير والشر ، فإن روحه في هذه الحالة تتحرّر من التقمّص في جسد آخر ، وتكون بذلك قد وصل إلىٰ ما يسمّونه بدرجة النجاة ، وحينئذ يكون من حقّه الانتحار ، لكي يتخلص من قيود الحياة ، والانتحار بالجوع عند هذه النحلة منزلة سامية جدًا ، تدل علىٰ أن الجيني المنتحر وصل إلىٰ أكمل درجات الزهد والتقشف مما يحول تكرار رجعة الروح[1] .

وهكذا نجد أن عقيدة التناسخ الهندوسية عقيدة أساسية ، أخذت منها جميع الديانات الهندية قبل البوذية وبعدها ، وقد صدق البيروني[2] إذ يقول :

---

(١) « الفلسفة الهندية » (١٤٠ ـ ١٤٤) وانظر : « قصة الحضارة » (٣/ ٦٠ ـ ٦٢) و« الهند عقائدها وأساطيرها » (١٤٣ ـ ١٤٨) و« أديان الهند الكبرىٰ » (١١٤ ـ ١١٩) .

(٢) هو محمد بن أحمد أبو الريحان البيروني الخوارزمي ، فيلسوف رياضي مؤرّخ ، أقام في الهند بضع سنين ، اطّلع علىٰ فلسفة اليونانيين والهنود ، وعلت شهرته ، وارتفعت منزلته عند ملوك عصره ، وصنف كتبًا كثيرة جداً منها « الآثار الباقية عن القرون الخالية » و« تاريخ الأمم الشرقية » =

« كما أن الشهادة بكلمة الإخلاص شعار إيمان المسلمين ، والتثليث علامة النصرانية ، والأسبات[1] علامة اليهودية ، كذلك التناسخ علم النحلة الهندية ، فمن لم ينتحله لم يكن منها ، ولن يعدّ من جملتها »[2] .

٤ ـ عقيدة التناسخ في الأسفار الهندوسية :

ليزداد الموضوع إيضاحًا نورد ما نصّ في كتاب الهندوس « قوانين منو »[3] .

حيث وجدنا فيه تفصيلاً دقيقًا لمذهب التناسخ الذي هو أساس لجميع مذاهب الهند الدينية ومنها البوذية التي نحن بصدد الكلام عنها .

فقد شرح هذا الكتاب نظرية التناسخ بصورة عملية ، كما ذكرت بعضها عند الكلام عن عقيدة « كارما » ، وسأورد هنا بعض الفقرات منه : يقول « منو » عن الحالات التناسخية :

(فقرة ٤٠) « من كان متمتّعًا بصفة الصلاح يصل إلىٰ درجة الآلهة ، ومن كان متمتّعًا بصفة الهمّة يصل إلىٰ درجة الإنسانية ، ومن كانت صفة الظلمة غالبة عليه يبقىٰ حيوانًا » .

(فقرة ٤١) « اعلموا أن هذه الحالات التناسخية الثلاث التي ترتكز علىٰ الصفات الثلاث ، فتجعل الإنسان وضيعًا ، أو وسطًا ، أو رفيعًا ، إنما تكون انعكاسًا لنتائج أعمال المرء وعلومه » .

= و« تاريخ الهند » و«تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة (توفي سنة ٤٤٠ هـ) «الأعلام » (٥/ ٣١٤) .

(١) والمراد هو احترام اليهود يوم السبت ؛ لأنه من الأيام المقدّسة عندهم التي تجب مراعاتها مراعاة تامة ، فلا يجوز ليهودي الاشتغال فيه ، ومما ورد في العهد القديم عن يوم السبت هذا النص التالي « فتحفظون السبت لأنه مقدّس لكم ، من دنّسه يقتل قتلاً ، إن كلّ من صنع فيه عملاً ، تقطع تلك النفس من بين شعبها ، ستّة أيام يصنع عمل ، وأما اليوم السابع ففيه سبت عطلة مقدّس للرب . . . » انظر « سفر الخروج » الإصحاح (٣١) فقرة (١٤ ـ ١٥) .

(٢) كتاب البيروني في تحقيق ما للهند (٣٨) .

(٣) انظر بالتفصيل كتاب « منوسمرتي » الباب الثاني عشر فقرة (١/ ١٨) صفحة (٦٧٩ ـ ٦٩٤) .

(فقرة ٤٢) « إن أحطّ درجات الظلمة تجعل من المخلوقات جمادات ، وحشرات صغيرة وكبيرة ، وسمكًا ، وحيات ، وسلاحف ، وحيوانات أهلية ، وأخرىٰ ضارية » .

(فقرة ٤٣) « والدرجة المتوسطة من درجات الظلمة ، تجعل من المخلوقات فيلة ، أو خيلاً ، أو أناسًا من طبقة الشودر ، أو من طبقة الأسافل ، أو أسودًا أو نمرًا ، أو خنزير » .

(فقرة ٤٤) « والدرجة العالية من درجات الظلمة ، تجعل من المخلوقات أناسًا من فرقة جرن[1] ، أو تجعلهم سبرن[1] ، أو راكشش ، أو بشاج »[1] .

ويقول عن النساء الفاسقة :

(فقرة ٦٨) « إن النساء اللواتي يرتكبن السيئات مثل الرجال يخلقن إناثًا للحيوانات عقابًا لهن » .

كما يقول عن مصير السفهاء والحمقىٰ :

(فقرة ٥٢) « يصل السفهاء والأدنياء من الناس إلىٰ الولادات المنحطة نتيجة اتّباعهم أهواءهم النفسية ، وتركهم الفرائض الدينية » .

(فقرة ٧٤) « إن الحمقىٰ الذين يكرّرون ارتكاب الآثام يقاسون أنواع العذاب في خلق متعددة » .

(فقرة ٧٧) « ويخلقون في أرحام محتقرة ، تسبب لهم التعاسة الدائمة ، والتأثر بالقُرّ والحر ، ويصابون بأنواع المخاوف » .

(فقرة ٧٨) « ويقاسون العذاب بدخولهم أرحامًا عديدة ، وخلقًا منحطة مقيّدين بأغلال لا تطاق ، ويقاسون تعاسة العبودية ، وشقاء الرق » .

(فقرة ٨١) « إن الإنسان لينال جزاء أعماله في الحياة الثانية بحسب النية التي ارتكب بها عمله في هذه الحياة ، ويجسم له صفات جسمه » .

---

(١) هذه الأسماء للفرق من طبقة السفلىٰ في الهندوسية .

٥ ـ عقيدة التناسخ عند البوذية :

ذكرت سابقًا أن عقيدة كارما من أهمّ العقائد البوذية التي يجب أن يؤمن بها كلّ بوذي فكذلك عقيدة « تناسخ الأرواح » ، فالقول في « كارما » هو القول في تناسخ الأرواح ، لأنه لا ينفصل أحدهما عن الآخر ، وكما يقولون : لا تفهم كارما إلا بتناسخ الأرواح ، ولا يفهم تناسخ الأرواح إلا بكارما :

يقول القديس البوذي « بودهي ناندا » في كتابه « لبّ البوذية »[١] :

« إن الإنسان يحصد ما يزرعه ، وهذا هو قانون « كارما » ، وهو يسير في دقة ، لا حدّ له في ارتباطه بقانون التناسخ ، أو العودة إلىٰ الحياة والتي بدونها تصبح الحياة ناقصة .

فالإنسان دومًا يعمل أعمالاً ، ويخلق ديونًا جديدة تزيد في أعناقه ، وليس هناك مفرّ من سدادها ، والديون التي يخلقها في حياة ما ، قد يتعذّر سدادها في نفس تلك الحياة الواحدة .

فمن أهم العقائد في البوذية الاعتقاد بتعدد دورات حياة الروح علىٰ الأرض ، وانتقالها من جسد إلىٰ جسد ، لتلاقي في دورة حياة تالية جزاء ما عملت في دورة حياة سابقة ، وهكذا دواليك ، إلىٰ أن تتطهّر الروح من كارما .

إن الأرواح كلها ، سواء كانت في الإنسان ، أو في الحيوان ، تمشي في طريقها إلىٰ الفناء ، ذلك هدفها الأسمىٰ ، فمادامت الأرواح مشحونة بالرغبة ، ومشحونة بكارما ، فإنها تتكرّر في العودة إلىٰ الحياة ، ومعنىٰ ذلك أنها لم تصل إلىٰ هدفها المنشود .

إنها تتكرّر ، ويستمرّ تكرارها ، حتىٰ ينتهي دورانها يومًا من الأيام » .

---

(١) صفحة (٥١ ـ ٥٣) .

والواقع أن مفهوم التناسخ عند البوذية ، كما بيّنه هذا القديس ، لا يختلف كثيراً عن مفهومه عند الهندوسية ، إلا في مسألة واحدة وهي فناء الروح وخلودها.

فقد ذهبت الهندوسية إلىٰ أن الأرواح الكامنة في أجسام كل كائن حيّ انبثقت كلها من أصل إلهي وهو « براماتما » (Barmatma) ، إنه المصدر الأول للأرواح ، والروح الأعظم الذي انفصلت عنه سائر الأرواح ، انفصلت عنه إلىٰ أجل لتعود إليه مرة أخرىٰ عن طريق التناسخ[١] .

وعلىٰ هذا فإن الروح عند الهندوسية أبدية خالدة ، لا يعتورها الفناء . أما البوذية فلا تؤمن بخلود الروح ، لأن مفهوم الروح عندها هو تراكم «كارما» للأعمال الحسنة والسيئة التي تربط الرغبات بعضها ببعض[٢] .

ومن الفلسفات المعروفة في الفكر البوذي :

« كل شيء بدون استثناء يحدث ، ويمضي ، ثم يفنىٰ ، علىٰ حسب السبب والعامل »[٣] .

ومما يروىٰ عن بوذا قوله في إحدىٰ خطبه :

« ألا يا إخوتي بيهكشو . . . تفكّروا . . . إن الروح لا تحدث إلا بحدوث سببها ، ولا تفنىٰ إلا بفناء سببها ، إنها ليست شيئًا خالداً ، وإنما تحدث ، وتفنىٰ ، علىٰ حسب العوامل ، والأسباب » .

ثم أخذ بوذا يشرح عن حلقة وهمية من سلسلة الوجود فيقول :

« إن الجهل[٤] سبب لوجود الجسد ، والجسد سبب لوجود الروح ،

---

(١) « الحياة بعد الموت » (٨٥) .

(٢) « لبّ البوذية » (٤١) .

(٣) « الفلسفة الهندية » (٢٢١) .

(٤) المراد بالجهل عنده هو الجهل بالحقائق الأربعة المزعومة التي سبق ذكرها ويسمي هذا الجهل «أفيديا» (Avidya) .

والروح سبب لوجود الشخص المتألف من العنصرين الاسم والصورة ، وهذا الشخص سبب لوجود الحواس . والحواس ينتج التماس بين الأعضاء الستة[1] وبين الأشياء الخارجية ، والتماس ينتج الإحساس ، وهو سبب لوجود الرغبات ، وإن الرغبات سبب لوجود الآلام ، آلام الولادة ، والشيخوخة ، والمرض ، والموت ، وإن الموت ينتج الحياة بواسطة الروح المشحونة بالرغبة وكارما . . . » .

ثم يقول : « إذا كانت الروح من هذه الأسباب المتغيرة الفانية فكيف تكون ثابتة خالدة ؟ »[2] .

إن ما ذهب إليه بوذا من هذه النظرية المعقّدة ، يدل على أن الإنسان في رأيه ليس إلا مجموعة من عناصر مختلفة ، واتحاد بعضها ببعض ؛ إنها تحدث بحدوث العوامل ، وهي « كارما » وتنتهي بانتهائها .

وإن وجود هذه العناصر سبب لوجود الرغبة ، وهي سبب لوجود الألم .

وقد ترتب على اختلاف البوذية والهندوسية في قضية الروح ، اختلافهما في تفسير الغاية من التناسخ التي هي الطهارة التامة ، والسعادة الدائمة فقالت البرهمية هي « موشكا » (Moksha) أي الخلاص من جاذبية الحياة الدنيا ، وعودة الروح إلى مصدرها الأول « براماتما » والاندماج به كما تندمج قطرة من ماء بالمحيط العظيم .

وقالت البوذية : هي « نرفانا » (Nirvana) أي الفناء النهائي للروح وخمودها الدائم .

وهكذا نجد أن كلاً من الهندوسية ، والبوذية ، لا تعطي شيئًا من الحق ، بل تعطي مزيداً من الضلال ، فالأولى تنادي بفكرة وحدة الوجود واتحاد المخلوق

---

(١) المراد بالأعضاء الستة عنده هو العين والأذن والأنف واللسان واللمس والعقل .

(٢) « تري بيتاكا » (٩٨ ـ ٩٩) وانظر أيضًا (١١٣ ـ ٢١٤) (فينايا) .

بالخالق[١] . وهي فكرة تتنافى مع الصفات الإلهية العليا ، لما فيها من تجزئة للذات الإلهية في أجساد المخلوقات ، وفيها من الامتزاج بين المخلوق والخالق .

أما الثانية فإنها تنادي بالإلحاد ، لأنها جعلت الأشياء في الكون تدير نفسها ، وأصبح وجود الحياة في الكون دائرًا تسلسليًا لا يكاد العقل يفهمها .

٦ ـ عقيدة التناسخ كما وردت في الأسفار البوذية :

ورد في الأسفار البوذية « تري بيتاكا » نصوص كثيرة ، تبيّن عقيدة التناسخ التي تنادي برجعة الروح بعد الموت إلى دورات حياة جديدة ، وفيما يلي نذكر فقرات منها حسب العناوين الآتية : ـ

أ ـ التناسخ عقاب للنفس الشريرة :

تحدث بوذا عن هذا الموضوع فيقول :

« يا إخوتي بيهكشو . . . اعلموا أن كل كائن حي يولد من جديد على حسب ما فعل ، وأن « كارما » هي ميراث الحياة السابقة . . .

« إن الحياة كلّها ألم ، إما ألم واقعي ، و إما سرور حائل متغير ينتهي حتمًا إلى ألم محقّق ، فالخير للخير ، والخير للتخلص من الحياة من تكرار الولادة .

ألا إن الولادة مهما كانت حالتها فهي عقوبة أو قصاص . . . »[٢] .

سئل بوذا عما يحدث للمجرم قال : إن القاتل يعاقب في الدنيا بأن يعود ويعود للحياة . . . إن حياة الفرد طويلة ، وكما أن جسمه فانٍ فإن الروح بحاجة

---

(١) إن هذ الأفكار الهندوسية قد أخذ بها جماعة من صوفية المسلمين ، وعلى رأسهم الصوفي المشهور محيي الدين بن عربي (ت ٦٣٨ هـ) وابن الفارض (ت ٦٣٢ هـ) وابن سبعين (ت٦٦٩هـ) وجلال الدين الرومي (ت ٦٧٢هـ) وعبد الكريم الجيلي (ت ٧٦٧ هـ) ومن على شاكلتهم .

(٢) «تري بيتاكا » (سوتان) (٤٧٧) .

لعدة أجسام ، كي تتحرّر من التناسخ ، من عالم مملوء بالآلام والآثام ، وما الجسد إلا وعاء سريع الفناء ، يحمل الروح مدة من السنين[١] .

وفي موضع آخر يقول :

« يا إخوتي بيهكشو ، من ينقذنا من سيطرة الذات ؟ من يخلّص من التعاسة؟ ومن ينجينا من بحر « كارما » ، من عالم التناسخ المليء بالبلاء والآلام؟ وأرفع من هذا كلّه وأحلاه قداسة الحقيقة التي تعطي السلام للذي يتغلب على الضلال ، ويطفئ لهيب الشهوات ، ويقود إلى « نرفانا »[٢] .

ويعلق القديس « واسن اناسارا » على هذا النص فقال :

« إن التناسخ عندنا ما هو إلا عقاب ، أو قصاص ، للنفس الشريرة التي لم تتمكن من الصعود إلى درجة « نرفانا » .

وإن عقوبتها أن تعود للولادة من جديد ، لتعاقب بالألم ، والشقاء ، حتى تتخلّص من الشر والعقوبة ، فتمضي في « نرفانا »[٣] .

ب ـ الرغبة سبب للتناسخ :

يقول بوذا « ألا يا إخوتي بيهكشو ! إن كلّ كائن حيّ له حاجز من الجهل يحجزه عن الحق ، وله رابط من الشهوة يربطه بالذات . . .

إن الحيوانات التي لها حاجز الجهل ، ورابط الشهوة ، تمضي ، وتتجوّل وتنتقل ، إما إلى غير هذا العالم ، وإما إلى هذا العالم من غيره .

تفكروا يا إخوتي بيهكشو ، إن هذا التناسخ ليس له نهاية لكل حيوان ذي حاجز من الجهل ، ورابط من الشهوة ، إنه يجري ويتجوّل بلا ملالة ولا سآمة»[٤] .

---

(١) المصدر السابق (٤٧٨) .

(٢) المصدر السابق (٤٦٠) .

(٣) « المبادئ الهامة للبوذية » (٣٨٤) .

(٤) « تري بيتاكا » (أبيدارما) (٦٦١) .

سئل بوذا عن سبب الولادة فقال : « هو الرغبة في الحياة »(١) .

أي من له رغبة في الحياة تتكرّر ولادته ، لإشباع رغبته في الحياة ، ومن سئم منها ، فقضىٰ علىٰ رغبته فيها ، تتوقّف ولادته »(٢) .

ومما روي عن بوذا أيضًا قوله :

« إن الإنسان يتجوّل في حياة بعد حياة ، وولادة بعد ولادة ، وعالم بعد عالم ، نتيجة من جهله ، وعدم تبصّره في الحقائق الأربعة التي تهدي الإنسان إلىٰ عالم نهائي ، وإن الرغبات تسوق صاحبها دائمًا إلىٰ عالم غير نهائي ، إنها جذور شريرة في نفس الإنسان ، إذا نزعت نزعت الآلام ، وتوقّفت الرجعة إلىٰ الحياة»(٣) .

وقوله أيضًا :

« إن انتقال الروح من جسم إلىٰ جسم ، مثل انتقال النار من شمعة مشتعلة إلىٰ شمعة أخرىٰ ، إلىٰ ثالثة ، ورابعة ، وهكذا .

فالشمعة نفسها لا تنتقل إلىٰ شمعة ، وإنما تنتقل نارها .

إن الحياة الداخلية للشخص ليست إلا سلسلة من الخيالات ، والرغبات ، والعواطف من الحياة السابقة له ، فيسعد الشخص أو يشقىٰ حسبما تهيأ له من السلوك السابق .

إن حياة الإنسان راجعة إلىٰ تجمّع عناصر تكوينية الذهنية والبدنية ، واتّحاد بعضها ببعض ، والعناصر التي تشكّل شخصًا جديدًا لا تزال في تبدّل مستمر ، لكنها لا تتلاشىٰ كلية حتىٰ تفنىٰ « كارما » ، أي قوة الرغبة التي تتمسّك بها ، وتدفعها إلىٰ الميلاد الجديد .

وما دام الإنسان له رغبة في الوجود ، وله شهوة في التصرفات ، فلا يخلو

---

(١) المصدر السابق فينايا (١١١) .

(٢) « المبادئ الهامة للبوذية » (٤٩٦ ـ ٤٩٧) .

(٣) « تري بيتاكا » (سوتان) (٤٨٧) .

أن يكون عمله خيراً أو شراً ، فالعمل (كارما) الطيب يجب أن يأتي بنتيجة طيبة ، والعمل (كارما) الرديء يجب أن يأتي بنتيجة رديئة »[١] .

جـ ـ هل يبعث الإنسان حيوانًا ؟

أجاب بوذا عن هذا السؤال فيقول :

« إن الأرواح بعد الموت تتجوّل ، فتستمرّ من جسد لجسد آخر ، فالذي يعاقب على ذنبه ، تنتقل روحه لجسد حيوان خسيس ، وإذا ما تمّ عقابها بقدر ذنبها طهرت ، وانتقلت من جسم ذلك الحيوان »[٢] .

وفي موضع آخر يقول :

« ألا يا إخوتي بيهكشو ! هناك إنسان شرهان ، يتمتّع في الدنيا بشراهة ، إنه يبعث بعد الموت حيوانًا له طعام من العشب ، كالبقر ، والحمار ، والغنم . . .

والإنسان الشرير يبعث حيوانًا له طعام من البراز ، كالخنزير ، والكلب ، أو حيوانًا يعيش ويموت في الظلام كدودة الأرض ، أو حيوانًا يعيش ويموت في الماء ، كالسمك ، أو حيوانًا يعيش ويموت في الأقذار ، كالديدان »[٣] .

« إن الروح التي تتقمّص في أجسام الحيوانات هي من أنواع الروح السافلة الدنيئة ، لأن الإنسان إذا كثر ذنوبه فإن روحه انحطّت وذلّت إلى درجة الحيوان ، فإذا مات يبعث حيوانًا »[٤] .

وعلى هذا فإن العقاب والثواب عند بوذا ، ليسا جنة ، ولا ناراً ، وإنما هما في الجسد الذي تنتقل إليه الروح بعد مفارقتها الجسد الذي كانت تلبسه ، فإن كانت أعمالها رديئة في الجسد الذي فارقته ، لبست جسداً لحيوان خسيس ، وإذا

---

(١) المصدر السابق (٥٠١ـ٥٠٢) .
(٢) المصدر السابق (٤٨٥) .
(٣) المصدر السابق (٤٩١ـ٤٩٢) .
(٤) المصدر السابق (٤٦٣) .

تمّ عقابها بقدر جرمها طهرت ، وانتقلت من جسم ذلك الحيوان إلىٰ حيوان أرقىٰ، وهكذا تتقلّب في دورات لا تنتهي ، متىٰ بلي جسد لبست جسداً .

إن هذه الأفكار الخرافية عند بوذا هي التي جعلته ينظر إلىٰ الحياة نظرة شؤم، وأنها سجن عوقب الإنسان والحيوان به ، وأدّته هذه النظرة الفاسدة إلىٰ القول بتحريم إيذاء الحيوانات بجميع أنواعها وسيأتي مزيد هذا الكلام قريبًا إن شاء الله .

د ـ تذكّر بوذا دورات حياته السابقة :

من المزاعم الباطلة التي يحتجّ بها البوذيون علىٰ صحة عقيدة التناسخ ما ورد في أسفارهم « تري بيتاكا » من تذكّر بوذا دورات حياته الماضية ، وأنه كان يتقمّص روحه أجسامًا عديدة في تلك الدورات حتي في دورته الأخيرة ، حيث تخلّص من التناسخ ودخل « نرفانا » .

رُوي أن بوذا قصّ علىٰ أتباعه أنه رأىٰ عند حصوله علىٰ المعرفة ـ كما يزعم ـ سلسلة طويلة من ولادته ووفاته ، وأنه كان حيوانًا علىٰ مختلف الأنواع والأشكال، كما كان إنسانًا علىٰ مختلف الحالات ، دنيئة وسنيّة ، رذيلة وفضيلة، حتىٰ انتهت ولادته الأخيرة في جسم الأمير « سيدهاتا » ، ثم يقول :

« إنني تجوّلت في حياة عديدة ، وإن تكرار الحياة ألم » [١] وقد ادّعىٰ بوذا أنه ما تمكّن من تذكّر الحياة السابقة إلا بعلمه الحادّ الكاشف الذي حصل عليه ، وسمّاه « يانا » (Yana) ، وبمجاهدته الروحية الشاقّة .

ويقول : « فمن مارس هذه المجاهدة الروحية حصل علىٰ العلم والمعرفة»[٢] ومن هذا الادّعاء الخرافي جاء بعد بوذا كثير ممّن ادّعىٰ تذكّر الحياة السابقة من البوذيين وغيرهم .

---

(١) من كتاب « تري بيتاكا » (سوتان) (٢٩٦) .
(٢) المصدر السابق .

فمن هؤلاء المدّعين البوذيين صاحب الكتاب « كيف يبعث الموتیٰ ؟ »[١] حيث ادّعیٰ في هذا الكتاب ، أنه تمكّن من تذكّر الحياة الماضية ، وأنه سبق له عشر دورات من الحياة ، غير التي يحيا بها الآن ، وتحدث عن المجاهدة الروحية التي توصله إلیٰ هذا التذكّر ، ثم أورد ما ثبت لديه من حكايات المدّعين الآخرين في الهند ، وسيلان ، واستراليا ، وفي أوربا ، والولايات المتحدة[٢] وكان معظمهم من الصبيان .

يقول في إحدیٰ الحكايات :

إن في سيلان طفلة في الثانية والنصف من عمرها ، تؤكّد أنها عاشت قبل ذلك في مدينة تبعد مئات الأميال عن بلدتها الحالية ، وقد أعطت اسمها السابق ، وصفات حياتها الماضية ، وتحقق والدها من أن روحها كانت تحيا من قبل جسد فتاة اسمها « بيبا » (Beba) مات عام (١٩٣٩م) ، أي قبل ولادة ابنته بتسعة أعوام ، وقد تعرفت علیٰ جميع أفراد أسرتها السابقة ، وقدّمت الدليل علیٰ صدقها ، والغريب أنها كانت تتحدّث بلغة لم تتعلّمها بطريقة عادية ، ولم تكن معروفة لأي فرد من أفراد أسرته ، ولكنها نفس لغة الشخصية السابقة التي تدّعي أنها كانت تحيا في جسدها .

نقول : إن مثل هذه الحكاية الغريبة ، علیٰ فرض صحّتها ، لا تتجاوز عن

---

(١) صفحة (٢٤ ـ ٣٠) والمؤلف هو الراهب بون مي ميتاكول (Bonmi Matakol) من كبار الرهبان في تايلاند له مؤلفات في الرياضة الروحية ومازال حيًا إلیٰ الآن .

(٢) انظر بالعربية أبحاث الدكتور ستيفنسون (D . r Stevenson) في مجال تذكّر الحياة السابقة في كتاب « العودة للتجسّد في المفهوم العلمي الحديث » لعالم نفساني عبد العزيز جاد وصفحة (١٨٥ ـ ٢٠٨) والجدير بالذكر ، أن هذا المجال له أشياع كثيرة ، من البحاثين الغربيين في أوربا ، وأمريكا ، حيث يقومون بدراسته دراسة واسعة ، وألفوا لنشره وتأييده عدة مؤلفات ، منها (Twenty cases suggestive of rein carnation by D . r Stewenson) .

« عشرون حالة توحي بالتجسد » للدكتور ستيفنسون » ولاشك أن طغيان الفكر المادي ، وشقاء الإنسان بسبب بعده عن الإيمان ، هو السبب في ظهور مثل هذه المبادئ الروحانية الضالة التي يعتنقها الكثيرون من الأوربيين وغيرهم ولا يعرفون حقيقتها .

أنها خيالات ، وتلاعب الشياطين والجنّ بعقول البشر وعواطفهم ، إذ لو كانت هذه هي الحقيقة لكان للجميع أن يتذكّروا حياتهم ، لا واحداً ، أو بعض الأشخاص من الناس ، ولأن الله سبحانه وتعالىٰ يقول في كتابه العزيز :

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ [1] .

أي ليست هناك علوم لدىٰ الشخص سابقة علىٰ ميلاده ، فهو يولد خلواً من أي لون من ألوان المعرفة ، وأي نوع من تجارب الحياة الدنيا ، فليست هناك إذن دورات حياة للروح سابقة ، وقد شاهدت كثيراً من هؤلاء المدّعين في تايلاند ، وأكثرهم من الرهبان ، والذي لاحظته أنهم ما يدعون ذلك إلا لكسب الشهرة والصيت بين الناس ، ومحاولة إيهامهم ، والتأثير فيهم ، لكي يأتوا إليهم بالأموال والمنافع المادية .

٧ ـ تفنيد عقيدة « تناسخ الأرواح » :

تعتبر عقيدة « تناسخ الأرواح » عقيدة خطيرة تمسّ عقيدة المسلمين وتوصل صاحبها إلىٰ الكفر والإلحاد .

ولتفنيد هذه العقيدة أقول وبالله التوفيق :

أولاً : إن عقيدة التناسخ عقيدة باطلة لإنكارها اليوم الآخر ، وما يترتب عليه من البعث الشخصي ، والحساب ، والجنة ، والنار ، علىٰ الصورة المعروفة في الديانات السماوية ، فالديانات السماوية أوجبت علىٰ معتنقيها الإيمان باليوم الآخر ، حتىٰ يطمئنّ المؤمن إلىٰ أن هناك يوماً للحساب علىٰ أعماله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشرّ ، وأن هناك قصاصاً ، النفس الشريرة تلقىٰ العقوبة ، والنفس المطمئنة ترجع إلىٰ ربها راضية مرضية . . ولكن لا وجود ليوم الحساب في البوذية ، ولا في غيرها من ديانات الهند القديمة ، فالعقاب والثواب عند هذه

---

(١) النحل (٧٨) .

الديانات ليسا جنة ولا ناراً ، كما ذكرناه ، وإنما هما في الجسد الذي تنتقل إليه الروح بعد مفارقتها الجسد الذي كانت تلبسه ، وقد يكون الجسد الذي تنتقل إليه الروح كلبًا ، أو خنزيراً ، أو حشرة من الحشرات ، أو غير ذلك من الحيوانات ، فتصبح روح الإنسان روحًا للحيوان .

وهذا تصور باطل للأمور الآتية :

١ ـ أثبتت الدراسات الروحية الحديثة التي يؤمن البوذية وأمثالهم بصدقها استحالة رجعة الروح لغير أجسامها الأولى ، وتقول هذه الدراسات أن الروح تنشأ في البداية مع نشأة الجسد المادي الأرضي عند تكوينه الجنيني ، وتتشابك خلايا الجسدين ـ أي الروح والجسد ـ الواحدة بمثيلتها ، وينموان معًا خليّة خليّة ، نمواً توأميًا ، يترتّب عليه تماثل الجسدين ، وتطابقهما تطابقًا كاملاً ، في أبعادهما طولاً ، وعرضًا ، وعمقًا ، فإذا انفصلت الروح عن الجسد الذي نشأت معه وتريد أن تحلّ في جسد أرضي آخر ، فإنها لا تتمكّن من ذلك ، إلا إذا تطابق معها الجسد الجديد طولاً ، وعرضًا ، وعمقًا ، وهذا لا يتحقق إلا إذا كان هذا الجسد الجديد هو جسدها التوءمي ، والمفروض في نظرية التناسخ أن الروح تحلّ في أجنّة مختلفة النوع والحجم ، وهو ما لا يتّفق مع حقائق التكوين ، ويؤخذ من ذلك أن كلّ كائن حيّ مستقلّ عن غيره ، بتكوينه المادي والروحي[1] .

هذه الدراسات الروحية لم أقصد من إيرادها هنا إلا للرد على البوذيين على أساس أنهم يؤمنون بها أو بمثلها ، لأن هذه الدراسات ـ في الحقيقة ـ ما هي إلا مزاعم باطلة تلبس ثوب العلم وتتزيا بزي الحقيقة وهي ليست من ذلك في شيء ، وموقف القرآن الكريم صريح فيما يتعلق بأمر الروح يقول اللّه سبحانه : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء : ٨٥] .

٢ ـ إن فكرة التناسخ تقوم على قياس زمني خاطئ ، لأنها تقول إن الفرصة

---

(١) « تناسخ الأرواح » لمصطفى الكيك (٥٨) بالعربية .

التي تعطىٰ للإنسان في حياته الأولىٰ فرصة ضيّقة جدًا ، إذا قسناها بالزمن غير النهائي التي ستعيش فيها بعد ذلك . من أجل ذلك ، فلابد من إطالة هذه الفرصة للروح في دورات تناسخية ، وفي فترات متعاقبة ، لكي تكون متناسبة مع الزمن غير النهائي التي ستعيش فيها الروح بعد مفارقتها جسدها الأول(١) .

إن هذه الفكرة قائمة علىٰ وهم خاطئ ، إذ مهما أطلت في المدة السابقة علىٰ فناء الروح فناءها الأخير ، ومهما تراكمت في ذلك السنون وتعاقب الأدوار ، فإن هذا كله لن يكون شيئًا بالقياس إلىٰ الأبدية التي تكون فيها الروح بعد الموت .

إذن أليس من الأولىٰ أن نجعل لتلك الروح حياة واحدة من أن نجعل لها حياة عديدة متعاقبة ، ودورات تناسخية تقاسي في كل منها الأهوال والآلام علىٰ حدّ زعمهم ؟!

٣ ـ مما يؤخذ علىٰ عقيدة « تناسخ الأرواح » أن الإنسان لم يتذكّر شيئًا من أحداث دورات حياته السابقة ، أي أن هناك انقطاعًا تامًا بين الدورتين للروح ، ومعنىٰ ذلك أن الروح تعاقب علىٰ ذنب لا تعرف سببه ولا تذكره ، وقد علّل بعض العلماء في البوذية هذه السلبية بأن الروح بعدما فارقت جسدها الميت ، لا تزال في عالم الروح ، ولم تبعث إلا بعد فترة طويلة ، فالروح تنسىٰ من خلال هذه الفترة حصيلتها من الخبرات والتجارب السابقة ، أما بعض الناس الذين تمكّنوا من تذكّر الحياة السابقة ، فإن روحهم بعد ما خرجت من جسدهم الأول لم تمكث فترة طويلة في عالم الروح ، وإنما تتناسخ مباشرة في جسد جديد ، فالروح في هذه الحالة تستطيع أن تتذكّر خبراتها ومعلوماتها في الجسد السابق(٢) .

نقول : إن هذا التعليل فاسد ، لأن الروح إذا كانت تنسىٰ ما ارتكبته في حياتها السابقة ، فما فائدة الحياة الجديدة التي لا تعرف سببها ؟!

---

(١) « قانون الكارما » (٨) و« المبادئ الهامة للبوذية » (٥١٢ ـ ٥١٣) .

(٢) « المبادئ الهامة للبوذية » (٥١٧) .

إنها تعاقب ، وتثاب ، ولم تعرف سبب العقاب ، وسبب المثوبة ، فما أثر مثوبة أو عقوبة لا يتذكّر المرء سببها ؟ !

وطالما أن الإنسان لا يتذكّر شيئًا من أحداث مزعومة لحياة سابقة ، فهذا دليل على أن الروح لم تتناسخ ، ولم تقع لها بالتالي دورة حياة سابقة .

أما ادّعاء بعض الناس تذكر الحياة السابقة فهو ادّعاء كاذب وباطل ، يراد من ورائه الاحتيال ، والخداع ، ومحاولة إيهام الناس ، والتأثير فيهم ، وكسب أموالهم بالباطل ، كما أسفلناه .

٤ ـ إن عقيدة التناسخ تعارض المسئولية الفردية التي تناط بكل إنسان بحسب عمله في الدنيا ، فكيف بالروح التي تتداولها أجسام كثيرة ؟

كيف يمكن تحديد جزاء كل إنسان منهم ؟ فإذا كانت الأرواح تنتقل إلى حيوان أيضًا ، فإن الأمر يصبح أكثر اضطرابًا .

والتناسخ ـ كما قاله الدكتور أحمد شلبي ـ يعارض كل الدراسات العلمية وعلم الأجناس ، حيث تقرّر أن الولد بعض أبويه واستمرار لهما .

وهذا موافق لقول الرسول الكريم ﷺ حيث قال :

« إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه ، وإن ولده من كسبه »[١] .

فالولد غالبًا يماثل أبويه جسمًا ويماثلهما روحًا ومواهب ، فهو يرث عنهما لون الجسم ، والعيون ، والشعر ، ويرث القامة ، والصحة والمرض ، ويرث المواهب والأخلاق غالبًا .

ولذلك فالتناسخ شذوذ عن الفكر العلمي والطبيعي .

وإذا كان التناسخ للجزاء فماذا يقولون عن الطفل الذي يموت مباشرة عقب الولادة ؟ إن الروح به لم تستمتع ولم تعاقب ، فليست ولادته إذًا وبعث روح شخص آخر به إلا عبثًا .

والتناسخ لا يفسر لنا الزيادة المطردة في التعداد ، والهبوط الواسع أحيانًا

(١) أخرجه أبو داود (٢/ ١٠٨) والنسائي (٢/ ٢١١) وأحمد (٦/ ٤١) والترمذي (٢/ ٢٨٧) وحسنه .

في أثناء الحروب أو الأوبئة والكوارث العامة التي تحل بالبلدان ، فتحصد أرواح سكانها بالآلاف والملايين .

من أين الأرواح الجديدة ؟ وإلىٰ أين تذهب أرواح القتلىٰ في الحروب ، وكذلك الأرواح التي أزهقت في الأوبئة والكوارث حيث يكون المواليد أقل من الموتىٰ ؟

لم نعثر عند أصحاب التناسخ علىٰ إجابة لهذه الأسئلة[1] .

ثانيًا : إن هناك تناقضين في عقيدة التناسخ عند الهندوس :

أحدهما : إن انبثاق الأرواح من ذات الإله وجوهره علىٰ الصورة التي ذكرناها لدىٰ الهندوس يتنافىٰ مع فكرة التناسخ التي تهدف إلىٰ تطهيرها وتصفيتها من أدران الجسد ، لأن هذه الأرواح بحكم طبيعتها الإلهية وكيانها المقدس بعيدة عن الشرور الدنيوية والأهواء المادية ، وأقوىٰ من أن تضعف عن مقاومة مطالب الجسد الأرضية ، فإذا سلمنا جدلاً بأنها خضعت لميول الجسد ونزعاته دون أن تستطيع لهذه الميول دفعًا كانت إذن مسئولة عن هذا الضعف الذي أدىٰ إلىٰ الانحراف ، وهي بحكم إلهيتها منزهة عن المسئولية ، فالله يحاسب البشر ، ولا يحاسب نفسه ، وليس من المعقول أن يعاقب الله هذه الأرواح وهي جزء منه وإذن ينتفي تناسخها[2] .

والثاني : أن التناسخ يتناقض مع نظام الطبقات الهندوسية ، لأن نظام الطبقات يحافظ علىٰ العرق ، والدم ، وسيادة الجنس ، ويربطه نصوص مقدسة لا يصح إزالتها ولا تغييرها ، أما التناسخ فينقل الروح من طبقة إلىٰ طبقة ، بل من إنسان إلىٰ حيوان أحيانًا ، ولذلك اضطر بعضهم إلىٰ القول بأن التناسخ يتم في حدود

---

(١) انظر « أديان الهند الكبرىٰ » (١٩٧) .
(٢) انظر « تناسخ الأرواح » لمصطفىٰ الكيك (١٣٤) .

الصفة التي عليها الإنسان ، أي أن الأرواح إنما تنتقل إلىٰ نوع أجسامها التي فارقت ، فأرواح البراهمة تنتقل إلىٰ براهمة ، وأرواح العبيد تنتقل إلىٰ عبيد ، وهكذا ، وهذا القول لا يمنع الاعتراض لأن التناسخ علىٰ هذا المفهوم يفقد قيمته ، فالمقصود من التناسخ هو تحقيق الجزاء علىٰ ما ارتكبه الروح في الحياة السابقة ، ولا يتم ذلك ما دام العبد سيبقىٰ عبدًا والسيد سيبقىٰ سيدًا[١] .

ثالثًا : من النصوص البوذية التي أوردتها سابقًا ما يدل أن السبب للتناسخ هو رغبة الإنسان في الحياة " Desire " إن هذه الرغبة هي الجوهر الأساسي الذي يدفع صاحبها إلىٰ العودة إلىٰ الحياة .

يقول « يوجي راما شاراكا » :

« ليس أحد من الإنسان مجبورًا علىٰ البعث الجديد ، وإنما يبعث لرغبته فيه »[٢] .

ونقول لهم : إذا كان الأمر كما تزعمون فكيف تفسرون الإنسان الذي بعث فقيرًا ودنيئًا ، بل يبعث حيوانًا كما تزعمون ؟! هل يوجد أحد من الإنسان يرغب في هذه البعوث الذليلة ؟!

إن هذا تناقض لا يقبله العقل إطلاقًا .

رابعًا : إن نظرية التناسخ فضلاً عما ذكرته قد ترتبت علىٰ الاعتقاد بها كثير من المفاسد منها :

١ ـ القول بتحريم قتل الحيوانات وإيذائها ، ولو كانا لقصد صحيح ، كالأكل أو دفع الضرر ، وذلك لاعتبارها إخوة وأصدقاء للإنسان في هذه الدورات التناسخية ، فالأرواح التي تتلبّس بالحيوانات هي في زعم بوذا أرواح

---

(١) انظر « أديان الهند الكبرىٰ » (١٩٦) .

(٢) « الحياة بعد الموت » (٢٥٣) .

الإنسان ، لأنها بما ارتكبته في الحياة السابقة صارت حيوانًا في هذ الحياة[١] .

وهو قول باطل إذ لو كانت روح الحيوانات متناسخة عن إنسان لكان الحيوان قادراً على تعديل أنماط حياته كما يفعل الإنسان ، ولكان قادراً أيضًا على إنشاء حضارة ، وعلى ابتكار ما يكفل له تحسين حياته ورفع مستواه كما فعل الإنسان .

وقد تقدم ردنا على هذا القول عند حديثنا عن الأخلاق البوذية .

٢ ـ عادة الهندوس والبوذيين في حرق جثمان الموتى لاعتقادهم أن الروح تتقمص جسمًا جديداً أفضل من جسمه الأول ، فما الموت عندهم إلا أن تستبدل الروح ثوبها وتلبس ثوبًا جديداً[٢] .

لذلك لا يحترمون الميت كما نحترمه ـ نحن المسلمين ـ بل يعاملونه معاملة سيئة ، فيها مهانة وقسوة[٣] تتنافى مع كرامة الإنسان التي منحها الله سبحانه وتعالى إياه إذ يقول : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾[٤] .

وقد كانت الطريقة المألوفة في أيام بوذا هي تعريض الجثة لسباع الطير ، إلا إذا كان الميت من الأعلام البارزين ، فعندئذ تحرق جثته بعد موته على كومة من الحطب ، ثم يدفن رماده في ضريح يحفظ ذكراه ، لكن هذه الطريقة في إحراق

---

(١) « الأخلاق البوذية الخمسة » (٧ ، ١٦ ، ١٧) .

(٢) « قانون الكارما » (٩٢) .

(٣) للبوذيين احتفال كبير لإحراق جثة الميت ، وقد شاهدت كثيراً من هذا الاحتفال في تايلاند ، ورأيت ما تقشعر الجلود وتشمئز منه النفوس من إحراقهم جثة الميت علانية أمام الناس ، وغالبًا يكون الاحتفال بعد أسبوع من الموت ، وقد يكون بعد الموت مباشرة ، وفي هذه الحالة يكون الإحراق أشد بشاعة ومهانة ، ومن الجدير بالذكر أن كثيراً من البوذيين في تايلاند أسلموا حينما رأوا ما في الإسلام من تكريمه للميت ورأوا فيه من آداب الجنائز وأحكامها ما لا يرون إطلاقًا في ديانتهم الباطلة .

(٤) الإسراء (٧٠) .

الجثة عمت الناس جميعًا فيما بعد[١] .

٣ ـ من مفاسد الاعتقاد بالتناسخ أنه تفكيك للأسرة وتصوير لها على أنها أشتات من الناس لا روابط بينها ، فكل فرد من أفرادها منحدر من فرد لا نعرفه ، وعلى ما في هذا من الارتباك الاجتماعي ، فهو أيضًا يخالف الملاحظ غالبًا من تقارب أفراد الأسرة الواحدة ممّا يدل على صلاتها الأسريّة لا على أشتات كما يرى مبدأ التناسخ[٢] .

٤ ـ ومنها أيضًا أن عقيدة التناسخ تزيد المنحرف انحرافًا والمفسد فسادًا ، لأنها تضع أمام الناس فرصًا عديدة للإصلاح في دورات حياة مستقبلة لا عدد لها ، وترتيبًا على ذلك لا يرى الفرد بأسًا عليه من الانطلاق مع رغبات نفسه فيحققها ، سواء كانت هذه الرغبات متفقة أم كانت غير متفقة مع المبادئ والقيم الأخلاقية في المجتمع ، على أن يطهّر نفسه بعد ذلك في أية حياة تالية وأية دورة جديدة ، ويرى أن لن يخسر بذلك كثيراً سوى التأخر دورة أو دورتين من دورات حياته الطويلة ، وربما الطويلة جدًا عن الوصول إلى نرفانا أو الاتحاد بالروح الأعظم حسب زعمهم .

إن عقيدة التناسخ على هذه الصورة لا تمنع فسادًا ؛ بل تزيد المنحرف انحرافًا ، وتوجد بذلك ثغرة واسعة في التناسخ لا سبيل إلى إنكارها .

ومن أجل ذلك فإنني وجدت كثيراً من العقول البوذية المتحررة[٣] حاولت أن تنكر عقيدة التناسخ على المفهوم المعروف في البوذية . وفسرت الولادة الجديدة في التناسخ بولادة الأنانية والأثرة ، أي كلما تولدت الرغبة في الحياة

(١) « تاريخ الديانة البوذية » (٣١٠) وأيضًا « قصة الحضارة » (٣/ ١٩٣) .

(٢) « أديان الهند الكبرى » (١٩٧) .

(٣) من أصحاب هذه العقول القديس البوذي « بوذتات بيهكشو » في كتابه « الفراغ » و« التفسير الجديد لعقيدة التناسخ » وأيضًا « كيفية إعدام الألم » كلها باللغة التايلاندية .

تولدت الأثرة والأنانية ، لا الولادة الحقيقية من بطن الأم[1] .

ونرىٰ أن هذا التفسير الجديد للتناسخ يتنافىٰ مع كثير من النصوص البوذية التي أوردناها من قبل ، وما يقصد أصحاب هذا التفسير الجديد إلا التحرر من تعاليم الهندوسية ومن التأثر بها في هذه العقيدة الباطلة .

٨ ـ موقف الإسلام من عقيدة التناسخ :

رفض الإسلام فكرة تناسخ الأرواح ، وذهب إلىٰ أن الإنسان يحيا حياة أرضية واحدة ، ثم يكون بعدها البعث والحساب الذي يترتب عليه دخول الشخص الجنة أو النار ، علىٰ حسب عمله في الدنيا ، فلا تكرر حياة الإنسان الدنيوية علىٰ أية صورة من صور التجسد .

إن الإسلام لا يقر بأن الأرواح تستأنف عملها بعد الموت ، لأن الدنيا في نظر الإسلام هي دار العمل ، والآخرة هي دار الجزاء .

وقد أشار القرآن الكريم في كثير من الآيات إلىٰ حياة دنيوية واحدة يعقبها الحساب ، ولعل أوضح دليل أذكره هنا قوله تعالىٰ :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[2] .

وقوله تعالىٰ :

﴿ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴾[3] .

وكذلك قوله تعالىٰ :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ

---

(١) « التفسير الجديد لعقيدة التناسخ » (١٨ ، ١٩) .

(٢) المؤمنون (٩٩ ـ ١٠٠) .

(٣) الشورىٰ (٤٤) .

لَكَاذِبُونَ ﴾[١] .

ففي هذه الآيات دليل واضح على أن الإنسان يحيا حياة أرضية واحدة ، وأنه لا يستطيع الرجعة إليها مرة أخرى بعد موته ، لأن الله سبحانه وتعالى ردّ في هذه الآيات على هؤلاء الكافرين الذين يتمنون العودة إلى الدنيا عند الاحتضار ، وحين يعرضون على العذاب ، فيسألون الرجعة إليها ، ليصلحوا ما فات عنهم من الإيمان بالله والعمل الصالح ، فردّ عليهم بأنهم لا سبيل لهم إلى العودة إليها من جديد ، وإنهم كاذبون في دعواهم ، لأنهم إن عادوا إليها ـ على سبيل الفرض ـ فلن يؤمنوا بالله شيئًا[٢] .

ومن أمثال هذه الآيات الكريمة أيضًا قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾[٣] .

فهاتان الآيتان أوضح دلالة على أن الموتى ليست لهم رجعة إلى الحياة الدنيا ، على أية صورة من صور التجسد ، وأن جميع الأمم الماضية والآتية ستحضر للحساب يوم القيامة بين يدي الله ، فيجازيهم بأعمالهم كلها خيرها وشرها .

ومن عقيدة الإسلام الإيمان ببقاء الأرواح بعد الموت ، وأنها في مستقرها ، غير أن العلماء اختلفوا فيه اختلافًا واسعًا ، وخلاصة ما يميل إليه ابن القيم الجوزية ـ رحمه الله ـ في كتابه « الروح »[٤] أن الأرواح متفاوتة في مستقرها ، بحسب منزلتها ودرجتها ، فهي إما في نعيم أو في جحيم إلى يوم قيام الساعة ، فإما إلى جنة وإما إلى النار .

---

(١) الأنعام (٢٧ ، ٢٨) .
(٢) انظر « تفسير ابن كثير » (٥/ ٤٨٧) ط الشعب ، و« في ظلال القرآن » (٢/ ١٠٦٨) .
(٣) يس (٣١ ، ٣٢) .
(٤) (ص١٥٧ ـ ١٥٨) .

ولا شك أن ما ذهب إليه الإسلام من حياة دنيوية واحدة يعقبها البعث والحساب في اليوم الآخر هو أظهر منطق للمسئولية الفردية والالتزام الأخلاقي، وأبلغ دافع للإنسان إلى الخير والإصلاح في حياته، وهذا يشبه الطالب الذي يجتهد في الدراسة والتحصيل حينما يعتقد أن الامتحان أمامه مرة واحدة لا ثاني له، بخلاف ما ذهبت إليه البوذية وأمثالها من إتاحة الفرص الكثيرة للإنسان في الإصلاح، وفتح أبواب الركود والتكاسل له، الأمر الذي يترتب عليه زيادة المنحرف انحرافه والمفسد فساده، وهذا يشبه الطالب الذي يهمل في التحصيل والدراسة اعتماداً على امتحانات كثيرة أمامه .

٩ ـ عقيدة التناسخ عند الفرق الضالة في الإسلام :

تسرّبت عقيدة « تناسخ الأرواح » بدرجات متفاوتة ، وبمفاهيم مختلفة ، إلى كثير من الفرق الضالة المتوسمة باسم الإسلام[١] .

وقد أحصاها الشيخ عبد القاهر البغدادي في كتابه « الفرق بين الفرق »[٢] وجمعها في صنفين ، أحدهما من جملة القدرية المعتزلة عن الحق ، والآخر من جملة الرافضة الغالية .

أما أهل التناسخ من القدرية ، فجماعة منهم أحمد بن حايط[٣] ولعله أول

---

(١) وقد تأثر بها قبل الإسلام كثير من الفرق الوثنية في اليونان وفارس وغيرهما ، غير أن مؤرخي الفرق الإسلامية لم يحصروا الجهة التي اشتقت منها الفرق فكرة التناسخ بجهة واحدة لأن المعروف أن اللاحق يأخذ من السابق كما هو شأن كل عقيدة وضعية التي تقوم على الأهواء والظنون ، وقد تأثر بها أيضاً في العصر الحديث كثير من الباحثين الغربيين في أوربا والولايات المتحدة ، ففي الولايات المتحدة قد أعدّ لها مشروع بحث جادّ في ست جامعات رئيسة ، اعتبرتها موضوعاً من موضوعات الدراسة الجامعية التي تختار كحقل اختصاص ، وخصصت له حدّاً أعلى من ساعات التدريس .

انظر : « العودة للتجسد في المفهوم العلمي الحديث » صحفة (١٨) .

(٢) انظر بالتفصيل من صفحة (٢٥٣ ـ ٢٥٨) .

وانظر أيضاً « الفصل في الملل والأهواء والنحل » لابن حزم (١/ ٩٠ ـ ٩٤) ، وأيضاً « الملل والنحل» للشهرستاني (٢/ ٩١ ـ ٩٢) .

(٣) متكلم يسلك في زمرة المعتزلة ، كان تلميذ النظام وزاد عليه في ضلالته في التناسخ =

من نادىٰ بهذه العقيدة بين المسلمين ، كما جاء في مراجع كثيرة ، فكان يقول بمبدأ « الكرور » أي تناسخ الأرواح التي ابتدعتها النفس الكلية في صور تزداد حسنًا أو قبحًا بمقدار الفضائل التي اكتسبتها في تجسدها الأول ، وكان يزعم أن الحيوان الذي من الروح لا يزال في هذه الدنيا يتكرر في قوالب وصور مختلفة ما دامت طاعاته مشوبة بذنوبة ، وعلىٰ قدر طاعته وذنوبه يكون منازل قوالبه في الإنسانية والبهيمية[1] .

إن هذا المفهوم من التناسخ ، هو ما ذهبت إليه الهندوسية والبوذية وغيرها من ديانات الهند الوثنية .

أما أهل التناسخ من الروافض الحلولية ، فكلها قالت بالحلول ، وتناسخ روح الإله دون أرواح الناس ، تعالىٰ الله عن ذلك علوًا كبيرًا .

يقول الشيخ عبد القاهر البغدادي :

« إن أهل التناسخ من الروافض الحلولية كلها قالت بتناسخ روح الإله في الأئمة بزعمهم ، وأوّل من قال بهذه الضلالة السبابية[2] من الرافضة ، لدعواهم أن عليًا صار إلهًا حين حلّ روح الإله فيه وزعمت

= (توفي ٢٣٢هـ) ، ومن أتباعه أحمد بن أيوب بن يانوش ، وكان تلميذ أحمد بن حايط في التناسخ ، ومنهم أيضًا أبو مسلم الخراساني ، ومحمد بن زكريا الرازي الطبيب ، حيث صرح بذلك في كتابه في العلم الالهي .

انظر « الفرق بين الفرق » (٢٥٥) و« الفصل » لابن حزم (١/ ٩٠) و« الملل والنحل » للشهرستاني (١/ ٧٦) .

(١) « الفرق بين الفرق » (٢٥٧) .

(٢) السبابية أصحاب عبد الله بن سبأ الذي غلا في علي - رضي الله عنه - ، وزعم أنه كان نبيًا ، ثم غلا فيه حتىٰ زعم أنه إله ، فنفاه إلىٰ سباط المدائن ، وكان يهوديًا اعتنق الإسلام للنيل منه والكيد له ، وهو أول من أظهر القول بإمامة علي ، وأن فيه الجزء الإلهي ، ومنه انشعبت أصناف الغلاة ، وقد أظهر هذه البدعة في زمان علي - رضي الله عنه - ، فقال بعضهم لعلي « أنت الأمة » فأحرق علي قومًا منهم ، إن هذه الفرقة ليست من فرق أمة الإسلام ، لتسميتهم عليًا إلهًا . انظر : «الفرق بين الفرق» (١٥ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤) و« الملل والنحل » للشهرستاني (٢/ ١١) .

البيانية[١] منهم أن روح الإله دارت في الأنبياء ، ثم في الأئمة ، إلىٰ أن صارت في بيان بن سمعان ، وادعت الجناحية[٢] منهم مثل ذلك في عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر ، وكذلك دعوىٰ الخطابية[٢] في ابن الخطاب »[٣] .

وهناك فرق باطنية أخرىٰ كانت تؤمن بمذهب التناسخ علىٰ الاختلاف في مفهومه كالنصيرية ، والدروز[٤] في القديم ، وكالقاديانية (الأحمدية) في الحديث[٥] .

---

(١) البيانية هم أتباع بيان بن سمعان التميمي ، وهو من الغلاة القائلين بإلهية علي - رضي الله عنه - ، وذكر هؤلاء أن بيانًا قال لهم : إن روح الإله دارت في الأنبياء والأئمة حتىٰ انتهت إلىٰ علي ، ثم دارت إلىٰ محمد بن الحنفية ، ثم انتقلت إليه منه . انظر « الفرق بين الفرق » (٢٢٧) و« الملل والنحل » للشهرستاني (١/ ٢٠٣ - ٢٠٤) .

(٢) الجناحية هم أتباع عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، كانوا يدعون أن روح الإله دارت في علي وأولاده ، ثم صارت إلىٰ عبد الله بن معاوية .

والخطابية هم الذين يدعون حلول روح الإله في جعفر الصادق ، وبعده في أبي الخطاب الأسدي، هذه الفرق كلها كافرة بدعواها حلول روح الإله في زعيمها . انظر « الفرق بين الفرق » (٢٤١ ، ٢٤٢) .

(٣) « الفرق بين الفرق » (٢٥٥) .

(٤) النصيرية هي طائفة من طوائف الباطنية الغالية ، يقيم غالبيتها في سوريا ، وهم في الأصل ينتسبون إلىٰ رجل يقال له محمد بن نصير ، وهو فارسي الأصل ، تظاهر بالإسلام ، وكان من الملتفين حول الحسن العسكري الإمام الحادي عشر عند الإمامية الاثنىٰ عشرية ، وكان يزعم أنه هو باب المهدي المنتظر ، وقد أسس فرقة النصيرية مستمداً أصولها من السبئية وغيرها ، وزعم لهم أن إله السموات والأرض هو علي بن أبي طالب ، ومن عقيدتهم في التناسخ أن الأرواح الصالحة عندهم تحل في النجوم ، والشريرة تحل في أجسام الحيوانات النجسة في نظرهم ، كالخنزير والقرود . انظر « الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة » لعبد القادر شيبة الحمد ص(٨٦) و« تاريخ الفرق المعاصرة ومذاهبها » لجماعة من المؤلفين الأزهريين الطبعة الأولىٰ ص(٦٦) .

أما الدروز فهم ينسبون إلىٰ أحد الدعاة الباطنيين ، يقال له : درزي ، من أصل فارسي مجوسي ، واسمه محمد بن إسماعيل ، وكان أول من أعلن ألوهية الحاكم العبيدي ، وقد أعلن هذا المبدأ الهدام في مصر ، فأحدث ضجة بين الناس ، وأرادوا قتله ، فهرب من مصر ، ولجأ إلىٰ لبنان ، حيث أخذ ينشر هذا المذهب حتىٰ هلك (عام ٤١٠ هـ) . انظر « الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة » (٨٥) .

(٥) والقاديانية فرقة حديثة العهد ، تنتسب إلىٰ رجل يقال له غلام أحمد القادياني ، نسبة إلىٰ قاديان =إحدىٰ قرىٰ البنجاب الهندية ، ولد (عام ١٨٣٩ م) في أسرة عميلة للاستعمار الإنجليزي ، وقد =

كما ظهر مذهب التناسخ عند بعض فرق الشيعة[1] في صورة « الرجعة أي رجعة الأموات إلى الدنيا قبل يوم القيامة[2] ، وقد قال بعض الإمامية برجعة علي ابن أبي طالب[3] ، وقال بعضهم بعودة الإمام الثاني عشر وسموه « المهدي المنتظر »[4] ، غير أن الرجعة عندهم هي رجعة الشخص نفسه جسمًا وروحًا ، بخلاف التناسخ على المفهوم الذي ذكرته .

وقد احتجت هذه الفرق الضالة كلها بالآيات القرآنية لتأييد عقيدتهم في التناسخ ، والحلول ، والرجعة ، وحاولوا أن يتأولوها بأهوائهم ، تحللاً من قيود الدين ، إلا أنهم غير موفّقين في تحقيق أغراضهم ، سواء كان ذلك لتدعيم آرائهم الفاسدة ، أم كان للنيل من الدين الإسلامي الحنيف ، ويكفي من الردّ عليهم إجماع جميع أهل الإسلام على تكفير من قال بهذا القول ، والبراءة منه ، وأن المسلمين مجمعون على أن الجزاء لا يقع إلا بالجنة أو النار في المعاد ، وأن

=إحدى قرى البنجاب الهندية ، ولد (عام ١٨٣٩ م) في أسرة عميلة للاستعمار الإنجليزي ، وقد ادعى الرجل أنه هو المهدي ، ثم ادعى أنه نبي مرسل ، ودعا إلى إسقاط الجهاد في سبيل الله ، ووجوب الطاعة للسلطة الإنجليزية الحاكمة في البلاد ، ونقل الشيخ أبو الحسن الندوي عن كتب المرزا غلام أنه يعتقد أن أرواح الأنبياء كانت تتناسخ وتتقمص روح بعضهم وحقيقتهم جسد بعضهم ، وتظهر في مظهر الآخر . انظر « القادياني والقاديانية » دراسة وتحليل لأبي الحسن علي الندوي (٧٤ ، ٧٥) ، وأيضًا « العقيدة الإسلامية وأسسها » لعبد الرحمن حنبكة الميداني الطبعة الثالثة صفحة (٧١٤) .

(١) الشيعة طائفة معروفة توجد الآن في إيران والبلاد المجاورة لها ، وهم الذين شايعوا عليًا ـ رضي الله عنه ـ على الخصوص وفضّلوه على الخلفاء الراشدين قبله ـ رضي الله عنهم ـ ، وقالوا بإمامته وخلافته نصًا ووصاية ، إما جليًا وإما خفيًا ، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده وإن خرجت فبظلم يكون من غيره ، ولذلك كفّر بعضهم أبا بكر الصديق وعمر وعثمان ، وجميع الصحابة الذين رضوا بخلافة غير أهل البيت ، هذا وقد انقسمت الشيعة إلى فرق كثيرة كالسبئية ، والكسانية والزيدية ، والرافضة ، وغير ذلك . انظر « الملل والنحل » للشهرستاني (١/ ١٩٥) و«الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة » (١٤٦) .

(٢) انظر « الفرق بين الفرق » (٣٩) .

(٣) المصدر السابق (٢٢٤) .

(٤) المصدر السابق (٤٧) .

هذا يقدم بين يدي الله ورسوله فيما لم يأذن به الله[١] .

إن عقيدة التناسخ ، ومثله الحلول والرجعة ، من العناصر الوافدة التي دخلت إلى الفكر الإسلامي وحاولت أن تؤثر في المفاهيم الإسلامية القرآنية الأساسية ، والإسلام لا يقر بهذه العقيدة ، ولم يتشيّع لها ، لا من قريب ، أو من بعيد .

١٠ ـ خلاصة الكلام عن التطورات في مفهوم التناسخ :

قد تبين من خلال هذا البحث أن عقيدة « تناسخ الأرواح » قد تطوّر مفهومها عند الفرق المختلفة ، ويمكن أن ألخّص هذا التطور في النقاط الآتية :ـ

١ ـ مفهوم التناسخ لدى الهندوس ، وهو انتقال الأرواح من أجسام إلى أجسام أخرى ، سواء كانت إنسانًا أو حيوانًا ، وذلك لتطهر الروح من رغبات العالم المادي ، وتعود إلى مصدرها الأول والروح الأعظم « برماتما » على حد زعمهم .

وكان التناسخ في أول ما نشأ وسيلة لبقاء سيادة الآريين في البلاد ، وللحفاظ على أصالة أنسابهم ، وبناء على ذلك فقد تغيّر هذا المفهوم عند بعضهم ، حيث قالوا بأن التناسخ يتمّ في حدود الصفة التي عليها الإنسان ، أي انتقال الأرواح إلى نوع أجسادها ، فأرواح البراهمة تنتقل إلى البراهمة ، وأرواح العبيد تنتقل إلى عبيد[٢] .

٢ ـ ثم جاءت البوذية ، وكان مفهوم التناسخ عندها هو مفهومه عند الهندوس ، غير أن هذا المفهوم قد تطوّر بعد ذلك عند بعض علماء البوذية ،

---

(٢) وقد أفادني المشرف المطلع على الهندوس ، بأن بعض الهندوس في الآونة الأخيرة قد تراجعوا عن عقيدتهم في التناسخ ، واعترفوا بعقيدة المعاد واليوم الآخر ، وحاولوا إثباتها في كتبهم المقدسة « الفيدات » (Vedas) ، منهم الكاتب « دوركا شانكار شاطراتي » في مقاله في جريدة « كانتي » الهندية (عام ٨ يوليو ١٩٦٩ م) ص(١٣) .

حيث أوّلوه وفسّروه بأن المراد بالولادة الجديدة في عقيدة التناسخ هو ولادة الأثرة والأنانية ، وإثارتها في النفس ، فكلّما ارتبط الإنسان بالشهوات تكررت ولادة الأنانية في نفسه ، وليس المراد الولادة المعروفة من بطن الأم .

٣ ـ ثم تطور مفهوم التناسخ عند بعض الفرق الضالة المنتسبة للإسلام إلىٰ معنىٰ الحلول ، والرجعة ، وتناسخ روح الإله في الأئمة دون روح الناس ، كما أسلفنا ، تعالىٰ الله عن ذلك علواً كبيراً .

***

المبحث الرابع

« نرفانا » (Nirvana)

غلبت على الفلسفة البوذية بصفة خاصة ، وعلى غيرها من الفلسفات الهندية بصفة عامة ، نزعة التشاؤم بالحياة ، حيث تعتبرها مصدر الآلام والأحزان ، وأن تكرارها عقاب ومضاعفة في العذاب .

من أجل ذلك ، فقد وقف بوذا إزاء هذه القضية ، يريد أن يجد سبيلاً إلى الموت بلا رجعة ، أو الموت الأبدي ، يتخلّص به الإنسان من آلام الحياة ، وتكرارها ، ويصعد إلى السعادة العليا ، ففكّر بوذا في هذا طويلاً ، وتجرّب عدة تجارب ، ثم زعم أخيراً أنه اكتشف الموت الأبدي والسبيل إليه ، وهو ما يسميه بنرفانا ، ذلك الهدف الأسمى الذي لابد أن يسعى إليه كل بوذي .

١ ـ كلمة « نرفانا » :

إن كلمة « نرفانا » كلمة سنسكريتية ، ويقال أيضًا في البالية « نرفانا » أو «نيبانا» وهي مركبة من كلمتين « نر » (Nir) ومعناها الانتهاء أو الانعدام و« فانا» (Vana) أي الشهوة[1] وقيل : النبل ، والمراد به الشهوة ، لأنه يطعن الإنسان كما تطعنه الشهوة ، فمعنى « نرفانا » هو انتهاء الشهوة ، أو انعدامها ، وقيل : إن معناها الخمود " Extinction " أي خمود الشهوات[2] .

---

(١) إن الشهوة في اصطلاح البوذية تعني الكارثة أو الإثم (Evil) وهي على ثلاثة أقسام : الطمع ، والبغض ، والغواية ، ولكل قسم منها أقسام ثلاثة : الخشنة ، والمتوسطة ، والدقيقة ، ويطلقون على أصحاب هذه الشهوة الإنسان العادي " Ordinary person " أما المتخلّصون منها فيطلقون عليهم القديسين (Arhat) - من كتاب « مجموعة المصطلحات البوذية » صفحة (٣٧ ، ٣٨) .

(٢) « مجموعة المصطلحات البوذية » (٢٤٦) وأيضًا « الفلسفة الهندية » (٣١٨) .

٢ ـ معاني « نرفانا » :

إن كلمة « نرفانا » في اصطلاح البوذية ، لها عدة معان ، ذكرها علماء البوذية في كتبهم ، فقد ذكر القديس « بوذتات بيهكشو » (Buddhat Bhikshu) في كتابه « نرفانا » (Nirvana) [١] ثلاثة معان :

المعنى الأول : الخمود والبرودة .

ويفسّر القديس هذا المعنى فيقول :

« إن الحياة شيء حارّ فالعين ، والأذن ، والأنف ، واللسان ، والجسم وتماس هذه الأعضاء بالأشياء الخارجية من الصورة ، والصوت ، والرائحة والذوق ، واللمس ، كل هذه الإحساسات التي تتكوّن منها الحياة فيها حرارة ، حرارة من نار الرغبة[٢] ، ونار البغض والكراهية ، ونار الغواية ، ومن أجل هذا فإن « نرفانا » هي خمود الحياة ، وبرودتها بعد حرارتها » .

ومما روي عن بوذا في ذلك قوله : « الحياة ألم ، والألم كالنار التي تلتهب في الحطب ، أطفئوها ، وتخلّصوا منها ، اعدموا الألم ، فتكتسبوا الخلاص . . ليس هناك نار تشبه النفس ، وليس هناك مرض يشبه البغض ، وعلى هذا فليس هناك أسمى من سعادة الطمأنينة ، وذلك عن طريق الوصول إلى « نرفانا »[٣] .

والمعنى الثاني : التجرد من أغلال الحياة وقيودها .

والمراد بالأغلال والقيود هو الشهوات النفسية ، كالطمع ، والحبّ ، والكراهية ، والحسد ، والحقد ، والخوف ، وما شابه ذلك ، إن هذه الشهوات تعتبر قيود النفس وروابطها ، فإذا تجرّدت النفس عن هذه القيود والروابط ،

---

(١) من صفحة (٥ ـ ٧) .

(٢) « الرغبة » " Desire " في اصطلاح البوذية تعني الإحساس بالحب والفرح بالصورة ، والذوق ، والرائحة ، والصوت ، واللمس ، « مجموعة المصطلحات البوذية » (٥٢٤) .

(٣) « تري بيتاكا » (أبيدارما) (٦٩٣) .

فإنها مستعدة للوصول إلىٰ « نرفانا » .

والمعنىٰ الثالث : التجرد من الطعنات ومن فكرة « الذات » .

والمراد بالطعنات أي طعنات الحياة التي تسبّبت من نبال الشهوات والرغبات ، وهذا المعنىٰ موافق لمعنىٰ « فانا » الذي هو النبل .

والمراد بفكرة الذات أي الاعتماد عليها ، أو الأثرة ، والأنانية .

إن هذه المعاني الثلاثة لا تفيد إلا مغزىً واحداً ، وهو التخلّص ، أو التحرّر من جميع الشهوات والآلام ، و« نرفانا » علىٰ هذا المفهوم هي الحالة التي خمدت فيها جميع الشهوات والرغبات خموداً نهائيًا ، فالإنسان في هذه الحالة يفقد وعيه وشعوره بالحياة كلية ، لأن نفسه تتخلّص في أثنائها من الإحساس بالألم الذي يسبّبه ارتباط النفس بالأجسام ، إنها حالة التشبّع الروحي بالانصراف عن الدنيا المادية كلها[1] .

ومن معاني « نرفانا » ما أوضح صاحب كتاب « تاريخ الديانة البوذية »[2] حيث يقول : « إن « نرفانا » شيء وراء الحسّ « ميتا فيزيقي » (Mytaphysical) فلا يمكن تعريفها تعريفًا مفهومًا بلغة الإنسان .

ثم ذكر عدة معان للنرفانا منها : ـ

أ ـ هي انتهاء كل شيء ، انتهاء الرغبات والشهوات ، وانتهاء « كارما » ، وانتهاء دورات التناسخية .

ب ـ هي العالم الآخر ، غير عالم التناسخ الذي تتجوّل فيه الأرواح الدنيئة .

جـ ـ هي الفناء التام للروح والجسد معًا .

د ـ هي الحالة الهادئة التي ليس لها بداية ، ولانهاية ، ولا تتغير مع الأزمان .

هـ ـ هي حالة الهمود البارد ، التي خمدت فيها جميع الشهوات والآلام » .

---

(١) انظر « الفلسفة الهندية » (٣٢٠) .

(٢) صفحة (٣٣٤ـ٣٣٥) .

أما الأسفار البوذية « تري بيتاكا » فتستعملها بمعان كثيرة منها : الخمود ، والسكون، والانتعاش ، والراحة ، والهمود البارد ، والفناء المطلق ، والانعتاق من التناسخ ، أو التوقف عن الولادة والوفاة ، والتخلص من آلام الحياة ، وانعدام شعور الفرد بفرديته ، وبعبارة أخرىٰ التحرر من كلمة « أنا » ، ومنها أيضًا اتحاد الفرد بالفراغ ، والسعادة الأبدية بعد الموت[1] .

ويمكن أن أستخلص من هذه المعاني الكثيرة فأقول :

إن « نرفانا » هي أعلىٰ درجات الصفاء الروحاني التي يبلغها البوذي بعد مصارعاته ، وجهوده النفسية ، عن طريق تجريد النفس ، وقمع جميع الشهوات والرغبات ، وممارسة الضغط علىٰ الذاتية والأنانية ، وإذا وصل البوذي إلىٰ هذه الدرجة ، زالت من نفسه رغباته ، وانعدمت مطامعه وأهدافه ـ علىٰ زعمهم ـ . فلا يحسّ بأية مشاعر تدفعه لفعل خير أو لارتكاب شر ، مما يستلزم تناسخًا جديدًا ، فتقف بالنسبة له دورة التناسخ ، ويصل إلىٰ أعلىٰ درجة من الصفاء ، ثم تنطلق قواه الحيوية بعد الموت إلىٰ حالة « نرفانا » ، حيث الخمود المطلق ، والفناء النهائي الذي لا يعود بعده إلىٰ عالم الأرض علىٰ أي وجه من الوجوه .

٣ ـ « نرفانا » الهدف الأسمى لكل بوذي :

تعتبر « نرفانا » هدفًا أسمىٰ لكل بوذي أراد التخلص من آلام الحياة المزعومة ؛ إنها كجنة موعودة للبوذيين الذين جاهدوا أنفسهم ، وقهروا شهواتهم ، ولم يركنوا إلىٰ هذه الحياة ، أو يقفوا علىٰ مورد من مواردها .

غير أن هذه الجنة المزعومة ، لا حياة فيها ، ولا عدم ، وكما عبّر عنها بوذا : بأنها الفناء المطلق ، والهمود البارد ، والفراغ الدائم[2] .

إن هذا الهدف البوذي إذا لم يصل إليه أحد في هذه الحياة ، فإنه سوف

---

(١) « مجموعة المصطلحات البوذية » (٢٤٦) وأيضًا « نرفانا » (٤٦ـ٤٧) .
(٢) انظر « تري بيتاكا » (أبيدارما) (٦٩٠ ، ٦٩٢) وأيضًا (سوتان) (٣٢٤) .

يصل إليه حتمًا يومًا من الأيام : لأن كلّ إنسان ـ كما توهّمه بوذا ـ يولد فيموت ، ثم يولد في حياة جديدة ، لينتهي إلى الموت من جديد ، وهكذا حتى يتخلّص من الحياة ، فيصعد إلى « نرفانا » .

قال بوذا وهو يقصّ قصّته على أتباعه :

« كنت تائهًا في بحر التناسخات ، وعبثًا بحثت عن شاطئها . . . ياله من ألم أن تتناسخ روحنا باستمرار : أن نولد ، ثم نموت ، ثم نولد ثم نموت ، وهكذا . . . أخيرًا اكتشفت عندما تخلّصت نفسي من البدن الفاني ، والدنيا الزائفة ، بلغت نهاية المطاف وهي « نرفانا »[1] .

فكلّ إنسان له نهاية في دورته التناسخية ، ولابد أن تنتهي رحلته في حياته الأخيرة بنرفانا ، سواء قربت أم بعدت على حسب مجاهدة كل إنسان[2] .

يقول القديس « فانيا ناندا » :

« إن التخلص من « كارما » ، ومنع تكرار الرجعة إلى الحياة ، من أسمى ما تتطلع إليه النحلة البوذية ، وهذه هي « نرفانا » . إنها نواة التعاليم البوذية وخلاصتها ، لأنها ثمرة من جهود بوذا الطويلة وتجاربه الشاقة ، وقد جعلها بوذا هدفًا أسمى لكل من تبعه ، لما يترتّب عليها من الثمرة العظمى ، وهي التوقف عن الولادة والموت ، والفراغ النفسي من الإحساس بالألم والسعادة ، لخمود أسبابهما خمودًا نهائيًا »[3] .

وسأعود إلى هذا التفكير بالرد عليه في آخر المبحث إن شاء الله .

---

(١) المصدر السابق (سوتان) (٣٢٨) .
(٢) انظر « المبادئ الهامة في البوذية » (٩٣) .
(٣) « قانون كارما » (١١٨) .

٤ ـ « نرفانا » كما وردت في الأسفار البوذية :

أ ـ اكتشاف « نرفانا » :

في الأسفار البوذية « تري بيتاكا » نصوص وحكايات متعددة[١] عن « نرفانا » تبيّن هذه النصوص والحكايات أن « نرفانا » ليست سوىٰ ثمرة من تأملات بوذا الطويلة ، ومجاهداته الشاقة ، قبل حصوله علىٰ الإشراقة[٢] .

فقد ادّعىٰ بوذا أنه اكتشف نرفانا بعد تأملاته العميقة في حياة الإنسان ، وقد سأل نفسه ، ماذا وراء ما يعانيه الإنسان من أحزان وآلام ، وشيخوخة ، وموت ؟

إن الإنسان منذ ولادته واقع تحت سلطان العجز ، لا يقدر أن يدفع عن نفسه آلام المرض ، والشيخوخة ، والموت ، ولا أن يطفئ جمرات الأحزان والمآسي التي يراها تحلّ به ، إن نفسه مغطّاة بغطاء كثيف من الرغبات ، وهي كالوقود الذي يجعل نار الحياة تشتعل دائمًا بلا نهاية .

ثم يقول :

« ولما وجدتني ممّن تجوز عليهم الولادة ، والشيخوخة ، والمرض ، والموت ، ورأيت ما في طبيعة الولادة من ألم ، جعلت أبحث عن توقّف الولادة وانتهائها ، أبحث عن خمود الحياة ، وسكينتها ، فوجدت أنها « نرفانا » .

ثم تخيلّ بوذا في نفسه فيقول :

« إنني تغلّبت علىٰ كلّ الأشياء ، وأنا أعلم كلّ الأحوال الدنيوية هذه ، إنني حرّ طليق من العيوب ، لقد طلقت كلّ هذا ، وذلك عن إفناء النفس ، إنما صرت حرًا عندما فهمت نفسي ، وإنني في طمأنينة من اضطرابات الحياة ، وإنني فوق كلّ تغيّر ، فوق الولادة ، والموت »[٣] .

---

(١) وجدت نصوص « نرفانا » متفرقة في كل سفر من الأسفار الثلاثة وتكثر هذه النصوص في أبيدارما ، وفي سوتان ، وخاصة في قسم « ماشيم نيكايا » (Majjim Nikaya) وانكوتار نبكايا (Angkutra Nikaya) .

(٢) مرّ تفصيل هذا الموضوع في « استنارة بوذا » .

(٣) « تري بيتاكا » (أبيدارما) (٦٩١ ، ٦٩٣) .

إن مثل هذا الغلوّ الفاسد مليء في أقوال بوذا وهو الذي جعل أتباعه من بعده ألهوه وعبدوه من دون الله .

من هذه الخيالات الفاسدة ، والنظرة التشاؤمية إلى الحياة ، كانت فلسفة بوذا « نرفانا » التي أصبحت عقيدة يدين بها ملايين من البشر .

ب ـ غموض « نرفانا » في كلام بوذا :

في الأسفار البوذية « تري بيتاكا » قرأت النصوص التالية :

« أيها المريدون . . . إن هناك حالة ليس لها حدوث ولا بداية ، وليس لها خالق ولا عامل ، إنها موجودة بدون صفة معينة ، إنها هي « نرفانا »[(١)] .

والنص الآخر :

« إن « نرفانا » ليست أرضًا ، أو ماءً ، أو نارًا ، أو هواء ، وليست هذا العالم ، أو غير هذا العالم ، ليس فيها شمس ولا قمر ، وليست بإتيان أو ذهاب ، وليست هي البقاء أو الحدوث ، أو لها موقع أو حواس ، ولكنها موجودة ، تلك نهاية الألم »[(٢)] .

وقد سئل عنها مرة فأجاب قائلاً :

« لا تسأل إن كانت فناءً أو استمرارًا في العيش ، وإلا لكنت كالمصاب بسهم مسموم يودّ معرفة طبقة مَنْ رماه ، أهو برهمي أم شودرا عوضًا ، عن البدء بالتداوي »[(٣)] .

وفي نص آخر قال :

« يا « شانا » (Shanna) [(٤)] احفظ دائمًا ، أن من سيطرت عليه شهوة فإنه يضطرب ، أما الذي لا تسيطر عليه الشهوة فإنه يطمئن ، وإذا يطمئن لا يفرح ،

(١) سوتان (٣٤١) .
(٢) المصدر السابق (٣٣٨) وذكر الدكتور أحمد شلبي معنى هذا النص نقلاً عن « فلسفة الهند القديمة » (١٣٤) . انظر : « أديان الهند الكبرى » (١٦) .
(٣) (أبيدارما) (٦٥١) .
(٤) هو الرجل الذي صاحب بوذا قبل خروجه للترهب وساق عربته عند خروجه للتنزه في المدينة حتى رأى ما رأى .

ولا يعرف الإتيان والذهاب ، والبداية والنهاية ، ولا يعرف هذا العالم وغير هذا العالم ، وهذا هو نهاية الحزن ومكان « نرفانا »[١] .

إن مثل هذا التصوّر الغامض في حقيقة « نرفانا » كثير في أقوال بوذا ، إنه من العسير أن أجد تصوّرًا واضحًا لهذه العقيدة من خلال كلامه ، فقد ترك هذا الموضوع غامضًا لكي يأتي أتباعه فيفسّروه بكل ما يستطيعون أن يقع تحت الشمس من ضروب التفسير ، وهكذا في كل تعاليم بوذا .

وقد اعترف العلماء في البوذية بهذا الغموض ، فها هو صاحب كتاب «المبادئ الهامة في البوذية» حيث يقول مبررًا لذلك :

« إن « نرفانا » طبيعة دقيقة ، إنها غير عرضة للتحليل والمعرفة ، لأنها فوق عقول البشر ومداركهم ، ولذلك عندما سئل بوذا عن مصير هؤلاء القديسين الذين ماتوا بعدما حصلوا على النرفانا ، هل هم في البقاء أو في الفناء ؟ رفض عن الإجابة ولم يبد شيئًا من رأيه[٢] .

ويقول « رادها كرشنن » :

« إن بوذا رفض أن يشرح « نرفانا » ، وعلى هذا لا يجدي نفعًا أن نحاول فهمها ، بل ربما كانت البشرية لا تستطيع شرح « نرفانا »[٣] .

ومهما يكن من الأمر ، فإن عقيدة « نرفانا » قد أوضحها المفسّرون المتأخّرون من علماء البوذية ، مما يمكن أن أعتمد عليه في هذه الدراسة .

جـ ـ التناقض بين الخلود والفناء :

من المعروف في فلسفة بوذا أنها تنكر خلود الأشياء كلها بدون الاستثناء ، وقد وضّحت ذلك في غير موضع بالنصوص من أقواله ، غير أنني وجدت في

(١) المصدر السابق .
(٢) « المبادئ الهامة في البوذية » (١٠٦) وأيضًا « الفلسفة الهندية » (٢٣٢) .
(٣) « أديان الهند الكبرى » (١٦١) نقلاً عن بحث بثقافة الهند (ديسمبر سنة ١٩٥٢) صفحة (١٨) .

بعض أقواله عن « نرفانا » ما يتناقض مع هذه الفلسفة ، وفيما يلي أذكر منها :

« . . . الفكر الحسن ينتج أعمالاً حسنة ، والفكر السيئ يجيء بكل منكر ، إن عدم الاهتمام بالعالم هو سبيل الخلود ، وأما الجهل فطريق الموت ، والولادة ، والألم .

الذين لا يهتمّون بما للعالم يخلدون براحتهم الأبدية ، أما الراغبون في العالم فآلاماً يجنون . . . »

« إن « نرفانا » وحدها تكافئ من يعرفها ، ويبذل في سبيلها ، لأن عمل الذات يذهب هباء منثوراً ، كفقاقيع الصابون تضمحلّ في الهواء أما « نرفانا » فتعود إلى حياة الخلود الأبدي »[1] .

ومنها أيضًا :

« إن تتاغتا (بوذا) كان يتألم لمرض الحياة ، فوجد أن كل ما في العالم باطل ، فشرع يبحث عن الخلاص في النفس التي لا تفنى ، ولا تضمحل ؛ بل تبقى إلى الأبد »[2] .

ومنها أيضًا :

« . . . لقد أفهمتكم معنى الهجرة البعيدة[3] وهو أنكم وصلتم إلى الهدف ، وأمتّم كل أنانية فيكم ، وأقبلتم الحقيقة ، والحياة الخالدة أبدًا »[4] .

إن مثل هذا التناقض وغيره لا يدل إلا على النقص والخلل في عقل الإنسان ، وأنه لا يصلح أن يكون مصدراً لهداية البشرية إلى الحق ، بخلاف الوحي الإلهي المعصوم ، لأنه من الله ربّ الناس ، وربّ السموات والأرض ،

(١) « تري بيتاكا » (أبيدارما) (٦٤٩) .
(٢) المصدر السابق (٦٣٤) .
(٣) والمراد الطريق الموصل إلى نرفانا .
(٤) (سوتان) (٣٣٠) .

وهو المتّصف بصفات الكمالات ، وقد صدق الله عز وجل إذ يقول :

﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾ [١] .

د ـ الألم والسعادة عند بوذا :

نظر بوذا إلى هذا العالم ، وإلى هذه الحياة نظرة تشاؤمية ، فقد تصوّر أن الحياة معرض أحزان ، ومورد كوارث وآلام ، وتعاسة وشقاء ، وأن هذا الوجود خادع وباطل ، لا يستحق أن يعاش فيه . ومثّل بوذا هذه الحياة بشعلة النار التي تشتعل دائمًا إذا كان وقودها ـ أي الشهوات ـ باقيًا .

إن هذا التصور الغريب واضح في كثير من أقواله التي ترويها الأسفار البوذية « تري بيتاكا » منها قوله لصاحبه « آننذا » (Anandha)[٢] :

« يا « آننذا » تعهد نفسك ، وأمعن النظر في الحياة تجد أن كل شيء زائل ، وما من باق على الأرض حيث الولادة ، والموت ، والنمو ، والانحلال والتركيب ، والتفريق ، وحيثما تلفتّ تجد ازدحامًا ، وتدافعًا في تطلّب اللذات . . .

يا « آننذا » إن الحياة ألم ، وكل جمال باطل ، وكل ما في العالم يتغيّر ويتحوّل . . . أيمكن أن تطفأ هذه اللذات المتعددة ؟ »[٣] .

فالحياة في تفكير بوذا ألم ، ومصدره هو الشهوة التي حدثت من الارتباط بين الحواس والأشياء الخارجية ، كما أشرت إليه من قبل في عدة مواضع .

وفي ذلك يقول :

« من الرغبة ، والهوى ، والشهوة ، يخرج الحزن ، والألم ، والشكوك

---

(١) النساء (٨٢) .

(٢) هو ابن عم بوذا وأحد مريديه الذي لازمه منذ أول دعوته إلى آخر حياته ، وتروي الأسطورة البوذية أنه من القديسين الذين حصلوا على « نرفانا » قبل موته « مجموعة المصطلحات البوذية » (٧٠٢) .

(٣) « تري بيتاكا » (سوتان) (٣١٢) .

والأوهام . . . إن الالتصاق بالاشياء طمع ، والاحساس وراثة من وجوده السابق ، وهذه كلّها سبب التعاسة في هذا العالم »[١] .

وفي موضع آخر يقول :

« . . . لا تقترب يا بيهكشو ، من كل ما يجعلك تتلذّذ ، أو مما يجعلك لا تتلّذذ ، إذا نظرت إلى ما يجعلك تتلذّذ فإنه يضفي عليك شقاوة تماماً ، مثلما إذا لم تنظر إليه، ولهذا السبب ، احذر ، ولا تتّبع أسباب اللذة ، لأنها شقاوة ، يتخلّص من هذه القيود كل من يشعر بأنه لا يحزن ، ولا يحب » .

ثم يقول :

« من الشعور بالحب ، والطمع ، والبغض ، والغواية ، يبدو منه الحزن والألم ، أما الشخص الذي تحرّر من هذا الشعور ، فليس بواجد حزنًا ولا ألمًا»[٢] .

فالألم عند بوذا ليس مقصوراً على الألم المعروف في عضو من أعضاء الجسد عند المريض أو المصاب ، أو غيرهما وإنما يشمل جميع تصرفات الإنسان المزينة بالرغبات والاعتداد بالذات ، والألم عند بوذا صفة من صفات الثلاث للجسم وهي التغير ، والألم ، وعدم الذات ، وهو على قسمين :

١ ـ الألم الجسدي ، وهوالولادة ، والشيخوخة ، والمرض والموت .

٢ ـ الألم النفسي كالحزن ، والكراهية ، والطمع ، وما شابه ذلك[٣] .

أما السعاة في تصوّر بوذا ، فهي التجرّد من كل الأماني ، ومن كل الشهوات، والرغبات .

---

(١) المصدر السابق (سوتان) (٣٤١) .

(٢) المصدر السابق (٢٩٨ ، ٢٩٩) .

(٣) « مجموعة المصطلحات البوذية » (١٩١) .

حيث إذا تخلّص الإنسان من قيود رغباته وشهواته في تصرفاته وأعماله فإنه حينئذ يكون في سعادة ، أما إذا لم يتخلّص من هذه القيود ، وكانت تصرفاته ، وأعماله ، إما رغبة ، أو رهبة ، فلا يكون في سعادة ، ولا يكون في درجة مطلوبة وهي درجة « نرفانا »[1] وقد مثّلها بخمود النار عند انتهاء وقودها .

وزعم بوذا أن هذه السعادة هي أعلىٰ درجة يمكن أن يبلغها البوذي في حياته ، لكي لا يرجع بعد موته إلىٰ هذه الحياة مرة أخرىٰ .

ومن أجل هذا اعتنىٰ بوذا في جميع تعاليمه بموضوع واحد ، وهو إعدام الألم .

فكان تفكيره كله إنما يدور حول هذا الموضوع ، وحول سبيل الفرار من هذه الحياة ، كيف يمكن للإنسان أن يحقّق لنفسه « نرفانا » في هذه الحياة الدنيا ، والفناء التام في الحياة القادمة ؟

فموضوع إعدام الألم هو المحور الذي تدور حوله تعاليم هذا المذهب كلها .

يقول بوذا في إحدىٰ خطبه :

« اعلموا أيها المجتمعون هنا ، أن تتخلّصوا من نفوسكم مثلما يقلع الشخص شجرته الكبيرة لكي يتوصّل إلىٰ جذورها ، وذلك حتىٰ لا تأتي الأخطار تحطّم مرات ومرات ، إن المثل يقول إذا الشجرة قطعت فإن جذورها تعود فتنبت ، إذا كانت جذورها مازالت باقية فإنها تزداد قوة ولا تفسد . . . هكذا النفس إذا لصقت بالإنسان ، ولم يقض عليها نهائيًا ، فإن متاعبه ،

---

(١) يوجد هذا التفكير عند بعض المتصوفة المسلمين حيث يعتقدون أن العمل الصالح لابد أن يتجرّد عن الطمع ، والخوف (أي الطمع في الجنة ، والخوف من النار) لأنهما من الأهواء النفسية الدنيئة وغايتهم في ذلك هو القول بالفناء في الرب ، وسيأتي مزيد هذا الكلام في حينه إن شاء الله .

وآلامه ستعود إليه مراراً وتكراراً . . . »[١] .

ويقول أيضاً :

« ألا يا إخوتي بيهكشو ، إن إخماد الألم في الحياة هو إخماد الشهوة حتى لا يبقى منها شيء ، ثم إخماد الولادة ، والشيخوخة ، والمرض ، والموت .

إن الشخص إذا توصل إلى مقام « نرفانا » فإنّه لا يعرف الخوف ، ولا يعرف الرغبة ، إنه في الفراغ ، لأنه قد قطع شوك أغصان الدنيا ، والجسد الذي يحيا به هو الجسد الآخر »[٢] .

٥ ـ الطريق إلى « نرفانا » في البوذية :

إن الطريق إلى نرفانا في البوذية يتمثل في قتل الرغبات والشهوات ، وتحرير النفس عن جميع القيود ، كما أشرت إليه .

غير أن هذا الطريق له تفاصيل ، وله مراحل سأذكرها فيما يلي :

أ ـ الطريق ذو الشعب الثماني :

نص الكتاب « تري بيتاكا » الطريق العملي لإزالة أسباب الألم والشقاء ، ولتحقيق « نرفانا » كما يزعمون ، وهو الطريق ذو الشعب الثماني[٣] الذي يتكوّن من الأمور الآتية :

١ ـ النظرة السليمة ، والمراد هو النظرة إلى الحقائق الأربعة المزعومة وهي الألم ، ومصدر الألم ، وإعدام الألم ، والطريق إلى إعدام الألم .

٢ ـ النية السليمة ، والمراد أي القرار على البعد عن جميع الإيذاء ، وعن المقابلة بالسيئ .

---

(١) « تري بيتاكا » (سوتان) (٥١٤) .

(٢) المصدر السابق (٤٢٩ ، ٤٣٠) .

(٣) تقدم ملخصه في مبحث : الحقائق السامية الأربعة .

٣ ـ القول السليم ، والمراد أي البعد عن الكذب وما شابهه .

٤ ـ العمل الطيب ، والمراد البعد عن قتل الحيوانات كلها ، وعن السرقة والزنا .

٥ ـ العيش السليم ، أي بمقومات الحياة الأربعة : الطعام ، واللباس ، والسكن ، والدواء .

٦ ـ الجهد الطيب ، والمراد أي الجهد في سبيل إماتة الشهوات والقضاء عليها .

٧ ـ الفكر السليم ، أي بالتأمل الذاتي " Meditation "في حقيقة الجسد، والحواس ، والنفس ، والكون .

٨ ـ التركيز السليم ، أي بالرياضة النفسية " Contemplation "على طريق خاص عندهم[١] .

ب ـ المراحل الثلاثة للطريق إلى « نرفانا » :

قسم العلماء في البوذية هذه الشعب الثمانية المذكورة إلى ثلاث مراحل[٢] :

١ ـ المرحلة الأولى : مرحلة الالتزام بالأخلاق البوذية ، وتسمى عندهم مرحلة « سيلا » (Sila)[٣] ، وتتضمن المنطق السليم ، والعمل الطيب ، والعيش الحلال .

---

(١) « تري بيتاكا » (سوتان) (٤٠٥ ـ ٤٠٦) وتفسير هذا النص في كتاب « لبّ البوذية » (٤٠٥ ـ ٤٠٧).

(٢) الذي تأمل في هذه المراحل الثلاثة البوذية يجد التشابه بينها وبين المراحل الثلاثة عند المذاهب الصوفية وهي :

١ ـ الشريعة أي عمل أهل البداية .

٢ ـ الطريقة أي عمل أهل الوسط .

٣ ـ الحقيقة أي عمل أهل النهاية .

(٣) في اللغة البالية تعني قاعدة السلوك .

٢ـ المرحلة الثانية : مرحلة الرياضة النفسية ، بالتأمل الذاتي وغيره ، وتسمىٰ عندهم مرحلة « سمادي » (Smadhi) [١] ، وتتضمن الجهد الطيب ، والفكر السليم ، والتركيز السليم .

٣ـ المرحلة الثالثة : مرحلة التنوّر ، والمعرفة ، والكشف ، وتسمّىٰ عندهم مرحلة « بانيا » (Panya)[٢] ، وتشمل النظرة السليمة ، والقرار السليم .

ويقولون إن هذه المراحل الثلاثة تشبه درجات السلّم التي يصعد بها البوذي إلىٰ « نرفانا » فلا تغني الدرجة منها عن الأخرىٰ ؛ بل عليه أن يصعد بها درجة ، درجة[٣] .

فالمرحلة الأولىٰ : مرحلة المبتدئة ، للعوام المدنيين (غير الراهبين) وغيرهم .

والمرحلة الثانية : أشقّ من الأولىٰ ، ولم يمارسها إلا الخواص وخاصة الرهبان منهم ، والرياضة النفسية في هذه المرحلة لها طرق كثيرة عند البوذية ، وأشهرها ثلاث طرق ، أذكرها بإيجاز[٤] وهي :

١ ـ استعمال الصوت بتلفّظ كلمة معيّنة مثل « بوذا » ، أو غيره ، وترديدها مرة بعد مرة ، مع استحضار الذهن ، واستجماع الفكر ، وتفريغ المشاعر ، دون أن يكون هناك اتصال بأشياء خارجية ، حتىٰ ينتهي إلىٰ حالة لا يشعر بما يجري حوله من أمور .

٢ ـ استعمال التنفّس المنتظم العميق ، بطريق الشهيق ، والزفير ، مع ضبط العقل ، وحضور القلب ، وتفريغه من شواغل الدنيا ، وقطع الهمة عن العالم كله .

---

(١) في اللغة البالية تعني المراقبة التامة ، أو التركيز ، والتأمل .

(٢) في اللغة البالية تعني المعرفة ، أو الحكمة ، أو العقل .

(٣) « أصول البوذية » (٤٠٦ ، ٤٤٩) .

(٤) سأعود إلىٰ هذا الموضوع ببعض التفاصيل عند الكلام عن الرياضة النفسية إن شاء الله .

٣ ـ استعمال المنظر المعين ، باستجماع الفكر والتأمل ، وتركيزه على نقطة معينة من المنظر ، مع استحضار الذهن ، وتفريغه عن العالم ، حتى ينتهي إلى حالة يستوي فيها وجود الشيء وعدمه[١] .

إن هذه الطرق الثلاثة للرياضة لا يمارسونها إلا في الخلوة ، أو في مكان مظلم ، وفي جو هادئ ، وعلى شكل منظّم ، ويزعمون أن ممارسة هذه الرياضات وتمرينها تضغط النفس ، وتقتل الرغبات والشهوات ، وتطفئ جمرات الآلام كلها .

أما المرحلة الثالثة ـ أي مرحلة التنوّر ـ والكشف ، والمعرفة ، فهي ثمرة من المرحلتين السابقتين ، ويزعمون أن من وصل إلى هذه المرحلة نال « نرفانا » حيث تنوّر عقله ، وانكشفت له المعرفة ، وهي ما يسمونه « يانا » (Yana) تشبه الكشف " Perception " عند الصوفية .

إن هذه المعرفة المزعومة « يانا » لا يدركها عن طريق الاكتساب ، وإنما يدركها عن طريق الكشف والذوق ، بدون استخدام الحواس ، فهي إذن معرفة خاصة ، ومعرفة فرديّة ، ونشاط روحي خاص بكل بوذي .

وقد نص الكتاب « تري بيتاكا »[٢] هذه المزاعم الخرافية في عدة مواضع ، تبين أن الرياضة النفسية لها ثمرة في انكشاف « يانا » ، أي المعرفة ، وأنها على مراحل كثيرة ، أهمها هي :

---

(١) صفحات متفرقة من كتاب « بودها دهارما » للقديس بانيا ناندا . وهنا يحسن التنبيه إلى أن مثل هذه الرياضة النفسية قد انتشرت الآن في أوربا ، وفي كثير من بلدان آسيا ، وأفريقيا ، وذلك باسم تجارب أو تدريبات « يوجا » (Yoga) ، وهي عبارة عن تجربة عملية لتهذيب النفس ، وتدريب جسماني ، لتصل الروح إلى السمو والارتفاع كما أسلفناه ، وقد أنشئت لها جمعيّات ومكاتب في هذه البلاد ، وألفت لها كتب ومؤلفات ، ومن خطورتها أنها لا تنتمي إلى أي دين أو مذهب ، كما لم تتقيّد بأنواع محددة من التدريبات ، وقد تبنّت الماسونية هذه الفكرة ، وروّجت لها في الأوان الأخيرة لإفساد العقائد الدينية ولمحاولة إيهام الناس وتضليلهم .

(٢) انظر (فينايا) (١١٩ ـ ١٢٠) وأيضاً (١٤٠ ـ ١٤٣) .

١ ـ المعرفة بالأمور الماضية والمستقبلة .

٢ ـ المعرفة بالحقائق الأربعة المذكورة .

٣ ـ المعرفة بالعوالم العلوية والسفلية ، والمعرفة الخاصة بسلسلة الحياة السابقة المزعومة .

وسأعود إلىٰ هذا الموضوع مرة أخرىٰ بالتفصيل عند الكلام عن الرهبنة البوذية .

٦ ـ حالتان للفناء « نرفانا » :

قسّم البوذية « نرفانا » إلىٰ حالتين :

١ ـ الفناء شبه التام ، وهو فناء القدّيس (Arhat) في خلال حياته ، ففي هذه الحالة يعتبر فناؤه غير تام ، لأن جسمه لم يزل حيًا ، يحتاج إلىٰ ما يحتاج إليه سائر الجسم ، من المقومات الأربعة " Four Requisites "[1] ، أما نفسه فلا تحتاج إلىٰ شيء ، لأنها فانية ، ومنطفئة ، لا تتعلق بالحياة الدنيا .

٢ ـ الفناء التام ، أو فناء الفناء ، وهو موت القدّيس بعد أن نال « نرفانا » المزعومة ، لأنه في هذه الحالة لا يبقىٰ منه شيء ، سواء كان جسمًا ، أو روحًا ، علىٰ حد زعمهم ، ويسمّون هذه الحالة « باري نيرفانا » (Pari Nirvana)[2] .

٧ ـ تفنيد عقيدة « نرفانا » ومناقشتها :

ولتفنيد هذه العقيدة أقول وبالله التوفيق :

١ ـ إن « نرفانا » بعد الموت كما تصوّره بوذا وأتباعه ، عقيدة يحيط بها الغموض ، وعلىٰ رغم محاولة العلماء البوذية في تفسيرها وتعديلها ، فإنها لا تزال غامضة مبهمة ، إذ لا يخفىٰ أن تصوّر هذه النرفانا بعد الموت أمر صعب ، لا

---

(١) والمراد بها عند البوذيين هو الطعام ، واللباس ، والسكن ، والدواء .

(٢) « المبادئ الهامة في البوذية » (٢١٤ ـ ٢١٦) .

يستطيع العقل أن يتخيّله ، فهي ليست مكانًا ينتهي إليه الإنسان ، كالجنة والنار في الأديان السماوية ، ولا كائنًا تندمج فيه الروح بعد الموت ، كما هو الحال مع « براماتما » في الهندوسية ، وإنما هي حالة من العدم والفناء ، حالة سلبية ، لا حياة فيها ولا موت ، ولا بعث ولا نشور ، ولا ثواب ولا عقاب ، من العسير أن نتصورها بعد الموت .

إن هذا التعقيد الغامض عَزَّ على عامة البوذيين فهمه ، إنهم رضوا أن يكون جزاؤهم ـ بعد البلاء العظيم ، وبعد الحرمان المتصل في القضاء على الشهوات والرغبات ـ هو الدخول في الفناء الغامض ، والخمود البارد المبهم .

أهذا ثمن هذا الجهاد العنيف الذي قطع فيه الإنسان عمره ؟

إنه لا شيء . . .

أهذه هي السعادة العليا التي تنتهي إليها الأرواح بعد تخلصها من آلام الحياة على حد زعمهم ؟ .

إنه لا شيء . . .

إن العقل لا يمكن أن يتصوّر السعادة في العدم والفناء ، السعادة من غير الشعور والإحساس ، لأنها سعادة خيالية ، لا حقيقة لها ، ولا وجود .

فالنرفانا في البوذية عالم يشبه الأحلام ، وأسطورة من الأساطير التي ليست حقيقة من حقائق العقيدة الدينية .

٢ ـ أما نرفانا قبل الموت ، أي التخلص من الرغبات والشهوات ، فهي عقيدة باطلة ، ليس لها أساس من الحق ، للأمور الآتية :

أ ـ إنها تتعارض مع فطرة النفس البشرية التي فطر الناس عليها .

فمن المعلوم بالبداهة والضرورة ، أن الإنسان مفطور على الرغبات ، والشهوات ، والميول ، والعواطف ، وما أشبه ذلك من النوازع الفطرية في النفس .

فالحب ، والرضى ، والغضب ، والكراهية ، والحزن ، والطمع ، كل ذلك ما هو إلا صفات من صفات النفس البشرية التي لا يتخلى عنها أحد من البشر ، ومن أجل هذا فإن دعوة بوذا إلى تجريدها وقمعها دعوة غريبة على الإنسان ، لأنها إنكار لواقعه ، ومعارضة لفطرته[١] .

فقد أغفل بوذا هذا الواقع في الإنسان ، وتخيّل أن الإنسان ملاك ، أو شبه ملاك ، فوضع من القيم والآداب مالا يحتملها ، ولا يمكن له أن يقوم بها .

ب ـ إنها مستحيلة في التطبيق ، وإن ادّعى مَن ادّعى مِن البوذيين خلاف ذلك ، لما ذكرته آنفًا من تعارضها للفطرة البشرية وواقعيتها ، وعلى سبيل الافتراض ، لو استطاعت بعض النفوس تطبيقها ، فإن الغالبية العظمى من النفوس تقع إزاءها في عجز وعمى .

ومعنى هذا أن الأغلبية العظمى من البشر سيظلّون في ظلام ، وتخبّط ، وحرمان ، وهذا ما اعترف به بوذا نفسه ، وكذلك أتباعه من بعده .

فممّا روي عن بوذا في ذلك قوله :

« . . . وهكذا إن معظم البشرية لا تنتفع بالنرفانا ، مع وجودها في كل مكان وزمان ، إنها مستعدة للقاء جميع النفوس البشرية ، ولكن النفس البشرية غير مستعدة للقائها ، لأنها مغطاة بالرغبات »[٢] .

وكما قرّر كثير من العلماء في البوذية ، أن قليلين جداً من البشر هم الذين بلغوا « نرفانا » .

وإذا كان الأمر كذلك فما فائدة نرفانا التي لا يحققها إلا قليل من الناس ؟

وكيف يصلح مثل هذا لأن يكون منهجًا لعامتهم مع عجزهم عن تحقيقه ،

---

(١) مر تفصيل هذا الكلام عند الحديث عن الحقائق السامية الأربعة في البوذية ، وأعود هنا إلى بيان شيء منه للمناسبة .

(٢) « تري بيتاكا » (سوتان) (٣٨٤) .

بل عن فهمه ؟

وعلى كل فإن ادّعاء الوصول إلى « نرفانا » ادّعاء كاذب ، لأن العقل لا يتصوّره ، فما من إنسان إلا أن يكون لديه المشاعر النفسية ، من الرغبات ، والشهوات ، وحتى بوذا نفسه ، لأنه لو وصل إلى حالة « نرفانا » ـ على سبيل الافتراض ـ لما استطاع أن يعيش بين قومه ، ويختلط معهم ، ولما استطاع أن يعلّمهم هذه الأوهام والتخيلات ، لأن الإنسان في هذه الحالة المزعومة فارغ عن كل المشاعر النفسية ، وعن كل الروابط والقيود التي تربطه بالأشياء ، فكيف نتصوّر هذه الحالة في بوذا الذي كان يعيش بين الناس ويعلّمهم ؟

إنه ما عاش بينهم ، وما علّمهم مذهبه ، إلا لطمعه ، وحرصه على طاعتهم ، ورغبته في استماعهم له .

فالنرفانا إذن فكرة خيالية ، لا حقيقة لها في الوجود ، إنها لم تتحقق من قبل ، ولن تتحقق من بعد ، ما دام الإنسان هو الإنسان الذي يتكوّن من الروح والجسد ، حيث لا يقبل طغيان أحدهما على الآخر .

جـ ـ إنها تعارض التقدّم الإنساني في كل المجالات .

وقد شهد شاهد من أهل البوذية أنفسهم على هذا ، ذلك هو الدكتور البوذي « فراموت » (Pramote) [1] إذ يقول :

« إن عقيدة « نرفانا » أو الفناء " Extinction " عقيدة تخالف التقدم والتنمية والنهضة التي تسعى إليها الدولة ، إنها لا تصلح إلا لطبقة خاصة من البوذيين ، الذين لا يريدون شيئًا في حياتهم إلا الخمود ، أما نحن المدنيين ، فلا تصلح لنا « نرفانا » ؛ بل إنها من أعظم العقبات التي تقوم ضد النهضة للدولة » .

وهاجم هذا الدكتور البوذي بعض الرهبان البوذيين الذين قاموا بتعليم

---

(١) عالم سياسي معاصر ، كان يتولى نائبًا لرئيس الوزراء في تايلاند ، له عدة مؤلفات ، ومقالات في الأديان والسياسة ، والقانون ، والاجتماع .

«نرفانا» وتحضيض الناس على تطبيقها ، ثم قال :

« إن الشخص الذي تجرّد من الرغبات المادية ، وتجرد من الميول الذاتية ، لا يصلح هذا الشخص أن يعيش في مجتمع الناس ، ولا يمكن أن يدبّر شئونه ، لأنه في هذه الحالة تتحطّم علائق الجسم وأطماعه بالحياة الأرضية ، إنه لا يرىٰ حوله إلا ما يوجب الإبعاد عنه ، إن مثل هذا الشخص يصلح له الاعتزال عن الناس ، وعن مجتمعهم »(١) .

أقول : إن مثل هذا الاعتراض من البوذيين أنفسهم خير شهادة علىٰ بطلان عقيدة نرفانا ، وعدم صلاحيتها للبشر ، في أي وجه من الوجوه ، لأنها لا توافق الواقعية في حياة الناس التي خلقت في هذه الأرض لتعميرها ، وبنائها ، لا للفرار منها .

كيف يصير المجتمع بل كيف تصير الدولة إذا كانت أفرادها مشغولين بنرفانا ، مشغولين بالمجاهدة النفسية ؟ متىٰ ترتقي حياتهم ؟ وأنىٰ لها أن تصل إلىٰ المشاعر والأفكار والمخترعات التي تعود بالخير علىٰ البشرية ؟

٣ـ وقد ترتبت علىٰ اعتقادهم بنرفانا مفاسد كثيرة منها :

أ ـ عبادة الرهبان والقديسين الذين زعموا أنهم بلغوا نرفانا ، فإنهم بمقام الإله عند البوذيين كما أسلفنا .

ب ـ كثرة المدّعين بعلم الغيب في مجتمعهم ، للتضليل ، والخداع ، وكسب أموال الناس بالباطل .

جـ ـ كثرة الفساد والانحراف الأخلاقي في مجتمعهم ، لاعتقادهم بأن النرفانا ستأتي إليهم يومًا من الأيام ، وأن كل إنسان لابدّ له من نهاية في دورات التناسخ ، فأخّروا الإصلاح ، وأهملوا الالتزام بالقيم والمثل الأخلاقية .

د ـ إنها تدعو إلىٰ الرهبانية ، بإيجاد طائفة معينة تتقيّد بالآداب والسلوك

(١) من كتابه « ما هو الصواب وما هو الخطأ في تعاليم البوذية ؟ » (١ ـ ٨) .

دون غيرهم ، وذلك لأن تعاليم « نرفانا » لم تطبّق في واقع حياتهم ، إلا في أفراد قلائل ، وهم الذين ترهبنوا ، واعتزلوا الحياة كلها ، إن هذه هي الطريقة الوحيدة في نظرهم التي يستطيعون بها تنفيذ هذه التعاليم على الوجه الأكمل المطلوب كما يزعمون .

وسيأتي بحثه مفصلاً في الفصل الآتي إن شاء الله .

هـ ـ امتحان الجسد بالرياضات المختلفة ، كوسيلة ـ لا وسيلة غيرها ـ للارتفاع بالروح على حدّ زعمهم .

وقد تأثر بفلسفة « نرفانا » كثير من الهنود ، وسرت إلى الشرق والغرب قديمًا وحديثًا ، فتأثر بها في القدم فلاسفة اليونان ، وبعض فلاسفة المسلمين من الصوفيين وغيرهم[1] كما سيأتي بحثه مفصلاً إن شاء الله .

٨ ـ الإسلام دين الفطرة لا يقرّ بالنرفانا :

إن الإسلام دين الفطرة ، لا يخالف في توجيهاته الفكرية ، وفي تعليماته الأخلاقية ، واقع الإنسان وواقع الكون ، وواقع الحياة .

ومن أجل هذا فلا يقرّ الإسلام بعقيدة « نرفانا » ، أو الفناء التي تدعو إلى تجريد النفس عن الرغبات ، وكبت نوازعها ، حتى تتعطّل إرادتها وتموت .

والإسلام قد عرف طبيعة الإنسان حق معرفتها ، لأن الإسلام كلمة الله ، والإنسان خلق الله ، وخالق الشيء لا يجهل طبيعته ، وكنهه .

ومن هنا يتميّز الإسلام عن البوذية ؛ بل عن الأديان كلها ، بنظرته الشاملة المحيطة لحقيقة الإنسان وطبيعته .

فقد اعترف الإسلام بالدوافع الفطرية في نفس الإنسان ، من الرغبات ، والشهوات .

---

(١) قارن « قصة الحضارة » (٣/ ٦٣) .

وقد أشار إلىٰ ذلك كثير من الآيات القرآنية .

فعن حبّ الشهوات قوله تعالىٰ :

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ... ﴾ الآية[1] .

وعن الحرص ، والميول ، قوله تعالىٰ :

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ .. ﴾ [2] .

وعن الحزن ، والفرح ، قوله تعالىٰ :

﴿ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾[3] .

وعن الغضب قوله تعالىٰ :

﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[4] .

وعن الحسد قوله تعالىٰ :

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾[5] .

وعن الطمع قوله تعالىٰ :

﴿ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً وَبَنِينَ شُهُوداً وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيداً ﴾[6] .

وغير ذلك من الآيات ، كما أشار إلىٰ ذلك قول الرسول الكريم ﷺ :

« لو كان لابن آدم واديان من مال ، لابتغى واديًا ثالثًا ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا

---

(١) آل عمران (١٤) .

(٢) النساء (١٢٩) .

(٣) الحديد (٢٣) .

(٤) الشورىٰ (٣٧) .

(٥) النساء (٥٤) .

(٦) المدثر (١٢ ـ ١٦) .

التراب ، ويتوب الله على من تاب »[1] .

هذا الحديث يدلّ على أن الإسلام اعترف بطبيعة البشرية ، من الطمع والحرص على الدنيا ، وحب المكاثرة بها ، والرغبة فيها ، وكذلك الآيات الكريمة تدلّ على اعتراف الإسلام بالدوافع الفطرية في الإنسان ، وأنه لم يحرّمها تحريمًا مطلقًا ؛ ولكنه يدعو إلى تنظيمها ، ويدعو إلى ممارستها وتهذيبها في إطار الضوابط التي رسمها الله لحماية الطبيعة البشرية من الانهيار والتدمير ، ومن الإباحية والفساد ، إن هذه الضوابط تقوم على أساس الاعتدال والتوازن بين قوى الإنسان ، الجامع بين الروح والجسد ، والتوازن بين الأشواق العليا ، ورغبات الحس ، حيث يتحقّق مطالبهما جميعًا ، دون طغيان أحدهما على الآخر .

جاء في الحديث أن الرسول ﷺ رأى رجلاً قائمًا في الشمس فسأل عنه فقالوا : يا رسول الله ! إنه نذر أن يقوم في الشمس ، ولا يقعد ، ولا يستظل ، ولا يتكلم ، ويصوم . فقال عليه الصلاة والسلام : « **مروه فليتكلم ، وليستظل ، وليقعد ، وليتمّ صومه** »[2] .

وعلى هذا الأساس أنكر الإسلام طريقين لتحرير الإنسان ، هما التقشف والإباحة .

وجاء الإسلام بعبادة واقعية ، تراعي واقع الحياة ، وظروفها المختلفة ،

---

(١) رواه البخاري في « صحيحه » (٤/ ١١٩) كتاب الرقاق باب ما يتقى من فتنة المال (رقم ٦٤٣٦) و رواه مسلم في « صحيحه » (٢/ ٧٢٥) كتاب الزكاة (رقم ١٠٤٨) وأحمد (٣/ ٣٤١) في «مسنده» .
ومعنى لا يملأ جوفه إلا التراب : أي أنه لايزال حريصًا على الدنيا حتى يموت ، ويمتلئ جوفه من تراب قبره ، والحديث خرج على حكم غالب بني آدم في الحرص على الدنيا ، ويؤيده قوله ﷺ : « ويتوب الله على من تاب » وهو متعلق بما قبله ، ومعناه أن الله يقبل التوبة من الحرص المذموم وغيره من المذمومات « صحيح مسلم بشرح النووي » (٧/ ١٣٩ ، ١٤٠) .

(٢) رواه البخاري في « صحيحه » (٤/ ١٥٩ ـ ١٦٠) كتاب الأيمان والنذور باب النذر فيما لا يملك (رقم ٦٧٠٤) .

فجعل العبادة عملاً ، والعمل عبادة ؛ بل جعل الاتصال الجنسي بطريقة مشروعة من العبادة ، ففي الحديث الشريف : « **وفي بضع أحدكم صدقة** »[١] .

إن الإسلام وضع طرائق لتزكية النفوس ، وتهذيب الأخلاق ، وتقوية الصلة بين الإنسان وبين ربه .

وتتمثل هذه الطرائق في العبادات المختلفة ، كالصلاة ، والزكاة ، والحج ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وغير ذلك .

إن هذه العبادات تصل الإنسان بربه ، ولا تقطعه عن مجتمعه ، يعمّر بها آخرته ، ولا تخرب من ورائها دنياه، إنها تقوم على الإيمان بالله ، واليوم الآخر، الذي هو المصدر الوحيد لسكينة النفس وطمأنينتها .

قال تعالى : ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾[٢] .

إن ذكر الله الذي يتمثّل في العبادات كلها ، هو الوسيلة الوحيدة لإزالة الألم في النفس ، والارتفاع بها ، وسكينتها ، وليست الرياضات ، أو التأملات الشاقة التي ليست سوى أوهام ، لا يقبلها العقل ، ولا تستجيب لها الفطرة السليمة .

* * *

---

(١) رواه مسلم في « صحيحه » (٢/ ٦٩٧) كتاب الزكاة باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف ورواه أيضًا أحمد في « مسنده » (٥/ ١٦٧) .
(٢) الرعد (٢٨) .

الفصل الرابع

الرهبنة في البوذية

وفيه ستة مباحث :

المبحث الأول : التعريف بالرهبنة البوذية ونشأتها .

المبحث الثاني : الموازنة بين الرهبنة البوذية والرهبنة النصرانية .

المبحث الثالث : نماذج من التقاليد والخصائص والنظم والآداب في الرهبنة البوذية .

المبحث الرابع : القديسون وعُبادتهم .

المبحث الخامس : بيان ما في الرهبنة البوذية من الفساد.

المبحث السادس : موقف الإسلام من الرهبنة .

المبحث الأول
تعريف الرهبنة البوذية ونشأتها

أ ـ التعريف بالرهبنة البوذية وبيانها :

يطلق على الرهبنة في اللغة البالية (Pali) اسم « بارباشا » (Barphasha) وهي مركّبة من كلمتين « بار » أي الزهد أو الاعتزال ، و« باشا » أي المطلق ، أو التام ، فيكون المعنى الزهد المطلق أو الاعتزال التام ، والمراد به هو الاعتزال عن البيوت والمساكن ، والاعتزال عن أسلوب حياة أهلها إلى أسلوب رهباني ، وهو التنسك والتبتل[١] وقد عرّفها بعض العلماء في البوذية ، بأنها هي الامتناع عن جميع الرذائل ، والاعتزال التام عن الحياة المدنية ، أو بتعبير آخر : الاعتزال عن العالم كله ، ويعني بذلك الاعتزال عن النهج الذي يعيش فيه أهل العالم[٢] .

وهذا المعنى هو المنصوص في الكتاب « تري بيتاكا »[٣] في جميع استعمالاته لهذه الكلمة .

---

(١) « مجموعة المصطلحات البوذية » (٢٦٠ ، ٢٧١) أما الرهبنة في اللغة العربية فتعني طريقة الرهبان في الزهد والعزلة ، قال ابن الأثير في « النهاية » (٢/ ٢٨٠ ـ ٢٨١) « الرهبانية منسوبة إلى الرهبنة بزيادة الألف . . . وهي من رهبنة النصارى ، وأصلها من الرهبة : الخوف ، كانوا يترهّبون بالتخلي من أشغال الدنيا ، وترك ملاذها ، والزهد فيها ، والعزلة عن أهلها ، وتعمّد مشاقها ، حتى أن منهم من كان يخصي نفسه ، ويضع سلسلة في عنقه ، وغير ذلك من أنواع التعذيب فنفاها النبي ﷺ ونهى المسلمين عنها » . قال في « اللسان » (١/ ٤٣٧ ـ ٤٣٨) : «والرهبانية مصدر الراهب ، والرهبنة فعلنة منه أو فعللة على تقدير أصلية النون وزيادتها » .

(٢) « قاموس المصطلحات البوذية » (١٣٢) .

(٣) وقد خص هذا الكتاب موضوع الرهبنة في قسم خاص يسمى « فينايا بيتاكا » (Vinaya Pitaka) يتضمن كل ما يتعلق بالرهبنة من نظامها ، وأدبها ، وطقوسها ، وما أشبه ذلك .

وقد فسر القديس « بوذتات فيكشو » هذا المعنى فيقول :

« إن المراد بالرهبنة البوذية هو الاعتزال الكلي عن جميع شئون الحياة المدنيّة[1] ولخّصها في سبعة أشياء :

١ ـ الاعتزال عن الحياة المدنية في تملّك الأموال والثروة ، فالراهب البوذي لا يملك شيئًا ، لأنه يعيش على مدّ اليد للتسوّل والاستجداء ، وليس له حق في التملّك ؛ بل عليه القناعة ، والرضى بما قدّم له المدنيون من الطعام ، واللباس ، والسكن ، والدواء ، ويعتبر ذلك من حقوقه المشروعة له .

٢ ـ الاعتزال عن الحياة المدنية في الترابط والاتصال بالأقارب ، مما يسبب الهموم ، والتعلق ، والتورط .

فليس هناك علاقة أبوية ، أو بنوية ، أو غيرهما ، بين الراهب البوذي وغيره من المدنيين ، لهذا فلا غرابة أن نجد بين البوذيين من يسجد لابنه المترهّب كسجوده للآلهة ، وتحكي القصة البوذية أن معظم الرهبان البوذيين في عصر بوذا لم يزوروا بيوتهم ، ولم يزوروا أهاليهم وأقاربهم طوال حياتهم الرهبانية .

٣ ـ الاعتزال عن العادة المدنية في اللباس .

فلا يلبس الرهبان لباس المدنيين ، واكتفوا بلباسهم الخاص ، وهو عبارة عن الإزار والرداء الأصفرين ، ولا يجوز لهم قصد الجمال ، أو التنعّم باللباس ، لأن ذلك من عادات المدنيين لا الرهبانيين .

٤ ـ الاعتزال عن العادة المدنية في الأكل .

فلا يأكل الرهبان أكثر من مرة واحدة في اليوم ، ولا يجوز لهم الأكل بالليل كما لا يجوز لهم الأكل بالتلذذ ، والتشهي ، لأن ذلك من صفات المدنيين .

---

(١) والمراد : أي شئون البوذيين المدنيين الساكني البيوت ، لأن البوذية تقسّم أهلها إلى طائفتين المدنيين : وهم ساكنو المنازل والبيوت ، والرهبان : وهم المتنازلون عن البيوت والأموال ، وعن الشهوات واللذّات ، لممارسة الحياة الرهبانيّة .

ومما روي عن بوذا في ذلك قوله :

« أيها الرهبان كلوا من الطعام كما يأكل الوالد لَحْمَ ولده الميت في حالة الاضطرار حفظًا لحياته » .

٥ ـ الاعتزال عن الأدوات التي يستعملها المدنيّون ، من الأدوات الثمينة والفاخرة ، كالذهب ، والفضة ، وما شابه ذلك .

٦ ، ٧ ـ الاعتزال عن الكلام الذي يتكلم به المدنيون ، وعن تصرفاتهم وأفكارهم التي تتولد دائمًا عن الرغبات ، والشهوات ، من غير مراقبة[1] .

فالرهبنة البوذية على هذا التعريف والبيان ، لا تعني الامتناع عن شيء معين كالزواج فحسب ، ولكنها تقتضي الاعتزال التام ، والزهد المطلق في المال ، والملبس ، والطعام ، وفي كل شئون المدنيين ، وعاداتهم ، وشعورهم .

ومن المعروف أن هذا النمط من الرهبنة البوذية هو الذي تدين به الكنيسة النصرانية بعدها ، وإن اختلفت بينهما في بعض النظم والتقاليد ، إلا أن منهجهما منهج واحد .

فالمطلع والباحث في مقارنة الأديان ، يجد أن الرهبان النصرانيين في آدابهم وتصرفاتهم ، اتبعوا المنهج البوذي دون تحريف ، فالترهب والتبتل ، وقمع الشهوات ، وكبتها ، هي سياسة البوذية ، وكذلك الهندوسية قبلها[2] .

وسيأتي الكلام عن اللقاء بين المسيحية والبوذية في الرهبنة قريبًا إن شاء الله .

ب ـ الغرض من الرهبنة في البوذية :

إن الغرض الحقيقي للرهبنة في البوذية هو إعدام الألم ، والتسامي بالروح ، أو الوصول إلى « نرفانا » في هذه الحياة ، فقد اعتقد البوذيون فيما

---

(١) من كتاب « تعاليم للرهبان » للقديس بوذتات بيهكشو من (٥ ـ ٨) وأيضًا (٢٨ ـ ٢٩) .
(٢) انظر « المسيحية » (٢٤٤ ـ ٢٤٦) .

زعموا أن الوصول إلىٰ « نرفانا » في أسرع وقت ممكن لا يتم إلا بانخراطهم في سلك الرهبنة ، وذلك لأن الحياة المدنية أو المنزلية علىٰ حدّ تعبيرهم ، لها عقبات ، ولها موانع كثيرة ، قد تحول دون الوصول إلىٰ « نرفانا » في هذه الحياة[١] ، أما الرهبانية فإنها تتيح لهم فرصة أكبر للوصول إلىٰ « نرفانا » ، لأنها تحررت عن جميع القيود ، والعقبات ، وتحررت عن الشهوات ، واللذات ، وعن نعيم الدنيا ، وزخارفها .

وقد ذهب بوذا إلىٰ أن الرهبانية أسلوب جليل من أساليب الحياة ، لما فيها من تضحية شاقة ، لا يصلح لها كل إنسان ، ولا يقدر عليها كل إنسان ، ولا يصل إلىٰ غايتها كل من سلك سبيلها ، كما زعم أنها أسمىٰ وظيفة للبشر ، وأن أصحابها هم في أسمىٰ مراتب الناس[٢] .

فقد أكّد بوذا في كثير من كلامه خطورة الحياة المدنية ، فمثّلها مرة بالبحر الواسع المخيف ، ومرة أخرىٰ بالغابة المليئة بالحيوان المفترس[٣] .

ولا يخفىٰ أن بوذا قصد من هذا التمثيل تخويف أتباعه من الحياة المدنية ليلتحقوا معه بالرهبانية ، وليبلغوا الهدف المزعوم « نرفانا » في حياتهم الراهنة ، ومن أجل هذا تنادي البوذية بالرهبانية ، وتفرض لجميع الرجال البوذيين أن يدخلوا فيها مرة في حياتهم ، أما نساؤهم فرهبانيتهن علىٰ سبيل الاختيار ، لا علىٰ سبيل الإلزام[٤] .

جـ ـ نشأة الرهبنة في البوذية وتطورها :

يرجع تاريخ نشأة الرهبنة في البوذية إلىٰ العصر البوذي الأول أي في النصف

---

(١) « تعاليم للرهبان » (٢٧ ، ٢٨) .

(٢) انظر « تري بيتاكا » (فينايا) (١٣٨) ، وسأعود فيما بعد بالنقد لهذا التفكير البوذي الذي يجر علىٰ العالم الخراب والدمار في مبحث مستقل إن شاء الله .

(٣) من نص طويل لم أجد في ذكره بالتفصيل فائدة ولذلك اختصرته « تري بيتاكا » (فينايا) (٢٠٩) .

(٤) انظر « تعاليم الرهبان » (١٤ ، ١٥) .

الأول من القرن السادس قبل الميلاد ، عندما انتشرت في ذلك العصر مظاهر الرهبانية ، وذلك بظهور عدد من النساك والرهبان من البراهمة ، والجينيين ، واليوجيين ، وغيرهم ، وكان هؤلاء ينقطعون إلىٰ الغابات والكهوف متنسّكين ، ومترهبين ، مبتعدين عن العالم ، وعن نعيم الدنيا وزخارفها .

فبعضهم يستغرقون في التأمل ، والتفكير في أسرار الحياة ، وفكّ غوامضها ، وبعض الآخرين يتدرّبون جميع أنواع التعب والمشقة ، زاعمين أن ذلك تنقية للروح ، وتحرير لها من القيود الجسمانية ، ومعوقاتها[1] .

وكان كثير منهم ينتقلون من قرية إلىٰ قرية لاستجداء الطعام ، ويتجولون في القرىٰ والأرياف لنشر مبادئهم ، وأفكارهم ، وكانت الطبيعة ، والأجواء ، قد أملت عليهم ظاهرة التحمل ، والصبر علىٰ المتاعب والمشاق[2] .

وكان من بين هؤلاء النساك الأمير « سيدهارتا » مؤسّس البوذية ، فقد اتخذ الرهبانية شريعة له في الحياة ، منذ خروجه من القصر ، حتىٰ آخر حياته .

تروي القصة البوذية أن بوذا قد اتخذ حياة الزهد ، والتقشف ، والنسك منذ مغادرته القصر ، ولم يخرج عنها حتىٰ نالته الوفاة[3] .

وعلىٰ الرغم من إعلانه أخيراً ، أن خير ما يوصله إلىٰ غايته هو العقل ، وليس الزهد والتقشف ، إلا أنه لم يستطع التخلي عن تفكيره القديم تخليًا تامًا ؛ ولهذا نجد أن قصة حياته كلها قدوة لأتباعه في الحياة الرهبانية لا غير .

فقد روىٰ الكتاب « تري بيتاكا » أن بوذا عاش حياة التنقّل والتجوّل ، ومارسها طوال حياته ، دون راحة ، أو سكون ، ودون قرار ، أو مستقر ، لم يتخذ له مسكنًا ، رغم أنه ابنٌ للملك ، وأن له كثيراً من المال والثروة ، كان يلبس كساء اليوجيين والرهبان طول حياته ، وهو عبارة عن الإزار الأصفر

---

(١) Introduction to indian philosophy P . P 520 , 521 .

(٢) « الفلسفة البوذية » (٣٣) .

(٣) « قصة بوذا » (١/ ٤٨) .

المصبوغ بالزعفران ، وكان يحلق رأسه ، ويمشي حافيًا في الطريق ، وإذا حل في أي قرية لنشر دعوته ، كان يوفّر له أهلها المسكن ، والمأوىٰ ، والأكل ، والشراب له ولحوارييه ، ولم تنشأ الأديرة التي تنتشر اليوم طول حياته[1] .

إن قصة رهبانية بوذا ـ في واقع أمرها ـ لا تخرج عن نمط هؤلاء النساك الذين عاصرهم ، غير أن بوذا قد ادّعىٰ ما ادّعىٰ من حصوله علىٰ الحكمة والاستنارة ، وادّعىٰ أنه كرّس حياته كلها علىٰ إنقاذ البشرية من ويلات الآلام ، والأحزان ، والمشكلات ، بالطريقة السلمية الإيجابية ، فأعجب به كثير من الشبان ، والكهول من الرجال ، والنساء ، ولازمه هؤلاء علىٰ الدوام ، ثم حاولوا اقتفاء أثره في كل شيء ، في الملبس ، والمأكل ، والمشرب ، والمسكن ، والمأوىٰ .

إن معظم تلاميذه قد ترهبوا ، وتنازلوا عن بيوتهم ، وأهاليهم ، وعن أموالهم ، ومناصبهم ، ليتبعوا بوذا ، ويزاولوا معه تدريبات روحية بالامتناع عن جميع الشهوات ، واللذات الكلية ، فلا يكون همّهم ورغبتهم إلا التحرر من القيود الجسمانية ، للوصول إلىٰ البغية المنشودة ، وهي « نرفانا » علىٰ حد زعمهم .

وقد روىٰ الكتاب « تري بيتاكا » حكايات كثيرة عن رهبانية بوذا وتلاميذه ، وعن النظم والتقاليد التي رسمها بوذا لهم ، مما يؤكد أن الرهبنة في البوذية نظام يستهوي نفوس البوذيين في الهند منذ الجيل الأول للتاريخ البوذي .

وقد مرت الرهبنة في البوذية بمراحل ، فكانت بالمرحلة الأولىٰ هروبًا من الحياة المدنية ، وبعدًا عن المدن والقرىٰ ، وعن متاع الدنيا وانطلاقًا في الغابة ، بقصد محاربة الجسد ، وكبح الغريزة الجنسية ، والإكثار من عبادة التركيز والتأمل ، مع المحافظة علىٰ الوحدة ، والتفرد والعزلة .

---

(١) انظر « تري بيتاكا » (فينايا) (١٥٣ ، ١٥٤) .

ولما طال الزمن ، كثر عدد البوذيين الراغبين في الترهب ، ومال هؤلاء إلى نوع من الاجتماع والمعاشرة ، فكوّنوا جماعات منظّمة ، تتألف من أصحاب الميول الواحدة رجالاً ونساء ، لهم قوانين وآداب خاصة بهم ، واتخذوا لأنفسهم اسم « بيهكشو سانغا » (Bhikshu Sangka) أي جماعة الرهبان المتسولين ، تعبيراً عن زهدهم في الدنيا ، وبنوا لهم أكواخًا ، أو صوامع متجاورة ، يطلق عليها في البالية والسنسكريتية اسم « أشرام » (Ashram)(١) .

ثم انتهى بهم الأمر بعد مرور الزمن ، إلى إنشاء المعابد الفاخرة وإنشاء الأديرة(٢) للرهبان ، وانتشرت هنا وهناك في ربوع الهند(٣) .

ومن هنا يمكن القول بأن الزهد والعزلة هما من الدعائم الأولى للحياة الديرية في البوذية ، لأنهما مهّدا في أول الأمر لنوع من حياة الرهبانية الانفرادية ، يمثّل ذلك في رهبانية بوذا وحوارييه ، ثم تحوّلت بعد ذلك إلى حياة ديرية اجتماعية بعد انتشار المعابد والأديرة .

يقول الدكتور غوستاف لوبون الذي عاش فترة في الهند ودرس ما فيها من الديانات :

« والزهد أحسن وسيلة لنيل حال « بوذا » ، ومن هنا جاء النظام الرهباني الذي لم يعتم أن ملأ الهند بالأديار ، وأقوى طريقة يتّخذها الإنسان ليكون بوذا هو أن يقتل في نفسه الرغبة التي هي علة الحياة والألم ، وهذا ما تهدي إليه

---

(١) « قوانين الرهبنة » (١/ ١٥) .

(٢) والأديرة البوذية كما شاهدتها في تايلاند ، وكمبوديا ، وبورما ، وفي بعض البلاد المتجاورة ، عبارة عن البيوت أو المباني التي تبنى حول المعابد البوذية ، ليسكن فيها الراهبون ، وكذلك الراهبات وكانت الأديرة في القديم بيوتًا صغيرة تقام في الغابة بعيدة عن الناس ، ثم تطوّرت بعد ذلك إلى المباني الكبيرة تبنى حول معبد في المدن والقرى ، وتسمى في البالية « كوتي » (kuti) أي مسكن الرهبان " Priest s cell " من كتاب « مجموع المصطلحات البوذية » (٣٤) .

(٣) انظر « تاريخ الديانة البوذية » (١٣٠) ، وعلى مرور الزمن انحطت البوذية في الهند وخرجت منها إلى أنحاء شرق آسيا فلم يبق فيها اليوم إلا الآثار ، وبعض النشاطات الدينية ، التي يقوم بها عدد قليل من البوذيين في الهند .

الحقائق الكبرىٰ الأربع التي هي أساس الشريعة البوذية ، والتي تخاطب رجال الرهبان لا الجمهور »[١] .

كما تحدث الدكتور محمد إسماعيل الندوي ، في كتابه « الهند القديمة »[٢] مبيّنًا تطوّرات مدرسة بوذا الرهبانية فيقول :

« ومن النظم التربوية السائدة في مدرسة بوذا الروحية المتنقلة ، أن حوارييه كانوا يعقدون الاجتماعات فيما بينهم ، ويقومون برحلات روحية للتدريب علىٰ تعاليمه ، وتنقية الروح من الأوثان ، ويعلنون علىٰ مسمع من الناس ، ومرأىٰ منهم ذنوبهم التي ارتكبوها حتىٰ لا يعودوا إليها مرة أخرىٰ .

فلما كثر عدد أتباعه في كل قرية ، اتبع هؤلاء نظام المجالس القروية الموجودة في كل قرية منذ القدم ، أي منذ قدوم الآريين إلىٰ الهند ، وحاولوا عرض الأمور الدينية والدنيوية التي تعترضهم بين حين وآخر في هذه المجالس ، لحلّها عن طريق المناقشة الحرة ، وكانت القرارات تتخذ بالإجماع ثم تنفّذ ، وكان ينتخب أعضاء المجلس من بين الرهبان أنفسهم ، وبهذا قامت الأديار رويدًا رويدًا ، وتلتها التنظيمات السياسية ، والطرق التبشيرية في البوذية » .

أما القوانين ، والنظم ، والتقاليد في الرهبنة ، فإنها تمّت وتوطّدت تدريجيًا علىٰ أيدي الرهبان البوذيين أنفسهم ، ولم يضع بوذا في حياته صورة أو شكلاً معيّنًا للنظام البوذي كما هو معروف اليوم ، بل تمّ ذلك بعد وفاته علىٰ أيدي الرهبان الأوائل ، ثم الذين بعدهم ، حيث أدخلوا عليها تعديلات وإضافات كثيرة ، حسب أهوائهم ومصالحهم ، كما هو شأن سائر القوانين والنظم الوضعية .

وبعد مرور الزمن وكثرة التعديلات ، دوّنت النظم الرهبانية في البوذية وأصبحت قانونًا رهبانيًا يحكم به الرهبان البوذيون فيما بينهم .

---

(١) « حضارات الهند » (٣٦٠ـ٣٦١) .

(٢) ص (١٥١) .

المبحث الثاني

الموازنة بين الرهبنة البوذية والرهبنة النصرانية[١]

لا يخفىٰ علىٰ كل باحث في الأديان ، أن هناك صلة وثيقة بين البوذية والنصرانية في النظام الرهباني ، وذلك لوجود ملامح متشابهة بين الرهبانيتين مما يؤكد أن النصرانية قد اقتبست رهبانيتها من البوذية التي سبقتها بما يقرب من خمسة قرون .

ومن الأدلة التي تؤيد هذا القول :

١ ـ من الأدلة التاريخية التي أثبتها المؤرخون والباحثون في الأديان أن الرهبنة النصرانية نشأت أول ما نشأت في مصر ، وذلك في خلال القرن الثالث الميلادي[٢] ، ثم نقلها الرهبان الأقباط إلىٰ إيطاليا وفرنسا وغيرهما من الدول[٣] ، كما أن أولىٰ الأديرة التي عرفتها المسيحية كانت في مصر[٤] .

وقد أثبت المؤرخون أن هناك لقاءً بين النصرانية والبوذية في مصر ، وخاصة في الإسكندرية في خلال القرنين الثاني والثالث الميلاديين[٥] .

---

(١) إن الكلام عن الرهبنة في النصرانية يحتاج إلىٰ بحث طويل ، ولست بصدده ، وإنما أريد في هذا البحث الموجز إثبات وجود الصلة بين الديانتين في الرهبنة .

(٢) انظر «سيكولوجية الحياة الروحية في المسيحية والإسلام» للدكتور محمد جلال شرف والدكتور عبد الرحمن محمد عيسوي (٣٣٦) و« الإسلام والفلسفات القديمة » لأنور جندي (٢١٢) .

(٣) انظر « المسيحية » (٢٤٦) نقلا عن « تاريخ الأقباط » للأستاذ زكي شنودة (٢١٤) ، وانظر أيضاً «تاريخ أوربا في العصور الوسطىٰ » (١٣٠) .

(٤) « تاريخ أوربا في العصور الوسطىٰ » للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور (١٢٩) نقلاً عن :
Cam med hist vol I P . 524

(٥) انظر « الهند القديمة حضاراتها ودياناتها » (٢١٨ ـ ٢٢٢) .

حيث كانت الإسكندرية في ذلك الوقت مركز الحضارة الرومانية ، وقد بلغت في الحضارة والتقدم ، وصارت من الناحية التجارية المركز الأول في العالم[١] .

وقد كثر توافد تجّار الهند وسفرائها على الإسكندرية من المناطق المختلفة ، وتردّد عليها كثير من البوذيين والجينيين ، وهم في طريقهم إلى الروم ، وهناك وثائق عديدة تشير إلى مثل هذه الزيارات[٢] .

ومن هنا يعتقد المؤرخ « راوليسون » (Raulison) أن الإسكندرية كانت على علم تام ومعرفة كاملة بأديان الهند ، وفرقها ، ونحلها .

وأن النصارى في الإسكندرية قد اتخذوا منها معظم خصائصها وملامحها البارزة مثل السبحة ، واتخذوها رمز التقديس والمهابة ، وبالغوا في الرياضات البدنية والرهبانية والعزلة[٣] .

ويقول الباحث البوذي الدكتور « فراموت » (Pramote) في كتابه « الأديان الحية في العالم »[٤] :

« من المحتمل جداً أن تكون النصرانية في الإمبراطورية الرومانية قد تأثرت رهبانيتها إلى حد بعيد من الديانة البوذية التي خرجت من موطنها الأصلي الهند في ذلك الوقت ، وانتشر معتنقوها في العالم الروماني عن طريق القوافل التجارية وغيرها » .

---

(١) المصدر السابق (٢٠٧ ، ٢٢٢) .

(٢) انظر « الهند القديمة » (٢١٨) ، يقول المؤرخ « راوليسون » (Raulison) أن بولس الرسول (ت٦٧م) نال ترحابًا حاراً في المدرسة الإسكندرية ، كما نال الراهب البوذي « باريغازا » (Barigaza) نفس التقدير والترحاب ، كما روي أيضاً أنه اتصل بالتصوف الهندي والبوذي العالم المسيحي الشهير « أوريجين » (Origen) المتوفى (سنة٢٥٤م) ذلك الذي عرض الكنيسة المسيحية بصورة منظّمة ومنسّقة لأول مرة . انظر « الهند القديمة » (٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠) .

(٣) انظر المصدر السابق (٢١٨ ، ٢٢٠) .

(٤) صفحة (٢٠٣) .

٢ ـ اتفقت النصرانية مع البوذية في كثير من المبادئ والتعاليم وقد أشرت إلىٰ ذلك في غير موضع ، أما في الرهبانية فقد اتفقت معها أيضًا إلىٰ حد بعيد ، لأن ظهور الكنائس النصرانية ، وسلطانها ، ونظمها ، في البداية شبيهة بالبوذية إلىٰ درجة كبيرة جدًا ، ولعل انتشار الأديرة البوذية في أنحاء العالم بعد بوذا بقرون ، وفي الشرق الأوسط بالذات أيام الإغريق ، أعطىٰ المسيحية فكرة إنشاء الكنائس علىٰ منوالها[١] .

ومن الشواهد التي يمكن الاستشهاد بها علىٰ ذلك ما سجلته بعثة فرنسية من الإرساليات التي قامت برحلة تبشيرية في عام (١٨٤٢م) إلىٰ « لهاسا » (Lhasa) عاصمة التبت (Tibet) الواقعة علىٰ رأس الهملايا (Himaliya) ، حيث اندهشت البعثة إلىٰ أقصىٰ الحدود حينما وجدت تشابهًا كبيرًا في المراسيم البوذية وطقوسها وبين المسيحية الكاثوليكية[٢] ، لأنها شاهدت في الأديرة البوذية في «لهاسا» صولجان[٣] الأسقف ، وتاجه ، ورداء الكاهن ، علىٰ نفس الطريق الكاثوليكية ، كذلك وجدت صورة مماثلة في جوقتين[٤] للمنشدين في المكان

---

(١) انظر « الهند القديمة » (٢٢١) .

(٢) نسبة إلىٰ الكنيسة الكاثوليكية (Catholicism) ومعنىٰ الكاثوليكية : العامة ، وإنما سميت بذلك لادعائهم أنها أمّ الكنائس ، وأنها وحدها التي تنشر النصرانية في العالم ، وتسمىٰ كذلك الكنيسة الغربية أو اللاتينية ، لأنها غلبت علىٰ الغرب اللاتين خاصة ، فصارت لها السيطرة في إيطاليا ، وبلجيكا ، وفرنسا ، وإسبانيا ، والبرتغال ، وقد تشمل غيرها من البلدان ، والرئيس العام للكنائس الكاثوليكية هو بابا روما ، ويعاونه الكرادلة ، وله الحق في التحليل والتحريم كما شاء وكيف شاء ، ومن أهم ما تميز به الكاثوليك في العقائد أنهم اعتقدوا أن روح القدس نشأ عن الله الأب ، وعن الله الابن معًا ، كما أنهم يعتقدون بالمساواة الكاملة بين الله الأب والله الابن ، تعالىٰ الله عما يقولون علوًا كبيرًا ، كما يعتقدون أيضًا أن المغفرة من حق الكنيسة ، تمنحها لمن شاء ، وتمنعها عمن تشاء ، من كتاب « الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة » (ص٥٥) .

(٣) صولجان : فارسي ومعناه العود المعوج أو عصا يعطف طرفها يضرب بها الكرة علىٰ الدواب «اللسان» (٢/ ٣١٠) والأسقف كلمة يونانية معناها راهب نصراني في درجة الأسقف وهي فوق القسيس ودون المطران ، والجمع أساقفة أو أساقف « الرائد » (١/ ١٣٤) .

(٤) جوقة : الجماعة من الناس قال ابن سيده : وأحسبه دخيلاً « اللسان » (١٠/ ٣٧) .

المقدس ، وفي الأناشيد ، والتعاويذ ، والمبخرة المربوطة بخمس سلاسل ، ومنح البركة للمصلين على جبينهم باليد اليمني للكاهن ، وكذلك كانت السبحة[١] ، وعزوبة الكليروس[٢] ، مماثلة للكاثوليكية ، وناهيك بالتشابه الكامل في الرهبانية ، والعزلة عن الدنيا ، والاعتكاف ، والصيام ، والمواكب الدينية ، والابتهالات ، ورش الماء المقدس .

ومن المعروف أنّ التبت (Tibet) لم تكن على صلة مباشرة بالشرق الأوسط ؛ بل عاشت في عزلة تامة عن الدنيا ما عدا الهند ، لقد انتشرت البوذية فيها قديمًا عن طريق الهند ، وهذا الأمر يؤكد أصالة البوذية في هذه الأمور الطقوسية كلها ، تلك التي كانت منتشرة ومعروفة في أنحاء العالم البوذي في ذلك الحين ، وبصفة خاصة في العالم الروماني ، ومن هنا دخلت بحذافيرها إلى المسيحية في الإسكندرية في العهد الروماني[٣] .

٣ـ من الأوجه المتشابهة بين الديانتين في الرهبنة ، وجود المفاسد والانحرافات في كل من الأديرة البوذية والنصرانية ، وهو أمر معروف لدى الباحثين في تاريخ الأديان ، لأن الكبت العنيف الذي تفرضه الرهبانية لا يمكن تنفيذه ، ويؤدي في النهاية إلى نتيجة عكسية من الانحرافات[٤] .

ومن الأوجه المشابهة أيضًا عبادة الرهبان والقديسين ، فالبوذيون يعبدون بوذا ، ويعبدون جميع الرهبان والقديسين ، ويعتبرونهم واحدًا من الثالوث المقدس[٥] .

---

(١) السبحة بضم السين هي الخرازات التي يعد المسبح بها تسبيحه وهي كلمة مولدة « اللسان » (٢/ ٤٧٣) .

(٢) هي الكهنة عند النصاري كالقسوس والأساقفة الواحد الإكليريكي وهي نصرانية دخيلة .

(٣) « الهند القديمة » (٢٢٠ ، ٢٢١) .

(٤) عن الديرية النصرانية وانحرافاتها انظر « تاريخ أوربا في العصور الوسطى » (١٢٧ ـ ١٤٦) وأيضًا « المسيحية » (٢٤٦ ـ ٢٥١) أما الديرية البوذية فسيأتي الكلام عنها إن شاء الله .

(٥) سبق بيانه .

كذلك النصارىٰ غلوا في نبيهم عيسىٰ عليه السلام ، فجعلوه شريك الخالق سبحانه وتعالىٰ ، وجزءاً منه ، وإلهًا آخر معه ، وغلوا في قديسيهم وصالحيهم ، فيعبدونهم من دون الله ، وقد أشار القرآن الكريم إلىٰ ذلك في قوله تعالىٰ :

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴾[1] .

٤ ـ علاوة علىٰ ما ذكرناه إذا قمنا بالموازنة بين الأقوال المنسوبة إلىٰ المسيح في الأناجيل المحرّفة ، وبين أقوال بوذا ، نجد بينهما تشابهًا كبيراً .

وفيما يلي أذكر بعض النصوص الواردة في كلّ من « تري بيتاكا » والأناجيل الأربعة للموازنة بينهما .

أ ـ في « تري بيتاكا »[2] :

أوصىٰ بوذا اتباعه بأن يطرحوا الدنيا جانبًا ، ويتنازلوا عن بيوتهم ، وأموالهم ، وأهاليهم ، ويؤثروا الفقر ، والعيش علىٰ التسوّل ، وكان يقول لشاب ثري يدْعىٰ « ياشاش » الذي جاءه ليكون واحداً من تلاميذه :

« إن أردت أن تكون طاهراً صافيًا ، وتعيش في بهجة خالدة ، فتنازل عن العالم ، عن الحياة المدنية ، واتبعني تعش في بهجة خالدة » .

وفي « إنجيل متىٰ »[3] اشترط المسيح علىٰ من يريد دخول الدعوة أن يتنازل عن أملاكه ، ويؤثر الفقر ، ليدخل في ملكوت الله ، فقال للشاب الغني لما سأله عن العمل الصالح الذي به الحياة الأبدية :

« إن أردت أن تكون كاملاً فاذهب ، وبع أملاكك ، وأعط الفقراء ، فيكون لك كنز السماء ، وتعال اتبعني » .

وفي « إنجيل مرقس »[4] :

---

(١) التوبة (٣١) .

(٢) (سوتان) (٦١٣) .

(٣) انظر « الإصحاح » (١٩) فقرة (١٦ ـ ٢٢) وأيضًا «إنجيل لوقا» الإصحاح (١٨) فقرة (١٨ ـ ٢٢) .

(٤) الإصحاح (١٠) فقرة (٢٨ ـ ٣٠) .

يقول بطرس ـ أحد حواريه ـ : « ها نحن قد تركنا كل شيء ، وتبعناك ؛ فأجاب يسوع : الحق أقول لكم ، ما من أحد ترك لأجلي ، ولأجل الإنجيل ، بيتًا ، أو إخوة ، أو أخوات ، أو أمًا ، أو أبًا ، أو أولادًا ، أو حقولاً ، إلا وينال مائة ضعف الآن في هذا الزمان ، وفي الزمان الآتي الحياة الأبدية » .

ب ـ في « تري بيتاكا »[١] أقرأ هذا النص :

« الفكر الحسن ينتج أعمالاً حسنة ، والفكر السيئ يجيء بكل منكر ، إن عدم الاهتمام بالعالم سبيل الخلود ، لأن الذين لا يهتمون بما للعالم يخلدون براحتهم الأبدية ، أما الراغبون في العالم فيغرقون في الآلام » .

وأيضًا : « إن الذين يعيشون لمسراتهم ، ويهتمّون بما يأكلون وما يشربون قد قيّدهم « مارا »[٢] بقيوده ، يتلاعب بهم تلاعب الريح بالشجرة الضعيفة التي لا تصمد فتسقط ، إن الذين لا يهتمون بما للجسد من أكل وشرب ، فهم كصخرة ثابتة في الجبل ، لا تستطيع الرياح على زعزعتها » .

واقرأ في « إنجيل متى » [٣] :

« لا تهتمّوا لحياتكم بما تأكلون ، وما تشربون ، ولا لأجسادكم بما تلبسون ، أليست الحياة أفضل من الطعام ، والجسد أفضل من اللباس ؟! » .

وفي« إنجيل لوقا » [٤] :

« يا قليلي الإيمان ، لا تطلبوا أنتم ما تأكلون وما تشربون ، ولا تقلقوا ، فإن هذه كلها تطلبها أمم العالم ، وأما أنتم فأبوكم يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه ، بل اطلبوا ملكوت الله ، وهذه كلها تزاد لكم » .

---

(١) (أبيدارما) (٦٥٨) و(سوتان) (٦٢٦) .

(٢) في اللغة « البالية » تعني الشيطان .

(٣) الإصحاح (٦) فقرة (٢٥) .

(٤) الإصحاح (١٢) فقرة (٢٨ـ٣١) .

جـ - في «تري بيتاكا»[1] روي عن بوذا قوله عن سلوك الزهاد نحو النساء :

« أيها الزهاد احذروا أن تنظروا إلىٰ امرأة ، فإذا رأيتم امرأة فكونوا كأنكم لم تروا شيئًا ، ولا تحادثوها ألبتة ، وإذا أجبرتم علىٰ محادثتها ، فليكن ذلك بقلب طاهر ، واعلموا أنكم تعيشون في هذا العالم الخاطئ كورقة لوتس تنمو وسط الأوحال . . .

إن قوة الشهوة عظيمة في الرجل ومخيفة أيضًا ، فاحرصوا علىٰ أنفسكم ، وإنْ تسمل أعينكم بحديد ، ويصبح كل منكم بدون عينين خير لكم من أن تسقطوا في فكر الخطيئة ، أو تنظروا إلىٰ امرأة لتشتهوها ، وإنْ تقعوا بين أنياب نمر مفترس ، أو تحت ضربة سيف قاطع ، يفصل رأسكم عن جسدكم خير لكم من أن تساكنوا امرأة ، فأبعدوا عنكم شهوة الفكر بكل قواكم ، ولا تعثروا » .

في « إنجيل متىٰ »[2] روي عن المسيح قوله :

« . . . وأما أنا فأقول لكم : إن كل من ينظر إلىٰ امرأة ليشتهيها فقد زنىٰ بها في قلبه ، فإن كانت عينك اليمنىٰ تعثرك فاقلعها ، وألقها عنك ، لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ، ولا يلقىٰ جسدك كله في جهنم » .

و - في « تري بيتاكا »[3] يروىٰ عن بوذا قوله :

« إن البغض ينتج البغض والعداوة ، فقابلوا أعداءكم بالمحبة ، وقابلوا السيئة بالحسنة ، والإساءة بالرحمة ، والكذب بالصدق ، واعلموا أيها الزهاد ، أن البغض لا ينفي البغض ، ولكنه يزول بالمحبة ، قل الصدق ، ولا يمل قلبك إلىٰ الغضب ، ومن سألك فأعطه ولو كان عدواً » .

---

(١) « فينايا » (١١٩) وأيضًا (١٦٦) .
(٢) الإصحاح (٥) فقرة (٢٨ - ٣٠) .
(٣) (سوتان) (٣٣٩) .

وفي « إنجيل متىٰ »[1] النص الآتي :

« لا تقاوموا الشر ؛ بل من لطمك علىٰ خدك الأيمن فحوّل له الآخر أيضًا ، ومن أراد أن يخاصمك ، ويأخذ ثوبك ، فاترك له الرداء أيضًا » .

وأيضًا :

« سمعتم أنه قيل : تحب قريبك ، وتبغض عدوّك ، وأما أنا فأقول لكم : أحبّوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، أحسنوا إلىٰ مبغضيكم ، وصلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم » .

ولا يخفىٰ أن هذه الحكمة البوذية الأيجيلية حكمة غير معقولة ، لا يقرها عرف ، ولا يدعو إليها قانون ، فضلاً عن أنها غير ممكنة القبول والتطبيق .

وقد استندت الكنيسة النصرانية إلىٰ مثل هذه الأقوال في الأناجيل والتي كثر ورودها علىٰ لسان المسيح عليه السلام ، ردّاً علىٰ المادية المتطرفة التي كانت شائعة في بني إسرائيل ، وفي العالم الروماني كله ، ولكن الكنيسة قد بالغت في الاستناد إلىٰ هذه الأقوال ، متأثرة بالعناصر الخارجية ، كالبوذية ، وأمثالها حتىٰ وصلت بها إلىٰ الرهبانية التي تنعزل عن الحياة ، وتقهر النوازع الفطرية في الإنسان ، تلك الرهبانية التي يقول عنها القرآن الكريم :

﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾[2] .

فأثبت القرآن في هذه الآية حقيقتين :

١ ـ أن هذه الرهبانية لم يكتبها الله عليهم ابتداءً ، وإنما ابتدعوها من قبل أنفسهم ، وهذا لا ينكر قولنا بأنهم تأثروا من البوذية لأن معنىٰ ابتدعوها : أي في دينهم ، وقد وجدت في غيره من الأديان وتأثروا منها .

---

(١) الإصحاح (٥) فقرة (٣٩ ـ ٤٠) وأيضًا (٤٣ ـ ٤٤) .

(٢) الحديد (٢٧) .

٢ ـ أنهم ما رعوها حقّ رعياتها ، فلا يصبرون على تكاليفها ، ولا يحافظون على مقتضياتها ، ، وأصبحت طقوساً وشعائر خالية من الروح .

* * *

المبحث الثالث

نماذج من التقاليد ، والخصائص والنظم ، والآداب في الرهبنة البوذية

١ ـ عادة البوذيين للدخول في سلك الرهبنة :

جرت عادة البوذيين أن يدخلوا الأديرة لممارسة الرهبانية التي فرضت عليهم، وهي على نوعين :

الرهبنة الإجبارية ، والرهبنة الاختيارية .

أما الرهبنة الإجبارية : فهي التي أوجبتها البوذية على كل رجل من البوذيين مرة في العمر ، وهي لا تقلّ عن ثلاثة أشهر[١] .

وقد اعتقد البوذيون في تايلاند وغيرها من الدول البوذية ، أن اعتراف الشخص بجميل والديه وبره لهما لا يتمّان إلا بدخوله في الرهبنة مرة في الحياة ، فالترهب من الابن - في زعمهم - دليل على إحسانه لوالديه ، واعترافه بمعروفهما[٢] .

وعلى هذا فقد جرت عادتهم أن يترهب أبناؤهم ثلاثة أشهر على الأقل قبل شروعهم في الزواج ـ وهي في اعتقادي عادة غريبة ـ إذ كيف يمكن للمترهب في خلال هذه المدة القليلة أن يجتاز المراحل العسيرة ، وينال « الخلاص » الذي هو الغاية في الرهبنة ،والهدف الأسمى في زعمهم ؟! وكيف يكفيه هذا الخلاص المزعوم ـ لو فرض نيله ـ وهو قد خرج من الرهبنة وعاش كما يعيش

---

(١) « تعاليم للرهبان » (٢٩) .

(٢) المصدر السابق .

سائر الناس؟ ثم كيف تكون الرهبنة براً للوالدين وإحسانًا لهما، مع أن الرهبنة في جانب وبرّ الوالدين في جانب آخر ، ولا علاقة بينهما إطلاقًا ؟ فبرّ الوالدين لا يتمّ إلا بخدمتهما ، والإنفاق عليهما ، والرفق بهما في القول والعمل ، وما شابه ذلك ، وهذا لا ينطبق مع الرهبنة التي تقوم على أساس الاعتزال عن جميع الناس.

وأما الاختيارية : فهي التي يتطوع لها البوذيون بأنفسهم لممارسة الحياة الرهبانية على مدى الحياة ، والرهبان على هذا الصنف هم الذين يمثّلون الأغلبية في المعابد والأديرة ، ويكون أغلبهم من كبار السن ، أما الشباب فلا يوجد منهم إلا عدد قليل[١] .

وللدخول في الرهبنة طقوس دينية خاصة لا تختلف كثيراً بين الدول البوذية إلا في الشكل[٢] .

ورد في كتاب « تري بيتاكا »[٣] حكايات عن ترهب البوذيين الأوائل مفادها أن الدخول في الرهبنة في العصر الأول للتاريخ البوذي كان يتمّ بواسطة بوذا وموافقته عليه ، أو بواسطة حوارييه وتلاميذه الذين أرسلوا إلى المدن والقرى للدعوة البوذية ، ثم بعد انضمام عدد كبير من الرهبان إلى الجماعة البوذية تقرّر

---

(١) أفدت هذه المعلومات من مقدمة كتاب « قوانين الرهبنة » لجماعة من علماء البوذية ، وكذلك مما شاهدته في المعابد والأديرة في تايلاند ، وبورما ، وماليزيا .

(٢) في دولتي تايلاند وبورما ، اعتنى البوذيون فيهما اعتناءً كبيراً بهذه الطقوس ، حيث يقيمون لها حفلة كبيرة ، يجتمع فيها كثير من الناس ، ومن أبرز هذه الطقوس أنهم يحملون المريد المترهب على محفّة ، ويسيرون في موكب ضخم إلى المعبد ، وتصحبه الموسيقى مع رقصات دينية منتظمة من الرجال والنساء ، ولما يصل الموكب إلى المعبد ، يطوف حوله سبع مرات ، ثم يتقدم مجموعة من كبار الرهبان ليباركوا على المريد المترهب ، ويتقدم الحلاّق ، فيحلق رأسه ، وحاجبيه ، وجميع الأشعار على وجهه ، والناس يصبّون عليه الماء ، ويباركون له ، وبعد ذلك يتقدّم شيخ المعبد أي رئيسه فيلبسه لباس المعبد وهو عبارة عن إزار ورداء مرقّعين ومصبوغين باللون الأصفر ، ويأخذ منه العهد في الالتزام بالنظام ، ثم يستأنف الموكب سيره ليقدّم المريد إلى الدير .

(٣) (فينايا) (١٣٢ ، ١٣٤) .

الأمر بأن الدخول في الرهبنة يتمّ بواسطة عشرة على الأقل من كبار الرهبان ، منهم رئيس المعبد .

وذكرت بعض المصادر البوذية أن السبب في ذلك هو الحفاظ على وجود الرهبان الصالحين ، والتوقي عن رهبان السوء في هذه الديانة[1] .

٢ ـ نماذج من خصائص الرهبان وتقاليدهم :

للرهبان البوذيين خصائص كثيرة يختصّون بها دون غيرهم من المدنيين ، وتعتبر هذه الخصائص من أهم الشروط في الرهبانية .

وفيما يلي أورد بعض المظاهر منها :

أ ـ لبس اللباس الأصفر :

من أبرز خصائص الرهبان البوذيين لبس اللباس الأصفر ، وهو عبارة عن قطعتين من القماش المصبوغ بالأصفر ، يتخذون إحداهما إزاراً والأخرى رداء على شكل لباس الإحرام ، ويضعون فوقهما بعض الرقعة ، دلالة على الزهد ، والفقر والمهانة ، ولا يلبسون غير هذا اللباس طوال مدة رهبانيتهم[2] .

والبوذيون يقدّسون هذا اللباس إلى حد بعيد ، ويعتبرونه شعاراً مقدسًا في ديانتهم .

جاء في كتاب « بودا دهارما »(Buddha Dharma)[3] : «إن اللباس الأصفر رمز مقدّس لرهبانية بوذا ، فلا يلبسه إلا الرهبان ، لأنهم ممثّلون شخص بوذا » .

وكان هذا اللباس في القديم عبارة عن الخرق الملتقطة من المزابل أو أكفان

---

(١) « تاريخ الديانة البوذية » (١١٢) .

(٢) وقد أفادني بعض الرهبان أن السرّ في لباس الأصفر هو أنه لون الشمس ، وهي مصدر النور التي يستضيء بها الإنسان وعلى هذا يزخرفون معابدهم وأصنامهم بهذا اللون .

(٣) صفحة (٤٨) .

فقد جاء في كتاب « تري بيتاكا »[١] أن رجلاً يدْعىٰ « جيفاكا » وكان طبيبًا للملك « بمبيسارا » (Phimpisara) قصد إلىٰ بوذا ليهدي إليه الثوب المصبوغ من أجود الصوف ، فرفض بوذا قائلاً :

« إن بوذا « غوتاما » لا يلبس إلا رداءً منسوجًا من الخرق الملتقطة من المزابل ، أو من بقايا أكفان الموتىٰ ، وهو ما يجب أن يرتديه الإخوة الرهبان والزهاد » .

ومن هنا وردت حكايات كثيرة عن الرهبان في القديم الذين يرفضون الهدايا من الثوب ، ويفضّلون لبس الخرق التي يلتقطونها من المزابل ومن أكفان الموتىٰ ، فيرقّعونها ، ويصبغونها بالأصفر[٢] .

ويُحكىٰ عن بعض الرهبان أنهم يكتفون بخرقة واحدة ، فلا يلبسون غيرها طيلة حياتهم ، وفي ذات فترة لجأ البوذيون في مدينة «راجاغرها» (Rajakareha) إلىٰ أخذ الخرق الجديدة وتركها عند المزابل وأغصان الشجر ، ليلتقطها الرهبان[٣] ، وهي عادة متّبعة عن بعض البوذيين إلىٰ اليوم .

ويُروىٰ عن بوذا أنه كان يُلبس هذه الخرقة الصفراء تلاميذه الأوائل الذين اندمجوا في جماعة الرهبان (سانغا)[٤] .

وعلىٰ هذا فقد جرت عادتهم إلىٰ الآن أن شيخ المعبد أو مثله هو الذي يلبس اللباس الأصفر المرقع للرهبان المبتدئين[٥] .

---

(١) (فينايا) (١٥٢) .

(٢) المصدر السابق (١١٥) .

(٣) المصدر السابق (١٤٧ ، ١٤٨) .

(٤) « قوانين الرهبنة » (٢/ ٢٤٧) .

(٥) وإذا قارنا ذلك بما في الصوفية نجد أن هذه الخرقة البوذية تشبه إلىٰ حد بعيد الخرقة عند الصوفية التي يلبسها الشيخ لمريده ، وقد جرت عادة بعض المتصوفين أن يلبسوا أتباعهم الخرقة ، وهي من شاراتهم ، يلبسها الشيخ بيده للمريد في مقدّمة الطريق ، وسيأتي تفصيله عند الكلام عن الصوفية إن شاء الله .

ب ـ حلق الرأس والحفاء[١] :

ومن أبرز خصائصهم أيضًا أنهم يحلقون رؤوسهم ويحلقون كل شعورهم في الوجه ، كالحاجبين ، والشارب ،واللحية ، وما شابه ذلك ، وأنهم لا يمشون منتعلين ؛ بل يمشون حفاة ، اقتفاءً ببوذا الذي كان يتجوّل في المدن والقرىٰ بدون نعل ، وذكرت بعض المصادر البوذية أن بوذا أجاز الانتعال فيما بعد لبعض تلاميذه المرضىٰ ، لأنه حدث أن أصابهم أمراض بسبب الحفاء[٢] .

جـ ـ التسوّل وترك العمل :

ومن أهمّ خصائص الرهبان البوذيين ، أنهم يعيشون علىٰ التسوّل لأنه الطريق الوحيد في حصولهم علىٰ الطعام اليومي ، فكل صباح يخرجون من أديرتهم حاملين « الكشولة »[٣] " Arms bowl " ويتجوّلون في صمت وسكينة ، من بيت إلىٰ بيت ، ليجمعوا قوت يومهم من أيدي الناس .

والتسول عادة قديمة للرهبان في الهند ، وقد اتخذه بوذا طريقًا لمعيشته طيلة حياته الرهبانية ، وكان يعاني من ذلك شرّ عناء فطالما أهانه بعض الناس وردّوه دون عطاء ، كما كان يعاني أحيانًا بسوء الغذاء الذي قدّمه إليه الناس .

وتروي الروايات البوذية أن بوذا عندما قدم لزيارة والده في مدينة «كابيلافاستو» ، وذلك بعد أن فارقها سبع سنوات في طلب ما زعم بالحق والمعرفة ، أخذ كشكولته السوداء ، وذهب يستعطي طعامه ، وشاع في المدينة أن الأمير « سيدهارتا » (Siddhartha) يتجول في أنحاء المدينة ، من بيت إلىٰ

---

(١) الحفاء بالألف الممدود أو الحفا بالألف المقصور هو المشي بلا خف ولا نعل « اللسان » (١٤/١٨٦ ، ١٨٧) .

(٢) « قوانين الرهبنة » (١/ ١٢) .

(٣ وهي عبارة عن قصعة سوداء مصنوعة غالبًا من الحديد أو الطوب ، يحملونها عند خروجهم للتسوّل ليجمعوا فيها طعامهم .

آخر ، يستجدي طعامًا ، بعد أن كان يسير في عربته محفوفًا بأعوانه ، وأصبح يرتدي ثوبًا أصفر ، بعد أن كان يلبس الحرير ، ويزدان بالجواهر . . .

وقد اغتاظ أبوه الملك « سودودهانا » (Suddhodhana) عندما عرف هذا فأسرع إليه وقال له :

« لم تحتقرني هكذا يا ولدي ؟ ألا تعلم أني قادر على إطعامك وإطعام تلاميذك » ؟

فأجابه بوذا : « هذه عادتنا في الحياة » .

فقال له الملك : « كيف يكون هذا وأنت أصل ملوكي « الكشتريا » (Kshatriyas) [١] وما حُكي عن أحد من سلالتك أنه استجدى طعامه ؟

أجابه بوذا قائلاً : « إنك تقدر أن تعلن أنك أنت وعائلتك من سلالة ملوكية ، أما أنا وأتباعي فإننا من بوذا القديم ، ولا نربح عيشنا إلا استجداء »[٢] .

وهناك حكاية أخرى تروي أن بوذا أشاد مرة في بساتين يقال لها « إيسبتانا » (Essipattana) مدينة دينية مكوّنة من دير وغرف للاجتماعات ، وفي سبيل ذلك جمع التبرعات من المحسنين ، وسمعت بالخبر إحدى امرأة مؤمنة ببوذا ، فجاءت إلى حيث الاحتفال ، وكانت تأكل تفاحة بقي نصفها في يدها ، ولما رأت أنها لا تملك سوى نصف التفاحة ، قدّمتها لبوذا ، فتناولها بوذا شاكرًا ، وهو يقول : « نحن نعيش من الصدقات ، أعطوا ما تملكون ، فأبواب « نرفانا » مشروعة أمام الذين بذروا الفضيلة ، فأولئك يجنون المحبة » . . . [٣] .

وعلى هذا فقد اعتقد البوذيون اعتقاداً راسخًا ، بأن تقديم الطعام والصدقات لهؤلاء الرهبان من أحسن الأعمال ، ومن أقصى ما يطمع فيه المدني من جزاء ،

---

(١) الطبقة الثانية من طبقات الهندوس .

(٢) « تري بيتاكا » (فينايا) (١٩٠) وذكر الدكتور أحمد شلبي مثل هذه القصة في كتابه « أديان الهند الكبرى » صفحة (٢٠٠) .

(٣) المصدر السابق (١٣٥) .

وما يصبو إليه من شرف ، كيف وقد حثهم الرهبان على ذلك، ووعدوهم بما يرغب فيه نفوسهم ، كقولهم بأن تقديم الحسنات للرهبان يوميًا له ثواب عظيم يجعل صاحبه في حياته القادمة سعيدًا وغنيًا بالأموال والثروة ، أما مغلول اليد عن هذا الإحسان ، ففي حياته القادمة يبعث معسرًا ومضيقًا في العيش[١] .

هذا وقد رُوي أن بوذا وتلاميذه إذا أرادوا الاستنكار على الناس لأي سبب من الأسباب يرفضون قبول صدقاتهم ، وذلك بأن يقلبوا كشكولتهم إلى أسفل، وهذا يعتبر الجزاء الرادع الوحيد الذي يرهب منه البوذي المدني ويتحاشى عنه[٢] .

وعلى هذا ، فلا نستغرب أن نجد البوذيين في أغلب المناطق البوذية ، يصفّون كل صباح عند الشوارع والطرق ، ليقدموا الطعام لجماعة الرهبان المتجولين .

ولا يخفى أن عادة التسول في البوذية عادة فاسدة تشجّع الناس عل الكسل، والبطالة ، وترك العمل ، والتمسك بالفقر ، فماذا يحدث لمجتمع الناس لو اتخذ كلهم الرهبنة شريعة لهم ؟

وقد دعت هذه العادة في البوذية إلى وجود طائفة الكسالى من الناس يستغلون الرهبانية طريقة لمعيشتهم .

ففي « تري بيتاكا »[٣] يروى أن جماعة من البراهمة في عصر بوذا تصنّعوا بالإيمان به وبطريقته ، فترهبوا وانخرطوا في جماعة بوذا (سانغا) ، وذلك لما رأوا في هذه الرهبنة وسيلة طيبة لكسب الطعام بدون كدّ ولا تعب ، ثم بمرور الزمن تبين أمر هؤلاء فأخرجوهم منها .

يقول القديس البوذي « بوذتات بيهكشو » في كتابه « تعاليم للرهبان »[٤] :

---

(١) The way to happiness : Maha sisadaya bhikshu P . 25 .

(٢) انظر « تري بيتاكا » (فينايا) (١٧٤) وأيضًا (٢٦٣) .

(٣) (فينايا) (٢١٢) .

(٤) صفحة (٢٥) .

« إن من شروط الرهبانية الفقر ، أي ترك العمل والاكتساب ، لأنهما من شئون المدنيين ، لا يصلح لنا الرهبان القيام بهما ، وعلينا جماعة الرهبان الرضىٰ والقناعة بما حصلنا من صدقات المدنيين المحسنين . . .

إن الكسب عندنا أداة من أدوات الهموم ، يؤدي دائمًا إلىٰ التملّك ، وهو قيد مِنَ الأقياد التي تشغل الإنسان دون الوصول إلىٰ الكمال والسعادة » . أ هـ .

أقول : إن هذه التعاليم الرهبانية في ترك العمل والكسب ، تشبه ما دعا إليه الصوفية من الفقر والزهد في الدنيا ، لأن المال في زعمهم يشغل السالك والمريد عن الله سبحانه وتعالىٰ ؛ فلا يؤمنون بضرورة العمل لكسب الرزق ، بل يفضّلون التسول والاستجداء ، ويفضّلون القعود في البيوت ، وانتظار من يدفع إليهم الصدقات ، كما سيأتي الحديث عن ذلك مفصلاً إن شاء الله .

د ـ الصوم الدائم :

ويعتبر من خصائصهم أيضًا أنهم يصومون دائمًا ، والصوم عندهم هوالاقتصار في اليوم والليلة علىٰ أكلة واحدة في وقت الضحىٰ ، وهذا نظام عام لجميع الرهبان في المعابد والأديرة ، سواء كانوا من الشيوخ أو المبتدئين[(١)] ، وهو كحدّ أدنىٰ للصوم عندهم ، أما الرهبان السائحون في الغابات والأرياف ، فلهم اختيار أسلوب مناسب لصومهم ، لأن الغرض من هذا الصوم هو مجرد الجوع ، والجوع نوع من أنواع المجاهدة علىٰ زعمهم[(٢)] .

جاء في كتاب « تري بيتاكا »[(٣)] حكايات كثيرة عن الرهبان المتقدمين في الهند ، وقد أضعفوا أجسامهم بالجوع ، وامتنعوا من الطعام ، وصبروا عليه ، فمنهم من كان يقتات ورق الأشجار مدة سنوات ، ومنهم من كان يأكل مرة

---

(١) « قوانين الرهبنة » (١٦/٢) .
(٢) المصدر السابق .
(٣) انظر « سوتان بيتاكا » (٢٨٩ ، ٢٩٠) .

واحدة في كل شهر ، ومنهم من كان يمتنع عن اللحوم والطيبات من الطعام ، ويكتفي بالطعام الرديء ، وما إلىٰ ذلك .

هـ ـ الصمت الدائم :

ومن أهم خصائص الرهبان ، لزومهم الصمت في جميع تصرفاتهم ، فلا يتكلّمون إلا عند الضرورة ، وهو ركن هام من أركانهم ، ففي الكتاب « تري بيتاكا » نجد إشارة بوذا إلىٰ الصمت في عدة مواضع ، منها قوله في إحدىٰ خطبه الطويلة :

« أيها الرهبان المريدون ، أتعلمون ما آفة الكلام ؟ إنه وسيلة لإظهار صفات المدح ، ووسيلة لجلب العطايا ، والمال ، والمنصب ، والجاه ، والثناء ، أتعلمون ما فضيلة الصمت ؟ ، إنه رمز للسكينة ، ونور من أنوار « النرفانا » ، ولا يتحلاّه إلا جماعتنا « سانغا »[1] .

وفي موضع آخر قال :

« يجب علىٰ أهل « شارمانا »[2] أن يتغلّبوا علىٰ خواطرهم بالسكوت ، وأن يجعلوه رفيقًا لهم في طريقهم ، والحق أقول لكم : إن أفضل رفيق لمن يسير إلىٰ «نرفانا» الصمت والسكينة »[3] .

و ـ التبتل :

ومن خصائص الرهبان البوذيين التبتل ، أي الانقطاع عن الزواج ، وهو من أهم شروط الرهبنة بعد شرط التجرد الكامل عن الدنيا ، وشرط المجاهدة المتواصلة ، وشرط الرياضة للنفس والبدن ، وذلك لأن الزواج في زعمهم ملذة من ملذات الدنيا الدنيئة التي يجب عليهم الابتعاد عنها ، وغلّ من الأغلال التي

---

(١) المصدر السابق (٢٤٢) .

(٢) والمراد هو الرهبان وسيأتي تعريف هذه الكلمة عند الكلام عن « السمنية » .

(٣) المصدر السابق (٢٤٩) .

تشغلهم عن مواصلة المجاهدة والرياضة[(١)] ، وقد عدّه بوذا سببًا للهموم والآلام إذ يقول :

« إن الذي عنده الزوج ينصرف إلى زوجه ، والذي عنده أولاد ينصرف إلى أولاده ، والذي يملك أبقاراً ينصرف إلى أبقاره ، كل ما نملكه يسبب لنا الهموم ، ولكن الذي لا يملك شيئًا ليس لديه هم »[(٢)] .

كما روي عنه أنه سمى مولوده بـ « راهولا » (Rahula) ومعناها : القيد ؛ لزعمه أنه قيد يقيده ويمنعه عن الوصول إلى الكمال[(٣)] .

ومما روي عنه أيضًا قوله :

« لا ينال الزاهد المريد الخلاص " Liberation " إلا بطهارة النفس ، وتزكية القلب ، وقطع العلائق بينه وبين البدن ، وحسم لذّات الدنيا ، من الجاه والمال ، والمنصب ، والثناء ، والخلطة بالجنس ، والإقبال على النرفانا كلية »[(٤)] .

وقد أوردت بعض أقواله العنيفة عن سلوك الرهبان نحو النساء[(٥)] والتي تفيد كراهية النساء ، والأمر بالابتعاد عنها ، وعن مساكنتها كلية[(٦)] .

---

(١) « تعاليم للرهبان » (١٩) هذا كما يعتبر أكثر المتصوفة الزواج غلاً من الأغلال التي تشغلهم عن عبادة الله سبحانه وتعالى ويصفونه بأنه ملذات دنيوية تناقض ما هم عليه من محاربة الهوى وقمع اللذات والشهوات ، وسيأتي تفصيله إن شاء الله .

(٢) « تري بيتاكا » (سوتان) (٥٤١) .

(٣) « قصة بوذا » (٢/ ٦٧) .

(٤) « تري بيتاكا » (سوتان) (٥١٨) .

(٥) راجع الموازنة بين الرهبنة البوذية ، والرهبنة النصرانية .

(٦) بهذا الاتجاه السلبي نحو النساء تردّد بوذا كثيراً عندما طلبت منه خالته التي تدعى « مها باشاوادي» (Mahapashawadi) للدخول في النظام الرهباني ، ولم يوافق على إدخالها في الجماعة إلا بعد الحاح من « آنندا » (Anandha) أحد حوارييه ، ويبدو أنه لم يرض من صميم نفسه على هذا القرار ، ولذا قال لتلميذه آنندا « إن الشريعة « دهارما » (Dharma) لن تدوم طويلاً إذا أذن للنساء بالانضمام إلينا » عن القصة الطويلة في « فينايا بيتاكا » (٧٧ ، ٧٨) ، ويعلّق (ول ديورانت) « قصة الحضارة » (٣/ ٨٨) على هذا النص فيقول : « وكان في ذلك على صواب =

ومن المعروف في نظام الرهبنة ، سواء في البوذية أو النصرانية ، أنه كان يقوم على أساس الوحدة ، والابتعاد عن الناس ، وكبح الغرائز الجنسية ، لأنهم زعموا أن هذه الأفعال ستوصلهم إلى مرتبة الروح النقية الخالصة ، وعلى هذا فقد بالغ بعض الرهبان ، وجبّوا خصيتهم ، ليظهروا أمام الناس بمزيد من الزهد ، والتبتل ، والانقطاع[1] .

والحق أن هذا العمل غاية في الحماقة ، لأن الله سبحانه وتعالى شرف الذكر على الأنثى بهذه الآلة ، وخلقها لتكون سببًا للتناسل ، هذا مع أن خصاءهم لا يزيل شهوة النكاح من النفس ؛ بل قد تزيد ، وتؤدي إلى الكبت والاضطراب في النفس ، فكيف يتحقّق لهم مقصودهم ؟ ومن الغريب أن نجد البوذيين اغترّوا بمثل هؤلاء ، فرفعوهم في مقام القديسين ، وعبدوهم ، واتخذوهم أربابًا من دون الله .

ز- سكنى الدير والخضوع لشيخه :

ومن خصائص الرهبان البوذيين أيضًا ، أنهم لا يسكنون المنازل ، ولا يبيتون بها ، ولكنهم يلازمون السكنى بأديرتهم ، والأديرة الحديثة كما شاهدتها في تايلاند وغيرها تكون في الغالب أكواخًا صغيرة ، موزّعة بصورة منتظمة ، تشكّل في مجموعها قرية صغيرة ، وتبنى غالبًا في داخل السور المشترك ، حيث يضم فيه معبد ، ومطعم ، وقاعة الاجتماع ، وحديقة للممارسات ، ومحرقة

= فعلى الرغم من أن الطائفة العظيمة قد لبثت حتى عهدنا هذا ، إلا أنها قد أفسدت تعاليم الأستاذ (بوذا) منذ زمن طويل ، بما أدخلته عليها من سحر وتعدد للآلهة ، وخرافات لا تقع تحت الحصر» هذا بالإضافة إلى الانحراف ، والفساد ، والفجور الذي وقع بين الرهبان أنفسهم والراهبات ، بسبب عدم استطاعتهم تنفيذ التعاليم الشديدة والمخالفة لطبيعة الأحياء وواقعيتهم .

(١) يوجد مثل هؤلاء في بعض المعابد في تايلاند ، كما روي في بعض الأقاصيص البوذية أن جماعة من الرهبان في سيلان ونيبال وفيتنام قد جبّوا أنفسهم ، تقرّبًا من نيل الخلاص ، وقد أفادني الأستاذ المشرف بأن هذه المظاهر توجد بكثرة في الهند عند الهندوسيين والبوذيين على حد سواء .

الموتى ، وغير ذلك من المرافق الضرورية .

والراهب في هذا الدير يوجب على نفسه الفقر ، فلا يملك شيئًا إلا ما يستر عورته من الإزار الأصفر ، وما يتسوّل به من الكشكولة ، ويستغنى عن كل ما يربطه بغيره من علاقات ، وعليه أن يخضع خضوعًا كاملاً لأوامر « شيخ المعبد » بأن ينفّذ أوامره وتعاليمه ، بدقّة بالغة ، وأن يتولّى خدمته ، ويلازمه ملازمة تامة ، شأنه كشأن المريد مع شيخه عند الطرق الصوفية المبتدعة في الإسلام[1] .

وقد اعتبر هذا الخضوع الكامل المبدأ الأعلى والفضيلة الأولى للرهبان ، كما أنّه شرط من شروط الطريق للرهبان المبتدئين[2] .

وذلك لأن رئيس المعبد هو الذي به يتمّ الدخول في الرهبنة ، والذي يأخذ على الراهب المبتدئ العهد ، ويعلّمه الرياضة ، والمجاهدة ، والمكابدة ، ويساعده على تحطيم العقبات ، والترقّي في المراحل والأحوال ، إلى أن يصل إلى الكمال والقداسة .

وقد كان بوذا في القديم يمثّل شيخ الرهبان ، يوجه الطريق لأصحابه المريدين[3] ، ثم لما تزايد عددهم ، أذن أن يكون لكل جماعة منهم شيخ أو رئيس من القديسين يوجّههم ، ويرشدهم إلى الطريق السليم في الرهبنة ، وهكذا جرت عادة الرهبان إلى الآن أن يكون لهم شيخ معين يرتبطون به حيّاً وميّتًا .

وهناك بعض الأعمال الديرية التي يتدرب عليها الرهبان يوميًا ، بالإضافة إلى القوانين والآداب في الرهبنة ، كلها منصوصة في كتابهم « تري بيتاكا » قسم فينايا (Vinaya) وقد بلغت أكثر من مائتي فقرة .

٣ ـ نماذج من الآداب والنظم في الرهبنة البوذية :

للرهبنة البوذية آداب ونظم يلتزم بها الرهبان في حياتهم ، ويعرف مدى

(١) سيأتي تفصيله إن شاء الله عند الكلام عن الصوفية .
(٢) « تعاليم للرهبان » (٣١) .
(٣) ويسمون طريقهم طريق الخلاص .

زهدهم وتنسكهم بقدر ما يحافظون عليها ويتبعونها .

وقد نسبت بعضها إلىٰ بوذا نفسه[١] ، والأخرىٰ إلىٰ أتباعه من بعده ، الذين أدخلوا عليها إضافات وتعديلات كثيرة ، حتىٰ بلغت مجموعة هذه الآداب والنظم مائتين وسبعًا وعشرين فقرة .

وفيما يلي عرض موجز لأهم النظم والآداب في الرهبنة وفقًا لما ذكره الكتاب المقدس للبوذية « تري بيتاكا » :

١ ـ عليهم المحافظة بدقة علىٰ الوصايا البوذية العشر[٢] .

وخلاصتها : الكف عن القتل ، والكف عن الزنىٰ ، والكف عن السرقة ، والكف عن الكذب ، والكف عن شرب الخمر[٣] والكف عن الطعام في الليل ، والكف عن الغناء والرقص ، والكف عن الزينة بجميع أنواعها ، والكف عن اتخاذ الفراش والمقعد المرتفعين والمحشوين بالقطن أو نحوه ، والكف عن قبول الهدايا من الذهب والفضة .

٢ ـ عليهم الالتزام بالنظم والآداب الأخرىٰ للرهبنة وأهمها :

(١) عدم الزواج ، والابتعاد عن مشاهدة النساء ، أو مساكنتهن ، أو لمسهن ، ولو كنّ من المحارم ، والابتعاد عن الخلوة بالراهبات ، وكذلك الابتعاد عن التوسّط بين الرجال والنساء ، أو بين الزوج والزوجة ، ومن آداب الرهبان المبتدئين : أن لا يخطر ببالهم خواطر النساء والشهوة ، وإذا توالت

---

(١) جاء في « تري بيتاكا » ما يفيد أن بوذا إنما وضع هذه النظم والآداب علىٰ حسب الحوادث التي حدثت بين تلاميذه في عصره ، فكان يرىٰ أن يميّز طائفة « سانغا » (Sangkha) من الرهبان بآداب خاصة متميزة عن عامة الناس ، ولذلك كلما وجد أنهم اقترفوا شيئًا غير لائق بهم أصدر القرار بمنعه عنهم وأرشدهم إلىٰ الشيء المناسب وهكذا ، وبهذا فقد كوّن بوذا طبقة جديدة من أتباعه لا تقلّ خطرًا عن طبقة البراهمة التي حاربها ونادىٰ بالقضاء عليها .

(٢) سبق تفصيلها في « الأخلاق البوذية » .

(٣) هذه هي المعروفة عندهم بالوصايا الخمس التي تخصّ المدنيين منهم أما الذي يتطلع منهم إلىٰ سلك الرهبنة فعليه فوق ذلك اتباع جميع الوصايا وجميع القيود المفروضة علىٰ النظام .

عليهم هذه الخواطر ، فعليهم اللجوء إلىٰ إكثار الخلوة ، وعدم مخالطة الناس ، مع دوام المراقبة « سمادهي » .

(٢) التجرّد التام عن الملكية أو عن تخزين الأشياء ، والتجرّد عن الاحتراف بأي حرفة كانت .

(٣) الانفراد ، والعزلة ، والسكون ، والصمت ، وعفّة اللسان ، وعدم المزاح والهزل ، أو ما شابه ذلك .

(٤) إظهار الفقر ، والتواضع ، وعدم الافتخار والتكبّر ، والابتعاد عن المنصب ، والجاه ، والثناء ، وعن حبّ الرئاسة ، أو حبّ الظهور .

(٥) إظهار التسامح ، ومسالمة الجميع ، ومحبة الغرباء ، والكف عن القذف والنميمة ، وعن السعي في سبيل التفرقة بين الرهبان .

(٦) تعليم الناس السلام ، والمحبة ، وانشاء المشافيء ، والملاجىء للفقراء ، والمسافرين ، والجد في منع الحروب ، والتسامح تجاه جميع الأديان في العالم ، باعتبارها أوجهًا ناقصة للحقيقة الواحدة[1] متمثلاً قول بوذا

---

(١) وقد أثنىٰ علىٰ هذا التسامح في البوذية كثير من الباحثين وخاصة المستشرقين منهم الدكتور غوستاف لوبون حيث يقول : « والبوذية أتت العالم الآسيوي الهرم بروح المحبة ، وبما لم يعرفه هذا العالم من الأدب العالي ... . فلا تجد بالحقيقة ديانة أنقىٰ من البوذية أدبًا ولا أعذب منها قولاً ولا أكثر منها رحمًا » « حضارات الهند » (٣٦٢ ، ٣٦٣) ومن الباحثين المسلمين الدكتور أحمد شلبي حيث اعتبر هذا التسامح ميزة كبيرة تنسب للبوذية « أديان الهند الكبرىٰ » (٢٠٣) ، وعلىٰ كل حال فإني أرىٰ أن التسامح أو المحبة ، والانفتاح علىٰ البشرية كافة ، كل هذا من المبادئ العامة التي يشترك فيها معظم الأديان في العالم ، سواء كانت سماوية ، أو أرضية ، وسواء كانت وثنية ، أو موحدة ، أو مشركة ، لأن الإنسانية حصة مشتركة بين الجميع ، وإنما تصل البوذية في تسامحها إلىٰ حد كبير كما يقول الباحثون أو إلىٰ عدم المحدود بتعبير أصح ، لأن البوذية ليست لها عقيدة ثابتة تعتمد عليها ، وإنما تعتمد فقط علىٰ الخلاص والتحرر من الدنيا ، وما يترتب عليه من عدم العودة إلىٰ الحياة ، فإن مهمة الإنسان عند البوذية هي بلوغ حياة الكمال لتتخلص روحه من الأرض ، ولا يلزم أن يتقيد بدين ، أو مذهب معين ، ولهذا يقول بعض علماء البوذيين المعاصرين ، كل من بلغ حياة الكمال وتخلصت روحه من الأرض فهو بوذا أي ، بلغ مرتبة بوذا ، ومن الجدير بالملاحظة أن التسامح تجاه الأديان لدىٰ البوذية يشبه =

لتلاميذه الرهبان : -

« نزهوا قلوبكم من كل خصام في الأديان والمذاهب ، ولا تتركوا المحبة ، بل أحبوا الخلق كلهم ، وليكن قصدكم الوحيد دعوة الناس إلىٰ « نرفانا » ، فمن آمن ، وصدق ، وسلك سبيل الخلاص ، شعر أنه قد نجا من كل حزن وألم » .

(٧) الابتعاد عن الأماكن التي فيها مظنة لتهمة الناس وهذه الأماكن هي :

١ - بيت البغايا .	٢ - بيت الأرامل والثّيبات .
٣ - دير الراهبات .	٤ - محلات الخمر .
٥ - أماكن القمار .	٦ - أماكن الرقص والغناء .

(٨) السياحة مرة علىٰ الأقل خلال فترة الترهب ، وهي عبارة عن الخروج إلىٰ البراري ، أو الأرياف ، أو الغابات ، بعيداً عن مجتمع الناس ، ولا يستصحبون معهم في هذه الحالة زاداً ، ولا طعاماً ، ولا ماءً[1] ومن هنا يدّعون كثيراً من الخوارق .

وللسياحة عندهم حالتان عامة وخاصة ، فالسياحة العامة هي الآنفة الذكر . أما السياحة الخاصة فهي سياحة بعض الرهبان الذين يختارون التجوّل في

= بعض الشبه ما ذهب إليه بعض الغلاة الصوفية كابن عربي وابن الفارض وأتباعهما من فكرة وحدة الأديان ، وهي فكرة ناتجة من فكرة وحدة الوجود ، ومعناها أنه لا فرق عندهم بين دين ودين ؛ لأن الله عام للجميع ، وأن كل معبود من المعبودات وجه من وجوه الله الحق ، فيصحّ عندهم الإيمان بكل المعبودات ، تعالىٰ الله عما يقولون علواً كبيراً ، وقد افتخروا بهذه الفكرة الباطلة ، واعتبروها سموّاً عن التعصب الديني ، وسموّاً في التسامح والمحبة ، وفي ذلك يقول محيي الدين ابن عربي :

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة	فمرعىٰ لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف	وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنّىٰ توجهت	ركائبه فالحب ديني وإيماني

« في التصوف الإسلامي وتاريخه » للمستشرق نيكلسون (٩٤) نقلاً عن « ذخائر الأعلاق شرح ترجمان الأشواق » لابن عربي (٣٩ - ٤٠) .

(١) وعند الصوفية بعض الحالات من هذه السياحة سيأتي الحديث عنها إن شاء الله .

الأرض طوال مدة رهبانيتهم ، فيسيحون من قرية إلىٰ قرية ، ومن مدينة إلىٰ مدينة ، معتمدين علىٰ كرم الناس من أهلها ، ولا يتوقّفون عن سياحتهم إلا في فصل الأمطار .

(٩) الكف عن الخروج والتجول في فصل الأمطار ، وهو ثلاثة أشهر معروفة عندهم ، فلا يخرجون من الأديرة والمعابد إلا في حالة الاضطرار[١] .

(١٠) الخروج للتسوّل كل صباح ، لأن فيه إظهار المحبة والرحمة لسائر الحيوانات علىٰ حد زعمهم .

وللتسوّل عندهم آداب كثيرة منها : ـ

أن لا يأخذ المتسوّل إلا ما يعطىٰ ، وأن لا يطمع في استكثاره ، وأن لا يتكلم عند التسوّل ، وأن لا ينظر إلىٰ المعطي ولكن ينظر إلىٰ كشكولته عند قبول الطعام ، وأن لا يتسوّل بطلب ، أو إلحاح ، أو إغراء ، وأن لا يتكبّر في رهبانيته، بأن يظهر للناس أنه متزمّت ومتشدّد في الرهبنة ، ليخصّوه بالعطاء[٢] .

(١١) ومن آدابهم في الطعام :

أن لا يأكلوا أكثر من مرة واحدة في اليوم ، امتثالاً لقول بوذا المشهور : «اجلسوا للطعام جلسة واحدة» ، وأن لا يقصدوا من الطعام التلذذ ، أو تقوية الجسد ، أو تجميله ، أو ما شابه ذلك ؛ لما في ذلك من إثارة للشهوات[٣] ، وأن لا يأكلوا الطعام من لحم الإنسان[٤] ، أو الفيل ، أو الخيل ، أو الحية ، أو

(١) جرت عادة البوذيين في كثير من الدول أن يقيموا في هذا الفصل حفلة التكريس للدخول في الرهبنة ، حيث يدخل في هذا الفصل كثير من أبنائهم البالغين من العمر عشرين سنة في الأديرة لممارسة الرهبانية ، ويخرجون منها بعد انتهاء الفصل ، لممارسة الحياة العادية .

(٢) وعند الصوفية بعض الآداب في التسوّل شبيهة بهذا ، وسيأتي بحثه إن شاء الله .

(٣) روىٰ القديس البوذي « بودتات بيهكشو » أن الرهبان في القديم كانوا يصبّون الماء علىٰ طعامهم قبل تناوله ، وذلك لإزالة طعمه ولذته « تعاليم للرهبان » (٤١) .

(٤) من الحكايات الغريبة التي يرويها كتاب « تري بيتاكا » أن إحدىٰ امرأة في عصر بوذا قطعت=

الكلب ، أو الأسد ، أو الدبّ ، أو النمر » ويأكل غير ذلك من اللحوم والأسماك[١] .

(١٢) الالتزام بمبدأ « أهنسا » (Ahinsa) أي عدم الإساءة والإيذاء لأي كائن ، واحترام كل شيء حيّ ، وذلك بإظهار المحبة والشفقة بالناس ، وبالحيوان جميعًا ، فلا يسبّب مضرة لأحد ما ، ولا لحشرة من الحشرات ، ولا لنملة فما دونها ، وحتى الأشجار والنباتات .

فمن فقرات هذا المبدأ : الكف عن تحطيم الأشجار والنباتات ، وعن شرب الماء الذي فيه ذوات الروح ، أو سقي الأشجار به، وكذلك الكف عن حرث الأرض أو حفرها ، أو ما شابه ذلك ، وذلك لعدم الأمن من قتل المخلوقات الحيّة أو إيذائها ، تلك المخلوقات التي تكون مجتمعًا واحدًا مع البشرية في الدورة التناسخية على حد زعمهم[٢] .

(١٣) ومن آداب الرهبان الهامة أيضًا ، أنهم لا يحيّون المدنيين بأي تحية، مهما كانت مرتبتهم ، ولو كانوا من الأقرباء ، بل على المدنيين أن يحيوهم بتحية تقديسية ، وصفتها ضمّ الأصابع العشرة على الصدر أو الوجه ، مع انحناء الرأس أو السجود ، وهي تحيّة معروفة لدى البوذيين ، يقدمونها لرهبانهم كلما قابلوهم، ولو كانوا صغارًا ، أو أبناءً لهم ، كما أنهم لا يحيون مَن دونهم في عمر الرهبانية من جماعة الرهبان ولا يجلسون في مكان أسفل من المدنيين مهما كان[٣] .

=لحمها وصنعت منه طعامًا للرهبان رأفة بهم في أيام المجاعة ، فلمّا أخبر بوذا بذلك ، نهاهم عن قبول الطعام من لحم الإنسان (فينايا) (١٨٩) .

(١) هذه الأصناف الثمانية من الحيوانات محظورة فقط على الرهبان أما المدنيون الساكنو البيوت فيباح لهم كل الحيوانات بلا استثناء .

(٢) وهذا تناقض صريح في هذه التعاليم مع الواقع ، إذ كيف يحققون هذا المبدأ ولا يمنع الراهب منهم من قبول الصدقات والطعام من اللحوم ، والأسماك ، وكذلك المنتجات الزراعية . . . ؟

(٣) ولعل هذه العادات الفاسدة قد تأثرت من البراهمة الذين فضلوا أنفسهم على غيرهم من الطبقات .

وهناك آداب أخرىٰ كالكف عن تغطية الرأس ، وعن استعمال المظلة الشمسية ، وعن لبس الحرير ، وعن استعمال الأدوات المصنوعة من العظام ، أو الأصواف ، أو ما شابه ذلك .

(١٤) التوبة الرهبانية " Breach of discipline " وهي عبارة عن اعتراف الراهب وإقراره علنًا أمام شيخ المعبد وأعضائه من الرهبان ، بما ارتكبه من مخالفة النظام ، وشيخ المعبد هوالذي يتولّىٰ العقاب عليه .

وهذا النظام هو ما يسمىٰ عندهم « آبات » (Abat) وتعني في اللغة البالية مخالفة الرهبان لنظامهم ، فإذا خالف الراهب أي نظام من النظم ، يذهب إلىٰ الشيخ الرئيس ، ويعترف عنده بما ارتكبه ، ثم ينظر الشيخ في تأديبه وجزائه ، وهو مختلف باختلاف نوع المخالفة ، فقد يكون بالفصل عن الرهبنة ، كمخالفته إحدىٰ الوصايا العشر ، أو بالإعراض عنه ، وهجره في الكلام والمجالسة مدة معينة ، أو ما شابه ذلك ، ولابد من أن يعقد له اجتماع لإعلانه بالذنب أمام مجلس الرهبان من أعضاء الأديرة[1] .

٤ ـ الرياضة الروحية " To train one's mind " أو ممارسة «سمادهي» (Smadhi) :

هذا بالإضافة إلىٰ النظام في المجاهدة الشاقة " Purgation " التي تتمثل في الرياضة النفسية « سمادهي » (Smadhi) وممارستها يوميًا ، وهي جزء مهم في العمل الرهباني ، إذ بها تتم الغاية المنشودة علىٰ حد زعمهم .

والمجاهدة عندهم تنقسم إلىٰ قسمين :

١ ـ المجاهدة في مخالفة الهوىٰ ، ومحاربة الشهوات ، وإنكار الذات ، وتهدف هذه المجاهدة ، إلىٰ إضعاف الجسم ، وتقوية الروح ، وترويض الغرائز

---

(١) لخصت هذه المعلومات كلها من صفحات متفرقة لكتاب « تري بيتاكا » قسم « فينايا » وكتاب «قوانين الرهبنة» الجزء الأول والثاني .

وتمثّل في الالتزام بالآداب والنظم التي بلغت ٢٢٧ فقرة .

٢ ـ المجاهدة في الرياضة النفسية ، ومواصلة تمرينها ، وتتمثل هذه المجاهدة في ممارسة ما يسمىٰ عندهم «سمادهي أوبا سانا» (Smadhi upasa-na) وهي في اللغة البالية مركبة من كلمتين « سمادهي » (Smadhi) وتعني سكون النفس أو الاستغراق " Concentretion " و« أوبا سانا » (Upasana) وتعني التأمل والمراقبة " Meditation " وقد أطلق علىٰ هذه النظرية غالبًا بـ« سمادهي » (Smadhi) أو التأمل الذاتي[١] وتهدف هذه الممارسة « سمادهي » إلىٰ الوصول إلىٰ الفناء ، أو الفراغ (Void) وهو نهاية مطاف البوذيين ، وآخر مرحلة من مراحل الطريق ، والهدف الأسمىٰ للعمل الرياضي « سمادهي »[٢] .

ويُروىٰ عن بوذا أحاديث كثيرة عن ممارسة « سمادهي » أذكر منها :

« كل من يشعر بالبهجة ، وهو يؤدي شعائر « سمادهي » التفكير المركز ، هو الذي لا يقلق بأي شيء علىٰ الإطلاق ، وهو الذي يعيش منعزلاً راضيًا بأي شيء يكون موجودًا عنده ، إن من يكون هذا هو الذي يستحق اسم « بيهكشو » (Bhikshu) »[٣] .

« يا إخوتي بهيكشو مارسوا « سمادهي » لأن صاحب « سمادهي » يدرك ببصره كل شيء علىٰ حقيقته ، إنه يعرف أن العين ، والأذن ، والأنف ، واللسان، والجسم ، والنفس ، كل ذلك متغير ، ويعرف أن الصورة ، والصوت والرائحة، والذوق ، واللمس ، والتفكير ، كل هذا متغير ، وإن كل متغير لا حقيقة له ولا جوهر »[٤] .

---

(١) « مجموع المصطلحات البوذية » (٥٧٨ ـ ٥٧٩ ، ٦١٠) .

(٢) كما أن الفناء عند الصوفية ، هو نهاية مطاف الصوفيين ، وآخر مرحلة من مراحل طريقهم ، إن هذه النظرية « سمادهي » قد أخذها أبو يزيد البسطامي (١٨٨ ـ ٢٦١هـ) أحد كبار الصوفيين من جذورها ، ثم نسخ منها نظريته ، وعقيدته في الفناء ، علىٰ أساس من فكرة « سمادهي » البوذية ، وسيأتي الكلام عنه مفصلاً إن شاء الله .

(٣) « تري بيتاكا » (سوتان) (٤٧٢) .

(٤) المصدر السابق (٤٩٥) .

« يا إخوتي بهيكشو ركّز فكرك ، ولا تضعف ، ولا تترك فكرك يعشق كيفما تشاء ، إنه لا يمكن الحصول على العمق في التفكير لمن لم يكن حكيمًا ، والحكيم هو الذي يمارس « سمادهي » ، والتركيز في التأمل « أوبا سانا » ، كلّ من يعوّد نفسه على ممارسة « سمادهي » والتأمل فقد قرب من « نرفانا » (Nirvana) »[١] .

وواضح من هذا أن الوصول إلى « نرفانا » عند بوذا لا يكفي مجرد القضاء على الرغبات ، أو رفض متاع الدنيا ؛ بل لابد مع ذلك من رياضة النفس بتمرين «سمادهي» ، واستمرار التأمل والتفكير في جميع الحركات والأعمال اليومية .

ولهذا التمرين « سمادهي » ثلاث مراحل يجب أن يقوم المريد باجتيازها للوصول إلى الفناء ، والتحرر عن الدنيا ، تدرّجًا من الأبطأ إلى الأصعب ، ومن الأغلظ إلى الأدق ، ولا يتمّ الانتقال إلا بالتدرّج .

والمراحل الثلاث هي التثبيت ، ثم التأمل والتمركز ، ثم الفناء[٢] .

والمراد بالتثبيت هو المجاهدة في إحضار النفس ، وتسكينها ، وتفريغها عن شواغل الدنيا ، بحيث لا يخطر بالبال شيء سوى الفراغ " Void " ثم لما تعوّد المريد على مرحلة التثبيت وطمأنينة النفس ينتقل إلى مرحلة التأمل ، والمراد هو التأمل الذاتي العميق في شيء معين ، كالتأمل في النفس ، أو في ماهية الجسم وطبيعته ، من حيث الحدوث ، والتغير ، والعدم ، وينتهي تأمله إلى الفناء والانعدام والفراغ فإذا توصل المريد إلى هذه المرحلة من التأمل ، فإنه يكون قد نسي جسده ، وذاب ذهنه ، ونسي العالم الخارجي كله ، وقد توصل إلى مقام الفناء ، الفناء عن الأكوان كلها ، بمعنى أنه لا يصبح يرى شيئًا فيه ذات أو جوهر ، حتى نفسه حيث لا يراها كأنها ذات ، وإنما يراها كأنها جلد ،

---

(١) المصدر السابق (أبيدارما) (٦٤٨) .
(٢) « سمادهي عند بوذا » (١٩ ـ ٢٠) .

ولحم، وعظم . . . يتكوّن منها الجسم المفترض والمزعوم[١] .

وهذا هو ما يسمىٰ عند البوذية « سونياتا » (Sonyata) أي الفراغ كما يسمىٰ أيضًا « آناتا » (Anatta) أي لا جوهر " Non Atman " ، وكلاهما من المبادئ الفلسفية الهامة عند بوذا .

فممّا يروىٰ عنه قوله المشهور الذي بنيت عليه هذه الفلسفة :

« كل شيء فارغ ، والكل لا جوهر له ، لا شيء موجود ، والكل يسير ويضمحل ، ويفنىٰ ، والكل في صيرورة بغير جوهر »[٢] .

فالفناء في نظر بوذا هو عبارة عن اضمحلال الكائنات كلها مع وجودها ، والغاية من ذلك عدم الارتباط بها والاعتماد عليها ، فإذا توصّل المريد في رياضته إلىٰ هذه المرحلة ، فقد تحرّر من الدنيا وما فيها ، وعندئذ استعدّ للدخول في « نرفانا »[٣] .

ويقال عنه إنه المخلّص الحي ، لأنه يستطيع البقاء في هذا العالم ما شاء ، وتركه متىٰ شاء[٤] .

وممارسة « سمادهي » كما ذكرت في كتب البوذية لا تتقيد بحالة معينة من الحالات الجسدية ؛ بل كل حالة تساعد المريد علىٰ الاستقرار والراحة ، حتىٰ ينسىٰ جسده وما حوله .

وقد أشارت النصوص في كتاب « تري بيتاكا » إلىٰ بعض الحالات والأوضاع التي اتخذها الرهبان المتقدمون في ممارستهم ، ولكن القديس البوذي « بوذتات » ينصح في كتابه « مبادئ عامة في الرياضة النفسية »[٥] باتخاذ

---

(١) المصدر السابق (٢٤ـ٢٦) .
(٢) « تري بيتاكا » (سوتان) (٣١٢) .
(٣) « مبادئ عامة في الرياضة النفسيه » (٣٦) .
(٤) « سمادهي عند بوذا » (٢٩) .
(٥) (٣١ ، ٣٢) .

وضع واحد ثابت ومريح ، وأشار إلىٰ أنه وضع بوذا في ممارسته « سمادهي » وهذا الوضع هو ما يسمىٰ بوضع اللوتس ، أو الجلوس التأملي المطمئن ، وصفته أن يضع الممارس القدمين بشكل يكون أسفلهما إلىٰ أعلىٰ فوق الفخذين ، ويضع اليدين تحت سرّته ، بحيث يكون اليمنىٰ علىٰ اليسرىٰ ، وأن يضع جسده بحالة مريحة تستطيع النفس معها أن تنسىٰ وجوده ، ويشترط للممارس الفردي أن يخلو عن الناس ، وأن يختار مكانًا مناسبًا للمارسة[(١)] ، وأن يستمدّ العون أولاً من بوذا ، بأن يجعل خياله بين عينيه ، ويردد تراتيله ، فإنه مرشده في طريقه إلىٰ الخلاص[(٢)] .

والطريقة المشهورة عند البوذيين في ممارسة « سمادهي » هي « طريقة مراقبة الأنفاس » أو « التحكم علىٰ التنفس »[(٣)] .

يقول القديس « بوذتات » : التنفس هو الحياة ، والطريقة المناسبة لأخذ النفس ، والاحتفاظ به ، وامتصاص خلاصته ، وطرد فضلاته ، تعتبر من الأمور الأساسية في تدريبات «سمادهي »[(٤)] .

وتنقسم عملية التنفس إلىٰ أربع مراحل ، الشهيق ، والاحتفاظ ، والزفير ، والامتناع .

هذه مراحل عامة للتحكم علىٰ التنفس ، وكل مرحلة من هذه المراحل لها وظيفتها المحدودة ، ولابد من الالتزام بنسب معينة بين وقت كل مرحلة من هذه المراحل الأربع ، أما المراحل التفصيلية فهي سبع مراحل ، ويشترط أن لا ينتقل من مرحلة إلىٰ مرحلة ، إلا بعد التمكن من الثبات والتركيز عليها ،

---

(١) كان الرهبان المتقدمون يختارون غالبًا المكان المظلم في الممارسة ، كالكهوف ، أو المغاور ، أو الحدائق ذات الأشجار الكثيفة ، أو في زوايا خاصة في أماكنهم ، كما هو أمر متّبع لدىٰ كثير من الرهبان المتمدّنين في هذا العصر .

(٢) « بودها دهارما » (٢٨ ، ٢٩) .

(٣) الواقع أن هذه الطريقة لها أصل في مذهب اليوجية ، غير أن البوذيين ألبسوها في ثوب جديد .

(٤) « سمادهي عند بوذا » (١٩) .

وهي كما يلي :

المرحلة الأولىٰ : أن يغمّض عينيه ، ويبدأ بمراقبة أنفاسه من الشهيق والزفير .

المرحلة الثانية : يركّز تأمله علىٰ الشهيق والزفير من حيث طولهما وقصرهما .

المرحلة الثالثة : يركّز تأمله عليهما من حيث ثقلهما ، وخفتهما ، وغلظتهما ، ودقتهما .

المرحلة الرابعة : يميّز بين الاسم والصورة في تنفسه ، ويركّز تأمله عليهما ، والمراد بالاسم : الشعور النفسية ، وبالصورة : النفس .

المرحلة الخامسة : يركز تأمّله علىٰ الشهيق والزفير من حيث حدوثهما ، وصيرورتهما ، واضمحلالهما .

المرحلة السادسة : يحوّل التأمل في حدوث النفس إلىٰ التأمل في حدوث الجسم وتغيره ، ثم في حدوث الكائنات حوله وتغيرها ، وعدم حقيقتها .

المرحلة السابعة : يصل تركيزه في التأمل إلىٰ مرحلة الفناء ، أي فناء الكائنات كلها ، وعدم جوهرها[١] .

وهكذا زعموا أن الممارس إذا جاهد نفسه في هذا التمرين ، واجتاز هذه المراحل السبع إلىٰ أن لا يرىٰ نفسه والكائنات حوله ، ولا يعي سوىٰ الفناء ، فإنه عند ذلك قد توصل إلىٰ الغاية من « سمادهي » ، ومن أنواع الممارسة التي عرفت لدىٰ البوذيين أيضًا طريقة التنفس مع الذكر ، وصفتها أن يجلس الممارس أمام تمثال بوذا ويبدأ ممارسته بترديد ثلاثة كلمات وهي « بودانج » (Buddhang) و« دهارمانج » (Dharmang) ، و« سانج غانج » (Sangkang) [٢] . وملازمة

---

(١) « مبادئ عامة في الرياضة النفسية » (٤٤ ـ ٤٨) .

(٢) هذه الكلمات الثلاث تعني مقدساتهم ومعبوداتهم الثلاث كما مر بنا .

ذكرها مع الاحتفاظ بمراحل التنفس العامة التي أسلفناها ويشترط في أثناء الممارسة أن يغمض عينيه ، وأن يستحضر معبوداته الثلاث عند الذكر، كرمز للوصول إلى إنكار الذات والفناء[١] .

وتعتبر هذه الطريقة من أكثرها شيوعًا عند البوذيين المدنيين .

ومن المزاعم الباطلة في هذا الموضوع أنهم زعموا أن مواصلة المجاهدة والمثابرة على تمرين « سمادهي » سبب لانكشاف القلب ، أي تظهر له أنوار الغيوب أو ما يسمونه باللغة البالية « يانا » (Yana) ، وهي كالكشف عند الصوفية، ولا ينالها أحد إلا بعد صفاء روحه من أدناس الشهوات ، وفراغه من الأكوان كلها[٢] .

ومن هنا ادّعوا كثيراً من الخوارق تحدث للمريد أثناء الرياضة والمجاهدة ، كثمرة من قوته الروحية ، وقد أشار كتاب « تري بيتاكا » إلى هذه الخوارق الخرافية، وبيّن أنها على مراحل ، حسب استعدادات النفس ودرجات سموّها .

فالذي حصل على « يانا » الأولى ، يظهر له بعض الخوارق العامة ، كالمشي على الماء ، والطير في الهواء ، وطي الأرض ، والسير تحتها ، وكذلك الإتيان بالمطر في غير وقته ، وتكثير الطعام القليل ، وكلام البهائم وتسخيرها ، والصبر على الطعام مدة طويلة . . . إلخ .

والذي حصل على « يانا » الثانية ، يظهر له خوارق الأذن ، حيث يسمع صوت القريب والبعيد على السواء .

والذي حصل على « يانا » الثالثة ، يحدث له خوارق العلم والمعرفة حيث يستطيع العلم بالأمور المستقبلة والماضية ، والعلم بما في صدور الناس ، وما في العالم وما وراءه .

---

(١) المصدر السابق (٣٦) .
(٢) « تري بيتاكا » (سوتان) (٣١٧) .

والذي حصل على « يانا » الرابعة ، يظهر له خوارق الذاكرة ، حيث يستطيع تذكر حياته السابقة .

أما الذي حصل على « يانا » الخامسة فيظهر له خوارق العين ، حيث يستطيع أن يرى ببصره سلسلة طويلة من حياة الحيوانات في هذا الكون ، بدايتها ، ونهايتها ، وآلامها »[1] .

وقد وجد عند الصوفية ادعاءات وحالات كثيرة من الخوارق والكرامات مماثلة لهذا ، سأورد بعض الأمثلة منها في باب الصوفية إن شاء الله .

٥ ـ الاجتماع لذكر التراتيل الدينية :

هناك اجتماع الرهبان اليومي في كل صباح ومساء لذكر تراتيل بوذا أمام أصنامه ، ومما شاهدته في هذا الاجتماع أنهم يجلسون على هيئة الصفوف ، بأن يقابل كل صفّ الصفّ الذي يقابله من الجهات الأربع ، ويذكرون التراتيل على صوت واحد ، بأن يبدأ بها رئيسهم ، ثم ينطقون بها وراءه ، ويرفعون أصواتهم ، ويتمايلون يمينًا وشمالاً[2] .

وقد أفادني بعض الرهبان أن هذه التراتيل عبارة عن أدعية بوذا التي نادى فيها جميع الحيوانات في العالم ، بأن يتذكرا آلام الدنيا ، ويعملوا للخلاص منها ، وقالوا : إن الغرض في ذكر هذه التراتيل ، هو إيجاد « سمادهي » ، وإيجاد العطف والشفقة على سائر الحيوانات .

ومن معاني هذه التراتيل التي حفظتها عنهم :

« أيتها الحيوانات ، أيها الإخوة المشاركون في الألم ،

اذكروا بوذا المستنير الذي جاء بطريق النجاة .

---

(١) المصدر السابق (٣٣٨ـ٣٤٠) وأيضًا (أبيدارما) (٦٤٠ ، ٦٤٣) .

(٢) ومن الملاحظ أن صفة ذكر التراتيل هذه شبيهة بما ابتدعه أصحاب الطرق الصوفية في صفة ذكرهم وسيأتي الحديث عنه إن شاء الله في باب الصوفية .

اذكروا بوذا المستنير الذي أنجاكم بها من آلام الحياة .

أيتها الحيوانات ، أيها الإخوة المشاركون في الألم ،

اذكروا بوذا المستنير ، وآمنوا به ، وآمنوا بشريعته « دهارما » وآمنوا بجماعته « سانغا » ، فلا ملجأ لكم إلا هذا الثالوث .

أيتها الحيوانات ، أيها الإخوة المشاركون في الألم ،

كلكم جميعًا يولد ، ويهرم ، ويمرض ، ويموت .

فعيشوا عيشة سعيدة ، ولا تتعادوا .

وعيشوا عيشة سعيدة ، ولا تتحاقدوا .

وعيشوا عيشة سعيدة ، ولا تتظالموا .

وليشمل عطفنا وعطفكم على سائر الحيوانات ، إنها أصدقاء لكم ، وإنها مشاركة لكم في الألم .

والتراتيل المأثورة من بوذا كثيرة ، لكل منها خصائص معينة .

ومن أهم هذه الخصائص التي ذكروها في كتبهم ، أن بوذا سيحضر في كل مجلس ذكرت فيه تراتيله ، ويبارك على أهله[1] .

وعلى هذا يفتتحون أدعيتهم وتراتيلهم دائمًا بهذه العبارة :

« نستحضرك يا بوذا أيها المقدس المستنير » .

وهناك اجتماع ديني أسبوعي في المعبد « آرام » (Aram) ، حيث يجتمع فيه المدنيون رجالاً ونساء ، ويقدّمون فيه الأطعمة والحاجات اللازمة للرهبان ، ثم يشتركون معهم في طقوس الصلوات والتراتيل ويستمعون أحيانًا الخطب والمواعظ من بعض مشايخ الرهبان .

---

(١) « بودادهارما » (١٨٢) إن مثل هذه العقيدة الخرافية موجودة أيضًا عند بعض الطرق الصوفية المبتدعة في الإسلام فهم اعتقدوا بأن الرسول ﷺ سيحضر جسمًا وروحًا في مجلس أورادهم ، وسيأتي تفصيل هذا عند الكلام عن الصوفية إن شاء الله .

ومن العادات المعروفة في هذا الاجتماع منذ العصر القديم[٢] أن البوذيين يتلقون من رهبانهم الوصايا البوذية على الصفة التي ذكرناها[٢]، وبعضهم يتلقون التراتيل الدينية ليحافظوا عليها كتعاويذ يزعمون أنها تمنع من الشرور .

***

(١) أشار كتاب « تري بيتاكا » إلى هذا الاجتماع في عدة مواضع انظر (سوتان) (٤٨٩ ، ٤٩١) و(فينايا) (٢٢٤ ، ٢٣١) .

(٢) راجع « الأخلاق البوذية » .

المبحث الرابع
القديسون وعبادتهم

إن القديس (Arhat) في مفهوم البوذية هو الراهب الذي تخلص من الدنيا وما فيها ، ووصل مرتبة عالية في الرياضة النفسية « سمادهي » وهو الشخص المعصوم لدىٰ البوذيين ، والمتجرد عن الصفات البشرية المذمومة ، ولابد أن يظهر له بعض الخوارق والمكاشفات .

وقد نص الكتاب « تري بيتاكا »[1] الطريق إلىٰ مرتبة القداسة (Arhat) وهو الكف عن الرذائل العشرة الآتية :

١ ـ راخا (Raka) أي الفرح ، والرضىٰ ، أو الرغبة .

٢ ـ موها (Moha) أي الغواية ، والغرور .

٣ ـ أوبناها (Upanaha) أي الحقد .

٤ ـ بلاسا (Palasa) أي عدم احترام الناس .

٥ ـ ماجشاريا (Majjariya) أي البخل .

٦ ـ توسا (Tosa) أي القصد في الإيذاء .

٧ ـ كوتا (Kota) أي الغضب .

٨ ـ ماخا (Maka) أي إنكار المعروف .

٩ ـ إسا (Issa) أي الحسد .

١٠ ـ مانا (Mana) أي التكبر .

---

(١) (أبيدارما) (٦٨٨) .

فمن يستطيع أن يترك هذه الرذائل العشرة يستحق لقب « القداسة » (Arhat) وقد ظهر في التاريخ البوذي عدد لا يحصىٰ من القديسين الذين ادّعوا الوصول إلىٰ مرتبة « القداسة » وادعوا المكاشافات والخوارق .

وقد جاء في « تري بيتاكا »[1] ما يفيد أن تلاميذ بوذا كلهم حصلوا علىٰ «القداسة» أو بتعبير آخر وصلوا « نرفانا » في هذه الحياة ، وأنهم عنصر من عناصر الثالوث الذي يستحق التقديس .

وجاء فيه قصص وحكايات كثيرة عن خوارق القديسين ومكاشفتهم ، تشبه أكثرها أساطير خرافية ، كالمشي علىٰ الهواء ، وإحياء الموتىٰ ، وكلام البهائم ، وطيٍّ الأرض وما شابه ذلك .

وقد اعتقد البوذيون أن هذه الخوارق والمكاشفات جزء ضروري للقديس (Arhat) ، فلا يرتقي الراهب العادي إلىٰ مرتبة القديس إلا بظهور الخوارق والمكاشفات ، وهو كما يعتقد الصوفيون في أوليائهم ومشايخهم .

ومن أجل هذا فإن القديسين أصحاب الخوارق والمكاشفات ، هم أجدر الناس عند البوذيين بالتقديس والعبادة ، وأفضلهم علىٰ الإطلاق ، لأنهم يمثّلون بوذا المتخلص من العالم والمثل الأعلىٰ علىٰ حد زعمهم .

وبهذا اختلف القديس في البوذية عن القديس في غيرها من الديانات الوثنية ، لأن القديس في البوذية لا يقوم بدور الوسيط ، ولا بدور الشفيع بين الناس والإله كما في غيرها ، وإنما يمثّل فقط المتخلّص من العالم ، والمتخلص من جميع الرغبات والشهوات ، ومن ربقة « كارما » (Karma) علىٰ حد زعمهم وهذا هو المثل الأعلىٰ عندهم .

والشيء المشترك بين البوذية والديانات الوثنية الأخرىٰ هو الاعتقاد بألوهية القديس .

---

(١) (سوتان) (٣٠٧ ، ٣٠٨) .

فالبوذيون يعتقدون في قديسيهم كما يعتقد الهندوس والنصارىٰ وأمثالهم في كهنتهم وقديسيهم من العصمة ، والقداسة ، والتصرف في الكون ، والقدرة علىٰ إغاثة المستغيثين ، وإجابة المضطرّين ، وكشف الضر عن المكروبين ، وعلمهم بالغيب ، وحضورهم في كل مكان وزمان ، وما شابه ذلك .

وقد اعتقد البوذيون أن أرواح القديسين تحل في تمثالهم ، ولذلك إذا مات واحد منهم ، شيّدوا علىٰ مقامه تماثيل ، ونصبوا له أنصابًا ، ليتبركوا بها ، ويطلبوا منها جميع حاجاتهم ، وبهذا كثرت التماثيل والأصنام في البوذية تبعًا لكثرة عدد القديسين .

والبوذيون يفضّلون القديس صاحب الخوارق الكثيرة ، ويُباع تمثاله في الأسواق بأغلىٰ ثمن ، ففي تايلاند نجد في كل مسكن بوذي يخصّص ركن للعبادة ، توضع فيه تماثيل القديس المتنوعة ، ويعلوها تمثال بوذا الذي يحيطونه بعقود الأزهار ، وتوضع فيها أيضًا مواقد للبخور ، ولا يقتصر وجود هذه الهياكل علىٰ المساكن ؛ بل تقام أيضًا في أماكن العمل ، والمدارس ، والمستشفيات ، وسائر الدوائر الحكومية .

أما في المعابد البوذية فإن آلهتهم فيها تمثّل الشخصيات المختلفة من القديسين في تماثيل آدمية ضخمة ، وتعامل هذه التماثيل كأنها مخلوقة حية حيث يقوم الرهبان بإلباسها ، وتنظيفها ، وتقديم القرابين لها ،وهي عبارة عن الزهور ، والشموع ، وعيدان البخور[1] .

وقد تحمل هذه التماثيل في الاحتفالات الكبرىٰ وفي الأعياد السنوية[2] علىٰ محفّات في مواكب ضخمة تخترق الشوارع ، وتحاط بالزينة الفاخرة، كما

---

(١) وهي العيدان الصغيرة تشعل أطرافها بالنار وتتبخر بها ، والبوذيون يستعملونها في جميع طقوسهم الدينية .

(٢) إن الأعياد السنوية في البوذية كثيرة جداً أهمها ما يسمىٰ بيوم « ويساخا بوشا » (Visaka Bosha) =

يصحبها الموسيقى ، والرقصات الدينية من الرجال والنساء ، مع تلاوة أناشيد أو تراتيل .

وقد بالغ بعض البوذيين في تقديس التماثيل ، فعلّقوها في عنقهم تبركًا بها ، وهم في هذا يشبهون النصاري الذين يعلقون في عنقهم الصليب ، أو تمثال مريم ، أو ما شابه ذلك ، وقد يعلق بعضهم عشرات من التماثيل التي تمثل الأشخاص المختلفة من الرهبان والقديسين ، وقد كنت سائلاً واحدًا منهم عما إذا أصابه الضر أو المكروه ، كيف تنجيه هذه التماثيل منه وهي كثيرة ؟

قال : « إنها تتعاون فيما بينها » .

فقلت له بشيء من السخرية والهزل : « حسن ، ولكن إذا تنافست هذه التماثيل في الأمر ، وتخاصمت فيما بينها ، فماذا تفعل ؟ »

فسكت الرجل ، وغضب غضبًا شديدًا .

وهكذا البوذيون وأمثالهم ، إنهم يتصورون المثل الأعلىٰ في القديس المتبتّل ، الذي يقضي حياته كلها في سلك الرهبنة ، فيعبدونه من دون الله .

أما الإسلام الدين الحنيف ، فلم يصوّر المثل الأعلىٰ في إنسان مخلوق ، وإنما صوّره متمثلاً في الله الخالق سبحانه وتعالىٰ وحده ، وفيه يجتمع من الكمالات المطلقة أقصىٰ ما يستطيع عقل بشري أن يتصوّره .

قال تعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[1] .

= والذي يوافق ليلة البدر من الشهر السادس (يونيه) في كل عام ، ويحتفل البوذيون في هذا اليوم لذكرىٰ مولد بوذا ، وإشراقته ، ووفاته ، ويحملون فيه الشموع ، ويطوفون بها حول المعبد ، ومنها أيضًا عيد كبير يسمىٰ « ماخابوشا » (Maka Bosha) والذي يوافق ليلة البدر من الشهر الثالث (مارس) في كل عام ، ويحتفل به البوذيون لذكرىٰ بوذا حينما خطب بالناس أول خطبة بمدينة « راجاغرها » (Rahakareha) وذلك بعد إشراقته بتسعة أشهر ، وهناك في الشهر القمري الأخير ، عندما يكون البدر في تمامه ، يحتفل البوذيون بعيدهم ، ويرسلون مركبًا صغيرًا علىٰ شكل زهرة اللوتس ، وعليه شمعة موقدة ، وقطعة نقدية صغيرة ، فوق مياه الأنهار والقنوات ، لتمسح عنهم آثام الماضي حسب اعتقادهم ، وتطرد عنهم الأرواح الشريرة .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[٢]
وبمناسبة الكلام عن التماثيل والآلهة في البوذية ، أحب أن أورد فيما يلي ما سجلته في إحدىٰ الجولات التي قمت بها أثناء جمع المراجع البوذية في مدينة «بانكوك» وغيرها ، وذلك في عام (١٩٨٥م= ١٤٠٥هـ).

في دولة « تايلاند » (Thailand) إحدىٰ المراكز البوذية الكبيرة في آسيا ، توجد معابد عديدة ، بلغت عددها (٢٨ ٤٦٤) معبداً [٣] وأكبر هذه المعابد علىٰ الإطلاق في شرق آسيا هو معبد « ناكون باتوم » (Nakonpatom) الذي يقع بعيداً عن مدينة بانكوك بحوالي (٥٠ ك م) والذي اشتهر بوجود أكبر تمثال بوذا الذهبي ، وقد توافد إليه أفواج القاصدين لعبادته من مختلف الجهات في أعيادهم .

وفي إحدىٰ الجولات التي قمت بها في معابد بوذية مختلفة ، وجدت أن الأصنام في كل معبد أكثر من خمسين صنماً ، تمثل هذه الأصنام أولاً شخص بوذا في حركاته المختلفة ، ثم أشخاص من القديسين المشهورين عندهم .

وفي بعض المعابد ينحت تمثال بوذا الكبير خارجها ، جالساً تحت الشمس، يتجمع الناس حوله في الأعياد .

ومن الأحداث المضحكة في البوذية في تايلاند ، أنه توجد عصابات كثيرة من البوذيين لسرقة الأصنام ، لأن بيعها في السوق غالية ، خاصة إذا كانت قديمة، ففي كثير من المعابد سرقت أصنامها ، وفي الجرائد اليومية تنشر دائماً أخبار هذه السرقة ، ونستطيع أن نقرأ مثل هذه العناوين في الصفحة الأولىٰ من الجرائد :

---

(١) النحل (٦٠) .
(٢) الروم (٢٧) .
(٣) من كتاب " Buddhism in Siam P . 95 "وهذا الرقم حسب إحصائيات عام (١٩٧٢ م) وقد زاد اليوم كثيراً لأن البوذيين يعتنون ببناء المعابد وزخرفتها اعتناء شديداً .

« قطعت ليلة أمس رؤوس من الأصنام الثمينة في المعبد فلاني قيمتها أكثر من . . . . » !

أو « قبضوا على سراق الأصنام حينما حاولوا أن يسرقوا تمثال بوذا الذهبي قيمته . . . » !

أو سرقت تمثال بوذا الذهبي في معبد فلانس وبلغت قيمتها أكثر من . . . أو ما أشبه ذلك .

وهذه سخرية مريرة بالتدين ، وبالعقلية البشرية التي تؤمن بهذه النِّحلة ، والتي لم تقع في هذا الضلال إلا لأنها تتبع الهوىٰ ، وتهمل التعقل والتدبر ، وتترك ما جاءها من الوحي الصادق .

يقول تعالىٰ : ﴿ **إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ** ﴾[1] .

ولقد شاهدت بنفسي أيضًا هذا الهوىٰ ، وسبرت غور أهله ، فوجدتهم مساكين يعيشون في الأوهام والضلال . . .

في المناطق الشمالية بتايلاند معابد كثيرة جداً ، ذهبت في يوم إلىٰ معبد بوذي كبير اشتهر بوجود آثار قدمي بوذا فيه ، وقابلت راهبًا كبير السن عرفت منه أنه عاش مترهبًا في هذا المعبد أربعين سنة ، وبعد أن قدّمت عليه الرغبة في معرفة آثار بوذا ، جعل يقصّ عليّ قصّة طويلة ، ثم تحدّث عن خوارق هذه الآثار التي منها إنزال الأمطار المستمرة لأهل المنطقة .

فقلت له في شيء من الجدّية ـ وأنا أسخر ـ : كم مرة جاء بوذا ـ وهو في الهند ـ إلىٰ هذه المنطقة حتىٰ ترك فيها آثار قدميه ؟ وماذا ركب بوذا : الطائرة أم الباخرة ؟

(١) النجم (٢٣ ، ٢٤) .

وبدأ الشحوب يظهر على وجه الراهب ، وقال : لا شيء من هذا يحدث ، ولكنها مدوّنات في كتابنا .

فقلت له : حبّذا لو وضعت حكومتنا هذه الآثار على كل منطقة يابسة في البلاد لكي تنزل عليها الأمطار !

ولم يلبث أن أكملت الكلام ، إلا أنه سألني عن الدين الذي أدين به وقال : « أنت في حاجة إلى أن تقرأ عن إلهنا بوذا ، لكي تؤمن به ؛ ومدّ يده بكتاب قديم ليعطيه لي ، فاعتذرت ، ثم جعلت أشرح له الإسلام ، فاستمع له ، وتعجب منه كأنه لم يسمع شيئًا قط عن الإسلام ، ودارت محادثات بيني وبينه ، حتى ظهر في وجهه وكلامه أنه مقتنع ، ولكنني عرفت أن في قلبه جذوراً عميقًا من العقائد الوثنية ، يصعب إقلاعها واستئصالها في مثل هذا الوقت القليل ، فأهديت له كتابًا عن الإسلام ، لعل الله أن يهديه به إلى سواء السبيل .

وخرجت من المنطقة ، وأنا أشعر بأن دعاة الإسلام عليهم مسئولية عظمى في نشر الإسلام وتعريفه لأهل هذه المنطقة وأمثالها ، لأنهم لم يجدوا من يشرح لهم الإسلام ، ولم يجدوا من يقول لهم أن معتقداتهم باطلة ، وأن كتابهم ليس إلا أساطير الأجداد الأولين .

ومرة أخرى في معابد مشهورة يقال لها « ماهاتات » (Mahathat) والتي تقع في وسط العاصمة (بانكوك)[1] ، رأيت حول المعابد وبجانب حيطانها أكثر من مائة حانوت لبيع الآلهة (الأصنام) ، إن الأصنام مرصوصة ، كبيرها ، وصغيرها ، وجديدها ، وقديمها ، على حافة الطريق الطويلة ، والناس

---

(١) فيها أنشئت الجامعة الكبيرة الخاصة لدراسة البوذية وهي : (Mahamongkot Buddhist University) وتضم قسمين : قسمًا للرهبان ، وآخر للمدنيين ، كما أنشئت فيها المطابع الخاصة لنشر الكتب ، والمجلات ، والبحوث التي تتعلق بالبوذية .

يتجولـون من حانوت إلى حانـوت ، يتساومون على آلهتهم ، ويتدبّرون في أنواعها .

ورأيت رجلاً بثياب سوداء يقف على بيعها ، وفي عنقه قلادة ذهبية طويلة ، معلّقة بأنواع مختلفة من الأصنام .

فسألته : بكم تبيع هذا ؟ وأشرت إلى أحد الأصنام المعروضة في حانوته ، فذكره الرجل ثمنه ، ثم جعل يذكر أثمانًا مختلفة ، حسب حجم الصنم ، ونوعه، وشهرته .

فسألته : وكيف تتفاوت أثمان الآلهة . . . ؟

وحملق بعينيه فيّ ، وفتح فمه . . . ولم ينطق .

وفي حانوت آخر ، رأيت سيدة تبيع هذه الأصنام ، فجعلت أسألها عن أسمائها ، فذكرت لي أن هذا صنم الطب ، وآخر صنم الجمال والحب ، وثالث صنم الحرب ، ورابع صنم القوة ، وخامس صنم الخصب والثراء والرزق . . إلخ

فقلت لها : ولم تبيعين هذه الآلهة بثمن قليل ؟

أليس من الأفضل أن تبقى كلها عندك لتكوني أنت أجمل نساء العالم ، وأغناهن ، وأحسنهن صحة ، وأقدرهن على الغلبة والنصر ، وأكثرهن ثراء . . . ؟!

ونظرت إليّ هذه السيدة ، واندهشت ، وسكتت . . . وانصرفت .

وهكذا رأيت أن الآلهة تباع في الأسواق ، وتساوم في أثمانها

. . . ثم هي بعد ذلك مصدر للخير ، والبركة ، والصحة ، والجمال والثراء ! . . .

وفي بعض الأعياد البوذية توجد مسابقة الأصنام ، والذي فاز منها بالجائزة

يباع في الأسواق بأعلى ثمن .

أفليست هذه سخرية مريرة بالتدين ، وبالعقلية الإنسانية التي تؤمن بهذه النِّحلة ؟ لم يفكّر واحد منهم كيف يكون الإله في قارعة السوق ، يساوم في ثمنه، ويرتفع ثمنه ، وينخفض ، ثم يكون بعد ذلك محلاً للتقديس ومصدراً للرعاية ؟ ولم يفكّر واحد منهم كيف تستحق هذه الأصنام أن تكون آلهة ، وقد تقطع رؤوسها ، وتسرق ، ولم تدفع عن نفسها شيئًا ؟

إن هذا الوضع ما زال قائمًا يمكن للزائر أن يشاهده كلما ذهب إلى بانكوك أو أية دول بوذية في شرق آسيا ، فهناك سوف يجد آلهة في الأسواق كثيرة ، وسوف يتألم لإخوة في البشرية صاروا نصيبًا مفروضًا للشياطين .

أسأل الله تعالى لهم الهداية وأن يوفقنا لنبلغهم دين الله الحنيف .

ومن الشعائر البوذية التي عرفت عند البوذيين من قديم الزمن إلى اليوم زيارة الأماكن المقدسة عندهم ، وهذه الأماكن هي التي شهدت أهم الأحداث في حياة بوذا .

منها مدينة « كابيلا فاستو» (Kapilavastu) ، وهي مكان ولادته ، و«بودهاغيا» (Buddhagaya) ، حيث بلغ ما يزعم بالاستنارة ، ثم مدينة «فاراناسي» (Varanasi) أو « بنارس » الحالية (Banares) ، حيث ألقى خطبته الأولى .

وأخيراً هناك « كوسينارا » (Kusinara) وهي المعروفة اليوم بـ « كاسي » (Kasia) حيث داهمته الوفاة[1] .

كما أن هناك تقديسًا لما لم يحرق من جثة بوذا ، فبعض المدن البوذية يدّعي أهلها أنهم حفظوا تلك البقايا في أماكن تسمى « اشتوبا » (Stupa) ، وهي عبارة عن مبنى مستدير ومرتفع ، يرمز إلى أقسام العالم المختلفة ، ويحفظ فيه غالبًا ما

---

(١) هذه الأماكن مر تعريفها في باب تمهيدي .

يظن أنه رماد بوذا .

وعلى سبيل المثال إن مدينة « رانغون » (Rangkoon) عاصمة « بورما » (Berma) ، تفتخر بما تظنه الشعر الحقيقي لبوذا ، فتحفظه بعناية بالغة في أشهر معابدها التي تسمى « سوي ديغون » (Swe Degon) ، وكذلك فإن ما يظن أنه سنّ بوذا محفوظ في « سيلان » (Silon) [١] .

وفي مدينة « ناخون باتوم » (Nakonpatom) في غرب تايلاند تفتخر بأثر قدمي بوذا ، ويزينه أهلها بالذهب والأحجار الكريمة ، ويحفظونه في أفخم المعابد في المدينة ، وهناك أيضًا شجرة « بودهي » (Bodhi) المسماة بشجرة العلم والمعرفة ، والتي نال بوذا تحتها استنارته المزعومة ، وهي مقدسة عند البوذيين ، وتحتل مكانة مرموقة في تقاليدهم .

إن مثل هذه الآثار البوذية ، يحجّ إليها البوذيون ، ويتبركون بها ، وينشدون لها الصلوات والترانيم الدينية ، ويقدمون لها النذور والقرابين ، ويستغيثون بها في جميع أحوالهم وشدائدهم [٢] .

وهكذا شأن الديانة البوذية التي بدأت أول ما بدأت بالإلحاد ، والاعتماد على الزهد ، والتأمل ، والرياضة النفسية ، لأجل الخلاص من الدنيا ، إنها تطورت بمرور الزمن ، وأصبحت منذ وقت مبكّر أكثر الديانات آلهة ومعبودات من بين الديانات الحية في العالم ، كما امتلأت بالطقوس ، والاحتفالات ، والأساطير ، والخرافات .

إنها ـ في الواقع ـ ليست بوذية بوذا ، ولكن الواقع أيضًا أن بوذا قد مهّد لها الطريق ، حتى وصلت إلى هذه المظاهر المعروفة .

---

(١) « تاريخ الديانة البوذية » (١١٦) .

(٢) ومن المؤسف أن مثل هذه التصرفات الوثنية موجودة رائجة في الجهال من المسلمين ، وخاصة أتباع الطرق الصوفية المختلفة ، والمغفلين ، والسذج من الناس ، نسأل الله أن يهديهم إلى سواء السبيل .

ولا أريد هنا أن أقارن بين بوذا الذي استقى تعاليمه من العقل والذوق ، أو بتعبير أصح من الوهم والخيال ، ولا صلة بينه وبين الوحي السماوي في آي وجه من الوجوه ، وبين الرسول ﷺ خاتم النبيين والمرسلين ، من حيث التعاليم لكل واحد منهما .

لأن بينهما بونًا شاسعًا تستحيل المقارنة ، إلا أنني أريد أن أشير هنا إلى أن الرسول الكريم ﷺ حينما دعا الناس إلى التوحيد بالله سبحانه وتعالى ، حمى جنابه ، وسدّه كل طريق يوصل إلى الشرك .

ويكفيك ما روي عنه ﷺ أنه قال :

« لا تطروني[(١)] كما أطرت النصارى ابن مريم ، فإنما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله»[(٢)] .

وقال أيضًا : **« يا أيها الناس إياكم والغلوّ في الدين ، فإنه أهلك من كان قبلكم الغلوّ في الدين »**[(٣)] .

وكان من الدعاء الذين دعا به قبل وفاته :

« اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد »[(٤)] .

***

---

(١) الإطراء : أي مجاوزة الحد في المدح والكذب فيه . انظر : النهاية » لابن الأثير (١/ ١٢٣) .

(٢) رواه البخاري في « صحيحه » (٢/ ٢٥٦) كتاب أحاديث الأنبياء باب واذكر في الكتاب مريم (رقم ٣٤٤٥) وأحمد (١/ ٢٣ ، ٢٤) عن عمر بن الخطاب .

(٣) رواه ابن ماجه (٢/ ١٠٠٨) رقم (٣٠٢٩) وأحمد (١/ ٢١٥ ، ٣٤٧) عن ابن عباس قال الشيخ أحمد محمد شاكر : إسناده صحيح ؛ انظر « مسند الإمام أحمد » شرح أحمد محمد شاكر رقم الحديث (١٨٥١) .

(٤) رواه مالك انظر « تنوير الحوالك شرح موطأ الإمام مالك » (١/ ١٤٣) ، وإسناده صحيح كما ذكره الألباني في كتابه « تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد » الطبعة الرابعة صفحة (١٨ ، ١٩) .

المبحث الخامس

بيان ما في الرهبنة البوذية من فساد

قد تبين من خلال المباحث السالفة في هذا الفصل ، أن نظام الرهبنة نظام يتعارض مع الفطرة البشرية التي فطر الناس عليها ، وقد أشرت في غير موضع إلى مثل هذا التعارض ، إذ أن معظم التعاليم البوذية إن لم تكن كلها لا تخلو من هذا التعارض ، غير أني أريد في هذا المبحث بيان المفاسد التي تترتب على هذا النظام ، وهي كثيرة ، أختصرها فيما يلي :.

١ ـ دعوة الناس إلى الفقر ، وترك العمل ، والاتكال على الناس ، فماذا يصير المجتمع لو اتخذ جميع الناس الرهبنة منهجًا لهم في الحياة ؟ إنه بالطبع سيأخذه الانحلال والاندمار ، لأن كثرة المترهّبين تعني كثرة المتسولين ، وكثرة المتعطلين عن العمل ، ولاشك أن من نتائج ذلك أن تزلزلت دعائم الحياة ، وتعطلت أهدافها ، فلم يكن هناك من يقوم بالعمل للإنتاج ، ولم يكن هناك من يقوم بتدبير شئون الدولة ، ومن يقوم بالدفاع عنها .

وقد انتاب الفزع الحكومة البوذية التايلاندية في عصر من العصور لكثرة الأفراد وخاصة الشباب الذين تركوا دراستهم ، وهجروا متاجرهم وحقولهم ، لينخرطوا في سلك الرهبنة ، ويتخذوها ملجأ ومفرًا من التجنيد الإجباري في البلاد . وكان من نتيجة ذلك أن شلت كثير من مرافق الحياة العامة ، وأصبحت حركة الرهبانية عاملاً من عوامل الضعف والانحلال ، التي أخذت تنخر في جسم الدولة ، فأصدرت الحكومة البوذية التايلاندية قانونًا جديداً يقضي بمنع دخول الأديرة للترهب على اللائقين للخدمة العسكرية إلا بعد اجتيازها .

وهكذا فإن ما تعانيه كثير من الدول البوذية ، من التفكك ، والضعف ،

والانحلال ، ومن ميل إلى القناعة ، والمسالمة ، ما هو إلا نتيجة هذه الرهبنة الفاسدة .

٢ - دعوة الناس إلى التبتل والانفراد ، والاعتزال عن مجتمع الناس ، وهذا تعطيل لإعمار الأرض ، ومخالف لروح الحياة الاجتماعية التي فطر الناس عليها .

إن هذه الرهبنة في الحقيقة تعتبر نوعًا من التطرف البعيد عن الحكمة وعن طبيعة الإنسان الاجتماعية ، فليس من الدين في شيء أن يبتعد الفرد عن مجتمعه ، وعن إخوانه من بني الإنسان ، ليعيش وحيداً بعيداً عن الناس ، يقضي أيامه في جوع وحرمان ، أو يعيش في مجتمع ديري يأكل ما تيسر له من صدقات الناس ، وقد توقعه عزلته عن المجتمع البشري في كثير من الأخطار والمشاكل، لأن هذه الجموع الضخمة من الرهبان قد هجرت زوجاتها وأولادها ، وتركتهم في ضيق من العيش ، فخلفوا الأمهات ثكالى ، والأزواج أيامى ، والأولاد يتامى عالة يتكففون الناس .

ومن ناحية أخرى إذا نظرنا إلى الحياة الرهبانية الانفرادية ، فإننا نجد أنها تكمن الأثرة ، والأنانية ، وحبّ النفس المفرط وراء حجاب التديّن ، لأن كل راهب يفكر فقط في إنقاذ نفسه ، وخلاصه ، ووصوله إلى « نرفانا » ، دون أن يفكّر في غيره بالقدر الذي يفكّر به في نفسه ، وإذا كان الراهب منهم يقوم بشيء من أعمال البر والإحسان ، فإنه لا يقوم بها رحمة بأخيه الإنسان ، وإنما رحمة بنفسه ، ووسيلة يصل بها إلى هدفه المنشود .

وليس ببعيد أن أقول : إن هؤلاء الرهبان ، إنما يهجرون العالم ، ويلوذون بديرهم بالمعبد ، لأنهم في حقيقة الأمر أجبن من أن يواجهوا مصاعب الحياة ، ويعملوا على تعديل ما بها من انحراف ، وتقليل ما فيها من آثام وشرور .

٣ - إيجاد طائفة خاصة في الدين من الرهبان ، والتفرقة بينهم وبين غيرهم من المدنيين في الالتزام الأخلاقي ، وفي أداء الشعائر الدينية ، وقد أسلفنا أن الرهبان البوذيين يتقيّدون بآداب تبلغ (٢٢٧) فقرة ، بينما يكتفي المدنيون

الساكنو البيوت بالالتزام والتقيد بالوصايا الخمسة المعروفة لديهم[١] ، وعلىٰ رغم ذلك فإن هذا الالتزام والتقيد ليس علىٰ سبيل الوجوب ، وإنما هو علىٰ سبيل التطوع ، إذ للبوذي المدني أن يختار ما يناسبه من الوصايا الخمسة ، فيلتزم ببعضها دون البعض ، ولذلك نجد من البوذيين من يحافظ علىٰ الوصايا الخمسة كلها وهم الأقلية ، ومنهم من يحافظ علىٰ بعضها دون البعض وهم الأكثرية ، فيكفّ عن القتل مثلاً ، أو عن السرقة ، ولكنه لم يكف عن الزنىٰ ، وعن شرب الخمر ، محتجًا في ذلك بأنه لم يتقيد به ، فلا ضرورة في المحافظة عليه ، ومثل هذا سائر الشعائر البوذية ، فيها تفرقة بين الرهبان وغيرهم ، ولا تقام جماعة إلا في بعض الأعياد ، علىٰ الرغم من وجود المعابد الضخمة الكثيرة ، وكأن هذه المعابد قد خصت للرهبان فقط دون غيرهم من المدنيين .

ولا يخفىٰ أن هذه التفرقة تنافي ما دعا إليه بوذا نفسه من المساواة ، لأن هذه التفرقة جعلت المتدينين قطعة من المعبد ، وأدت إلىٰ وجود طائفة معينة من رجال الدين يتكسّبون بتدينهم .

وقد صدق « ول ديورانت » في حديثه عن الرهبنة البوذية إذ يقول : « ويظهر أن هذه العقيدة الدينية التي أرادت أن تستغنىٰ عن الكهنوت كانت بالفعل قد كوّنت لنفسها طائفة من النساك الرهبان ، لا تقلّ خطراً عن كهنة الهندوس ، ولن يطول الأمد بعد موت بوذا حتىٰ يحيطوا أنفسهم بكل أسباب المجد التي كان البراهمة يحيطون أنفسهم بها »[٢] أهـ .

٤ ـ هناك مفاسد وانحرافات في سلوك الرهبان أنفسهم ، داخل جدران الأديرة وخارجها ، ويرجع السبب في كل الفساد والفجور فيها إلىٰ الغلو والتشدد الذي أوجده الرهبان في نظام الرهبنة ، وخاصة التشدد في نظراتهم إلىٰ النساء ، ولو كنّ من أحب الناس إليهم ، كالأمهات ، أو الأزواج ، أو

---

(١) وهي الكف عن القتل ، والسرقة ، والزنا ، وشرب الخمر ، والكذب ، وقد سبق ذكرها .
(٢) « قصة الحضارة » (٣/ ٨٧) .

الشقيقات ، فهم يرون أن المرأة قذر ونجس ، ومن أراد الترقي في مدارج الكمال والوصول إلىٰ القداسة (Arhat) فعليه أن يبتعد عن المرأة[١] ، بل عليه أن يكرهها ويحتقرها ، كما أكد بوذا ذلك حينما سأله أحد حوارييه ويدعىٰ آناندا (Anandha) قائلاً : « ما رأيك بالنساء أيها المعلم »؟ قال بوذا : « يا آناندا يجب علىٰ الرهبان الابتعاد عنهن ، فهن خبيثات ، وكيدهن عظيم ، وعلينا ألا ننظر إليهن ، ولا نكلمهن ، ونأخذ حذرنا منهن »[٢] .

وهكذا تعاليم الرهبنة المتزمّتة ، ولكن الإنسان هو الإنسان ، ومهما كانت مكانته فإنه لا يتجرد عن شهوة الجنس ، ومن أجل هذا فقد توالت الأخبار الموثوقة حول الفجور والفواحش التي ارتكبت داخل الأديرة وخارجها .

ففي تايلاند إحدىٰ الدول البوذية كنت أقرأ دائمًا في الجرائد ، خبر الراهبات اللاتي فصلن أنفسهن من سلك الرهبنة ، بسبب الحمل الذي لم يعرف صاحبه ، وقد تنتحر بعضهن بهذا السبب .

وكنت أستمع دائمًا من البوذيين ، خبر شباب الرهبان الذين خرجوا من أديرتهم في الليل ، وبلباس المدنيين ، وبشعر صناعي ، إلىٰ أماكن الرقص ، والغناء ، والبغايا ، ثم أسرعوا إلىٰ أديرتهم قبل الفجر ، كي لا يراهم الناس .

وكان يحكي لي أحد البوذيين الذي لا يؤمن ببوذيته أن رئيس الرهبان في قريته لا يجترئ أن يدخل إلىٰ أديرتهم الإناث من الحيوانات ، بسبب ما يحتمل أن ينتج من ذلك من ارتكاب الفجور ، مما يؤدي إلىٰ الخطر علىٰ رهبنتهم[٣] .

وعلىٰ رغم ذلك ، فلا يخفىٰ أنهم لم يقوموا بما تعهدوا به من العفاف بين الرهبان من الجنسين .

---

(١) « تعاليم للرهبان » (٣١) .
(٢) « تري بيتاكا » (سوتان) (٤٣٢) .
(٣) أفادني هذه المعلومات كثير من الزملاء البوذيين العسكريين الذين كنت معهم في خلال التجنيد الإجباري في تايلاند من (١٩٧٤ إلىٰ ١٩٧٦ م) .

وقد هاجم بعض العلماء البوذيين المعاصرين هذه الانحرافات في الرهبنة ، فها هو الباحث البوذي الدكتور فراموت (Pramote) إذ يقول : ـ

« لا يخفىٰ علىٰ عامة البوذيين أن الأديرة والمعابد لم تعد بعد إلىٰ أن تكون ملجأة روحيّة لهم ، بعد أن أصبحت الأديرة قصوراً فاخرة ، وأماكن للفجور ، وبعد أن أصبح الرهبان يحترفون ببيع الأصنام والتماثيل ، ويكسبون أموال الناس بالعرافة ، والتنجيم ، والكهانة . . .

إن الفساد لم يلبث أن تطرق إلىٰ نظام الأديرة في تايلاند وغيرها ، وأصابها الملل ، وأصبحت بعيدة عن المبادئ ، والمنشأة لأجلها »[1] أهـ .

٥ ـ من المفاسد التي تترتب علىٰ الرهبنة ، أنها سبب من الأسباب في ظهور حركة الإباحية في المجتمع ، والتي تدعو إلىٰ التحرر من سلطان الدين ، ومن كل القيم والقيود الأخلاقية .

ولا يخفىٰ أن هذه الحركة قد انفجرت منذ وقت بعيد في مجتمعات كل من الدول البوذية والنصرانية ، كرد فعل عنيف لمفاهيم الحرمان والكبت ، والاضطراب النفسي ، التي تتمثل في تعاليم الرهبنة لكل من الديانتين .

يقول الأستاذ أنور الجندي :

« لقد تحولت الحياة في المجتمعات الغربية من النقيض إلىٰ النقيض ، كانت العصور الوسطىٰ ، وسلطان الكنيسة يحبس الكيان المادي ، ويدعو إلىٰ الزهادة والرهبنة ، واعتزال الحياة ، وإنكار النوازع الفطرية الأصيلة في النفس الراغبة إلىٰ الممارسة والتنفيس ، فلما كسر هذا القيد ، بلغ الإنسان أقصىٰ المدىٰ من الناحية الأخرىٰ ، فحبس العواطف والروحانيات ، وأطلق الأخرىٰ ، ودعا إلىٰ وثنية وإباحية عاصفة »[2] .

---

(١) من مقالة « مجتمع الدين » الذي نشر ضمن الكتاب المسمىٰ « ما هو الصواب والخطأ ؟ » باللغة التايلاندية (ص١٩) .

(٢) « الإسلام والدعوات الهدامة » (ص١٩٩) .

أقول : كذلك الوضع في المجتمعات البوذية الشرقية ، فإن طقوس الرهبنة الخرافية ، وكذلك الغلو والتشدد الذي أوجده الرهبان ، هو الذي دعا الناس لترك دينهم ، الذي يتجافى مع الفطرة السليمة ، كما دعاهم إلى التفلّت من القيم الأخلاقية والعقائدية .

إن البوذية والنصرانية لم تقدرا ولن تقدرا أن تصلحا ما فسد من أخلاق الناس وعقائدهم ، لأن حركة الفجور والإباحية تصاحب بلادهما وتسير فيها جنبًا إلى جنب .

٦ ـ علاوة على ما ذكرته من المفاسد ، فإن الرهبنة كانت عاملاً هامًا من عوامل انحلال البوذية وانسحابها من الهند ، كما أثبت ذلك كثير من الباحثين والمؤرخين .

يقول « ول ديورانت » متحدثًا عن سبب انحطاط البوذية في الهند : « وكان من نتائج انتشار البوذية ونظام الأديرة في السنة الأولى من التاريخ المسيحي أن امتصت من الهند عصارة الرجولة ، وتآمر ذلك العامل مع عامل الانقسام[1] ، فأدى العاملان إلى فتح أبواب الهند للغزو الخارجي بغير عناء .

ولما جاء العرب (المسلون) ، وأخذوا على أنفسهم أن ينشروا وحدانية بسيطة رواقية النزعة ، نظروا في ازدراء إلى الرهبان البوذيين الكسالى الذين يفتحون أيديهم للرشوة ، ويتجرون بالمعجزات ، وحطموا الأديرة ، وقتلوا ألوف الرهبان ، ونفّروا كل حريص على حياته من نظام الرهبنة في الدير ، فأما من أفلتوا من يد القتل من هؤلاء الرهبان فقد عادوا واندمجوا في الديانة الهندية التي كانت الأرومة الأولى لهم . . .

وهكذا أخذت البوذية تختفي في هدوء وسلام من الهند إبان خمسة قرون

---

(١) أي الانقسام إلى الفرق والمذاهب .

كانت خلالها نهبًا لعوامل التدهور البطيء »[١] .

كما ذهب الباحث البوذي المعاصر الدكتور « شاشوال سري جانتارا » (Shashawal Sri Jantra) إلىٰ أن المادية التي سيطرت علىٰ الرهبان في الهند هي السبب في انحلال البوذية إذ يقول :

« إن الزخارف المدنية ، وأنوار الحضارة ، وطغيان المادية ، وسلطان النفوذ ، والقوة التي عاشت فيها البوذية زمنًا طويلاً في الهند ، أغرقت رهبانها في حب الجاه والمال ، والولع بحياة الترف ، ثم حوّلت أديرتهم ومعابدهم إلىٰ قصور من النعيم والجنان »[٢] .

ولعل أوضح الوثائق دلالة في هذا الصدد ما سجله الحاج الصيني هيوين سانغ (Hian Shang) [٣] في مذكراته الشهيرة حيث ذكر أن رهبان الهنود البوذيين في القرن الثاني عشر البوذي[٤] مغرقون في حب الدنيا ،وكانوا يعيشون عيشة الكسالىٰ ، لا يلتزمون بنظام الرهبنة ، ويعيشون كما يعيش المدنيون ، يقتلون الحيوانات ، ويتزوجون النساء .

وذكر « هيوين سانغ » أن كثيراً من المعابد في منطقة « جامو » و« كشمير » أصبحت قصوراً للرهبان الأثرياء ، والرهبان المتزوجين ، وأن بعض المعابد استغل رهبانها الأراضي ، وملأت خزانتها بالقمح والأرز ، وبعضها ملكت الأموال والثروة من الذهب والفضة ، ولم تصرفها في سبيل الخير ، وإنما

---

(١) « قصة الحضارة » (٣/ ١٩٩ ـ ٢٠٠) انظر أيضًا « حضارة الهند » (٣٧) .

(٢) Buddhism in Siam P . 106

(٣) زار الحاج الصيني هيوين سانغ الهند في أول القرن السابع بعد الميلاد ، ومكث فيها مدة طويلة ، حيث أبصر الانحطاط الذي آلت إليه البوذية ، وشاهد في كل مكان هجر الناس لمعابدها وأديارها، وتداعي المباني ، وقد سجل ما رآه في مذكراته التي تعتبر من إحدىٰ الوثائق التاريخية في البوذية ، والتي يعتمد عليها المؤرخون من علماء البوذيين وغيرهم ، انظر « تاريخ الديانة البوذية » (١٣٢) وانظر أيضًا « حضارات الهند » (٣٨٩ـ٣٩٠) .

(٤) يوافق القرن السادس والسابع للميلاد ، لأن التاريخ البوذي قبل الميلادي بخمسمائة وثلاث وأربعين سنة علىٰ المشهور ، وقد حسب التاريخ البوذي من يوم وفاة بوذا .

يصرفها الرهبان في سبيل ترفتهم ونعيمهم[١] .

أقول : إنّ هذه الظاهرة الرهبانيّة في التاريخ هي التي دفعت البوذيّة في الهند نحوالزوال والانحلال ، وكذلك شأن كل ديانة وحضارة ، لأن رجال الدين والقديسين إذا استبدت بهم المادية ، واستولت عليهم الشهوات والملذات ، أسرع الانحلال والفناء إليهم ، وإلىٰ كل المعالم الحضارية عندهم ، وهذا ما حدث للبوذية في الهند ، وهو دليل أيضًا علىٰ عجز هؤلاء الرهبان عن التقيد بالرهبانية وتنفيذها ، وعلىٰ استحالة تطبيق الرهبانية في الحياة ، لمنافاتها للطبيعة البشرية التي أعطيت قوىٰ ذاخرة في أعماقها ، لا يجوز القضاء عليها ، أو تجاهلها ، أو قتلها .

* * *

(١) « تاريخ انتشار البوذية في العالم » (٩٣ـ٩٤) .

المبحث السادس

موقف الإسلام من الرهبانية

إن موقف الإسلام من الرهبانية موقف واضح صريح ، يختلف عن سائر الديانات ، لأن الإسلام دين فطري ، يراعي مقتضيات الفطرة في جميع تعاليمه وأحكامه ، فقد رفض الإسلام الرهبانية كلها ، وبكل صورها ، رفضًا عنيفًا ، ويتجلى هذا الرفض العنيف في أحاديث كثيرة ، منها ما رواه البخاري[1] عن أنس ابن مالك - رضي الله عنه - يقول :

« جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ ، يسألون عن عبادة النبي ﷺ ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها[2] ، فقالوا :وأين نحن من النبي ﷺ ؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، قال أحدهم : « أما أنا فإني أصلي الليل أبدًا » وقال آخر : « أنا أصوم ولا أفطر » ، وقال آخر : « أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا » فجاء رسول الله ﷺ ، فقال : « أنتم الذي قلتم كذا وكذا ، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكني أصوم ، وأفطر ، وأصلي ، وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » .

وقد روى البخاري أيضًا[3] عن سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - أنه قال :

« ردّ رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون التبتل ، ولو أذن له لاختصينا » .

يعني لو أذن له الرسول ﷺ للتبتل والاعتزال عن النساء للتفرغ لعبادة الله لقطعنا خصيتنا ، ولكن الرسول ﷺ لم يأذن له ، لأن التبتل لا يتفق مع

---

(١) « صحيح البخاري » (٣/ ٢٣٧) كتاب النكاح باب الترغيب في النكاح (رقم ٥٠٦٣) ورواه أيضًا أحمد في « مسنده » (٣/ ٢٨٥) عن أنس بن مالك .

(٢) أي استقلوها وهو تفاعل من القلة انظر « النهاية » لابن الأثير (٤/ ١٠٤) .

(٣) « صحيح البخاري » (٣/ ٢٣٩) كتاب النكاح باب ما يكره من التبتل والخصاء (رقم٥٠٧٣) .

فطرة البشرية .

وفي حديث آخر عن سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ قال : « **لما كان من أمر عثمان بن مظعون الذي كان ممن ترك النساء ، بعث إليه رسول الله ﷺ فقال : «يا عثمان ، إني لم أومر بالرهبانية ، أرغبت عن سنتي »** ؟ **قال « لا يا رسول الله » قال : «إن من سنتي أن أصلي ، وأنام ، وأصوم ، وأطعم ، وأنكح ، وأطلق ، فمن رغب عن سنتي فليس مني ، يا عثمان إن لأهلك عليك حقاً ، ولنفسك عليك حقاً** »[١] .

وهناك أحاديث أخرىٰ كثيرة في هذا المعنىٰ .

وقد أوصىٰ رسول الله ﷺ بالجهاد مشيراً إلىٰ أنه رهبانية الإسلام ، فروي عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ أن رجلاً جاءه فقال « أوصني » فقال : «سألت عما سألت عنه رسول الله ﷺ من قبلك ، أوصيك بتقوىٰ الله ، فإنه رأس كل شيء ، وعليك بالجهاد ، فإنه رهبانية الإسلام »[٢] .

وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال :

« **لكل نبي رهبانية ، ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله عز وجل** »[٣] .

ولا شك أن الرسول ﷺ ، حينما اعتبر الجهاد رهبانية هذه الأمة ، فإنه قد قضىٰ حياته في الغزو ومحاربة الشرك والنفاق حتىٰ مات دون ذلك ، فلم يكد ينتهي من غزوة حتىٰ يمضي هو وأصحابه إلىٰ غزوة أخرىٰ .

والمتدبر لسيرة الرسول ﷺ وسيرة أصحابه ـ رضوان الله عليهم ـ يعلم ذلك ، وعلىٰ هذا فقد حفظ التاريخ للمسلمين صفحة باهرة ، تتمثل في

---

(١) رواه الدارمي في « سننه » (٢/ ١٣٣) وصححه الألباني وأخرجه في « سلسلة الأحاديث الصحيحة » برقم (٣٩٤) (١/ ١٣٤) .

(٢) رواه أحمد في « مسنده » عن أبي سعيد الخدري (٣/ ٨٢) قال الألباني : وإسناده حسن ، وأخرجه في « سلسلة الأحاديث الصحيحة » برقم (٥٥٥) (٢/ ٨٧) .

(٣) رواه أحمد في « مسنده » عن أنس بن مالك (٣/ ٢٦٦) قال الألباني : وإسناده ضعيف من أجل زيد وهو ابن أبي الحواري وهو ضعيف كما في « التقريب » وقد قال فيه الدارقطني وغيره : صالح ؛ فمثله يستشهد به ، انظر « سلسلة الأحاديث الصحيحة » (٢/ ٨٨) .

الفتوحات الإسلامية التي تحققت وتمت على أيديهم ، أما الرهبنة واعتزال الناس ، فلم يكن إطلاقًا شأن الصحابة ، ولا طريقتهم ، لكن منهم من أراد فعل ذلك ، فمنعه الرسول ﷺ ، ونهى عنه ، كما سبق ذكره في أمر عثمان بن مظعون وغيره .

وهكذا وقف الإسلام من البشرية موقف الكرامة ، والعزة ، والسماحة ،

فلم يحرم التمتع بالحياة من أمور الدنيا ، ولم يطالب الناس بالانقطاع عنها والتفرغ للعبادة ، لأن الإسلام ربط بين الحياة الدنيا وبين الآخرة ، وأباح للإنسان طيبات الدنيا ، من زواج ، وزينة ، ومتاع ، وطعام ، من مصادر الحلال ، ووفق ضوابطه التي أريد بها تكريم الإنسان وحمايته .

وإلى هذا أشار القرآن الكريم في آيات كثيرة منها قوله تعالى :

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ... ﴾[1] .

وقوله تعالى :

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾[2] .

وقد بلغ استنكار القرآن نفسه للاتجاه السلبي من تحريم المباح أن سمّاه اعتداءً ، وسمّى أصحابه بالمعتدين ، إذ يقول تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾[3] .

يقول سيد قطب ـ رحمه الله ـ عند تفسير هذه الآية :

---

(١) الأعراف (٣٢) .

(٢) القصص (٧٧) .

(٣) المائدة (٨٧) يقول القرطبي : ﴿ولا تعتدوا﴾ أي لا تعتدوا فتحلوا ما حرم الله ، فالنهيان على هذا تضمنا الطرفين : أي لا تشددوا فتحرموا حلالاً ، ولا تترخصوا فتحلوا حراماً .
« الجامع لأحكام القرآن » للقرطبي (٦/ ٢٦٣) .

« ولقد جاء هذا الدين (الإسلام) ليحقق الخير ، والصلاح ، والتوازن المطلق ، والتناسق الكامل ، بين طاقات الحياة البشرية جميعًا ، فهو لا يغفل حاجة من حاجات الفطرة البشرية ، ولا يكبت كذلك طاقة بناءة من طاقات الإنسان، تعمل عملاً سويًا ، ولا تخرج عن الجادة ، ومن ثم حارب الرهبانية ، لأنها كبت للفطرة ، وتعطيل للطاقة ، وتعويق عن إنماء الحياة ، ونموها ، وتجددها ، لقد خلق الله هذه الحياة لتنمو ، وتتجدد ، وترتقي ، عن طريق النمو والتجدد المحكومين بمنهج الله ، والرهبانية وتحريم الطيبات الأخرىٰ تصطدم مع منهج الله للحياة ، لأنها تقف بها عند نقطة معينة بحجة التسامي والارتفاع، والتسامي والارتفاع داخلان في منهج الله للحياة ، وفق المنهج الميسر المطابق للفطرة كما يعلمها الله »[1] .

قلت : إن الإسلام دائمًا يأخذ بفضيلة الوسط ، لا إفراط ولا تفريط ، فلا يحرم الرغبة ، ولكنه ينظمها ، والإسلام لا يقر الإسراف فيها ، كما لا يقر رفضها ، وهو يسعىٰ إلىٰ إقامة التوازن الدائم بين أهداف الحياة ، وضرورات المجتمع ،ونوازع الفرد ، دون أن يطغىٰ هدف علىٰ هدف ، والإسلام يأخذ الإنسان ككل ، عقله ، وجسمه ، ونفسه ، وروحه ، فهو يوازن بين مطالب جسده ومطالب روحه ، لأنهما جزءان من كيان واحد ، وعلىٰ هذا فإن التدين الحق في الإسلام ليس هو التخلص من الرغبات والشهوات ، وليس هو التقشف بالكف عن اللذات ، وليس هو التفرغ للعبادة ، والتخلي عن الدنيا وشئونها ، والعزلة عن الناس ، لأن الله سبحانه وتعالىٰ لم يشأ للإنسان ذلك ، ولكنه رضي له أن يمارس الحياة ، ويواجه متاعبها ، ويتصل بأهلها ، ويتعاون فيما بينهم علىٰ الخير والصلاح ، وعلىٰ التعمير والبناء ، كما رضي له أن يتمتع بما أحله له من زينة ومتاع ، وأن يقف عند حدود ما حرم عليه ، هذا هو مفهوم التدين الحق في الإسلام ، وهو منهج الله للحياة المطابق للفطرة ، بخلاف الرهبانية البوذية التي

---

(١) « في ظلال القرآن » (٢/ ٩٧٢) .

اعتمد عليها البوذيون ، والتي هي مخالفة للفطرة ومخالفة لروح الحياة الاجتماعية ، وكذلك الرهبانية النصرانية التي صرح القرآن باعتبارها بدعة ابتدعها النصارىٰ في قوله تعالىٰ :

﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾[١] .

والواقع أن إنكار الإسلام للرهبانية هو جزء من رسالته إلىٰ التوحيد وإلىٰ تحرير الإنسان من العبودية ، تلك العبودية التي أشار إليها القرآن في قوله تعالىٰ :

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ . . . ﴾[٢] .

فقد قرّر الإسلام حقيقة أساسية لينفرد بها في مقارنات الأديان ، وهي أن الإسلام ليس فيه طائفة معينة تسمىٰ رجال الدين أو الرهبان أو ما شابه ذلك ، لأن كل معتنق للإسلام هو رجل الدين ، وكلهم سواء أمام قوانين الشرع وأحكامه ، فالحلال حلال للجميع ، والحرام حرام علىٰ الجميع ، والفرائض ملتزمة علىٰ الجميع ، والإسلام لم يعترف علىٰ الإطلاق ، ولم يسمح أبدًا بإنشاء طبقة متميزة عن سائر المسلمين ، بطقوس دينية خاصة تسمىٰ السلطة الرهبانية ، أو الهيئة اللاهوتية ، أو الوساطة الكهنوتية ، علىٰ النحو الذي يعرف لدىٰ البوذيين ، والنصارىٰ ، والهندوس ، فلكل مسلم أن يتفقه في دينه ، فيصبح فقيهًا من رجال دينه ، دون طقوس ولا اعتماد علىٰ سلطة دينية خاصة ، كما أن لكل مسلم أن يعبد ربه ، ويتقرب إليه بدون وساطة ، ومتىٰ شاء وأين شاء ، لأن الصلة بين الله والإنسان لا فجوة فيها ، فليس في الإسلام وسطاء بيدهم الشفاعة ، أو الوصاية ، أو الولاية ، أو التخليص بين الله والعبد ، أو ما شابه ذلك .

---

(١) الحديد (٢٧) .

(٢) التوبة (٣١) .

قال تعالىٰ :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُم يَرْشُدُونَ ﴾[1] .

هذا هو موقف الإسلام من الرهبانية ، إنه موقف سلبي واضح لا غبار عليه ، وعلىٰ رغم ذلك فقد حاول بعض المسلمين قديمًا وحديثًا نقل مفاهيم هذه الرهبانية إلىٰ الإسلام ، فنشأت فرقة من غلاة المتزهدين تعرف بالصوفية ، يتفرغون للعبادة بعيدين عن متاع الحياة الدنيا .

غير أن هذه الفرقة لم تلبث أن انحرفت ، وضلت ، وامتلأت بالدخائل والبدع ، لأنها لم تستطع الحفاظ علىٰ روح الإسلام في مفاهيمه للنفس البشرية ، وحاجاتها ، وقواها ، وكانت تقوم علىٰ أيدي أقوام يضمرون المفاهيم المجوسية والهندية القديمة ، ويحاولون بدعوتهم تدمير الإسلام من الداخل .

وفي الباب الآتي أتناول جانبًا لهذه الفرقة ، ذلك الجانب الذي له علاقة ـ إما مباشرة أو غير مباشرة ـ بالتعاليم البوذية التي سبق بيانها .

ومن الله أستمد العون ، والسداد ، والتوفيق ، والرشاد ، وهو الهادي إلىٰ السبيل القويم .

* * *

(١) البقرة (١٨٦) .

الفصل الخامس

المذاهب في البوذية
وانتشارها في الأقطار

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : المذاهب في البوذية .

المبحث الثاني : انتشار البوذية في الأقطار .

الفصل الخامس

المذاهب في البوذية وانتشارها في الأقطار

المبحث الأول

المذاهب في البوذية

ظهرت في البوذية بعد بوذا عدة مذاهب يمكن ردّها إلىٰ مذهبين كبيرين وهما القديم والجديد :

١ ـ المذهب القديم أي العميق الصلة ببوذية بوذا ـ كما يدّعون ـ ويسمىٰ «هينايان» (Hinayan) وهي مركبة من كلمتين « هينا » وتعني الصغير ، و« يان » أي الحاملة ، فالمعنىٰ أي الحاملة الصغرىٰ[1] .

وقد يطلق عليه أيضًا المذهب الجنوبي ، لأنه انتشر في جنوب الهند وجزيرة سيلان ، كما انتشر إلىٰ اليوم في بورما ، وسيام (تايلاند) وكمبوديا ، ولاوس[2] .

وآمن أتباع هذا المذهب بالنصوص البوذية القديمة المكتوبة باللغة البالية «تري بيتاكا» ، والتي تبسط العقيدة في صورتها القديمة ، وعبدوا بوذا باعتباره معلّمًا عظيمًا لا إلهًا ، وإن كانوا من ناحية أخرىٰ يحترمون بوذا ويقدّسونه إلىٰ

---

(١) أطلق البوذيون علىٰ العقيدة التي يعتقدونها اسم « يان » (Yan) وهي في البالية تعني : الحاملة أو الزورق ، وقد تمسكت الطوائف البوذية المختلفة بتلك التسمية للدلالة علىٰ وظيفة وروح العقيدة فكما أن الزورق ضروري في الهند للانتقال والعبور ، كذلك فإن العقيدة زورق ضروري لاجتياز نهر « سمسارا » أي تجوال الأرواح وتناسخها وبلوغ صفة التحرر والخلاص .
انظر « مجموعة المصطلحات البوذية » (١٤٨) .

(٢) انظر « المذاهب البوذية » (٢٤٢) وانظر أيضًا « أديان الهند الكبرىٰ » (١٨٣ ، ١٨٢) .

أقصى الحدود كما أشرت إليه من قبل[١] .

٢ ـ المذهب الجديد ، وهو الذي اختلط بالآراء والنظريات الفلسفية ويسمى « مهايان » (Mahayan) أي الحاملة الكبرى ، ويطلق عليه أيضًا المذهب الشمالي ، لأنه انتشر في شمال الهند ، وفي التبت ، ومنغوليا ، والصين ، واليابان، وكوريا ، وفيتنام[٢] .

واعتمد هذا المذهب على النصوص القديمة « تري بيتاكا » المكتوبة باللغة السنسكريتية ،وعلى غيرها من الكتب التي وضعت معظمها في أوائل القرن الميلادي الأول[٣] .

وقد روى المؤرخون البوذيون أن هذا المذهب الجديد نشأ في عهد الملك كانشكا[٤] (Kanishka) في القرن الأول بعد المسيح عندما دخل العدد الكبير من الأجانب في البوذية مما أدى إلى اضطراب شديد بسبب عدم تجانس هذه الشعوب ، فخفف هذا المذهب من حدته آلهة برهمية وطقوسها وأساطيرها ، ولاءم بين نفسه وبين حاجات القبائل والشعوب الذين بسط عليهم « كانشكا » سلطانه[٥] .

ومن أبرز الممثلين لهذا المذهب الجديد هو « ناغاراجونا » (Nagarashuna)[٦] الذي عاش في آخر القرن الثاني بعد الميلاد ، وهو إلى جانب تأثيره الشخصي الفعّال يعتبر خير ممثل لعقيدة « الفراغ » أو « سونياتا »

---

(١) انظر موضوع (بوذا وقضية الألوهية) في هذه الرسالة .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق (٢٤٣) وأيضًا « بوذية مهايان » (٤٠) .

(٤) سيأتي تعريفه .

(٥) « تاريخ انتشار البوذية في العالم » (٨٦) و« المذاهب البوذية » (٢٤٠) .

(٦) وقد شك البعض بوجوده التاريخي لكن دحض ذلك ، يعتبر في الشمال الهندي مبجّلاً ، وحتى على قدر مساو لبوذا ذاته ، وينسب إليه الكثير من الكتب ، منها كتب في الطب ، والسحر ، والعلوم الخفية ، انظر « الهند القديمة » (٢٩٣) .

(Sunyata) [1] أي أن الحقيقة النهائية ليست سوىٰ الفراغ ، وأن المعرفة العليا هي الاعتقاد بالعدم العام المطلق[2] .

وقد اختلف المذهبان (هينايان ، ومهايان) في بعض المبادئ والعقائد أذكر منها :

أ ـ في النظر إلىٰ شخصية بوذا ، حيث أعلن مهايان ألوهية بوذا ، واعتبره كائنًا لاهوتيًا تجسّد فيه الإله (أوتار) ، وهبط إلىٰ العالم لإنقاذه من الشرور والآلام ، ويعتقد أتباع هذا المذهب بأن بوذا يكون موجودًا دائمًا في هذا الكون ، إما علىٰ هذه الأرض أو في السماء ، لأنه هو محور الكائنات كلّها ، وأنه يجيء إلىٰ هذا العالم الأرضي من حين إلىٰ آخر متقمصًا جسد أحد بني الإنسان لينقذ البشرية[3] .

هذا بخلاف مذهب « هينايان » الذي صرّح أتباعه بأن بوذا لم يكن إلا بشرًا قد جاء لهداية البشر .

ومن الجدير بالذكر أن عقيدة التجسد الإلهي أو ما تسمىٰ بالسنسكريتية «أوتار» (Awatar) عقيدة وثنية قديمة جدًا بالهند ، تنسب إلىٰ الدراويديين علىٰ الأرجح ، لأن إلههم « فشنو » (Vishnu) هو الذي يتجسد في الشخصيات الأسطورية ـ كما يعتقدون ـ وقد انتقلت هذه العقيدة إلىٰ الرومان من اليونانيين ، حيث عرضوا السيد المسيح عليه السلام مجسّدًا فيه الله سبحانه ومتغلغلاً فيه ، كما انتقلت كذلك إلىٰ إيران .

وكذلك تلقت بعض الفرق الإسلامية الضالّة هذه العقيدة بقبول حسن ، وعرضت أبطالها في صورة التجسد ، مثل القرامطة والإسماعيلية في القديم ، والبهائية والقاديانية في الحديث[4] .

---

(١) سبق الكلام عنها في موضوع « نرفانا » .

(٢) المصدر السابق .

(٣) « المذاهب البوذية » (٣٤٧) وأيضًا « بوذية مهايان » (٧٦ ، ٧٧) .

(٤) انظر « الهند القديمة » (١١٠ ـ ١١٣) و« تاريخ الأديان » (٥٠ ـ ٥٤) .

ب ـ أعلن فريق « مهايان » أنه في إمكان كل فرد منهم أن يكون كبوذا نفسه ، فيتجسد فيه الإله ، وينجو وينجي غيره بالمعرفة ، لأن اقتصار الفرد على خلاص نفسه أو الاكتفاء بالفائدة الشخصية أصبح ضئيلاً في نظرهم ، فذهب فريق « مهايان » إلى أن هناك أشخاص بوذا كثيرة بعد بوذا ، سيظهورن في عوالم مختلفة ، وأوقات محدودة ، وسيتخذون عدة أشكال وأحوال كلما اقتضت الضرورة ، ولا فرق عندهم في ظهور هذه الأشخاص بين عالم الإنسان أو عالم الحيوان ، وهذا بخلاف فريق « هينايان » الذين اتفقوا معهم في ظهور هذه الأشخاص ، ولكن رفضوا ظهورها في عالم الحيوان ، واعتقدوا أنها أشخاص معيّنة تظهر في عالم الإنسان فقط[1] .

ففي كتاب « تري بيتاكا »[2] أقرأ النص التالي :

« ومسح « آناندا » (آحد حواريّ بوذا) دموعه ، وقال لبوذا :

« من يعلمنا ويرشدنا عندما فارقتنا » ؟

فأجاب بوذا :

« أنا لست بوذا الأول الذي يجيء هذا العالم ، ولا أنا الآخر ، واعلم أنه في المستقبل[3] سيظهر بوذا آخر في العالم ، وهو الواحد الطاهر المستنير إنارة كلية ، والممتلئ حكمة ، يرحم الناس ، والناس يحبونه ، يعرفه العالم بأسره ، ويحبه ، ولا يماثله أحد البتة ، فهو معلم الملائكة والأموات ، إنه سيظهر لك ، ويوقظ فيك الحقيقة التي علمتك إياها ، وسينشر مذهبه الخلاصي بمجد عظيم ، ويبشّر بالروح والحق ، ويعلن بالحياة الروحية كما علمتكم أنا الآن ، وإن تلاميذه سيعدّون بالألوف ، بينما تلاميذي يعدّون بالمئات » .

---

(١) « المذاهب البوذية » (٣٤٨ ، ٣٤٩) .

(٢) (أبيدارما) (٦٥١) .

(٣) وفي نص آخر يقول : « عندما يطول عمر الإنسان حتى يبلغ ثمانين ألف سنة » (ص٣٥١) (سوتان) .

فقال له آناندا : « وكيف نعرفه يا سيدي » ؟

قال بوذا : « تعرفونه باسم « ميتريا » (Meteiya) وبلطفه ، ووداعته ، ومحبته الكلية الشاملة » .

وقد اختلف الكتّاب والباحثون فيمن هو « ميتريا » الذي تنبّأ به بوذا ، فقال بعض النصارىٰ : إنه هو المسيح عليه السلام ، وقال بعض المسلمين[١] : إنه هو محمد ﷺ ، لأن « ميتريا » في اللغة البالية تعني الكريم والراحم والمتعطف للناس ، وهذا مطابق لقوله تعالىٰ عن رسوله الكريم ﷺ : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾[٢] ، وقول الرسول ﷺ عن نفسه : « **إني لم أبعث لعّانًا وإنما بعثت رحمة** »[٣] .

وعلىٰ أي حال فإني لا أستطيع تحقيق هذا الموضوع حتىٰ أتوصل إلىٰ نتيجة إيجابية ، وذلك لثلاثة أسباب :

أولاً : إن النص البوذي الذي اعتمدنا عليه غير موثوق به علميًا لأنه دوّن بعد بوذا بقرون طويلة ، مع وجود التحريفات الكثيرة كما ذكرنا .

ثانيًا : إن النص مبهم غير واضح ، ينطبق علىٰ كلّ من يأتي بعد بوذا ، سواء كان من الأنبياء ، أو الحكماء ، أو الفلاسفة ، أو غيرهم .

ثالثًا : إن الاعتراف بتنبأ بوذا ، وأن المتنبأ هو الرسول ﷺ ، معناه اعتراف بنبوة بوذا ، لأن مثل هذا التنبأ لا يكون إلا بالوحي ، وهو خاص بالأنبياء ، وقد أنكرنا نبوّته من قبل بأدلة كثيرة .

وفي اعتقادي أن مثل هذه النصوص البوذية ألحقت متأخرة بكتبهم كوسيلة لاجتذاب قلوب النصارىٰ أو المسلمين إلىٰ البوذية واعترافهم بها أو كما يعتقده

---

(١) منهم الباحث المسلم التايلاندي « بان جونج بن كاسن » في كتابه « النبي المتنبّأ » صفحة (١٠ ، ١١) (بالتايلاندية) .

(٢) الأنبياء (١٠٧) .

(٣) رواه مسلم (٤/ ٢٠٠٧) كتاب البر والصلة والآداب ، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها (رقم٢٥٩٩) .

البوذيون أنفسهم بأن « ميتريا » في هذا النص هو شخص مقدّس مثل بوذا ، يأتي في وقت متأخر لمواصلة إصلاح البوذية بعده ، والله أعلم بالصواب .

وأعظم القديسين في مذهب « مهايان » هو « بودهي ساتوا » (Buddhisatwa) ومعناه « بوذا المستقبل » وهو صفة من يمتنع باختياره عن بلوغ « نرفانا » التي كانت في مقدوره ، وذلك لكي يولد في حياة بعد حياة ، فيساعد غيره من الإنسان والحيوان في هذه الدنيا على التخلص من آلامها وشقائها .

إن القديس كهذا لا ينطفئ تمامًا بل يقف على الحافة على حد تعبيرهم[1] .

أما « بودهي ساتوا » في مذهب « هينايان » فهو صفة من هو في طريقه إلى أن يصبح بوذا ، أي حاصل على إشراق ، غير أن هذه الصفة مقصورة على أشخاص معينة تنبأ بهم بوذا ، فلا يطلقون « بودهي ساتوا » إلا على من ينطبق عليه ما تنبأ به بوذا[2] .

وعلى حد تعبيرهم إنه ينطفئ تمامًا ، غير معرض للرجوع إلى العالم العادي، خلافًا لما اعتقده مذهب « مهايان »[3] .

جـ ـ لم يلتزم فريق « مهايان » بالنصوص القديمة ، وإنما أباحوا تأوليها وتحويلها إلى ما يوافق آراءهم الجدئيدة ، هذا بخلاف فريق « هينايان » الذين يتقيدّون بالنصوص ، ولا يخضعون للتغيرات الزمنية .

وعلى هذا الأساس اشتد الصراع بين المذهبين .

فقد أعلن أتباع « مهايان » أنهم وحدهم القادرون على فهم نصوص بوذا ، وأن مذهبهم وحده هو الذي يقود إلى النجاة ، وأنه لهذا هو الجدير باسم «مهايان» أي الحاملة الكبرى ، وأن المذهب القديم يجب أن يطلق عليه اسم

(١) « بوذية مهايان » (٤٤) وأيضًا « المذاهب البوذية » (٣٣٦) .
(٢) ذكر في كتبهم أن « بودهي ساتوا » الذي تنبأ به بوذا خمسة وأن بوذا الذي نحن بصدده الآن هو الرابع منهم أما الخامس فهو الذي يعرف باسم « ميتريا » ، وقيل أن عددهم خمس وعشرون ، وقيل غير ذلك ، « قاموس المصطلحات البوذية » (١٧٤) .
(٣) انظر « المذاهب البوذية » (٣٣٨) وأيضًا « بوذية مهايان » (٤٨ ، ٥٠) .

« هينايان » أي الحاملة الصغرى[١] ، بينما أعلن أتباع هينايان بأنهم وحدهم يمثّلون بوذية بوذا ، أي بوذية أصلية ، أما بوذية « مهايان » فهي بوذية مزيّفة مختلطة بالعقائد والأفكار الخارجية[٢] .

وقد ظل الصراع بين المذهبين القديم والحديث منذ القرن الأول الميلادي ، وحتى بعد عهد الانحطاط في القرن السابع الميلادي ، وحاول أخيراً أتباع كل واحد منهما أن يسكتوا الخلافات ، فأسّسوا في الأوان الأخيرة مؤسسة بوذية عالمية أو ما يسمونه « رابطة العالم البوذي » " The world fillowship of Buddhists " وكان مقرها في جزيرة سيلان ، حيث عقدت فيها عدة مؤتمرات للتوفيق وإزالة الخلافات بين المذهبين ، ولكنها لم تنجح ، فظل الخلاف قائماً إلى اليوم .

* * *

(١) يكره أتباع المذهب القديم أن يطلق عليهم « هينايان » بل يطلقون على أنفسهم اسم « تيراواتا » (Tearawata) ومعناه كلام الحواريين ، أي أنهم يتلقون تعاليمهم من الحواريين من أصحاب بوذا ، انظر : « مجموعة المصطلحات البوذية » (١٧٠) و« المذاهب البوذية » (٢٦٦) .

(٢) « تاريخ الفلسفة البوذية وتطورها » (٤٣٦) .

المبحث الثاني

انتشار البوذية في الأقطار

أ ـ انتشار البوذية وانحطاطها في الهند :

من المعروف أن البوذية لقيت نجاحًا كبيراً في القرن السادس قبل الميلاد ، أي في عهد بوذا ، ونلخّص أسباب نجاحه في دعوته في الأمور الآتية : ـ

١ ـ شخصية بوذا المثيرة والجذابة التي تميزت بالوداعة والتواضع ، والتي كانت تؤثر إلىٰ حد بعيد في نفوس الهنود في ذلك الوقت ، وكان ـ فيما تروي الأساطير ـ هادئًا مليئًا بالقوة ، قويّ الإرادة ، واثقًا بنفسه ، مؤمنًا بمبدئه ، وعقيدته ، ونجاح رسالته ، وكان أسلوب حواره مثيراً ، لأنه استعمل فيه كثيراً من الاستعارات ، والتشبيهات ، والأمثال .

٢ ـ عدم خوضه في الحديث عن القضايا الفلسفية المعقدة فيما وراء الطبيعة علىٰ عكس المذاهب الفلسفية الهندوسية المنتشرة في وقته(١) .

٣ ـ وجود بعض التعاليم الأخلاقية في دعوة بوذا ، كالمحبة الشاملة والعطف علىٰ الحيوانات ، وكما أسلفنا أن المحبة والتسامح ركنان من أركان أخلاق بوذا .

٤ ـ حسن اختيار بوذا الدعاة للقيام بنشر تعاليمه في الأمصار .

---

(١) ذكرت المراجع البوذية أن المذاهب الفلسفية التقليدية التي انتشرت في عصر بوذا ستة . وهي : ميمانسا ، فيدانتا ، سامكهيا ، يوجا ، نيايا ، فيسيشكا ، والمؤسسون هم علىٰ التوالي : جيميني ، فياشا ، كابيلا ، باتنجالي ، غوتاما ، كانادا ، وتتميز هذه المدارس بارتباطها الوثيق بأسفار «فيدا» كتاب الهندوس المقدس ، والانطلاق من هذه الأسفار شرحًا وتأويلاً وإضافة في الآراء والأحكام ، انظر مقدمة « تري بيتاكا » (٢٩ ، ٣٠) وانظر بالعربية عن هذه المذاهب الستة . «قصة الحضارة» (٣/ ٢٤٦ ـ ٣٦٨) و« الفلسفة الشرقية » (١٥٦ ـ ١٧٠) .

فقد اشتهر عنه اختياره لهؤلاء بعناية كبيرة ، وبعد اختبارات ، يوضح ذلك ما روىٰ « تري بيتاكا »[1] قصة أحد حوارييه يدعىٰ « بورونا » (Burona) وقد بعثه بوذا إلىٰ أسرة اشتهرت بالفظاظة يقال لها : « سرونا بارانتا » (Sronapranta) سأله بوذا : إذا غضبوا عليك وسبّوك فما عساك ستفعل ؟

أجاب : أقول إنهم طيبون لأنهم لم يضربوني بالحجارة ولا بالعصىٰ ولا بالسيف .

ـ وإذا ضربوك بالعصىٰ ؟

ـ أقول إنهم طيبون لأنهم لم يحرموني الحياة نهائيًا .

ـ وإذا حرموك الحياة ؟

ـ أقول إنهم طيبون لأنهم أنقذوني من سجن هذا الجسد السيئ .

فاقتنع به بوذا وأرسله إليهم ، وكانت النتيجة أن دخلوا كلهم في البوذية .

٥ ـ دعوته العالمية التي لا تحصىٰ بقوم ولا عرق ، علىٰ عكس ما عرف في البرهمية التي هي دين شعبي محلي ، يخص بطائفة واحدة وهي البراهمة .

وكان ينادي بالتسامح الديني ، أي أن لكل إنسان الحق بالخلاص ؛ ورأىٰ الباحثون في الأديان أن بوذا أول حكيم في العالم أخرج تعاليمه من دور التبشير المحلي إلىٰ العالمي[2] .

٦ ـ دعوته إلىٰ إلغاء نظام الطبقات التي سادت المجتمع الهندي في عصره ، وتحريمه علىٰ جميع معتنقي مذهبه ، علىٰ التفصيل الذي سبق بيانه ، ويعتبر هذا من أهم أسباب نجاح دعوة بوذا في الهند في عصره .

---

(١) انظر (أبيدارما) (٧٥١ ، ٧٥٢) وأورد هذه القصة الدكتور أحمد شلبي في كتابه « أديان الهند الكبرىٰ » (١٤٧ ـ ١٤٨) نقلاً عن « دائرة المعارف » القرن العشرين لفريد وجدي (٢/ ٣٨٩ ـ ٣٩٠) .

(٢) انظر « الفلسفات الهندية » للدكتور علي زيعور (٢٣٥) .

يقول الدكتور أحمد شلبي :

« إن البوذية انتشرت انتشاراً واسعًا ، بين الطبقات العليا ، والطبقات الدنيا ، أما طبقة الملوك والجنود ، فقد دخلت البوذية تخلصًا من سلطان البراهمة الذين أثاروا سخط جميع الطبقات الأخرىٰ باستبدادهم وتعسفهم ، وأما الطبقات الدنيا فقد دفعت بنفسها إلىٰ البوذية ، لتتخلص مما عانته في رحاب الهندوسية من اضطهاد واحتقار »[1] .

ويقول جوستاف لوبون متحدّثًا عن ازدهار البوذية في عصرها الأول :

« كانت البدهية في تلك الأثناء بالغة ذروتها ، فكان البنجاب ووادي الغنج ذاخرين بالأديار التي يقصدها ألوف الرهبان ليتعلموا فيها أسرار الدين ، ويتبتلوا إلىٰ التأمل العميق الدائم قبل أن ينعموا بالنرفانا »[2] .

ولكن البوذية بدأت تنكمش بعد بوذا في متنصف القرن الثالث قبل الميلاد ، ومن أهم أسباب انكماشها كما يقول الدكتور أحمد شلبي :

أ ـ إنها لم تعن بالكلام عن الإله ، أي إنها تركت فراغًا كبيراً في نفوس أتباعها ، وبمرور الزمن ملأ أتباعها هذا الفراغ بآلهة الهندوس ، أو بعبادة بوذا نفسه ، واتخاذه إلهًا .

ب ـ إن بوذا لم يبن معابد ، ولم يأمر أتباعه بممارسة أي لون من ألوان العبادة، وبسبب هذا لجأ أتباع بوذا إلىٰ معابد الهندوس ، فوضعوا فيها تمثال بوذا ، وأصبح كل ما زاد هو إله جديد أضيف إلىٰ آلهة الهندوس المتعددة ، وأخذت البوذية تتلاشىٰ في الهندوسية .

يقول جوستاف لوبون :

« إن البدهيّة غابت عن الهند لأنها صهرت بالتدريج في الديانة التي خرجت منها »[3] .

---

(١) « أديان الهند الكبرىٰ » (١٧٨ ، ١٧٩) .

(٢) « حضارات الهند » (٣٩٠) .

(٣) المصدر السابق (٣٧٣) .

جـ - إن البوذية اهتمت بإصلاح الباطن ، أي إصلاح الأخلاق ، فحاربت الشهوة ، والغرور ، والكبرياء ، ولكن الهندوسية قنعت بأشياء ظاهرية كالغسل في الأنهار المقدسة ، والأخذ بالطقوس وبالقرابين ، ومصالحة الظاهر أيسر وأسهل من معالجة الأمور الباطنية ، ولهذا تخلى البوذيون يومًا بعد يوم عن صراعهم مع نفوسهم ، واكتفوا بقربان يقدمونه ، أو مظهر يظهرون به[١] .

وأضيف إلى هذه الأسباب أن ازدهار البوذية ببلاد الهند قد أتى بالفوضى في الحياة الاجتماعية العامّة ، وذلك بسبب نظام الرهبنة ، أو الحياة الديرية التي رسمها بوذا لأتباعه ، فقد كثر الناس الذين اعتنقوا البوذية ، ولم يستطع المجتمع إعالة هؤلاء الناس كرهبان وراهبات ، ومن أهمّ هذه الأسباب كلها أن طائفة البراهمة ، وهي أعلى طوائف المجتمع الهندي وأكثرها امتيازات ، كانوا يهاجمون ويناهضون على الدوام تعاليم بوذا ، فراحوا يقضون على التدريج نفوذ البوذية في البلاد ، واستردّوا قوتها .

وقد أوشكت البوذية أن تنهار حتى جاء الملك أشوكا[٢] (Ashoka) (٢٧٣-٢٣٢ ق م) حيث اعتنقها وجعلها الدين الرسمي للدولة ، وبعث فيها الحياة مرة أخرى[٣] .

فباعتناق الملك أشوكا البوذية ازدهرت وقوي شأنها .

وقد عمل هذا الملك على نشر البوذية داخل بلاده وخارجها ، ووصلت بعوثه التبشيرية بهذه العقيدة إلى كل من سيلان ، ونيبال ، وتركستان ، وفارس ، وما جاورها من بلاد آسيا الوسطى ، وإلى الشام التي كان يحكمها في ذلك

---

(١) انظر « أديان الهند الكبرى » (١٧٩) .
(٢) سبق تعريفه .
(٣) انظر عن الملك « أشوكا » وانتشار البوذية في عصره في « حضارات الهند » (٣٥٨) و« قصة الحضارة » (٣/ ١٠١ ، ١٠٧ ، ١٩٦) و« أديان الهند الكبرى » (١٨٠ - ١٨٣) و« الهند القديمة » (١٧١ ، ١٧٢) و« تاريخ شبه الجزيرة الهندية » (٢٩ - ٣٠) .

الوقت خلفاء الإسكندر ، وكذلك إلى الإسكندرية عاصمة مصر حينذاك ، وإلى اليونان حيث يحتمل أن تكون البوذية قد مهّدت السبيل هناك للمسيحية الرومانية[١] .

وهكذا انتقلت البوذية من مذهب هندي إلى دين عالمي ، وأخذت تنتشر في هذه البلاد .

ولكن بعد وفاة الملك أشوكا عاد الصراع مرة أخرى بين البوذية والبرهمية في الهند ، ونتج عن ذلك أن أخذت البوذية تضمحل ببطء ، حتى انحسرت عن الهند موطنها الأصلي تقريبًا ، وذلك حوالي القرنين السابع والثامن من الميلاد[٢] .

وبهذا عادت سيطرة البرهمية على شعوب هذه البلاد مرة أخرى ، ولم يعد للبوذية في موطنها إلا قليل من الأتباع ، وأكثرهم في شمال الهند ، وفي بلاد السند بالذات ، نتيجةً لاضطهادهم الشديد من جانب البراهمة ، والقتل العام لهم في كل مكان[٣] .

وبعد الفتح الإسلامي في أوائل القرن الثامن الميلادي ، سقطت البوذية نهائيًا في شمال الهند ، وأخذت طريقها إلى البلاد المجاورة في القارة الآسيوية .

وقد اعتبر المؤرخون البوذيون أن هذا الفتح الإسلامي من أكبر الأسباب لسقوط البوذية في الهند[٤] ، والواقع ليس كذلك إذ أن الفاتحين لم يحاربوا

---

(١) « تاريخ انتشار البوذية في العالم » (٨٣ ، ٨٤) ، ويروى أن أول من آمن بالبوذية من اليونانيين هو : هيلودوروس (Heliodorus) ثم آمن بها جميع اليونانيين المنتشرين من الهند إلى باكتيريا على حدود ايران من ناحية بحر قزوين ، وبهذا أصبحت الديانة البوذية منتشرة في هذه المناطق ، وعرض فيها بوذا في صورة : فشنو : الإله المتجسد ، ولما ولد المسيح عليه السلام في فلسطين في العهد الروماني كانت نظرية التجسد « أوتار » سائدة بين الرومانيين في الشرق الأوسط كله ، ولعل هذا هو السبب في أن الرومان قد عرضوا السيد المسيح في صورة الإله المتجسد بنفس صورة بوذا وذلك بعد إيمانهم بالمسيحية ، انظر « الهند القديمة » (١٧٥ ، ٢١٠) .

(٢) « تاريخ انتشار البوذية في العالم » (٩٨) وانظر أيضًا « اديان الهند الكبرى » (١٨٢) و« حضارات الهند » (٣٧٢ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠) .

(٣) انظر « حضارات الهند » (٣٤٤) وما بعدها .

(٤) انظر « تاريخ الفلسفة البوذية وتطورها » (٦٣٥ ـ ٦٣٦) و« تاريخ انتشار البوذية في العالم »=

البوذية دون غيرها ، إضافة على ذلك أنه قد ثبت بالأدلة التاريخية أن الجيش الإسلامي لمّا دخل السند ، فإن السمنيين ـ وهم طائفة من الرهبان البوذيين ـ رحّبوا بهم ، كما سيأتي تفصيله ، وكانوا وسطاء للمصالحة بين أهليهم وبين الجيش الإسلامي[١] .

وفي رأيي أن هناك عوامل عديدة ساعدت على انهيار البوذية الأخير في الهند أهمّها محاربة البراهمة ، وفقدان النصير القوي من السلطان ضدّهم ، والانحدار الخلقي والديني الذي أصاب الرهبان والراهبات ، كما كان من العوامل الهامة الفعالة ، تطوّر البوذية ذاتها لصالح الهندوسية تطوراً كان يقرب بينهما ، ويتمثل ذلك في ظهور طائفة « مهايان » أو المذهب الشمالي للبوذية .

ب ـ انتشار البوذية في شرق آسيا :

لم تكن البوذية قد انعدمت من الوجود ، حينما أفلت من الهند ، وإنما كانت تفرقت شرقًا ، وغربًا ، وشمالاً ، وجنوبًا ، واجتاحت أوساطًا شاسعة من الشرق الأقصى ، كبورما ، وسيام (تايلاند) وكمبوديا ، ولاوس ، وأجزاء من الصين ، وكوريا ، واليابان ، كما انتشرت في بلاد منغوليا ، وتبيت ، وسيلان .

وقد سادت البوذية هذه المناطق كلها حتى هذه اللحظة كديانة رسمية لها .

أما دخول البوذية في هذه البقاع فيرجع إلى عهد الملك أشوكا ، حيث أرسل بعثاته الدينية إلى كل من سيلان ، ومنطقة « سووانابومي » (Suwannapume) ، وهي التي تشمل بورما ، وسيام ، ولاوس ، وإن هذه البعثات لها أثر كبير في نشر البوذية في هذه البقاع[٢] .

(٩٩ ـ ١٠١) وأيضًا . Buddhism in Middle Asia . by Prof . Satian P . P 59 , 79

(١) انظر « فتوح البلدان » للبلاذري (٤٢٥ ، ٤٢٨) .

(٢) « تاريخ انتشار البوذية في العالم » (٦٩ ، ١٠٢) .

ومن أسباب الانتشار أيضًا أن البوذية في هذه البقاع كانت تتعاون كاملاً مع النظام الملكي ، فبواسطة هذا التعاون انتشرت البوذية ، وكثر تابعوها في هذه البلاد [١] .

أما بلاد الصين فقد تلقت الديانة البوذية المسماة بمهايان (Mahayan) من الهند في عقد أسرة « هان » (Hun) في النصف الثاني من القرن الأول للميلاد [٢] .

كما تلقت البوذية عن طريق الحجاج الصينيين الذين زاروا الهند ، وعن طريق الزوار من آسيا الوسطى ، التي سادت فيها البوذية في ذلك الوقت [٣] .

ويقال أن الملك منج تي (Ming - Ti) هوالذي بعث في (سنة ٦٥م) بعثة إلى خوتان [٤] ، للاطلاع على البوذية ، وعادت بعد سنتين تصحب كاهنًا بوذيًا وكتبًا بوذية [٥] .

ومنذ ذلك الحين انتشرت فيها البوذية حتى أصبحت دين الدولة الرسمي لها [٦] .

ولكن البوذية ديانة هندية ، فعندما انتقلت إلى الصين ، لم تستطع أن تبقى كما كانت ؛ بل اصطبغت بالصبغة الصينية ، فسرعان ما امتزجت بتراث الصين القديم ، والتقت بالديانات الصينية القديمة ، كالكونفوشية (Confucianism) [٧]

---

(١) « قارن أديان الهند الكبرى » (١٨٥) .

(٢) « تاريخ الأديان » (٢٤٧) .

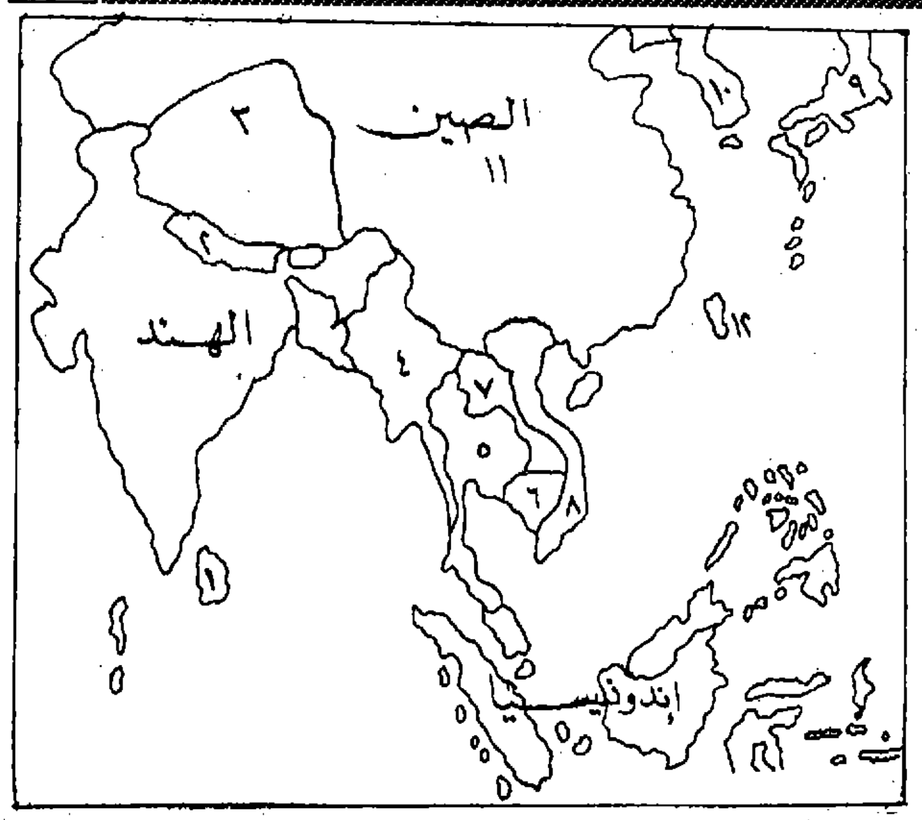
(٣) Buddhism in Middle Asia . P . 18

(٤) مدينة في منطقة « سنكيانغ » أو تركستان الشرقية ، وقد انتشرت فيها البوذية قرونًا طويلة قبل الفتح الإسلامي (انظر الخريطة) .

(٥) « تاريخ الأديان » (٢٤٧) .

(٦) والجدير بالذكر أن البوذية في الصين في الأوان الأخيرة حينما اصطدمت بالشيوعية خفتت أصواتها ، كما خفتت أصوات جميع الأديان ، لأن الحكم في كثير من الأقطار المنتشرة فيها البوذية ما زال تحت أيدي حكومات شيوعية إلى اليوم .

(٧) سبق تعريفها .



خريطة البلدان التي تسودها البوذية في وقتنا الحاضر

١ ـ سيلان	(Ceylon)	٧ ـ لاوس	(Laos)
٢ ـ نيبال	(Nepal)	٨ ـ فيتنام	(Vietnam)
٣ ـ تبيت	(Tibet)	٩ ـ يابان	(Japan)
٤ ـ بورما	(Burma)	١٠ ـ كوريا	(Korea)
٥ ـ تايلاند	(Thailand)	١١ ـ الصين	(China)
٦ ـ كمبوديا	(Combodia)	١٢ ـ تايوان	(Taiwan)

والتاوسية (Taoism) [١] وغيرها حتى أصبحت صينية محضة في طبيعتها ، وذلك منذ نهاية القرن الرابع الميلادي[٢] .

ومن أسباب إقبال الصينيين على البوذية كما يقول الدكتور أحمد شلبي أنها دخلت بلادهم بعد أن أصبح بوذا إلهًا ، وأصبح تمثاله وثنًا يعبد ، وتقدم له القرابين ، وتقام له الصلوات ، وقد كان لهم مع آلهتهم الأولى مظاهر للتقديس ليست بعيدة عن هذه المظاهر[٣] .

ومن الصين دخلت البوذية في كوريا ويابان .

وقد دخلت البوذية كوريا بجهود الرهبان البوذيين الصينيين في عام ٩١٥ من التاريخ البوذي الموافق لعام ٣٧٢ من الميلادي ، ودخلت اليابان في عام١٠٩٠البوذي الموافق ٥٤٧ الميلادي ، ولكنها امتزجت في هذه

---

(١) التاوسية منسوبة إلى « تاوتيك جنج » (Tao - Tek - Kong) ومعناه كتاب الطريقة والفضيلة والذي أسسها هو « لوتسي » (Lou - Tzu) وتاريخه غامض غير واضح ، فقد قيل إنه عاش بين فترة (٦٠٤ ـ ٥٧١) قبل الميلاد ، وقيل غير ذلك ، وقد عاصر كونفوشيوس : الحكيم الصيني الشهير ، أو ولدا في عهدين قريبين ، والتاوسية حلولية ، وهي ككل ديانة صينية ، تؤله مظاهر الطبيعة وتعبدها مع أرواح الأجداد ، وكانت التاوسية مجرد فلسفة تفكيرية مبنية على مواعظ وآداب عامة ، ثم تطورت بمرور الزمن حتى أصبحت كديانة لها معبد ورهبان ، ولها طقوس وعبادة ، كما أصبح « لوتسي » إلهًا معبودًا ، والتاوسية هي الديانة الوحيدة التي زعمت أن في وسع الإنسان إطالة عمره إلى مئات السنين بل إلى ما لا نهاية له ، وذلك عن طريق تدريبات ورياضات خاصة ، جسدية وروحية ، لذلك كثر فيها الخرافات ، والدجل ، والشعوزة، والسحر ، وكتاب ، وكتاب : « تاوتيك جنج » : هو كتاب التاوتسية المقدّس ، وهو كتاب غامض أشد الغموض ، مهما نهض أتباع « لوتسي » من بعده بشرحه وتفسيره ، ومن حكمة لوتسي « اخضع نفسك خضوعًا كالماء الذي يفيد الإنسان في شتى الحاجات ، ولكنه لا يسابق شيئًا ، لأنه دائمًا في مكان منخفض » ، وقد انتشرت التاوتسية في بلاد الصين ، ولكن بعد أن دخلت البوذية فيها اختلطت التاوتسية بالبوذية ، حتى لا يكاد أن يفرق بينهما ، « تاريخ الأديان » (١٨٨ ـ ٢٠٠) ، وانظر بالعربية « الفلسفة الشرقية » للدكتور محمد غلاب (٢٣٢ ـ ٢٤٤) ، و«الديانات والعقائد» لأحمد عبد الغفور عطار (١/ ١٦١ ـ ١٧٤) .

(٢) « الهند القديمة » (٢١٢) .

(٣) « أديان الهند الكبرى » (١٨٣) نقلاً عن

Berry : Religion of the world P . P 47 , 48 .

البلـدان أيضًا بتراثها المحلي وحضارتها ، واستقلت عن الروح البوذية الأصلية[١] .

والبوذية في يابان بوصف خاص بوذيات كثيرة ، فهناك ما يقارب الستين فرقة وأشهرها تسمى بوذية « زن » " Zen Buddhism "[٢] ، وهي التي تعتمد فقط على التأمل الذاتي ، ورياضة « سمادهي » .

وعلى العموم إن البوذية في الفترة الأخيرة ـ كما قال الدكتور أحمد شلبي : ـ « وقفت وجهًا لوجه أمام تحدي الفكر الغربي الذي حمله الاستعمار إلى تلك البقاع ، فقد أدخل الاستعمار الغربي إلى هذه البلاد اتجاهاته الفكرية ، وإصلاحاته التربوية ، وفلسفاته في مختلف الشئون ، ولم تجد البوذية بدًا من أن تتعاون طوائفها المختلفة لتقف في وجه هذا الزحف الفكري ، وهكذا التقت الفرق البوذية ، أو قربت بعضها من بعض ، لتقوى على النضال في معركتها مع المسيحية الغربية والفلسفات الأوربية ، وقد تبنّت البوذية كثيرًا من الاتجاهات الغربية كما تشربت المسيحية بعض الأفكار البوذية ، وتبودلت المطبوعات بين المشرفين على هاتين الفلسفتين، وتطور التعليم في المعابد ، فاقترب من كليات الغرب وجامعاته ، وتم تعاون الخدمات الاجتماعية بين البوذيين والغربيين[٣] .

جـ ـ البوذية في بلاد السند وآسيا الوسطى قبل الفتح الإسلامي[٤] :

ذكرت سابقًا أن البوذية بعد عصر الملك أشوكا أخذت تضعف وتختفي عن

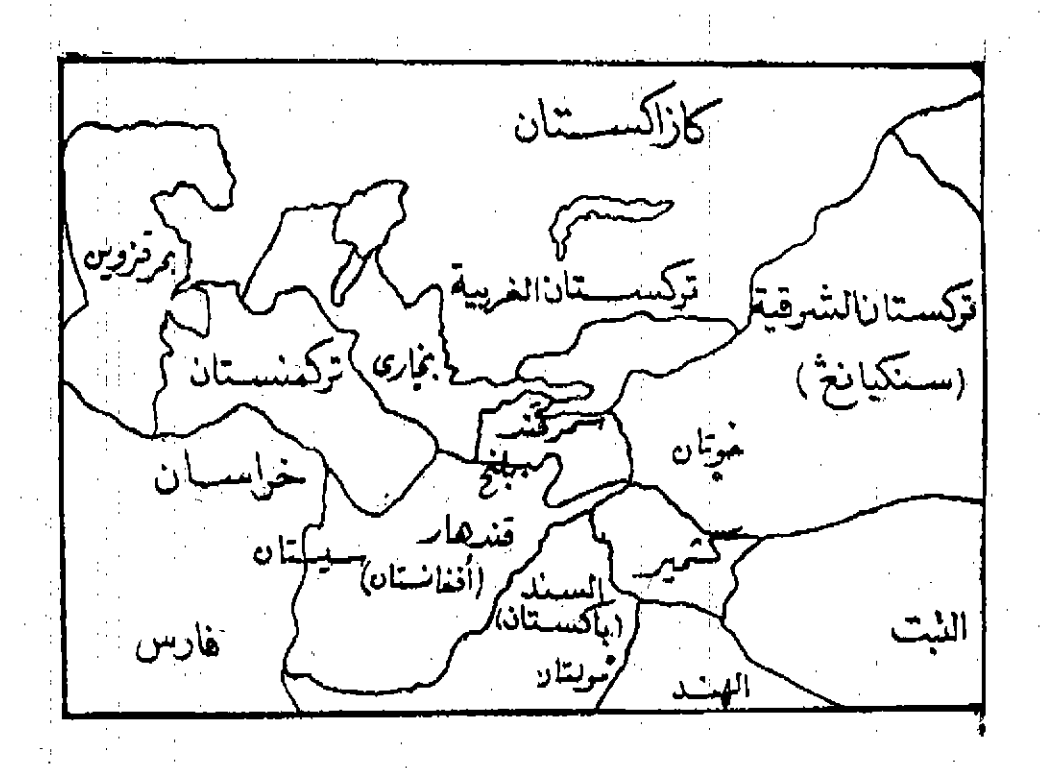
---

(١) « الهند القديمة » (٢١٢) و« تاريخ الأديان » (٢٤٧ ، ٢٤٨) .

(٢) كلمة « زن » (Zen) مختصرة من : زن نا : (Zenna) في اللهجة اليابانية ، وهي مأخوذة من كلمة : « شانا » البالية أو « يانا » السنسكريتية ، ومعناها التأمل " Meditation " لأن أتباع هذه الفرقة يعتمدون على التأمل الذاتي « تاريخ الأديان » (٢٦٨) .

(٣) « أديان الهند الكبرى » (١٨٦) .

(٤) بلاد السند هي البلاد المحيطة بنهر السند (Sindus) وهي ممتدة غربًا من إيران إلى جبال الهملايا في الشمال الشرقي ، تاركة شبه القارة الهندية في جنوبها ، وبلاد السند تكون جزءًا كبيرًا من الدولة الباكستانية الحالية ، وكانت جزءًا من بلاد الهند قبل الفتح الإسلامي (انظر الخريطة) أما آسيا الوسطى فهي التي تشمل منطقة « سنكيانغ » أو تركستان الشرقية ، وتشمل تركستان الغربية ، وأفغانستان ، وبعض الأجزاء من شمال إيران ، (انظر الخريطة) .



خريطة بلاد السند وآسيا الوسطى والفرس التي انتشرت فيها البوذية قبل الإسلام

موطنها الأصلي الهند ونتيجة الاضطهاد الشديد من جانب البراهمة ، وقد أدىٰ ذلك إلىٰ انتقال كثير من البوذيين إلىٰ شمال الهند ، ولا سيما بلاد السند ، واستوطنوها عدة قرون ، إلىٰ أن دخلها المسلمون ، وفتحوها في (عام ٩٢ هـ = ١٧٧م) ، بقيادة البطل المسلم محمد بن القاسم الثقفي[١] .

يحدّثنا « هيون سانغ » (Houn - sang) الرحّالة الصيني المعروف الذي قام بجولته في شبه القارة الهندية ، وأنفق أعوامًا طوالاً فيها إبان القرن السابع الميلادي[٢] ، بأن البوذيين كانوا منتشرين في ذلك الوقت بكثرة في وادي نهر السند ، وفي الأودية الواقعة في المناطق الجبلية ببلاد السند ، والمجاورة للحدود الهندية ، وذلك بعد أن سكنوا هذه الأماكن هاربين من ظلم البراهمة في بلاد الهند[٣] .

وقد ورد في مواضع كثيرة من كتب المؤرخين وغيرهم ذكر هؤلاء البوذيين، وأصنامهم ، ومعابدهم ، وحكامهم ، والمناطق التي كانوا يسكنونها

---

(١) هو محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل الثقفي (٦٢ ـ نحو ٩٨هـ) فاتح السند وواليها ، ولاه الحجّاج ثغر السند في أيام الوليد بن عبد الملك ، وكان ببلاد فارس علىٰ رأس جيش ، فأرسل إليه الحجاج ستة آلاف جنديًا ، فزحف بهم إلىٰ بلاد السند وفتحها (عام ٩٢هـ)، ثم جاءته الأنباء بوفاة الحجاج ، ثم الوليد ، وولاية سليمان بن عبد الملك ، وكان شديد النقمة علىٰ الحجاج وعماله ، فلما ولي عزل محمد بن القاسم ، وأمر بحمله من السند مقيّداً ، ثم قتله معاوية بن يزيد بن المهلب ، وقيل غير ذلك « الأعلام » (٦/ ٣٣٣ ، ٣٣٤) ، وانظر « فتوح البلدان » (٤٢٤ـ٤٢٨) .

(٢) يوافق تقريبًا بداية القرن الأول الهجري ، وقد بدأ هيون سانغ رحلته (عام ٦٢٩ الميلادي) ، حيث قطع الطرق الصعبة عبر تركستان وبلاد آسيا الوسطىٰ ، وأقام مدة في الهند لدراسة البوذية ، ثم عاد إلىٰ الصين (عام ٦٤٥ الميلادي) ، وكانت مذكراته من أهم الوثائق في دراسة تاريخ البوذية في هذه الأقطار ، وقد ترجمت إلىٰ عدة لغات ، انظر « قصة الحضارة » (٣/ ١٠١ ، ١١٣) و« حضارات الهند » (٣٨٩) و. Buddhism in Middle Asia P 9 - 10

(٣) انظر : « موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية لبلاد السند والبنجاب في عهد العرب»: الدكتور عبد الله مبشر الطرازي (١/ ٣٣٤) ، نقلاً عن : « ملت إسلامية » : للدكتور اشتياق حسين قريش (٣٨) (بالأردية) .

في بلاد السند أيام الفتوحات الإسلامية .

فالبلاذري[١] يروي لنا في مواضع كثيرة عن البوذيين ، ومعابدهم ، وأصنامهم ، ونشاطات رهبانهم السمنيين في مدن مختلفة لبلاد السند أيام الفتوح ، وخاصة في مدينة الملتان ، والديبل ، والور ، ومدينة النيرون[٢] .

وقد وصف البد[٣] الموجود في الملتان بقوله :

« وكان بد الملتان بدا تهدي إليه الأموال ، وينذر له النذور ، ويحج إليه السند ، فيطوفون به ، ويحلقون رؤوسهم ولحاهم عنده ، ويزعمون أن صنمًا فيه وهو أيوب النبي عليه السلام »[٤] .

كما يروي لنا ذلك أيضًا ابن النديم[٥] في كتابه : « الفهرست »[٦] .

فهذا يدل على أن البوذيين كانوا منتشرين في هذه المناطق قبل الفتح العربي الإسلامي .

ولكن على رغم وجودهم بكثرة في هذه المناطق ، نجد أن بعض حكامها كانوا من البرهميين ، فقد روى المؤرخون أن بلاد السند كانت تحكمها قبل الإسلام زهاء قرن أسرة مالكة تعرف في التاريخ بأسرة « سيهاسي » وكانت هذه الأسرة بوذية المذهب ، ثم في أول سنة من القرن الأول الهجري ، أي في صدر

---

(١) هو أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذري مؤرخ جغرافي نسابة من أهل بغداد ، توفي أيام المعتمد (عام ٢٧٩ هـ) من كتبه : « فتوح البلدان » ، و« أنساب الأشراف » « الأعلام » (١/ ٢٦٧) .

(٢) انظر « فتوح البلدان » (٤٢٧ ، ٤٢٤ ، ٤٢٨ ، ٤٢٥) .

(٣) والمراد من كلمة : البد : أي صنم بوذا ، ولعل أصل هذه الكلمة هو : بودها : أو : بدّها : أي بوذا في التعريب المشهور . (Buddha)

(٤) المصدر السابق (٤٢٧) .

(٥) هو أبو الفرج محمد بن إسحق بن أبي يعقوب النديم صاحب كتاب « الفهرست » من أقدم كتب التراجم وأفضلها وهو بغدادي توفي (عام ٤٣٨ هـ) « الأعلام » (٦/ ٢٩) .

(٦) انظر صفحة (٤٨٥ ، ٤٨٧) .

الإسلام ، انتقل حكم البلاد إلىٰ رجل يسمىٰ : « جج » وكان برهمي المذهب ، حافظًا للكتب البرهمية المقدسة ، لأنه كان من أسرة دينية برهمية[١] .

وباستيلاء « جج » علىٰ الحكم ، صارت الديانة البرهمية هي الدين الرسمي للدولة ، وسيطرت علىٰ الدين البوذي المنتشر في البلاد ، رغم كون الأغلبية فيها من البوذيين[٢] .

لذلك قام الصراع المذهبي بين البراهمة والبوذيين في بلاد السند قبل الفتح الإسلامي ، وقد اشتد هذا الصراع حتىٰ أدىٰ إلىٰ تدهور الحالات الاجتماعية ، والفكرية ، والمذهبية ، والاقتصادية ، لدرجة أن البوذيين كانوا يتمنّون أن تتاح لهم فرصة ، ليتخلصوا من الاضطهاد المذهبي ، والاجتماعي ، ومن استبداد الحكام ، ولينجوا بأرواحهم من أنواع وسائل التقتيل والتعذيب من جانب البراهمة[٣] .

وقد حقق لهم أمانيهم عندما دخل العرب المسلمون هذه البلاد وجاءوا بالإسلام دين العدل ، والمساواة ، والرحمة ، فرحّبوا بهم ، وتعاونوا معهم ماديًا ومعنويًا ، للقضاء علىٰ جبروت حكام البراهمة وظلمهم الذي ملأ البلاد .

ولم يكتف البوذيون علىٰ مساعدة العرب بل نجد أن كثيراً من الجماعات البوذية قد دخلت في الإسلام أفواجًا أفواجًا ، أيام الفتوح وبعدها باستمرار ، حتىٰ لا يكاد يسمع عن وجود البوذيين بعد ذلك في بلاد السند[٤] .

أما البلاد في آسيا الوسطىٰ فإن البوذية انتشرت فيها قبل الإسلام انتشاراً واسعًا .

---

(١) « موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية في بلاد السند والبنجاب في عهد العرب » (١/ ٣٣٣) نقلاً عن « ججنامة » (١٤ ، ١٧ ، ٥٠) (باللغة الفارسية) .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق (١/ ٩٤ـ١٠٢) .

(٤) المصدر السابق (١/ ٣٣٥ ، ٣٣٦) وانظر أيضًا « الدعوة إلىٰ الإسلام » لسير توماس أرنولد (٣٠٥ ، ٣٠٦) وما بعدها .

وقد أشار إلى ذلك المؤرخون المسلمون منهم ابن النديم حيث يقول :

« قرأت بخط رجل من أهل خراسان ، قد ألف أخبار خراسان في القديم وما آلت إليه في الحديث ، وكان هذا الجزء يشبه الدستور . قال :

« نبي السمنية » « بودا سف »[١] وعلى هذا المذهب كان أكثر أهل ما وراء النهر قبل الإسلام ، وفي القديم »[٢] .

كما تحدّث أيضًا البيروني عن ذلك وقال بأن خراسان ، وفارس ، والعراق ، والموصل إلى حدود الشام في القديم ، كانت على هذه الديانة المعروفة بالشمَنية[٣] .

وإلى جانب البوذيين في هذه البلاد ، كانت هناك أهل الديانات الأخرى من الديانات الفارسية القديمة ، كالمجوسية ، والزرادشتية ، والمانوية ، والصابئة ، وغير ذلك ، ويوجد غير قليل من اليهود والنصارى[٤] .

ويرجع السبب في انتشار البوذية في آسيا الوسطى إلى الملك أشوكا (٢٧٣-٢٣٢ ق م) حينما أرسل البعثات الدينية إلى أنحاء البلاد ، منها البعثات التي أرسلها إلى كشمير ، وقندهار ، (أفغانستان) ، وفارس ، وما جاورها من آسيا الوسطى ، وكانت هذه المناطق تحت حكم الإسكندر اليوناني في ذلك الوقت[٥] .

---

(١) لعل هذه الكلمة « بوداسف » هي نفس كلمة « بودهي ساتوا » التي سبق الكلام عنها .

(٢) « الفهرست » (٤٨٤) .

(٣) انظر : كتاب « البيروني في تحقيق ما للهند » (١٥) ، والجدير بالذكر أن علماء العرب أطلقوا على البوذية اسم : السمنية أو الشمنية ، انظر « فتوح البلدان » (٤٢٥) ، وكتاب « البيروني » (١٦ ، ٣٠ ، ٩٣ ، ١٢٢ ، ٢٠٦) ، و« الفرق بين الفرق » : للإمام عبد القاهر البغدادي (٢٥٣) ، وهي على التحقيق اسم لطائفة خاصة من الرهبان البوذيين الذين يكرسون النفس على التنسك والتأمل ، لأن كلمة : « سمانا » أو « سمني » (Samana , Samani) في اللغة البالية تعني المنخرط في سلك الرهبنة ، أو المتواضع المترهب ، انظر « مجموعة المصطلحات البوذية» (٦٠٦) .

(٤) انظر « الدعوة إلى الإسلام » لسير توماس آرنولد (٢٣٥ ، ٢٤٦) .

(٥) Buddhism in Middle Asia P . P 21 , 22 .

ثم ازدهرت البوذية في أواخر القرن الأول للميلاد في عهد الملك كانشكا[١] (Kanishka) المعروف عند المؤرخين البوذيين بأشوكا الثاني .

وقد بسط هذا الملك سلطانه إلى كل من فارس ، وتركستان ، وحتى إلى منطقة « سنكيانغ » في الصين ، كما أرسل كثيراً من البعثات البوذية إلى الصين وآسيا الوسطى[٢] .

والبوذية التي انتشرت في هذه المناطق مختلطة بين المذهب القديم والجديد ، وقد تغلب المذهب الجديد على القديم أحيانًا في بعض المناطق كأفغانستان وفارس[٣] .

وفي القرن الرابع الميلادي ، بلغت البوذية قمة الانتشار ، في كل من منطقة « سنكيانغ » ، وتركستان الغربية ، وأفغانستان ، وشمال فارس حيث بنيت المعابد والأديرة للبوذية في جميع أنحاء هذه المناطق الواسعة[٤] .

ولعل خير دليل يثبت ذلك ، ما سجّله كل من « فاهين » (Fah - Hian) الرحّالة الصيني المشهور[٥] والرحّالة « هيون سانغ » (Houn - Sang) في مذكراتهما عندما دخلا هذه البقاع ، مما يدل على انتشار البوذية فيها .

فذكر « فاهين » مثلاً أن عدد الرهبان البوذيين في مدينة خوتان عشرة آلاف

---

(١) من الأمراء اليونانيين الذين اعتنقوا البوذية ، لأن أسرته كانت تشهد على التعاطف اليوناني البوذي في الهند ، كان يكلأ برعايته الرهبان البوذيين ، واتخذ مستشاراً له أحد الشعراء البوذيين ، ودعا لعقد المجمع البوذي الرابع الذي صدرت عنه عقائد مذهب « مهايان » ، انظر « تاريخ انتشار البوذية في العالم » (٨٤) .

(٢) « تاريخ انتشار البوذية في العالم » (٨٤) .

(٣) انظر « المذاهب البوذية » (٤٤ ، ٤٥) .

(٤) Buddhism in Middle Asia P . 23 .

(٥) كانت رحلة « فاهين » بين فترة (٣٩٩ـ٤١٤ م) أي قبل رحلة هيون سانغ بقرنين تقريبًا ، وتعتبر مذكراته من أهم الوثائق في دراسة تاريخ البوذية في الهند وآسيا الوسطى ، حتى يقال « لولا مذكرات « فاهين » لما عرف شيء من تاريخ البوذية » ، وقد ترجمت إلى عدة لغات ، انظر «رحلة فاهين في قصة الحضارة » (٣/ ١١٠ ، ١١١) و« وحضارات الهند » (٣٨٩ ، ٣٩٠) .

راهب ، غالبهم على مذهب المهايانا ، لا يأكلون اللحوم[١] .

وأنه رأى المعابد البوذية وأديرتها منتشرة في مدينة كشمير ، وقندهار ، وفارس ، وسمرقند[٢] .

وحكى « هيون سانغ » أنه عندما دخل مدينة سمرقند في تركستان وجد أن الناس وغالبهم من الأتراك دانوا بالمجوسية ، ولم يجد في المدينة إلا معبدين للبوذية خاليين من الرهبان ، وحكى أنه عاش في سمرقند مدة من الزمن يدعو أهلها إلى البوذية ، فاعتنقها حاكمها ومعظم سكانها ، وبنوا كثيراً من المعابد والأديرة للرهبان ، فانتعشت البوذية مرة أخرى في سمرقند ، وما جاورها[٣] .

هذا وقد كشف في العصر الحديث جماعة من علماء الآثار الأوربيين من جوف الرمال في بلاد التركستان مئات من المحفوظات البوذية ، كالكتب والأصنام وغيرها من الشواهد التي تثبت أن البوذية ازدهرت في هذه المناطق قروناً طويلة[٤] .

وقد ظلت البوذية هناك في آسيا الوسطى بجانب غيرها من الديانات الوثنية حتى القرن الثامن الميلادي ، حيث فتحها العرب المسلمون بقيادة القائد الشهير قتيبة بن مسلم الباهلي[٥] .

وقد بدأت حملاته في أوائل عهد الوليد بن عبد الملك (٨٦ـ٩٦ هـ= ٧٠٥ـ

---

(١) Buddhism in Middle Asia P 175 .

(٢) Ibid P . 56

(٣) Ibid P . P 57 , 59 .

(٤) انظر « قصة الحضارة » (٣٠/ ٢٠١) .

(٥) هو قتيبة بن مسلم بن عمرو بن الحصين الباهلي (٤٩ ـ ٩٦ هـ) أمير فاتح من مفاخر العرب ، نشأ في الدولة المروانية ، فولي الري وخراسان ، ووثب لغزو ما وراء النهر ، وافتتح كثيراً من المدائن ، كما غزا أطراف الصين ، وضرب عليها الجزية ، واستمرت ولايته ثلاث عشرة سنة ، قتله وكيع بن حسان التميمي بفرغانة وكان أهل البصرة يفخرون به ، « الأعلام » (٥/ ١٨٩) .

٧١٥ م) واستمرت حتىٰ بدء عهد سليمان (٩٦ ـ ٩٩ هـ = ٧١٥ ـ ٧١٧ م) وقد استطاع قتيبة في هذه الفترة أن يمد فتوحاته كل البلاد التي تقع علىٰ النهرين أو بينهما[١] .

وهكذا التقت البوذية وأمثالها بالإسلام ، فصدمها صدمة قاسية ، لم تقو بعدها علىٰ المناهضة والغلاب ، فتخلت له عن الميدان ، معترفة بأن البقاء للحقّ وللأصلح ، وهذه هي سنة الله التي خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً[٢] .

وقد قال تعالىٰ : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [٣] .

* * *

(١) انظر « فتوح البلدان » (٩٩١ ، ٤٠٩ ، ٤١١) و المراد بالنهرين أي نهر جيحون (Amu Darya) ونهر سيحون (Syr Darya) انظر « بلدان الخلافة الشرقية » (٤٧٦) وما بعدها .

(٢) مقتبس من آية (٢٣) سورة الفتح .

(٣) الإسراء (٨١) .



الصوفية وعلاقتها بالبوذية

ويشمل ثلاثة فصول :

الفصل الأول : التعريف بالصوفية .

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : تعريف الصوفية وسبب تسميتها .

المبحث الثاني : موجز عن نشأتها وتطورها .

المبحث الثالث : البوذيـــــة مصدر من مصادر الصوفية والأدلة على ذلك.

الفصل الأول

التعريف بالصوفية

المبحث الأول

تعريف الصوفية وسبب تسميتها

أ ـ تعريف الصوفية :

تعددت دلالة كلمة « صوفية » أو « تصوف » عند المتقدمين من الصوفية والمتأخرين ، واختلفت معانيها بينهم كثيرًا ، ولم أجد لهذه الكلمة في كلامهم تعريفًا جامعًا مانعًا ، يعطي فكرة كاملة عن حقيقتها ، وإن ما وجدته لا يعدو تعاريف ناقصة ، يوضّح كل منها جانبًا من جوانبه ، أو صفة من صفاته ، فقد عبّر كل منهم بما وقع له في أثناء سلوكه .

ومن الأمثلة على ذلك ما قال الجنيد[1] وقد سئل عن التصوف فقال :

« أن تكون مع الله تعالى بلا علاقة »[2]

وقال أيضًا : « أن يميتك الحق عنك ويحييك به »[3] .

---

(١) هو أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي الخزاز مولده ومنشؤه بالعراق ، وعدّه العلماء شيخ مذهب التصوف ، من أقواله المشهورة « ما أخذنا التصوف عن القيل والقال لكن عن الجوع وترك الدنيا ، وقطع المألوفات والمستحسنات » . توفي (عام ٢٩٧ هـ) ، انظر ترجمته في « الفهرست » (٢٦٤) ، و« طبقات الصوفية » (١٠/ ٢٥٥) ، و« الرسالة القشيرية » (١/ ١١٦) و«كشف المحجوب» (٣٤٠)، و«صفة الصفوة» (٢/ ٤١٦) و« الأعلام » (٢/ ١٤١).

(٢) « اللمع » لأبي نصر السراج الطوسي (٤٥) ، و« الرسالة القشيرية » لأبي القاسم القشيري (٢/ ٥٥٢) .

(٣) « الرسالة القشيرية » (٢/ ٥٥١) ، و« عوارف المعارف » للسهروردي (٦٣) .

كما سئل عنه مرة أخرى وقال :

« هو الخروج عن كل خلق رديء والدخول في كل خلق سني »[١] .

وقال أبو الحسين النوري[٢] :

« التصوف ترك كلّ حظ للنفس »[٣] .

« والصوفية هم الذين صفت أرواحهم ، فصاروا في الصف الأول بين يدي الحق »[٤] .

وقال أيضًا : « الصوفي : الذي لا يملك ولا يملك »[٥] .

وبهذا المعنى قال كثير من متقدمي الصوفية ، كسمنون[٦] [٧] ومعروف الكرخي[٨] [٩] .

---

(١) « اللمع » (٤٤) .

(٢) هو أبو الحسين أحمد بن محمد النوري ولد ونشأ ببغداد ، وأصله من خراسان ويعرف بابن البغوي ، كان من أقران الجنيد ، توفي (سنة ٢٩٥ هـ) ، انظر ترجمته في « طبقات الصوفية » (١٦٤) ، و« الرسالة القشيرية » (١/ ١٢٣) ، و« كشف المحجوب » (١/ ٢٤٢) .

(٣) « التعرف لمذهب أهل التصوف » للكلا باذي (٣٤) ، و« الرسالة القشيرية » (٢/ ١٢٣) ، و«كشف المحجوب» (١/ ٢٣٢) .

(٤) « كشف المحجوب » (١/ ٢٣٢) .

(٥) المصدر السابق (١/ ٢٣٣) .

(٦) وقد سئل عن التصوف فقال : « ألا تملك شيئًا ولا يملكك شيء » انظر : « الرسالة القشيرية » (٢/ ٥٥٢) .

(٧) هو سمنون بن حمزة الخواص أبو الحسن أو أبو بكر ، صوفي ناسك من الشعراء ، ومن أهل البصرة ، سكن بغداد ، وتوفي بها (عام ٢٩٠ هـ) ، انظر ترجمته في « طبقات الصوفية » (١٩٥) و« الرسالة القشيرية » (١/ ١٣٣) و« حلية الأولياء » (١٠/ ٣٠٩) و« كشف المحجوب » (١/ ٣٤٣) .

(٨) وقد سئل عن التصوف فقال : « الأخذ بالحقائق ، واليأس مما في أيدي الخلائق ، فمن لم يتحقق بالفقر ، لم يتحقق بالتصوف » ، « عوارف المعارف » (٦٢) وأيضًا « الرسالة القشيرية » (٢/ ٥٥٢) .

(٩) هو أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخي من كبار الصوفية المتقدمين ، ولد في كرخ بغداد ، وتوفي بها (عام ٢٠٠ هـ) ، انظر ترجمته في « طبقات الصوفية » (٨٣) ، و« الحلية » (٨/ ٣٦٠) و« الرسالة القشيرية » (١/ ٦٥) ، و« كشف المحجوب » (١/ ٣٢٥) ، و« صفة الصفوة » =

ورويم بن أحمد[١] [٢] وأبي بكر الشبلي[٣] [٤] وغيرهم .

وهناك تعاريف كثيرة من علماء الصوفية بلغت أكثر من ألف تعريف كما قال السهروردي[٥] وغالبها يدور حول الزهد في الدنيا والانقطاع إلى الله ، والعزلة عن كل ما سواه .

إن هذه التعاريف في الواقع قد تنطبق على التصوف في عهده الأول الذي يتمثل في الزهد الإسلامي الخالص ، قبل أن تدخل عليه التحريفات ، والبدع ، والمنكرات ، وقبل أن يتعرض للأفكار الخارجة عن الإسلام .

أما بعد ذلك فإن التصوف قد تحوّل إلى مظاهر ، وحركات ، وطقوس ، وخرافات خالية من الروح والعبادة ، وصار خروجًا عن دين الله ، وهذا ما عبرّ عنه الواسطي[٦] أحد كبار الصوفية حين قال :

=(٢/ ٣١٨) ، و« الأعلام » (٧/ ٢٦٩) .

(١) قال رويم : « التصوف استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريد » « اللمع » (٤٥) و« الرسالة القشيرية » (٢/ ٥٥٢) .

(٢) هو رويم بن أحمد بن يزيد بن رويم ، وكنيته أبو محمد ، صوفي شهير من جلة مشايخ بغداد ، فقيه على مذهب داود الظاهري ، توفي (سنة ٣٣٠ هـ) ، انظر ترجمته في « طبقات الصوفية » (١٨٠) ، و« الرسالة القشيرية » (١/ ١٢٧) ، و« كشف المحجوب » (١/ ٣٤٧) ، و« الأعلام » (٣/ ٣٧) .

(٣) قال : « الصوفي منقطع عن الخلق ، متصل بالحق » ، « الرسالة القشيرية » (٢/ ٥٥٤) .

(٤) هو أبو بكر دلف بن جحد الشبلي ناسك أصله من خراسان ، كان في مبدأ أمره واليًا ، ثم ترك الولاية ، وعكف على العبادة ، وسلك مسالك المتصوفة ، توفي ببغداد (سنة ٣٣٤) ، انظر ترجمته في « طبقات الصوفية » (٣٣٧) ، و« الحلية » (١٠/ ٣٦٦) ، و« الرسالة القشيرية » (١/ ١٦٠) و« كشف المحجوب » (١/ ٣٦٧) و« صفة الصفوة » (٢/ ٢٥٨) و« الأعلام » (٢/ ٣٤١) .

(٥) انظر « عوارف المعارف » (٦٤) ، والسهرودي هو عمر بن محمد بن عبد الله بن عموية أبو حفص شهاب الدين القرشي التيمي البكري السهروردي ، فقيه ، شافعي ، مفسر ، واعظ ، من كبار الصوفية ، نادى بمذهب الحلول وجعل الذكر سبيلاً إلى هذا الهدف ، توفي ببغداد (سنة ٦٣٢ هـ) ومن كتبه « عوارف المعارف » و« بغية البيان في تفسير القرآن » ، و« جذب القلوب إلى مواصلة المحبوب » . « الأعلام » (٥/ ٦٢) .

(٦) هو محمد بن موسى الواسطي وكنيته أبو بكر ، متصوف من كبار أتباع الجنيد ، فرغاني الأصل ، =

« كان للقوم إشارات ، ثم صارت حركات ، ثم لم يبق إلا حسرات »[١] .

وقد تناول كثير من العلماء المحدثين التصوف بتعريفه ، فقال بعضهم : «إن التصوف طريقة زهدية في التربية النفسية ، يعتمد علىٰ جملة من العقائد الغيبية ، مما لم يقم علىٰ صحتها دليل في الشرع ، ولا في العقل »[٢] .

وقال آخر : « هو السير في طريق الزهد ، والتجرد عن زينة الحياة وشكلياتها ، وأخذ النفس بأسلوب من التقشف ، وأنواع من العبادة والأوراد ، والجوع ، والسهر في صلاة أو تلاوة أوراد ، حتىٰ يضعف في الإنسان الجانب الجسدي للنفس بهذا الطريق المتقدم سعيًا إلىٰ تحقيق الكمال الأخلاقي للنفس كما يقولون ، وإلىٰ معرفة الذات الإلهية وكمالاتها ، وهو ما يعبّرون عنه بمعرفة الحقيقة »[٣] .

والحق أن هذا التعريف يتفق معه الإسلام ، ولكن لا عن اتخاذ كل ما أشار إليه الصوفية ، من الأساليب التقشفية التي تفسد علىٰ الإنسان صحته وحياته ، وتبعده عن خدمة المجتمع ، وإنما عن طريق الإيمان الصحيح والعمل بالشريعة الإسلامية التي جاء بها محمد ﷺ .

ويمكننا أن نعرّف التصوف أو الصوفية ، كفرقة من الفرق الضالة التي نشأت في الإسلام بأنها فرقة دينية أخلاقية فلسفية ، تقوم علىٰ الزهد في الدنيا ، والانصراف إلىٰ الروح ، وتعتمد علىٰ التأمل ، والتعبد ، والتقشف ، وما إلىٰ ذلك من المجاهدات والرياضات الروحية ، مما لم يستند إلىٰ دليل شرعي

= من أهل واسط ، دخل خراسان ، وأقام بمرو ومات بها (سنة ٣٢٠ هـ) ، انظر ترجمته في «طبقات الصوفية» (٣٠٢) ، و« الرسالة القشيرية» (١/ ١٥١) ، و« كشف المحجوب » (١/ ٣٦٦) .

(١) « الرسالة القشيرية » (٢/ ٥٥٥) .

(٢) « التصوف بين الحق والخلق » محمد فهر شقفة (٧) .

(٣) انظر « التصوف الإسلامي بين الدين والفلسفة » للدكتور إبراهيم إبراهيم هلال ، و« أضواء على التصوف » للدكتور طلعت غنام (٢٨) .

صحيح ، وذلك للوصول إلىٰ الغاية البعيدة ، ألا وهي الخلاص ، والتجرد من الدنيا وما فيها ، والاتصال بالذات الإلهية ، والفناء فيها .

ب ـ سبب تسميتهم بالصوفية :

اختلفت آراء العلماء في كلمة « الصوفية » فرأىٰ بعضهم أنها كلمة مولّدة لا يشهد لها قياس ولا اشتقاق في اللغة العربية ، وإلىٰ هذا ذهب القشيري[١] والهجويري[٢] وغيرهما[٣] .

ورأىٰ آخرون أن لهذه الكلمة اشتقاقًا ، واختلفوا في المعنىٰ الذي اشتقت منه ، فقال بعضهم : إنها مشتقة من الصفاء ، فسميت الصوفية صوفية لصفاء أسرارها ونقاء آثارها ، وقالت طائفة : إنها مشتقة من الصف الأول لأنهم في الصف الأول بين يدي الله ، وقال قوم : إنها مشتقة من الصُفَّة لقرب أوصافهم من أوصاف أهل الصفة الذين كانوا علىٰ عهد الرسول ﷺ[٤] .

والحق أن هذه الأقوال الثلاثة غير مستقيمة من جهة اللغة ، إذ لو اشتقت الصوفية من الصفاء ، أو الصف الأول ، أو الصفة ، لقيل الصفائية في الأول ، والصَّفية والصُّفية في الثاني والثالث[٥] .

---

(١) انظر « الرسالة القشيرية » (٢/ ٥٥٠) ، والقشيري هو أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة النيسابوري القشيري ، شيخ خراسان في عصره ، ولد (سنة ٣٧٦ هـ) وتوفي (سنة ٤٦٥ هـ) ، من أهم كتبه : « الرسالة القشيرية » و« لطائف الإشارات » . « الأعلام » (٤/ ٥٧) .

(٢) انظر « كشف المحجوب » (١/ ٢٣١) ، والهجويري هو أبو الحسن علي بن عثمان الهجويري نسبة إلىٰ الهجوير بمدينة غزنة ، عاصر الإمام القشيري ، وسمع منه بعض آرائه ، توفي بمدينة لاهور (سنة ٤٦٥ هـ) علىٰ الأرجح ، له كتاب « كشف المحجوب » : في التصوف ألفه بالفارسية وترجمه إلىٰ الإنجليزية المستشرق نيكلسون ، كما ترجمه إلىٰ العربية : الدكتورة إسعاد عبد الهادي قنديل ، انظر ترجمته في « كشف المحجوب » (١/ ٣٩) وما بعدها .

(٣) منهم صاحب كتاب : « المصباح المنير في غريب الشرح الكبير » (١/ ١٦١) .

(٤) انظر « التعرف لمذهب أهل التصوف » (٢٨ ، ٢٩) ، و« الرسالة القشيرية » (٢/ ٥٥٠ ، ٥٥١) و«عوارف المعارف» (٦٥) .

(٥) انظر « الرسالة القشيرية » (٢/ ٥٥٠ , ٥٥٠) و« تلبيس ابليس » (١٦٣) و« مجموع الفتاوي » =

وقيل : إنها مشتقة من « صوفية » وهم اسم رجل كان أول من انفرد بخدمة الله عند الكعبة ، واسمه الغوث بن مر ، وانتسب إليه قوم في الجاهلية ، فسموا صوفية ، وقد انقطعوا إلى الله ، وقطنوا الكعبة ، فمن تشبّه بهم فهم الصوفية[١] .

وهذا أيضًا قول بعيد ، وقد رد عليه شيخ الإسلام ابن تيمية وقال بأن غالب من تكلّم باسم « الصوفي » لم يعرف هذه القبيلة ، ولا يرضىٰ أن يكون مضافًا إلىٰ قبيلة في الجاهلية لا وجود لها في الإسلام[٢] .

وقال قوم آخرون : إنها مشتقة من الصوف ، أي سموا صوفية للبسهم الصوف ، وهو ما اختاره الكثيرون من العلماء والباحثين[٣] .

قال السهروردي : « وهذا . . . يناسب من حيث الاشتقاق لأنه يقال تصوّف إذا لبس الصوف ، كما يقال تقمّص إذا لبس القميص . . . فنسبوا إلىٰ ظاهر اللبسة ، وكان ذلك أبين في الإشارة إليهم ، وأدعىٰ إلىٰ حصر وصفهم ، لأن لبس الصوف كان غالبًا علىٰ المتقدمين من سلفهم »[٤] .

وهناك قول آخر وهو : أن أصل الكلمة « صوفية » يوناني ، مشتق من كلمة : تيوسوفيا : (Theo Sophie) ومعناها الحكمة الإلهية ، وكانت تطلق عند قدماء اليونان علىٰ مذهب روحي ، يعتنقه النساك والزهاد السالفون قبل الإسلام

= (٦/١١) و« مقدمة ابن خلدون » (٤٦٧) .

(١) قارن « تلبيس ابليس » (١٦١) .

(٢) انظر « مجموع الفتاوي » (٦/١١) .

(٣) منهم شيخ الإسلام ابن تيمية في « مجموع الفتاوي » (٧٠٦/١١) ، وابن خلدون في « مقدمته » (٤٦٧ ، ٤٦٨) ، ومن علماء الصوفية كأبي نصر السراج في « اللمع » (٤١) ، وأبي بكر الكلاباذي في « التعرف لمذهب أهل التصوف » (٣٠ ، ٣١ ، ٣٤) ، والسهرودي في « عوارف المعارف » (٦٤ ، ٦٥) ، ومن الباحثين المحدثين أحمد أمين في « ظهر الإسلام » (١٥٠/٤) وزكي مبارك في « التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق » (٤٢/١) ، ومن المستشرقين كجولدزيهر في « العقيدة والشريعة » (١٥٣) ، ونيكلسون في « التصوف الإسلامي وتاريخه » (٤٨ ، ٤٩ ، ٦٦ ، ٦٧) ، والبارون كارادوفو في « الغزالي » (١٥٩ ، ١٦٠) ، ودي بورفي «تاريخ الفلسفة» (١٢٦) وغيرهم .

(٤) « عوارف المعارف » (٦٤ ، ٦٥) .

بعدة قرون[١] ، وإلى هذا ذهب البيروني[٢] ووافقه كثير من الباحثين المستشرقين[٣] .

وهذا القول محتمل جداً لولا الردود من المستشرق نولدكه (Noldeke)[٤] .
فقد استبعد نولدكه هذا القول ، لسبب لغوي يوناني ، وهو أن الحرف الأول لكلمة « سوفوس » أو « سفويا » اليونانية كان يمثل في العصور المتأخرة دائماً بحرف السين (س) العربي في جميع الكلمات اليونانية التي عربت ، لا بحرف الصاد (ص) ، فلو كانت كلمة « صوفي » مشتقة من أصل يوناني لكان بقاء الصاد في أولها خروجاً على القياس على أقل تقدير[٥] .

وبعد هذا العرض الموجز فالذي أميل إليه أنهم سموا بالصوفية نسبة إلى الصوف ، لأن قدماءهم في الجملة يؤثرون الخشونة ، ومن مظاهرها لبس الصوف ، وهذا لا يعني إنكاري علاقة الصوفية بمذهب تيوسوفية اليوناني ، فإن الصوفية لها علاقة بها كما لها علاقة بمذاهب عديدة خارجة عن الإسلام .

***

(١) « أضواء على التصوف » (٦٦ ، ٦٧) وانظر عن نشاط هذا المذهب في العصر الحديث في «الإسلام والدعوات الهدامة » لأنور جندي (٥١ ـ ٥٤) .

(٢) انظر كتاب البيروني في « تحقيق ما للهند » (٢٤) .

(٣) انظر « الصوفية في الإسلام » ، للمستشرق نيكلسون ، ترجمة نور الدين شريبة (٣ ، ٤) .

(٤) هو « تيودور نولدكه » (Theodor Noldeke) من أكابر المستشرقين الألمان ، ولد (سنة ١٢٥١هـ) ، وتعلم في عدة جامعات ، وانصرف إلى اللغات السامية والتاريخ الإسلامي ، له كتب عن العرب وتاريخهم ، منها « تاريخ القرآن » و« حياة النبي محمد » توفي (سنة ١٣٤٩ هـ) «الأعلام»، (٢/ ٩٦) .

(٥) قارن « في التصوف الإسلامي وتاريخه » (٦٧) .

المبحث الثاني

موجز عن نشأة الصوفية وتطورها

إن أول بوادر ظهور الصوفية كفرقة لها تعاليم ومدرسة وتلاميذ كان في القرن الثاني للهجرة ، وذلك حينما فشا الإقبال على الدنيا ، وجنح الناس إلى مخالطتها والانشغال فيها ، اختفى المقبلون على الزهادة والعبادة باسم الصوفية والمتصوفة[١] .

من ذلك الحين غلبت هذه التسمية على هذه الطائفة من الزهاد ، فيقال : رجل صوفي ، وللجماعة : « صوفية » ، ومن يتوصل إلى ذلك يقال له : «متصوف»، وللجماعة : « المتصوفة »[٢] .

وروي أن أول رجل لقب بالصوفي هو أبو هاشم الكوفي المتوفى (سنة ١٥٠هـ) ، وأنه بنى أول خانقاة[٣] للصوفية في الرملة من بلاد الشام ، وقيل غير ذلك[٤] .

ولم تكن هذه الجماعات في هذه الفترة تؤلف وحدة كالرهبانيات ، ولم

(١) « قارن مقدمة ابن خلدون » (٤٦٧) وأيضًا « تلبيس إبليس » (١٦٣) .

(٢) « الرسالة القشيرية » (٢/ ٥٥٠) ، وفرق الهجويري (ت ٤٦٥ هـ) بين الصوفي والمتصوف حيث قسّم أهل التصوف إلى ثلاثة أقسام . الأول : الصوفي وهو الفاني عن نفسه ، والباقي بالحق ، قد تحرر من قبضة الطبائع ، واتصل بحقيقة الحقائق . الثاني : المتصوف ، وهو من يطلب هذه الدرجة بالمجاهدة ، ويقوم نفسه في الطلب على معاملاتهم . الثالث : المستصوف ، وهو من تشبه بهم من أجل المنال ، والجاه ، وحظ الدنيا ، انظر « كشف المحجوب » (١/ ٢٣١) .

(٣) الخانقاة كلمة فارسية ، معناها بيت ، وقيل أصلها خونقاه ، أي الموضع الذي يأكل فيه الملك ، وجعلت لتخلي الصوفية فيها لعبادة الله تعالى ، انظر : « الخطط » للمقريزي (٢/ ٤١٤) .

(٤) انظر « الصلة بين التصوف والتشيع » للدكتور كامل مصطفى الشيبيي (٢٦٩) نقلاً عن « نفحات الأنس » لعبد الرحمن الجامي (٣١) وأيضًا : في « التصوف الإسلامي وتاريخه » (٣) .

تتخذ لها رئيسًا واحدًا ، أو نظامًا واضح المعالم في التصوف ، فقد تميزت بالزهد المبالغ ، ومحاربة النفس ، والتوكل على الله في جميع أمورهم .

وكانت البصرة مركزًا لهذه الجماعة ، كما أشار إلى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية قال :

« إن أول ما ظهرت الصوفية من البصرة ، وأول من بنى دويرة الصوفية بعض أصحاب عبد الواحد بن يزيد ، وعبد الواحد من أصحاب الحسن ، وكان في البصرة من المبالغة في الزهد ، والعبادة ، والخوف ، ونحو ذلك ، ما لم يكن في سائر أهل الأمصار ، ولهذا يقال : « فقه كوفي » و : « عبادة بصرية »[١] .

وعند نشوء الجماعات الصوفية في القرن الثاني كانت ترتكن على ركنين أساسيين هما الزهادة وحب الله[٢] .

والحقيقة أن الزهادة وحب الله أمران مشروعان في الإسلام ، غير أن الصوفية قد بالغوا فيهما، وأدخلوا فيهما تدريجيًا العناصر من المذاهب والفلسفات الأجنبية .

وقد أشار القرآن إلى الزهادة وحب الله في آيات كثيرة ، ففي الزهادة مثل قوله تعالى : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[٣] .

وقوله تعالى : ﴿ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إلاَّ قَلِيلٌ ﴾[٤] .

وفي حبّ الله مثل قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾[٥] .

---

(١) « مجموع الفتاوي » (١١/٦ ، ٧) .

(٢) « ظهر الإسلام » لأحمد أمين (٤/ ١٥٠) .

(٣) آل عمران (١٨٥) .

(٤) التوبة (٣٨) .

(٥) البقرة (١٦٥) .

وقوله تعالىٰ : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾[١] .

وقد وجد في صدر الإسلام كثير ممن عرفوا بالزهادة ، كأهل الصفة ، وأبي ذر الغفاري ، وحذيفة بن اليمان ، وغيرهم ، وكانت زهادتهم زهادة معتدلة ، لا تخرج عما أرشد إليه القرآن ، من التوسط والاعتدال ، ولا تخرج عن توجيهات الرسول الكريم ﷺ ، بمعنىٰ أنهم كانوا يشاركون في الحياة الاجتماعية ، ويسعون لكسب معاشهم ، ويحافظون علىٰ أوامر الدين ، بأرواحهم وبكل طاقاتهم ، ولكن لما ظهرت الصوفية ، كان زهادهم يحيون حياة تخالف حياة الآخرين ، من حيث المبالغة في الزهد ، وترك متاع الدنيا ، ورياضة النفس .

وقد اشتهر في هذه الفترة الزاهد الصوفي إبراهيم بن أدهم البلخي المتوفىٰ (سنة ١٦٠ أو ١٦٢ هـ) الذي تخلىٰ عن ملكه وأمواله ، ولبس الصوف ، وهام علىٰ وجهه في البلاد ، متقشفًا منصرفًا إلىٰ العبادة ودعوة الناس إلىٰ الزهد في الدنيا وخيراتها[٢] .

---

(١) المائدة (٥٤) .

(٢) روىٰ القشيري في « الرسالة » أن إبراهيم بن أدهم كان من أبناء الملوك ، فخرج يومًا متصيدًا ، فأثار ثعلبًا أو أرنبًا ، وهو في طلبه ، فهتف به هاتف : يا إبراهيم ألهذا خلقت أم بهذا أمرت ؟ ثم هتف به أيضًا من قربوس سرجه (أي حنو سرجه) : والله ما لهذا خلقت ولا بهذا أمرت : فنزل عن دابته ، وصادف راعيًا لأبيه ، فأخذ جبّة للراعي من صوف ولبسها ، وأعطاه فرسه وما معه ، ثم إنه دخل البادية . . . وأنه رأىٰ في البادية رجلاً علّمه « اسم الله الأعظم » ، فدعا به بعده ، ويزعم أنه رأىٰ الخضر عليه السلام ، ومن أقواله في التصوف : « اعلم أنك لا تنال درجة الصالحين حتىٰ تجوز ست عقبات :

١ ـ تغلق باب النعمة وتفتح باب الشدة .

٢ ـ تغلق باب العز وتفتح باب الذل .

٣ ـ تغلق باب الراحة وتفتح باب الجهد .

٤ ـ تغلق باب النوم وتفتح باب السهر .

٥ ـ تغلق باب الغنىٰ وتفتح باب الفقر .

٦ ـ تغلق باب الأمل وتفتح باب الاستعداد للموت .

كما اشتهرت الزاهدة رابعة العدوية المتوفاة (سنة ١٣٥ هـ) بدعوتها إلى حب الله حبًا مطلقًا مجردًا عن الخوف والرغبة ، وجعلت هذا الحب من أسس الصوفية ، وركزت عليه طريقها[١] .

وظهرت في نهاية القرن الثاني فكرة جديدة كانت لها أثرها في التصوف ، متمثلة في أقوال معروف الكرخي (ت ٢٠٠ هـ)[٢] الذي عرّف التصوف بأنه الأخذ بالحقائق ، واليأس مما في أيدي الخلائق[٣] .

وفي القرن الثالث والرابع الهجريين ، ظهر التصوف في صورة جديدة ، تختلف تمام الاختلاف عن سابقتها ، حيث لا يقف التصوف في هذه الفترة عند حد الزهد والرياضة والمجاهدة ، وإنما تجاوز هذا كله إلى غاية أسمى ، وهي فناء الإنسان عن نفسه ، واتحاده بربه ، وحصوله على المعرفة العليا التي تتجلى فيها الحقائق عن طريق الكشف والشهود[٤] .

والصوفية في هذه الفترة تعتبر من أكثرها تأثرًا بالمذاهب الفلسفية الوافدة التي انتشرت في ذلك الوقت ، في أنحاء المملكة الإسلامية ، خاصة في خراسان وفارس ، نتيجة من فتوحات إسلامية لهذه البلاد ، واختلاطات بين الثقافات المختلفة[٥] .

وقد ظهر في هذه الفترة كثير من كبار الصوفية ، وكان معظمهم من غير العرب وخاصة الفرس .

= انظر « الرسالة القشيرية » (١/ ٥٤ ـ ٥٦) وانظر ترجمته أيضًا في « طبقات الصوفية » (٢٧) ، و« كشف المحجوب » (١/ ٣١٤) و« الحلية » (٧/ ٣٦٧) ، و« صفة الصفوة » (٤/ ١٥٢) ، و«الأعلام» (١/ ٣١) ، وقد قارن المستشرق جولد زيهر بين سيرة إبراهيم بن أدهم وسيرة بوذا ، انظر : « العقيدة والشريعة » (١٦١) .

(١) انظر ترجمتها في « صفة الصفوة » (٤/ ٢٧) ، و« الأعلام » (١/ ٣١) .

(٢) سبقت ترجمته .

(٣) « الرسالة القشيرية » (٢/ ٥٥٢) و« عوارف المعارف » (٦٢) .

(٤) انظر « في التصوف الإسلامي وتاريخه » (٤ ، ٥ ، ٧٠ ، ٧٤) .

(٥) « قارن ظهر الإسلام » (٤/ ١٥٠ ، ١٥١) .

أذكر منهم[١] :

١ ـ أبو سليمان الداراني (ت ٢١٥ هـ)[٢] الذي اشتهر في شدة التقشف .

٢ ـ بشر بن الحارث الحافي (ت ٢٢٧ هـ)[٣] الذي كان ذا شأن كبير في المجاهدة .

٣ ـ أبو بكر الشبلي الخراساني (ت ٢٣٤ هـ)[٤] المشهور بإشارته .

٤ ـ أبو تراب (ت٢٤٥ هـ)[٥] الذي كان من كبراء سياحي المتصوفة ، قطع بوادي كثيرة على التجرد .

٥ ـ الحارث المحاسبي (ت ٢٤٣ هـ)[٦] الذي عمل كتابًا في أصول التصوف

---

(١) لا يتسع المجال هنا لدراسة تعاليم كل واحد من هؤلاء الرجال ، وإلا خرجنا عن حدود الموجز الذي وضعناه ، فنكتفي بترجمة قصيرة لكل واحد منهم .

(٢) هو عبد الرحمن بن أحمد بن عطية ، زاهد مشهور من أهل داريا بدمشق ، رحل إلى بغداد ، وأقام بها ، ثم عاد إلى الشام ، كان من كبار المتصوفة له أقوال كثيرة في صميم التصوف النظري ، انظر ترجمته في « طبقات الصوفية » (٧٥) ، و« الرسالة القشيرية » (١/ ٩٦) ، و« كشف المحجوب » (١/ ٣٢٤) ، و« الحلية » (٩/ ٢٥٤) ، و« صفة الصفوة » (٤/ ٢٢٣) ، و« الأعلام» (٣/ ٢٩٣) .

(٣) هو أبو نصر بشر بن الحارث المعروف بالحافي ، من كبار الصوفية له أخبار في الزهد والورع ، أصله من « مرو » بخراسان ، انظر ترجمته في « طبقات الصوفية » (٣٩) ، و« الرسالة القشيرية » (١/ ٧٣) ، و« كشف المحجوب » (١/ ٣١٦) ، و« الحلية » (٨/ ٣٣٨) ، و« صفة الصفوة » (٢/ ٣٢٥) ، و« الأعلام » (٢/ ٥٤) .

(٤) سبقت ترجمته .

(٥) هو أبو تراب عسكر بن الحصين النخشبي ، اشتهر بكنيته حتى لا يكاد يعرف إلا بها ، كان من أجلة مشايخ خراسان ومن ساداتهم ، وكان مشهوراً بالفتوة ، والزهد ، والورع ، له عجائب لا تحصى وكانت وفاته في بادية البصرة حيث نهسته السباع ، انظر ترجمته في « طبقات الصوفية » (١٤٦) ، و« الرسالة القشيرية » (١/ ١٠٨) ، و« الحلية » (١٠/ ٢١٥) ، و« كشف المحجوب » (١/ ٣٣٤) ، و« صفة الصفوة » (٤/ ١٧٢) ، و« الأعلام » (٤/ ٢٣٣) .

(٦) هو أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي من أكابر الصوفية ولد ونشأ بالبصرة ، له تصانيف عديدة في الزهد ، ومن أقواله : « العلم بحركات القلوب في مطالعة الغيوب أشرف من العمل بحركات الجوارح » ، انظر ترجمته في « الفهرست » (٢٦١) ، و« طبقات الصوفية » (٥٦) ، و«الرسالة القشيرية» (١/ ٧٨) ، و« الحلية » (١٠/ ٧٤) ، و« كشف المحجوب » (١/ ٣١٩) ، =

اسمه « الرعاية لحقوق الله » ويعتبر أقدم الكتب في التصوف .

٦ ـ وذو النون المصري (ت ٢٤٥ هـ)[١] الذي كان له أكبر الأثر في تشكيل الفكرة الصوفية كما قاله المستشرق نيكلسون[٢] ، فيعزىٰ إليه أنه أول من تكلم في مصر في الأحوال والمقامات ، وأول من بحث في المعرفة بحثًا نظريًا دقيقًا[٣] .

٧ ـ وسري السقطي الفارسي (ت ٢٥٧ هـ)[٤] الذي قال عنه الهجويري بأنه أول من تكلم في بغداد ، في ترتيب المقامات وبسط الأحوال ، وأن أكثر مشايخ العراق من مريديه[٥] .

= و« صفة الصفوة» (٢/ ٣٦٧) ، و« الأعلام » (٢/ ١٥٣) ، و« رسالة المسترشدين » تحقيق أبي غدة (١٧) .

(١) هو أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم الأخميمي المصري ، أحد الزهاد العباد المشهورين من أهل مصر ، وهو أول من تكلم بمصر في ترتيب الأحوال ومقامات أهل الولاية ، فأنكر عليه عبد الله ابن عبد الحكم ، واتهمه المتوكل العباسي بالزندقة ، فاستحضره إليه ، وسمع كلامه ، ثم أطلقه ، انظر ترجمته في « طبقات الصوفية » (١٥) ، و« الرسالة القشيرية » (١/ ٥٨) ، و« الحلية» (٩/ ٣٣١) ، و« كشف المحجوب » (١/ ٣١١) ، و« صفة الصفوة » (٤/ ٣١٥) ، و« الأعلام » (٢/ ١٠٢) .

(٢) انظر في « التصوف الإسلامي وتاريخه » (٨) ، ونيكلسون هو (رينولد ألين نيكلسون Reynold Allen Nicholson) (١٢٨٥ ـ ١٣٦٤ هـ) ، مستشرق إنجليزي ، عالم بالتصوف الإسلامي ، درس العربية والفارسية ، ودرّسهما ، واشترك في نشر عدد من الكتب الصوفية ، مثل « تذكرة الأولياء » للعطار ، و« اللمع» للطوسي ، وغيرهما ، وله كتب بالإنجليزية في التصوف وغيره منها : « متصوفو الإسلام » ، و« دراسات في التصوف الإسلامي» ترجمه إلى العربية الدكتور أبو العلاء عفيفي . « الأعلام » (٣/ ٣٩) .

(٣) المصدر السابق (٧ ، ٧٤) .

(٤) هو أبو الحسن سري بن المغلس السقطي ، خال الجنيد وأستاذه قال عنه السلمي : إنه أول من تكلم ببغداد في لسان التوحيد وحقائق الأحوال ، وكان إمام البغداديين وشيخهم في وقته ، وقال إنه مات (٢٥١ هـ) ، انظر ترجمته في « طبقات الصوفية » (٤٨) ، و« الرسالة القشيرية » (١/ ٦٩) ، و« الحلية » (١٠/ ١١٦) ، و« كشف المحجوب » (١/ ٣٢١) .

(٥) « كشف المحجوب » (١/ ٣٢٢) .

٨ ـ وأبو يزيد البسطامي (ت ٢٦١ هـ)[١] الذي كان ظهوره سببًا في تطور الأفكار الصوفية تطورًا عظيمًا ، لأنه أدخل في التصوف فكرة الفناء ، وفكرة وحدة الوجود[٢] .

٩ ـ والجنيد (ت ٢٩٧ هـ) وهو فارسي من نهاوند ، ويلقب بسيد الطائفة[٣] .

١٠ ـ والحلاج (ت ٣٠٩ هـ)[٤] الذي نادىٰ بمذهب الحلول .

وبظهور الحلاج بلغ التصوف غايته وذروته من حيث العقيدة ، لأنه استطاع أن يظهر معتقده في الحلول علىٰ الناس ، فأفتىٰ علماء العصر بكفره وقتله ، فقتل محرقًا في آخر (سنة ٣٠٩ هـ)[٥] ولكن بقيت طريقته بعده .

وقد ظهر في هذين القرنين كثير من الشخصيات الصوفية غير الذي ذكرناه ،

---

(١) هو طيفور بن عيسىٰ البسطامي ، فارسي ، كان جده مجوسيًا ، يعد من أكبر أئمة التصوف ، ويعرف أتباعه بالطيفورية أو البسطامية . له أخبار كثيرة ، منها أنه ادعىٰ لنفسه المعراج كما كان للرسول ﷺ المعراج ، فأخرجوه من بسطام ، ورموه بالإلحاد ، انظر ترجمته في « طبقات الصوفية » (٦٧) ، و« الرسالة القشيرية » (١/ ٨٨) ، و« كشف المحجوب » (١/ ٣١٧) ، و«الحلية» (١٠/ ٣٣) ، و« صفة الصفوة » (٤/ ١٠٧) ، و« الاعلام » (٣/ ٢٣٥) .

(٢) انظر : « في التصوف الإسلامي وتاريخه » (٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤) .

(٣) سبقت ترجمته .

(٤) هو الحسين بن منصور الحلاج ، أبو مغيث ، فارسي الأصل ، كان قد اتصل بالجنيد وتتلمذ له ، وظهر تطرفه وميله إلىٰ الحلول ، قال ابن النديم في وصفه : كان محتالاً مشعبذًا ، يتعاطىٰ مذاهب الصوفية ، ويدعي كل علم جسورًا علىٰ الملوك والسلاطين ، مرتكبًا للعظائم ، يروم انقلاب الدول ، ويدعي عند أصحابه الإلهية ، ويقول بالحلول ، ويظهر مذاهب الشيعة للملوك ، ومذاهب الصوفية للعامة ، وفي تضاعيف ذلك يدعي أن الإلهية قد حلت فيه ، وأنه هو هو ، وكان في كتبه : إني مغرق قوم نوح ، ومهلك عاد وثمود ، فلما شاع أمره وذاع ، وعرف السلطان خبره علىٰ صحته ، وقع بضربه ألف سوط ، وقطع يديه ، ثم أحرقه بالنار في آخر (سنة ٣٠٩ هـ) ، وادعىٰ أصحابه أنه لم يقتل ، وإنما ألقي شبهه علىٰ عدوّ له ، انظر ترجمته في «الفهرست» (٢٦٩ ـ ٢٧١) ، و« طبقات الصوفية » (٣٠٧) ، و« كشف المحجوب » (١/ ٣٦٢)، و« الأعلام » (٢/ ٢٢٦) .

(٥) انظر « الفهرست » (٢٧٠) .

وانتشروا في الساحة الإسلامية ، خاصة في فارس ، وخراسان ، والعراق ، حيث وجدت المؤثرات المختلفة في هذه المناطق ، كالهندية ، والفارسية ، واليونانية ، والنصرانية ، وأخذاو ينظّمون أنفسهم في جماعات وفرق ، لها طرقها الخاصة ، وشيوخها ، وسالكوها .

وكانت هناك مدارس كثيرة للتصوف في هذه الفترة ، لكل منها طابع معين ، وقد عد الهجويري (ت ٤٦٥ هـ) الطرق الصوفية التي وجدت في هذه الفترة باثنتي عشرة فرقة ، ونسب كل واحدة منها إلىٰ شيخ من شيوخ القرنين الثالث والرابع الهجريين[١] .

كما ذكر أنه لقي ثلاثمائة من مشايخ الصوفية بخراسان وحدها ، لكل منهم مشرب ، وقال بأن الواحد منهم يكفي الدنيا بأسرها ، لأن شمس المحبة وإقبال الطريقة في طالع خراسان[٢] .

وهذا دليل علىٰ أن الصوفية قد انتشروا في هذه الفترة انتشاراً واسعًا ، كما انتشرت تبعًا لذلك الخوانق ، والأربطة ، والزوايا التي يتخلون فيها في جميع البلاد الإسلامية[٣] .

وقد وضعوا نظامًا خاصًا للحياة في هذه الأربطة ، يشبه إلىٰ حد ما نظام الرهبنة في البوذية ، حيث يقوم بإدارة كل واحدة منها شيخ من شيوخهم ، وانتشر هذا النظام في الصوفية علىٰ أيدي رجال الطرق التي توالىٰ ظهورها سريعًا في القرن الخامس والسادس الهجريين وما بعدهما[٤] .

فقد ظهرت مجموعة من رجال التصوف ، واستطاع كل منهم أن يقيم له

---

(١) انظر « كشف المحجوب » (٢/ ٤٠٣-٥٠٨) .

(٢) المصدر السابق (١/ ٣٩١) .

(٣) انظر « الخطط » للمقريزي (٢/ ٤١٤-٤٣٦) وأيضًا « الحضارة الإسلامية » لآدم متز ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة (٢/ ٣٠) .

(٤) قارن « في التصوف الإسلامي وتاريخه » (٥٨) .

طريقة صوفية خاصة ، وأتباعًا مخصوصين .

وأذكر من هذه الطرق على سبيل المثال : القادرية[١] ، والرفاعية[٢] والشاذلية[٣] ، والبدوية[٤] ، والنقشبندية[٥] ، والتيجانية[٦] ، وغير ذلك .

وقد تشعب من كل منها عدة فروع ، ما تزال آثارها منتشرة حتى اليوم في أنحاء كثيرة من العالم الإسلامي ، وخاصة في أفريقيا ودول من آسيا ، حيث توجد القبور ، والمزارات ، ومشايخ الطرق ، والعقائد الفاسدة في كل ذلك .

وهكذا امتلأت الساحة الإسلامية بالمدارس والمذاهب الصوفية التي صنعت للمريد لكي يدخل إلى مقام شيخه أو ينخرط في طريقه ، وامتلأت الصوفية بالرسوم والطقوس ، أطلقوا عليها اسم الأحوال والمقامات تدرّجًا

---

(١) تنسب إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني (ت ٥٦١ هـ) ظهرت في بغداد ، ولها أتباع كثيرون في البلاد الإسلامية وغيرها ، انظر « الصلة بين التصوف والتشيع » (٤٤٣ ـ ٤٤٤) .

(٢) تنسب إلى الشيخ أحمد الرفاعي (ت ٥٧٨ هـ) ، ظهرت في العراق ، ولها أتباع كثيرون وهي شعبة من القادرية ، انظر « الصلة بين التصوف والتشيع » (٤٤٤) .

(٣) تنسب إلى أبي الحسن الشاذلي المغربي (ت ٦٥٦ هـ) ، وهي منتشرة في المغرب والجزائر ، وفي أنحاء أخرى من العالم ، وقد تشعب عنها طرق كثيرة ، انظر : « الصلة بين التصوف والتشيع » (٤٤٥) .

(٤) تنسب إلى أحمد بن علي البدوي (ت ٦٧٥ هـ) ، صاحب الشهرة في الديارة المصرية ، وأصله من المغرب ، وقد انتسب إلى طريقته جمهور كبير في مصر ، وكان قبره في طنطا ، حيث تقام في كل عام سوق عظيمة ، يفد إليها الناس من جميع أنحاء القطر المصري احتفاء بمولده ، انظر : « الأعلام » (١/ ١٧٥) .

(٥) تنسب إلى الشيخ محمد بهاء الدين البخاري النقشبندي (ت ٧٩١ هـ) ظهرت هذه الطريقة في خراسان ، وانتشرت في كثير من البلاد الإسلامية ، خاصة في سوريا والعراق ، انظر « الصلة بين التصوف والتشيع » (٤٤١) ، و« العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد » لعبد الحميد طهماز (١٨٨ ، ١٨٩) .

(٦) تنسب إلى أحمد بن محمد التجاني (ت ١٢٣٠ هـ) ظهرت في المغرب والجزائر ، ولها أتباع كثيرون في البلاد الأفريقية ، ولعلي بن الدخيل الله كتاب قيم في عقائد التجانية » ، انظر : ترجمة الشيخ التجاني في « الأعلام » (١/ ٢٤٥) .

في طريق العشق ، والوجد ، والغناء ، والاتحاد ، والحلول، وما أشبه ذلك[١] .

والهدف لهذه الطرق جميعًا ـ كما يزعمون ـ هو أن تتفلت النفس الإنساني من روابط الجسد فترة من الزمن ، مستعينة بالمجاهدة والذكر ، فيتمزق حجاب الحسّ الفاصل بين النفس والحقيقة ، وتقوىٰ الروح ، فتكشف لها حقائق الموجودات ، وتتمتع النفس بكمالاتها الذاتي ، وتسمو إلىٰ عالم الملائكة ، وتتحد بالله[٢] .

ولم تخرج الطرق المتعددة المنتشرة في أكثر أقطار العالم الإسلامي عن نطاق هذا الهدف وإن اختلفت في الأساليب والسبل إليه ، وبرزت في بعضها شعوذات ينكرها الدين والعقل السليم .

وقد دوّن الصوفية لأنفسهم علمًا خاصًا ، ذكروا فيه مقامات الصوفية ، وأحوالها ، ومجاهداتها ، وما ينشأ عنها من الأذواق والمواجيد[٣] .

ولعل أول ما ظهر من مؤلفات صوفية كتاب « الرعاية لحقوق الله » لأبي عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي (ت ٢٤٣ هـ) ، ثم ظهر في القرن الرابع الهجري كتاب « اللمع » لأبي نصر السراج (ت ٣٧٨ هـ) ، و« التعرّف لمذهب أهل التصوف » للكلاباذي (ت ٣٨٠ هـ) ، و« قوت القلوب » لأبي طالب المكي (ت ٣٨٦ هـ) ، ثم ظهر في القرن الخامس والسادس الهجريين كثير من المؤلفات الصوفية أهمّها كتاب : « طبقات الصوفية » لأبي عبد الرحمن السلمي (ت ٤١٢ هـ) ، و« الرسالة القشيرية » لأبي القاسم القشيري (ت٤٦٥هـ) ، و« كشف المحجوب » للهجويري (ت٤٩٢ هـ) ، و«إحياء علوم الدين » للغزالي (ت٥٠٥ هـ) ، وبعده كتاب « عوارف المعارف »

---

(١) « دراسات في الفرق » للدكتور صابر طعيمة (١٠٨) .

(٢) « دراسات في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية » لعبده الشمالي (٤٥٠ ، ٤٥١) .

(٣) انظر « كشف المحجوب » (١/ ١٥١) و« تلبيس إبليس » (١٦٤ ـ ١٦٦) و« مقدمة ابن خلدون » (٤٦٩) .

للسهروردي (ت٦٣٢ هـ) .

ثم ظهر بعد ذلك مؤلفات كثيرة لابن عربي (ت ٦٣٨ هـ) ، وابن الفارض (ت ٦٣٢ هـ) ، وعبد الكريم الجيلي (ت٨٠٥ هـ) ، والشعراني (ت ٩٧٣ هـ) وغيرهم .

و«صار علم التصوف في الملة علمًا مدونًا بعد أن كانت طريقة عبادة فقط»[1] .

وقد حفلت كتب هؤلاء بالمصطلحات الصوفية الغامضة ، وزعموا أنه لا يفهمها إلا من سلك طريقهم وتعارف عليها ، وربما عجزوا هم أنفسهم عن إيضاح بعضها .

وبظهور علم التصوف قسم الصوفيون علم الشريعة إلى قسمين : ظاهر وباطن ، واختص الفقهاء بالاهتمام بالظاهر ، وعني الصوفية بالباطن[2] ، وأحبّوا أن يسمّوا أنفسهم أهل الله ، وأهل الباطن ، وأهل الحقائق ، ويسموا من عاداهم من الفقهاء بأهل الظاهر وأهل الرسوم[3] .

وقد بذلوا جهدهم للتوفيق بين ما سلكوا فيه من التصوف وبين القرآن والسنة بالتأويلات الباطنية الفاسدة التي لا تستند إلى دليل شرعي صحيح ، وإنما تستند إلى الكشف ، وإلى الخواطر ، والوساوس ، والأحلام[4] .

---

(١) « مقدمة ابن خلدون » (٤٦٩) .

(٢) قارن « التصوف الثورة الروحية في الإسلام » للدكتور أبي العلاء عفيفي (١١٤) .

(٣) من الأمثلة على ذلك ما قاله محيي الدين بن عربي في « فتوحاته » : « فلما رأى أهل الله أن الله قد جعل الدولة في الحياة الدنيا لأهل الظاهر من علماء الرسوم وأعطاهم التحكم في الخلق بما يفتون به وألحقهم بالذين يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون هم في أفكارهم عن أهل الله يحسبون أنهم يحسنون صنعًا » ، انظر : « الفتوحات المكية » لابن عربي (١/ ٣٦٥) .

(٤) انظر بعض النماذج لهذه التأويلات الصوفية في : « التفسير والمفسرون » للدكتور محمد حسين الذهبي (٢/ ٣٤١-٣٤٤) وأيضًا (٣٨٧-٣٨٩) .

وخلاصة القول أن التصوف من أول ظهوره كفرقة من الفرق ، ما هو إلا استيراد أجنبي من خارج الإسلام ، وليس من صميمه ، وأن الصوفية لم يظهروا بعلمهم هذا ، ولا عرفوا بهذه الصفة التي أوجزناها ، إلا بعد تأثرهم بعوامل خارجية متعددة المصادر ، ومنها البوذية التي نحن بصددها الآن .

* * *

المبحث الثالث

البوذية مصدر من مصادر الصوفية والأدلة على ذلك

تعتبر البوذية مصدراً من مصادر الصوفية ، لم يقلّ أهمية من مصادر أخرىٰ في تكوين هذه الطائفة ، سواء كانت هندية ، أو فارسية ، أو يونانية ، أو نصرانية ، أو غير ذلك ، ومن الأدلة التي تثبت ذلك :

١ ـ انتشار البوذية في فارس وخراسان وما جاورها قبل الفتح الإسلامي :

فقد ثبت بالأدلة التاريخية أن الدعوة البوذية كانت نشطة في زمن قبل الإسلام في شرق البلاد الفارسية ، وفي خراسان ، وغيرها من بلاد آسيا الوسطىٰ[١] وقد أشار إلىٰ ذلك ابن النديم[٢] ، وكذلك البيروني ، الذي تنبه إلىٰ أن الفرقة المعروفة بالسمنية وهي البوذية كانت مزدهرة في خراسان ، وفارس ، والعراق ، والموصل ، إلىٰ حدود الشام[٣] .

وما زالت البوذية مزدهرة في هذه المناطق حتىٰ في صدر الإسلام ، بدليل ما ذكره « هيون سانغ » الرحالة الصيني المعروف في مذكراته أنه عندما دخل «بلخ» إحدىٰ مدن خراسان[٤] وجد الأديرة البوذية منتشرة فيها ، وأنه عاش فترة

---

(١) راجع انتشار البوذية في السند وآسيا الوسطىٰ في الفصل السابق .

(٢) « الفهرست » (٤٨٤) .

(٣) انظر كتاب البيروني في « تحقيق ما للهند » (١٥) .

(٤) كان إقليم خراسان أيام العرب أي في القرون الوسطىٰ ينقسم إلىٰ أربعة أرباع ، نسب كل ربع إلىٰ إحدىٰ المدن الأربعة الكبرىٰ التي كانت في أوقات مختلفة عواصم للإقليم بصورة منفردة أو مجتمعة ، وهذه المدن هي نيسابور ، ومرو ، وهراة ، وبلخ وهي الآن تحت حكم روسيا ، انظر =

طويلة مع الرهبان البوذيين في بلخ وغيرها من مدن خراسان ، ونشر معهم تعاليم البوذية[١] .

ومن المعروف أن مدينة بلخ كانت موطنًا كبيراً وهامًا من مواطن الصوفية ، وقد نشأ فيها عدد كبير من أوائل المتصوفة ، منهم إبراهيم بن أدهم (ت١٦٢ هـ) الذي يوصف دائمًا بأنه كان أميرًا على بلخ ، ثم تنازل عن ملكه وعرشه ليصبح زاهدًا صوفيًا ، وقد قال فيه جولد زيهر : إن قصته حيكت على مثال قصة بوذا[٢] .

ومنهم شقيق بن إبراهيم البلخي[٣] ، وأحمد بن خضرويه البلخي[٤] ، وغيرهم .

ومن الملاحظ أن كثيراً من كبار مشايخ الصوفية الذين ذكروا في كتب التراجم ، هم إما من أهل خراسان ، وإما من أهل فارس ، ولا شك أن السر في ذلك هو تأثرهم مما شاهدوه في الأديرة المنتشرة بجوارهم ، من تقشف رهبانها ، وميلهم إلى العزلة ، والابتعاد عن الناس ، ومن لبسهم الخرق دلالة على الفقر ، وانصرافهم إلى التأمل حتى الذهول ، والفناء الذاتي ، فنهجوا

= « بلدان الخلافة الشرقية » (٢١ ، ٤٢٤ ، ٤٦٢) وما بعدها .

(١) Buddhism in Middle Asia P . 56 , 57 .

وقد ذكرت سابقًا أن رحلته كانت في فترة (٦٢٩ - ٦٤٥ م) وهي فترة صدر الإسلام ، لأن الرسول ﷺ عاش في فترة (٥٧٠ - ٦٣٢ م) .

(٢) انظر « العقيدة والشريعة » (١٦١) .

(٣) هو أبو علي شقيق بن إبراهيم بن علي الأزدي البلخي ، زاهد صوفي من كبار مشايخ خراسان ، له لسان في التوكل ، وقيل إنه أول من تكلم في علوم الأحوال الصوفية بكورة خراسان ، توفي (سنة ١٧٤ هـ) وقيل (١٩٤ هـ) انظر ترجمته في « طبقات الصوفية » (٦١) ، و« الرسالة القشيرية» (١/ ٨٥) ، و« كشف المحجوب » (١/ ٣٢٣) ، و« الأعلام » (٣/ ١٧١) .

(٤) كنيته أبو حامد من كبار مشايخ خراسان ، صحب أبا تراب ، وكان كبيراً في الفتوى ، توفي (سنة ٢٤٠ هـ) ، انظر ترجمته في « طبقات الصوفية » (١٠٣) و« الرسالة القشيرية » (١/ ١٠٣) ، و«كشف المحجوب» (١/ ٣٣٢) .

نهجهم ، وترسموا سبلهم .

ومن ذلك إقامة بعض الصوفية في الرباطات ، وانقطاعهم إلى العبادة ، وعزوف بعضهم عن الزواج ، والتبتل ، والاعتزال .

٢ ـ دخول بعض البوذيين في الإسلام :

فقد ثبت أن كثيراً من الطائفة البوذية في بلاد السند وفي آسيا الوسطى دخلوا في الإسلام في أيام الفتح وما بعدها[١] .

ومن الأمثلة على هذا إسلام طائفة « جنه » في أقليم سيوستان[٢] ، وهم أول جماعة كبيرة من البوذيين دخلوا في الإسلام أيام الفتح[٣] .

وذكرت بعض المصادر البوذية إسلام جماعة البوذيين في قندهار ، وكشمير ، وتركستان الغربية ، بعد دخول الإسلام فيها[٤] .

ولا يخفى أن الحديثين بالإسلام من هؤلاء لم يتخلوا تخلياً تامًا عن عقيدتهم وعن تقاليدهم القديمة ، وخاصة ثبت أن بعضهم دخلوا الإسلام عن غير رغبة وإيمان[٥] ، فلابد من أن يصبغوا إسلامهم بصبغتهم البوذية القديمة .

٣ ـ وجود العلاقات الثقافية بين العرب والهنود :

ثبت لدى المؤرخين أن هناك علاقات وثيقة بين العرب والهنود ، سواء

---

(١) انظر « الدعوة إلى الإسلام » لسير توماس أرنولد (٢٣٧ ، ٢٤٣ ، ٢٦٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦) .

(٢) وسمّتها المراجع العبرية القديمة : سجبستان : من الاسم الفارسي سكستان (Sagistan) وهي مدينة تقع في جنوب خراسان الشرقي ، ويقال لها بالفارسية « نيمروز » أيضًا ، ومعناه نصف يوم أو الأرض الجنوبية ، وسميت بذلك لوقوعها في جنوب خراسان ، فتحت في سنة ثلاثين من الهجرة ، انظر « بلدان الخلافة الشرقية » (٣٧٢) ، و« فتوح البلدان » (٣٨٥) .

(٣) انظر « موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية لبلاد السند والبنجاب في عهد العرب » (١٧٥ ، ١٧٦) ، نقلاً عن « تاريخ المعصومي » (بالفارسية) (٢٢ ، ٢٣) .

(٤) « المذاهب البوذية » (١٢٣) و« تاريخ الفلسفة البوذية وتطورها » (٢٥٤) .

(٥) المرجع السابق .

كانوا من البوذيين أو غيرهم ، وهذه العلاقات بدأت قبل الإسلام بعدة قرون ، بسبب التجارة[١] ، واستمرت العلاقات بين الشعبين في عصر صدر الإسلام والعصر الأموي .

وقد كانت الفتوحات الإسلامية لبلاد السند في هذه الفترة لها أثر هام في امتزاج العنصر الهندي بالعنصر العربي الإسلامي ، كما أشرت إليه من قبل ، أما في العصر العباسي فكانت العلاقات بينهما قوية جداً من الناحية الثقافية ، بسبب عناية البرامكة بنقل العلوم الهندية إلىٰ اللغة العربية[٢] .

وقد تم هذا النقل عن طريقين « جنديسابور » الذي كان مركزاً للمعارف اليونانية ، والفارسية ، والهندية ، وبغداد ، منذ أواخر القرن الثاني الهجري ، وبشكل مباشر أي من السنسكريتية إلىٰ العربية رأساً ، ولا يغفل الانتقال مشافهة ، فقد كان التجار ، والأطباء ، والدعاة الهنود ، معروفين في البلاد العربية الإسلامية ، ومن جهة أخرىٰ كان العرب والمسلمون ينتشرون في أوساط البوذيين ، وفي البلاد الهندية عموماً[٣] .

وقد نقل إلىٰ العربية في القرن الثاني الهجري بعض الكتب البوذية ومنها علىٰ الأخص كتاب « بلوهر » و« بودا سف »[٤] وكذلك كتاب « البدّ » كما أشار إليه ابن النديم في كتابه « الفهرست »[٥] .

ولاشك أن هذه الكتب وأمثالها لها أثر في الصوفية الذين اطلعوا عليها .

يقول الدكتور علي سامي النشار : إن كتاب « البدّ » له أثر في بعض فلاسفة

---

(١) انظر « تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم » للدكتور أحمد محمد الساداتي (١/ ٥٤ ، ٥٥) و« العلاقة السياسية والثقافية بين الهند والخلافة العباسية » لمحمد يوسف النجرامي (٢٠ ، ١٥٦) .
(٢) « العلاقة السياسية والثقافية » (١٥٧) ، وانظر أيضاً (١٧٨ ـ ١٨٣) .
(٣) « قارن الفلسفات الهندية » (٣٨١) .
(٤) سبق التعليق عليه في صفحة (٤٣٢) .
(٥) صفحة (٢٤٢) .

الصوفية المتأخرين كابن سبعين[١] الذي استخدم كلمة « البدّ » في تعبيراته ، والششتري[٢][٣] .

ولابن سبعين كتاب رئيسي سماه « بدّ العارف وعقيدة المحقق المقرب الكاشف وطريق السالك المتبتل العاكف »[٤] .

ويعتبر هذا الكتاب المصدر الأهم لفلسفة ابن سبعين ، وقد استعمل كلمة «بدّ»[٥] تكراراً في هذا الكتاب وفي رسائله[٦] .

وعلى سبيل المثال قوله :

« والحق هو أصل كل شيء وبدّه وصورته وذاته »[٧] .

وكقوله : « وتصل النفس إلى بدّها الأول الذي لا انفصال لها عنه ، والعاقل يلزم بدّه »[٨] .

ومن الشخصيات الصوفية البارزة الذين تأثروا بالبوذية الهندية الحلاج (ت٣٠٩هـ) الذي يقال عنه إنه رحل إلى الهند ، وتعلم السحر الهندي ، بعد

---

(١) هو أبو محمد عبد الحق بن إبراهيم بن سبعين الأشبيلي ، من زهاد الفلاسفة ، ومن القائلين بوحدة الوجود ، له مريدون وأتباع يعرفون بالسبعينية ، وقد كفّره كثير من الناس ، له مؤلفات منها «أسرار الحكمة الشرقية» و« رسالة النورية » و« رسائل ابن سبعين » توفي (سنة ٦٦٩هـ) «الأعلام» (٣/ ٢٨٠) ، وقال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية بأنه كان يريد الذهاب إلى الهند ، وقال إن أرض الإسلام لا تسعه ، انظر « مجموعة الرسائل » (١/ ١٨٢) تحقيق محمد رشيد رضا .

(٢) هو أبو الحسن علي بن عبد الله النميري الششتري ، متصوف أندلسي ، من أهل ششتر ، وتنقّل في البلاد ، وكان يتبعه في أسفاره ما ينيف على أربعمائة فقير يخدمونه ، من كتبه « المقاليد الوجودية في أسرار الصوفية » توفي (٦٦٨ هـ) « الأعلام » (٤/ ٣٠٥) .

(٣) انظر « نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام » (٣/ ٤٨ ، ٥٢) .

(٤) منه مخطوط في إستانبول ، وآخر في برلين ، وقد حققه جورج كتورة ، وطبعه ونشره دار الأندلسي ودار الكندي ، بيروت (عام ١٩٧٨ م) .

(٥) هذه الكلمة تعني في العربية صنماً أو وثناً كما تعني كذلك بيت الصنم ، ولعل أصلها من كلمة «بودها» (Buddha) الهندية كما أسلفنا .

(٦) انظر على سبيل المثال «رسائل ابن سبعين » (١٥١) تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوي .

(٧) « بد العارف » لابن سبعين (١٢٠) تحقيق جورج كتورة .

(٨) المصدر السابق (٣١٨) .

تجوله في خراسان وما وراء النهر خمس سنوات[١] .

وأبو يزيد البسطامي (ت٢٦١هـ) الذي يقول عن نفسه أنه أخذ الفناء الصوفي عن أبي علي السندي الذي علّمه الطريقة الهندية المعروفة بمراقبة الأنفاس ، أو ما يسميه البوذيون « سمادهي » (Smadhi) والتي وصفها بأنها عبادة العارف بالله[٢] .

ومن الشواهد أيضًا في هذا الصدد ، وجود الرهبان الرحل من الهنود في عهد الخلفاء الأوائل من بني العباس ، وهم بلا شك من البوذيين المعروفين بالسمنية[٣] .

هذه الأدلة والشواهد التي ذكرناها تكفي لتأييد ما ذهبنا إليه من أن البوذية مصدر هام من المصادر التي بنت الصوفية ، وقد أدرك هذه الحقيقة كثير من الباحثين في التصوف ومنهم المستشرقون[٤] .

يقول نيكلسون بعد عرضه لما في « الإحياء » من التصوف :

« ومهما يكن من الأمر فأثر البوذية ظاهر بصورة واضحة في التصوف الإسلامي في العصور الوسطى في الناحيتين النظرية والعملية على السواء ، فإن المسلمين أخذوا استعمال السبحة وعادة حبس الأنفاس عن رهبان البوذيين الذين كان لهم أكبر الأثر في تشكيل الحياة الصوفية وما وصلت إليه من تطور في ذلك العصر »[٥] .

ولتكون هذه الحقيقة واضحة أعرض في الفصول الآتية نماذج من العلاقات بين الصوفية والبوذية في العقائد والأخلاق والعادات والتقاليد ومن الله استمد العون ، والتوفيق ، والرشاد .

---

(١) قارن « ظهر الإسلام » (٢/ ٦٩ ، ٧٠) و« البداية والنهاية » لابن كثير (١١/ ١٣٣) .

(٢) « في التصوف الإسلامي وتاريخه » (٧٥) نقلاً عن « تذكرة الأولياء » لفريد الدين العطار (١/ ١٦٢) .

(٣) قارن « العقيدة والشريعة » (١٥٩) .

(٤) منهم المستشرق جولد زيهر انظر المصدر السابق (١٥٩ ، ١٦١) .

(٥) « في التصوف الإسلامي وتاريخه » (٦٢) .

الفصل الثاني

علاقة الصوفية بالبوذية

في العقائد والأخلاق

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : في الفناء .

المبحث الثاني : في الطريق إلى الفناء .

المبحث الثالث : في الحلول .

الفصل الثاني

علاقة الصوفية بالبوذية

في العقائد والأخلاق

المبحث الأول

في الفناء

عرفنا مما سبق أن « نرفانا » (Nirwana) عند مذهب البوذية هي عبارة عن حالة التشبع الروحي ، بالانصراف عن الدنيا كلها ، وهي حالة إذا وصل إليها الإنسان ، تتخلص النفس في أثنائها من الشعور والإحساس ، ومن الرغبات والشهوات ، ومن كافة الصفات البشرية ، فتضمحل الكائنات في نظره ، حتى يصبح لا يشاهد فيها شيئًا ، وهي غاية لما يصبو إليه الزاهد البوذي بعد مجاهداته مجاهدة شاقة طويلة ، إن « نرفانا » بهذا المعنى المذكور يشبه إلى حد كبير ما ذهب إليه الصوفية من فكرة الفناء ، كما سأبينه في هذه الفقرات الآتية :

١ ـ معنى الفناء عند الصوفية :

كثر الكلام في الفناء عند الصوفية في كتبهم وفي أشعارهم وتعددت دلالة هذه الكلمة ومعانيها ، وقد أشار السهروردي إلى ذلك فيقول :

« إن أقاويل الصوفية في الفناء كثيرة ، فبعضها إشارة إلى فناء المخلوقات وبقاء الموافقات ، وبعضها يشير إلى زوال الرغبة ، والحرص ، والأمل ، وبعضها إشارة إلى فناء الأوصاف المذمومة ، وبقاء الأوصاف المحمودة ، وبعضها إشـارة إلى حقيـقة الفنـاء المطلق ، وكل هـذه الإشارات فيها معنى

الفنـاء من وجه ، ولكن الفنـاء المطلق هو ما يستولى من أمر الحق سبحـانه وتعالى وعلى العبـد ، فيغلب كـون الحـق سبحانه وتعالى على كـون العبـد »[١] .

ولتوضيح معنى الفناء عند القوم نورد فيما يلي طائفة من كلامهم ، يقول الكلاباذي :

« الفناء هو الغيبة عن الأشياء رأسًا »[٢] .

ويقول أيضًا : « الفناء هو أن يفنى عنه الحظوظ ، فلا يكون له في شيء في ذلك حظ ، ويسقط عنه التمييز ، فناء عن الأشياء كلها شغلاً بما فنى به ، كما قال عامر بن عبد الله[٣] :

« ما أبالي امرأة رأيت أم حائطًا »[٤] .

ويقول الجنيد وقد سئل عن الفناء فقال : « الفناء استعجام الكل عن أوصافك ، واشتغال الكل منك بكليته »[٥] .

وسئل أبو يزيد البسطامي عن متى يتحقق الرجل بحقيقة المعرفة ؟

فقال : « في الوقت الذي يفنى تحت اطلاع الحق ، ويبقى على بساط الحق بلا نفس ولا خلق »[٦] .

---

(١) « عوارف المعارف » (٢٤٧) .
(٢) «التعرف لمذهب أهل التصوف » (١٥٠) .
(٣) هو عامر بن عبد الله المعروف بابن عبد قيس العنبري ، تابعي ، قال أبونعيم : هوأول من عرف بالنسك من عباد التابعين بالبصرة ، ومن أقواله في الزهد : « لذات الدنيا أربعة المال ، والنساء ، والنوم ، والطعام ، فالمال والنساء فلا حاجة لي فيهما وأما النوم والطعام فلا بدّ لي منهما ، فوالله لأضربن بهما جهدي » ، توفي نحو (٥٥هـ) ، انظر ترجمته في « حلية الأولياء » (٢/ ٨٢-٩٤) ، و« الأعلام » (٣/ ٢٥٢) .
(٤) المصدر السابق (١٤٧) وروى أبو نعيم هذا الكلام أيضًا عن المعروف الكرخي انظر « حلية الأولياء » (٨/ ٣٦٦) .
(٥) « اللمع » (٢٨٥) وأيضًا « عوارف المعارف » (٢٤٧) .
(٦) « في التصوف الإسلامي وتاريخه » (٢٤) نقلاً عن « تذكرة الأولياء » للعطار (١/ ١٦٨) .

وروىٰ أبو نصر السراج أن طائفة من الصوفية فسروا الفناء بفناء الكلية ، أي فناء البشرية ، فمنهم من ترك الطعام والشراب ، وتوهّم أن البشرية هي القالب ، والجثة إذا ضعفت زالت بشريتها ، فيجوز أن يكون موصوفًا بصفات الإلهية[١] .

وإلىٰ مثل هذا المعنىٰ ذهب كثير من الصوفية كابن الفارض[٢] وغيره ، حيث وصف الفناء بأنه الحال التي تتجرد فيها النفس عن رغباتها ، وميولها ، وبواعثها، بحيث تتعلطل إرادتها وتموت ، فإذا ماتت الإرادة ، أصبحت النفس طوع الإرادة الإلهية[٣] .

وهناك أقوال أخرىٰ كثيرة لم تختلف كثيراً عن المعنىٰ الذي أوردناه .

٢ ـ الفناء غاية في التصوف :

يعتبر الفناء غاية في التصوف ، وآخر مرحلة من مراحل الطريق الصوفية ، والهدف الأسمىٰ للرياضة والمجاهدة ، لأن حالة الفناء لا يصل إليها إلا من تحققت لديه المعرفة[٤] ، وتخلّص من جميع علائق المادة ، إذ هو في هذه

---

(١) انظر « اللمع » (٥٤٣) .

(٢) هو شرف الدين أبو حفص عمر السعدي الهاشمي المعروف بابن الفارض ، ولد بالقاهرة (سنة ٥٧٦هـ) ، من أشعر المتصوفين ، ويلقب بسلطان العاشقين ، في شعره فلسفة ، تتصل بالاتحاد ووحدة الوجود ، كان يكثر العزلة في واد بعيد عن مكة ، وفي تلك الحال نظم أكثر شعره ، وروي أنه كان يرقص ويتواجد حينما يغنون له بالدف والشبابة ، انظر ترجمته في « جمهرة الأولياء» لأبي الفيض المنوفي (٢/ ٢٤٥ـ٢٤٨) ، و« الأعلام » (٥/ ٥٥ ، ٥٦) .

(٣) قارن « في التصوف الإسلامي وتاريخه » (١٢٢) .

(٤) المعرفة في اصطلاح الصوفية هو العلم بلا واسطة ، والناشئ عن الكشف والشهود ، وهي من أخص صفاتهم ، وبهذا المعنىٰ قال ذو النون المصري « حقيقة المعرفة اطلاع الحق علىٰ الأسرار بمواصلة لطائف الأنوار » ، « كشف المحجوب » (٢/ ٥١٦) ، وقيل له : بم عرفت ربك ؟ قال : عرفت ربي بربي ولولا ربي لما عرفت ربي .
« الرسالة القشيرية » (٢/ ٦٠٦) وبهذا المعنىٰ أيضًا قال أبو سليمان الداراني : إن الله تعالىٰ يفتح للعارف وهو علىٰ فراشه ما لا يفتح لغيره وهو قائم يصلي ، « الرسالة القشيرية » (٢/ ٦٠٧) .

الحالة يصل إلىٰ درجة الغيبوبة الكاملة ، ورؤية الحق سبحانه وتعالىٰ ، والاتحاد به ، والتفاني فيه ، كما يزعمون .

ولهذا لما سئل أحد الصوفية : متىٰ يشهد العارف الحق سبحانه ؟ قال : «إذا بدا الشاهد وفنىٰ الشواهد (أي الإدراكات) وذهب الحواس واضمحل الإخلاص »[١] .

وقيل لأبي بكر الواسطي[٢] : بأي شاهد ينبغي أن يكون العبد في حركات ما يسعىٰ ؟

قال : بشاهد الفناء عن حركاته التي هي كائنة بغيره[٣] .

وقال الهجويري بعد سوقه الأقاويل في الفناء :

« وحقيقة هذا كله هو أن فناء العبد عن وجوده يكون برؤية جلال الحق وكشف عظمته ، حتىٰ ينسىٰ الدنيا والعقبىٰ في غلبة جلاله ، وتبدو الأحوال والمقامات حقيرة في نظر همته ، وتتلاشىٰ الكرامات في حاله ، فيفنىٰ عن العقل والنفس »[٤] .

وعلىٰ هذا فإن الفناء عند القوم يعتبر من أرقىٰ الأحوال والمقامات ، لا يصل إليه إلا من تخلص من مشقة المجاهدة ، ومن قيد المقامات ، وتغير الأحوال[٥] ، وهذا هو باب الولاية ومقامها عندهم .

---

(١) « الرسالة القشيرية » (٢/ ٦٠٤) .

(٢) سبقت ترجمته .

(٣) « التعرف لمذهب أهل التصوف » (١٦٨) .

(٤) « كشف المحجوب » (٢/ ٤٨٦) .

(٥) والمراد بالمقامات عند الصوفية ، هو ما يتحقق به العبد بمنازلته من الآداب ، مما يتوصل إليه بنوع تصرف ، ويتحقق به بضرب تطلب ومقاساة تكلف ، فمقام كل أحد موضع إقامته عند ذلك ، وما هو مشتغل بالرياضة له ، وشرطه أن لا يرتقي من مقام إلىٰ مقام آخر ، ما لم يستوف أحكام ذلك المقام ، والمقامات كثيرة ، منها التوبة ، والورع ، والزهد ، والصبر ، والفقر ، والشكر ، والتوكل ، والرضا ، ومنها أيضًا المجاهدة ، والخلوة ، والعزلة ، والصمت ، والجوع ، وترك الشهوة ، أما الأحوال فهي عبارة عن معنىٰ يرد علىٰ القلب ، من غير تعمد =

وفي هذا المعنىٰ قال أبو علي الجوزجاني[١] :

« الولي هو الفاني في حاله ، الباقي في مشاهدة الحق سبحانه ، تولىٰ الله سياسته ، فتوالت عليه أنوار التولي ، لم يكن له عن نفسه أخبار ، ولا مع غير الله قرار »[٢] .

وقال أبو سعيد الخراز[٣] :

« إذا أراد الله تعالىٰ أن يوالي عبداً من عبيده ، فتح عليه باب ذكره ، فإذا استلذ الذكر ، فتح عليه باب القرب ، ثم رفعه إلىٰ مجالس الأنس به ، ثم أجلسه علىٰ كرسي التوحيد ، ثم رفع عنه الحجب ، وأدخله دار الفردانية ، وكشف له عن الجلال والعظمة ، فإذا وقع بصره علىٰ الجلال والعظمة ، بقي بلا هو ، فحينئذ صار العبد زمناً فانياً ، فوقع في حفظه سبحانه ، وبرئ من دعاوي نفسه»[٤] .

= منهم ، ولا اجتلاب ، ولا اكتساب لهم ، من طرب ، أو بسط ، أو قبض ، أو قرب ، أو أنس ، أو شوق ، أو انزعاج ، أو هبة ، أو احتياج ، وقد تداولت ألسنة الشيوخ الصوفية أن الأحوال مواهب ، والمقامات مكاسب ، والأحوال مواجيد ، والمقامات طرق المواجيد .
انظر : « الرسالة القشيرية » (١/ ٢٠٤ ، ٢٠٦) و« عوارف المعارف » (٢٢٥ ، ٢٢٧) وما بعدها وأيضاً « كشف المحجوب » (٢/ ٤٠٨-٤١١) .

(١) اسمه الحسن بن علي من كبار مشايخ خراسان ، له التصانيف المشهورة ، تكلم في علوم الآفات ، والرياضات ، والمجاهدات ، صحب محمد بن علي الترمذي (ت٢٨٥هـ) ومحمد بن الفضل (ت٣١٩هـ) وهو قريب السن منهما ، انظر ترجمته في « طبقات الصوفية » (٢٣٦) و«حلية الأولياء » (١٠/ ٣٥٠) و« كشف المحجوب » (١/ ٣٥٩) .

(٢) « الرسالة القشيرية » (٢/ ٥٢٢) وأيضاً « كشف المحجوب » (٢/ ٤٥١) .

(٣) هوأبو سعيد أحمد بي عيسىٰ الخراز ، من أهل بغداد ، صحب ذا النون المصري ، وسرىٰ السقطي ، وبشر بن الحارث ، وغيرهم ، وهو من أئمة القوم ، وجلة مشايخهم ، قيل إنه أول من تكلم في علم الفناء والبقاء ، توفي (سنة ٢٧٩هـ) ، وقيل (٢٧٧هـ) ، انظر ترجمته في «طبقات الصوفية» (٢٢٨) ، و« الرسالة القشيرية » (١/ ١٤٠) ، و« كشف المحجوب » (١/ ٣٥٥) ، و« صفة الصفوة » (٢/ ٤٣٥) ، و« الأعلام » (١/ ١٩١) .

(٤) « الرسالة القشيرية » (٢/ ٥٢٤ ، ٥٢٥) .

وقال الهجويري :

« وكل مشايخ الطريقة مجمعون على أنه حين يتخلص العبد من قيد المقامات ، ويخلو من كدر الأحوال ، وينفصل عن جميع الأوصاف . . . يغيب حاله عن إدراك العقول ، ويتنزه وقته عن تصرف الظنون ، فلا يكون لحضوره ذهاب ، ولا لوجوده أسباب . . . وحين يصل إلى هذه الدرجة ، يصير فانيًا في الدنيا والعقبى ، وربانيًا في جوشن الإنسانية ، ويستوي لديه الذهب والمدر ، ويسهل عليه ما يصعب على الخلق من حفظ أحكام التكليف[1] .

هذا وقد اختلف القوم في الفاني ، هل يردّ إلى بقاء الأوصاف أم لا ؟ فأثبت بعضهم أنه يردّ ، لأن دوام الفناء يوجب تعطيل الجوارح عن أداء المفروضات ، وعن حركاتها في أمور معاشها ومعادها ، وأنكر آخرون من الكبار والمحققين ، منهم الجنيد ، والخراز ، والنوري ، وغيرهم[2] .

قال الكلاباذي : فإن رد الفاني إلى الأوصاف لم يرد إلى أوصاف نفسه ، ولكن يقام مقام البقاء بأوصاف الحق [3] .

٣ ـ تقسيم الفناء عند الصوفية :

قسّم القشيري الفناء إلى فنائين ، هما فناء العبد عن أفعاله الذميمة ، وأحواله الخسيسة ، ويكون بعدم هذه الأفعال ، وفناؤه عن نفسه وعن الخلق ، بزوال إحساسه بنفسه وبهم ، فإذا فنى عن الأفعال ، والأخلاق ، والأحوال ، فلا يجوز أن يكون ما فني عنه من ذلك موجوداً ، وإذا قيل فني عن نفسه وعن الخلق ، فنفسه موجودة ، والخلق موجودون ، ولكنه لا علم له بهم ، ولا به ، ولا إحساس ، ولا خبر ، فتكون نفسه موجودة ، والخلق موجودين ، ولكنه

(١) « كشف المحجوب » (١/ ٢٢٩ ، ٢٣٠) .
(٢) قارن « التعرف لمذهب أهل التصوف » (١٥٢) .
(٣) المصدر السابق (١٥٦) .

غافل عن نفسه ، وعن الخلق أجمعين ، غير محسّ بنفسه ولا بالخلق[١] .

وجعل القشيري فناء العبد على ثلاث مراحل : فالأول فناؤه عن نفسه وصفاته ، ببقائه بصفات الحق ، ثم فناؤه عن صفات الحق بشهوده الحق ، ثم فناؤه عن شهود فنائه ، باستهلاكه في وجود الحق[٢] .

أما السهروردي فقسم الفناء أيضًا إلى قسمين ظاهر وباطن ، ويقول : « أما الفناء الظاهر فهو أن يتجلى الحق سبحانه وتعالى بطريق الأفعال ، ويسلب عن العبد اختياره وإرادته ، فلا يرى لنفسه ولا لغيره فعلاً إلا بالحق ، ثم يأخذ في المعاملة مع الله تعالى بحسبه ، حتى سمعت أن بعض من أقيم في هذا المقام من الفناء ، كان يبقى أيامًا لا يتناول الطعام والشراب[٣] .

والفناء الباطن ، أن يكاشف تارة بالصفات ، وتارة بمشاهدة آثار عظمة الذات ، فيستولي على باطنه أمر الحق ، حتى لا يبقى له هاجس ولا وسواس»[٤] .

٤ ـ حالات الفناء كما وصفها الصوفية :

وصف الصوفية من وصل إلى الفناء بحالات تشبه حالات النرفانا أذكر منها : ـ

١ ـ أنه لا يملك شيئًا ولا يملكه شيء .

وعلى هذا المعنى قال أبو الحسين النوري « الصوفي لا يملك ولا يملك » .

قال الهجويري تعليقًا على هذا القول :

(١) انظر « الرسالة القشيرية » (١/ ٢٢٩ ، ٢٣٠) .

(٢) انظر المصدر السابق (١/ ٢٣١) .

(٣) وهذا يشبه ما ذكر في كتاب « تري بيتاكا » من أن بوذا عندما نال نرفانا تحت الشجرة كان يبقى أيامًا لا يتناول الطعام والشراب ، وقد رويت مثل هذه الرواية عن كثير من الرهبان البوذيين القدماء ، انظر « تري بيتاكا » (سوتان) (٣٢١) و (أبيدارما) (٦٥٨ ، ٦٥٩) .

(٤) « عوارف المعارف » (٢٤٧) .

« وهذا عبارة عن عين الفناء ، ففاني الصفة لا يكون مالكًا ولا مملوكًا ، لأن صحة الملك تصح على الموجودات ، والمراد من هذا القول أن الصوفي لا يملك أي شيء من متاع الدنيا وزينة العقبىٰ ، وهو نفسه لا يكون تحت حكم أو ملك نفسه ، وهو يقطع سلطان إرادته عن الغير ، ليقطع الغير عنه طمع العبودية»[١] .

٢ ـ أنه غاب عن الصفات البشرية ، وعن الأشياء كلها .

وفي هذا المعنىٰ قال أبو يزيد البسطامي :

« للخلق أحوال ، ولا حال للعارف ، لأنه محيت رسومه ، وفنيت هويته بهوية غيره ، وغيبت آثاره بآثار غيره »[٢] .

وقال الكلاباذي :

« إن الفناء هو الغيبة عن صفات البشرية ، بالحمل الموله من نعوت الإلهية»[٣] .

وقد وصف الفاني بأنه لا يشهد نفسه ولا الخلق ، وهو باق لدوامه مع الحق، وهو جامعه به ، وهو فان عما سواه ، مفارق لهم ، وهو غائب ، سكران، لزوال التمييز عنه بين الآلام والملاذ ، وبمعنىٰ أن الأشياء تتوحد له ، فلا يشهد مخالفة[٤] .

وفي هذا المعنىٰ أيضًا قال الهجويري :

« كل أوصاف الآدمي آفة ، وعندما تنتفي الآفة يكون ذلك فناء الصفة »[٥] .

وقال : « إذا فنىٰ العبد عن آفة الأوصاف في حالة وجود الأوصاف بقي في

---

(١) « كشف المحجوب » (١/ ٢٣٣) .

(٢) « الرسالة القشيرية » (٢/ ٦٠٣) و« الكواكب الدرية » لعبد الرؤوف المناوي (١/ ٢٤٧) .

(٣) « التعرف لمذهب أهل التصوف » (١٥٠) .

(٤) انظر المصدر السابق (١٥١/ ١٥٢) .

(٥) « كشف المحجوب » (١/ ٢٢٥) .

فناء المراد ببقاء المراد ، فلا يكون له قرب أو بعد ، ولا تبقىٰ له وحشة أو أنس ، ولا يكون له صحو ، أو سكر ، ولا فراق ، أو وصال ، ولا طمس ، أو اصطلام، ولا أسماء وأعلام ، ولا سمات وأرقام » .

ويقول أحد المشايخ في هذا المعنىٰ :

وطاح مقامي والرسوم كلاهمـــا　　فلست أرى في الوقت قرباً ولا بعـداً

فنيت به عني فبــان لي الـهـدى　　فهذا ظهور الحق عند الفناء قصداً[١]

ومن هذا المعنىٰ في الفناء ، ذهب بعض الصوفية إلىٰ أن العالم ما هو إلا خيال ، وليس له حقيقة ، وهو مذهب بوذا كما سبق بيانه .

ومن الأمثلة علىٰ هذا ما قال عبد الكريم الجيلي[٢] في كتابه « الإنسان الكامل »[٣] .

إن الخيال حياة روح العالم　　هو أصل تيك وأصله ابن الآدم

ليس الوجود سوى خيال عند من　　يدري الخيال بقدرة المتعاظم

فالحسّ قبل بدوّه لمخيَّل　　لك وهو أن يمضي كحلم النائم

فكذاك حال ظهوره في حسّنا　　باق على أصل له بتلازم

لا تغترّ بالحسّ فهو مخيَّل　　وكذلك المعنى وكل العالم

وكذلك الملكوت والجبروت والـ　　ـلا هوت والناسوت عند العالم

لا تحـقـرن قـُدر الخيال فإنـــه　　عين الحقيقة للوجود الحاكم

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٤٨٢) .

(٢) هوعبد الكريم بن إبراهيم بن عبد الكريم الجيلي ابن سبط الشيخ عبد القادر الجيلاني ، من علماء المتصوفين ، وأصحاب الاتحاد ووحدة الوجود ، له كتب كثيرة ، منها « الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل » و« المناظر الإلهية » ، و« شرح مشكلات الفتوحات المكية » توفي (٨٠٥ هـ) « الأعلام » (٤/ ٥٠ ، ٥١) .

(٣) (٢/ ٤٠) .

ولا يخفى أن هذا البيت الأخير صريح في وحدة الوجود ، وفي أن الله ما هو إلا خيال ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ومن الأمثلة أيضًا ما أورده الكلاباذي من حكاية أحد الصوفية أنه كان لا يكلم الناس ، وكان يأوي إلى الخرابات في سواد الكوفة ، وكان لا يأكل إلا المباح والقمامات .

فقيل له : ما الذي منعك عن الكلام ؟

فقال : « يا هذا ، الكون توهم في الحقيقة ، ولا تصح العبارة عما لا حقيقة له ، والحق تقصر عنه الأقوال دونه ! فما وجه الكلام » ؟[١]

٣ ـ إنه في حالة تخلو من الهمم أو الاشتغال بما ينفع أو يضر .

وفي هذا المعنى قال الكلاباذي :

« الفاني عن نفسه يفعل الأشياء لا لجر منفعة إلى نفسه ، ولا لدفع مضرة عنها ؛ بل على معنى أنه لا يقصد في فعله جرّ المنفعة ودفع المضرة ، قد سقطت عنه حظوظ نفسه ومطالب منافعها ، بمعنى القصد والنية »[٢] .

ومن هنا زعم الصوفية أن العبادة الحقة هي ما كانت دون طلب العوض من الله ، أي تكون متجردة من الرغبة والرهبة ، ومن الخوف والرجاء .

قال الكلاباذي : « ليعبدوه بالرق لا بالطمع »[٣] .

ومن الأمثلة على هذا ما رواه أبو نعيم عن أبي سليمان قال :

كان عطاء السلمي[٤] قد اشتد خوفه ، وكان لا يسأل الله الجنة أبدًا ، فإذا

---

(١) « التعرف لمذهب أهل التصوف » (١٧٦) .

(٢) المصدر السابق (١٤٨) .

(٣) المصدر السابق (١٦٨) .

(٤) قال ابن الجوزي : أدرك عطاء السلمي أيام أنس بن مالك ، ولقي الحسن ، ومالك بن دينار ، وخلقًا من تلك الطبقة ، وشغلته العبادة عن الرواية ، ومما روي عنه أنه مكث أربعين سنة على فراشه لا يقوم من الخوف ولا يخرج ، انظر « صفة الصفوة » (٣/ ٣٢٩ـ٣٣٠) .

ذكرت عنده الجنة قال : « نسأل الله العفو »[١] .

وقد سبقته رابعة العدوية (ت١٣٥هـ) بهذا الزعم إذ قالت :

« ما عبدتك خوفًا من نارك ، ولا طمعًا في جنتك ، وإنما عبدتك لذاتك»[٢] .

ولا شك أن هذه العقيدة غير صحيحة لأنها مخالفة لما في القرآن كقوله تعالىٰ : ﴿ وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[٣] .

وكذلك قوله تعالىٰ :

﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾[٤] .

حيث وصف الله في هذه الآية حال الأنبياء في عبادتهم ودعائهم ، والأنبياء هم أكمل الناس عقيدة ، وإيمانًا ، وحالاً .

٤ ـ أنه يظهر له بعض الخوارق والكرامات ، كالسير علىٰ الهواء ، والمشي علىٰ الماء ، وكلام البهائم ، وطيّ الأرض ، وظهور الشيء في غير موضعه ووقته[٥] ، وكالبقاء أيامًا بدون طعام وشراب ، كما أشرت إليه من قبل في كلام السهروردي ، وما أشبه ذلك من الخوارق التي ملأت كتبهم .

ويعتقدون أن مثل هذه الخوارق تظهر لهم بعد صفاء النفس من الكدورات البشرية ، بالرياضة ، والمجاهدة ، والتغلب علىٰ الأحوال والمقامات ، ووصولها إلىٰ درجة الفناء والعرفان ، وعلىٰ هذا يقول الإسنوي[٦] :

---

(١) « حلية الأولياء » (٦/ ٢١٧) وأيضًا (٩/ ٢٦٦) وروي مثل هذا عن المعروف الكرخي ، انظر «صفة الصفوة» (٢/ ٣٢٤) .

(٢) « هذه هي الصوفية » لعبد الرحمن الوكيل (١٥٠) .

(٣) الأعراف : (٥٦) .

(٤) الأنبياء : (٩٠) .

(٥) أشار الكلاباذي إلىٰ هذه الخوارق في كتابه « التعرف لمذهب أهل التصوف » (٨٧ ، ٨٨) .

(٦) هو عماد الدين محمد بن الحسن بن علي بن عمر الإسنوي ولد بإسنا ، وتفقه بها وبالقاهرة والشام ، له كتب منها « حياة القلوب في كيفية الوصول إلىٰ المحبوب » في التصوف ، و« المعتبر في علم النظر والجدل » ، توفي بالقاهرة (سنة ٦٧٤ هـ) « الأعلام » (٦/ ٨٧) .

« إنّ العبد ينتقل في الأحوال والمقامات حتىٰ يصير إلىٰ نعت الروحانيين فتظهر عليه الكرامات »[١] .

وقد أشار البيروني عند مقارناته الجميلة بين تعاليم الهندوسية والصوفية إلىٰ أن العارف إذا وصل إلىٰ مقام المعرفة فإنهم يزعمون أنه تحصل له روحان : قديمة لا يجري عليها تغير واختلاف ، بها يعلم الغيب ويفعل المعجز ، وأخرىٰ بشرية للتغير والتكوين[٢] .

والحكايات الصوفية في الخوارق والكرامات كثيرة لا تحصىٰ سأورد نماذج منها علىٰ سبيل المثال :

يحكىٰ عن يحيىٰ بن معاذ أنه قال لأبي يزيد البسطامي : يا سيدي حدثني بشيء. فقال : أحدثك بما يصلح لك أدخلني في الفلك الأسفل ، فدورني في الملكوت السفلي ، وأراني الأرضين ، وما تحتها إلىٰ الثرىٰ ، ثم أدخلني في الفلك العلوي ، فطوّف بي في السماوات ، وأراني ما فيها من الجنان إلىٰ العرش ثم أوقفني بين يديه ، فقال : سلني أي شيء رأيت حتىٰ أهب لك؟ فقلت : يا سيدي ما رأيت شيئًا استحسنته فأسألك إياه ، فقال : « أنت عبدي حقًا تعبدني لأجلي صدقًا ، لأفعلن بك ، ولأفعلن فذكر أشياء »[٣] .

هذا هو معراج أبي يزيد الذي اعتقد القوم أنه من أعظم كراماته ، وقد علق الغزالي علىٰ هذه الحكاية بقوله :

« وأمثال هذه المكاشفات لا ينبغي أن ينكرها المؤمن لإفلاسه عن مثلها»[٤] .

ومن الخوارق الصوفية ما روىٰ القشيري أن لإبراهيم بن أدهم صاحبًا يقال

---

(١) « حياة القلوب في كيفية الوصول إلىٰ المحبوب » مطبوع علىٰ هامش « قوت القلوب » لأبي طالب المكي (٢/ ٥) .

(٢) كتاب البيروني في « تحقيق ما للهند » (٥٢ ، ٥٣) .

(٣) « إحياء العلوم الدين » للغزالي (٤/ ٣٥٦) وقد وردت هذه الحكاية في « اللمع » (ص٤٦١) مع وجود الاختلاف في العبارات .

(٤) المصدر السابق (٤/ ٣٥٧) .

له يحيىٰ ، وكان يتعبد في غرفة ليس لها سلّم ولا درج ، فكان إذا أراد أن يتطهر يجيء إلىٰ باب الغرفة ويقول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، ويمرّ في الهواء كأنه طير ، ثم يتطهر ، فإذا فرغ يقول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، ويعود إلىٰ غرفته[١] .

ويروىٰ أن الفضيل بن عياض[٢] كان علىٰ جبل منىٰ ، فقال :

« لو أن وليًا من أولياء الله أمر هذا الجبل أن يميد لماد »[٣] .

قال : فتحرك الجبل ، فقال : اسكن لم أردك بهذا . فسكن الجبل[٤] .

ويروىٰ عن صوفي آخر كان أراد أن يتناول شيئًا من الهواء ليستنجي به ، فكان جوهراً ، فاستنجىٰ به وطرحه[٥] .

وروىٰ أبو نصر السراج عن أحد الصوفية كان راكبًا حماره ، وكان يؤذيه الذباب ، فيطأطئ رأسه ، فضرب بخشبة كانت في يده ، فرفع الحمار رأسه إليه وقال : اضرب فإنك هو ذا تضرب علىٰ رأسك[٦] .

وحكىٰ عن ابن الفارض طيه لمسافة الأرض إذ قال :

« شرعت في السياحة في أودية مكة المكرمة وجبالها ، وكنت أستأنس بالوحوش ليلاً ونهاراً ، وأقمت بوادٍ كان بينه وبين مكة سيرة طويلة ، وكانت ييسرها الله لي كل يوم وليلة ، وأصلي في الحرم الشريف الصلوات الخمس[٧] .

---

(١) « الرسالة القشيرية » (٢/ ٦٨٥) .

(٢) هو الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر التميمي ، خراساني من ناحية مرو ، توفي (سنة ١٨٧هـ) انظر ترجمته في « طبقات الصوفية » (٦) ، و« الرسالة القشيرية » (١/ ٦٣) ، و« حلية الأولياء » (٨/ ٨٤) ، و« كشف المحجوب » (١/ ٣٠٨) ، و« صفة الصفوة » (٢/ ٢٣٧) ، و«جمهرة الأولياء» (٢/ ١٣٢) ، و« الأعلام » (٥/ ١٥٣) .

(٣) أي تحرك .

(٤) « الرسالة القشيرية » (٢/ ٦٨٦) .

(٥) المصدر السابق (٢/ ٦٧٥) .

(٦) « اللمع » (٣٩١) .

(٧) « جمهرة الأولياء » (٢/ ٢٤٧) .

قال ابن عطاء الله السكندري[١] :

سمعت شيخنا أبا العباس[٢] ـ رضي الله عنه ـ يقول :

« الطي على قسمين طي أصغر وطي أكبر ، فالطي الأصغر لعامة هذه الطائفة ، أن تطوى لهم الأرض من مشرقها إلى مغربها في نفس واحد ، والطي الأكبر طي أوصاف الناس »[٣] .

ومن الخوارق الصوفية أيضًا ما حدث عبد الوهاب الشعراني[٤] عن نفسه ، أنه كشف الحجاب عنه حتى سمع تسبيح الجمادات والحيوانات من البهائم وغيرها ، وسمع تسبيح العمد ، والحيطان ، والحصى ، والبلاط ، وسمع من يتكلم في أطراف مصر ، وفي سائر أقاليم الأرض ، وسمع تسبيح السمك في البحر المحيط[٥] .

وغير هذا كثير[٦] .

هذا وإن كنا لا ننكر كرامات الأولياء لأنها ثابتة في الكتاب والسنة[٧] ، إلا

---

(١) هو أبو الفضل تاج الدين بن عطاء الله السكندري متصوف شاذلي له من المؤلفات كتاب «الحكم» ، وكتاب « لطائف المنن » ، و« مفتاح الفلاح » وغير ذلك ، توفي (سنة٧٠٧هـ) وقيل (٧٠٩هـ) ، انظر « جمهرة الأولياء » (٢/ ٢٣٦ ، ٢٣٧) ، و« الأعلام » (١/ ٢٢١) .

(٢) هو أحمد أبو العباس المرسي من أكابر المتصوفة ، ومن أجلّ من أخذ الطريق عن أبي الحسن الشاذلي توفي (سنة٦٩٠هـ) ، انظر « جمهرة الأولياء » (٢/ ٢٣١ـ٢٣٧) .

(٣) « لطائف المنن » (١٢٣) .

(٤) هو عبد الوهاب الشعراني بن أحمد بن شهاب الدين علي الشعراني الأنصاري الشاذلي ، من علماء المتصوفين ، ولد بمصر (سنة ٨٩٨ هـ) ، وله مؤلفات كثيرة ، منها « الطبقات » ، و«الميزان»، و« لطائف المنن » ، وغير ذلك ، توفي بالقاهرة (سنة ٩٧٣ هـ) انظر « جمهرة الأولياء » (٢/ ٢٦١ ، ٢٦٢) ، و« الأعلام » (٤/ ١٨٠) .

(٥) « لطائف المنن » لعبد الوهاب الشعراني (١/ ١٧١) .

(٦) انظر على سبيل المثال « الرسالة القشيرية » (٢/ ٦٧٣ ـ ٧١٣) و« كشف المحجوب » (٢/ ٤٦٤ ـ ٤٧٣) و« تلبيس إبليس » (٣٧٧ـ٣٨٧) و« هذه هي الصوفية » (١١٦ ـ ١٢٣) .

(٧) أما في الكتاب فكقصة صاحب موسى (الخضر) في علمه بحال الغلام (الكهف٨٠ ، ٨١) وقصة أهل الكهف (الكهف ٩ـ٢٦) وقصة مريم العذراء (آل عمران ٣٧) وأما في السنة فكقصة ثلاثة نفر من الأمم السابقة انطلقوا حتى آواهم المبيت إلى غار فانحدرت صخرة كبيرة من الجبل فسدت عليهم مدخل الغار فدعوا الله بصالح أعمالهم فانفجرت الصخرة بقدرة الله «صحيح البخاري» (٢/ ٣٥) كتاب الإجارة باب من استأجر أجيراً فترك أجره حديث (رقم ٢٢٧٢) .

أننا نقول : إن بعض هذه الأمور الخارقة ليست من الكرامات التي أكرم الله بها الصالحين ، وإنما هي أحوال شيطانية[١] لبّسها إبليس على المتدينين بما يشبه الكرامات ، لأن مثل هذه الخوارق ظهرت على أيدي كثير من السحرة والمشعوذين والكهنة ، وظهرت على أصحاب القوة الروحية من البوذيين وغيرهم كما ذكرنا .

وهذا يدل على أن الخوارق ليست كلها من الكرامة ، وإنما هي ظواهر يشترك في إتيانها المؤمن والكافر ، والصالح والطالح على السواء ، فيجب علينا أن نعرضها على الكتاب والسنة قبل الحكم ، لنرى أهي موافقة للشرع أو مخالفة له ، ومن ثم نحكم بصحتها أو بطلانها .

يقول الإمام الشوكاني :

« وقد يظهر شيء مما يظن أنه كرامة من أهل الرياضة وترك الاستكثار من الطعام والشراب على ترتيب معين وقانون معروف ، حتى ينتهي حاله إلى أن لا يأكل إلا في أيام ذوات العدد ، ويتناول بعد مضي أيام شيئًا يسيراً ، فيكون بسبب ذلك بعض صفاء من الكدورات البشرية ، فيدرك ما لا يدركه غيره ، وليس هذا من الكرامات في شيء ، ولو كان من الكرامات الربانية والتفضلات الرحمانية ، لم يظهر على أيدي أعداء الله ، كما يقع كثيراً من المرتاضين من كفرة الهند الذين يسمونهم الآن (الجوكية)»[٢] .

وقد أكد شيخ الإسلام ابن تيمية بطلان مثل هذه الأحوال حين يقول :

« فإذا كانت الشياطين تأتي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لتؤذيهم ، وتفسد عليهم عبادتهم ، فيدفعهم الله تعالى بما يؤيد به أنبياءه من الدعاء ، والذكر ، والعبادة ، والجهاد باليد ، فكيف مَن هو دون الأنبياء؟! »[٣] .

---

(١) انظر بعض هذه الأحوال في « تلبيس إبليس » (٣٧٨) وما بعدها .
(٢) « قطر الولي على حديث الولي » تحقيق الدكتور إبراهيم إبراهيم هلال (٢٥٣) .
(٣) انظر « مجموع الفتاوي » (١/ ١٧١) .

٥ ـ الفرق بين الفناء و« نرفانا » :

تبين مما سبق أوجه كثيرة في التشابه بين الفناء و« نرفانا » كما تبين أيضًا أن هناك فرقًا بينهما ، وهو أن الفناء يعقبه الاتحاد بالله ، وشعور الفاني بأنه هو والله واحد ، وأنه باقٍ بقاءً جديدًا في الألوهية .

وعلىٰ هذا قال الجنيد سيد هذه الطائفة وإمامهم :

« إذا فني الفناء عن أوصافه أدرك البقاء بتمامه »[١] .

وقال أبو يزيد البسطامي :

« غبت عن الله ثلاثين سنة ، وكانت غيبتي عنه ذكرىٰ إياه ، فلما خنست عنه وجدته في كل حال حتىٰ كأنه أنا »[٢] .

وروي عنه أيضًا قوله :

« إني انسلخت من نفسي كما تنسلخ الحية من جلدها ، ثم نظرت إلىٰ ذاتي فإذا أنا هو »[٣] .

أما « نرفانا » فإن فناءها فناء تام ، مطلق ، نهائي ، في النفس الكلية ، حيث لا يبقىٰ وجود ذاتي للفاني ، ولا يبقىٰ في نفسه ولا في تفكيره شيء لا إله ولا غيره .

وعلىٰ هذا يمكن القول بأن الفرق بينهما هو في نقطة النهاية فقط ، فنهاية الفناء الوصول إلىٰ حضرة الربوبية ، أو مشاهدة الذات والاتحاد به ، أما نهاية «نرفانا» فهي الفراغ من كل شيء .

هذا مع الاتفاق بين الصوفية والبوذية في أن الوصول إلىٰ هذه النهاية مرتبة الكمال وسعادة النفس .

---

(١) « اللمع » (٢٨٥) .
(٢) « حلية الأولياء » (١٠/ ٣٥) .
(٣) كتاب البيروني في « تحقيق ما للهند » (٦٦ ، ٦٧) .

٦ ـ بعض الحكايات الصوفية في الفناء :

يحكي الهجويري عن أحد شيوخه أبي العباس أحمد بن محمد الشقاني[١] أنه قد انقطع عن كل الموجودات ، ولم يكن يفيد منه غير الإمام المحقق لدقة عباراته ، وكان طبعه دائمًا ينفر من الدنيا والعقبىٰ ، وكان يصيح قائلاً : « أشتهي عَدَمًا لا عود فيه » وكان يقول بالفارسية : « لكل آدمي غاية مطلوب ، ولابد لي أيضًا من غاية مطلوب ، وأنا أعلم يقينًا أن ذلك لن يتحقق ، لأن غايتي هي أن يحملني الله تعالىٰ إلىٰ عدم ليس له وجود قط ، لأن ما هو موجود من المقامات والكرامات محل الحجاب والبلاء ، وقد صار الآدمي عاشقًا لحجابه ، والعدم في المشاهدة خيرٌ من الراحة مع الحجاب ، ولما كان الحق جل جلاله وجودًا لا يجوز عليه العدم يكون هناك ضرر في ملكه إذا جعلني عدمًا ، لأن ذلك العدم ليس له وجود قط »[٢] .

ولا يخفىٰ أن هذه الفكرة هي فكرة « نرفانا » التي قالت بها البوذية ، فإن الحياة في نظر البوذيين ألم وشقاء ، وإن « نرفانا » هي التخلص من الألم والشقاء، والتخلص من الوجود إلىٰ العدم المحض ، حيث لا يبقىٰ عود ولا تناسخ .

٧ ـ الفناء طريق إلى الاتحاد ، والحلول ، ووحدة الوجود[٣] :

لاشك أن هذا الفناء الصوفي سبيل إلىٰ القول بالاتحاد وما شابهه من

---

(١) من كبار أهل التصوف وأجلتهم ، كان يعبر عن طريقه في الفناء بعبارة مغلقة اختص بها ، ولم يعرف تاريخ وفاته ، والذي يعرف عنه أنه كان معاصراً لأبي سيعد بن أبي الحيز (ت٤٤٠هـ) وأبي القاسم الجرجاني (ت٤٥٠هـ) انظر « كشف المحجوب » (١/ ٥٨) وأيضًا (٢/ ٣٨٢ ، ٣٨٣) .

(٢) « كشف المحجوب » (٢/ ٣٨٣) .

(٣) إن الكلام في هذا الموضوع طويل ولست بصدده غير أنني أريد أن أشير هنا إشارة موجزة إلىٰ أن فكرة الفناء فكرة باطلة فاسدة وضعوها لتنتج لهم شر النتائج وأفسدها وهي الحلول ، والاتحاد ، ووحدة الوجود .

الحلول ووحدة الوجود ، لأن السالك الذي وصل إلىٰ هذه الحالة قد أصبح في مقام المحو ، حيث تضمحل ذاته في ذات الله ، وصفاته في صفاته ، ويغيب عن كل ما سواه ، فلا يرىٰ شيئًا في الوجود إلا الله ، ومن هنا تصدر عنهم شطحات وعبارات فاسدة ، تشعر بالاتحاد ، والحلول ، ووحدة الوجود .

ورد في كتاب « أسرار التوحيد في مقامات الشيخ أبي سعيد »[(١)] :

« إذا بقي في السالك شيء من صفات البشرية ، فلن يصل إلىٰ هدفه ، بل يظهر التلون علىٰ حاله أثناء الطريق ، فإذا وصل إلىٰ مطلوبه ومقصوده لا يبقىٰ له من صفاته البشرية شيء ؛ بل يفنىٰ في وحدة تامة .

ولهذا السبب يقول واحد من المشايخ : « أنا الحق » .

ويقول آخر « سبحاني » ويقول شيخنا[(٢)] : « ليس في جبتي سوىٰ الله » .

وهناك أمثلة كثيرة من أقوال المشايخ منها ما روي عن أبي يزيد البسطامي أنه قال في حال الغلبة :

« سبحاني سبحاني ما أعظم شأني »[(٣)] .

وروي أنه كان يومًا في الصومعة ، فجاءه رجل وقال : هل أبو يزيد في البيت ؟ فقال أبو يزيد : « هل في البيت إلا الله ؟ »[(٤)] .

وعن الحلاج قال مخاطبًا ربه :

لبيك لبيك يا سيدي ومولائي   لبيك لبيك يا قصدي ومعنائي

يا عين عين وجودي ومنتهى هممي   يا منطقي وإشاراتي وأنبائي

---

(١) لمحمد بن المنور ، ترجمة : إسعاد عبد الهادي قنديل (ص٦٧) .

(٢) يقصد أبا سعيد بن أبي الخير (ت٤٤٠هـ) ستأتي ترجمته .

(٣) « كشف المحجوب » (٢/ ٤٩٥) و« الكواكب الدرية » لعبد الرؤوف المناوي (١/ ٢٤٦) وقد دافع أبو نصر السراج عن أبي يزيد ، وأوّل هذه المقالة التي ظاهرها الكفر والإلحاد بتأويلات متعسفة ، انظر « اللمع » (٤٧٢) .

(٤) المصدر السابق (٢/ ٤٤٩) و« الكواكب الدرية » (١/ ٢٤٦) .

يا كل كلي ويا سمعي ويا بصري   يا جملتي وتباعيضي وأجزائي[١]

ونادىٰ بمثل هذا كثير من أكابر الصوفية كابن الفارض الذي قال :

كلانا مصلّ واحد ساجد إلى   حقيقته بالجمع في كل سجدة
وما كان لي صلى سواي ولم تكن   صلاتي لغيري في أداء كل ركعة[٢]

وابن عربي[٣] الذي يعتبر من أصرح الدعاة إلىٰ وحدة الوجود حين قال :

« إن العارف من يرىٰ الحق في كل شيء ؛ بل يراه عين كل شيء . . . وإن العبادة لا يستحقها إلا الله الذي هو عين الكل ، وله هوية جميع الصور »[٤] .

وابن سبعين الذي قال في ذات الله :

« . . . وهو الذي صورة كل شيء وغايته ، ومقدم الوجود ، وضرورته التي لا انفكاك له عنها ، وهو البدّ[٥] اللازم الذي يلزم لكل موجود سواه »[٦] .

وكذلك عبد الكريم الجيلي الذي قال مقرراً لعقيدته في الاتحاد والحلول :

فإني ذاك الكل والكل مشهدي   أنا المتجلي في حقيقته لا هو
وإني ربّ للأنام وسيّد   جميع الورى اسم وذاتي ومسماه

---

(١) المصدر السابق (٤٩٩) .

(٢) « مصرع التصوف » لبرهان الدين البقاعي (٦٤ ، ٢٢٩) تحقيق عبد الرحمن الوكيل .

(٣) هو محمد بن علي بن محمد بن عربي المعروف بمحيي الدين بن عربي الملقب بالشيخ الأكبر . ولد بالأندلس (٥٦٠هـ) ، وتوفي في دمشق (٦٣٨هـ) ، صدرت عنه شطحات كثيرة ، وهو كما يقول الذهبي « قدوة القائلين بوحدة الوجود » له نحو أربعمائة كتاب ورسالة ، انظر « الأعلام » (٦/ ٢٨١ ، ٢٨٢) ، و« جمهرة الأولياء » (٢/ ٢٠١) .

(٤) « شرح القاشاني على فصوص الحكم » لابن عربي (٢٩٥) (فص حكمة إمامية في كلمة هارونية) .

(٥) يلاحظ انه استعمل كلمة « البدّ » ليشير إلىٰ صورة الحق سبحانه وتعالىٰ .

(٦) « بد العارف » لابن سبعين (٣٢٤) تحقيق جورج كتورة .

لي الملك والملكوت نسجي وصنعتي لي الغيب والجبروت في منشاه [١]

وأيضًا :

لي الملك في الدارين لم أر فيهما سواي فأرجو فضله أو فأخشاه

وقد حزت أنواع الكمال وإنني جمال جلال الكل ما أنا إلا هو [٢]

فانظر كيف بالغ الجيلي في هذا الكلام حتى أصبح يخبر بأنه هو الله لا غيره، كل هذا ناتج عن ضلال الفناء .

* * *

(١) «الإنسان الكامل» للجيلي (١/ ٣٢) .
(٢) المصدر السابق (١/ ٣١) .

المبحث الثاني

في الطريق إلى الفناء

وضع الصوفية طريقًا خاصًا يسلكونه للوصول إلى الفناء ، يتكون من أنواع الرياضة والمجاهدة ، ومن النظم في الزهد التي نظموها لتربية مريديهم ، ففي الكتب الصوفية نجد تفصيلاً دقيقًا عن هذه النظم وعن الأساليب في الرياضة والمجاهدة ، متمثلة في المقامات والأحوال وغيرهما مما هو معروف في مصطلاحاتهم ، وهذه النظم والأساليب مختلفة باختلاف الطرق الصوفية ، لأن كل طريقة لها قواعدها ، ولها ضوابطها الخاصة بها .

وقد ذكر نيكلسون بعض النقط التي اتفقت عليها جميع الطرق الصوفية وهي :

١ ـ الاحتفال بدخول المريد في الطريق بطقوس دقيقة مرسومة .

٢ ـ التزيي بزي خاص .

٣ ـ اجتياز المريد مرحلة شاقة في الخلوة ، والصلاة ، والصوم ، وغير ذلك من الرياضات .

٤ ـ الإكثار من الذكر والحركات البدنية المختلفة التي تساعد على الوجد والجذب .

٥ ـ الاعتقاد في القوى الروحية الخارقة للعادة التي يمنحها الله المريدين وأصحاب الوجد ، كأكل جمرات النار ، والتأثير على الثعابين ، والإخبار بالمغيبات . . إلخ .

٦ ـ احترم المرشد أو شيخ الطريق إلى درجة تقرب من التقديس[1] .

---

(١) « في التصوف الإسلامي وتاريخه » (٦٥) .

وفي هذا المبحث سأورد بعض النظم الصوفية وأساليبها في رياضة النفس ومجاهدتها ، والتي تشبه إلىٰ حد كبير ما في البوذية من النظم الرهبانية التي تقدم تفصيلها ، كالخروج عن الملك ، والتجرد من شهوة البطن والفرج ، والتجرد من جميع الشهوات ومن ضرورات الحياة ، ونبذ طيباتها ومباهجها ، وكالصمت ، والخلوة ، وطريقة الذكر والمراقبة .

١ ـ الخروج عن الملك أو التجرد من المال والجاه :

إن مهمة المريد في طريقه إلىٰ المطلوب هي قطع علائق الدنيا وشواغلها[١] ومن هذه العلائق المال والجاه .

وقد بين ذلك القشيري فقال :

« ثم بعد هذا يعمل (المريد) في حذف العلائق والشواغل ، فإن بناء هذا الطريق علىٰ فراغ القلب . . .

وإذا أراد الخروج عن العلائق ، فأولها الخروج عن المال فإن ذلك الذي يميل به عن الحق ، ولم يوجد مريد دخل في هذا الأمر[٢] ومعه علاقة من الدنيا ، إلا جرّته تلك العلاقة عن قريب إلىٰ ما منه خرج ، فإذا خرج عن المال ، فالواجب عليه الخروج عن الجاه ، فإن ملاحظة حب الجاه مقطعة عظيمة . . .

فخروجهم من الجاه واجب عليهم ، لأن ذلك سم قاتل لهم[٣] .

وقال أيضاً : « ولا شيء أضر بقلوب المريدين من حصول الجاه لهم قبل خمود بشريتهم »[٤] .

وفصل أبو حامد الغزالي تفصيلاً دقيقاً عن هذا الموضوع فقال :

---

(١) يقول صاحب « معجم مصطلحات الصوفية » : (العلائق) هي الأسباب التي يتعلق بها الطالبون ، ويفوتهم بسببها المراد ، وقطع العلائق هو انشغال العبد بها حتىٰ تقطعه عن الله (ص١٨٦) .

(٢) أي في التصوف .

(٣) « الرسالة القشيرية » (٢/ ٧٣٦) .

(٤) المصدر السابق (٢/ ٧٤٨) .

« من شروط الإرادة ، ومقدمات المجاهدة ، وتدريج المريد في سلوك سبيل الرياضة ، هو رفع السد والحجاب الذي بينه وبين الحق ، فإن حرمان الخلق عن الحق سببه تراكم الحجب ووقوع السد على الطريق .

والسد بين المريد وبين الحق أربعة : المال ، والجاه ، والتقليد ، والمعصية .

وإنّما رفع حجاب المال بخروجه عن ملكه ، حتى لا يبقى له إلا قدر ضرورة ، فما دام يبقى له درهم يلتفت إليه ، فهو مقيد به ، محجوب عن الله ، وإنما يرفع حجاب الجاه بالعبد عن موضوع الجاه بالتواضع ، وإيثار الخمول ، والهرب من أسباب الذكر وتعاطي أعمال تنفر قلوب الخلق عنه . . . »

ثمّ يقول : « إن الذي قدم هذه الشروط الأربعة ، وتجرد عن المال والجاه ، كان كمن تطهر ، وتوضأ ، ورفع الحدث ، وصار صالحًا للصلاة »[١] .

ومن الحكايات الصوفية التي أوردها الغزالي في هذا الصدد ، وقررّ أنها طريق لمعالجة القلوب ، ما روي أن بعض الشيوخ الصوفية عالج حب المال ، فباع جميع أمتعته ، ورمى ثمنها في البحر ، إذ خاف من تفرقته على الناس رعونة الجود والرياء بالبذل[٢] .

وهذا مخالف للشرع والعقل إذ كيف جعل رمي الأموال في البحر طريقًا لمعالجة القلوب ، وقد ثبت عن الرسول ﷺ أنه نهى عن إضاعة المال[٣] وأنه قال لسعد : « **إنك ان تذر ورثتك أغنياء خير لك من أن تتركهم عالة يتكففون الناس** »[٤] .

---

(١) « إحياء علوم الدين» للغزالي (٣/ ٧٥) .

(٢) المصدر السابق (٣/ ٦٣) .

(٣) ولفظ الحديث : « إن الله كره لكم ثلاثًا : قيل وقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال » رو البخاري في « صحيحه » (١/ ٢٥٨) كتاب الزكاة باب قول اللّه : ﴿ لا يسألون الناس إلحافا ﴾ (رقم ١٤٧٧) .

(٤) رواه البخاري في « صحيحه » (١/ ٢٢٥) كتاب الجنائز ، باب رثاء النبي ﷺ سعد بن خولة (رقم١٢٩٥) .

والأحاديث في هذا المعنىٰ كثيرة تردّ كلها علىٰ هذا المسلك .

ومما رد عن الصوفية المتقدمين في هذا الصدد ما روي عن الجنيد سيّد هذه الطائفة وقد سئل عن الزهد فقال :

« معنيان ظاهر وباطن ، فالظاهر : بغض ما في الأيدي من الأملاك وترك طلب المفقود ، والباطن : زوال الرغبة عن القلب ، ووجود العزوف والانصراف عن ذكر ذلك »[١] .

وقال أبو يزيد البسطامي :

« إنما الزاهد لا يملك شيئًا ولا يملكه شيء »[٢] .

وقال السري :

« الزهد ترك حظوظ النفس من جميع ما في الدنيا ، ويجمع هذا : الحظوظ المالية ، والجاهية ، وحب المنزلة عند الناس ، وحب المحمدة والثناء »[٣] .

وهكذا فقد نظر الصوفية إلىٰ هذه الحظوظ نظرة تشاؤمية ، فجعلوها سببًا لبعدهم عن الله ، وحجابًا يمنعهم دون الوصول إلىٰ الهدف المنشود ، وهو الفناء في الله والاتحاد به ، ولذلك زهدوا فيها زهدًا كليًا .

إن هذا الاتجاه الصوفي شبيه باتجاه بوذا الذي سبق ذكره فقد روىٰ أتباعه أنه ردد قوله دائمًا : لا ينال أحد الخلاص إلا بحسم لذات الدنيا من الجاه والمال والمنصب والثناء . . .[٤] .

وقال عن التملك :

« إن الذي يملك أزواجًا وأولادًا ينصرف إلىٰ أزواجه وأولاده والذي يملك

---

(١) « قوت القلوب » (١/ ٢٦٩) .

(٢) المصدر السابق .

(٣) « عوارف المعارف » (٢٣٣) .

(٤) « تري بيتاكا » (سوتان) (٤٢٣ ، ٤٦٠) و(أبيدارما) (٦٥٥) .

أبقاراً ينصرف إلىٰ أبقاره ، كل ما نملكه يسبب لنا الهموم ، والذي لا يملك ليس لديه هموم »[١] .

ومثل هذا المعنىٰ قاله ابن خفيف أحد المشايخ الصوفية [٢] :

« علامة الزهد وجود الراحة في الخروج عن الملك »[٣] .

وقال الغزالي :

« إن أصل العبادات ، ومخها ، وسرها ، ذكر الله والتفكر في جلاله ، وذلك يستدعي قلبًا فارغًا ، وصاحب الضيعة يمسي ويصبح متفكرًا في خصومة الفلاح ومحاسبته ، وفي خصومة الشركاء . . . وصاحب التجارة يكون متفكراً في خيانة شريكه وتقصيره في العمل . . . إلخ ، وكذلك صاحب المواشي ، وهكذا سائر أصناف الأموال » [٤] .

وقال : « إن المال ، والجاه ، والأهل ، والولد ، وشماتة الأعداء ، ومراءات الأصدقاء ، وسائر حظوظ الدنيا ، كلها سلاسل وأغلال تقيد المريد ، ولا يقدر علىٰ قطعها »[٥] .

هذا وقد جعل الغزالي للزهد علامات ، منها أن لا يفرح بموجود ، ولا يحزن علىٰ مفقود ؛ بل ينبغي أن يكون بالضد من ذلك ، وهو أن يحزن بوجود المال ، ويفرح بفقده ، وأن يستوي عنده ذامه ومادحه .

فالأول : علامة الزهد في المال ، والثاني : علامة الزهد في الجاه[٦] .

---

(١) المصدر السابق (٤٥٤) .

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن خفيف الشيرازي ، كانت أمه نيسابورية ، وكان شيخ المشايخ في وقته . مات (سنة٣٧١هـ) ، انظر « طبقات الصوفية » (٣٦٢) ، و« الرسالة القشيرية » (١/ ١٨٤) ، « حلية الأولياء » (١٠/ ٣٨٥) .

(٣) « الرسالة القشيرية » (١/ ٣٢٧) .

(٤) « إحياء علوم الدين » (٣/ ٢٣٧) (بيان تفصيل آفات المال وفوائده) بتصرف يسير .

(٥) المصدر السابق (٤/ ٢٤٠) (تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة) .

(٦) المصدر السابق (٤/ ٢٤١) « علامات الزهد » .

وقسم الزهد في المطعم إلىٰ درجات وأعلاها : أن لا يدخر من غدائه لعشائه[١] .

هذا هو اتجاه الصوفية نحو المال وهو اتجاه غير صحيح لأنه مخالف للكتاب ، والسنة ، والإجماع ، وقد توسع ابن الجوزي في الرد عليه ويقول ما ملخصه :

« كان إبليس يلبس علىٰ أوائل الصوفية ، لصدقهم في الزهد ، فيريهم عيب المال ، ويخوفهم من شره ، فيتجردون من الأموال ويجلسون علىٰ بساط الفقر ، وكانت مقاصدهم صالحة ، وأفعالهم في ذلك خطأ ، لقلة العلم .

أما شرف المال فإن الله عز وجل عظّم قدره ، وأمر بحفظه ، إذ جعله قوامًا للآدمي الشريف فهو شريف .

قال تعالىٰ : ﴿ **وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا** ﴾[٢] .

وقد صح عن الرسول ﷺ أنه نهىٰ عن إضاعة المال[٣] ، وأنه قال لعمرو بن العاص : « **يا عمرو نعم المال الصالح للرجل الصالح** »[٤] .

وعن سعيد بن المسيب قال :

« لا خير فيمن لا يطلب المال ، يقضي به دينه ، ويصون به عرضه ، ويصل به رحمه ، فإن مات تركه ميراثًا لمن بعده » وخلف ابن المسيب أربعمائة دينارًا .

وتحدث ابن الجوزي عن كثير من أغنياء الصحابة الذين كسبوا الأموال ، وخلفوها لمن بعدهم ، ولم ينكر أحد منهم علىٰ أحد ، أما الإجماع فهو منعقد علىٰ إباحة جمع المال من حله ، كل هذا خلاف ما تعتقده الصوفية من أن المال

---

(١) المصدر السابق (٤/ ٢٣٠) (تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة) .

(٢) النساء : (٥) .

(٣) سبق تخريجه .

(٤) رواه أحمد في « مسنده » (٤/ ١٩٧) عن عمرو بن العاص : ورواه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٢) وقال : صحيح علىٰ شرط مسلم ووافقه الذهبي .

حجاب وعقوبة ، وأن حبسه ينافي التوكل[١] .

فالإسلام لا يحرم المال لأن المال من أسباب العزّ والقوّة وإنما يحرّم الإسلام الافراط والتفريط فيه .

وهذا واضح في تعاليم القرآن الكريم في مثل قوله تعالىٰ : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾[٢] .

٢ ـ التجرد عن شهوة البطن وهو المعروف في كتبهم بالجوع :

ومن العلائق التي يقطعها المريد المتصوف في طريقه شهوة البطن ، وذلك بالإمساك عن الطعام ، واعتياد الجوع ، فالجوع عند الصوفية ـ كما قال الهجويري ـ هو طعام الله في الأرض[٣] .

قال القشيري : « الجوع أحد أركان المجاهدة ، وهو من صفات القوم ، فإن أرباب السلوك تدرجوا إلىٰ اعتياد الجوع ، والإمساك عن الأكل ، ووجدوا ينابيع الحكمة في الجوع ، وكثرت الحكايات عنهم في ذلك »[٤] .

وعلىٰ هذا قال أبو يزيد البسطامي وقد سئل : بأي شيء وجدت هذه المعرفة ؟

فقال : « ببطن جائع ، وبدن عار »[٥] .

---

(١) انظر « تلبيس إبليس » (١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨١) .

(٢) الإسراء : (٢٩) قال ابن عرفة في معنىٰ ﴿ فتقعد ملومًا محسورًا ﴾ : « أي لا تسرف ، ولا تتلف مالك ، فتبقىٰ محسورًا منقطعًا عن النفقة والتصرف » ، « الجامع لأحكام القرآن » للقرطبي (١٠/٢٥١) .

(٣) « كشف المحجوب » (٢/٦٥٦) .

(٤) « الرسالة القشيرية » (١/ ٣٧٢ ، ٣٧٣) .

(٥) « طبقات الصوفية » (٧٤) و« الرسالة القشيرية » (١/ ٦٠٥) و« الكواكب الدرية » (١/٢٤٧) .

وقال أبو سليمان الداراني :

« عليـــك بالجـــوع ، فإنه مذلة للنفس ورقة للقلب ، وهو يورث العلم السماوي »(١) .

وهذا صريح في أن طريق القوم في تحصيل العلم هو طريق تعذيب الجسم بالجوع ، وليس طريق الاكتساب والتعلم .

ومثل هذا ما روي عن الجنيد قوله المشهور :

« ما أخذنا التصوف عن القيل والقال : لكن عن الجوع ، وترك الدنيا ، وقطع المألوفات والمستحسنات . . . كما قال حارث المحاسبي :

« عزفت نفسي عن الدنيا ، فأسهرت ليلي ، وأظمأت نهاري »(٢) .

يقول السهروردي :

« وقد اتفق مشايخ الصوفية على أن بناء أمرهم على أربعة أشياء : قلة الطعام، وقلة المنام ، وقلة الكلام ، والاعتزال عن الناس »(٣) .

وهذا كما قال عبد الله التستري :

« ما صار الأبدال أبدالاً(٤) إلا بأربع خصال : بإخماص البطون ، والسهر ، والصمت ، والاعتزال عن الناس »(٥) .

---

(١) « إحياء علوم الدين » (٣/ ٨٤) (فوائد الجوع وآفات الشبع).

(٢) « طبقات الصوفية » (١٥٨) .

(٣) « عوارف المعارف » (١٢٨) .

(٤) الأبدال : عبارة عن مرتبة من مراتب الصوفية ، وهم أعوان القطب الأربع : الإمامان ، والأوتاد الأربعة ، والأبدال ، والنجباء ، والبدل حقيقة روحانية تجتمع إليها أرواح أهل ذلك الموطن الذي رحل عنه وليه ، عددهم أربعون ، اثنان وعشرون منهم بالشام ، وثمانية عشر بالعراق ، «هذه هي الصوفية» (١٢٧) قال صاحب « معجم المصطلحات الصوفية » (٨ ، ٩) : ومن الأبدال ثلاثمائة شخص على قلب آدم ، لكل واحد منهم من الأخلاق الإلهية ثلاثمائة خلق ، وأربعون شخصاً على قلب نوح ، وسبعة على قلب خليل ، وخمسة على قلب جبريل ، وثلاث على قلب ميكائيل ، وواحد على قلب إسرافيل ، وعشرة على قلب داود . أ هـ .

(٥) « إحياء علوم الدين » (٣/ ٧٦) .

وروىٰ الهجويري مثل هذا عن الكتاني[1] يقول :

« من حكم المريد أن يكون فيه ثلاثة أشياء : نومه غلبة ، وكلامه ضرورة ، وأكله فاقة » .

وبيّن الهجويري طريقتهم في هذه الفاقة فقال :

« والفاقة عند البعض أن يأكل المرء مرة كل يومين وليلتين ، وعند البعض كل ثلاثة أيام وليال ، وعند البعض كل أسبوع ، وعند البعض أن يأكل شيئًا مرة كل أربعين يومًا بلياليها ، وعند البعض كل أربعين يومًا ، لأن المحققين علىٰ أن الجوع الصادق أن يؤكل مرة كل أربعين يومًا ، وذلك حفظًا للحياة ، وما يظهر خلال ذلك يكون الشره ، وغرور النفس ، والطبع »[2] .

وقد روي عن كثير من أئمة الصوفية مبالغتهم وغلوهم في تفضيل الجوع .

منها ما قال الغزالي وهو يتحدث عن ثمرة الجوع المزعومة :

« إن الجوع يصفي القلب ؛ فيصير كالكوكب الدري والمرآة المجلوة ، فيلوح فيه جمال الحق ، ويشاهد فيه رفيع الدرجات »[3] .

فالجوع ينقي دم القلب ويبيضه ، وفي بياضه نوره ، ويذيب شحم الفؤاد ، وفي ذوبانه رقته ، ورقته مفتاح المكاشفة »[4] .

وروي عن سهل قال : « إن هذا زمان لا ينال أحد فيه النجاة إلا بذبح نفسه ، وقتلها بالجوع ، والسهر ، والجهد »[5] .

---

(١) هو أبو بكر محمد بن علي بن جعفر الكتاني ، بغدادي الأصل ، صحب الجنيد ، وأبا سعيد الخراز ، وأبا الحسين النوري ، مات (سنة ٣٢٢ هـ) ، انظر ترجمته في « طبقات الصوفية » (٣٧٣) ، و« الرسالة القشيرية » (١/ ١٦٦) .

(٢) « كشف المحجوب » (٢/ ٥٧٠) .

(٣) وهذا صريح منه في رؤية الله في هذه الدنيا وهو قول مردود بإجماع أهل السنة .

(٤) « إحياء علوم الدين » (٣/ ٧٦) وقد رد ابن الجوزي علىٰ هذا الزعم انظر « تلبيس إبليس » (٢١٣ ، ٢١٤) .

(٥) المصدر السابق (٣/ ٨٣) (فضيلة الجوع وذم الشبع) .

ومنها ما روىٰ القشيري عن يحيىٰ بن معاذ[1] قال :

« الجوع للمريدين رياضة ، وللتائبين تجربة ، وللزهاد سياسة ، وللعارفين مكرمة »[2] .

« الجوع نور ، والشبع نار ، والشهوة مثل الحطب ، يتولد منه الاحتراق ، ولا تطفأ ناره حتىٰ يحرق صاحبه »[3] .

وعن أبي عثمان المغربي[4] قال :

« الرّباني لا يأكل في أربعين يومًا ، والصمداني في ثمانين يومًا »[5] .

ومنها أيضًا ما نقل الغزالي عن أبي سليمان الداراني قال :

« ترك شهوة من الشهوات أنفع للقلب من صيام سنة وقيامها » و« إن الملح شهوة ، لأنه زيادة علىٰ الخبز ، وما وراء الخبز شهوة »[6] .

وقال : « أحلىٰ ما تكون إليّ العبادة إذا التصق ظهري ببطني »[7] .

وروىٰ أبو نعيم عنه أيضًا قوله :

« لأن أترك لقمة واحدة من عشائي أحب إليّ من أن آكلها وأقوم من أول

---

(١) هو أبو زكريا يحيىٰ بن معاذ بن جعفر الرازي الواعظ ، له كلام في الرجاء خصوصًا ، وفي المعرفة ، خرج إلىٰ بلخ ، وأقام بها مدة ، ومات بنيسابور (سنة ٢٥٨هـ) ، انظر ترجمته في «طبقات الصوفية» (١٠٧) ، و« حلية الاولياء » (١٠/ ٥١) ، و« صفة الصفوة » (٤/ ٩٠) ، و«الرسالة القشيرية» (١/ ١٠١) ، و« كشف المحجوب » (١/ ٣٣٥) ، و« الأعلام » (٨/ ١٧٢).

(٢) « الرسالة القشيرية » (١/ ٣٧٣) .

(٣) المصدر السابق (١/ ٣٧٥) .

(٤) هو أبوعثمان سعيد بن سلاّم المغربي ، كان أوحد طريقته في الزهد ، ورد نيسابور ، ومات بها (سنة ٣٧٣هـ) ، انظر ترجمته في « طبقات الصوفية » (٤٧٩) ، و« الرسالة القشيرية » (١/ ١٩١)، و« كشف المحجوب » (١/ ٣٧٠) .

(٥) المصدر السابق .

(٦) « إحياء علوم الدين » (٣/ ٩٥) (طريق الرياضة في كسر شهوة البطن) .

(٧) المصدر السابق (٣/ ٨٥) (فوائد الجوع وآفات الشبع) .

الليل إلىٰ آخره »[١] .

ومثل هذه الأقوال المذمومة ما حكىٰ الغزالي عن سهل أنه كان يرىٰ أن صلاته قاعداً مع ضعف الجوع أفضل من صلاته قائماً مع كثرة الأكل[٢] .

قلت : إن هذه الأقوال والآراء سخيفة للغاية ، ووجه سخافتها أن للجسد حقًا، ومنع الحق مستحقه ظلم ، وقد قال الرسول ﷺ : « **إن لجسدك عليك حقاً ، وإن لعينك عليك حقاً ، وإن لزوجك عليك حقاً ، وإن لزورك عليك حقاً** »[٣] .

ومن المعروف أن الجوع يضعف القوة ، ويؤذي البدن ، وإذا ضعف البدن قلت العبادة .

ثم كيف رأىٰ أبو سليمان أن ترك لقمة من الطعام وهو أمر مباح أفضل من قيام الليل وهو أمر مندوب ، وكيف رأىٰ سهل أن الصلاة قاعداً وهي رخصة أفضل من الصلاة قائماً وهي عزيمة .

وقد أحسن ابن الجوزي إذ رد علىٰ هذا فقال :

« وهذا خطأ بل إذا تقوىٰ علىٰ القيام كان أكله عبادة لأنه يعين علىٰ العبادة ، وإذا تجوع إلىٰ أن يصلي قاعداً ، فقد تسبب إلىٰ ترك الفرائض فلم يجز له . . . ثم أي قربة في هذا الجوع المعطل أدوات العبادة »[٤] .

وقد ذهب سهل إلىٰ أبعد من هذا عندما فضّل الخمر وهي أم الخبائث علىٰ الطعام الحلال حيث قال :

« المعدة المملوءة بالخمر أحب إليّ من المعدة الممتلئة بالطعام ، قالوا :

---

(١) « حلية الأولياء » (٩/ ٢٧٤) ، وأورده القشيري أيضاً في « الرسالة » (١/ ٣٧٦) ، والغزالي في «الإحياء» (٣/ ٨٣) مع اختلاف يسير في العبارات .

(٢) « إحياء علوم الدين » (٣/ ٨٩) .

(٣) رواه البخاري في حديث طويل عن عبد الله بن عمرو بن العاص انظر « صحيح البخاري » (١/ ٣٣٦ ، ٣٣٧) كتاب الصوم باب حق الجسم في الصوم (رقم ١٩٧٥) .

(٤) « تلبيس إبليس » (٢١١) .

لم ؟ قال : لأنه عندما تكون المعدة مملوءة بالخمر ، يستريح العقل ، وتخمد نار الشهوة ، ويأمن الخلق من يده ولسانه ، ولكن عندما تكون مملوءة بالطعام الحلال ، ترغب في الفضول ، وتقوىٰ الشهوة ، وترفع النفس رأسها لطلب نصيبها »[١] .

ولا شك أن هذا الكلام خلاف الشرع والواقع ، أما الشرع : فهو معلوم لأنه يفضل الحرام على الحلال ، وأما الواقع : فلأن الواقع أثبت أن الخمر يزيل العقل ، ويفسده ، ويثير نار الشهوة ، ويسبب سائر الفساد ، هذا بخلاف الطعام الحلال ، فلا يقارن إطلاقًا بينهما ، لأن المقارنة بينهما هي المقارنة بين الخبيث والطيب ، وقال تعالىٰ :

﴿ قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ ﴾[٢] .

ومن أقوالهم في هذا الصدد أيضًا ما قال الغزالي :

« إذا أكل الإنسان ما يستلذه قسا قلبه وكره الموت ، وإذا منع نفسه شهواتها وحرّمها لذاتها اشتهت نفسه الإفلات من الدنيا بالموت »[٣] .

وقال : « إن شهوة الطعام والوقاع على التحقيق آلام يريد الإنسان الخلاص منها فيدرك لذة بسبب الخلاص »[٤] .

ولا يخفىٰ أن اتجاه الغزالي في هذا الكلام هو ما اتجه إليه بوذا كما ذكرنا .

أما الطريق المثلىٰ عند الصوفية في رياضة الجوع وكسر شهوة البطن ، فقد فصلها الغزالي تفصيلاً دقيقًا ، وذكر أن لها ثلاث وظائف : .

١ ـ في تقليل الطعام بالتدريج ، بأن ينقص قليلاً قليلاً من طعامه المعتاد .

٢ ـ في وقت الأكل ومقدار تأخيره ، كأن يطوي ثلاثة أيام فما فوقها ، وذكر

---

(١) « كشف المحجوب » (٢/ ٥٩٣) .
(٢) المائدة : (١٠٠) .
(٣) « تلبيس إبليس » (٢١٧) انظر معنىٰ هذا النص في « الإحياء » (٣/ ٩١) وأيضًا (٣/ ٦٧) .
(٤) « إحياء علوم الدين » (٣/ ١٠٠) . (القول في شهوة الفرج) .

أن في المريدين من ردّ الرياضة إلى الطي لا إلى المقدار ، حتى انتهى بعضهم إلى ثلاثين يومًا وأربعين يومًا ، وهذا هو أعلى مقامات الجائعين والمتوكلين عند القوم وروى قول بعض المشايخ الصوفية :

« من طوى الله أربعين يومًا ظهرت له قدرة من الملكوت أي كوشف ببعض الأسرار الإلهية » .

أما أدنى درجة في ذلك فهو أن يقتصر في اليوم والليلة على أكلة واحدة وهذا هو الأقل ، وما جاوز ذلك إسراف .

٣ ـ في نوع الطعام وترك الإدام .

قال الغزالي :

« وعادة سالكي طريق الآخرة الامتناع من الإدام على الدوام ، بل الامتناع عن الشهوات كلها ، فإن كل لذيذ يشتهيه الإنسان وأكله اقتضى ذلك بطرًا في نفسه ، وقسوة في قلبه ، وأنسًا له بلذات الدنيا حتى يألفها ، ويكره الموت ولقاء الله »[١] .

ورويت في الكتب الصوفية روايات كثيرة عن رياضتهم بالجوع ، منها :

ما روى الهجويري عن سهل أنه كان يأكل مرة كل خمسة عشر يومًا ، وعندما يأتي شهر رمضان لم يكن يأكل شيئًا إلى يوم العيد ، وكان يصلي كل ليلة أربعمائة ركعة »[٢] .

وروى الغزالي أيضًا عن سهل ، وقد قيل له : كيف كنت في بدايتك ؟

فأخبر بضروب من الرياضات منها : أنه كان يقتات ورق النبق مدة ، ومنها أنه أكل دقاق التين مدة ثلاث سنين ، ثم ذكر أنه اقتات بثلاثة دراهم في ثلاث

---

(١) انظر المصدر السابق (٣/ ٩٠ ، ٩١) (طريق الرياضة في كسر شهوة البطن) .

(٢) « كشف المحجوب » (٢/ ٥٦٧) وأورد أبو نصر السراج في « اللمع » (٢١٧) ، والقشيري في «الرسالة» (١/ ٣٧٣) مثل هذه الرواية .

سنين[١] ، وبيّن هذا فقال : كنت آخذ بدرهم دبسًا ، وبدرهم دقيق الأرز ، وبدرهم سمنًا ، وأخلط الجميع ، وأسوىٰ منه ثلاثمائة وستين أكرة[٢] .

وعن إبراهيم بن أدهم أنه لم يكن يأكل شيئًا في شهر رمضان من بدايته إلىٰ نهايته ، وكان يصلي طوال الليل حتىٰ الصباح وراقبوه فلم يكن يأكل أو ينام[٣] .

وروي أنه كان يسأل أصحابه عن سعر المأكولات فيقول مستنكرًا :

إنها غالية ، فيقول : « أرخصوها بالترك »[٤] .

ومنها ما روىٰ الغزالي عن السري السقطي قال :

« أنا منذ أربعين سنة تطالبني نفسي أن أغمس خبزة في دبس فما أطعتها»[٥] .

وروىٰ عن أبي يزيد البسطامي في حكاية طويلة ، وقد سئل عن رياضة نفسه في بدايته فقال :

« دعوت نفسي إلىٰ الله فجمحتْ عليّ ، فعزمت عليها أن لا أشرب الماء سنة ، ولا أذوق النوم سنة ، فوفت لي بذلك »[٦] .

وكذلك ما حكىٰ عن جعفر بن نصر قال :

أمرني الجنيد أن أشتري له التين الوزيري ، فلما اشتريته أخذ واحدة عند

---

(١) « إحياء علوم الدين » (٣/ ٩٧) (اختلاف حكم الجوع وفضيلته) انظر رد ابن الجوزي عليه في تلبيس إبليس » (٢١١) .

(٢) انظر المصدر السابق (٣/ ٨٩) ، (طريق الرياضة في كسر شهوة البطن) .

(٣) « كشف المحجوب » (٢/ ٥٦٧) أقول : إن هذا وأمثاله مخالف لسنة الرسول ﷺ في نهيه عن الوصال بالصوم ، حيث قال : « لا تواصلوا ، قالوا : إنك تواصل ، قال : لست كأحد منكم إني أبيت أطعم وأسقىٰ » وقال في حديث آخر : « . . . صم وأفطر وقم ونم فإن لجسدك عليك حقًا . . . » الحديث : انظر « صحيح البخاري » (١/ ٣٣٦ ، ٣٨٨) كتاب الصوم باب الوصال (رقم١٩٦١) وباب حق الجسم في الصوم (رقم ١٩٧٥) .

(٤) « إحياء علوم الدين » (٣/ ٨٧) (فوائد الجوع وآفات الشبع) .

(٥) المصدر السابق (٣/ ٦٧) (معالجة أمراض القلوب بترك الشهوات) .

(٦) المصدر السابق (٤/ ٣٥٦) (حكايات المحبين وأقوالهم ومكاشفاتهم ، و« الكواكب الدرية » (١/ ٢٤٧) .

الفطور ، فوضعها في فمه ، ثم ألقاها ، وجعل يبكي ، ثم قال : أحمله ، فقلت له : فيم ذاك ؟ فقال : هتف بي هاتف أما تستحيي تركته من أجلي ثم تعود إليه؟[١] .

قال عبد الرحمن دمشقية ردًا على هذه الحكاية :

« أما القائل : تركته من أجلي فليس هو الله تعالى ، إذ الله لم يحرم شيئًا من الطيبات ، فإنه هو القائل : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾[٢] .

وعلى هذا يحتمل أن يكون القائل شيطانًا ، فإن الله لا يحرم ما قد أحل لعباده »[٣] .

وأمثال هذه الحكايات كثيرة ، فإنهم زعموا أن صبرهم على الجوع من الكرامة ، وهو زعم باطل لأن الله لا يكرم مخالفًا لشرعه .

وقد أورد ابن الجوزي هذه الحكايات في كتابه « تلبيس إبليس »[٤] ، وذكر أن منهم من كان لا يأكل اللحم ، ومنهم من كان يمتنع من الطيبات كلها ، ومنهم من كان يمتنع عن شرب الماء الصافي أو الماء البارد ، فيشرب الحار ، ومنهم من أدى طيه إلى السقوط والغشية عليه . . . إلخ[٥] وساق كثيرًا من الآيات والأحاديث والآثار في الرد عليها ، فلا أريد هنا أن أزيد عليه إلا أنني أقول : إن

---

(١) المصدر السابق (٣/ ٩٤) (طريق الرياضة في كسر شهوة البطن) .

(٢) الأعراف : (٣٢) .

(٣) « أبو حامد الغزالي والتصوف » (٤٠٥) .

(٤) انظر صفحة (٢٠٦-٢٢٢) .

(٥) يقول ابن الجوزي : إن مثل هذه الحالات من صوفية المتقدمين قد انعكست في صوفية المتأخرين حيث أصحبت همتهم في المأكل كما كانت همة متقدميهم في الجوع ، لهم الغداة ، والعشاء ، والحلوى ، وكل ذلك أو أكثره حاصل من أموال وسخة ، وقد تركوا كسب الدنيا ، واحترفوا الطرق كوسيلة للعيش ، وأعرضوا التعبد ، وافترشوا فراش البطالة ، فلا همة لأكثرهم إلا الأكل ، واللعب ، ورفاهية العيش . انظر « تلبيس إبليس » (٢٢١) .

هذه الآداب الصوفية ليس لها أصل في الإسلام ، وإنما هي أثر من آثار الرهبانية ، إنها آداب تدعو إلىٰ ضعف المسلمين وانحطاطهم ، وتدعو إلىٰ تعطيلهم الجهاد الذي هو أحب أعمال العبد إلىٰ الله[1] .

إذ كيف يقوم بالجهاد من يعذب جسده ويضعفه بالجوع والسهر ؟

قال تعالىٰ : ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ** ﴾[2] .

ولا شك أن من جملة هذا الإعداد المطلوب هو تهيئة الجسم الصحيح وتقويته وتدريبه .

يقول الرسول ﷺ :

« **المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف** »[3] .

ثم ماذا نتصور لو أن الأمة الإسلامية اتخذت هذه الآداب منهجًا لهم في الحياة ؟ إنّ المجاعات لتفشّت ، وإنّ سنن الحياة لتعطلت .

وما أحسن كلام الإمام الطبري إذ يقول في هذا الصدد :

« إن الأولىٰ بالإنسان صلاح نفسه وعونه لها علىٰ طاعة ربها ، ولا شيء أضر للجسم من المطاعم الرديئة ، لأنها مفسدة لعقله ومضعفة لأدواته التي جعلها الله سببًا إلىٰ طاعته . . .

ولا فضل في ترك شيء مما أحله الله لعباده ، وأن الفضل والبر إنما هو في فعل ما ندب عباده إليه ، وعمل به رسول الله ﷺ ، وسنه لأمته ، واتبعه علىٰ

---

(١) ثبت في الحديث الصحيح أن رجلاً جاء إلىٰ الرسول ﷺ وقال له : دلني علىٰ عمل يعدل الجهاد . قال : « لا أجده » . قال : « هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر ، وتصوم ولا تفطر » . قال : ومن يستطيع ذلك ؟! رواه البخاري في « صحيحه » (٢/ ١٣٥) كتاب الجهاد والسير باب فضل الجهاد والسير (رقم ٢٧٨٥) .

(٢) الأنفال : (٦٠) .

(٣) رواه مسلم عن أبي هريرة (٤/ ٢٠٥٢) كتاب القدر باب حجاج آدم وموسىٰ عليهما السلام (رقم٢٦٥٣) .

منهاجه الأئمة الراشدون ، إذ كان خير الهدي هدي نبينا ﷺ »[١] .

٣ ـ التجرد عن شهوة الفرج :

ومن أنواع المجاهدة الصوفية التي تشبه ما في الرهبنة البوذية قمع شهوة الجنس وتجريد النفس منها بترك الزواج وإيثار العزوبة والتبتل ، وهو قاعدة من قواعد الصوفية الهامة التي ساروا عليها[٢] .

قال الهجويري : « ومشايخ هذه الطريقة ـ رضي الله عنهم ـ مجتمعون على أن خير المجردين وأفضلهم من تكون قلوبهم خالية من الآفات وطباعهم معرضة عن الرغبات »[٣] .

ويعتبر الصوفية أن الزواج آفة من الآفات ورغبة من الرغبات التي يجب الإعراض عنها ، لأنه عائق عن وصولهم إلى الهدف المنشود .

إن هذا الاتجاه الرهباني نحو الزواج واضح في كلام كثير من أئمة الصوفية ، وفيما يلي أذكر بعض الأمثلة من كلامهم :

قال أبو طالب المكي :

« الأفضل للمريد في مثل زماننا هذا ترك التزويج إذا أمن الفتنة وعود العصمة ، ولم تنازعه نفسه إلى معصية ، ولم يترادف حظوظ النساء على قلبه»[٤] .

ثم يروي لكثير من أئمة الصوفية أقوالهم منها :

ما رواه عن إبراهيم بن أدهم قال : « من تعوّد أفخاذ النساء لم يفلح » .

وكان بشر بن الحارث يقول :

---

(١) « الجامع لأحكام القرآن » (٦/ ٢٦٢) بتصرف .

(٢) انظر : « كشف المحجوب » (٢/ ٦١١) .

(٣) المصدر السابق (٢/ ٦١٠) .

(٤) « قوت القلوب » (٢/ ٢٣٨) .

« لو كان لي عيال لخشيت أن أكون جلاداً على الجسر : فالوحدة أروح للقلب ، وأقل للهمّ ؛ لخفة المؤنة ، وقلة المطالبة ، وأمن المنازعة ، وسقوط حكم من أحكام الشريعة عنه » .

وعن أبي سليمان الداراني قال :

« والوحيد يجد من حلاوة العمل وفراغ القلب ما لا يجد المتأهل »[1] .

وقال : « ثلاث من طلبهن فقد رغب في الدنيا ، من طلب معاشاً أو تزوج ، أو كتب الحديث »[2] .

ولا يخفى بطلان هذا الكلام لأن المعلوم بالضرورة أن هذه الثلاث مطلوبة من قبل الشرع .

ومثل هذا ما قال الجنيد سيد هذه الطائفة :

« أحب للمريد المبتدئ أن لا يشغل قلبه بهذه الثلاث ، وإلا تغير حاله : التكسب ، وطلب الحديث ، والزواج » ، وقال : « أحب للصوفي أن لا يقرأ ولا يكتب لأنه أجمع لهمه[3] ، فإذا ظهر أن لذة النكاح كلذة الأكل فما شغل عن الله فهو محذور فيهما جميعاً »[4] .

وعن أبي سليمان أيضاً قال :

« ما رأيت أحداً من أصحابنا تزوج وثبت على مرتبته الأولى »[5] .

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٢٣٩) .

(٢) المصدر السابق (٢/ ٢٤٧) وأورده الغزالي في « الإحياء » (٤/ ٢٢٩) ، والسهروردي في «عوارف المعارف» (١٠٤) ، وانظر رد ابن الجوزي عليه في « تلبيس إبليس » (٢٩٥) .

(٣) وفي هذا الصدد قال الغزالي في « الإحياء » (٤/ ٢٢٩) : « اعلم أن ميل أهل التصوف إلى الإلهية دون التعليمية ، ولذلك لم يتعلموا ولم يحرصوا على دراسة العلم وتحصيل ما صنفه المصنفون» وقال أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (١/ ٢٦٦) : « ومن الزهد عند الزاهدين ترك فضول العلم التي معلوماتها تؤول إلى الدنيا وتدعو إلى الجاه والمنزلة عند أبنائها » ، وهكذا دعوة الصوفية لترك العلم ، وهي دعوة خطيرة على المجتمع ، دعوة للضعف والرضا بالتخلف .

(٤) المصدر السابق (١/ ٢٦٧) و« إحياء علوم الدين » (٤/ ٢٣٩) .

(٥) المصدر السابق (٢/ ٢٤٧) وانظر « إحياء علوم الدين » (٢/ ٢٤) ، و« عوارف المعارف » (١٠٤) .

وروى عبد الرؤوف المناوي[(١)] عن رياح بن عمرو القيسي[(٢)] قال :

« لا يبلغ الرجل إلى منازل الصديقين حتى يترك زوجته كأنها أرملة وأولاده كأنهم أيتام ، ويأوي إلى منازل الكلاب »[(٣)] .

انظر إلى هذا الكلام الصوفي وقارن بينه وبين كلام الراهب البوذي «شامانا»[(٤)] (Shamana) وهو يتحدث عن القديسين قال :

« إن مرتبة القداسة (Arahat) هذه لا ينالها إلا من ترك البيوت ، وتصبّر على أن يترك زوجته ثكلى وأولاده يتامى . . . »[(٥)] .

وقد لخص السهروردي رأي الصوفية في الزواج ، وأنه عائق عن الوصول فقال :

« التجرد عن الأزواج والأولاد أعوان على الوقت للفقير ، وأجمع لهمّه وألذ لعيشه ، ويصلح للفقير في ابتداء أمره قطع العلائق ، ومحو العوائق ، والتنقل في الأسفار ، وركوب الأخطار ، والتجرد عن الأسباب ، والخروج عن كل ما يكون حجابًا ، والتزوج انحطاط من العزيمة إلى الرخص ، ورجوع من التروح إلى النغص ، وتقيد بالأولاد والأزواج ، ودوران حول مظان الاعوجاج ،

---

(١) هو محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين المناوي القاهري من كبار العلماء بالدين والفنون ، له نحو ثمانين مصنفًا ، وكان قليل الطعام كثير السهر حتى مرض وضعفت أطرافه ، عاش في القاهرة وتوفي بها (سنة ١٠٣١ هـ) ، انظر : « الأعلام » (٦/ ٢٠٤) .

(٢) ذكره المناوي في جملة أهل الطبقة الثانية من الصوفية أي ممن مات في القرن الثاني أو قبيله ، انظر « الكواكب الدرية » (١/ ١٠٥ ـ ١٠٦) وانظر ترجمته أيضًا في « حلية الأولياء » (٦/ ١٩٢) و«صفة الصفوة» (٣/ ٣٦٧) .

(٣) « الكواكب الدرية » (١/ ١٠٦) ورواه أبو نعيم بهذا اللفظ عن عبد الله بن دينار انظر « حلية الأولياء » (٦/ ١٩٤) .

(٤) ذكرت بعض المصادر البوذية أن هذا الراهب عاش في سيلان في القرن الخامس البوذي أي القرن الأول للميلاد تقريبًا وهو من أبرز فلاسفة البوذيين في ذلك العصر ، « مجموعة المصطلحات البوذية » (٧١٣) .

(٥) « تعاليم للرهبان » (٤٧) .

وإلتفات إلى الدنيا بعد الزهادة ، وانعطاف على الهوى بمقتضى الطبيعة والعادة»[١] .

انظر كيف جعل السهروردي الزواج رخصة مع أنه في الحق عزيمة وأصل من أصول الشريعة ، وقد علم أن الإسلام رغب المسلمين في الزواج وحثهم عليه لأنه من سنن الهدى وجادة الإسلام ، ونهاهم عن التبتل والرهبانية كما دلت عليه نصوص الشريعة التي أسلفناها ، وعلى فرض أنه رخصة فالمطلوب إتيانه أيضًا دون أن يكون في ذلك انحطاط ففي الحديث الصحيح :

« إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه »[٢] .

وعن أدب المريد في تبتله وعزوبته قال السهروردي :

« ومن حسن أدب المريد في عزوبته أن لا يمكّن خواطر النساء من باطنه ، وكلما خطر له خاطر النساء والشهوة ، يفرّ إلى الله تعالى بحسن الإنابة ، فيتداركه الله تعالى حينئذ بقوة العزيمة ، يؤيده بمراغمة النفس ، بل ينعكس على نفسه نور قلبه ثوابًا لحسن إنابته ، فتسكن النفس عن المطالبة ، ثم يعرض على نفسه ما يدخل عليه بالنكاح من الدخول في المداخل المذمومة المؤدية إلى الذل والهوان وأخذ الشيء من غير وجهه ، وما يتوقّع من القواطع بسبب التفات الخاطر إلى ضبط المرأة وحراستها والكلف التي لا تنحصر »[٣] .

وهذا وقد ذكرنا في الرهبنة البوذية أن من آداب الرهبان المبتدئين أن لا يخطر ببالهم أي خاطر من خواطر النساء لأنه إثم من آثام الرهبانية ، وعليهم الإكثار من الخلوة ومراقبة « سمادهي » كسبيل للعلاج[٤] .

---

(١) « عوارف المعارف » (١٠٤) .

(٢) رواه أحمد في « مسنده » عن ابن عمر (٢/ ١٠٨) وصححه أحمد محمد شاكر انظر : « مسند الإمام أحمد » تحقيق أحمد شاكر رقم الحديث (٥٨٦٦) وأيضًا (٥٨٧٣) وانظر أيضًا : « سلسلة الأحاديث الصحيحة » للألباني (١/ ٣٣٠) .

(٣) المصدر السابق (١٠٥) .

(٤) راجع موضوع (الآداب والنظم في الرهبنة البوذية) .

وقد استدل الصوفية على رهبانيتهم بكثير من الأحاديث الضعيفة منها حديث :

« **خيركم بعد المائتين رجل خفيف الحاذ . قيل : يا رسول الله وما خفيف الحاذ ؟ قال : الذي لا أهل له ولا ولد** »(١) .

وحديث : « **قلة العيال أحد اليسارين وكثرتهم أحد الفقرين** »(٢) .

يقول المستشرق نيكلسون :

« إن مثل هذه الأحاديث كان لها أثرها في الفصل في هذه المسألة ، فقد ظهر نظام الرهبنة في الإسلام حوالي هذا التاريخ تقريبًا »(٣) . أي بعد المائتين .

والحق أن نظام الرهبنة لم يظهر في الإسلام في يوم من الأيام لأن الإسلام بريء منه ، وإنما ظهر هذا النظام في غلاة الصوفية المبتدعين ، وهم لا يمثلون الإسلام في شيء .

ومما ورد عنهم أيضًا في هذا الصدد ما قال الغزالي وهو يوضح ما على المريد في طريقه :

« اعلم أن المريد في ابتداء أمره ينبغي أن لا يشغل نفسه بالتزويج فإن ذلك شغل شاغل يمنعه من السلوك ، ويستجره إلى الأنس بالزوجة ، ومن أنس بغير الله تعالى شغل عن الله » .

---

(١) قال العراقي : أخرجه أبو يعلي من حديث حذيفة ، ورواه الخطابي في « العزلة » من حديثه وحديث أبي أمامة ، وكلاهما ضعيف ، « إحياء علوم الدين » (٢/ ٢٤) في الهامش ، وانظر أيضًا «كشف الخفاء» (١/ ٤٦٤ ، ٤٦٥) (رقم ١٢٣٥) .

(٢) قال العراقي : أخرجه القضاعي في « مسند الشهاب » من حديث علي وأبو منصور الديلمي في «مسند الفردوس » من حديث عبد الله بن عمر وابن هلال المزني كلاهما بالشطر الأول بسندين ضعيفين ، « إحياء علوم الدين » (٢/ ٢٤) في الهامش ، وانظر أيضًا « كشف الخفاء » (٢/ ١٣٠) (رقم ١٨٨٨) .

(٣) « في التصوف الإسلامي وتاريخه » (٥٧) .

وروىٰ قول أبي سليمان ، وقد قيل له : « ما أحوجك إلىٰ امرأة تأنس بها »؟ فقال : « لا آنسني الله بها » أي أن الأنس بها يمنع الأنس بالله تعالىٰ[١] .

وروىٰ أبو نعيم عنه قال :

« العيال يضعفون يقين الرجل ، إنه إذا كان وحده فجاع قنع ، وإذا كان له عيال طلب لهم ، وإذا جاع الطالب فقد ضعف اليقين »[٢] .

وقال : « الذي يريد الولد أحمق لا للدنيا ولا للآخرة ، إن أراد أن يأكل أو ينام أو يجامع نغص عليه ، وإن أراد أن يتعبد شغله »[٣] .

وروىٰ أبو طالب المكي عن أحد الصوفية قال :

« إن العيال عقوبة شهوة الحلال ، والحرص عقوبة طلب فوق الكفاية »[٤] .

وغير هذا من الأقوال الصوفية المخالفة للشرع .

وقد روىٰ ابن الجوزي أن بعضهم لم يكتفوا بترك الزواج ، بل جبوا أنفسهم، وزعموا أنهم فعلوا ذلك حياء من الله تعالىٰ[٥] .

إن هذه الأقوال والتصرفات المنحرفة ما هي إلا آثار من الرهبانية الوثنية ، وقد ذكرت سابقًا أن شرط التبتل من أهم شروط الرهبانية في البوذية ، وقد انتهىٰ هذا الشرط ببعض الرهبان إلىٰ عملية الخصاء ، كما ذكرت في قصة بوذا أنه فضل حياة الرهبانية ، فترك أهله وولده بحثًا عن طريق الخلاص المزعوم ، وقد بسطت الكلام في الرد علىٰ هذه الرهبانية ، وبيان رأي الإسلام فيها

---

(١) « إحياء علوم الدين » (٣/ ١٠١) (بيان ما علىٰ المريد في ترك التزويج وفعله) .

(٢) « حلية الأولياء » (٩/ ٢٦٠) ورواه أبو عبد الرحمن السلمي في « طبقات الصوفية » (٨٠) .

(٣) المصدر السابق (٩/ ٢٦٤) .

(٤) « قوت القلوب » (٢/ ٢٣٨) كما روىٰ ابن الجوزي مثل هذا المعنىٰ عن الجنيد قال : « الأولاد عقوبة شهوة الحلال فما ظنكم بعقوبة شهوة الحرام ؟ » ويعلق ابن الجوزي علىٰ هذا بأنه غلط ، فإن تسمية المباح عقوبة لا يحسن لأنه لا يباح شيء ثم يكون ما تجدد منه عقوبة ، ولا يندب إلىٰ شيء إلا وحاصله مثوبة « تلبيس إبليس » (٢٩٧) .

(٥) انظر : « تلبيس إبليس » (٢٩٦) .

فلاحاجة هنا لإعادته .

غير أنني أريد أن أقول لهؤلاء الصوفية الذين زعموا أنهم متمسكون بالشريعة بأن ما ذهبوا إليه من ترك الزواج وإيثار العذوبة ليس له أصل في الإسلام، لأن المعلوم من الإسلام بالضرورة الترغيب في الزواج المشروع والحث عليه ، وقد كثرت الآيات القرآنية ،والأحاديث النبوية ، والآثار في هذا الباب فمن الآيات قوله تعالىٰ : ﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ ﴾(١) .

﴿ وَأَنكِحُوا الأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ ﴾(٢) .

وقوله تعالىٰ في وصف الرسل عليهم الصلاة والسلام ومدحهم :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾(٣) .

فعدّ الأزواج والذرية من مدحهم وذكرها في وصفهم .

ومن الأحاديث قوله ﷺ : « **يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج لأنه أغض للبصر وأحصن للفرج** »(٤) .

وقوله ﷺ : « **دينار أنفقته في سبيل الله ، ودينار أنفقته في رقبة ، ودينار تصدقت به على مسكين ، ودينار أنفقته على أهلك ، أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك** »(٥) .

ومن الآثار ما رواه ابن الجوزي : عن ابن عباس قال : « إن خير هذه الأمة أكثرها نساء » .

---

(١) النساء : (٣) .

(٢) النور : (٣٢) .

(٣) الرعد : (٣٨) .

(٤) رواه البخاري في « صحيحه » (٣/ ٢٣٨) كتاب النكاح باب من لم يستطع الباءة فليصم (رقم ٥٠٦٦) ومعنىٰ الباءة أي النكاح والتزويج يقال فيه : الباءة والباء وقد يقصر وهو من المباءة أي المنزل لأن من تزوج امرأة بوأها منزلاً (انظر : « النهاية » لابن الأثير (١/ ١٦٠) .

(٥) رواه مسلم عن أبي هريرة (٢/ ٦٩٢) كتاب الزكاة ، باب فضل النفقة علىٰ العيال والمملوك (رقم ٩٩٤) .

وعن شداد بن أوس قال :

« زوجوني فان رسول الله ﷺ أوصاني أن لا ألقى الله عزبًا »[١] .

إن هذه الآيات ، والأحاديث ، والآثار ، وأمثالها كلها تردّ ما ذهب إليه الصوفية .

يقول ابن الجوزي ردًا على كلام الغزالي السابق :

« إن من قصد عفاف نفسه ووجود ولد ، أو عفاف زوجته ، لم يخرج عن جادة السلوك ، وإن الأنس الطبيعي بالزوجة لا ينافي أنس القلب بطاعة الله ، وقد منّ على الخق بقوله :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾[٢] .

وفي الحديث الصحيح عن جابر عن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ﷺ قال له : « **هلاّ تزوجت بكرًا تلاعبها وتلاعبك** »[٣] .

وما كان الرسول ﷺ بالذي ليدله على ما يقطع أنسه بالله تعالى « أترى رسول الله ﷺ لما كان ينبسط إلى نسائه ويسابق عائشة ـ رضي الله عنها ـ أكان خارجًا عن الأنس بالله ، هذه كلها جهالات بالعلم »[٤] .

هذا وإن هناك كثيرًا من الأحاديث في إثابة المباضعة ، والإنفاق على الأولاد والعيال ، ومن يموت له ولد ، ومن يخلف ولدًا بعده ، فمن أعرض عن طلب الأولاد والتزوج فقد خالف المسنون والأفضل وحرم أجرًا جسيمًا[٥] .

---

(١) « تلبيس إبليس » (٢٩٣) .

(٢) الروم : (٢١) .

(٣) رواه البخاري في « صحيحه » (٣/ ٢٤٠) كتاب النكاح . باب تزويج الثيبات ، (رقم ٥٠٧٩) ورواه مسلم في كتاب الرضاع باب استحباب نكاح البكر (رقم ٧١٥) .

(٤) « تلبيس إبليس » (٢٩٥) .

(٥) انظر المصدر السابق (٢٩٧) .

٤ ـ الصمت الدائم :

يعتبر الصمت عند الصوفية ركنًا من أركانهم(١) ومقامًا هامًا من مقاماتهم وعلى المريد السالك أن يلزمه في جميع تصرفاته ولا يبدي الكلام إلا عند الضرورة .

يقول القشيري عن سبب إيثارهم السكوت :

« فأما إيثار أرباب المجاهدة السكوت ، فلما علموا ما في الكلام من الآفات، ثم ما فيه من حظ النفس ، وإظهار صفات المدح ، والميل إلى أن يتميز بين أشكاله بحسن النطق ، وغير هذا من آفات في الخلق »(٢) .

وفصّل الهجويري تفصيلاً دقيقًا عن هذا المقام حيث قال :

« إن دعاة هذه الطريقة مأذونون ومضطربون في كلامهم ، وخجلون ومغلوبون في صمتهم ، فمن كان سكوته حياء كان كلامه حياة ، لأن كلامهم يكون عن مشاهدة ، والكلام بلا مشاهدة عندهم هوان ، ويحبون الصمت أكثر من الكلام ما داموا مع أنفسهم ، وحين يغيبون ينقش الخلق أقوالهم على أرواحهم ، ولذلك قال أحد الشيوخ : من كان سكوته له ذهبًا كان كلامه لغيره مذهبًا ، فينبغي للطالب الرباني الذي خوضه في العبودية أن يكون صامتًا حتى يتكلم لسانه الذي يكون نطقه بالربوبية ، وتصطاد عباراته قلوب المريدين » .

وعن أدب المريد في القول قال :

« والأدب في القول هو أن لايتحدث بدون أمر ، وإذا صمت لا يكون جاهلاً وغافلاً ، وينبغي للمريد أن لا يتدخل أو يتصرف في كلام الشيوخ ، ولا يتكلم إليهم بعبارات غريبة . . . ولا يتحدث حتى يسأل ، ولا يبدأ بالكلام»(٣) .

---

(١) قال القشيري : إن الصمت نعت أرباب الرياضات وهو أحد أركانهم في حكم المنازلة وتهذيب الخلق ، انظر « الرسالة القشيرية » (١/ ٣٣٦) .

(٢) « الرسالة القشيرية » (١/ ٣٣٦) .

(٣) « كشف المحجوب » (٢/ ٦٠٢) .

ومما ورد عن أئمة الصوفية في هذا الصدد :

ما روي عن الجنيد قال : « من عرف الله كَلّ لسانه »[١] .

ومثل هذا ما روي عن أبي بكر الواسطي[٢] قال :

« من عرف الله انقطع ؛ بل خرس وانقمع »[٣] .

وعن الجنيد أيضًا قال : « إذا رأيتم الصوفي يتكلم على الناس فاعلموا أنه فارغ »[٤] .

وعن حقيقة الصمت قال أبو بكر الفارسي[٥] وقد سئل عنه فقال :

« ترك الاشتغال بالماضي والمستقبل » .

وقال : « من لم يكن الصمت وطنه فهو في الفضول وإن كان صامتًا ، والصمت ليس بمخصوص على اللسان لكنه على القلب والجوارح كلها »[٦] .

وذكر الهجويري عن سهل قال في وصف الصوفية :

« أكلهم أكل المرضى ، ونومهم نوم الغرقى ، وكلامهم كلام الخرقى »[٧] .

وروى القشيري عنه قال :

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٦٠٠) .

(٢) سبقت ترجمته .

(٣) « الرسالة القشيرية » (٢/ ٦٠٢) .

(٤) « التعرف لمذهب أهل التصوف » (١٧٤) .

(٥) هو أبو بكر الطمستاني الفارسي ، قال أبو عبد الرحمن السلمي : إنه من أجلّ المشايخ وأعلاهم حالاً ، متفرد بحاله ووقته ، لا يشاركه فيه أحد من المشايخ ولا يدانيه ، صحب إبراهيم الدباغ وغيره من مشايخ الفرس ، وكان مشايخ وقته يحترمونه ، ورد نيسابور ومات بعد سنة (٣٤٠هـ) انظر « طبقات الصوفية » (٤٧١) ، وأيضًا « حلية الأولياء » (١٠/ ٣٨٢) ، و« الرسالة القشيرية » (١/ ١٨٨) .

(٦) « الرسالة القشيرية » (١/ ٣٣٧) وأورده أبو عبد الرحمن السلمي في « طبقات الصوفية » (٤٧٤) مع اختلاف العبارات .

(٧) « كشف المحجوب » (٢/ ٥٩٣) .

« لا يصح لأحد الصمت حتىٰ يلزم نفسه الخلوة ، ولا تصح له التوبة حتىٰ يلزم نفسه الصمت »[1] .

فجعل من شرط التوبة الصمت ، وجعل من شرط الصمت أن يكون في الخلوة ، وعدم مخالطة الناس .

ومثل هذا ما سار عليه غيره من أهل التصوف .

يقول الإسنوي[2] :

« لا تصح لأحد العزلة والخلوة حتىٰ يلزم نفسه الصمت أولاً كما فعل داود الطائي وغيره »[3] .

ويقول الغزالي وهو يفصل تفصيلاً واضحًا عن هذا الموضوع :

« وأما الصمت فإنه تسهله العزلة ، ولكن المعتزل لا يخلو عن مشاهدة من يقوم له بطعامه وشرابه وتدبير أمره ، فينبغي أن لا يتكلم إلا بقدر الضرورة ، فإن الكلام يشغل القلب ، وشره القلوب إلىٰ الكلام عظيم فإنه يستروح إليه ، ويستثقل التجرد للذكر والفكر فيستريح إليه ، فالصمت يلقح العقل ، ويجلب الورع ، ويعلم التقوىٰ »[4] .

ثم بيّن الغزالي طريقه العملي في رياضة الصمت فقال :

---

(١) « الرسالة القشيرية » (١/ ٣٣٦) .

(٢) سبقت ترجمته .

(٣) « حياة القلوب علىٰ هامش قوت القلوب » (٢/ ٢٥٣) . وداود الطائي هو أبو سليمان داود بن نصير الطائي (ت ١٦٥ هـ) كان من كبار المشايخ وسادات الصوفية ، اختار العزلة ، وأعرض عن طريق الرياسة والدنيا ، وسلك طريق الزهد ، وروىٰ القشيري عن سبب زهده أنه كان يجالس أبا حنيفة فقال له أبو حنيفة يومًا : أما الأداة (أي العلم) فقد أحكمناها . فقال له داود : فأي شيء بقي ؟ فقال : العمل به . قال داود : فنازعتني نفسي إلىٰ العزلة ، فقلت لنفسي : حتىٰ تجالسهم ولا تتكلم في مسألة فجالستهم سنة لا أتكلم في مسألة ، انظر « الرسالة القشيرية » (١/ ٨٢) و« كشف المحجوب » (١/ ٣٢١) .

(٤) « إحياء علوم الدين » (٣/ ٧٦) (شروط الإرادة ومقدمات المجاهدة) .

« وأما من حيث العمل فالعزلة ، أو أن يضع حصاة في فيه ، وأن يلزم نفسه السكوت بها عن بعض ما يعنيه حتىٰ يعتاد اللسان ترك ما لا يعنيه ، وضبط اللسان في هذا علىٰ غير المعتزل شديد جداً »[١] .

ولا يخفىٰ أنه طريق غريب ، وأن لزوم الإنسان السكوت عما يعنيه لا يقره الشرع والعقل .

ومن الحكايات الصوفية في هذا الصدد ما يحكي الغزالي عن المنصور بن المعتز[٢] أنه لم يتكلم بكلمة بعد العشاء الآخرة أربعين سنة .

وعن الربيع بن الخيثم[٣] أنه ما تكلم بكلام الدنيا عشرين سنة ، وكان إذا أصبح وضع دواة ، وقرطاساً ، وقلماً ، فكل ما تكلم به كتبه ، ثم يحاسب نفسه عند المساء[٤] .

ومما روي عنهم أيضاً ما ذكر الكلاباذي عن بعض المشايخ وقد قيل له لم لا تتكلم ؟

فقال : « هذا علم قد أدبر وتولىٰ ، والمقبل علىٰ المدبر أدبر من المدبر »[٥] .

وروىٰ القشيري عن بعضهم قال :

---

(١) المصدر السابق (٣/ ١١٤) (الكلام فيما لا يعنيك) .

(٢) لم أقف علىٰ ترجمته بهذا الاسم ولعل الصواب هو منصور بن المعتمر الذي روي عنه أنه صام أربعين سنة ، قام ليلها ، وصام نهارها ، وكان في الليل يبكي ، قال ابن الجوزي أدرك منصور بن المعتمر أنس بن مالك وتوفي (سنة ١٣٢هـ) انظر « صفة الصفوة » (٣/ ١١٣-١١٥) ، وأيضاً «حلية الأولياء» (٥/ ٤٠) .

(٣) هو الربيع بن خيثم الثوري ويكنىٰ أبا يزيد قال الشعراني : مات الربيع (سنة ٦٧ هـ) في أيام معاوية -رضي الله عنه- ، وروىٰ أبو نعيم عن أحد أصحاب الربيع قال : صحبته سنتين فما كلمني إلا كلمتين ، وقال آخر : جالست الربيع عشر سنين فما سمعته يسأل عن شيء من أمر الدنيا إلا مرتين ، قال مرة : والدتك حية ؟ وقال مرة : كم لكم مسجداً ؟ انظر « الطبقات الكبرىٰ » للشعراني (١/ ٣١) ، و« حلية الأولياء » (٢/ ١١٠) ، و« صفة الصفوة » (٣/ ٥٩) .

(٤) « إحياء علوم الدين » (٣/ ١١١) (عظيم خطر اللسان وفضيلة الصمت) .

(٥) « التعرف لمذهب أهل التصوف » (١٧٣) .

« مكثت ثلاثين سنة لا يسمع لساني إلا من قلبي ، ثم مكثت ثلاثين سنة لا يسمع قلبي إلا من لساني » .

وقيل لبعضهم : تكلم . فقال : ليس فيّ لسان فأتكلم[١] .

وقال القشيري عن أدب المريد :

« يجب أن لا يخالف المريد أحدًا وإن علم أن الحق معه يسكت ، ويظهر الوفاق لكل أحد[٢] : وغير هذا من الأقوال والحكايات .

هذا وإن كنا لا ننكر الصمت إنكارًا مطلقًا ، لأنه مطلوب من قبل الشرع ، كما ورد في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قال :

« **من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت** »[٣] .

إلاّ أنّنا نرى أن هذا الصمت الصوفي صمت مسرف مبالغ متجاوز للحدود ، وهو صمت الرهبان البوذيين الذي سبق ذكره ، والصمت على هذه الصفة لا يقره الشرع .

وصفوة القول في هذا أن الكلام له مقام كما أن الصمت له مقام ، ولا إفراط ولا تفريط فيها .

والضوابط في ذلك ما أشار إليه الرسول ﷺ في الحديث السابق ، فإذا كان كلامه خيرًا فكلامه أفضل من سكوته ، وإذا كان عكس ذلك فسكوته أفضل من كلامه .

هذا وقد أشار القرآن الكريم في آيات كثيرة إلى مدح الكلام في الخير كقوله تعالى : ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ** ﴾[٤] .

وقوله تعالى : ﴿ **طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ** ﴾[٥] .

---

(١) « الرسالة القشيرية » (١/ ٣٤١) . (٢) المصدر السابق (٢/ ٧٤٠) .

(٣) رواه البخاري في « صحيحه » (٤/ ٥٤)كتاب الأدب ، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره (رقم ٦٠١٨) .

(٤) فصلت : (٣٣) . (٥) محمد : (٢١) .

وقد أمرنا الله أيضًا بالتحدث بالنعمة في قوله تعالىٰ :

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾[١] .

والتحدث بالنعمة يكون بالشكر ، والثناء ، والحمد ، وما شابه ذلك .

إن هذه الآيات وأمثالها ترد ما ذهب إليه أهل التصوف من المبالغة في الصمت .

٥ ـ العزلة والخلوة[٢] :

الخلوة عند عامة الصوفية هي الوحدة والانفراد والعزلة عن مخالطة الناس ، وأسلوبها مختلف باختلاف الطرق الصوفية ، إذ كل طريقة لها أسلوبها الخاصة في الخلوة من حيث مدتها وشروطها[٣] وتعتبر الخلوة والعزلة من أهم أنواع المجاهدات العملية عند الصوفية والتي من شأنها أن تهيء المريد للوصول إلىٰ الفناء ، والكشف ، والاتحاد بالله علىٰ حد زعمهم .

---

(١) الضحىٰ : (١١) .

(٢) قال صاحب كتاب « التعريفات » (ص١٠١ ، ١٥٠) : الخلوة محادثة السر مع الحق حيث لا أحد ولا ملك ، والخلوة : هي الخروج عن مخالطة الخلق بالانزواء والانقطاع .
وقال صاحب « معجم مصطلحات الصوفية » (ص ٩٢) « الخلوة : هي العزلة عند بعضهم ، وغير العزلة عند البعض الآخر ، فالخلوة من الأغيار ، والعزلة من النفس وما تدعو إليه ويشغل عن الله ، فالخلوة كثيرة الوجود ، والعزلة قليلة الوجود ، فعلىٰ هذا العزلة أعلىٰ من الخلوة ، وقيل بل الخلوة أعلىٰ ، لأنها من الأغيار ، وقيل الخلوة ترك اختلاط الناس وإن كان بينهم ، وقيل الخلوة الأنس بالذكر والاشتغال بالفكر ، وقيل هي الخلوة عن جميع الأذكار إلا عن ذكر الله»اهـ. وعلىٰ أي حال فإني لم أفرّق بين العزلة والخلوة في هذا المبحث لأن معناها متقارب جداً ، وأستطيع القول بأن العزلة حالة عامة ، أما الخلوة فحالة خاصة ، وكلاهما متداخلان كما سيتبين من خلال أقوال الصوفية .

(٣) انظر علىٰ سبيل المثال شروط الخلوة عند الطريقة التيجانية في كتاب « رماح حزب الرحيم علىٰ نحور حزب الرجيم » لعمر بن سعيد النوبي المطبوع علىٰ هامش « جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيد أبي العباس التيجاني » لعلي بن حرازم بن العربي ط مصطفىٰ البابي الحلبي (١٣٨٠ هـ ١٩٦١ م) (ص٢/ ١٥٣) وما بعدها وقد لخصها الشيخ أبو بكر الجزائري في رسالته الصغيرة التي سماها « إلىٰ التصوف يا عباد الله » ط المدينة المنورة (١٤٠٤هـ) (ص٣٢ـ٣٦) .

وقد اعتنى بها الصوفية اعتناء كبيراً ، وعقدوا لها فصلاً خاصًا في كتبهم ، وساقوا الأدلة ، والأقوال المأثورة ، والحكايات ، في بيان فضيلتها ، وحث طوائفهم على التزامها .

وفيما يلي سأورد طائفة من كلامهم الوارد في هذا الموضوع :

قال القشيري :

« الخلوة صفة أهل الصفوة ، والعزلة من أمارات الوصلة » .

« ولابد من المريد في ابتداء حاله من العزلة عن أبناء جنسه ، ثم في نهايته من الخلوة لتحققه بأنسه »(١) .

ففرق القشيري هنا بين العزلة والخلوة ، أي يبدأ المريد أولاً بالعزلة عن الناس ، ثم بالخلوة للتعبد .

ثم ذكر القشيري أقوال كثيرين من أئمة الصوفية لتدعيم هذا الرأي ، منها ما قاله الجنيد :

« من أراد أن يسلم له دينه ، ويستريح بدنه وقلبه فليعتزل الناس ، فإن هذا زمان وحشة ، والعاقل من اختار فيه الوحدة »(٢) .

وقال الشبلي لرجل استوحاه :

« الزم الوحدة ، وامح اسمك عن القوم ، واستقبل الجدار حتى تموت »(٣) .

ومما روي عنه أيضًا قوله :

« هـذا زمـان السـكوت ، ومـلازمـة البيـوت ، والاتـكال على الحي

(١) « الرسالة القشيرية » (١/ ٢٩٨) .

(٢) المصدر السابق (١/ ٣٠٣) وأورده الإسنوي في « حياة القلوب على هامش قوت القلوب » (٢/ ٩٣) .

(٣) « عوارف المعارف » (١٢٣) وأيضًا « الرسالة القشيرية » (١/ ٣٠٣) .

الذي لا يموت »[١] .

وقيل لأبي داود الطائي[٢] : أوصني :

فقال : « صم عن الدنيا واجعل فطرك الموت ، وفر من الناس كفرارك من السبع »[٣] .

وقال يحيىٰ بن معاذ الرازي[٤] :

« الوحدة جليس الصديقين »[٥] .

وروىٰ أبو عبد الرحمن السلمي عنه قال :

« الزهد ثلاثة : القلة ، والخلوة ، والجوع »[٦] .

كما روىٰ عنه أنه اعتبر الخلوة من علامات الإخلاص حيث قال :

« الصبر علىٰ الخلوة من علامات الإخلاص »[٧] .

وهذا كما قال ذو النون المصري :

« لم أر شيئًا أبعث إلىٰ الإخلاص من الخلوة ، ومن أحب الخلوة فقد استمسك بعمود الإخلاص وظفر بركن من أركان الصدق »[٨] .

وروىٰ القشيري عن أبي بكر الوراق[٩] ، وقيل له : « أوصني » فقال :

---

(١) « حياة القلوب علىٰ هامش قوت القلوب » (٢/ ٩٣) .

(٢) سبقت ترجمته .

(٣) « الرسالة القشيرية » (١/ ٨٤) .

(٤) سبقت ترجمته .

(٥) المصدر السابق (١/ ٣٠٢) .

(٦) « طبقات الصوفية » (١١٣) .

(٧) المصدر السابق (١٠٩) .

(٨) « عوارف المعارف » (١٢٣) وأورده السلمي في « الطبقات » (٢٠ ، ٢١) ، والقشيري في «الرسالة» (١/ ٣٠١) ، مع وجود الاختلاف في اللفظ .

(٩) هو محمد بن عمر الحكيم ، أصله من ترمذ ، وأقام ببلخ ، صحب أحمد بن خضرويه (ت٢٤٠هـ) ، وله الكتب المشهورة في أنواع الرياضات ، والمعاملات ، والآداب ، انظر =

« وجدت خير الدنيا والآخرة في الخلوة والقلة ، ووجدت شرهما في الكثرة والاختلاط »[١] .

وغير هذا من الأقوال التي تحثّ الناس على العزلة والخلوة وعلى عدم الاجتماع مع الخلق ، وما أكثرها في كتبهم .

وقد قسم الهجويري العزلة إلى نوعين : أولهما الإعراض عن الخلق ، والآخر الانقطاع عنهم ، والإعراض عن الخلق هو اختيار مكان خال وتجنب صحبة الأجناس بالظاهر ، أما الانقطاع عن الخلق فيكون بالقلب ، وليس لصفة القلب أي تعلق بالظاهر ، وهذا مقام عال في العزلة[٢] .

وحكى عن أبي عثمان المغربي[٣] أنه في بداية حاله اعتزل عشرين سنة في البوادي ، بحيث لم يكن يسمع آدميًا حتى ذابت بنيته من المشقة ، وصارت عيناه كسم الخياط ، وتحول عن صورة الآدميين[٤] .

وذكر أن مذهب أبي يزيد البسطامي في المعاملات على الإطلاق ترك الصحبة واختيار العزلة ، وهو يأمر المريدين جميعًا بهذا .

قال الهجويري : « وهذه طريقة محمودة إذا تيسرت »[٥] .

انظر إلى هذه الطريقة المحمودة عندهم ، وقارن بينها وبين الطريقة البوذية في الرهبنة .

إن هاتين الطريقتين لا تختلفان ، ولأوضّح ذلك أكثر أنقل ما جاء في كتاب « تري بيتاكا » تحت عنوان : « العزلة والتبتل » وفيما يلي نصه : -

---

= ترجمته في « طبقات الصوفية » (٢٢١) ، و« الرسالة القشيرية » (١/ ١٣٩) ، و« حلية الأولياء » (١٠/ ٢٣٥) ، و« صفة الصفوة » (٤/ ١٦٥) ، و« كشف المحجوب » (١/ ٣٥٤) .

(١) « الرسالة القشيرية » (١/ ٣٠١) وأورده السهروردي في « عوارف المعارف » (١٢٤) .

(٢) انظر « كشف المحجوب » (١/ ٢٧٠ ، ٢٧١) .

(٣) سبقت ترجمته .

(٤) المصدر السابق (٢/ ٤١٦) .

(٥) المصدر السابق (٢/ ٤١٨) .

يقول بوذا لأتباعه : « الحق أقول لكم أيها الرهبان . . . إن تتاغاتا[١] بوذا قد دخل « نرفانا » ، وتخلص من الذات ، وتخلص من أدوات الهموم والأحزان ، إنه وجد أن حياة العزلة أفضل الحياة ، وأنها أنجى الأسباب من أدوات الهموم ، فليكن رفيقكم العزلة ، ألا تعلمون ! أن جماعتنا « سانغا »[٢] ينبغي لهم ترك الصحبة والاختلاط ، ألا تعلمون أن في العزلة فراغًا ، وأن في الفراغ «سمادهي» وأن « سمادهي » طريق إلى « نرفانا »[٣] .

وقد بسطت القول في هذا الموضوع عند الكلام عن الرهبنة البوذية فلا حاجة لتكراره .

ويرى بعض الصوفية أن الخلوة محدودة بالزمن وهو أربعون يومًا ، وسموا هذه الخلوة بالأربعينية .

وقد فصل السهروردي تفصيلاً دقيقًا عن هذه الأربعينية ، خاصيتها ، وفتوحها ، وكيفية الدخول فيها[٤] ، وقال :

« ليس مطلوب القوم من الأربعين شيئًا مخصوصًا لا يطلبونه في غيرها ، ولكن لما طرقتهم مخالفات حكم الأوقات ، أحبوا تقييد الوقت بأربعين ، رجاء أن ينسحب حكم الأربعين على جميع زمانهم ، فيكونوا في أوقاتهم كهيئتهم في الأربعين»[٥] .

ثم بين أهمية الخلوة والعزلة فقال :

« وقد تقرّر أن الوحدة والعزلة ملاك الأمر ومتمسك أرباب الصدق ، فمن استمرت أوقاته على ذلك ، فجميع عمره خلوة ، وهو الأسلم لدينه .

---

(١) « تتاغاتا » اسم من أسماء بوذا ، ومعناه المتخلص ، وكان يسمي نفسه دائمًا بهذا الاسم .
(٢) أي الرهبان وقد سبقت الاشارة إليه .
(٣) (أبيدارما) (٦٥٠) .
(٤) انظر « عوارف المعارف » من (١٢١ ـ ١٣٠) .
(٥) المصدر السابق (١٢١) .

فإن لم يتيسر له ذلك ، وكان مبتلى بنفسه أولاً ، ثم بالأهل والأولاد ثانيًا ، فليجعل لنفسه من ذلك نصيبًا »[١] .

أي من شغلته نفسه وأهله عن أن يجعل كل عمره خلوة ، فعليه الدخول في الأربعينية ، ومن لم يشغله ذلك فالأفضل أن يكون جميع عمره خلوة .

وقد استدل الصوفية على هذه الأربعينية بكثير من الآيات والأحاديث ، غير أن استدلالهم باطل ، وذلك كاستدلالهم بقصة موسى عليه السلام حينما أمره الله تعالى بتخصيص الأربعين بمزيد تبتل .

قال تعالى :

﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ [٢] .

وهو استدلال غير صحيح لأن ما شرع لموسى فهو شرع خاص له وليس شرعًا لمحمد ﷺ وأتباعه ، فكيف ترك الصوفية شريعة محمد وتمسكوا بشريعة موسى ، وهي شريعة خاصة بل منسوخة بشريعة نبينا ﷺ ؟! ، وهذا مع أن هناك فرقًا كبيرًا بين خلوة موسى وخلوة الصوفية .

وكاستدلالهم أيضًا بحديث :

« **من أخلص لله أربعين صباحًا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه**»[٣] .

وهو حديث غير صحيح كما قال أهل العلم[٤] .

وعلى هذا تبين أن الخلوة أو الأربعينية ليس لها أصل في كتاب الله ولا في

---

(١) المصدر السابق (١٢٧) .

(٢) الأعراف : (١٤٢) .

(٣) « عوارف المعارف » (١٢١) .

(٤) قال ابن الجوزي في « الموضوعات » : هذا حديث لا يصح عن رسول الله . قال : وقد عمل جماعة من المتصوفة والمتزهدين على هذا الحديث الذي لا يثبت ، وانفردوا في الخلوة أربعين يومًا ، وامتنعوا عن أكل الخبز ، ثم يخرج بعد الأربعين فيهذي ويخيل إليه أنه يتكلم بالحكمة ، ولو كان الحديث صحيحًا فإن الإخلاص يتعلق بقصد القلب لا بفعل البدن » . انظر «الموضوعات» (٣/ ١٤٥) وانظر أيضًا « كشف الخفاء » (٢/ ٢٩٢ ، ٢٩٣) (رقم ٢٣٦١) .

سنة رسوله ﷺ ، وإنما هي رهبنة غريبة عن الإسلام ، ولا نستبعد أن نشبه هذه الأربعينية بالرهبنة البوذية التي يعيّنها البوذيون لمريديهم مدة ثلاثة أشهر ، لأن الأمر لا يختلف كثيراً بينهما .

وقد اشترط لمن دخل في هذه الخلوة شروط كثيرة ، منها : أن يجرد نفسه عن العالم وعن كل ما يملك ، وأن يقلل فيها الطعام ، وأن تكون عبادته فيها الصلوات الخمس بسننها الراتبة فحسب ، وأن يلازم الذكر الواحد في سائر أوقاته بحيث لا يتخللها فتور ولا يوجد منه قصور[1] .

وزاد الغزالي على هذا فأمر المريد أن يخلو بنفسه في زاوية مع الاقتصار على الفرائض والرواتب ، ويجلس فارغ القلب مجموع الهم ، ولا يفرق فكره بقراءة قرآن ، ولا بالتأمل في تفسير ، ولا بكتب حديث ، ولا غيره[2] .

وقال في فوائد الخلوة :

إنها دفع الشواغل وضبط السمع والبصر . . . وليس يتم ذلك إلا بالخلوة في بيت مظلم ، وان لم يكن له مكان مظلم فليلف رأسه في جيبه أو يتدثر بكساء أو إزار ، ففي مثل هذه الحالة يسمع نداء الحق ويشاهد جلال الحضرة الربوبية[3] .

انظر إلى هذا الكلام الغريب من فقيه عالم كالغزالي ، وقد تساءل ابن الجوزي فقال :

« . . . من أين له أن الذي يسمعه نداء الحق ، وأن الذي يشاهده جلال الربوبية ، وما يؤمنه أن يكون ما يجده من الوساوس والخيالات الفاسدة ؟ »[4] .

ويكفينا في رد هذه الخلوة والعزلة ما أشار إليه القرآن الكريم

(١) انظر المصدر السابق (١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٧) .
(٢) انظر « إحياء علوم الدين » (٣/ ١٩) (بيان الفرق بين الأوهام والتعلم) .
(٣) المصدر السابق (٣/ ٧٦) (في شروط الإرادة ومقدمات المجاهدة) .
(٤) « تلبيس إبليس » (٢٨٨) .

في قوله تعالىٰ :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾[(١)] .

فقد وصف الله سبحانه وتعالىٰ هذه الأمة بأنها خير أمة أخرجت للناس ، ولكن بشرط أن يقوموا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأنه مبدأ عظيم لهذا الدين ، ومن المعروف بالضرورة أن هذا المبدأ لا يتحقق بالعزلة ، ولا بالخلوة ، ولا بالهروب من المجتمع كما دعا إليها الصوفية ، وإنما يتحقق بالاجتماع مع الخلق والتعامل معهم بالحسنىٰ .

ومن هنا يتبين اتجاه الصوفية السلبي نحو الحياة والناس ، وهو لا يختلف عن اتجاه البوذية ، إذ لكل واحد منهما مظاهر من الفردية والأثرة الضيقة المكتومة ، فالبوذية تنادي بعقيدة الخلاص بأن يدخل كل واحد في الرهبنة ، ويجاهد نفسه وهواه للوصول إلىٰ « نرفانا » دون أن يفكر في الغير ، والصوفية تنادي بعقيدة الفناء والاتحاد بالله بأن يدخل كل واحد في الطريق ، ويعتزل عن الناس خوفًا من شرهم ، وينجو بنفسه وحدها .

إن هذا الاتجاه الصوفي واضح في أقوال كثير من الصوفية منها ما قال الغزالي ـ وهو يفصل فوائد العزلة التي منها التفرغ للعبادة والفكر ، والتخلص من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ قال :

« وفي العزلة خلاص ، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اثارة للخصومات وتحريك لغوائل الصدور . . . ومن جرّب الأمر بالمعروف ندم عليه غالبًا »[(٢)] .

وقال أبو طالب المكي في تفضيل الخلوة :

« الخلوة أفضل المعاني ، وفيها يجد لذة الوجود وحلاوة المعاملة ، ويقبل

---

(١) آل عمران : (١١٠) .

(٢) انظر « إحياء علوم الدين » (٢/٢٢٨ ، ٢٢٩) (الباب الثاني في فوائد العزلة وغوائلها ، والفائدة الثانية التخلص بالعزلة عن المعاصي) .

على نفسه ، ويشتغل بحاله ، ولا يهتم بالحال غيره ، فيحمل حاله على حال غيره فيقصر ، أو يقوم بحكم آخر فيعجز ، ويعالج شيطانًا آخر مع شيطانه ، وتنضم نفس أخرىٰ إلىٰ نفسه ، وله في مجاهدة نفسه ومصابرة هواه وعدوه أكبر الأشغال »[١] .

وروي عن الحارث المحاسبي قال :

« ويسقط عن العبد بالخلوة وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويأمن من مداهنة الناس ، ويورث راحة القلب من عموم الدنيا ، ويوقى شرور الخلق وكلفة مداراتهم »[٢] .

وغير هذا من الأقوال والآراء التي تدعو هذه الأمة إلىٰ إضعاف الكيان الإسلامي بترك الدعوة وترك الجهاد في سبيل الله ليسقطوا أمام الأعداء[٣] .

هذا وإن كنا لا ننكر أن هناك عزلة مشروعة في الإسلام ورد ذكرها في الأحاديث[٤] في حالة حدوث الفتن وسوء أحوال الناس آخر الزمان ، إلا أن هذه

---

(١) « قوت القلوب » (٢/ ٢٣٨) .

(٢) « حياة القلوب على هامش قوت القلوب » (٢/ ٩٩) .

(٣) ويجدر بي أن أشير هنا إلىٰ بعض المواقف الصوفية تجاه الجهاد ، فها هو الغزالي الزعيم الصوفي الكبير ، وقد سقط بيت المقدس في يد الصليبيين عام (٤٩٢ هـ) ، والغزالي على قيد الحياة إذ توفي (سنة ٥٠٥ هـ) ، ولكن لم يحرك منه هذا الحادث الجلل شعوراً واحداً ، ولم يجر قلمه بشيء ما عنه في كتبه ، وابن عربي وابن الفارض الزعيمان الصوفيان الكبيران ، عاشا في عهد الحروب الصليبية ، فلم يسمع عن واحد منهما أنه شارك في قتال ، أو دعا إلىٰ قتال ، أو سجل في شعره أو نثره آهة حسرة على الفواجع التي نزلت بالمسلمين ، لقد كانا يقرران للناس أن الله هوعين كل شيء ، فليدع المسلمون الصليبيين ، فما هم إلا الذات الإلهية متجسدة في تلك الصور ، هذا حال أكبر زعماء الصوفية وموقفهم من أعداء الله !! فهل كافحوا غاصباً أو طاغياً؟ ، من كتاب « هذه هي الصوفية » (١٧٠ ، ١٧١) بتصرف .

(٤) منها ما رواه البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الماشي ، والماشي فيها خير من الساعي ، من تشرف لها تستشرفه ، فمن وجد ملجأ أو معاذًا فليعذ به » . « صحيح البخاري » (٤/ ٢٢٥) كتاب الفتن باب تكون فتنة القاعد فيها خير من القائم (رقم ٧٠٨١) . ومن الآثار ما روي عن سعد بن أبي وقاص أنه كان ممن=

العزلة ما هي إلا حالة خاصة ، وتزول مشروعيتها بزوال الفتن ، بخلاف الصوفية الذين يجعلونها ركنًا من أركانهم وأصلاً من أصولهم[(١)] .

وعلى هذا فلم يشر الرسول ﷺ إلى هذه العزلة في حديث تغيير المنكر الذي قال :

« من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وهذا أضعف الإيمان »[(٢)] .

أي إن أدنى مرتبة في تغيير المنكر هو الإعراض عنه بالقلب دون العزلة ، والخلوة ، والتفرد عن الناس .

كما ورد النهي عامة عن العزلة في الحديث الذي رواه أبو هريرة - رضي الله عنه - قال :

« مر رجل من أصحاب الرسول ﷺ بشعب فيه عيينة من ماء عذبة ، فأعجبته لطيبها ، فقال : لو اعتزلت الناس فأقمت في هذا الشعب ، ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله ﷺ ، فذكر ذلك لرسول الله . فقال : لا تفعل فإن مقام أحدكم في سبيل الله خير من صلاته في أهله ستين عاماً ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم وتدخلون الجنة ؟ اغزوا في سبيل الله ، فإنه من قاتل في سبيل الله فواق ناقة أدخله الله الجنة »[(٣)] .

=اعتزل أيام الفتنة ، فلم يكن مع واحد من الفريقين ، وهناك آثار أخرى في هذا الموضوع ذكرها الشيخ أبو سليمان حمد الخطابي البستي في كتابه « العزلة » (ص١٢) (ط٢/ ١٣٩٩ هـ المطبعة السلفية) .

(١) قال الشيخ محمد الحامد شيخ من شيوخ الطريقة النقشبندية : « إن أركان الطريقة الصوفية خمسة : وهي الذكر ، والبعد عن الناس قدر الإمكان ، والصمت ، وعدم الإمعان في الشبع ، وصحبة الشيخ المرشد الكامل جسداً وروحاً » ، من كتاب الشيخ محمد الحامد لعبد الحميد طهماز (ص١٧٣ ، ١٧٤) .

(٢) رواه مسلم عن أبي سعيد « صحيح مسلم » (١/ ٦٩) كتاب الإيمان باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان (رقم ٤٩) .

(٣) رواه الترمذي وقال : هذا حديث حسن « سنن الترمذي » (٣/ ١٠١ ، ١٠٢) (رقم ١٧٠٢) .

٦ ـ الذكر والمراقبة :

يعتبر الذكر والمراقبة آخر مرحلة من مراحل الطريق الصوفي ، وعن طريقهما يجتهد الصوفيون في الوصول إلىٰ الفناء بعد أن قطعوا مرحلة مرحلة من مراحل طريقهم ، ويشير إلىٰ ذلك ما يقوله الغزالي :

« إن طريقة المجاهدة مضادة الشهوات ومخالفة الهوىٰ في كل صفة غالية علىٰ نفس المريد ، فإذا كفىٰ ذلك ، أو ضعف بالمجاهدة ، ولم يبق في قلبه علاقة ، شغله بعد ذلك بذكر يلزم قلبه علىٰ الدوام »[(١)] .

بل ينصح القشيري أن لا يلقن الشيخ مريده شيئًا من الأذكار ما لم يتجرد المريد عن كل علاقة[(٢)] .

وقد تقدم في الكلام عن البوذية أن البوذيين لكي يبلغوا أرقىٰ درجات الفناء يتقدمون مرحلة مرحلة من مراحلهم الثلاث وهي :

١ ـ سيلا (Sila) وتساوي في الصوفية التقيد بالأحوال والمقامات .

٢ ـ سمادهي (Smadhi) وتساوي في الصوفية الذكر والمراقبة .

٣ ـ بانيا (Panya) وتساوي في الصوفية الفناء والكشف .

والذكر عند الصوفية هو غياب الذاكر عن مذكوره ، يقول ذو النون المصري وقد سئل عن الذكر فقال :

« هو غيبة الذاكر عن الذكر »[(٣)] .

وهو الحال التي يتحقق فيها الصوفي بوحدته الذاتية مع الله فذكر الله عندهم هو الحضور مع الله والفناء فيه .

وعلىٰ هذا قال أبو العباس الدينوري[(٤)] .

---

(١) «إحياء علوم الدين » (٣/ ٧٨) (في شروط الارادة ومقدمات المجاهدة) .

(٢) انظر « الرسالة القشيرية » (٢/ ٧٣٧) .

(٣) المصدر السابق (٢/ ٤٧١) .

(٤) هو أحمد بن محمد أبو العباس الدينوري وهو من أفتىٰ المشايخ ، ورد نيسابور وأقام بها مدة ، =

« اعلم أن أدنى الذكر أن ينسى ما دونه ، ونهاية الذكر أن يغيب الذاكر في الذكر عن الذكر ويستغرق بمذكوره عن الرجوع إلى مقام الذكر ، وهذا حال فناء الفناء »[(١)] .

وهكذا الحال عندهم في المراقبة كما بينها الغزالي في كتابه « الإحياء »[(٢)] .

والفناء في الذكر والمراقبة على هذا الشكل لا يختلف كثيراً عن فناء البوذيين الذين يستغرقون في التأمل والمراقبة ، وذلك حينما يصبح المتأمل وموضوع التأمل شيئًا واحدًا .

وباب الذكر عند الصوفية باب واسع ، لأن كل طريقة من الطرق الصوفية يضع أصحابها أذكاراً وأوراداً مخصوصة لأتباعهم ومريديهم ، ويضعون لكل ذكر شروطًا وخصائص .

ولكي أثبت الصلة بين الصوفية والبوذية في هذا الموضوع أورد فيما يلي بعض الجوانب الصوفية التي تشبه ما تقدم في البوذية وسأكتفي بإيراد بعض الطرق الصوفية دون بعض حبًا للاختصار .

أ ـ في صفة تلقي الأوراد والأذكار من الشيخ :

أشرت في حديثي عن الأخلاق البوذية إلى أن البوذيين عندما أرادوا التقيد والعمل بالوصايا البوذية يذهبون إلى مشايخهم الرهبان ويتلقون منهم الوصايا ، وقد بينت هناك بعض طقوسهم في هذا التلقي وهي شبيهة جداً بما في الصوفية من صفة تلقيهم الأوراد أو الأذكار من الشيخ .

= ثم رحل إلى سمرقند ، ومات بها بعد (سنة ٣٤٠ هـ) انظر ترجمته في « طبقات الصوفية » (٤٧٥) ، و« حلية الأولياء » (١٠/ ٦٥٧) ، و« الرسالة القشيرية » (١/ ١٨٩) .

(١) « طبقات الصوفية » (٤٧٧) ، و« حلية الأولياء » (١٠/ ٣٨٣) ، ومثل هذا ما قال الكلاباذي انظر « التعرف لمذهب أهل التصوف » (١٢٣ ، ١٢٦) .

(٢) (٤/ ٣٩٨ ، ٣٩٩) .

وهنا أنقل ما ورد في أحد الكتب الصوفية لنرىٰ مدىٰ هذا التشابه بين المذهبين ، ورد في كتاب « سير السالكين »[١] تحت عنوان « شروط تلقي الأذكار من الشيخ المرشد » شروط كثيرة أذكر منها ما يتعلق بهذا الموضوع :

« أن يكون التلقي من الشيخ بالتلقين ، فيأمر الشيخ مريده أن يتوضأ وأن يجلس في خلوته جلوسًا متمكنًا ، وأن يغمض عينيه وأن يفرغ قلبه عن الأشياء الخارجية الشاغلة للقلب ، ثم يلقنه الورد الذي اختاره الشيخ ، فيأمر أن يذكره بلسانه ، وأن يستوي بقلبه مع لسانه[٢] وأن يردده ثلاث مرات في كل تلقين . . .

وبعد التلقين يتعهد المريد أمام الشيخ بالحفظ علىٰ الورد طول حياته مهما حدث له من المشقات ، ومهما يستقبله من الذل والفقر فلا ينصرف عنه[٣] .

ومن الحكايات التي أوردها المؤلف في هذا الصدد ، أن أحد المريدين كان يلتزم بورد شيخه ، ولم ينصرف عنه ألبتة ، ثم لما أصابه المرض الشديد ترك الورد وتوفي ، ورآه شيخه في منامه أنه معذّب في قبره بسبب عدم حفاظه علىٰ الورد[٤] .

وهذه الحكاية بطلانها واضح إذ كيف يعذب الله من ترك الورد وهو ليس واجبًا من واجبات الشرع ولا سنة من سننه ، إنه من اختراع الشيخ لمريده ولم يأت به الشرع الحكيم .

وغير هذا من الحكايات والمنامات الصوفية التي لا تفيد من الحق شيئًا .

---

(١) للشيخ العارف بالله عبد الصمد الفلمباني القادري المتوفى (١١١٢ هـ) من أحد الشخصيات الصوفية البارزة بمدينة كلنتان « ماليزيا » والكتاب مكتوب بلغة المؤلف وهي الملايوية ، ومطبوع ومتداول بين أيدي الكثير من علماء المسلمين في بلاد جنوب شرقي آسيا ، كما هو مدرّس في كثير من المدارس والحلقات الإسلامية هناك .

(٢) ذكر القشيري مثل هذا ، انظر « الرسالة القشيرية » (٢/ ٧٣٧) .

(٣) (ص ٤٧) .

(٤) (ص ٥١) .

ب ـ في الاستمداد من الشيخ واستحضاره عند الذكر :

تقدم في البوذية[١] أن البوذيين عامة يستمدون العون من بوذا ويتخيلون صورته عند صلواتهم وتراتيلهم ، وعند ممارستهم « سمادهي » كذلك نجد هنا في الصوفية أنهم يستمدون العون والمدد من شيخهم ويستحضرونه عند الذكر .

جاء في رسالة للشيخ أحمد عبد المنعم الحلواني في الرد على الكفراوي[٢] تحت عنوان « آداب الذكر »[٣] قال فيها :

« وأن يستحضر شيخه ، فالطريق تحتاج للرفيق ، وأن يستمد منه عند الشروع فيه ؛ فيقول : « مددك يا أستاذي » ، وأن يرى أنّ استمداده منه عين استمداده ﷺ ، فإنه الواسطة إليه ، وأن يستأذن شيخه بقلبه كذلك فيقول : «دستور يا أصحاب الطريق والقدم » ، ثم قال : « إن استحضار الشيخ من أكبر الآداب عند الصوفية » .

إن هذه الآداب موجودة لدى كثير من أصحاب الطرق ، فالنقشبندية مثلاً يستحضرون صورة شيخهم عند الذكر ويستمدّون منه البركة .

جاء في كتاب : « المواهب السرمدية في مناقب النقشبندية »[٤] : تحت عنوان : « آداب الذكر عند النقشبندية » النص التالي :

« ثم تقرر صورة مرشدك ، وتحفظ صورته في خيالك في غيبته وحضوره ، وتعمق النظر من ناصيتك إلى ناصيته ، وتستمد البركة منه بالقلب ، ثم تطرح الصورة بالخيال في وسط قلبك فيحصل لك فائدة الجمعية كما تحصل الفائدة من الذكر » .

---

(١) راجع الرياضة النفسية وأيضاً الاجتماع لذكر التراتيل البوذية .
(٢) هذه الرسالة مطبوعة ضمن رسائل « في فقه التصوف والذكر » ط (١٣٦١هـ) .
(٣) (ص ٢٨ ، ٢٩) .
(٤) للشيخ محمد أمين الكردي النقشبندي (ص٣١٤) .

وكذلك التجانية الذين يستمدون من شيخهم التجاني ؛ جاء في كتاب « الدرر السنية في شروط وأحكام أوراد الطريقة التجانية »[١] :

« من شروط الطريقة التجانية في الذكر : الشرط الثاني والعشرون : يستحضر صورة الشيخ في حال قراءة الورد ويستمدّ منه . . . وهذا الاستحضار يكون من أول قراءة الورد إلىٰ آخره إن أمكن ذلك ، وإلا فليستحضر في أول الذكر ، ثم يعاود الاستحضار مرة بعد أخرىٰ » .

كما جاء في كتاب « الرماح »[٢] : « ثم جعل خيال شيخه بين عينيه ، فإنه رفيقه في طريقه ، وهو معه بمعناه وبروحانيته ، فإن من هو شيخ حقيقة تكون روحانيته رفيقة ، ومتعلقة بروحانيته كلّ واحد من مريديه وإن كانوا ألفًا » .

قال علي بن محمد الدخيل الله في كتابه « التجانية »[٣] :

« إن التجانيين يؤمنون بعقيدة الاستمداد من الشيخ التجاني ، وأنه يعطي ويمنع ، ويشفي ، ويمرض ، ويجيب دعاء المضطر وغير ذلك » ، ونقل كثيراً من أقوالهم .

فالشيخ عندهم هو الذي يعطي المدد والعون ، ويقضي الحوائج لمن طلبها منه . وعلىٰ هذا قال صاحب « الدرّة الخريدة »[٤] : « فإذا استمد من شيخه جاءه المدد » .

وهكذا فإن التجانيين طلبوا من شيخهم المدد والعون والحوائج كما طلب البوذيون من بوذا ومن قديسيهم ، ومثل هذا يوجد في كل طريقه من الطرق الصوفية كالنقشبندية وغيرها[٥] .

---

(١) لمحمد سعد بن عبد الله الرباطابي المالكي التجاني العباسي (ص٨) .
(٢) (ص٢/ ١٥٤) ، وقد سبقت الإشارة إلىٰ هذا الكتاب ومؤلفه .
(٣) انظر (ص١٨٤ ، ١٨٧) .
(٤) هو محمد فتحا بن عبد الواحد السوسي النظيفي ، انظر تعريف هذا الكتاب في المصدر السابق .
(٥) انظر « النقشبندية عرض وتحليل » لعبد الرحمن دمشقية (٢٣) الطبعة الأولىٰ (١٤٠٤ هـ ١٩٨٤م) دار الطيبة الرياض وأيضاً « شفاء العليل ترجمة القول الجميل » للشاه ولي الله الدهلوي =

جـ ـ في الاجتماع للذكر على صوت واحد مع التمايل :

ومما يشبه ما في البوذية في أوضاع الذكر أنهم يجتمعون للذكر على صوت واحد ويرفعون أصواتهم مع تمايلهم يمينًا وشمالاً[١] .

جاء في رسالة لأحمد عبد المنعم الحلواني تحت عنوان : «آداب الذكر»[٢] فقرة (١٩) : وأن يهتز من فوق رأسه إلى أصل قدميه فإنه أبعث للهمة وأقرب للفتح، فقرة (٢٠) : وأن يبدأ بـ « لا » يمينًا ويرجع بـ « إله » فيتوسط ، ويختم بـ «إلا الله » يسارًا قبالة القلب ، فإن ذكر اسمًا مفردًا كـ « الله » و « هو » ضرب بذقنه على صدره » .

وعند التجانيين اجتماعات كثيرة لذكر الأوراد ، وخاصة الاجتماع لذكر ما يسمونه بالوظيفة[٣] ، وذكر الهيللة بعد صلاة العصر يوم الجمعة وغيرهما ، ولهذه الأذكار شروط معينة ، فمن شروط الوظيفة وأحكامها الاجتماع مع الإخوان ، وهذا الاجتماع له شروط منها التحليق ، ومنها الجهر ، لأنه لا معنى للاجتماع إذا ذكر كل واحد وحده سرًا .

قال بعض السادة الصوفية :

« إن الذاكر مع الإخوان جهرًا يثاب على ذكره ، وعلى سماع ذكر غيره ،

= (٨١) طبعة باكستان (١٢٦٠هـ) .

(١) والحقيقة أن الصوفية أدخلوا على الذكر أمورًا كثيرة ، ابتعدت عن جوهره ، وفوائده ، وآدابه ، منها الرقص والصراخ ، ومنها الذكر باللهو والموسيقى كالدق والشبابة ، والذكر بأصوات بلهاء مثل « ها » و « هو » و« هي » ومرافقة الذكر بشدة الحركة .

(٢) (ص ٣٠) .

(٣) يقرأ في اليوم مرة إما صباحًا وإما مساءً فإذا قرئت في الوقتين كان أفضل وهي :

١ ـ استغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحيّ القيّوم وأتوب إليه (ثلاثين مرة) .

٢ ـ ثم صلاة الفاتح لما أغلق (خمسين مرة) .

٣ ـ ثم لا إله إلا الله (مائة مرة) .

٤ ـ ثم جوهرة الكمال (اثني عشرة مرة) . من كتاب « التجانية » (٢٦٠) .

وعلىٰ تدبر معاني الذكر » .

ومن شروطها أيضًا عدم التخليط في الذكر .

قال ناظم المنية :

وشرطه التحليق والجهر كذا عدم تخليط فراع المأخذا[1]

وقال صاحب « الرماح »[2] :

« فالذاكرون إذا كانوا مجتمعين علىٰ الذكر ، فالأولىٰ في حقهم رفع الصوت بالذكر » .

ولا شك أن هذه الأوضاع الصوفية للذكر من الاجتماع والتمايل ورفع الصوت كلها مخالفة للسنة وعمل الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ فلم يرد من الرسول ﷺ ، ولا من الصحابة ، والسلف الصالح أنهم يذكرون ربهم بهذا الشكل .

ويكفينا في رد هذا ما أرشد إليه القرآن الكريم في قوله تعالىٰ :

﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾[3] .

فأين التضرع وأين الخفية في مثل هذه الأوضاع ؟ !

د ـ في الزعم بأن الرسول ﷺ والخلفاء الأربعة يحضرون عند الذكر:

ولم يكتفوا بهذه الأوضاع والشروط المنكرة في الذكر ؛ بل يزعمون أن الرسول ﷺ والخلفاء الأربعة يحضرون عند مجلس ذكرهم جسدًا وروحًا ، وهو كما يعتقد البوذيون في بوذا أنه يحضر عند ذكر تراتيله كما تقدم .

---

(١) « الدرر السنية » (١٨) بتصرف .

(٢) « هامش جواهر المعاني » (١/ ١٦٩) .

(٣) الأعراف : (٥٥) .

قال صاحب كتاب « الدرر السنية »[1] :

« قال سيدي أحمد التجاني ـ رضي الله عنه ـ إن النبي ﷺ والخلفاء الأربعة يحضرون لقراءتها (أي الوظيفة) عند السابعة منها ، وفي « جواهر المعاني » وغيره من كتب الطريقة ، إذا ذكرها الواحد من أهل هذه الطريقة منفرداً أو في جماعة كما هو الشأن يحضره النبي ﷺ والخلفاء الأربعة ـ رضي الله عنهم ـ ، ويستمر حضورهم معه ما دام يذكرها إلىٰ أن يفرغ منها ، وهو كما عرفته يقرأ اثنتي عشرة مرة في الوظيفة ، فيكون حضوره ﷺ هو وأصحابه الأربعة ـ رضي الله عنهم ـ من السابعة إلىٰ ختم الوظيفة بلا شك ، والحضور المذكور هو الأرواح والذات كما أخبر سيدي أحمد التجاني ـ رضي الله عنه ـ » .

وأورد ما قال صاحب « المنية » :

ومن تلا جوهرة الكمال[2] سبعاً يكون سيد الأرسال
والخلفاء الراشدون الأربعة مادام ذاكراً لها بعد معه
وذلك بالأرواح والذوات وليس للمنكر من نجاة

ثم قال : « وهذا الحضور من النبي ﷺ والخلفاء الأربعة ـ رضي الله عنهم ـ حاصل للذاكر قطعاً ، ولا يبحث عن الكيفية في ذلك ، لأنه من باب خرق العادة ، والتسليم لذلك أسلم » .

وهذا الزعم مخالف للشرع والعقل إذ لم يرد في القرآن شيء يدل علىٰ

---

(١) (ص١٩) .

(٢) انظر نص هذا الورد في كتاب « التجانية » (٢٦١ ، ٢٦٢) ، وقد زعم التجانيون أن جوهرة الكمال من إملاء الرسول ﷺ للشيخ أحمد التجاني يقظة لا مناماً ، فمن فضلها الذي ذكره الشيخ أن المرة الواحدة منها تعدل تسبيح العالم ثلاث مرات ، وأن من لازمها كل يوم سبع مرات يحبه النبي ﷺ ، وأن النبي ﷺ والخلفاء الأربعة يحضرون مع الذاكر عند السابعة منها ، ولا يفارقونه حتىٰ يفرغ من ذكرها . . . وغير هذا من الفضائل المزعومة ، انظر « جواهر المعاني » (٢/٢٢٨) و« الدرر السنية » (٢٥ ، ٢٦) .

حضور النبي ﷺ بروحه وذاته بعد موته في الدنيا ، وكذلك لم يرو شيء من السنة المطهرة ، والرسول ﷺ قد مات . قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾[١] .

فادعاء حياته أو حضوره بعد موته قبل يوم القيامة مستحيل ، وهكذا شأن غيره من الخلفاء وغيرهم ، أما ما ورد في أن الأنبياء أحياء في قبورهم وكذلك الشهداء ، أو ما ورد عن الرسول ﷺ أنه تردّ عليه روحه حتىٰ يردّ السلام علىٰ من سلم عليه[٢] ، فإن تلك حياة برزخية تختلف عن هذه الحياة ، ولذا يقتصر في شأنها علىٰ ما ورد في النصوص .

أما الادعاء بأن هذا من الكرامة وخرق العادة فادعاء باطل ، لأن الله لا يكرم أحداً بما يخالف النصوص الشرعية الثابتة من الكتاب والسنة .

هـ ـ في الذكر والمراقبة على طريقة التنفس :

ومما يشبه البوذية في هذا الموضوع أنهم يمارسون الذكر علىٰ طريقة التنفس أو مراقبة الأنفاس ، وهي طريقة معروفة عند الرهبان البوذيين في رياضاتهم « سمادهي » .

وقد تسربت هذه الطريقة في بعض الصوفيين فاستحسنوها وجعلوها طريقة من طريقة ذكرهم .

ومن الأمثلة التي توضح ذلك ما ذكره صاحب رسالة الحلواني تحت عنوان « آداب الذكر »[٣] :

« وأن يزمّ نفسه (بفتح الفاء) في سكوته مراراً من ثلاثة إلىٰ سبعة إلىٰ أكثر بحسب قوة عزمه ، وأن يفك نفسه بقوله جهراً « لا إله إلا الله » وهذه السكتة

(١) الزمر : (٣٠) .
(٢) رواه أبو داود ، انظر « عون المعبود » (٦/ ٢٦) الطبعة الثانية (١٣٨٨ هـ) . المكتبة السلفية ، ورواه أحمد في « المسند » (٢/ ٥٢٧) .
(٣) (ص٣٤) .

بآدابها كالمجمع على وجوبها عندهم فإنها أسرع إلى تنوير البصيرة ، وكشف الحجب ، وقطع خواطر النفس والشيطان » .

وقال في « آداب عند ختم الذكر »[1] :

« وأن يسكت عقب ذلك مطرقًا رأسه ، غاضًا بصره ، واضعًا يديه على فخذيه ، وأن يسكن في سكوته لعل واردًا يرد عليه ، فيعمر وجوده في لحظة ما لا تعمره المجاهدة في أكثر من ثلاثين سنة ، فإن للذكر واردات ترد بها الملائكة على قلب الذاكر ، ولا يتمكن الوارد من القلب إلا بذلك فيتمهل حتى يتم ويتمكن » .

ومن الأمثلة أيضًا ما ذكر صاحب كتاب « « الآداب العربية في شبه القارة الهندية »[2] ، وهو يتحدث عن الكتب الهندية في التصوف فقال :

« ومن الكتب الهندية في التصوف « الرسالة في سلوك خلاصة السادات النقشبندية » ، ألفها تاج الدين زكريا (١٠٥٠ هـ ـ ١٦٤٠ م) الذي ألف كثيراً من الرسائل في التصوف . . .

وفي الفصل الثاني يشرح كيف يتحقق الاتحاد بالله ؟ ويقترح لهذه الغاية طريقين فقط إما بملازمة الأولياء ، وإما لذكر ، ثم يصف طرقًا لرياضات الذكر في الطريقة النقشبندية وأهم شيء يلفت النظر في هذا هو عملية الشهيق والزفير ، فبعد أن يغلق المريد عينيه يكرر تمتمة باللسان من باطن الفم ، وأيضًا يردد ذهنيًا هذه الجملة : « لا إله إلا الله » ، بحيث تبدأ الجملة ذهنيًا بالشهيق وتنتهي بالزفير »اهـ .

وقال الشاه ولي الله الدهلوي ـ وهو يفصل تفصيلاً دقيقًا عن كيفية الذكر عند الطرق الصوفية ـ : فذكر أن في الطريقة الجيلانية ما يسمى بالذكر الخفي

---

(١) (ص٣٣) .

(٢) (ص١٢٦ ، ١٢٧) والكتاب ألفه بالإنجليزية الدكتور زبيد أحمد وترجمه إلى العربية وعلق عليه الدكتور عبد المقصود محمد شلقامي .

ومنه النفي والإثبات ، وصفته إما كذكرنا في الجهر وإما بأن يكون مستيقظًا مطلعًا على أنفاسه ، فإذا خرج النفس بطبيعته مع غير قصده وإرادته قال مع خروجه : « لا إله » بلسان القلب ، وإذا دخل قال مع دخوله : « إلا الله » قال الأكابر : وهذا بأس أنفاس ، وله أثر عظيم في نفي الخواطر وزوال حديث النفس[1] .

ثم تحدث عن الجشتية وهم أصحاب إمام الطريقة خواجه معين الدين حسن الجشتي ، وذكر طريقة ذكرهم منها ما يسمونه بالذكر الجلي ، ولقن الشيخ تلميذه قائلاً :

اجتهد أن لا يأتي عليك زمان إلا وأنت ذاكر . . . واعلم أن قلبك له بابان : باب فوقاني ، وباب تحتاني ، أما الباب الفوقاني ففتحه بالذكر الجلي ، وأما التحتاني ففتحه بالذكر الخفي ، فإذا أردت الذكر الجلي . . . فاجلس جلسة الصلاة مستقبلاً القبلة باجتماع العزيمة ، ثم قل : « لا إله إلا الله » بالشدّ والمدّ ، وأخرج القوة من داخل القلب ، وأخرج لفظ « لا » من السرة ، ومدّدها إلى المنكب الأيمن ولفظ « إله » من أم الدماغ ، تشير بذلك أنك أخرجت حب من سوى الله تعالى من باطنك ، وألقيته خلفك ، فتنفس نفسًا آخر ، فاضرب « إلا الله » في القلب بالشدة والقوة، ويلاحظ المبتدئ نفي العبودية من غير الله تعالى، والمتوسط نفي المقصودية ، والمنتهي نفي الوجود . . . وإذا أردت بأس الأنفاس (مراقبة الأنفاس) فكن مستيقظًا واقفًا على أنفاسك ، فكلما خرج النفس فقل مع خروجه : « لا إله » ، كأنك تخرج محبة كل شيء سوى الله من باطنك ، وإذا دخل النفس فقل مع دخوله : « إلا الله » ، كأنك تدخل وتثبت محبة الله في قلبك ، قالوا : الركن الأعظم ربط القلب بالشيخ ، على وصف المحبة ، والتعظيم ، وملاحظة صورته . . .[2] .

---

(١) انظر « شفاء العليل ترجمة قول الجميل » (٥٦ ، ٥٧) .
(٢) انظر المصدر السابق (٨١ ، ٨٢) .

وتحدث عن النقشبندية مثل هذه الطريقة في الذكر ، وهو ما يسمونه بالنفي والإثبات ، فمن صفاته : أن يضم المريد شفتيه ، ويغمض عينيه ، ويحبس نفسه في بطنه ، ويقول بالقلب : « لا » يخرجها من سرته إلىٰ الأيمن ، ويمدّها حتىٰ يصل إلىٰ منكبه ، ثم يحرك منكبه إلىٰ رأسه فيقول : « إله » ثم يضرب في قلبه بالشد « إلا الله » .

قالوا : لحبس الأنفاس خاصية عجيبة في تسخين الباطن ، وجمع العزيمة ، وهيجان العشق ، وقطع أحاديث النفس ، ويتدرج في الحبس لئلا يثقل عليه ، والمراد بالحبس غير المفرط ، وكذلك لعدد الوتر خاصية عجيبة فيقول أولاً هذه الكلمة مرة في نفس واحد ، ثم يقول ثلاث مرات في نفس واحد ، وهكذا يتدرج حتىٰ يصل إلىٰ واحد وعشرين مع المراعاة علىٰ عدد الوتر .

ثم قال ولي الله الدهلوي :

سمعت سيدي الوالد يقول : النفي والإثبات أنفع للسلوك ، فالإثبات أفيد للجذب ، وصفته أن يخرج لفظة « الله » من سرته بالشد التام ، ويمدها حتىٰ يصل إلىٰ أم دماغه مع الحبس والتدريج في الزيادة ، حتىٰ إن منهم من يقولها في نفس واحد ألف مرة ، وقد رأيت امرأة من مخلصات سيدي الوالد تقولها ألف مرة في نفس واحد ، وأكثر من ذلك أيضًا ، وسمعت من سيدي الوالد يحكي عن نفسه أنه كان في البداية يقول النفي والإثبات في نفس واحد مائتي مرة[١] .

هذه هي طريقة الذكر عند الصوفية ، ولا يفهمون معنىٰ الذكر إلا هذا ، فأين هذا من الغاية التي ذكرها الله سبحانه وتعالىٰ كنتيجة طبيعية للذكر في قوله تعالىٰ : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [٢] .

وقد تقدّم ردّنا علىٰ مثل هذا فلا نعيده ، والعجب من المحدث الكبير الشاه

---

(١) المصدر السابق (٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥) بتصرف وانظر أيضًا الذكر علىٰ طريقة التنفس في « المواهب السرمدية » (٣١٦ ، ٣١٧) ، و« السلسبيل المعين في الطرائق الأربعين » (٧٤ ، ٧٥) .

(٢) الرعد : (٢٨) .

ولي الله الدهلوي الذي أورد هذه المبتدعات في كتابه ولم يرد عليها بشيء بل أيدها كما تبين من كلامه السابق ، شأنه كشأن غيره من العلماء إذ لا أحد فوق الخطأ مهما بلغ في العلم ما عدا الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

* * *

المبحث الثالث

في الحلول

عقيدة الحلول في البوذية :

تقدم في البوذية[١] بعض الإشارة إلىٰ أن عقيدة الحلول أو التجسّد الإلهي (أواتار) (Awatar) ظهرت في البوذية في المذهب الجديد (مهايان) (Mahayan) ، وانتشر هذا المذهب قبل الإسلام في شمال الهند ، وفي فارس ، وفي كثير من بلاد آسيا الوسطىٰ ، وقد اعتقد أصحاب هذا المذهب في شخص بوذا بأنه صورة من الإله تجسد فيه لينقذ الناس من آلام الحياة ، كما اعتقد النصارىٰ في شخص المسيح بأنه مجسّد فيه الله سبحانه أو بحلول اللاهوت في الناسوت فيه ليكون فداء للناس عن ذنبهم الأول ، غير أن البوذيين أتباع هذا المذهب زادوا علىٰ النصارىٰ بقولهم : إن الطبيعة الإلهية قد تحل في الطبيعة البشرية إذا كانت مستعدة لها[٢] .

فكل إنسان يستطيع أن يرتقي إلىٰ مرتبة بوذا بأن يجاهد نفسه ويهذبها من رغبات العالم ومن صفات البشرية ، فعند ذلك يتجسد فيه الإله ، ويتصف بصفاته ، وينقذ غيره بالمعرفة[٣] .

ومن نصوص مذهب « مهايان » التي يستدل بها في هذا الصدد :

قال بوذا : « إن الشخص يقدر علىٰ رفع مصيره حتىٰ مستوىٰ الآلهة ، أو يخفضه حتىٰ الدرك الأسفل ، من يرتفع يقدر علىٰ الهبوط ، ومن يهبط يستطيع

---

(١) راجع (قضية الألوهية عند بوذا وأتباعه) ، وأيضًا (المذاهب البوذية) .

(٢) « بوذية مهايان » (٦١) و« الفلسفة الهندية » (٢٨١) .

(٣) انظر « المذاهب البوذية » (٢١٢ ، ٢١٣) ، و« الفلسفة الهندية » (٢٨٢) .

الصعود . . . : الحق أقول لكم : إني في حياتي هذه قد دخلت « نرفانا » واضمحلت حياة « خوتاما » (Goatama) وتخلصت من الذات بحلول الحق فيّ، إن هذا الجسد الذي ترونه هو جسد « خوتاما » فسيفنى في وقت ما ، أما الحق فلم يفن إنه يبقى وسيحل في كل بوذا المستنير (بودهي ساتغا) (Buddha Sauwa)[١] ومن هنا أصبح هدف البوذيين (مهايان) الوصول إلى رتبة « بوذا المستنير » وقد أثبتوها لأشخاص عديدة من قديسيهم[٢] .

ويبدو لي أن هذه العقيدة المهايانية هي التي تسربت في النصارى ، فوصفوا المسيح كما وصف البوذيون بوذا ، كما تسربت فيما بعد في بعض الفرق الضالة في الإسلام ، مثل الروافض ، والقرامطة والإسماعيلية ، وغيرها[٣] وفي بعض الفرقة الصوفية التي نحن بصدد الكلام عنها .

عقيدة الحلول في الصوفية :

ظهر مذهب الحلول بين الصوفيين في القرن الثالث للهجرة بعد ما مهّد له أبو يزيد البسطامي الفارسي (ت ٢٦١ هـ) بنظرية الفناء التي تقدم تفصيلها ، وكان من أشهر المتصوفة القائلين بالحلول والمصرحين به الحسين بن منصور الحلاج (ت ٣٠٩) الذي قال أبياته المشهورة .

سبحان من أظهرنا سوته[٤]   سرّ سنا لاهوته الثاقب

---

(١) « بوذية مهايان » (١٤١ ، ٢٤٢) وكلمة « بودهي ساتغا » (تعني بوذا المستقبل وقد فسر المذهب الجديد بأن المراد بالحق هو الإله الذي يسمونه « براهمات ساتجا » (Brahmat Satja) وفسر المذهب القديم بأن المراد هو دهارما (Dharma) أي التعاليم والشرائع .

(٢) ذكرت بعض المراجع البوذية اثنين منهم أحدهما يدعي بوذا « مانشوسري » (Manshusri) والآخر يدعى بوذا « سري آريا » (Sri Ariya) ولم تذكر الفترة التي عاشا فيها ، انظر « المذاهب في البوذية » (٢١٥) .

(٣) ذكر عبد القاهر البغدادي أصناف الحلولية وحصرها في عشر فرق انظر « الفرق بين الفرق » (٢٤١ـ٢٥٠) .

(٤) تقرأ بالضم لأنه أدق في الدلالة على نظرية الحلاج كما قال الدكتور أبو العلا عفيفي : « ضبطت كلمة ناسوته بضم التاء على أنها فاعل أظهر لأن الناسوت هو الذي يظهر سر سنا اللاهوت من=

ثم بدا في خلقه ظاهراً　　في صورة الآكل والشارب

حتى لقد عاينه خلقه　　كلحظة الحاجب بالحاجب[١]

إنّ هذه الأبيات واضحة في أن الحلاج آمن بثنائية الطبيعة الإلهية باللاهوت والناسوت ، وآمن بحلول اللاهوت في الناسوت حتى ظهر الإله ـ تعالى الله ـ في صورة الآكل والشارب .

وقد شرح الحلاج عقيدته الحلول كما شرح البوذيون فقال :

« من هذّب نفسه في الطاعة وصبر على اللذات والشهوات ارتقى إلى مقام المقربين ، ثم لا يزال يصفو ويرتقي في درجات المصافات حتى يصفو عن البشرية ، فإذا لم يبق فيه من البشرية حظ حل فيه روح الإله الذي حل في عيسى ابن مريم ، ولم يرد حينئذ شيئًا إلا كان كما أراد ، وكان جميع فعله فعل الله تعالى »[٢] .

فأعلن الحلاج هنا أن كل فرد من الناس قادر على أن يرتقي بمجاهدته إلى رتبة « الإنسان المتأله » أو « الإنسان الكامل » في مصطلحات بعضهم .

وادعى الحلاج لنفسه هذه الرتبة ، وزعم أنه صورة الإله القائمة على الأرض ، ولهذا قال :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا　　نحن روحان حللنا بدنا

فإذا أبصرتني أبصرته　　وإذا أبصرته أبصرتنا[٣]

حيث = أنه المظهر الذي يتجلى فيه الحق ، وهذه هي نظرية الحلاج انظر « في التصوف الإسلامي وتاريخه » (١٣٣) في الهامش .

(١) « تاريخ بغداد » للخطيب البغدادي (٨/ ١٢٩) ، و« البداية والنهاية » لابن كثير (١١/ ١٣٣) ، و«تلبيس إبليس » (١٧١) ، و« مصرع التصوف » (١٧٧ ، ١٧٨) ، وقد ذكر الحلاج هذه الأبيات وأمثالها في كتابه « الطواسين » حققه المستشرق « ماسينيون » ونشره (عام ١٩١٣ م) في باريس ولم أتمكن من الانتفاع به في كتاب هذا المبحث .

(٢) « الفرق بين الفرق » (٢٤٨) و« الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري » (٢/ ٦٢ ، ٦٣) .

(٣) « في التصوف الإسلامي وتاريخه » (١٣٤) نقلاً عن « الطواسين » للحلاج (١٣٤) ، وأورد =

وقال في صورة أوضح :

مزجت روحك في روحي كما تـمزج الخمـرة بالمـاء الزلال
فـــإذا مسّـك شيء مسّـني فإذا انت أنـــا في كـل حال [١]

وروىٰ عبد القاهر البغدادي « أنه ظفروا بكتب للحلاج إلىٰ أتباعه عنوانها : (من الهو هو رب الأرباب المتصور في كل صورة إلىٰ عبده فلان) ، فظفروا بكتب أتباعه إليه وفيها : يا ذات اللذات ومنتهىٰ غاية الشهوات ، ونشهد أنك المتصور في كل زمان بصورة ، وفي زماننا هذا بصورة الحسين بن منصور ، ونحن نستجير لك ، ونرجو رحمتك يا علام الغيوب »[٢] .

ومما روي عنه أيضًا أنه دعا بهذا الدعاء :

« يا هو أنا وأنا هو ، ولا فرق بيني وبين آنيتي وهويتك إلا الحدث والقدم»[٣] .

وقال : « أنا الحق »[٤] .

وبهذه المقالة الشنيعة أفتىٰ علماء عصره بكفره ووجوب قتله ، فقتل صلبًا (سنة ٣٠٩ هـ) عند جسر بغداد ، ثم أحرق بالنار ، وطرد رماده في دجلة[٥] .

= السهروردي هذين البيتين في « عوارف المعارف » (٢٤١) كما أوردهما أبو نصر السراج في «اللمع» (٤٣٨ ، ٤٦٣) مع وجود الاختلاف في بعض العبارات حيث ذكر في البيت الأول :

أنا من أهوىٰ ومن أهوىٰ أنا فـإذا ابصـرتـني أبصرتنـا

وفي البيت الثاني : نحن روحان معًا في جسد ألبـس اللـه علينـا البدنـا

والغريب أن السهروردي وأبا نصر السراج لم يحدّدا لهذين البيتين صاحبًا مع أن معظم الروايات اتفقت علىٰ أنهما للحلاج ، ولعل السبب في ذلك دفع الريبة عن الحلاج أو إبعاد التهمة عنه .

(١) المصدر السابق : « وتاريخ بغداد » (٨/ ١١٥) و« البداية والنهاية » (١١/ ١٣٣) .

(٢) « الفرق بين الفرق » (٢٤٨) .

(٣) « جمهرة الأولياء » (٢/ ١٧١) .

(٤) « في التصوف الإسلامي وتاريخه » (٨٥) نقلاً عن « الطواسين » (١٢٩) و« الفرق بين الفرق » (٢٤٧) .

(٥) انظر محاكمة الحلاج وقتله في « الفهرست » (٢٧٠ ، ٢٧١) ، و« الفرق بين الفرق » (٢٤٨ ، =

وقد اختلف شيوخ الصوفية في شأنه فمنهم من قبله ، ومنهم من ردّه ، ومنهم من توقف في أمره[١] .

ومن الذين قبلوه وأثنوا عليه أبو العباس بن عطاء البغدادي[٢] وأبو القاسم إبراهيم النصر أباذي[٣] وهو الذي قال :

« إن كان بعد النبيين والصدقيين موحّد فهو الحلاج »[٤] .

وأبو عبد الله محمد بن خفيف الذي قال فيه : « الحسين بن منصور عالم رباني »[٥] .

ومنهم أيضًا : الشبلي الذي صادق الحلاج وشاهد مصرعه وصلبه ، وقال : « كنت والحسين بن منصور شيئًا واحداً إلا أنه أظهر وكتمت »[٦] .

وهذا دليل على أن الشبلي وكذلك أمثاله من الصوفيين اعتقدوا بالحلول ، ولكنهم فضلوا الكتمان وعدم البوح به خوفًا على أنفسهم .

وقد تأثر بالحلاج كثير من فلاسفة الصوفية بعده كابن عربي (ت٦٣٨ هـ) الذي أخذ فكرة الحلاج في الناسوت واللاهوت ، لكنه اعتبرهما في نظريته عن

---

٢٤٩) ، و« تاريخ بغداد » (٨/ ١٢٧ ، ١٢٨) ، و« البداية والنهاية » (١١/ ١٣٣ ، ١٣٩ - ١٤٤).

(١) انظر « كشف المحجوب » (١/ ٣٦٢) .

(٢) اسمه أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الأدمي من ظِرَاف مشايخ الصوفية وعلمائهم ، وصحب الجنيد بن محمد ومن فوقه من المشايخ ، كان أبو سعيد الخراز يعظم شأنه ، مات (سنة ٣٠٩ أو ٣١١ هـ) ، انظر ترجمته في « طبقات الصوفية » (٢٦٥) ، و« الرسالة القشيرية » (١/ ١٤٦) ، و«صفة الصفوة » (٢/ ٤٤٤) .

(٣) اسمه إبراهيم بن محمد بن محموية ، شيخ خراسان في وقته ، ونيسابوري الأصل والمنشأ والمولد ، صحب أبا بكر الشبلي وغيره ، مات (سنة ٣٦٧ هـ) انظر ترجمته في « طبقات الصوفية » (٤٨٤) ، و« الرسالة القشيرية » (١/ ١٩٣) ، و« كشف المحجوب » (١/ ٣٧١) .

(٤) « تلبيس إبليس » (١٧٢) .

(٥) « طبقات الصوفية » (٣٠٨) .

(٦) « تاريخ بغداد » (٨/ ١٢١) و« البداية والنهاية » (١١/ ١٣٢) .

وحدة الوجود وجهين لحقيقة واحدة متحققين في كل موجود من الموجودات[١].

وسلك هذا المسلك كثير من الصوفيين أمثال ابن الفارض (ت٦٣٢ هـ)، وابن سبعين (ت٦٦٩ هـ)، وجلال الدين الرومي (ت ٦٧٢ هـ)[٢] وعبد الكريم الجيلي (ت ٨٠٥ هـ)، ومن على شاكلتهم.

ومن هؤلاء الصوفية من يعتقد في الرسول ﷺ كما يعتقد البوذيون في بوذا، فيعتقد في محمد ﷺ بأنه هو الإنسان الكامل الذي تحققت فيه كل مظاهر الربوبية والألوهية، وتجلت فيه كل أسماء الله وصفاته.

وقد قال بهذه النظرية « الإنسان الكامل » ابن عربي[٣] ولكن الجيلي أوضحها أكثر في كتابه « الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل »[٤] قال:

« اعلم أن الإنسان الكامل[٥] هوالذي يستحق الأسماء الذاتية والصفات الإلهية استحقاق الأصالة والملك بحكم المقتضى الذاتي، فإنه المعبر عن حقيقته بتلك العبارات، والمشار إلى لطيفته بتلك الإشارات، ليس لها مستند في الوجود إلا الإنسان الكامل . . . والإنسان الكامل أيضًا مرآة الحق، فإن الحقّ تعالى أوجب على نفسه أن لا ترى أسماؤه وصفاته إلا في الإنسان الكامل »[٧].

---

(١) « قارن الفلسفة الصوفية في الإسلام » للدكتور عبد القادر محمود (٤٩٦).

(٢) هو محمد بن محمد بن الحسين بن أحمد البلخي، عالم بفقه الحنفية، والخلاف، والعلوم، ثم تصوف، وترك الدنيا والتصنيف، وشغل بالرياضة، وسماع الموسيقى، ونظم الأشعار في كتابه « المثنوي » بالفارسية، وتنسب إليه الطريقة « المولوية » انظر « الأعلام » (٧/ ٣٠).

(٣) انظر على سبيل المثال «شرح القاشاني على فصوص الحكم فص حكمة فردية في كلمة محمدية» (٣٢٦) و« الفتوحات المكية » (١/ ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤).

(٤) وقد عقد فيه بابًا خاصًا، قال: الباب الموفي ستين في الإنسان الكامل: وأنه محمد ﷺ، وأنه مقابل للحق والخلق، انظر (٢/ ٧١).

(٥) وقد قصد الجيلي بالإنسان الكامل الرسول ﷺ، وجعل الباقين من الأنبياء، والأولياء، والكمل صلوات الله عليهم ملحقين به، لحوق الكامل بالأكمل، انظر (٢/ ٧٢) من كتابه «الإنسان الكامل».

(٦) « الإنسان الكامل » (٢/ ٧٧).

فالإنسان الكامل عند الجيلي ومن معه ما هو إلا صورة كاملة للذات الإلهية استمدت منها كل الموجودات .

وقال أيضًا متحدثًا عن محمد ﷺ كإنسان كامل :

« اعلم حفظك الله أن الإنسان الكامل هو القطب الذي تدور عليه أفلاك الوجود من أوله إلىٰ آخره ، هو واحد منذ كان الوجود إلىٰ أبد الآبدين »[١] .

والإنسان الكامل في نظره تمكّن من التصور بكل صورة ، ولما ظهر في صورة الشبلي ، قال الشبلي لتلميذه :

« أشهد أني رسول الله ، وكان التلميذ صاحب كشف ، فعرفه ، فقال : أشهد أنك رسول الله . . . إلىٰ أن قال : إن رسول الله ﷺ له من التمكين في التصور بكل صورة حتىٰ يتجلىٰ في هذه الصورة ، وقد جرت سنته ﷺ أنه لا يزال يتصور في كل زمان بصورة أكملهم ، ليعلي شأنهم ، ويقيم ميلانهم ، فهم خلفاؤه في الظاهر وهو في الباطن حقيقتهم »[٢] .

وما أشبه هذه العقائد الصوفية الخرافية بعقائد البوذيين (مهايان) الذين يقولون في إلههم بوذا بأنه يظهر في كل زمان في صورة (بودهي ساتفا) (Buddhi Satwa) المستنير لينجي الناس في زمانه من آلام الحياة[٣] .

ومما لا شك فيه أن مثل هذه العقائد لا يستطيع عاقل أن ينسبها إلىٰ الإسلام لمخالفتها له مخالفة صريحة ، فالإسلام نهىٰ عن الغلو في الأنبياء وفي محمد عليهم الصلاة والسلام ، وأكدّ أن النبي ﷺ ما هو إلا بشر كبقية البشر ، ورسول كبقية الرسل .

وقد أشار القرآن إلىٰ ذلك في آيات كثيرة .

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٧٤) .

(٢) المصدر السابق (٢/ ٧٤ ، ٧٥) بتصرف يسير .

(٣) « بوذية مهايان » (٦٥) وقد تقدم الكلام عن هذا في (قضية الألوهية والمذاهب في البوذية) .

كقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ [١] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ﴾[٢] .

وأيضًا قوله تعالى : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً ﴾[٣] .

وهكذا وصف الله جميع الرسل والأنبياء بأنهم بشر اختارهم لدعوة الناس إليه، ومقتضى كونهم من البشر أنهم ليسوا بآلهة ، وليس فيهم من صفات الألوهية شيء .

والإنسان مهما بلغ في كماله فهو لا يتعدى كونه عبدًا من عباد الله ومخلوقًا من مخلوقاته ، ولا يمكن أن يرتقي إلى مرتبة الألوهية في أي حال من الأحوال ، كما يعتقد البوذيون والنصارى وبعض الصوفية وغيرهم .

وقد أنكر القرآن الكريم مثل هذه العقائد وكفّر أصحابها في قوله تعالى :
﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾[٤] .

وأيضًا قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلاَّ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾[٥] .

كما أنكر الرسول ﷺ على الغلاة الذي غلوا في مدحه فقال : « **لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله** »[٦] .

أي لا تمدحوني فتغلوا في مدحي كما غلت النصارى في عيسى عليه السلام فادّعوا فيه الإلهيّة ، وإنما أنا عبد الله ورسوله .

فصفوني بذلك كما وصفني ربي ، فقولوا : عبد الله ورسوله [٧] .

---

(١) الكهف (١١٠) .
(٢) آل عمران (١٤٤) .
(٣) الإسراء (٩٣) .
(٤) المائدة (٧٢) .
(٥) المائدة (٧٣) .
(٦) سبق تخريجه .
(٧) « فتح المجيد شرح كتاب التوحيد » للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ تحقيق محمد حامد الفقي (٢٢٦) .

الفصل الثالث

علاقة الصوفية بالبوذية في العادات والتقاليد

وفيه خمسة مباحث :

المبحث الأول : في لبس الخرقة والمرقعة .

المبحث الثاني : في اتخاذ الشيخ .

المبحث الثالث : في ملازمة الرباط .

المبحث الرابع : في السياحة .

المبحث الخامس : في التسول وترك العمل .

الفصل الثالث

علاقة الصوفية بالبوذية في العادات والتقاليد

المبحث الأول

في لبس الخرقة والمرقعة

من العادات والتقاليد المتبعة لدى الصوفية لبس الخرقة أو المرقعة ، وهي لباس مصنوع من قطع مختلفة من القماش حل محل لباس الصوف الذي كان يلبسه أوائل الصوفية[1] .

١ ـ لبس الخرقة شعار للتصوف :

جرت عادة الصوفية أن يلبسوا أتباعهم الخرقة المرقعة علامة على اندماجهم في الطريق ، ويعتبرونها شعاراً لتصوفهم .

يقول الهجويري :

« اعلم أن لبس المرقعة شعار المتصوف »[2] .

ويصف المرقعة بأنها « سمة الصالحين ، وعلامة الطيبين ، ولباس الفقراء والمتصوفين »[3] .

وأنها « قميص الوفاء لأهل الصفاء ، وسربال السرور لأهل الغرور ، ليتجرد أهل الصفاء بلبسها من الكونين ، وينقطعوا بها عن المألوفات ويحجب بها أهل

---

(١) « في التصوف الإسلامي وتاريخه » (٧٨) .
(٢) « كشف المحجوب » (١/ ٢٤١) .
(٣) المصدر السابق (١/ ٢٥٤) .

الغرور عن الحق ، وينقطعوا بها عن الصلاح » .

ويقول : « وقد أمر مشايخ هذه الطريقة المريدين بأن يتحلوا بالمرقعات ويتزينوا بها ، وفعلوا هم أيضاً ذلك ، لتكون لهم علامة بين الخلق ، ويكون الخلق رقباء عليهم ، فإذا خطوا خطوة على خلاف ، يطلقون فيهم لسان الملامة ، وإذا أرادوا إتيان المعصية في تلك الثياب ، فإنهم لا يستطيعون ، خجلاً من الخلق »[1] .

٢ ـ لبس الخرقة ارتباط بين الشيخ والمريد :

وقد ذهب السهروردي إلى أن الخرقة رمز لمعنى أوسع وأعمق إذ جعل لبسها ارتباطًا بين الشيخ والمريد ، وجعله علامة التفويض والتسليم ، فدخول المريد في حكم الشيخ هو دخوله في حكم الله وحكم رسوله ، وإحياء سنة المبايعة مع رسول الله ﷺ[2] .

وقسم الخرقة إلى خرقتين : خرقة الإرادة ، وخرقة التبرك ، والأصل الذي قصده المشايخ للمريدين خرقة الإرادة ، وخرقة التبرك تشبه خرقة الإرادة ، فخرقة الإرادة للمريد الحقيقي ، وخرقة التبرك للمتشبه ، ومن تشبه بقوم فهو منهم[3] .

٣ ـ لا تلبس الخرقة إلا من يد الشيخ :

وقرروا أن لا تلبس هذه الخرقة إلا من يد شيخ الطريقة لأن يد الشيخ في لبس الخرقة ، كما قال السهروردي : تنوب عن يد رسول الله ﷺ ، وتسليم المريد له تسليم لله ورسوله .

واستدل بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ

(١) انظر المصدر السابق (١/ ٢٤٥) .
(٢) انظر « عوارف المعارف » (٧٨) .
(٣) المصدر السابق (٧٩) .

فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ﴾[١] .

ويأخذ الشيخ على المريد عهد الوفاء بشرائط الخرقة ، ويعرّفه حقوق الخرقة[٢] .

وفي هذا أيضًا قال الهجويري :

« أما من يخلع على المريد المرقعة ، فيجب أن يكون مستقيم الحال ، قد اجتاز جميع عقبات الطريق ، وذاق طعم الأحوال ، وأدرك مشارب الأعمال . . . ويجب أيضًا أن يكون مشرفًا على مريده »[٣] .

وقال : « ولا يستقيم لبس المرقعة عند الصوفية إلا لطائفتين أولاهما المنقطعون عن الدنيا والأخرى المشتاقون إلى حضرة المولى .

وقد جرت السنة في عادات المشايخ على أنه عندما يتصل بهم مريد بحكم التبرك ، فإنهم يؤدبونه خلال سنوات ثلاث على معان ثلاثة ، فإذا أدى حقها ، وإلا قالوا : إن الطريقة لا تقبله ، فسنة منها لخدمة الخلف ، وسنة ثانية لخدمة الحق ، وسنة ثالثة لمراعاة قلبه . . .

فإذا توفرت هذه الشروط الثلاثة في المريد يسلم له بلبس المرقعة على وجه التحقيق لا التقليد »[٤] .

٤ ـ من شروط لبس الخرقة :

وعن شروط لبس الخرقة قال الهجويري : « وشرط لبس الخرقة لبس الكفن ، لأنهم يقطعون الأمل من لذة الدنيا ، ويطهرون قلوبهم من راحتها ، ويقفون عمرهم كله على خدمة الحق جل جلاله ، ويبرؤون تمامًا من الهوى ،

(١) الفتح (١٠) .
(٢) المصدر السابق .
(٣) « كشف المحجوب » (١/ ٢٥٢) .
(٤) المصدر السابق (١/ ٢٥١) .

ومن ثم يعزّ الشيخ المريد بإلباسه الخلعة ، وهو يقوم بحقها ، ويجتهد تمامًا في أداء هذا الحق ، ويحرم على نفسه رغباتها »(١) .

ومن شروط الخرقة أن يعملها الصوفي من أجل الخفة والفراغ وحيثما يتمزق شيء من الأصل يوضع فوقه رقعة(٢) .

وهنا يتبين التشابه الغريب بين هذه الخرقة الصوفية والخرقة البوذية في القديم التي كان الرهبان يرقّعونها للدلالة على الفقر والمهانة كما تقدم .

٥ ـ الخرقة الزرقاء :

ويفضل المتصوفة الخرقة الزرقاء لأنها أرفق للفقير كما قال السهروردي(٣) .

وقال الهجويري : « إن لبس الأزرق شعار أصحاب الوفاة والمصائب ، وهو لأناس رداء الحزن ، والدنيا دار المحنة ، وخربة المصيبة ، ومفازة الغم وآفة المبتلين بالفراق ، وحصن البلاء ، فلما رأى المريدون أنهم لم يبلغوا مقصودهم في الدنيا لبسوا الأزرق ، وجلسوا في مأتم الوصال »(٤) .

غير أن استعمال هذا اللون في الخرقة ليس نظامًا عند جميع الطرق فإنهم يتركون الحرية للشيخ في إلباس المريد ما شاء من ألوان(٥) .

---

(١) المصدر السابق (١/ ٢٥٢) .
(٢) المصدر السابق (١/ ٢٤٦) .
(٣) انظر « عوارف المعارف » (٨١) .
(٤) « كشف المحجوب » (١/ ٢٥٠) .
(٥) انظر « عوارف المعارف » (٨٠) ، ويجدر بي أن أشير إلى أنه يوجد بعض الطرق الصوفية في تايلاند ينتسب أصحابها إلى الشاذلية ، وهم يقدسون الخرقة الخضراء ويجعلونها شعاراً لطريقتهم ، فيلبسونها في مناسبات مختلفة ، ويكفنون بها أمواتهم ، واخترعوا لهذه الخرقة سلسلة متصلة إلى الرسول ﷺ .

٦ ـ بعض الحكايات الصوفية :

هناك بعض الحكايات الصوفية التي تشبه إلىٰ حد كبير ما تقدم في البوذية منها ما يروي الهجويري قال : « وجدت في حكايات العراقيين أنه كان هنالك اثنان من الدراويش ، أحدهما صاحب مشاهدة ، والآخر صاحب مجاهدة ، لم يلبس أولهما طيلة حياته إلا الخرق التي يمزقها الدراويش في السماع ، ولم يلبس الآخر إلا الخرق التي يمزقونها في حال الاستغفار من ذنب »[١] .

ويروي أن شيخه[٢] لبس ثوبًا واحدًا لمدة ستة وخمسين عامًا ، وكان يضع عليه رقعًا بلا تكلف[٣] .

ومنها ما يروي الهجويري أيضًا قال : « رأيت فيما وراء النهر شيخًا من أهل الملامة[٤] لم يكن يأكل أو يلبس شيئًا للآدمي فيه نصيب ، فكان يأكل الأشياء التي يرميها الناس ، ويتخذ ملابسه من الخرق التي يلتقطها من الطريق ، ويطهرها ويصنع منها مرقعة »[٥] .

ويروي عبد الرءوف المناوي أن أبا يزيد البسطامي كان إذا رآه الناس يتمسحون بمرقعته تبركًا فلاموه علىٰ ذلك فقال : هم لا يتبركون بي أنما يتبركون

---

(١) « كشف المحجوب » (١/ ٢٤٨) .

(٢) هو أبو الفضل محمد بن الحسن الختلي من شيوخ الهجويري قيل توفي (سنة ٤٥٣ هـ) وقيل غير ذلك انظر « كشف المحجوب » (١/ ٥٨ ـ ٦٠) .

(٣) المصدر السابق (١/ ٢٤٧) .

(٤) ورد في كتاب « جمهرة الأولياء » (١/ ١٢٢) « الملامة نعت لأبدال أهل الفتوة ، واسم الملامية أو الملامتية أطلق علىٰ قوم يلومون أنفسهم مع حسن أحوالهم ونموها ، وقد قال بعضهم : لا يبلغ الرجل شيئًا من مقام القوم حتىٰ تكون أفعاله كلها عند نفسه رياء وأحواله دعاوي ، وسئل أحد شيوخهم ما مراد القوم بالملامة ؟ فقال : « تذليل النفس ، وتحقيرها ، ونهيها عن ما تسكن إليه من عمل أو شهرة ، وعن ما يكون لها فيه راحة ، خشية الركون ثم تحسين الظن بالناس وتحقير النفس وسوء الظن بها » .

(٥) « كشف المحجوب » (١/ ٢٤٧) .

بخلعة ربي التي خلعها علي"[١] .

٧ ـ أصل الخرقة كما يزعمون :

يزعم الصوفية أن لبس الخرقة له أصل في الشرع ، فمنهم من يرجع أصله إلىٰ إبراهيم عليه السلام[٢] .

ومنهم من يرجعه إلىٰ عيسىٰ عليه السلام[٣] ، وكل ذلك لا أساس له من الصحة .

ومن الصوفية من يرجع أصله إلىٰ الرسول ﷺ في حديث أم خالد حيث ألبسها الرسول ﷺ ثيابًا فيها خميصة[٤] .

وهو استدلال غير صحيح وقد رد ابن الجوزي علىٰ هذا الاستدلال فقال : «وإنما ألبسها رسول الله ﷺ لكونها صبية ، وكان والداها قد هاجرا إلىٰ أرض

---

(١) « الكواكب الدرية » (١/ ٢٤٥) ، وقد أنكر ابن الجوزي علىٰ لبس المرقعات لأربعة أوجه : أحدها : أنه ليس من لباس السلف وإنما كان السلف يرقعون ضرورة ، والثاني : أنه يتضمن ادعاء الفقر وقد أمر الإنسان أن يظهر نعمة الله عليه ، والثالث : أنه اظهار للزهد وقد أمرنا بستره والرابع : أنه تشبه بهؤلاء المتزحزحين عن الشريعة ومن تشبه بقوم فهو منهم ، « تلبيس إبليس » (١٨٩) .

(٢) يقول السهروردي أن إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار جرد من ثيابه وقذف في النار عريانًا ، فأتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة ، وألبسه إياه ، وكان ذلك عنده ، فلما مات ورثه إسحاق ، فلما مات ورثه يعقوب ، فجعل يعقوب ذلك القميص في تعويذ ، وجعله في عنق يوسف ، فكان لا يفارقه ، ولما ألقي في البئر عريانًا جاءه جبريل وكان عليه تعويذ ، فأخرج القميص منه وألبسه إياه ، انظر « عوارف المعارف » (٨٠) .

(٣) روىٰ الهجويري : أن عيسىٰ عليه السلام كان يلبس مرقعة حين رفع إلىٰ السماء ، وقال أحد المشايخ : رأيته في النوم بتلك المرقعة من الصوف وكان يتلألأ من كل رقعة نور ، انظر « كشف المحجوب » (١/ ٢٤٧) .

(٤) انظر « عوارف المعارف » (٧٨) والحديث رواه البخاري بسنده عن أم خالد بنت خالد : « أتي النبي ﷺ بثياب فيها خميصة سوداء صغيرة فقال : من ترون نكسو هذه ؟ فسكت القوم قال : ائتوني بأم خالد ، فأتي بها تحمل ، فأخذ الخميصة بيده فألبسها ، وقال : أبلي وأخلقي ، وكان فيها علم أخضر وأصفر فقال : يا أم خالد هذا سناه ، و سناه بالحبشية حسن » ، « صحيح البخاري » (٤/ ٢٩) كتاب اللباس باب الخميصة السوداء (حديث رقم ٥٨٢٣) .

الحبشة ، فولدت لهما هناك أم خالد ، ثم قدموا ، فأكرمها الرسول ﷺ لصغر سنها ، وكما اتفق فلا يصير هذا سنة ، وما كان من عادة رسول الله ﷺ إلباس الناس ، ولا فعل هذا أحد من أصحابه ولا تابعوهم ، ثمّ ليس من السنة عند الصوفية أن يلبس الصغير دون الكبير ، ولا أن تكون الخرقة سوداء بل مرقعة أو فوطة ، فهلا جعلوا السنة لبس الخرق السود كما جاء في الحديث الذي تقدم[١] .

وعلىٰ هذا فإن لبس الخرقة علىٰ الوجه المعروف عند الصوفية لم يكن في زمن الرسول ﷺ وليس له أصول في الشريعة وإنما هي عادة صوفية متوارثة يتناقلها الخلف عن أسلافهم وفيها أثر من آثار البوذية كما سيأتي بيانه .

وزعم بعض الصوفية أنهم أخذوا لبس الخرقة عن الخضر عليه السلام[٢] أو عن الرسول ﷺ بطريق التواتر وأسانيد متصلة[٣] ، ووضعوا الأحاديث لذلك فيزعمون مثلاً أن النبي ﷺ ألبس علياً ـ رضي الله عنه ـ الخرقة ، وأن علياً ألبسها الحسن البصري ، وأن الحسن البصري ألبسها الجنيد البغدادي سيد الطائفة ، وانتقلت منه إلىٰ سائر الصوفية[٤] .

وانكر ابن خلدون علىٰ هذا الزعم فقال : « إنهم (أي الصوفية) لما أسندوا لباس خرقة التصوف ليجعلوه أصلاً لطريقتهم وتخليهم رفعوه إلىٰ علي ـ رضي الله عنه ـ وهو من هذا المعنىٰ أيضاً ، وإلا فعلي ـ رضي الله عنه ـ لم يختص من بين الصحابة بتخلية ولا طريقة في لباس ولا حال ؛ بل كان أبو بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ أزهد الناس بعد الرسول ﷺ وأكثرهم عبادة ، ولم

---

(١) انظر : « تلبيس إبليس » (١٩١) .

(٢) انظر : « السلسبيل المعين في الطرائق الأربعين » (٣٤ ، ٣٥) ، ويعتقد ابن عربي أن الخضر كان يلبسها أولياء الله بيده ، انظر « الفتوحات المكية » (١/ ٢٤٢) .

(٣) انظر بعض السلسلة الصوفية في لبس الخرقة في « أسرار التوحيد » لمحمد بن المنور ترجمة إسعاد عبد الهادي (٦٨) و« مجموع الفتاوي » لشيخ الإسلام ابن تيمية (١١/ ١٠٣ ـ ١٠٥) .

(٤) انظر « السلسبيل المعين في الطرائق الأربعين » (٤٩) وأيضاً « مقدمة ابن خلدون » (٣٢٣) .

يختص أحد منهم في الدين بشيء يؤثر عنه في الخصوص ، بل كان الصحابة كلهم أسوة في الدين والزهد والمجاهدة »(١) .

وقد سبق المحدثون بالحكم على هذا الزعم ، قال صاحب كتاب « أسنى المطالب »(٢) :

« حديث لبس الخرقة عن الصوفية وكون الحسن البصري لبسها من علي قال ابن دحية وابن صلاح : إنه باطل ، وقال ابن حجر : ليس في شيء من طرقها ما يثبت ولم يرد عنه أنه ألبس الخرقة على الصورة المعهودة ، لا في صحيح ولا في ضعيف ، ولم يصح اجتماع الحسن بعلي ولا أخذه عنه باتفاق أهل الحديث ، ومن لبسها وألبسها منهم فإنما اعتمد على سندها من طريق الصوفية تبركًا بهم لا من طريق أهل الحديث » .

٨ ـ لبس الخرقة من أصول البوذية :

ويبدو لي أن لبس الخرقة على الهيئة التي يعتمدها بعض الطرق الصوفية يرجع أصله إلى الديانة البوذية ، فقد تقدم أن من خصائص الرهبان البوذيين (بيهكشو) لبس الخرقة الصفراء ، وأنهم ألبسوها المريدين دليلاً على انخراطهم في سلك الرهبنة ، وأخذوا عليهم عهد الوفاء والالتزام بحقوقها ، وقد اعتقد البوذيون بقداستها وجعلوها رمزًا للرهبانية .

وقد سبق بهذا الرأي المستشرق جولدزيهر حيث يقول :

« ومما يدل أيضًا على أثر العقائد الهندية أن المريد عندما يتم قبوله في الجماعة الصوفية يمنح خرقة تعتبر رمزًا للفقر واعتزال الدنيا ، وقد أوجدت القصص الصوفية تبعًا لأسلوبها ومنهاجها أصلاً للخرقة في السيرة النبوية ،

---

(١) « مقدمة ابن خلدون » (٤٧٣) وانظر ص (٣٢٣) .

(٢) (ص١٦٨) وانظر أيضًا « تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث » (ص١٤٥) (رقم ١٠٦١) و« كشف الخفاء » (١/ ١٨٠ ، ١٨١) (رقم ٢٠٣٥) .

وربطت موضوعها بالنبي نفسه . . . ثم قال : « ولكن لا نستطيع أن نتجاهل أن الخرقة كرمز للإندماج في الجماعة الصوفية تشبه طريقة الاندماج في جماعة «البيهكشو» الهندية الذي يتم بتسلم الثوب ، ومعرفة القواعد والآداب التي يتحتم على المريد اتباعها »[١] .

وهناك من الباحثين من أرجع لبس الخرقة إلى التشيع لاتصال المباشر بين المذهبين[٢] .

وهو رأي محتمل أيضًا غير أنني أقول : إن لكل من التشيع والتصوف أثرًا من آثار البوذية في هذه الخرقة لأن البوذية نشأت قبلهما بقرون وانتشرت في بعض المناطق الشيعية قبل الإسلام وبعده باسم السمنية كما بيناه .

* * *

---

(١) « العقيدة والشريعة » (١٦٣ ، ١٦٤) .

(٢) انظر « الصلة بين التصوف والتشيع » للدكتور كامل مصطفى الشيبي (٤٢٦ ـ ٤٣٢) .

المبحث الثاني
في اتخاذ الشيخ

ومن العادات الصوفية التي لها علاقة بالبوذية عادة اتخاذ الشيخ في الطريق، فإن أول ما يجب على مريد الطريق الصوفي هو أن يتخذ شيخًا معينًا له ليدله على الطريق .

يقول القشيري : « يجب على المريد أن يتأدب بشيخ فإن لم يكن له أستاذ لا يفلح أبدًا ، هذا أبو يزيد يقول : من لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان »[١] .

ويقول السهروردي عن أهمية الشيخ وعن رتبته التي تنوب عن النبوة قال : « فالشيخ من جنود الله تعالى ، يرشد به المريدين ، ويهدي به الطالبين » .

« ورتبة المشيخة من أعلى الرتب في طريق الصوفية ونيابة النبوة في الدعاء إلى الله »[٢] .

أي الذي وصل إلى رتبة الشيخ هو الذي ينوب عن الرسول ﷺ ، ويوضح هذا صاحب كتاب : « الرماح » حيث قال : « وقد ورد في بعض الأحاديث على ما أثبت المشايخ في كتبهم « أن الشيخ في قومه كالنبي في أمّته »[٣] .

فلابد للمريد أن يتوجه إلى شيخه بربط قلبه معه ، ويتحقق أن الفيض لا يجيء إلا بواسطته ، وإن كان الأولياء كلهم هادين مهتدين يعتقد في كلهم ويدعو لهم ، لكن استمداده الخاص واستفاضته من روحانية شيخه وحده ، ويعلم أن

---

(١) « الرسالة القشيرية » (٢/ ٧٣٥) .
(٢) « عوارف المعارف » (٧٣) .
(٣) ورد هذا النص أيضًا في كتاب « أسرار التوحيد في مقدمات الشيخ أبي سعيد » : لمحمد بن أبي سعيد . ترجمة : إسعاد عبد الهادي قنديل (ص٦٥) .

استمداده من شيخه استمداده من النبي ﷺ[١] .

وقد ذهب الشيخ محمد أمين الكردي[٢] إلىٰ أبعد من هذا حيث جعل اتخاذ الشيخ عين اتخاذ الله ، قال : « إن طلب الشيخ هو عين طلبه تعالىٰ : ﴿ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾[٣] الرفيق ثم الطريق ، من لا شيخ له فالشيطان شيخه . . . ثم قال : إن الشيخ مقصود ومطلوب ، فالشيخ كالكعبة يسجدون إليها والسجود لله »[٤] .

ومن آداب المريد في الصوفية موافقة شيخه بالقلب والجوارح ، فلا إنكار ، ولا مخالفة ، ولا سؤال لشيء مما يقوله ، أو يفعله ، أو يأمر به وجعلوا هذا من علامة صدق المريد .

روي أن بعض أصحاب الجنيد سأله مسألة ، فأجابه الجنيد ، فعارضه في ذلك ، فقال الجنيد : فإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون[٥] .

وقيل : من قال لشيخه : لا ، لا يفلح أبدًا[٦] .

فعلىٰ المريد أن يستسلم لشيخه استسلامًا تامًا ، وأن يستمسك به تمسك الأعمىٰ علىٰ شاطئ النهر بالقائد كما قال الغزالي ، بحيث يفوض أمره إليه بالكلية ، ولا يخالفه في ورده ولا صدره ، ولا يبقىٰ في متابعته شيئًا ولا يذر[٧] .

---

(١) « رماح حرب الرحيم علىٰ نحور حزب الرجيم » علىٰ هامش « جواهر المعاني » (٢/ ١٥٢) .
(٢) هو محمد أمين بن فتح الله الأربلي الكردي واعظ من أهل أربل تعلم بالأزهر وتوفي بالقاهرة (سنة ١٣٣٢هـ) له كتب منها « المواهب السرمدية في مناقب السادة النقشبندية » ، و« تنوير القلوب في معاملة علام الغيوب » ، وغيرها ، انظر : « الأعلام » (٦/ ٤٣) .
(٣) المائدة : (٣٥) وهذا استدلال غير صحيح لأن معنىٰ الوسيلة في الآية هي القربة إلىٰ الله بالعمل الصالح لا بالشيخ ، والوسيلة أيضًا درجة في الجنة وهي التي جاءت في الحديث الصحيح في قوله عليه الصلاة والسلام : « فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة » ، رواه مسلم عن عبد الله ابن عمرو بن العاص (١/ ٢٨٩) كتاب الصلاة ، باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه (رقم ٣٨٤) ، انظر « تفسير القرطبي » (٦/ ١٥٩) و« تفسير ابن كثير » (٢/ ٥٢) .
(٤) « المواهب السرمدية » (٣١٣) .
(٥) « عوارف المعارف » (٢٠١) .
(٦) المصدر السابق (٢٠٢) .
(٧) « إحياء علوم الدين » (٣/ ٧٦) (في شروط الارادة ومقدمات المجاهدة) .

وقال القشيري مبينًا آداب المريد مع الشيخ :

« وأن لا يخالف شيخه في كل ما يشير عليه ، لأن الخلاف للمريد في ابتداء أمره عظيم الضرر ، لأن ابتداء حاله دليل على جميع عمره » .

وقال : « ومن شرطه : أن لا يكون له بقلبه اعتراض على شيخه . . . ثم يجب عليه حفظ سره حتى عن زِرِّهِ إلا عن شيخه ، ولو كتم نفسًا من أنفاسه عن شيخه فقد خانه في حق صحبته ، ولو وقعت له مخالفة فيما أشار عليه شيخه ، فيجب أن يقر بذلك بين يديه في الوقت ، ثم يستسلم لما يحكم به عليه شيخه عقوبة له على جنايته ومخالفته ، إما بسفر يكلفه أو أمر ما يراه »[1] .

وهذا يشبه تمامًا ما تقدم في نظام الأديرة في البوذية ، حيث يقرّ المريد البوذي بذنبه ومخالفته بين يدي شيخه وجماعة الرهبان ، ثم يستسلم لما يحكم به عليه شيخه .

وذهب السهروردي إلى أن المريد يصبح جزءًا من الشيخ كما أن الولد في الولادة الطبيعية[2] ، وأن المريد الصادق إذا دخل تحت حكم الشيخ ، وصحبه ، وتأدب بآدابه ، يسري من باطن الشيخ حال إلى باطن المريد كسراج يقتبس من سراج . . . وينتقل الحال من الشيخ إلى المريد بواسطة الصحبة وسماع المقال ، ولا يكون هذا إلا لمريد حصر نفسه مع الشيخ ، وانسلخ من إرادة نفسه ، وفني في الشيخ بترك اختيار نفسه ، ولا يزال المريد مع الشيخ كذلك متأدبًا بترك الاختيار حتى يرتقي من ترك الاختيار مع الشيخ إلى ترك الاختيار مع الله تعالى ، ويفهم من الله كما يفهم من الشيخ[3] .

---

(١) « الرسالة القشيرية » (٢/ ٧٣٦ ، ٧٣٧) .
(٢) « عوارف المعارف » (٧٤) .
(٣) المصدر السابق (٧٨) .

والحديث عن مبالغة الصوفية في الشيخ ، وعن آداب المريد معه حديث طويل ، ولا أريد الإطالة بذكره ، فهو مفصل في كتبهم ، غير أنني أقول إن اتخاذ الشيخ والخضوع له في الطريق عادة عرفت عند البوذية من قديم الزمان ، وهي من أهم القواعد لتربية مريديهم سواء كانوا من المترهبين أو المدنيين ، فلكل جماعة منهم شيخ معلوم يرتبطون به حيًا وميتًا .

والخلاف بين البوذية والصوفية في هذا الصدد ، أن البوذية تجيز للبوذيين اتخاذ شيخ أو شيخين أو أكثر حسب رغبتهم ، ويفضل البوذيون المدنيون اتخاذ عدة شيوخ ، فيضعون في بيوتهم تماثيل الشيوخ جنب تمثال بوذا ، ويعلقونها أيضًا في عنقهم .

وهناك بعض صوفية المسلمين في تايلاند قلدوا البوذيين في هذا ، فيعلقون في بيوتهم وفي عنقهم صورة الشيخ تبركًا به وتقديسًا له .

هذا بخلاف الصوفية الذين أوجبوا على المريد أن يتخذ شيخًا واحدًا لا يحيد ولا يلتفت إلى غيره .

جاء في كتاب « الرماح »[1] هذا النص التالي :

« اعلم أن الاقتصار على واحد لا يتعداه إلى غيره شرط لازم في طريق أهل الله ، ولابد لكل مريد صادق من التزامه وإلا فلا سبيل له إلى الوصول ألبتة » .

وأيضًا : « إنه لابد لكل مريد صادق أن يقتصر على قدوة واحدة ، ولا يتشوف ، ولا يلتجئ إلى غيره ، ولا يزور وليًا من الأولياء الأحياء والأموات » .

والبوذيون يختارون شيوخهم من كبار الرهبان لأنهم ممثلون شخص بوذا كما تقدم في نصوصهم[2] ويفضلون أصحاب الرياضات والمجاهدات الطويلة وأصحاب الخوارق والمكاشفات ، كما يختار الصوفية أيضًا شيوخهم من

---

(١) على هامش « جواهر المعاني » (١/ ١٤٢).

(٢) راجع النص في موضوع (خصائص الرهبان في اللباس الأصفر) .

أصحاب المجاهدات ومن أهل الكرامات والمكاشفات .

ولا ريب أن اتخاذ الشيخ على هذا الوجه عند الصوفية ليس له أصل من القرآن والسنة ، فشتّان بين اتخاذ شيخ أو أستاذ أو إمام في دين الإسلام الصحيح وبين اتخاذ شيخ في الصوفية الذي هو التزام أبدي بطريقة خاصة وشيخ خاص يقدسونه حيًا وميتًا .

* * *

المبحث الثالث

في ملازمة الرباط

ومن عادات الصوفية أيضًا ملازمة الرباط ، وهو يطلق عند الصوفية على البيوت الخاصة المنعزلة التي يتجمعون فيها ، ويتربون فيها تحت إشراف مشايخهم ، ويقال له أيضًا : « خانقاه » باللهجة الفارسية[(١)] .

وقد بدأ انتشار الأربطة الصوفية منذ القرن الرابع الهجري ، وازداد انتشارها بشكل ملحوظ في أوائل القرن الخامس حتىٰ عمت جميع أنحاء العالم الإسلامي .

ويعزىٰ إلىٰ أبي سعيد بن أبي الخير[(٢)] أنه أول من أسس نظام الرباط للصوفية فقد كان يعيش بين مريديه في عدد من الأربطة ووضع لحياتهم بها القواعد والأسس[(٣)] .

وكان هناك في تلك الفترة عدد كبير من الأربطة والخوانق في خراسان ، والعراق ، ومصر ، وفارس ، وأنحاء كثيرة من إيران[(٤)] .

---

(١) انظر « الخطط » للمقريزي (٢/ ٤١٤) .

(٢) هو أبو سعيد فضل الله بن أبي الخير محمد بن أحمد المهني (٣٥٧ هـ - ٤٤٠ هـ) شاعر فارسي ، وشيخ من شيوخ الصوفية ، وهو من أكبر الشخصيات الصوفية التي عاشت في هذه الفترة ، وقد ترجم الهجويري له بأنه سلطان سلاطين المحبّين وملك ملوك الصوفيين ، ويعتبر من أوائل المروجين لوحدة الوجود ، ومن أوائل شيوخ الصوفية في إيران الذين صاغوا عقائدهم وآراءهم نظمًا بالفارسية ، انظر ترجمته في « أسرار التوحيد » لمحمد بن المنور ترجمة إسعاد عبد الهادي (١٣ - ١٧) ، و« كشف المحجوب » (١/ ٣٧٩) .

(٣) انظر « أسرار التوحيد » لمحمد بن المنور ترجمة إسعاد عبد الهادي (٥٨ ، ٦٣) ، وأيضًا في «التصوف الإسلامي وتاريخه » (٥٧ ، ٥٨) .

(٤) انظر المصدر السابق ، وانظر أيضًا « الخطط » للمقريزي (٢/ ٤١٤ - ٤٣٦) حيث ذكر عدداً من =

وقد وضع الصوفية نظامًا معينًا للحياة فيها يشبه نظام الرهبانية في البوذية والنصرانية « وانتشرهذا النظام على أيدي رجال الطرق كالعدوية ، والقادرية ، والرفاعية ، وغير ذلك من الطرق التي توالى ظهورها سريعًا »[١] .

وفي كتاب « عوارف المعارف » نجد تفصيلاً دقيقًا عن حياة الصوفية في الرباط ، فقد بوب السهروردي فيه أبوابًا خاصة في فضيلة سكان الرباط ،وفي مشابهة أهل الرباط بأهل الصفة ، وفي خصائص أهل الربط[٢] .

وأذكر هنا بعض كلامه :

قال عن أصل الرباط : « وأصل الرباط : ما يربط فيه الخيول ، ثم قيل لكل ثغر يدفع أهله عمن وراءهم رباط ، فالمجاهد والمرابط يدفع عمن وراءه ، والمقيم في الرباط على طاعة الله يدفع به وبدعائه البلاء عن العباد والبلاد »[٣] .

« فالرباط لجهاد النفس ، والمقيم في الرباط مرابط مجاهد نفسه »[٤] .

« والرباط بيتهم (أي الصوفية) ومضربهم ، ولكل قوم دار والرباط دارهم ، وقد تشابهوا أهل الصفة في ذلك » [٥] .

الخوانق والربط والزوايا التي انتشرت في هذه الفترة في مصر ، وأيضًا « الحضارة الإسلامية في القران الرابع الهجري » : لآدم متز ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة (٢/ ٣٠) .

(١) « في التصوف الإسلامي وتاريخه » (٥٨) .

(٢) انظر (ص٨١ ـ ٨٧) وهذا الكتاب هو المصدر الوحيد بين أيدينا الذي فصل هذه التفاصيل ، ولم أجدها في الكتب الصوفية الأخرى ، وخاصة الكتب التي ألفت قبله ، وإلى هذا أشار المستشرق نيكلسون حيث قال : « لم يعم الزهد في العالم الإسلامي ، ولم يظهر فيه الربط والزوايا المنظمة إلا في عصر متأخر ، لأن القارئ للكتب التي ألفت في التصوف حتى منتصف القرن الخامس الهجري مثل « قوت القلوب » لأبي طالب المكي ، و« حلية الأولياء» لأبي نعيم ، و« الرسالة » للقشيري قلما يجد فيها إشارة إلى هذه الربط والزوايا ، « في التصوف الإسلامي وتاريخه » (٥٧) .

(٣) « عوارف المعارف » (٨١) .

(٤) المصدر السابق (٨٢) .

(٥) المصدر السابق .

ووصف حياة الصوفية في الرباط فقال :

والرباط يحتوي على شبان ، وشيوخ ، وأصحاب خدمة ، وأرباب خلوة . فالمشايخ بالزوايا أليق نظراً إلى ما تدعو إليه النفس من النوم ، والراحة ، والاستبداد بالحركات ، والسكنات . . .

والشاب يضيق عليه مجال النفس بالقعود في بيت الجماعة والانكشاف لنظر الأغيار ، لتكثر العيون عليه ، فيتقيد ، ويتأدب . . . وينبغي لأهل الصدق والصوفية أن يكون اجتماعهم غير مضر بوقتهم ، فإذا تخلل أوقات الشبان اللغو والغلط ، فالأولى أن يلزم الشاب الطالب الوحدة والعزلة ، ويؤثر الشيخ الشاب بزاويته وموضع خلوته ، ليحبس الشاب نفسه عن دواعي الهوى والخوض فيما لا يعني ، ويكون الشيخ في بيت الجماعة ، لقوة حاله وصبره على مداراة الناس وتخلصه من تبعات المخالطة . . .

وأما الخدمة فشأن من دخل الرباط مبتدئًا ، ولم يذق طعم العلم ، ولم ينتبه لنفائس الأحوال ، وأن يجذب بحسن الخدمة قلوب أهل الله إليه فتشمله بركة ذلك . . . والخدمة عند القوم من جملة العمل الصالح ، وهي طريق من طرق المواجيد ، تكسبهم الأوصاف الجميلة والأحوال الحسنة[1] .

وقال عن شرائط ساكن الرباط : « قطع المعاملة مع الخلق ، وفتح المعاملة مع الحق ، وترك اكتفاء بكفالة مسبب الأسباب ، وحبس النفس عن المخالطات ، واجتناب التبعات ، وعانق ليله ونهاره العبادة متعوضًا بها عن كل عادة ، شغله حفظ الأوقات ، وملازمة الأوراد ، وانتظار الصلوات ، واجتناب الغفلات ، ليكون بذلك مرابطًا مجاهداً »[2] .

فالجهاد في مفهوم الصوفية هو القعود في الرباط ، وحبس النفس ، وملازمة الأوراد ، وترك التكسب ، وهذا هو الجهاد الأكبر عندهم ، أما

---

(١) المصدر السابق (٨٣).

(٢) المصدر السابق (٨٢) .

الخروج إلى المعركة لقتال العدو فجهاد أصغر[١] .

واستدلوا بقول الرسول ﷺ حين رجع من بعض غزواته : « **رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر** »[٢] ، وهو حديث فيه مقال عند علماء هذا الفن[٣] .

يقول ابن الجوزي : « أما بناء الأربطة فإن قومًا من المتعبدين الماضين اتخذوها للانفراد بالتعبد ، وهؤلاء إذا صح قصدهم فهم على خطأ من ستة أوجه : وقال منها : أنهم تشبهوا بالنصارى بانفرادهم بالأديرة ، وأنهم تعذبوا وهم شباب وأكثرهم محتاج إلى النكاح ، وأنهم جعلوا لأنفسهم عَلَمًا ينطق بأنهم زهاد ، فيوجب زيارتهم والتبرك بهم .

وإن كان قصدهم غير صحيح فإنهم قد بنوا دكاكين للكوبة[٤] ، ومناخًا للبطالة ، وأعلامًا لإظهار الزهد ، وقد رأينا جمهور المتأخرين منهم مستريحين في الأربطة من كد المعاش ، متشاغلين بالأكل ، والشرب ، والغناء ، والرقص . . . »[٥] .

وأقول : إن الصوفية في ملازمتهم الأربطة يشبهون الرهبان البوذيين في ملازمتهم الأديرة ، فإن من شروط الرهبنة كما تقدم ذكره ملازمة الأديرة ، بحيث لا يخرجون من حدودها إلا في حالات مخصوصة ، وقد وضعوا نظامًا معينًا

(١) وأيد السهروردي هذا الرأي بحكاية عن بعض الصالحين : أنه كتب إلى أخ (صوفي) له يستدعيه إلى الغزو ، فكتب إليه : يا أخي كل الثغور مجتمعة لي في بيت واحد ، والباب علي مردود ، فكتب إليه أخوه : لو كان الناس كلهم لزموا ما لزمته اختلت أمور المسلمين ، وغلب الكفار ، فلابد من الغزو والجهاد . فكتب إليه : يا أخي لو لزم الناس ما أنا عليه ، وقالوا في زواياهم على سجاداتهم : الله أكبر ؛ انهدم سور القسطنطينية ، « عوارف المعارف » (٨٢) .

(٢) المصدر السابق وأيضًا « معجم المصطلحات الصوفية » (١٠٩) .

(٣) قال الحافظ ابن حجر في « تسديد القوس » : هو مشهور على الألسنة ، وهو من كلام إبراهيم ابن أبي عبلة في « الكنى » للنسائي ، وقال الحافظ العراقي : حديث ضعيف ، انظر « الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة » للسيوطي (١٦٦) رقم (٢٣٣) و« إحياء علوم الدين » (٣/٧) هامش رقم (٢) وانظر أيضًا « كشف الخفاء » (١/ ٥١١ ، ٥١٢) رقم (١٣٦٢) .

(٤) الكوبة وقيل النرد وقيل الطبل .

(٥) « تلبيس إبليس » (١٧٥) .

للحياة فيها ، ويديرها شيخ من شيوخهم كما في الصوفية .

ورد في كتاب « التعاليم للرهبان »[١] :

« لايحسن لجماعة « بيهكشو » المبيت مع الناس (المدنيين) في بيوتهم ومساكنهم ، لأن البيوت لا تصلح إلا لأهلها ، كما أن الأديرة لا تصلح إلا لأهلها ، والراهب « بيهكشو » لا يخلو من حالين ، إما أن يسيح في الأرض ، وإما أن يلازم المعبد والأديرة » .

* * *

---

(١) (ص٩٢) .

المبحث الرابع

في السياحة

إن السياحة عادة من العادات المعروفة لدى الرهبان (بيهكشو) بل هي شرط من شروط رهبانيتهم ، كما تقدم في نصوص : « تري بيتاكا »[١] .

وقد نص هذا الكتاب بأن السياحة الرهبانية قسمان : سياحة خاصة لبعض الرهبان طوال مدة رهبانيتهم ، وسياحة عامة لكل راهب مرة في حياته الرهبانية ، ونص الكتاب بأن المقصود بهذه السياحة هو سياحة النفس لا سياحة الجسم ، وهو تجريد الشهوات عن النفس واستخراج الأثرة والأنانية منها ، وروى عدداً كبيراً من الرهبان المتقدمين الذين يؤثرون التجول والسياحة ، فلا يقيمون في مكان واحد ، ولكن يسيحون في القرى والأرياف ، وفي الغابات ، والكهوف ، والمقابر ، ويقتاتون بما يقدم إليهم الناس ، أو بالنباتات ، والحشائش أحيانًا .

إن السياحة على هذا المنوال معروفة أيضًا عند بعض الصوفية خاصة المتقدمين ، فإن منهم من آثر السفر والسياحة على الإقامة ، فخرج إلى البراري والصحاري والجبال بغير زاد ، وادعى بهذا الفعل التوكل .

قال السهروردي : « اختلفت أحوال مشايخ الصوفية : فمنهم من سافر في بدايته وأقام في نهايته ، ومنهم من أقام في بدايته وسافر في نهايته ، ومنهم من أقام ولم يسافر ، ومنهم من استدام السفر ولم يؤثر الإقامة [٢] وكان على ذلك إلى أن أخرج من الدنيا ، ومن هذا الصنف أبو عبد الله المغربي[٣] وإبراهيم بن

(١) راجع « الآداب والنظم في الرهبنة » .
(٢) « عوارف المعارف» (٨٧) .
(٣) اسمه محمد بن إسماعيل ، كان أستاذ إبراهيم الخواص وتلميذ علي بن رزين ، عاش مائة =

أدهم وغيرهم[١] .

قال أبو الحسن المزين[٢] :

« حكم الفقير أن يكون كل يوم في منزل ، ولا يموت إلا بين منزلين »[٣] .

أي : يكون في سياحة دائمة .

ولسياحة الصوفية مقاصد بيّنها السهروردي ، فقال :

« من جملتها قطع المألوفات ، والانسلاخ من ركون النفس إلىٰ معهود ومعلوم ، واستكشاف دقائق النفوس ، واستخراج رعونتها ودعاويها ، ومنها استماع التسبيح من ذوات الجمادات ، والفهم من لسان حال القطع المتجاورات ، ومنها إيثار الخمول وإطراح حظ القبول »[٤] .

وأخبارهم في ذلك كثيرة منها ما روي عن إبراهيم الخواص[٥] : أنه لا يحمل شيئًا في السفر[٦] ، وأنه ما كان يقيم في بلد أكثر من أربعين يومًا ، وكان يرىٰ أنه إن أقام أكثر من أربعين يومًا يفسد عليه توكله[٧] .

= وعشرين سنة ، كان عجيب الشأن لم يأكل مما وصلت إليه يد بني آدم سنين كثيرة ، وكان يتناول من أصول الحشيش أشياء تعود أكلها . مات (سنة ٢٩٩ هـ) ، انظر ترجمته في « طبقات الصوفية » (٢٤٢) ، و« الرسالة القشيرية » (١/ ١٤١) ، و« حلية الأولياء » (١٠/ ٣٣٥) ، و« صفة الصفوة » (٤/ ٣٣٦) ، و« كشف المحجوب » (١/ ٣٥٩) .

(١) انظر « الرسالة القشيرية » (٢/ ٥٧١) .

(٢) اسمه علي بن محمد من أهل بغداد ، صحب الجنيد وسهل بن عبد الله ، توفي (سنة ٣٢٨ هـ) انظر ترجمته في « طبقات الصوفية » (٣٨٢) ، و« الرسالة القشيرية » (١/ ١٦٩) .

(٣) « اللمع » (٢٥٠) .

(٤) انظر « عوارف المعارف » (٨٧، ٨٨) .

(٥) هو أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد الخواص من أقران الجنيد والنوري . وله في التوكل والرياضات حظ كبير ، مات بالري (سنة ٢٩١ هـ) ، انظر ترجمته في « الرسالة القشيرية » (١/ ١٤٧) ، و« حلية الأولياء » (١٠/ ٣٦٥) ، و« صفة الصفوة » (٤/ ٩٨) ، و« الأعلام » (١/ ٢٨) .

(٦) « الرسالة القشيرة » (٢/ ٥٧١) .

(٧) « عوارف المعارف » (٩٠) .

وحكي عنه أنه مكث في البادية أحد عشر يومًا لم يأكل شيئًا[١] .

وغير هذا من الحكايات التي تحكىٰ في معرض المدح في كتبهم وما أكثرها وأطول بها .

وقد ذهب الغزالي إلىٰ أنّ التوكل له ثلاثة مقامات ، أعلاها : مقام الخواص ونظرائه ، وهو الذي يدور في البوادي بغير زاد ثقة بفضل الله تعالىٰ عليه في تقويته علىٰ الصبر أسبوعًا وما فوقه ، أو تيسير حشيش له أو قوت ، أو تثبيته علىٰ الرضا بالموت إن لم يتيسر شيء من ذلك ، وأدناها : مقام المكتسبين[٢] .

فالصوفية لكي يحققوا المقام الأعلىٰ في التوكل ، يخرجون إلىٰ البوادي والكهوف ، ويسيحون فيها بلا زاد ولا دابة ، إذ الموت جوعًا فيها أعلىٰ مقامات توكلهم .

روىٰ أبو عبد الرحمن السلمي : أن رجلاً قال لأبي عبد الله بن الجلاء :[٣] ما تقول في الرجل يدخل البادية بلا زاد ؟ فقال : هذا من فعل رجال الله عز وجل، قال : فإن مات ؟ قال : الدية علىٰ القاتل[٤] .

وقد عقب ابن الجوزي علىٰ هذا الرواية ، فقال :

« هذه فتوىٰ جاهل بحكم الشرع ، إذ لا خلاف بين فقهاء الإسلام أنه لا يجوز دخول البادية بغير زاد ، وإن فعل ذلك فمات بالجوع فإنه عاص لله

(١) المصدر السابق .
(٢) انظر « إحياء علوم الدين » (٤/ ٢٦٨) (بيان أعمال المتوكلين) .
(٣) اسمه أحمد بن يحيىٰ ، أصله من بغداد ، أقام بالرملة ودمشق وكان من جلة مشايخ الشام ، صحب أبا تراب النخشبي (ت ٢٤٥ هـ) وذا النون المصري (ت ٢٤٥) ، وكان يقال : إن في الدنيا ثلاثة من أئمة الصوفية لا رابع لهم : الجنيد ببغداد ، وأبو عثمان بنيسابور ، وأبو عبد الله ابن الجلاء بالشام ، انظر ترجمته في « طبقات الصوفية » (١٧٦) ، و« حلية الأولياء » (١٠/ ٣١٤) ، و« الرسالة القشيرية » (١/ ١٢٥) ، و« صفة الصفوة » (٢/ ٤٤٣) ، و« كشف المحجوب » (١/ ٣٤٦) .
(٤) « طبقات الصوفية » (١٧٨) وأورده أبو نعيم في « حلية الأولياء » (١٠/ ٣١٤) مع الاختلاف في العبارات .

مستحق لدخول النار »[١] .

وهناك آيات كثيرة ترد على هذا المسلك :

منها قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾[٢] .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾[٣] .

والمسافر يجب أن يحذر بزاده من الموت جوعًا وعطشًا .

فالسياحة الصوفية على هذا الوجه المعروف ليس لها أصل في الكتاب ، ولا في السنة ، ولا فعلها أحد من الصحابة والصالحين ، وإنما هي عادة الرهبان والمتزهدين في الديانات الوثنية كالبوذية وأمثالها .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ وقد سئل عن حكم السياحة :

« فأمّا الإعراض عن الأهل والأولاد فليس مما يحبه الله ورسوله ، ولا هو من دين الأنبياء . . . وكذلك السياحة في البلاد لغير مقصود مشروع كما يعانيه بعض النساك أمر منهي عنه ، قال الإمام أحمد : ليست السياحة من الإسلام في شيء ، ولا من فعل النبيين ولا الصالحين »[٤] .

وفي الحديث عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبي أمامة ، أن رجلاً قال : يا رسول الله ائذن لي بالسياحة ، قال النبي ﷺ : « **إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله** »[٥] .

---

(١) « تلبيس إبليس » (٣٠٠) .

(٢) البقرة : (١٩٥) .

(٣) النساء : (٧١) .

(٤) « مجموع الفتاوى » (١٠/ ٦٤٢ ، ٦٤٣) .

(٥) رواه أبو داود « عون المعبود شرح أبي داود » (٧/ ١٦٤) (رقم ٢٤٦٩) وإسناده حسن ، لأن القاسم هذا تكلم فيه غير واحد كما قاله المنذري في « مختصر أبي داود » (٣/ ٣٥٧) قال الحافظ ابن حجر في « التقريب » : القاسم بن عبد الرحمن الدمشقي صاحب أبي أمامة صدوق يرسل كثيراً من الثالثة مات (سنة اثنتي عشرة) .

أما السياحة التي وصف الله بها المؤمنين في قوله تعالىٰ :

﴿ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ ﴾ الآية [١] ، أو التي وصف بها أزواج الرسول ﷺ في قوله تعالىٰ :

﴿ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴾[٢] ، فالمراد بها الصيام كما قاله العلماء والمفسرون[٣] ولا علاقة بينها وبين السياحة الصوفية المبتدعة .

يقول ابن كثير بعد سرد الروايات في معنىٰ السياحة :

« وليس المراد من السياحة ما قد يفهمه بعض من يتعبد بمجرد السياحة في الأرض ، والتفرد في شواهق الجبال والكهوف والبراري ، فإن هذا ليس بمشروع إلا في أيام الفتن والزلازل في الدين »[٤] .

* * *

(١) التوبة : (١١٢) .

(٢) التحريم : (٥) .

(٣) انظر « تفسير القرآن العظيم » لابن كثير (٤/ ١٥٦ ، ١٥٧) و« الجامع لأحكام القرآن » للقرطبي (٨/ ٢٦٩ ، ٢٧٠) وانظر أيضاً « مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية » (١٠/ ٢٦٣) .

(٤) المصدر السابق (٤/ ١٥٧) .

المبحث الخامس

في التسول وترك الكسب

تقدم في البوذية أنّ الرهبان « بيهكشو» لا يكتسبون ، ولا يحترفون ، وإنما يعيشون بعطاء الناس ، ويقتاتون بما يتسوّلونه منهم ، وهذه عادة معروفة لديهم منذ عهد بوذا إلى اليوم .

والتسول في البوذية كما نص في كتبهم حق شرعي لكل راهب « بيهكشو » ، بصفة تفرغه للرهبانية وانشغاله بها ، أما الكسب فعار عليه أن يقوم به ، والكسب الصالح المناسب لجماعة « بيهكشو » هوالكسب الطاهر وهو التسول كما يقولون[1] .

وقالوا عن فوائد التسول :

١ ـ إن التسول تفريغ البال وقطع الأشغال التي لا تعين على المجاهدة ، فلا حاجة إلى الطبخ ، ولا إلى الحفظ والادخار .

٢ ـ إن التسول يعين للمعطي على نيل الثواب .

٣ ـ إن التسول بسط الرحمة والتعطف على جميع الحيوانات .

٤ ـ إن التسول رياضة نفسية وبدنيّة معًا[2] .

هذا هو التسول عند البوذية وقد تقدم تفصيله .

التسول عند الصوفية :

أما التسوّل عند الصوفية فله أمثلة كثيرة من كبارهم ، وتحكي هذه الأمثلة

---

(١) انظر « قوانين الرهبنة » (١/ ٨٦ ، ٨٧) .

(٢) « تعاليم للرهبان » (٤٤ ، ١٢٣ ، ١٢٤) وأيضًا « بودا دهارما » (١٨٤) .

في كتبهم على سبيل المدح وتحريض الناس على مثل ذلك منها ما روى السهروردي : « أن بعضهم رأى النوري[١] يمد يده ويسأل الناس ، قال : فاستعظمت ذلك منه ، واستقبحته له ، فأتيت الجنيد وأخبرته ، فقال لي : لا يعظم هذا عليك ، فإن النوري لم يسأل الناس إلا ليعطيهم سؤلهم في الآخرة ، فيؤجرون من حيث لا يضره »[٢] .

ونقل عن أبي سعيد الخراز[٣] أنه كان يمد يده عند الفاقة ، ويقول : « ثمّ شيء لله » .

ونقل عن أبي جعفر الحداد[٤] وكان أستاذًا للجنيد : أنه كان يخرج بين العشائين ، ويسأل من باب أو بابين ، ويكون ذلك معلومه على قدر الحاجة بعد يوم أو يومين .

ونقل عن إبراهيم بن أدهم : أنه كان معتكفًا بجامع البصرة مدة ، وكان يفطر في كل ثلاث ليال ليلة ، وليلة إفطاره يطلب من الأبواب »[٥] .

ومنها ما ذكر أبو نصر السراج : أن بعض الصوفية ببغداد لا يكاد أن يأكل شيئًا إلا بذلّ السئوال[٦] .

وذكر عن شيخ من الأئمة : أنه كان يصوم ، ويطلب لإفطاره كسرًا من الأبواب ، ولا يأكل غيرها شيئًا إلى وقت إفطاره من الليلة الثانية[٧] .

---

(١) هو أبو الحسين النوري وقد سبقت ترجمته .
(٢) « عوارف المعارف » (١٠٢) .
(٣) سبقت ترجمته .
(٤) هو أبو جعفر الكبير الصوفي من أقران الجنيد (ت ٣٥٧) ورويم (ت ٣٣٠) وأبي تراب (ت٢٤٩) ، وكان شديد الاجتهاد ، ، معروفًا بالإيثار من رؤساء الصوفية ، انظر ترجمته في« حلية الأولياء » (١٠/ ٣٣٩) و« تاريخ بغداد » (١٤/ ٤١٢) .
(٥) المصدر السابق (٩٩) .
(٦) « اللمع » (٢٥٣) .
(٧) المصدر السابق (٢٥٤) .

وقد زعم بعض الصوفية أن التسول سبب في غفران الله ومرضاته .

روي عن ذي النون المصري قال :

« كان لي رفيق موافق دعاه الله إليه ورأيته في منام فقلت له : ما فعل الله بك؟ قال : غفر لي ، قلت : بأي خصلة؟ قال : أوقفني ، وقال : يا عبدي لقد تحملت كثيراً من الذل والمشقة من السفلة والبخلاء ، ومددت إليهم يدك ، وصبرت في ذلك ، وقد غفرت لك بذلك »[١] .

وقد أجاز الصوفية التسول لعلل ثلاث قالها الهجويري :

الأولى : لفراغ البال .

والثانية : أنهم سألوا لرياضة النفس ، ليحتملوا ذل السؤال ، ويشقوا على أنفسهم ، ويعرفوا قيمة أنفسهم : ماذا يساوون بالنسبة لأي شخص ولا يتكبرون .

وحكى أن الشبلي حين جاء إلى الجنيد قال له : يا أبا بكر إن في رأسك نخوة تجعلك تقول : أنا ابن حاجب حجاب الخليفة وأمير سامرا ، ولن يتأتى منك أمر ما لم تذهب إلى السوق ، وتسأل كل من ترى حتى تعرف قيمة نفسك ، ففعل ذلك ، وكانت سوقه تزداد كساداً كل يوم حتى وصل في نهاية العام إلى درجة أن طاف بالسوق كله فلم يعطه أي أحد شيئًا ، فرجع وأخذ الجنيد بذلك فقال له : يا أبا بكر ، اعرف الآن قيمة نفسك ، إنك لا تساوي لدى الخلق شيئًا فلا تعلق قلبك بهم ، ولا تعتبرهم شيئًا ، وكان هذا للرياضة لا للكسب[٢] .

ومثل هذا ما قال الغزالي في « الإحياء »[٣] وكذلك ما حكاه أبو نصر السراج في « اللمع »[٤] ، وما روي عن أبي سعيد بن أبي الخير في « أسرار التوحيد »[٥] : « فالتسول ذل عند الصوفية ، لذلك يؤدبون أنفسهم به » .

هذا بخلاف البوذية التي اعتبرت التسـول عزاً وشرفًا للرهبان ، ويقولون :

---

(١) « كشف المحجوب » (٢/ ٦٠٥) .
(٢) انظر المصدر السابق (٢/ ٦٠٤ ، ٦٠٥) .
(٣) (٣/ ٦١) .
(٤) (٢٥٣) .
(٥) (٤٩) .

« إن الطعام الذي تسوله راهب (بيهكشو) طعام شرف ، لأنه حق مشروع في مقابل ما اشتغل به من الرهبانية »[١] .

والثالثة : « أنهم سألوا الخلق لحرمة الحق ، فقد أدركوا أن جميع أملاك الدنيا وأموالها له ، وأن الناس جميعًا وكلاءه في الشيء الذي هو نصيبهم ، فرجعوا إلىٰ وكيله ، وسألوه ، وتحدثوا إليه ، ولأن يعرض العبد حاجاته علىٰ الوكيل يكون ذلك أقرب إلىٰ الاحترام والعزة من أن يعرضها علىٰ الله ، فسؤالهم للغير علامة الحضور والإقبال علىٰ الحق ، لا الغيبة والإعراض عن الحق »[٢] .

هكذا قال الهجويري وقد رأىٰ أن لجوء العبد إلىٰ الخلق في حاجاته أفضل من لجوئه إلىٰ الله ، وهو رأي مردود بقوله تعالىٰ في كتابه العزيز :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[٣] .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾[٤] .

آداب التسول عند الصوفية :

وللتسول عند الصوفية آداب يتأدب بها كل متسول ، وقد بينها الهجويري فقال : « فآداب السؤال هي أنه إذا تحقق مقصد لا تكون أكثر سرورًا مما لو لم يتحقق ، ولا ترىٰ الخلق في الوسط ، ولا تسأل النساء ، وأصحاب الأسواق ، ولا تتحدث لسرك إلا لمن يكون ماله موقوفًا علىٰ حلال ، ولا تسأل ما استطعت عن نصيبك ، ولا تجعل منه أسباب تجمل وسيادة ، ولا تصيره ملكك وتكون علىٰ حكم الوقت ، ولا تخطر علىٰ قلبك حديث الغد حتىٰ لا تؤخذ بالهلاك الأبدي ، ولا تربط الله عز وجل علىٰ شرك استجدائك ، ولا تجعل من نفسك عابدًا ليعطوك شيئًا عن طريق ذلك . . . ثم قال : وهذا قليل من كثير مما يشترط

---

(١) « تعاليم للرهبان » (٣٧) وأيضًا « بودادهارما » (١٩٤) .

(٢) « كشف المحجوب » (٢/ ٦٠٥) .

(٣) البقرة : ١٨٦ .

(٤) النساء : ٣٢ .

في هذا الباب[١] .

وقال أبو نصر السراج عن آداب السؤال :

« ومن سأل الضرورة لم يأخذ إلا ما لابد له من ذلك ، فإن أعطوه الكثير فيأخذ منه حاجته ويخرج الباقي »[٢] .

ولا يخفىٰ التشابه بين بعض هذه الآداب وبين آداب التسول التي تقدم ذكرها[٣] .

التسول حقيقة التوكل عند الصوفية :

وقد ذهب الصوفية إلىٰ ما ذهبوا إليه من إيثار التسول والاستجداء لأنهم اعتقدوا أن التكسب ينافي التوكل ، وأن التوكل الحقيقي لا يتم إلا بالقعود وترك العمل والتكسب ، وعلىٰ هذا قال الشبلي : « التوكل كدية حسنة »[٤] .

والكدية كما ورد في « القاموس » : كل ما جمع من طعام أو شراب أو نحوه، والمراد : التسول ، لأن التسول سبيل لما يجمع من الزاد .

ويقال : أكدىٰ أي ألح في المسألة[٥] .

وللمشايخ الصوفية أقوال كثيرة في هذا التوكل وترك الكسب منها : ما روي عن ذي النون المصري قال :

« التوكل ترك تدبير النفس والانخلاع من الحول والقوة »[٦] .

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٦٠٦) .

(٢) « اللمع » (٢٥٤) .

(٣) راجع الآداب والنظم في « الرهبنة البوذية » .

(٤) « التعرف لمذهب أهل التصوف » (١٢١) .

(٥) انظر « لسان العرب » (١٥/ ٢١٦) .

(٦) « اللمع » (٧٨) ، و« عوارف المعارف » (٢٣٧) ، وروىٰ الكلاباذي مثل هذا القول عن سري السقطي ، انظر : « التعرف لمذهب أهل التصوف » (١٢٠) .

وقال : « إذا طلب العارف المعاش فهو لا شيء »[1] .

وروي عن أبي سليمان قال : « من طلب المعاش فقد ركن إلى الدنيا »[2] .

وقال عن التوكل : « لو توكلنا على الله ما بنينا الحائط ولا جعلنا باب الدار غلقًا مخافة اللصوص »[3] .

ومنها ما روي عن سهل بن عبد الله التستري قال :

« من طعن على التكسب فقد طعن على السنة ، ومن طعن على ترك التكسب فقد طعن على التوحيد »[4] .

ففرق بين السنة والتوحيد ، وجعل التكسب من السنة وتركه من التوحيد ، فمن عمل بالسنة فقد خالف التوحيد وأشرك فيه ، وهو تفريق لم يقل به أحد من أهل العلم ، ولا يوجد مثل هذا التفريق إلا في كتب الصوفية[5] .

ومنها : ما روي عن أبي يزيد ، وقد قيل له : ما نراك تشتغل بكسب ، فمن أين معاشك ؟ فقال : مولاي يرزق الكلب والخنزير تراه لا يرزق أبا يزيد ؟[6] .

وغير هذا من الأقوال والحكايات التي تدعو إلى القعود ، والتسول ، والتواكل على الناس .

وقد ذهب الغزالي إلى أن اهتمام الصوفي بالرزق وتركه التوكل غاية في الضعف والقصور ، فإن اشتهاره بسبب ظاهر يجلب الرزق إليه أقوى من دخول الأمصار في حق الخامل مع الاكتساب ، وقال :

« فالاهتمام بالرزق قبيح بذوي الدين ، وهو بالعلماء أقبح ، لأن شرطهم

---

(١) المصدر السابق (٢٦١) .
(٢) « قوت القلوب » (١/ ٢٥٢) ، و« إحياء علوم الدين » (٤/ ٢٢٩) ، وأيضًا (٢/ ٢٤) .
(٣) « حلية الأولياء » (٩/ ٢٥٦) .
(٤) « احياء علوم الدين » (٤/ ٢٧٠) .
(٥) انظر بعض أقوال الصوفية في هذا الصدد في « اللمع » (٢٥٩) و« طبقات الصوفية » (٤١٤ ، ٤١٥) و« حلية الأولياء » (١٠/ ٣٧٨) .
(٦) « عوارف المعارف » (١٠٣) .

القناعة . . . فإن الكسب يمنع عن السير بالفكر الباطن ، فاشتغاله بالسلوك مع الأخذ من يد من يتقرب إلىٰ الله تعالىٰ بما يعطيه أولىٰ ، لأنه تفرغ لله عز وجل وإعانة المعطي علىٰ نيل الثواب»[١] .

وهكذا أصبح التكسب وطلب الرزق عند الصوفية أمرًا قبيحًا يمنع عن السير بالفكر الباطن .

أما القعود في البيوت وانتظار من يدفع إليهم الصدقات فأصبح أمرًا مفضلاً ، بل أصبح حقيقة التوكل عندهم[٢] .

الإسلام دين العمل :

ولا شك أن ما دعا إليه الصوفية مخالف لتعاليم الإسلام الصحيح ، لأن الإسلام دين العمل ، وقد حث القرآن الكريم علىٰ العمل والكسب في آيات كثيرة منها :

قوله تعالىٰ : ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[٣] .

وقوله تعالىٰ : ﴿ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾[٤] .

ومنها قوله تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[٥] .

فربط في هذه الآية بين مقتضيات الحياة في الأرض ، من عمل ، وكد ، ونشاط ، واكتساب ، وبين ذكر الله الذي لابد منه في أثناء ابتغاء المعاش ، وهذا

---

(١) « إحياء علوم الدين » (٤/ ٢٧٥) (بيان توكل المعين) .
(٢) انظر المصدر السابق (٤/ ٢٦٨) (بيان أعمال المتوكلين) .
(٣) القصص : ٧٣ .
(٤) يس : ٣٥ .
(٥) الجمعة : ١٠ .

هو التوازن الرائع الذي تتسم به تعاليم الإسلام .

وقد نهى الإسلام عن السؤال والتسول ما دام المرء قادرًا على الكسب ، وأكد أن اليد العليا خير من اليد السفلى[(١)] وأن خير ما أكل المرء من عمل يده .

ففي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قال : « **ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده** »[(٢)] .

وفي حديث آخر قال : « **لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير من أن يسأل أحدًا فيعطيه أو يمنعه** »[(٣)] .

وهذا الحديث دل على قبح السؤال مع الحاجة ، وحث على الاكتساب ، ولو أدخل على نفسه المشقة ، وذلك لما يدخل السائل على نفسه من ذل السؤال وذلة الرد إن لم يعطه المسئول ، ولما يدخل على المسئول من الضيق في ماله إنْ أعطى كل من يسأل[(٤)] .

وقد نهى الرسول الله ﷺ عن السؤال إلا في أحد ثلاث ، ففي حديث قبيصة بن مخارق الهلالي - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « **يا قبيصة ، إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاث : رجل تحمل حمالة[(٥)] فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك ، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله[(٦)] فحلت له المسألة حتى يصيب قوامًا من**

(١) مقتبس من الحديث الشريف الذي رواه البخاري عن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ : « أفضل الصدقة ما ترك غني ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، وابدأ بمن تعول » ، الحديث انظر «صحيح البخاري» (٣/ ٢٨٦) كتاب النفقات باب وجوب النفقة على الأهل والعيال (رقم ٥٣٥٥) .

(٢) رواه البخاري (٢/ ٦) كتاب البيوع باب كسب الرجل وعمله بيده (رقم ٢٠٧٢) .

(٣) رواه البخاري (٢/ ٦) كتاب البيوع باب كسب الرجل وعمله بيده (رقم ٢٠٧٤) .

(٤) « سبل السلام » (٢/ ٦٣١ ، ٦٣٢) .

(٥) الحمالة : ما يتحمله الإنسان عن غيره من دية أو غرامة . والتحمل : أن يحملها عنهم على نفسه، انظر « النهاية » (١/ ٤٤٢) .

(٦) الجائحة : هي الآفة التي تهلك الثمار والأموال وتستأصلها . واجتاحت : أي أهلكت ، انظر « النهاية » (١/ ٣١١ ، ٣١٢) .

عيش ، ورجل أصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من ذوي الحجا[١] من قومه : لقد أصابت فلانًا فاقة ، فحلت له المسألة حتى يصيب قوامًا من عيش ، فما سواهن من المسألة يا قبيصة سحت يأكلها صاحبها سحتًا »[٢][٣] .

والكسب لا ينفي التوكل كما ظنه الصوفية ، لأن التوكل الصحيح هوالسعي لطلب الرزق بما يقدر عليه العبد ، وتفويضه ما لا يقدر عليه إلىٰ الله تعالىٰ ، والتوكل عمل القلب فلا ينافي حركة الجوارح في التعلق بالأسباب .

وقد كان النبي ﷺ أفضل المتوكلين ، ومع ذلك كان يلبس لأمة الحرب ، ويشاور الأصحاب[٤] ، وكان يتزود لمّا خرج إلىٰ الغار [٥] ، وكان يمشي في الأسواق للاكتساب حتىٰ قال الكافرون كما حدّث عنهم القرآن :

﴿ **مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ** ﴾[٦] .

فلو كان التوكل ترك الأسباب لكان الرسول ﷺ في هذه الأمور قد خرج عن التوكل .

وفي الأثر عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ : « أنه مرّ بقوم من القراء فرآهم جلوسًا قد نكسوا رءوسهم ، فقال : من هؤلاء ؟ فقيل : هم المتوكلون ، فقال : كلا ، ولكنهم المتأكلون يأكلون أموال الناس ، ألا أنبئكم من المتوكل ، فقيل : نعم ، قال : هو الذي يلقي الحبّ في الأرض ثم يتوكّلون علىٰ ربه عز وجل »[٧] .

وهذا هو التوكل الحقيقي المحمود الذي أمر به الشرع ، والذي كان عليه

---

(١) الحجا : العقل ، وذوي الحجا : أي من ذوي العقل ، انظر : « النهاية » (١/ ٣٤٨) .
(٢) السحت : الحرام الذي لا يحل كسبه لأنه يسحت البركة أي يذهبها ، انظر « النهاية » (٢/ ٣٤٥) .
(٣) رواه مسلم (٢/ ٧٢٢) (رقم ١٠٤٤) كتاب الزكاة باب من تحل له المسألة .
(٤) انظر « صحيح البخاري » (٤/ ٢٧٢) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب قوله تعالىٰ : وأمرهم شورىٰ بينهم .
(٥) انظر المصدر السابق (٤/ ٢٠٨) كتاب الحيل باب التعبير وأول ما بدئ به ﷺ من الوحي .
(٦) الفرقان : ٧ .
(٧) « الاكتساب في الرزق المستطاب » لمحمد بن الحسن الشيباني تحقيق محمود عرنوس (٢٤) .

الرسول ﷺ وأصحابه .

أما التوكل الصوفي فما هو إلا توكل على أصحاب الصدقات ، واعتماد على كرمهم وجودهم .

ولا نستبعد أن نشبه هذا النوع من التوكل بتوكل الرهبان (بيهكشو) في البوذية الذين يكسبون قوت يومهم من صدقات الناس ، ويعتمدون عليها في معاشهم ، إذ الاحتراف بأي حرفة في رأيهم ينافي المجاهدة التي يشتغلون بها .

إن هذا النوع من التوكل ينافي عزة الإسلام وأهله ، وإنه كاف لهدم أي مجتمع يقوم على هذا المبدأ .

والإسلام يدعو دائمًا إلى إعمار الأرض لا تعطيلها ، ويدعو إلى السعي والأخذ بالأسباب ، وإلى العمل والقوة ، ولا يدعو يومًا من الأيام إلى الخمول ، والكسل ، والبطالة ، وقد حث الإسلام على العمل للدنيا والآخرة معًا .

قال تعالى :

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ (١) .

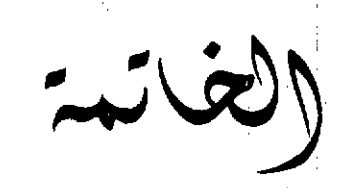
وأكّد أن العمل للدنيا والعمل للآخرة لا يتنافيان ، وعلى هذا مدح الله سبحانه وتعالى المؤمنين ، ووصفهم بأنهم :

﴿ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ﴾(٢) .

* * *

---

(١) القصص : ٧٧ .
(٢) النور : ٣٧ .



خاتمة البحث

وبعد أن منّ الله عليّ بالتمام أرىٰ من المناسب أن أذيل الرسالة بذكر خاتمة للبحث أورد فيها أهمّ النتائج التي توصّلت إليها ، فأقول وبالله التوفيق :

أ ـ ظهرت البوذية كإحدىٰ الاتجاهات الفكرية في الهند في القرن السادس قبل الميلاد ، وقد نشأت بين أحضان البرهمية ، لكنّها أصبحت فيما بعد من أكثر الأديان الهندية أتباعًا في العالم حيث يعتنقها الآن أكثر من خمسمائة مليون نسمة ، وتسود معظم البلاد في جنوب شرقي آسيا .

ب ـ من خلال دراستي لقصّة حياة بوذا ونحلته البوذية أستنتج ما يلي :

١ ـ إن البيئة التي ظهر فيها بوذا بيئة وثنيّة مليئة بالخرافات والضلالات ، وقد سادت الهنود في عصره الديانة البرهمية التي تحتوي علىٰ الكثير من الآلهة والمعتقدات ، وقد قسّمت البرهمية مجتمع الهند إلىٰ طبقات ، ولكلّ طبقة ميزة خاصّة ، وجعلت بين الناس فوارق حادّة ، وطبقة « البراهمة » هي الطبقة العليا التي استبدّت جميع النفوذ والامتيازات ، فقام بوذا بدعوته إلىٰ المساواة ، وإلغاء الطبقات ، وإلىٰ التخلّص من قيود البرهمية كلها .

٢ ـ عاش بوذا عيشة ترف في أسرة ملكية ، ومالت نفسه إلىٰ الزهد بعد أن وقع في نفسه من الهموم والشكوك ، لما رآه في هذا العالم من الآلام والأحزان ، وقد زاد هذا الهمّ في نفسه حتىٰ آلمه ، فرغب في إصلاح المجتمع ، والبحث عن مصدر هذه الآلام والأحزان فترك منزل أسرته إلىٰ الغابات ، وترهّب ، وأخذ يجرّب عدّة تجارب للوصول إلىٰ غايته ، ثمّ أعلن أخيرًا أنّه وصل إلىٰ درجة العلم الأعلىٰ ، ووجد طريق الخلاص الأبدي من سائر الآلام والأحزان وصار «بوذا» أي العارف والمستيقظ .

٣ ـ أعلن بوذا أنه اكتشف الحقائق الأربع للكون والحياة وهي : الألم ، ومصدر الألم ، وإعدام الألم ، والسبيل إلىٰ إعدام الألم ، وادّعىٰ أنه اكتشفها بجهوده الجبارة وتجاربه النفسية المختلفة ، ولم يدّع يومًا من الأيام أنّه نبي أو إله ، لكنّ أتباعه بعده رفعوه إلىٰ درجة الآلهة وقدّسوه إلىٰ أبعد الحدود .

٤ ـ سلك بوذا مسلك غيره من فلاسفة الهنود قبله في النظرة إلىٰ الكون والحياة فقد اعتبر الحياة ألمًا يجب مقاومته والفرار منه ، وأعلن أنّ الطريق إلىٰ ذلك هو إعدام الرغبات النفسيّة كلّها ، لأنّ الرغبات أو الشهوات في زعمه هي السبب لوجود الحياة وتكرارها .

وقد ركّز بوذا تعاليمه كلّها علىٰ إعدام الألم وكيفية التخلّص من الحياة واكتشف ما يسمّىٰ بـ « نرفانا » أو الفناء الكليّ عن النفس وعن الدنيا وما فيها ، وافترض لهذا الفناء نظامًا رهبانيًا يتّبعه كلّ من أراد الوصول إليه من أتباعه .

٥ ـ لم أجد في جميع تعاليم بوذا ما يتحدّث عن الإله والمعاد ، ومن هنا استبعدنا القول بنبوّته ، إنّه لم يعن بالإله وإنما يعنىٰ بالإنسان وحده وأنّه هو الملجأ الصحيح الذي يلجأ الإنسان إليه ، والخلاص عنده عمل شخصي بحت يخصّ الفرد بلا حاجة إلىٰ الالتجاء إلىٰ الإله المنقذ ، وعلىٰ هذا أنكر بوذا معنىٰ التوبة ، والقضاء والقدر ، والمعاد ، فالعالم عنده ما هو إلاّ عجلة تدور معها الولادة والوفاة حتّىٰ أبد الآبدين ، والإنسان تتكرّر ولادته في هذا العالم ما لم تتخلّص أرواحه من أدران الشهوات والرغبات ، أما الأرواح التي تخلّصت منها فإنّها داخلة في « نرفانا » السعادة الأبديّة حسب زعمه .

٦ ـ لقي بوذا نجاحًا كبيراً في دعوة الناس إلىٰ مذهبه ، وأهمّ الأسباب في ذلك هي شخصيّته المثيرة والجذّابة ، ودعوته العالميّة التي لا تحصىٰ بقوم ولا عرق علىٰ عكس ما عرف في الديانة البرهمية المعاصرة له ، كما أنّ دعوته إلىٰ إلغاء نظام الطبقات من أهمّ أسباب نجاح دعوته ، لأنّ أهل الطبقات اعتنقوا البوذية تخلّصًا من سلطان البراهمة ومن اضطهادهم واحتقارهم .

٧ ـ انحطّت البوذية في الهند حينًا من الزمن في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد ، واستردّت البرهميّة قوّتها ، وأوشكت البوذية أن تنهار حتىٰ جاء الملك أشوكا (٢٧٣ ـ ٢٣٢ ق م) فبعث فيها الحياة مرّة أخرىٰ ، وعمل علىٰ نشر البوذية داخل الهند وخارجها ، ومن هذا التاريخ انتقلت البوذية من مذهب هندي إلىٰ دين عالمي ، وأخذت تنتشر في كلّ من سيلان ، وبلاد شرق آسيا ، وفي نيبال ، وتركستان ، وفارس ، وما جاورها من بلاد آسيا الوسطىٰ كما وصلت البعوث البوذية التبشيرية إلىٰ الشام ، والإسكندرية ، واليونان مما يحتمل أن تكون البوذية قد مهّدت السبيل هناك للمسيحية الرومانية لوجود كثير من العلاقات بينهما .

وبعد وفاة الملك أشوكا أخذت البوذية تضمحلّ ببطء حتىٰ أفلت عن الهند موطنها الأصلي تقريبًا في القرنين السابع والثامن بعد الميلاد . وبعد الفتح الإسلامي في أوائل القرن الثامن الميلادي سقطت البوذية نهائيًا في شمال الهند، ولكنّها أخذت طريقها إلىٰ الشرق الأقصىٰ ، إلىٰ كلّ من بورما ، وتايلاند، وكمبوديا ، ولاوس ، وفيتنام ، وأجزاء من الصين ، وكوريا ، ويابان ، وقد سادت البوذية هذه المناطق كلها إلىٰ وقتنا الحاضر كديانة رسميّة لها .

٨ ـ طرأت علىٰ البوذية بمرور الزمن تغيّرات عديدة ، وصبّت فيها روافد من مختلف العقائد والأمم التي اعتنقتها ، وقد كانت البوذية من الرحابة بحيث تتّسع لعقائد كلّ معتنق لها ومتحوّل إليها .

وقد انقسمت البوذية إلىٰ فرق ومذاهب مختلفة ، واختلف كلّ منها في شخصيّة بوذا ، فذهب بعضهم إلىٰ أنّه إله متجسّد هبط إلىٰ العالم لإنقاذه من الشرور ، وذهب الآخرون إلىٰ أنّه بشر ولكنّه بصفته المتخلّص من صفات البشر كان أعلىٰ من الإله ، فيقدّسونه إلىٰ أقصىٰ الحدود ، كما يقدّسون كلّ من سلك مسلك بوذا من القدّيسين ، وعلىٰ هذا فقد تحوّلت البوذية من فلسفة أخلاقية وآداب وسلوك إلىٰ أكثر الديانة آلهة ومعبودات .

جـ ـ ومن خلال دراستي لتعاليم البوذية عمومًا أستطيع أن أستخلص عيوبها فيما يلي :

١ ـ إنّها تقسّم الناس المتديّنين إلىٰ فرقتين : الرهبان والمدنيّين ، وتفرّق بينهما في التديّن حيث توجب علىٰ الرهبان التقيّد والعمل بالآداب والسلوك التي تبلغ (٢٢٧) فقرة ، في حين لم توجب شيئًا علىٰ المدنيّين إلاّ علىٰ سبيل التطوّع ، إنّ هذه التفرقة جعلت المتدينين قطعة من المعبد ، وأدّت إلىٰ وجود طائفة معيّنة من رجال الدين يكتسبون بتديّنهم .

٢ ـ إنّها ألغت الجانب الربّاني والعبادة من تعاليمها ، وهذا يعتبر فراغًا كبيرًا في هذه الديانة ، لأنّ الإيمان بالإله اتجاه فطريّ لا يخلو عنه كلّ إنسان ، وإهمال هذا الاتجاه يحدث اضطرابًا ، وعلىٰ هذا نجد أنّ أتباع بوذا من بعده ملئوا هذا الفراغ ، فألّهوه ووصفوه بصفات إلهية .

٣ ـ إنّ في تعاليمها كثيرًا من التناقضات ، والغموض ، والملابسات ، ومن الأوهام ، والتخيّلات ، يتمثّل ذلك في تعاليم الأخلاق ، وتعاليم « كارما » والتناسخ ، و« نرفانا » ، وهي ككلّ الديانات الوضعية قاصرة في نظراتها لواقع الإنسان والحياة ، وعاجزة عن تحقيق السعادة للناس وعن إصلاح ما فسد من أخلاقهم ، بل العكس أنّها تزيد المنحرف انحرافًا والمفسد فسادًا كما بيّناه .

٤ ـ إنّ ما تدعو إليه البوذية هو قمع الشهوات والرغبات بجميع أنواعها ، ويتمثّل ذلك في الرهبانيات التي وضعتها البوذية لمن أراد الوصول إلىٰ الكمال ، فعلىٰ الإنسان في البوذية لكي يبلغ الكمال أن يتخلّىٰ عن كلّ روابطه ، عن المجتمع ، والأهل ، والملك ، وما أشبه ذلك ، ويعيش حياة الروح والانعزال ، ويتسوّل ولا يعمل ، ويمتنع عن طيّبات الحياة ولذائذها كلّها .

ولا شكّ أنّ هذه الرهبانية مع تعارضها لفطرة البشرية وواقعيتها فإنّها تدعو إلىٰ التخلّف والانحلال والدمار ، كما تتجلّىٰ فيها الأنانية والنزعة العميقة للانفراد ، والاهتمام بالخلاص الفردي أكثر من التشارك مع الغير والجماعة ،

وقد ترتّتب عليها مفاسد كثيرة كما بيّنّاه .

٥ ـ إنّ الإسلام في مقارنات الأديان يختلف عن الأديان جميعًا : الأرضية والمنزّلة ، بأنّه الدين الأخير الذي ظلّت أصوله ومصادره ثابتة موثّقة لم يتطرّق إليها تحريف أو تغيير .

وقد جاء الإسلام بالتوحيد الذي حرّر العقل البشري من جميع الوثنيات ، من عبادة الآلهة الباطلة ، ومن عبادة الفرد ، ومن تقديس الرجال والأبطال ، وما شابه ذلك .

وكان من تكريم الإسلام للإنسان أن اعترف به كلّه كما فطره الله جسمه وروحه وعقله وقلبه وإرادته ووجدانه فلم يغفل حقّ جانب من هذه الجوانب لحساب آخر .

إنّ الإسلام يأخذ دائمًا بفضيلة الوسط لا إفراط ولا تفريط ، فلا يحرّم الرغبة أو الشهوة ، ولكن ينظّمها ، ويدعو إلى ممارستها في إطار الضوابط التي تحمي الطبيعة البشرية من الانهيار والتحلّل .

وعلى هذا فلم يعترف الإسلام بالرهبانية ، ولم يسمح بإنشاء طبقة خاصّة متميزة تسمى بالرهبان أو رجال الدين ، لأن كلّ مسلم رجال الدين وكلهم سواء أمام شرائع الله وأحكامه ، وأنّ الدين جزء من المجتمع وليس منفصلاً عنه .

د ـ ومن خلال دراستي لعلاقة الصوفية بالبوذية تبيّن لي ما يلي :

١ ـ إنّ الصوفيّة فرقة دينية أخلاقية فلسفية تقوم على الزهد والتقشّف والانصراف إلى الروح ، وتعتمد على أنواع من المجاهدات والرياضات ، وذلك للوصول إلى الغاية وهي الاتصال بالذات الإلهية والفناء فيها .

٢ ـ إنّ كلمة « صوفي » أو « تصوّف » لم تكن معروفة في عهد الرسول ﷺ ولا في عهد الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ ولم يسمع استعمال هذه الكلمة

بمعناها المعروف إلا في القرن الثاني الهجري والأرجح أنّه نسبة إلىٰ الصوف لأنّ قدماء الصوفية في الجملة يؤثرون الخشونة ومن مظاهرها لبس الصوف .

٣ ـ نشأت الصوفية في الإسلام في القرن الثاني للهجرة ، وكانت ترتكن علىٰ ركنين أساسيين : الزهد وحبّ الله ، ثمّ تطوّرت بعد ذلك تطوّراً كبيراً وأصبحت فنّا مستقلاً وفكراً مبنيًا علىٰ أصول أعجمية وتأويلات فاسدة للنصوص الشرعية .

وقد ظهرت مجموعة من كبار الصوفية ، واستطاع كلّ منهم أن يقيم له طريقة صوفية خاصّة وأتباعًا مخصوصين ، وانتشرت هذه الطرق الصوفية في أنحاء كثيرة من العالم الإسلامي ، ولا زالت هذه الطرق الصوفية تؤدي دروها في تشويه سمعة الإسلام وإفساد الأمّة الإسلامية في كثير من البلدان في وقتنا الحاضر .

٤ ـ ثبت بالأدلّة التاريخية أنّ هناك مؤثرات خارجية عديدة أثّرت في فرقة الصوفية ، ومن بينها الرهبانية البوذية الهندية ، تلك التي تختلف عن خصائص التصوّر الإسلامي للكون والحياة .

٥ ـ من الأشياء التي تشترك فيها الصوفية والبوذية : الحلول والفناء وصفة الطريق إلىٰ الفناء التي تتمثّل في الرياضات النفسية وأساليب مجاهدة النفس ، كالخروج عن الملك ، والتبتّل ، والجوع ، والصمت ، والخلوة ، وصفة الذكر والمراقبة ، وتشتركان أيضًا في اتخاذ الشيخ وتقديسه ، وفي لبس الخرقة ، والسياحة ، وملازمة الرباط ، وفي التسوّل وترك العمل .

وختامًا نؤكّد بوضوح أنّ التصوّف ليس هو طريق الوصل إلىٰ الله بل هو في الواقع والحقيقة انقطاع أسباب الاتصال بالله وبرسالته في الدنيا والآخرة .

إنّ كتاب الله وسنّة رسوله الكريم ﷺ قد رسمتا الطريق الصحيح للوصول

إلى الله ، ولم يكن الإسلام ينقصه وبخاصّة بعد أن يقول القرآن الكريم قبل وفاة النبي ﷺ : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾[1] .

واللّه أسأل أن يجعل عملنا هذا خالصًا لوجهه الكريم
وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين .

❋ ❋ ❋

(١) المائدة : ٣ .

الفهارس المتنوعة

وتشـــمل :

١ ـ فهرس الآيات القرآنية

الآية	الصفحة
١٠٧ ـ ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنه فاعبدون ﴾	١٦١
١٠٨ ـ ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾	٢٠٢
١٠٩ ـ ﴿ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾	٢٠٠ ـ ٣٨٥
١١٠ ـ ﴿ وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ﴾	١١
١١١ ـ ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ﴾	٤٨٤
١١٢ ـ ﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله ﴾	٤٥٣
١١٣ ـ ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها ﴾	٤٤٨
١١٤ ـ ﴿ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ﴾	٥١٧
١١٥ ـ ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغيرعلم ولا كتاب منير ﴾	١٦٨
١١٦ ـ ﴿ ومن يفعل ذلك يلق أثاماً يضاعف له العذاب ﴾	٢١٢
١١٧ ـ ﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ﴾	١٢٤
١١٨ ـ ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر ﴾	٤٥٩
١١٩ ـ ﴿ وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحمًا طريًا ﴾	١٤٦
١٢٠ ـ ﴿ ويدعوننا رغبًا ورهبًا وكانوا لنا خاشعين ﴾	٤١٥
١٢١ ـ ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة ﴾	٤٩٧
١٢٢ ـ ﴿ يأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحًا ﴾	٢١٥
١٢٣ ـ ﴿ يأيها الذين آمنوا خذوا حذركم ﴾	٥٠٩
١٢٤ ـ ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ﴾	٣٤٣
١٢٥ ـ ﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ﴾	١٤٠
١٢٦ ـ ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾	٥٢٩

٢ ـ فهرس الأحاديث النبوية

الحديث	الصفحة

* * *

٣ ـ فهرس الأعلام والأشخاص

الأعلام والأشخاص	الصفحة

الأعلام والأشخاص	الصفحة

الأعلام والأشخاص	الصفحة

الأعلام والأشخاص	الصفحة
أبو عبد الرحمن السلمي	٤٥٠
عبد القاهر البغدادي	٤٨٠
عبد الكريم الجيلي	٤١٣
عبد الله بن الجلاء	٥٠٨
عبد الله التستري	٤٣٢
أبو عبد الله المغربي	٥٠٦
عبد الواحد بن يزيد	٣٨٥
عبد الوهاب الشعراني	٤٨١
عثمان بن مظعون	٣٤٥
ابن عربي (محيي الدين)	٤٢٣
ابن عطاء الله السكندري	٤١٨
عطاء السلمي	٤١٤
العقاد (عباس محمود)	١٤٧
أبو علي الجوزجاني	٤٠٩
علي زيعور	١٧
علي بن أبي طالب	٢٤٦
علي بن محمد الدخيل الله	٤٦٨
عمر بن الخطاب	١٦
عمرو بن العاص	٤٣٠
عيسىٰ عليه السلام	٢٩٠ـ٤٩٢

* * *

٤ ـ فهرس البلدان والأماكن

البلدان والأماكن	الصفحة

البلدان والأماكن	الصفحة

البلدان والأماكن	الصفحة

٥ ـ فهرس المراجع

١ ـ المراجع العربية

١ ـ القرآن الكريم .

٢ ـ أبو حامد الغزالي والتصوف : عبد الرحمن دمشقية ، دار طيبة للنشر والتوزيع الرياظ (ط / ١ ، ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦م) .

٣ ـ « إحياء علوم الدين » : أبو حامد محمد بن محمد الغزالي (ت : ٥٠٥هـ)، دار المعرفة بيروت (١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٩ م)

٤ ـ « الآداب العربية في شبه القارة الهنـديـة » د/ زبيد أحمد ـ ترجمة د/ عبد المقصود محمد شلقامي .

٥ ـ « الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة » : عبد القادر شيبة الحمد ، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .

٦ ـ « أديان الهند الكبرىٰ » : د / أحمد شلبي ، مكتبة النهضة المصرية ، (ط / ٤ ، ١٩٧٦ م) .

٧ ـ « أسرار التوحيد في مقامات الشيخ أبي سعيد » : محمد بن المنور بن أبي سعيد بن طاهر بن أبي سعيد بن أبي الخير ، ترجمة : إسعاد عبد الهادي قنديل ، الدار المصرية للتأليف والنشر ، بدون تاريخ .

٨ ـ « الإسلام والدعوات الهدّامة » : أنور الجندي ، دار الكتب اللبناني - بيروت ، بدون تاريخ .

٩ ـ « الإسلام والفلسفات القديمة » : أنور جندي ، دار الاعتصام ، بدون تاريخ .

١٠ ـ « أسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب » : الشيخ محمد بن السيد درويش الشهير بالحوت البيروتي . (ت ٢٧٦ هـ) مطعبة مصطفى البابي ـ الحلبي (١٣٤٦ هـ) .

١١ ـ « الأصول والفروع » : لابن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦ هـ) ، دار الكتب العلمية ـ بيروت ، (ط / ١ ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م) .

١٢ ـ « أضواء على التصوف » : د / طلعت غنام ، عالم الكتب ـ القاهرة ، بدون تاريخ .

١٣ ـ « الأعلام » : خير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، (ط/ ٦ ، ١٩٨٤ م) .

١٤ ـ « الاكتساب في الرزق المستطاب » : محمد بن الحسن الشيباني (ت١٨٩هـ) تحقيق محمود عرنوس ، دار الكتب العلمية ـ بيروت (ط / ١ ـ ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م) .

١٥ ـ « الله » : عبّاس محمود العقّاد الطبعة السابعة ، دار المعارف بمصر .

١٦ ـ « الله يتجلى في عصر العلم » : نخبة من العلماء الأمريكيين ، ترجمة ـ د/ الدمرداش عبد المجيد سرحان ، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع ، القاهرة (ط / ٣ ، ١٩٦٨ م) .

١٧ ـ « الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل » ؛ عبد الكريم بن إبراهيم الجيلي (ت ٨٠٥ هـ) مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر (ط/ ٤ ١٤٠٢ هـ / ١٩٨١ م) .

١٨ ـ « البداية والنهاية » : أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي ـ (ت٧٧٤هـ) مكتبة المعارف ـ بيروت ، (ط / ٢ ، ١٩٧٧ م) .

١٩ ـ « بد العارف وعقيدة المحقق المقرب الكاشف وطريق السالك المتبتل العاكف » ؛ ابن سبعين : عبد الحق بن إبراهيم بن محمد (ت ٦٦٩ هـ) ، دار

الأندلس ـ دار الكندي ، بيروت (ط/ ١ ، ١٩٧٨ م) .

٢٠ ـ « بلدان الخلافة الشرقية » : كي لسترنج ، ترجمة بشير فرنسيس كوركيس عواد ، مؤسسة الرسالة ، (ط / ٢ ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ م) .

٢١ ـ « تاريخ أوربا في العصور الوسطى » : د/ سعيد عبد الفتاح عاشور ، دار النهضة العربية ـ بيروت ، (١٩٧٢ م) .

٢٢ ـ « تاريخ بغداد » أو مدينة السلام : للحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ) دار بيروت ، بدون تاريخ .

٢٣ ـ « تاريخ شبه الجزيزة الهندية الباكستانية » : إحسان حقي ، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ، (ط / ١ ، ١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨ م) .

٢٤ ـ « تاريخ الفلسفة في الإسلام » : الأستاذ ت ـ ج ـ دي بور ترجمة محمد عبد الهادي أبوريدة ، دار النهضة العربية ـ بيروت (ط / ٥ ، ١٩٨١ م) .

٢٥ ـ « تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضاراتهم » : (الجزء الأول) : د / أحمد محمد الساداتي ، مكتبة الآداب ـ القاهرة ، بدون تاريخ .

٢٦ ـ « تاريخ الهند الحديث » : د / عادل حسين غنيم ، د / عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (ط / ١ ، ١٩٨٠ م) . مكتبة الخانجي بمصر .

٢٧ ـ « التجانية » : علي بن محمد الدخيل الله ، دار طيبة ـ الرياض ، بدون تاريخ .

٢٨ ـ « تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي » : الإمام الحافظ أبو علي محمد ـ عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري (ت ١٣٥٣ هـ) أشرف على مراجعه ـ أصوله وتصحيحه ـ عبد الوهاب عبد اللطيف الناشر : محمد عبد المحسن الكتبي ، مطبعة المعرفة بالقاهرة ، (ط / ٢ ، ١٣٨٣ هـ/ ١٩٦٣ م) .

٢٩ ـ « التصوف الإسلامي بين الدين والفلسفة » : د / إبراهيم إبراهيم هلال . (ط / ٢١ ١٣٩٥ هـ/ ١٩٧٥ م) دار النهضة العربية ـ القاهرة .

٣٠ ـ « التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق » : د/ زكي مبارك ، دار الجيل ـ للنشر والتوزيع ـ بيروت ، بدون تاريخ .

٣١ ـ « التصوف بين الحق والخلق » : محمد فهر شقفة ، الدار السلفية ، (ط/ ٣ ، ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣ م) .

٣٢ ـ « التصوف الثورة الروحية في الإسلام » : د / أبو العلا عفيفي . القاهرة (١٩٦٣ م) .

٣٣ ـ « التعرف لمذهب أهل التصوف » : أبو بكر محمد الكلاباذي (ت٣٨٠هـ) ، تحقيق : محمود أمين النواوي ، مكتبة كليات الأزهرية ، القاهرة. (ط/ ١ ، ١٣٨٨ هـ/١٩٦٩ م) .

٣٤ ـ « التعريفات » : الشريف علي بن محمد الجرجاني (ت ٨١٦ هـ) ، دار الكتب العلمية ـ بيروت (ط/ ١ ، ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣ م) .

٣٥ ـ « تفسير القرآن العظيم » : ابن كثير : أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت٧٧٤هـ) تحقيق : عبد العزيز غنيم ـ محمد أحمد عاشور ـ محمد إبراهيم البناء . الناشر : الشعب ـ القاهرة .

٣٦ ـ « تلبيس إبليس » : ابن الجوزي : جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي البغدادي (٥٩٧ هـ) ، إدارة الطباعة المنيرية ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت (١٣٦٨ هـ) .

٣٧ ـ « تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث » : عبد الرحمن بن علي بن محمد بن عمر الشيباني (ت ٩٤٤ هـ) دار الكتب العلمية ـ بيروت ، (ط / ٢ ، ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣ م) .

٣٨ ـ « تناسخ الأرواح » : مصطفى الكيك ، منشأة المعارف ـ الإسكندرية ، بدون تاريخ .

٣٩ ـ « تنوير الحوالك شرح موطأ الإمام مالك » : السيوطي : جلال الدين

عبد الرحمن (ت ٩١١ هـ) ، مطبعة مصطفى محمد ، بدون تاريخ .

٤٠ ـ « جامع البيان عن تأويل آي القرآن » : الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ) مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ـ بمصر (ط / ٣ ، ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٦م) .

٤١ ـ «الجامع لأحكام القرآن » : القرطبي : أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري (ت ٦٧١ هـ) ، دار الكتب المصرية ـ القاهرة ، (١٣٧٢ هـ / ١٩٥٢م) .

٤٢ ـ « جغرافية العالم » : (الجزء الأول) : دولت أحمد صادق ـ محمد سيد غلاب ـ جمال الدين الدناصوري ، مكتبة انجلو المصرية (١٩٦٦ م) .

٤٣ ـ « جمهرة الأولياء وأعلام التصوف » : السيد محمود أبو الفيض المنوفي الحسيني ، مؤسسة الحلبي وشركاه ـ القاهرة ، (ط/ ١ ، ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م) .

٤٤ ـ « جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التجاني » : الشيخ علي حرازم بن العربي برادة المغربي الفاسي ـ وبهامشه رماح حزب الرحيم علي نحور حزب الرجيم ، لعمر سعيد النوتي الطوري الكدوي ، الطبعة الأخيرة (١٣٨٠ هـ / ١٩٤٢ م) ، مصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة .

٤٥ ـ « حضارات الهند » : د / غوستاف لوبون ، ترجمة : عادل زعيتر ، دار إحياء الكتب العربية ـ عيسى البابي الحلبي ، (ط / ١ ، ١٣٦٢ هـ / ١٩٤٨م) .

٤٦ ـ « الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، أو عصرالنهضة في الإسلام » : آدم متز ، ترجمة : محمد عبد الهادي أبوريدة ، دار الكتاب العربي الطبعة الخامسة بدون تاريخ .

٤٧ ـ « حلية الأولياء » : أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني (ت٤٣٠هـ)

دار الكتب العلمية ـ بيروت ، بدون تاريخ .

٤٨ ـ « حياة القلوب في كيفية الوصول إلى المحبوب » : عماد الدين الأموي الأسنوي (ت ٧٦٤ هـ) مطبوع على هامش قوت القلوب لأبي طالب المكي ، دار صادر بدون تاريخ .

٤٩ ـ « دراسات في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية وآثار رجالها » : عبده الشمالي ، دار صادر ـ بيروت ، (ط ٥ ، /١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩ م) .

٥٠ ـ « دراسات في الفرق » : د/ صابر طعيمة . مكتبة المعارف ـ الرياض (١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣ م) .

٥١ ـ « الدرر السنية في شروط أحكام وأوراد الطريقة التجانية » : محمد سعد بن عبد الله الرباطابي . مكتبة القاهرة ، (ط / ٢، ١٣٧٥ هـ/ ١٩٥٦ م).

٥٢ ـ « الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة » : جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ) ، تحقيق : خليل محيي الدين الميس ، المكتب الإسلامي ـ بيروت، (ط/ ١ ، ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤ م) .

٥٣ ـ « الدر المنثور في التفسير بالمأثور » : جلال الدين السيوطي ، دار المعرفة للطباعة والنشر ـ بيروت ، بدون تاريخ .

٥٤ ـ « الدعوة إلى الإسلام » : سير توماس . و . آرنولد . ترجمة : د/ حسن إبراهيم حسن ـ د/ عبد المجيد عابدين ـ إسماعيل النحراوي .

مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ، (ط ٣/ ١٩٧٠ م) .

٥٥ ـ « الديانات القديمة » : محمد أبو زهرة ، دار الفكر العربي ـ القاهرة (١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥ م) .

٥٦ ـ « الديانات والعقائد في مختلف العصور » : أحمد عبد الغفور عطار . (ط / ١، ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١ م) مكة المكرمة .

٥٧ ـ « الدين ، بحوث ممهدة لدراسة الأديان » : د / محمد عبد الله دراز

دار القلم ـ الكويت (١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠ م) .

٥٨ ـ « الدين المقارن ، بحث في سائر الديانات العالمية » : محمود أبو الفيض الحسيني ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ـ القاهرة ـ بدون تاريخ .

٥٩ ـ « ذيل الملل والنحل » للشهرستاني : محمد سيد كيلاني . شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر (١٣٨١ هـ/ ١٩٦١م) .

٦٠ ـ « رسائل ابن سبعين » : تحقيق : د/ عبد الرحمن بدوي . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والانباء والنشر ، الدار المصرية للتأليف والترجمة بدون تاريخ .

٦١ ـ « الرسالة القشيرية » : القشيري : أبو القاسم عبد الكريم (ت٤٦٥ هـ) تحقيق : د / عبد الحليم محمود ـ محمود بن الشريف . دار الكتب الحديثة ـ القاهرة بدون تاريخ .

٦٢ ـ « رسالة للشيخ عبد المنعم الحلواني في الرد على الشيخ أحمد الكفراوي » : مطبوع ضمن رسائل في فقه التصوف والذكر . (ط ١٣٦١ هـ / ١٩٤٢م) .

٦٣ ـ « الروح » : ابن القيم : شمس الدين أبو عبد الله بن القيم الجوزية (ت٧٥١هـ) ، تحقيق : محمد إسكندْريلدا ، دار الكتب العلمية ، بيروت (ط١, ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢ م) .

٦٤ ـ « السلسبيل المعين في الطرائق الأربعين » : السيد محمد بن علي السنوسي الخطابي الحسني الإدريسي (ت ١٢٧٦ هـ) ، وزارة الأعلام والثقافة ليبيا (١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٨ م) .

٦٥ ـ « سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها » : محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي ، (ط / ٤ ، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ م) .

٦٦ ـ « سنن ابن ماجه » : محمد بن يزيد بن ماجه القزويني (ت ٢٧٣ هـ) .

تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي - بيروت بدون تاريخ .

٦٧ - « سنن أبي داود » : أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني (ت٢٧٥هـ) تعليق : أحمد سعد علي ، شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، (ط/ ١ ، ١٣٧١ هـ/ ١٩٥٢ م) .

٦٨ - « سنن الترمذي » : محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت ٢٧٩ هـ) ، تحقيق وتخريج وتعليق : محمد فؤاد عبد الباقي ، شركة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر .

٦٩ - « سنن الدارمي » : أبوعبد الله عبد الله بن عبد الرحمن (ت٢٥٥ هـ) دار إحياء السنة النبوية ، بدون تاريخ .

٧٠ - « سيكولوجية الحياة الروحية في المسيحية والإسلام » : د/ محمد جلال شرف - د / عبد الرحمن محمد عيسوي ، منشأة المعارف بالإسكندرية (١٩٧٢ م) .

٧١ - « شرح الشيخ عبد الرزاق القاشاني على فصوص الحكم لمحيي الدين ابن عربي » (ت ٦٣٨ هـ) (ط / ٢ ، ١٣٨٦ هـ/ ١٩٦٦ م) .

٧٢ - « شرح العقيدة الطحاوية » : تحقيق : جماعة من العلماء ، تخريج : محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر بيروت ، (ط/ ٤ ، ١٣٩١ هـ) .

٧٣ - « شفاء العليل ترجمة قول الجميل » شاه ولي الله الدهلوي ، الناشر : مشهور محل - كراتشي - باكستان (١٢٦٠ هـ) .

٧٤ - « شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل » : ابن القيم : شمس الدين أبو عبد الله بن قيم الجوزية (ت ٧٥١ هـ) دار المعارف بدون تاريخ .

٧٥ ـ « صحيح البخاري » : البخاري : أبوعبد الله محمد بن إسماعيل (ت٢٥٦هـ) (بحاشية السندي) ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسىٰ البابي الحلبي وشركاه ـ مصر .

٧٦ ـ « صحيح مسلم » : مسلم : أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦١ هـ) ، تحقيق وتعليق : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسىٰ البابي الحلبي وشركاه .

٧٧ ـ « صحيح مسلم بشرح النووي » : النووي : يحيىٰ بن شرف بن مري الحزامي النووي (ت ٦٧١ هـ) ، المكتبة المصرية وكتبتها ، بدون تاريخ .

٧٨ ـ « صفة الصفوة » : ابن الجوزي : أبوالفرج عبد الرحمن (ت ٥٩٧ هـ) تحقيق : محمود فاخوري ، وتخريج أحاديثه : د/ محمد رواس قلعة جي ، دار المعرفة بيروت (٧/ ٣ ، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ م) .

٧٩ ـ « الصلب والفداء » : د/ محمد توفيق صدقي ، منشأة المعارف بالإسكندرية جلال خوري وشركاه ، بدون تاريخ .

٨٠ ـ « الصلة بين التصوف والتشيع » : د/ كامل مصطفىٰ الشيبي ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية بدون تاريخ .

٨١ ـ « الصوفية في الإسلام » : د/ ر. أ . نيكلسون ، ترجمة : نور الدين شريبة مكتبة الخارجي (١٣٧١ هـ/ ١٩٥١ م) .

٨٢ ـ « طبقات الصوفية » : أبوعبد الرحمن السلمي (ت ٤١٢ هـ) (ط/ نور الدين شريبة) القاهرة ، (١٩٥٣ هـ) .

٨٣ ـ « الطبقات الكبرىٰ » : عبد الوهاب الشعراني (ت ٩٧٣ هـ) القاهرة (١٣١٦ م) .

٨٤ ـ « ظهر الإسلام » : أحمد أمين ، (الجزء الرابع) دارالكتاب العربي بيروت (ط/ ٥ ، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٩ م) .

٨٥ ـ « العقائد الإسلامية » : السيد سابق ، دار الكتاب العربي ـ بيروت ، بدون تاريخ .

٨٦ ـ « العقيدة الإسلامية وأسسها » : عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ، دار القلم ـ دمشق ، (ط/ ٣، ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣ م) .

٨٧ ـ « عقيدة المسلم » : محمد الغزالي ، دار القلم ـ دمشق ، بيروت ، (ط/ ٣ ، ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣ م) .

٨٨ ـ « العقيدة والشريعة في الإسلام » : أجناس جولد تسيهر ، ترجمة وتعليق : د/ محمد يوسف موسى ـ د/ علي حسن عبد القادر ـ عبد العزيز عبد الحق ، دار الكتب الحديثة بمصر ، الطبعة الثانية بدون تاريخ .

٨٩ ـ « العلاقات السياسية والثقافية بين الهند والخلافة العباسية » رسالة ماجستير بجامعة القاهرة / محمد يوسف النجرامي دار الفكر ـ بيروت ، (ط/ ١ ، ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩ م) .

٩٠ـ « عمدة القاري بشرح صحيح البخاري » : العيني : بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد العيني (ت ٨٥٥ هـ) دار الفكر ـ بيروت بدون تاريخ .

٩١ ـ « عوارف المعارف » : السهروردي : أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله بن عمويه ، (ت٦٣٢ هـ) مطبوع ضمن الملحق لكتاب « إحياء علوم الدين » للغزالي ، دارالمعرفة ـ بيروت (١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢ م) .

٩٢ ـ « العوذة للتجسد في المفهوم العلمي الحديث » : عبد العزيز جادو ، منشأة المعارف بالإسكندرية ، بدون تاريخ .

٩٣ ـ « عون المعبود شرح سنن أبي داود » ، مع شرح الحافظ ابن قيم الجوزية ، ضبط وتحقيق : عبد الرحمن محمد عثمان ، (ط٢ ، ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٨ م) ، الناشر : محمد عبد الرحمن ، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة .

٩٤ ـ « الغزالي » : البارون كارادوفو ، ترجمة : عادل زعيتر ، (ط/ ٢ ، ١٩٨٤ م) المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت .

٩٥ ـ « الفتوحات المكية » : محيي الدين بن عربي (ت ٦٣٨ هـ) طبعة بولاق (١٨٧٦ هـ).

٩٦ ـ « فتوح البلدان » : البلاذري : أبو الحسن أحمد بن يحيىٰ (ت ٢٧٩ هـ) تعليق : رضوان محمد رضوان ، دار الكتب العلمية ـ بيروت (١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م) .

٩٧ ـ « الفرق بين الفرق » : عبد القاهر البغدادي (ت ٤٢٩ هـ) ، تحقيق : لجنة إحياء التراث العربي ، دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ، (ط/ ٥ ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٧٢م) .

٩٨ ـ « الفصل في الملل والأهواء والنحل » : ابن حزم : أبو محمد علي بن محمد بن حزم الظاهري (ت ٤٥٦ هـ) ، وبهامشه « الملل والنحل » : الشهرستاني : أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت ٥٤٨ هـ) الناشر : مكتبة الخانجي بمصر ، بدون تاريخ .

٩٩ ـ « الفلسفات الهندية » : د/ علي زيعور ، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، (ط/ ١ ، ١٩٨٠ م) .

١٠٠ ـ « الفلسفة الشرقية » : د/ محمد غلاب ، مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ، الطبعة الثانية ، بدون تاريخ .

١٠١ ـ « الفلسفة الصوفية في الإسلام » : د/ عبد القادر محمود . دار الفكر العربي .

١٠٢ ـ « الفهرست » : ابن النديم : محمد بن إسحق (ت ٣٨٥ هـ) دار المعرفة ـ بيروت ، بدون تاريخ .

١٠٣ ـ « في التصوف الإسلامي وتاريخه » : د/ رينولد . أ . نيكلسون ، ترجمة : د / أبو العلا عفيفي ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة (١٣٦٦ هـ / ١٩٤٧ م) .

١٠٤ ـ « في ظلال القرآن » : سيد قطب ، دار الشروق (ط ٩ ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م) .

١٠٥ ـ « القادياني والقاديانية دراسة وتحليل » : أبو الحسن علي الحسني الندوي ـ الدار السعودية للنشر ، (ط/ ٣ ، ١٣٧٨ هـ / ١٩٦٧ م) .

١٠٦ ـ « قصة الحضارة » : ول ديورانت ، (الجزء الثالث من المجلد الأول) ترجمة : د/ زكي نجيب محمود ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ، (ط/ ٣ ، ١٩٦٨ م) .

١٠٧ ـ « قطر الولي على حديث الولي » : الشوكاني : محمد بن علي (ت ١٢٥٠ هـ) تحقيق وتقديم : د/ إبراهيم إبراهيم هلال ، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ، بدون تاريخ .

١٠٨ ـ « قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد » : أبو طالب المكي (ت ٣٨٦ هـ) ، دار صادر ، بدون تاريخ .

١٠٩ ـ « كتاب البيروني في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة » : البيروني : أبو الريحان محمد بن أحمد (ت ٤٤٠ هـ) ، ومطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد ، الدكن ـ الهند (١٣٧٧ هـ / ١٩٥٨م) .

١١٠ ـ « الكتاب المقدّس » (العهد القديم والعهد الجديد) » : دار الكتاب المقدّس (جمعية الكتاب المقدس سابقًا) ، القاهرة ، بدون تاريخ .

١١١ ـ « كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس » : إسماعيل بن محمد العجلوني (ت ١١٦٢ هـ) ، تعليق : أحمد القلاس (ط / ٤ ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٦٥ م) ، مؤسسة الرسالة ـ بيروت .

١١٢ ـ « كشف المحجوب » : الهجويري : علي بن عثمان (ت ٤٩٢ هـ)،

ترجمة : دكتورة إسعاد عبد الهادي قنديل ، مراجعة : دكتور أمين عبد الحميد بدوي ، دار النهضة العربية ـ بيروت (١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م) .

١١٣ ـ « الكواكب الدرية في تراجم السادات الصوفية » : عبد الرءوف المناوي (ت ١٠٣١ هـ) ، تصحيح وتعليق : محمد حسن ربيع ، (ط/ ١ ، ١٣٥٧ هـ/ ١٩٣٨ م) .

١١٤ ـ « لسان العرب » : ابن منظور الأفريقي المصري (ت ٧١١ هـ) دار صادر ـ بيروت ، بدون تاريخ .

١١٥ ـ « لطائف المنن » : ابن عطاء الله السكندري (ت ٧٠٩ هـ) ، تحقيق : د/ عبد الحليم محمود ، مطبعة حسن ـ القاهرة ، بدون تاريخ .

١١٦ ـ « لطائف المنن والأخلاق في بيان وجوب التحدث بنعمة الله على الأخلاق » : عبد الوهاب الشعراني (ت ٩٧٣) .

١١٧ ـ « اللمع » : أبو نصر السراج الطوسي (ت ٣٧٨ هـ) تحقيق : د/ عبد الحليم محمود ـ طه عبد الباقي سرور ، دار الكتب الحديثة بمصر (١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠ م) .

١١٨ ـ « مجموعة الرسائل والمسائل » : ابن تيمية : شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم (ت ٧٢٨ هـ) ، تحقيق : محمد رشيد رضا ، المنار ، (١٣٤١هـ) .

١١٩ ـ « مجموع الفتاوي » : لشيخ الإسلام ابن تيمية (مجلد ١٠ ، ١١) : جمعها : عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ، وساعده ابنه محمد . (ط/ ١ ، ١٣٨١ هـ) مطابع الرياض .

١٢٠ ـ « محاضرات في النصرانية » : محمد أبو زهرة ، دار الفكر العربي (ط/ ٣ ، ١٣٨١ هـ/ ١٩٦٦ م) .

١٢١ ـ « المسند » : أحمد بن محمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ) .

(أ) المكتب الإسلامي ، دار صادر ـ بيروت ، بدون تاريخ .

(ب) تحقيق : أحمد محمد شاكر ، دار المعارف بمصر ، (ط/ ٤، ١٣٧٣ هـ/ ١٩٠٤ م) .

١٢٢ ـ « المسيحية » : د/ أحمد شلبي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة (ط / ٧ ، ١٩٨٣ م) .

١٢٣ ـ « المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي » : أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي (ت ٧٧٠ هـ) تحقيق : عبد العظيم الشناوي ، دار المعارف القاهرة ، بدون تاريخ .

١٢٤ ـ « مصرع التصوف أو تنبيه الغبي إلىٰ تكفير ابن عربي » : برهان الدين البقاعي (ت ٨٨٥ هـ) ، تحقيق : عبد الرحمن الوكيل ، دار الكتب العلمية ـ بيروت (١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠ م) .

١٢٥ ـ « معجم مصطلحات الصوفية » : د/ عبد المعنم الحفني ، دار المسيرة بيروت ، (ط / ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠ م) .

١٢٦ ـ « مقارنة الأديان بين اليهودية والإسلام » : د/ عوض الله جاد حجازي دار الطباعة المحمدية ٣٠٠ درب الأتراك بالقاهرة ، (ط/ ٢ ، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١ م) .

١٢٧ ـ « مقدمة ابن خلدون » : عبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) دار الفكر ، بدون تاريخ .

١٢٨ ـ « الملل والنحل » : الشهرستاني : أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (٥٤٨هـ) تصحيح وتعليق : أحمد فهمي محمد ، الناشر : محمود توفيق ، مطبعة حجازي بالقاهرة ، (١٣٦٧هـ/١٩٤٨م) .

١٢٩ ـ منوسمرتي (كتاب الهندوس المقدّس) ترجمة : إحسان حقي ، دار اليقظة العربية ، بدون تاريخ .

١٣٠ ـ « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط

المقريزية » : المقريزي : تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ) (الجزء الثاني) ، دار صادر - بيروت .

١٣١ - « المواهب السرمدية في مناقب النقشبندية » : محمد أمين الكردي ، (ت ١٣٣٢ هـ) ط/ ١ ، ١٣٢٩ هـ ، مطبعة السعادة ، بجوار محافظة مصر .

١٣٢ - « موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية لبلاد السند والبنجاب في عهد العرب » : د/ عبد الله مبشر الطرازي ، تقديم : أبو الحسن علي الحسني الندوي (ط/ ١ ، ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣ م) عالم المعرفة - جدة .

١٣٣ - « الموضوعات » : ابن الجوزي : جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن (ت٥٩٧ هـ) ، تحقيق : عبد الرحمن محمد عثمان ، (ط/ ١ ، ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٨م) ، مكتبة السلفية بالمدينة المنورة .

١٣٤ - « الموطأ » : الإمام مالك بن أنس (ت١٧٩ه) ، تعليق : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي ، (١٣٧٠ هـ/ ١٩٥١ م) . مكتبة السلفية بالمدينة المنورة .

١٣٥ - « نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام » : د/ علي سامي النشار ، دار المعارف القاهرة ، (ط/ ٧ ، ١٩٧٨م) .

١٣٦ - « النهاية في غريب الحديث والأثر » : ابن الأثير : مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري (ت ٦٠٦ هـ) ، تحقيق : محمود محمد الطناحي ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي ، (ط/ ١ ، ١٣٨٣ هـ/ ١٩٦٣ م) .

١٣٧ - « الوجود الحق » : د/ حسن هويدي ، المكتب الإسلامي ، الطبعة الثالثة ، بدون تاريخ .

١٣٨ - « هذه هي الصوفية » : عبد الرحمن الوكيل ، (ط/ ٣ ، ١٩٧٩ م) ، دار الكتب العلمية ، بدون تاريخ .

١٣٩ ـ « الهند تاريخها وتقاليدها وجغرافيتها » : محمد مرسي أبو الليل ، مؤسسة سجل العرب ـ القاهرة (١٩٥٦ م) .

١٤٠ ـ « الهند القديمة حضاراتها ودياناتها » : د/ محمد إسماعيل الندوي ، دار الشعب ، بدون تاريخ .

١٤١ ـ « الهند عقائدها وأساطيرها » : عبد الرحمن حمدي ، دار المعارف ـ القاهرة ، (١٩٧٨ م) .

١٤٢ ـ « اليهودية » : د/ أحمد شلبي ، (ط/ ٧ ، ١٩٨٣ م) ، مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة .

* * *

٢ ـ المراجع الأجنبية

أ ـ المراجع باللغة التايلاندية :

١ ـ « الأديان الحيّة في العالم » : الدكتور فراموت الطبعة الثالثة (٢٥٢٢ب = ١٩٧٩ م) . مكتبة باناخار بانكوك .

٢ ـ « أصول البوذية » : سانج جانترا راغام . الطبعة الثالثة (٢٥٢١ ب = ١٩٧٨ م) مكتبة باناخار بانكوك .

٣ ـ « بوذية مهايان » : أريان بيهكشو . الطبعة الرابعة (٢٥٢٢ ب = ١٩٧٩م) المجلس الأعلى لطبع الكتب البوذية ونشرها في تايلاند (درهاما بوشا) .

٤ ـ « بين البوذية والنصرانية في رأينا » : راجاوارامونى . الطبعة الثانية (٢٥٢٣ ب = ١٩٨٠ م) . مكتبة باناخار بانكوك .

٥ ـ « تاريخ الأديان » : سوشيب بونيا نوباب . الطبعة الرابعة (٢٥٢٦ ب = ١٩٨٣ م) . مكتبة روم سات ، بانكوك .

٦ ـ « تاريخ انتشار البوذية في العالم » : سوشيب بونيا نوباب . الطبعة الخامسة (٢٥٢٤ ب = ١٩٨١ م) ، المؤسسة لإحياء البوذية في تايلاند .

٧ ـ « تاريخ انتشار البوذية في الأقطار » : الدكتور واسين انتاسارا . الطبعة الأولى (٢٥٢٥ ب = ١٩٨٢ م) . مكتبة باناخار ، بانكوك .

٨ ـ « تاريخ بوذا الجديد » : الدكتور ساتين بانتارانج سي . مكتبة أودين ساتور . بدون تاريخ .

٩ ـ « تاريخ بوذا والبوذية » : بوذتات بيهكشو . الطبعة السادسة (٢٥٢٢ ب

= ١٩٧٩ م) الجامعة البوذية « مها مونج كوت راجا فيد يالي » (مهاتات) بانكوك . " Mahamongkot Buddhist University "

١٠ ـ « تاريخ الديانة البوذية » : واشيرايان واورورت . الطبعة الثالثة والثلاثون (٢٥٢٠ ب = ١٩٧٧ م) . الجامعة البوذية « مها مونج كوت راجافيد يالي » (مهاتات) بانكوك .

١١ ـ « تاريخ الفلسفة البوذية وتطوّرها » : الدكتور ساماخ بوراوات . الطبعة الأخيرة (٢٥١٣ ب = ١٩٧٠ م). مكتبة بري بيتايا . بانكوك .

١٢ ـ « تري بيتاكا » (الكتاب المقدّس في البوذية) . الطبعة السابعة (٢٥٢٦ب = ١٩٨٣ م) . الجامعة البوذية « مها مونج كوت راجا فيديا لي » (مهاتات) بانكوك .

١٣ ـ « تعاليم للرهبان » : بوذتات بيهكشو . الطبعة العاشرة (٢٥١٨ ب = ١٩٧٥ م) . المجلس الأعلىٰ لطبع الكتب البوذية ونشرها (دهارما بوشا) بانكوك .

١٤ ـ « التفسير الجديد لعقيدة التناسخ » : بوذتات بيهكشو . الطبعة الأولىٰ (٢٥٢٧ ب = ١٩٨٤ م) . المجلس الأعلىٰ لطبع الكتب البوذية ونشرها (دهارمابوشا) بانكوك .

١٥ ـ «الحياة بعد الموت» : يوجي راما جاراكا . ترجمة سيري بودها سوك . الطبعة الثالثة (٢٥٢٦ ب = ١٩٨٣ م) المعهد للبحوث الروحيّة في تايلاند .

١٦ ـ « دراسات في الديانة البوذية » (الكتاب الأوّل) : ديش تول واتانا . المجلس الأعلىٰ لطبع الكتب البوذية ونشرها (دهارما بوشا) بدون تاريخ .

١٧ ـ « سمادهي عند بوذا » : بوذتات بيهكشو . الطبعة السادسة (٢٥١٩ ب = ١٩٧٦ م) الجامعة البوذية « مها مونج كوت راجا فيديالي » (مهاتات) .

١٨ ـ « الفلسفة البوذية » : بودهي ناندا . الجامعة البوذية « مها مونج كوت

راجا فيديالي » (مهاتات) عام (٢٥١٠ ب = ١٩٦٧ م) .

١٩ ـ « الفلسفة الهندية » : ترجمة سانان شايا نوكول . طبعة عام (٢٥١٣ ب = ١٩٧٠ م) . الجامعة البوذية « مهاجولا لونج كون راجا فيديالي » بانكوك . " Mahachula Buddhist University " .

٢٠ ـ « قاموس المصطلحات البوذية » : راجا وارامونى . الطبعة الثانية (٢٥٢٧ ب = ١٩٨٤ م) . الجامعة البوذية « مهاجولا لونج كون راجا فيديالي » بانكوك .

٢١ ـ « قانون كارما » : بانياناندا . طبعة عام (٢٥٢٥ ب = ١٩٨٢ م) مكتبة « أم نوي سات » بانكوك .

٢٢ ـ « قصة بوذا » : لجنة كبار الرهبان البوذيين في تايلاند .

الطبعة الأربعون (٢٥٢٢ ب = ١٩٧٩ م) . الجامعة البوذية « مها مونج كوت راجا فيديا لي » (مهاتات) بانكوك .

٢٣ ـ « قوانين الرهبنة » : اشترك في تأليفه جماعة من كبار الرهبان في تايلاند وسيلان وبورما . الطبعة الخامسة والعشرون (٢٥٢٤ ب = ١٩٨٠ م) . الجامعة البوذية « مها مونج كوت راجا فيديا لي » (مهاتات) .

٢٤ ـ « كيف تبعث الموتى ؟ » : بون مي ميتانج كون . الطبعة الرابعة عشر (٢٥٢٣ ب = ١٩٨٠ م) مؤسسة « أبيدارما » (شيتوبون آرام) بانكوك . " Shetupon Aram " .

٢٥ ـ « لبّ البوذية » : بودهي ناندا . الطبعة السابعة (٢٥٢٤ ب = ١٩٨١م) الجامعة البوذية « مها مونج كوت راجا فيديالي » (مهاتات) .

٢٦ ـ « ما هوالصواب والخطأ ؟ » : الدكتور فراموت ، والراهب كيتي ووتو . الطبعة الأولى (٢٥٢٥ ب = ١٩٨٢ م) المؤسسة لإحياء البوذية في تايلاند .

٢٧ ـ « مبادئ عامة في الرياضة النفسية » : بوذتات بيهكشو . الطبعة الرابعة عشر (٢٥٢٣ ب = ١٩٨٠ م) الجامعة البوذية « مها مونج كوت راجا فيديالي » (مهاتات) بانكوك .

٢٨ ـ « المبادئ الهامة في البوذية » : واسين أنتاسارا . الطبعة الثانية (٢٥٢٤ ب = ١٩٨١ م) . مكتبة باناخار ، بانكوك .

٢٩ ـ « مجموعة المصطلحات البوذية » : بين موتوكان . الطبعة الأولى (٢٥٢٤ب=١٩٦١م) مكتبة « كلانج فيديا » بانكوك .

٣٠ ـ « المذاهب البوذية » : ساتين كوسيت ، وناخاباتيب . طبعة عام (٢٥١٦ب = ١٩٧٣ م) . مكتبة « باناخار » بانكوك .

٣١ ـ « المذاهب الهندية الستّة » : سانان شايا نوكول . الطبعة الرابعة (٢٥٢٣ب = ١٩٨٠ م) الجامعة البوذية « مهاجولا لونج كون راجا فيديالي » بانكوك ـ تايلاند .

٣٢ ـ « مشكلة الألوهية بين البوذية والنصرانية » : ناندا بيهكشو . الطبعة الأولى (٢٥٢٧ب = ١٩٨٤ م) . مكتبة « تين وان » بانكوك .

٣٣ ـ « مقارنة الأديان » : الدكتور ساتين بانتارانج سي . الطبعة الخامسة (٢٥٢٤ب = ١٩٨١ م) . الجامعة البوذية « مها جولا لونج كون راجا فيديا لي » بانكوك .

٣٤ ـ « النبيّ المتنبّأ به » : بانجونج بن كاسن . الطبعة الأولى (٢٥٢٦ب = ١٩٨٣ م) . جمعية « الجهاد » بانكوك .

٣٥ ـ « نرفانا » : بوذتات بيهكشو . طبعة (عام ٢٥٢٤ ب ١٩٨١ م) . المجلس الأعلى لطبع الكتب البوذية ونشرها في تايلاند (دهارمابوشا) .

٣٦ ـ « النظر من الداخل » : بانيا ناندا . نشره المجلس الأعلى لطبع الكتب البوذية ونشرها في تايلاند بدون تاريخ .

ب ـ مرجعان باللغة البالية هما :ـ

٣٧ـ « الأخلاق البوذية الخمسة » : تانيت يوبودهي . طبعة عام (٢٥٢٦ب = ١٩٨٣ م) . الجامعة البوذية « مها مونج كوت راجا فيديا لي » (مهاتات) .

٣٨ـ « بودها دهارما » : بانياناندا . الطبعة الخامسة (٢٥٢٥ب = ١٩٨٢م) المجلس الأعلى لطبع الكتب البوذية ونشرها في تايلاند (دهارما بوشا) .

جـ ـ مرجع واحد باللغة الملايويه وهو :ـ

٣٩ـ « سير السالكين في طريقة السادات الصوفية » : الشيخ العارف بالله عبد الصمد الفلمباني (ت١١١٢هـ) . المطبعة الإسلامية بسنغافور بدون تاريخ .

د ـ المراجع باللغة الإنجليزية :

40-Buddhism in middle Asia : Prof . Satian buddhinandha Mahamongkot Buddhist University Bangkok 2522 B. E 1979 A . D

41-Buddhism in Siam : D .r Shashawal srijandra . Mahamongkot University Bangkok 2525 B . E 1982

42-Introduction to indian philosophy D . r Satischandra chatterjee , and D . r Dhirendramohan datta . Mahachula Buddhist University Bangkok 25 I 9 B . E 1976 A . D .

43-The new Encyclopaedia Britannica . Volume 2 Heoen Hemigway Ben ton ' Publisher 1973 - 1974 London .

44-The way to happiness : Mahasisadaya Bhikshu " Dhaema busha " Bangkok Thailand .

* * *

Abstract

With the help of Allah, I have finished this writing and I am grateful indeed to conclude the following as the conclusions of my research. There are as follows:

A. That Buddhism appeared with special religious concepts in 600 BC India. It originated and developed in Brahminic atmosphere later becoming one of the Indian religions with world wide followers numbering approximately 500 million people. Majority of Buddhists reside in Southeast Asia today.

B. In my study of the biography of Lord Buddha, I learned the following:

1. The Lord Buddha lived in an idolatrous environment, full of superstitious belief leading to suffering and religious perplexity. Brahmanism with its belief in myriad controlled the Indian people's lives. It had divided Indian society along caste lines each with its own characteristics and with sharp differences among them. In fact, the Brahmins constitute the highest caste full power of religious influence. In responding to this religious injustice Lord Buddha called for upholding of human equality, demolishing of the castes and getting rid of the Brahmins privileges.

2. The Lord Buddha was raised in wealthy royal family living a luxurious life. His real good-self inspired him to find out the real world (zuhd) after he himself has fallen into unhappiness. He was pained by seeing the human suffering in the world. Hence, he tried to find out the source of these pains and unhappiness. In pursuit of which he left his family and practised deep meditation to reach his goal. Finally, he declared that he has reached the highest stage of meditation and found the eternal way out from all pains and unhappiness. Hence, he came to be know as the Buddha, meaning, the knower or the awakened-one.

3. The Lord Buddha declared that he had discovered four facts about the planet and life. They are that there is Suffering *(dukkha)*, the Source or Arising of Suffering (*Samudaya)*, the Cessation of Suffering (*Nirodha)* and the Noble Eightfold Path (*Magga)* to the extinction of suffering. He also claimed that he discovered these lesson through his own deep meditative effort. He never claimed of being a prophet or God. But his followers did, the extent to which they raised him to the level of divine-god and started worshipping him.

4. The Lord Buddha followed his own path different from the other Indian seers before him in pondering about the planet and the meaning of life. He considered it constitute of suffering which must be struggled against and not to be flee from. He said that the way to reach this by destroying self-desire. Because the desire and sexual need—he thought—is the cause of the life and its continuation.

Lord Buddha concentrated his teachings on abolishing suffering and how to end life itself i.e., to discover what is called *Nirvana* meaning end of being and release from the life-cycle in the world as a whole. In order to attain this end (pana') he setup a system of monkhood that could be joined who want to attain the goal of extinction.

5. I did not find in the teachings of the Lord Buddha any discussion about God and the day of judgement (*ma'ad*). We could put aside his mentioning about prophethood. He never paid attention to the question about God but only about human being. He was concerned about finding refuge and asylum for the suffering man. For the Buddha getting rid of all worldly desire and attaining of salvation is an individual effort not dependent upon help from god. For this, the Lord Buddha refused to accept religious concepts such as repentance, fate, destiny and the next destination or the world to come. For, him the existence of the world is an everlasting circling wheel of birth and death in which the man will be repeatedly born as long as he does not get rid of the whirling chain of lust and desire. But the souls which is able to get rid of circling will be able to attain eternal happiness.

6. The Lord Buddha found himself successful in invocating people into his school of religious doctrine- *dhamma*. Adherence to which was not tied to or fixed with belonging to any group nor any nation it was in contrast to the Brahminic notion of caste-bound salvation. It offered an opportunity for getting rid of religious persecution.

7. The popularity and influence Buddhism began waning in the 3rd Century BC as Brahmanism started to make a come back. However, Buddhism witnessed revivalism during the reign of King Ashoka, the Great (232-273 BC), it spread across India and also outside it. It expanded into Persia, Central Asian region of Turkistan, Sri Lanka, Nepal and East Asia making its mark as a universal religion. Buddhist missionaries had also reached Sham (Syria), Alexandria, Greece establishing contact with Catholicism.

After the end of the reign of King Ashoka Buddhism started fading away vanishing from India, its original birth place. The arrival of Islam in India during the 7th and the 8th Centuries AD witnessed the end of Buddhism in north India. Meanwhile Buddhism had started taking roots in the Far Eastern regions of Burma (Myanmar), Thailand, Cambodia, Laos, Vietnam and certain parts of China, Korea and Japan attaining the state of official religion where it exists until today.

8. Buddhism underwent changes with the passage of time. It was influenced by many foreign concepts brought in by new converts from different ethnic backgrounds. In fact, it got divided into different sects and schools each having a different perspective about the message of the Lord Buddha. Some saw him God who came to rid the world of its evils. Others, claimed that he was a human being but greater than God representing par-excellent type of sacredness. People worshipped him considered him as a holy saint.

On this pattern, Buddhism had changed from an ethical and moral into a religion centered around worshipping newly included idols and images.

In my study of Buddhism, I could conclude the following:

1. The Buddhism divided human beings into two groups: the monks and the lay people. Each of them differ in religious observations and practices. The monks have to abide by the 227 rules of monastic life while the laity is required to perform only the voluntary religious activity. These differences make the religionists to be a part of the temple leading to <u>, and this brought</u>

to exist certain group of religious people earning their on religious appearance.

2. Buddhism nullified the divine and its worship it constitutes a big lacuna in this religion. For, belief in god is instinctual or natural to human nature. Overlooking of which creates much difficulty. That is why the followers of the Lord Buddha had filled up deficiency worshipping the Buddha.

3. There are also many contradictions, doubts, misunderstandings and difficulties in the teaching of the Lord Buddha. As represented in the concepts of *Karma* -volitional action, *Samsara* - transmigration of souls, *Nirvana* - enlightenment. Like other man-made religions they lack in bringing real happiness and resolve what has been already abused ethically and morally. Leading its followers to go astray.

4. The Lord Buddha teachings call for curbing of sexual desire and lustful practices. It advocates this by adopting monastic form of life through deserting of society, family, property and so on. He encourages adoption of lonely life, begging and rejecting of the world.

The monastic way of life stands in contradiction to the human instinctiveness and its realities. It calls for backwardness, decaying and damaging of the nature. It also brings in egoism and neglect of duties towards friends and society.

5. In comparative perspective Islam differs from all other religions. It is the final religion, its origins and sources are fixed and affirmed. They have never been disturbed or changed.

Islam presented the concept of "***Tawhîd***" which relieved man from worshipping idols, images, persons, paying homage to sanctuaries, heroes and the like. Among the distinction given to human beings by Islam is that it recognizes the natural disposition of man as created by Allah. Islam never neglects the different but inter-related aspects of human personality and its social relevance.

Islam takes the middle-way, not too extreme and does not ignore the natural needs and desires of mankind. Yet, Islam has put them in a perfect system and form which can protect man from fallen into vain glory. That is why, Islam does not recognize monkhood nor does it allow for the establishing of or giving special privileges to group of religious men or monks. Because, a Muslim is a man who performs his religious duties. And every one is equal in the eye of God. The religion is a part of the society and the two cannot be separated.

C. In my study, I also uncovered the relationship between Sufism and Buddhism as follows:

1. Sufism is a religious system relying on philosophical ethics, aiming at purification through adoption of *zuhd* and *taqashshuf*- ascetic way of life. It stresses on mental training and exercises to reach the goal of the divine level and become a drop of water.

2. *Tasawwuf* or Sufism was non-existent during the time of the Prophet Muhammad (Peace Be Upon Him) and his Companions.

3. Sufism which appeared in the Islam in the 2nd Century AH, concentrated only on two main points: "*Zuhd*" Abstinence and love of Allah. Later on, it developed and grew into large Order becoming an independent art comprising of mysticism which is in contradiction to the Islamic teaching

There appeared groups of great Sufis, each of them produced their special ***Tarîqah*** - Path with disciples. These groups of Sufis have spread to many parts of the Muslim world today. And some of them groups have played significant role in deluding the Muslim Ummah the from the goodness of Islam in one way or another.

4. It has been historically confirmed that Indian-Buddhist monks have influenced the emergence of the Sufi groups. Marking their difference in looking at the Islamic view-point of life.

5. The common elements between Sufism and Buddhism are: 1) *Hulûl* or *Samsara* - transmigration of souls and 2) *Nirvana* or *Fan*â - Extinction requiring engaging in mental exercises and life practices such as giving up of property, marriage, observing of hunger, begging and giving up of the world and so on.

Lastly, I confirm that the Sufism is not the way that brings human being to reach God as taught in true teachings of Islam.